البداية والنهاية

للحافظ عمادِ الدِّين أبى الفداء إسْماعيلَ
ابن عُمَرَ بن كَثيرٍ القُرَشىِّ الدِّمَشْقىِّ
٧٠١ - ٧٧٤ هـ

تحقيق

الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي

بالتعاون مع
مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية
بدار هجر

الجزء الثاني

هجر
للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان

الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م

المكتب : ٤ ش ترعة الزمر - المهندسين - جيزة
☎ ٣٤٥٢٥٧٩ - فاكس ٣٤٥١٧٥٦
المطبعة : ٢ ، ٦ ش عبد الفتاح الطويل
أرض اللواء - ☎ ٣٤٥٢٩٦٣
ص . ب ٦٣ إمبابة

بسم الله الرحمن الرحيم

بابُ ذِكرِ أممٍ أُهلِكوا بعَامَّةٍ

وذلك قبلَ نزولِ التوراةِ ؛ بدليلِ قولِه تعالى[1] : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [القصص : ٤٣] . كما رواه ابنُ جريرٍ وابنُ أبى حاتمٍ ، والبزَّارُ[2] مِن حديثِ عَوفٍ الأعْرابِيِّ ، عن أبى نَضْرَةَ ، عن أبى سعيدٍ الخُدْرِيِّ ، قال : ما أهلَكَ اللَّهُ قومًا بعذابٍ من السماءِ أو مِنَ الأرضِ ، بعدَ ما أُنزِلتِ التَّوْراةُ على وجهِ الأرضِ ، غيرَ القريةِ التى مُسِخوا قِرَدةً ؛ ألم ترَ أنَّ اللَّهَ تعالى يقولُ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ . ورفَعه البزَّارُ فى روايةٍ له ، والأشْبَهُ ، واللَّهُ أعلمُ ، وقْفُه ، فدَلَّ على أنَّ كلَّ أمَّةٍ أُهلِكَتْ بعامَّةٍ ، قبلَ موسى عليه السلامُ .

فمنهم : أصحابُ الرَّسِّ ، قال اللَّهُ تعالى ، فى سورةِ « الفرقانِ »[3] : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ [الفرقان : ٣٨، ٣٩] . وقال تعالى ، فى سورةِ « قٓ »[4] : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ

---

(١) التفسير ٦/ ٢٤٨.

(٢) ابن جرير فى تفسيره ٢٠/ ٨٠، والبزار (٢٢٤٧) موقوفا ، (٢٢٤٨) مرفوعا . وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (١٢٩/٥) إلى ابن أبى حاتم .

وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٨٨: رواه البزار مرفوعا وموقوفا ، ورجالهما رجال الصحيح .

(٣) التفسير ٦/ ١١٩.

(٤) التفسير ٧/ ٣٧٥.

ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [ق: ١٢- ١٤]. وهذا السياقُ والذى قبلَه يدلُّ على أنَّهم أُهْلِكوا، ودُمِّروا، وتُبِّرُوا، وهو الهلاكُ. وهذا يرُدُّ اختيارَ ابنِ جريرٍ؛ مِن أنَّهم أصحابُ الأُخْدودِ، الذين ذُكِروا فى سورةِ «البروجِ»[١]؛ لأنَّ أولئك، عند ابنِ إسحاقَ، وجماعةٍ، كانوا بعدَ المسيحِ، عليه السلامُ. وفيه نَظَرٌ أيضًا[٢]. وروَى ابنُ جريرٍ[٣]، قال: قال ابنُ عباسٍ: أصحابُ الرَّسِّ أهلُ قريةٍ مِن قُرَى ثمودَ.

[٤]وقد ذكَر الحافِظُ الكبيرُ أبو القاسمِ ابنُ عساكِرَ فى أولِ «تاريخِه»[٥]، عندَ ذكرِ بناءِ دِمَشْقَ، عن «تاريخِ» أبى القاسمِ عُبيدِ[٦] اللَّهِ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ خُرداذبةَ[٧]، وغيرِه، أنَّ أصحابَ الرَّسِّ كانوا بحَضورٍ[٨]، فبعَث اللَّهُ إليهم نبيًّا يقالُ له: حَنْظَلةُ بنُ صَفوانَ. فكذَّبوه وقتَلوه، فسار عادُ بنُ عَوْصِ بنِ إِرَمَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ، بولدِه مِن الرَّسِّ، فنزَلَ الأحقافَ، وأهلَكَ اللَّهُ أصحابَ الرَّسِّ، وانتشَروا فى اليمنِ كلِّها، وفَشَوْا مع ذلك فى الأرضِ كلِّها، حتى نزَل جَيْرُونُ ابنُ سعدِ بنِ عادِ بنِ عَوْصِ بنِ إِرَمَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ دِمَشْقَ، وبنَى مدينتَها، وسمَّاها جَيْرُونَ، وهى إِرَمُ ذاتُ العِمادِ، وليس أعمدةُ الحجارةِ فى موضعٍ أكثرَ منها بدِمَشْقَ، فبعثَ اللَّهُ هودَ بنَ عبدِ اللَّهِ بنِ رَبَاحِ بنِ خالدِ بنِ الخَلودِ[٩] بنِ[٤]

---

(١) انظر تفسير الطبرى ٢٠/ ١٤.

(٢) انظر سيرة ابن هشام ١/ ٣٤- ٣٦.

(٣) فى الأصل، ح: «جريج». والأثر أخرجه ابن جرير فى التفسير ١٩/ ١٣.

(٤ - ٤) سقط من: الأصل، ا.

(٥) تاريخ دمشق ١/ ١٢، ١٣.

(٦) فى ح، م: «عبد».

(٧) فى ح، ص: «جردا»، وفى م: «جرداد». والمثبت من تاريخ دمشق. وانظر ذيل تاريخ بغداد ١٧/ ١١، ١٢. ولسان الميزان ٤/ ٩٦.

(٨) بلدة باليمن من أعمال زبيد. معجم البلدان ٢/ ٢٨٩.

(٩) فى ح، م: «الحلود»، وفى ص: «الجلود». والمثبت من التاريخ.

(١) عادٍ إلى عادٍ - يَعْنِى أولادَ عادٍ - بالأحقافِ ، فكذَّبوه ، وأهلكهم اللَّهُ عزَّ وجلَّ . فهذا يَقتَضى أنّ أصحابَ الرَّسِّ قبلَ عادٍ بدُهورٍ متطاولةٍ . فاللَّهُ أعلمُ (١) .

وروَى ابنُ أبى حاتمٍ (٢) ، عن أبى بكرِ بنِ أبى عاصمٍ ، عن أبيه ، عن شَبيبِ ابنِ بِشْرٍ ، عن عِكْرِمةَ ، عن ابنِ عباسٍ ، قال (٣) : الرَّسُّ بئرٌ بأَذْرَبِيجانَ . وقال الثَّورىُّ ، عن أبى بُكَيرٍ (٤) ، عن عِكْرِمةَ ، قال : الرَّسُّ بئرٌ رَسُّوا فيها نبيَّهم . أى ؛ دفَنوه فيها . وقال ابنُ جُرَيجٍ : قال عِكْرِمةُ : أصحابُ الرَّسِّ بفَلَجٍ ، وهم أصحابُ ياسينَ . وقال قَتادةُ : فَلَجٌ مِن قُرَى اليمامةِ . قلتُ : فإن كانوا أصحابَ ياسينَ ، كما زعَمه عِكْرِمةُ ، [١/١٤٠ظ] فقد أُهْلِكوا بعامَّةٍ ، قال اللَّهُ تعالى فى قصتِهم (٥) : ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ [يس : ٢٩] . وستأتى قصتُهم بعدَ هؤلاء . وإنْ كانوا غيرَهم - وهو الظاهرُ - فقد أُهْلِكوا أيضًا وتُبِّروا . وعلى كلِّ تقديرٍ فيُنافِى ما ذكَره ابنُ جَريرٍ .

وقد ذكَر أبو بكرٍ محمدُ بنُ الحسنِ النَّقَّاشُ ، أنّ أصحابَ الرَّسِّ كانت لهم بئرٌ تَرْوِيهم ، وتَكفِى أرضَهم جميعَها ، وكان لهم مَلِكٌ عادلٌ حَسَنُ السِّيرةِ ، فلمّا مات وَجَدُوا عليه وَجْدًا عظيمًا ، فلما كان بعدَ أيامٍ تَصوَّرَ لهم الشيطانُ فى صورتِه ، وقال : إنى لم أمُتْ ، ولكنْ تغيَّبْتُ عنكم حتى أرى صنيعَكم . ففرِحوا أشدَّ الفَرحِ ، وأمَر بضَرْبِ حِجابٍ بينَهم وبينَه ، وأخبرَهم أنه لا يموتُ أبدًا ،

(١ - ١) سقط من : الأصل ، ا .

(٢) ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٥/ ٧١، وعزاه لابن أبى حاتم .

(٣) بعده فى الأصل : « أصحاب » .

(٤) فى النسخ : « بكر » . والمثبت من التفسير ٦/ ١٢٠ . وانظر تهذيب التهذيب ١٠/ ٨٧، والجرح والتعديل لابن أبى حاتم ٨/ ٢٦٣ .

(٥) التفسير ٦/ ٥٥٧ .

فصدَّق به أكثرُهم ، وافْتُتِنوا به ، وعبَدوه ، فبعَث اللَّهُ فيهم نبيًّا ، وأخبرَهم أنَّ هذا شيطانٌ يخاطِبُهم مِن وراءِ الحجابِ ، ونهاهم عن عبادتِه ، وأمَرهم بعبادةِ اللَّهِ وحدَه لا شريكَ له . قال السُّهَيْلِيُّ[1] : وكان يُوحَى إليه فى النومِ ، وكان اسمُه حَنْظَلَةَ بنَ صَفْوانَ ، فعَدَوْا عليه فقَتَلوه ، وأَلْقَوْه فى البئرِ ، فغار ماؤُها ، وعَطِشوا بعدَ رِيِّهم ويَبِستْ أشجارُهم ، وانقطَعتْ ثمارُهم ، وخَرِبتْ ديارُهم ، وتبدَّلوا بعدَ الأُنسِ بالوَحشةِ ، وبعدَ الاجتماعِ بالفُرْقةِ ، وهلَكوا عن آخرِهم ، وسكَن فى مساكنِهم الجِنُّ والوحوشُ ، فلا يُسمَعُ ببقاعِهم إلا عَزِيفُ[2] الجِنِّ ، وزئيرُ الأُسْدِ ، وصوتُ الضِّباعِ .

فأمّا ما رواه - أعنى ابنَ جريرٍ[3] - عن محمدِ بنِ حُمَيدٍ ، عن سَلَمَةَ ، عن ابنِ إسحاقَ ، عن محمدِ بنِ كعبٍ القُرَظيِّ ، قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « إنَّ أوَّلَ الناسِ يَدخُلُ الجنةَ يومَ القيامةِ العبدُ الأسودُ ؛ وذلك أنَّ اللَّهَ تعالى بعَث نبيًّا إلى أهلِ قريةٍ ، فلم يُؤمِنْ به مِن أهلِها إلا ذلك الأسودُ ، ثُم إنَّ أهلَ القريةِ عَدَوْا على النَّبِيِّ ، فحفَروا له بئرًا ، فألقَوْه فيها ، ثُم أطبَقوا عليه بحَجَرٍ أَصَمَّ » . قال : « فكان ذلك العبدُ يذهبُ فيَحْتَطِبُ على ظهرِه ، ثُم يأتى بحطَبِه فيبيعُه ، ويشترى به طعامًا وشرابًا ، ثُم يأتى به إلى ذلك البئرِ ، فيرَفعُ تلك الصَّخرةَ ، ويُعينُه اللَّهُ عليها ، ويُدْلِى إليه طعامَه وشرابَه ، ثُم يَرُدُّها كما كانت » . قال : « فكان كذلك ما شاء اللَّهُ أن يكونَ ، ثُم إنَّه ذهَب يومًا يحتطِبُ ، كما كان يصنعُ ، فجمَعَ حطَبَه ، وحزَم حُزْمتَه وفرَغ منها ، فلمّا أراد أنْ يَحتمِلَها ، وجَدَ

(١) فى التعريف والإعلام ص ٢١٥- ٢١٨.
(٢) فى الأصل : « غريف » . وعزيف الجن أى صوت الجن . الصحاح (ع ز ف) .
(٣) تفسير الطبرى ١٩/ ١٤، ١٥.

سِنَةٌ ، فاضطَجَع فنام ، فضرَب اللَّهُ على أُذُنِه [١/١٤١و] سبعَ سنينَ نائمًا ، ثُم إنَّه هبَّ ، فتمطَّى وتحوَّل لشِقِّه الآخَرِ فاضطجَعَ ، فضرَب اللَّهُ على أُذُنِه سبعَ سنينَ أخرى ، ثُم إنَّه هبَّ ، واحتمَل حُزْمتَه ، ولا يَحْسَبُ إلا أنَّه نام ساعةً مِن نَهارٍ ، فجاء إلى القريةِ ، فباع حُزْمتَه ، ثُم اشترى طعامًا وشرابًا ، كما كان يصنعُ ، ثُم إنَّه ذَهَب إلى الحفرةِ ، إلى مَوْضِعِها التى كانت فيه ، فالتمسَه فلم يَجِدْه ، وقد كان بدَا لقومِه فيه بَدَاءٌ ، فاستخرجوه ، وآمَنوا به وصدَّقوه » . قال : « فكان نبيُّهم يسأَلُهم عن ذلك الأسودِ : ما فعل؟ فيقولون له : ما ندرِى . حتى قبَض اللَّهُ النبيَّ ، عليه السلامُ ، وأَهَبَّ الأسودَ مِن نومِه بعدَ ذلك » . فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « إنَّ ذلك الأسودَ لَأَوَّلُ مَن يَدخُلُ الجنةَ » . فإنّه حديثٌ مُرسلٌ ، ومثلُه فيه نَظَرٌ ، ولعلَّ بَسْطَ قصتِه من كلامِ محمدِ بنِ كعبٍ القُرَظِيِّ . واللَّهُ أعلمُ . ثم قد ردّه ابنُ جريرٍ نفسُه[1] ، وقال : لا يَجوزُ أن يُحمَلَ هؤلاءِ على أنهم أصحابُ الرَّسِّ المذكورون فى القرآنِ . قال : لأن اللَّهَ أخبرَ عن أصحابِ الرَّسِّ أنَّه أهلَكَهم ، وهؤلاء قد بدَا لهم فآمَنُوا بنبيِّهم ، اللهمَّ إلا أن يكونَ حدثَت لهم أحداثٌ ، آمَنُوا بالنبيِّ بعدَ هلاكِ آبائِهم . واللَّهُ أعلمُ . ثم اختار أنَّهم أصحابُ الأُخدودِ ، وهو ضعيفٌ ؛ لِمَا تقدَّمَ ، ولِما ذُكِر فى قصةِ أصحابِ الأُخدودِ ، حيث تُوُعِّدوا بالعذابِ فى الآخرةِ إن لم يتوبوا ، ولم يُذْكَرْ هلاكُهم ، وقد صُرِّح بهلاكِ أصحابِ الرَّسِّ . فاللَّهُ أعلمُ .

---

(١) فى تفسيره ١٩/ ١٥.

قصةُ قومِ يس[1]

وهم[2] أصحابُ القريةِ

قال اللَّهُ تعالى[3] : ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا

---

(١) هذه القصة ساقطة من : ا.

(٢) فى الأصل ، ح : « ومنهم » .

(٣) التفسير ٦/ ٥٥٤- ٥٥٩.

صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ [١٤١/١ظ] خَٰمِدُونَ ﴾ [يس: ١٣- ٢٩]. اشتَهر عن كثيرٍ من السلفِ والخلفِ أنَّ هذه القريةَ أَنْطَاكِيَةُ. رواه ابنُ إسحاقَ، فيما بلَغه عن ابنِ عباسٍ، وكعبِ الأحبارِ، ووهبِ بنِ مُنَبِّهٍ[١]. [٢]وكذا رُوِى عن بُرَيْدَةَ ابنِ الحُصَيْبِ، وعِكْرِمَةَ، وقَتادةَ، والزُّهرىِّ، وغيرِهم[٣]. قال ابنُ إسحاقَ، فيما بلَغه عن ابنِ عباسٍ، وكعبٍ، ووهبٍ[٢] أنَّهم قالوا: وكان لها مَلِكٌ اسمُه أنطيخسُ بنُ أنطيخسَ، وكان يعبدُ الأصنامَ، فبعَث اللَّهُ إليه ثلاثةً من الرسلِ؛ وهم صادقٌ، وصدوقٌ، وشلَومُ[٤]، فكذَّبهم. وهذا ظاهرٌ أنَّهم رسلٌ من اللَّهِ عزَّ وجلَّ. وزعَم قتادةُ أنَّهم كانوا رسلًا من المسيحِ. وكذا قال ابنُ جُرَيْجٍ[٥]، عن وهبِ[٦] بنِ سليمان، عن شُعَيْبٍ الجَبَائِىِّ: كان اسمُ الرَّسولَيْنِ الأَوَّلَيْنِ: شمعونَ ويوحنا، واسمُ الثالثِ بولسَ، والقريةِ أَنْطَاكِيَةَ. وهذا القولُ ضعيفٌ جدًّا؛ لأنَّ أهلَ أَنْطَاكِيَةَ، لمَّا بعَث إليهم المسيحُ ثَلاثَةً مِن الحواريِّين، كانوا أولَ مَدينةٍ آمنَت بالمسيحِ فى ذلك الوقتِ، ولهذا كانت إحدى المدنِ الأربعِ التى يكونُ فيها بطارِقَةُ[٧] النَّصارى؛ وهنَّ أَنْطَاكِيَةُ، والقدسُ، وإسكندريةُ، ورُومِيَةُ. ثُم بعدَها إلى القُسْطنطينيةِ ولم يُهْلَكوا، وأهلُ هذه القريةِ المذكورةِ فى

---

(١) رواه ابن جرير فى تفسيره ٢٢/ ١٥٦، عن ابن إسحاق به.
(٢ - ٢) سقط من: ص.
(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٦١.
(٤) فى تفسير الطبرى: «سلوم».
(٥) فى م: «جرير». وهو تحريف. وانظر التفسير ٦/ ٥٥٤.
(٦) بعده فى م: «عن». والصواب: وهب بن سليمان؛ فإنه يروى عن شعيب الجبائى ويروى عنه ابن جريج. انظر الجرح والتعديل ٩/ ٢٧.
(٧) فى النسخ: «بتاركة». وأصلها كلمة لاتينية «باتريكيوس»، وعربت إلى «بطريق» رسمًا ونطقًا، وكذلك اعتمدها أصحاب المعاجم بالطاء والقاف. انظر الوسيط (ب ط ر). ودائرة المعارف الإسلامية ٧/ ٣١٣.

القرآنِ أُهْلِكوا، كما قال فى آخرِ قصتِها بعد قَتْلِهم صِدِّيقَ المرسَلِين: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ لكنْ إنْ كانت الرسلُ الثَّلاثةُ المذْكورونَ فى القرآنِ، بُعِثوا إلى أهلِ أَنْطاكِيَةَ قديمًا، فكذَّبوهم وأهلكهم اللَّهُ ثُم عُمِرَت بعدَ ذلك، فلمَّا كان فى زمنِ المسيحِ آمَنوا برُسُلِه إليهم، فلا يُمْنَعُ هذا. واللَّهُ أعلمُ. فأمّا القولُ بأنَّ هذه القصةَ المذكورةَ فى القرآنِ هى قصةُ أصحابِ المسيحِ، فضعيفٌ؛ لِمَا تقدَّم، ولأنَّ ظاهرَ سِياقِ القرآنِ يَقْتَضِى أنَّ هؤلاءِ الرسلَ مِن عندِ اللَّهِ[1].

قال اللَّهُ تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا ﴾ يعنى: لقومِك يا محمدُ ﴿ أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ يعنى: المدينةَ ﴿ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٣ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ أى؛ أيَّدناهما بثالثٍ فى الرسالةِ ﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ فردُّوا عليهم بأنَّهم[2] بَشَرٌ مثلُهم، كما قالتِ الأُممُ الكافرةُ لرسلِهم، يَستبعدون أن يَبْعثَ اللَّهُ نبيًّا بَشَريًّا، فأجابوهم بأنَّ اللَّهَ يَعلمُ أنَّا رُسُلُه إليكم، ولو كنا كذَبْنا عليه لعاقَبَنا وانْتقَم مِنَّا أشَدَّ الانتقامِ ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أى؛ إنّما علينا، أن نبلِّغَكم ما أُرْسِلْنا به إليكم، واللَّهُ هو الذى يَهدِى من يَشاءُ، ويُضِلُّ من يشاءُ ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ أى؛ تشاءمْنا بما جئتُمونا به ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ قيل[3]: بالمقالِ. وقيل: بالفِعالِ. ويؤيدُ الأوَّلَ قولُه: ﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ تَوَعَّدوهم [١٤٢/١و] بالقتلِ والإهانةِ. ﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ أى؛ مردودٌ

---

(١) وانظر التفسير ٦/ ٥٥٩.

(٢) فى الأصل: «بأنه».

(٣) سقط من: م.

عليكم ﴿ أَئِن ذُكِّرْتُم ﴾ أى ؛ بسببِ أَنَّا ذكَّرناكم بالهُدى ودعَوْناكم إليه ، تَوَعَّدْتُمونا بالقتلِ والإهانةِ ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ أى ؛ لا تقبَلون الحقَّ ، ولا تريدونه .

وقولُه تعالى : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ يعنى : لنُصرةِ الرُّسلِ ، وإظهارِ الإيمانِ بهم ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ أى ؛ يَدْعونكم إلى الحقِّ المحْضِ ، بلا أُجْرةٍ ولا جِعالَةٍ . ثُم دَعاهم إلى عبادةِ اللَّهِ وحدَه لا شريكَ له ، ونهاهم عن عبادةِ ما سواه ، مِمَّا لا يَنفعُ شيئًا لا فى الدنيا ولا فى الآخرةِ ﴿ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أى ؛ إن تركتُ عبادةَ اللَّهِ وعبدتُ سواه . ثم قال مخاطبًا للرسلِ : ﴿ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾ قيل : فاسْمَعُوا مقالَتى ، واشْهَدوا لى بها عندَ ربِّكم . وقيل : معناه فاسمَعوا يا قومى إيمانى برُسلِ اللَّهِ جَهْرةً . فعندَ ذلك قَتَلوه . قيل : رَجْمًا . وقيل : عَضًّا . وقِيل : وثَبوا إليه وَثْبَةَ رجلٍ واحدٍ فقتلوه . وحكَى ابنُ إسحاقَ[1] عن بعضِ أصحابِه ، عن ابنِ مسعودٍ قال : وَطِئوه بأرجُلِهم حتى أخرجوا قُصْبَه[2] .

وقد روَى الثَّوريُّ ، عن عاصمٍ الأحولِ ، عن أبى مِجْلَزٍ : كان اسمُ هذا الرجلِ حبيبَ بنَ مُرَى . ثُم قيل : كان نَجَّارًا . وقيل : حبَّالًا . وقيل : إسْكافًا . وقيل : قَصَّارًا . وقيل : كان يَتعبَّدُ فى غارٍ هناك . فاللَّهُ أعلمُ . وعن ابنِ عباسٍ : كان حبيبٌ النَّجَّارُ قد أسرَع فيه الجُذامُ ، وكان كثيرَ الصدَقةِ ، قتَلَه قومُه[3] .

---

(١) انظر هذا الأثر وما بعده ، فى تفسير الطبرى ٢٢/ ١٦١.
(٢) فى ح ، م ، ص : « قصبته » . والقُصْب : المعى . النهاية ٤/ ٦٧.
(٣) أخرجه الطبرى فى تفسيره ٢٢/ ١٥٩.

ولهذا قال تعالى: ﴿ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ﴾ يعنى: لمَّا قتلَه قومُه أدخَله اللَّهُ الجنةَ، فلمّا رأى ما فيها مِن النَّضْرةِ والسرورِ ﴿ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ يعنى: لِيؤمنوا بما آمنتُ به، فيحصُلَ لهم ما حصَل لى. قال ابنُ عباسٍ: نصَح قومَه فى حياتِه: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾، وبعد مماتِه: ﴿ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾. رواه ابنُ أبى حاتمٍ[1]. وكذلك قال قَتادةُ: لا تَلْقَى المؤمنَ إلا ناصحًا، لا تَلْقاه غاشًّا، لمَّا عايَن ما عايَن من كرامةِ اللَّهِ قال: ﴿ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ تمنَّى، و[2]اللَّهِ، أن يَعْلَمَ قومُه بما عايَن مِن كرامةِ اللَّهِ وما هجَم[3] عليه. قال قَتادةُ: فلا واللَّهِ، ما عاتَبَ اللَّهُ قومَه بعدَ قَتْلِه ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ [١٤٢/١ظ] أى؛ ما احتَجْنا فى الانتقامِ منهم إلى إنزالِ جندٍ منَ السماءِ عليهم. هذا معنى ما رواه ابنُ إسحاقَ[4]، عن بعضِ أصحابِه، عن ابنِ مسعودٍ. وقال مجاهدٌ، وقتادةُ: وما أَنْزَلَ عليهم جُندًا، أى رسالةً أخرى. قال ابنُ جريرٍ[4]: والأولُ أَوْلَى. قلتُ: وأقوى. ولهذا قال: ﴿ وَمَا كُنَّا

---

(١) التفسير ٦/ ٥٥٧.

(٢) كذا فى النسخ. وفى تفسير الطبرى: «على»، وهو ما رجحه محققو ابن كثير، وانظر التفسير ٦/ ٥٥٧.

(٣) فى م: «هو»، وفى ص: «هم».

(٤) تفسير الطبرى ٢٣/ ١، ٢.

مُنزِلِينَ ﴾ أى ؛ وما كنا نحتاجُ فى الانتقامِ إلى هذا ، حينَ كذَّبوا رُسُلَنا وقَتلوا وَلِيَّنا ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾ .

قال المفسِّرون : بعَثَ اللَّهُ إليهم جبريلَ ، عليه السلامُ ، فأخذ بعِضَادَتَي البابِ الذى لبلدِهم ، ثُم صاح بهم صَيحةً واحدةً ﴿ فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾ : أى ؛ قد أُخْمِدَت أصواتُهم ، وسَكَنَت حركاتُهم ، ولم يَبْقَ منهم عَيْنٌ تَطْرِفُ . وهذا كلُّه مما يدُلُّ على أنَّ هذه القريةَ ليست أَنْطَاكِيَةَ ؛ لأَنَّ هؤلاء أُهلِكوا بتَكْذيبِهم رُسُلَ اللَّهِ إليهم ، وأهلُ أَنْطَاكِيَةَ آمَنوا ، واتَّبَعوا رُسُلَ المسيحِ مِن الحوارِيينَ إليهم ؛ فلهذا قيل : إنَّ أَنْطَاكِيَةَ أوَّلُ مدينةٍ آمنَت بالمسيحِ . فأمّا الحديثُ الذى رواه الطَّبرانىُّ[1] ، مِن حديثِ حُسينِ الأَشْقَرِ ، عن سفيانَ بنِ عُيَيْنةَ ، عن ابنِ أبى نَجيحٍ ، عن مجاهدٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، عن النبىِّ ﷺ قال : « السُّبَّقُ ثلاثةٌ ؛ فالسَّابِقُ إلى موسى يُوشَعُ بنُ نُونٍ ، والسَّابِقُ إلى عيسى صاحِبُ يس ، والسَّابِقُ إلى محمدٍ علىُّ بنُ أبى طالبٍ » . فإنّه حديثٌ لا يَثْبُتُ ؛ لأَنَّ حُسينًا هذا متروكٌ ، وشِيعِىٌّ مِن الغُلاةِ ، وتفرُّده بهذا مِمّا يدُلُّ على ضَعْفِه بالكُلِّيةِ . واللَّهُ أعلمُ .

---

(١) فى المعجم الكبير (١١١٥٢) . وقال الهيثمى فى المجمع ٩/ ١٠٢: فيه حسين بن حسن الأشقر ، وثقه ابن حبان ، وضعفه الجمهور . والحديث ضعيف جدا (السلسلة الضعيفة ٣٥٨) .
وسقط من السند فى النسخة المطبوعة من معجم الطبرانى : « عن ابن أبى نجيح عن مجاهد » .

قصَّةُ يونسَ، عليه الصلاةُ والسلامُ

قال اللَّهُ تعالى فى سورةِ « يونُسَ »[1] : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس: ٩٨]. وقال تعالى فى سورةِ « الأنبياء »[2] : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨]. وقال تعالى فى سورةِ « الصَّافَّاتِ »[3] : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الصافات: ١٣٩- ١٤٨]. وقال تعالى فى سورةِ « نون »[4] : ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ [١/١٤٣و] ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ

(١) التفسير ٤/ ٢٣١، ٢٣٢.
(٢) التفسير ٥/ ٣٦٠- ٣٦٤.
(٣) التفسير ٧/ ٣٣- ٣٦.
(٤) التفسير ٨/ ٢٢٦- ٢٣٤.

مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [القلم: ٤٨- ٥٠]. قال أهلُ التفسيرِ[1] : بعَث اللَّهُ يونسَ ، عليه السلامُ ، إلى أهلِ نِينَوَى ؛ مِن أرضِ المَوْصِلِ ، فدعَاهم إلى اللَّهِ عز وجل ، فكذَّبوه وتمرَّدوا على كفرِهم وعنادِهم ، فلمَّا طال ذلك عليه مِن أمرِهم ، خرَج مِن بينِ أظهرِهم ، ووعَدهم حُلولَ العذابِ بهم بعدَ ثلاثٍ . قال ابنُ مسعودٍ ، ومُجاهدٌ ، وسعيدُ بنُ جُبيرٍ ، وقَتادةُ ، وغيرُ واحدٍ مِنَ السلَفِ والخلَفِ[2] : فلمَّا خرَج مِن بينِ ظَهْرانَيْهِم وتحقَّقوا نزولَ العذابِ بهم ، قذَف اللَّهُ فى قلوبِهم التوبةَ والإنابةَ ، ونَدِموا على ما كان مِنهم إلى نبيِّهم ، فلبِسوا المُسوحَ ، وفرَّقوا بينَ كلِّ بهيمةٍ وولدِها ، ثُم عَجُّوا إلى اللَّهِ عز وجل ، وصرَخوا وتضرَّعوا إليه ، وتَمَسْكَنوا لديه ، وبكَى الرِّجالُ والنساءُ ، والبنونَ والبناتُ ، والأمهاتُ ، وجأَرَتِ الأَنْعامُ والدَّوابُّ والمواشى ، ورَغَتِ الإبلُ وفُصْلانُها ، وخارَتِ البقرُ وأولادُها ، وثَغَت الغَنَمُ وحُمْلانُها ، وكانت ساعةً عظيمةً هائلةً ، فكشَفَ اللَّهُ العظيمُ ، بحولِه وقوتِه ، ورأْفتِه ورحمتِه ، عنهم العذابَ الذى كان قد اتَّصَل بهم سببُه ، ودار على رؤوسِهم كقِطَعِ الليلِ المظلمِ ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ ﴾ أى ؛ هلَّا وُجِدَت فيما سلَف من القرونِ قَرْيةٌ آمنَت بكمالِها . فدلَّ على أنه لم يَقَعْ ذلك ، بل كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤]. وقولُه : ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أى ؛ آمَنوا بكمالِهم . وقد اختلف المفسِّرون ؛ هل ينفعُهم

---

(١) تفسير الطبرى ١٧/ ٧٦، وتفسير القرطبى ٨/ ٣٨٤. تفسير ابن كثير ٥/ ٣٦٠.
(٢) تفسير الطبرى ١١/ ١٧١- ١٧٣، والتفسير ٤/ ٢٣٢.

هذا الإيمانُ فى الدارِ الآخرةِ ، فيُنقِذُهم مِن العذابِ الأُخْرَوِىِّ ، كما أنقذَهم مِن العذابِ الدُّنْيَوِىِّ ؟ على قولَيْنِ ، الأظهرُ من السياقِ : نعم (١ إن شاء اللَّهُ ١) . واللَّهُ أعلمُ . كما قال تعالى : ﴿ لَمَّآ ءَامَنُوا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ وهذا المتاعُ إلى حينٍ لا يَنْفى أن يكونَ معه غيرُه مِن رفعِ العذابِ الأُخْرَوِىِّ . واللَّهُ أعلمُ .

وقد كانوا مائةَ ألفٍ لا محالةَ . واختلَفوا فى الزِّيادةِ ؛ فعن مكحولٍ : عشرةُ آلافٍ . وروَى التِّرمِذىُّ ، وابنُ جريرٍ ، وابنُ أبى حاتمٍ [٢] ، مِن حديثِ زُهَيْرٍ ، عمَّن سَمِع أبا العاليةِ ؛ حدثنى أُبَىُّ بنُ كعبٍ ، أنَّه سأل رسولَ اللَّهِ ﷺ عن قولِه : ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ قال : « يَزيدون عشرين ألفًا » . فلولا هذا الرجلُ المُبْهَمُ لكان هذا الحديثُ فاصلًا فى هذا البابِ . وعن ابنِ عباسٍ : [١/١٤٣ظ] كانوا مائةَ ألفٍ وثلاثين ألفًا . وعنه ، وبِضْعةً وثلاثين ألفًا . وعنه ، وبِضْعةً وأربعين ألفًا . وقال سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ : كانوا مائةَ ألفٍ وسبعين ألفًا [٣] . واختَلفوا ؛ هل كان إرسالُه إليهم قبلَ الحوتِ أو بعدَه ، أو هما أُمَّتانِ ؟ على ثلاثةِ أقوالٍ ، هى مبسوطةٌ فى « التفسيرِ » .

والمقصودُ أنَّه ، عليه السلامُ ، لمَّا ذهَب مُغاضِبًا بسببِ قومِه ، رَكِب سفينةً فى البحرِ ، فلَجَّت بهم واضطَرَبَت ، وماجَت بهم وثَقُلت بما فيها ، وكادوا

(١ - ١) زيادة من : الأصل .

(٢) الترمذى (٣٢٢٩) وقال : حديث غريب . وابن جرير فى تفسيره ٢٣/ ١٠٤، وعزاه فى الدر المنثور ٥/٢٩١ إلى ابن أبى حاتم . ضعيف الإسناد (ضعيف الترمذى ٦٣٣) .

(٣) تفسير الطبرى ٢٣/ ١٠٤، التفسير ٧/ ٣٥.

يَغْرَقون، على ما ذَكَره المفسِّرون[1]، قالوا: فاشتَوَرُوا فيما بينَهم على أن يقْتَرعوا، فمَن وقَعت عليه القُرعةُ ألقَوْه مِنَ السفينةِ؛ لِيَتَخَفَّفُوا[2] منه، فلما اقترعوا وقَعت القرعةُ على نبىِّ اللَّهِ يونُسَ، فلم يَسْمَحوا به، فأعادُوها ثانيةً فوقَعت عليه أيضًا، فشمَّر ليَخلعَ ثيابَه ويُلقىَ بنفسِه، فأبَوْا عليه ذلك، ثم أعادُوا القرعةَ ثالثةً فوقَعت عليه أيضًا؛ لِمَا يريدُه اللَّهُ به مِن الأمرِ العظيمِ، قال اللَّهُ تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ۝١٤١ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ وذلك أنه لمَّا وقَعت عليه القرعةُ، أُلْقِىَ فى البحرِ، وبعَث اللَّهُ، عز وجل، حوتًا عظيمًا من البحرِ الأخضرِ فالتقَمَه، وأمَره اللَّهُ تعالى: أن لا تأْكُلْ له لحمًا، ولا تَهْشِمْ له عظمًا، فليس لك برزقٍ، فأخَذه فطاف به البحارَ كلَّها. وقيل: إنه ابتلَع ذلك الحوتَ حوتٌ آخرُ أكبرُ منه. قالوا: ولما استقرَّ فى جَوفِ الحوتِ، حَسِب أنه قد مات، فحرَّك جوارحَه فتحركَت، فإذا هو حَىٌّ، فخرَّ للَّهِ ساجدًا، وقال: يا ربِّ، اتخذتُ لك مسجدًا لم يَعْبُدْك أحدٌ فى مثلِه.

وقد اختلَفوا[3] فى مقدارِ لُبثِه فى بطنِه؛ فقال مُجالدٌ عن الشَّعْبِىِّ: التقَمه ضُحًى، ولَفَظَه عَشِيَّةً. وقال قَتادةُ: مكَث فيه ثلاثًا. وقال جعفرٌ الصادقُ: سبعةَ أيامٍ. ويَشْهَدُ له شعرُ أُميَّةَ بنِ أبى الصَّلْتِ[4]:

وأنتَ بفضلٍ مِنك نَجَّيْتَ يُونُسًا ... وقدْ باتَ فى أضعافِ حُوتٍ لَيالِيا

---

(١) تفسير الطبرى ١٧/ ٧٦، ٢٣/ ١٩٨، تفسير القرطبى ١٥/ ١٢١، التفسير ٥/ ٣٦٠.

(٢) فى م: «ليتحفظوا».

(٣) انظر تفسير القرطبى ١٥/ ١٢٣. التفسير ٧/ ٣٣.

(٤) ديوان أمية ص ٣٨.

وقال سعيدُ بنُ أبى الحسنِ، وأبو مالكٍ: مكَث فى جَوْفِه أربعينَ يومًا. واللَّهُ أعلمُ كم مقدارُ ما لَبِث فيه.

والمقصودُ أنه لمَّا جعَل الحوتُ يَطوفُ به فى قَرَارِ البحارِ اللُّجِّيَّةِ، ويَقتحمُ به لُجَجَ الموجِ الأُجاجىِّ، فسَمِع تسبيحَ الحيتانِ للرحمنِ، وحتى سَمِع تسبيحَ الحصَى لفالقِ الحَبِّ والنَّوَى، وربِّ السماواتِ السبعِ، والأَرَضِينَ السبعِ، وما بَينَهما[1]، وما تحتَ الثَّرَى، فعندَ ذلك وهنالك قال ما قال بلسانِ [١/١٤٤و] الحالِ والمقالِ، كما أخبرَ عنه ذو العِزَّةِ والجلالِ، الذى يَعْلَمُ السرَّ والنَّجوى، ويَكشِفُ الضُّرَّ والبلوَى، سامعُ الأصواتِ وإن ضَعُفت، وعالمُ الخَفِيَّاتِ وإن دَقَّت، ومُجيبُ الدَّعَواتِ وإن عَظُمَت، حيث قال فى كتابِه المبينِ، المنزَّلِ على رسولِه الأمينِ، وهو أصدقُ القائلين، وربُّ العالمين، وإلهُ المرسَلين: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَـٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ ﴾ أى؛ نضيِّقَ. وقيل: معناه نُقَدِّرُ، مِن التقديرِ. وهى لُغَةٌ مَشْهورةٌ: قدَر، وقدَّر. كما قال الشاعرُ[2]:

فلا عائدٌ ذاكَ الزمانُ الذى مضَى   تباركْتَ ما تَقْدِرْ يَكُنْ فلك الأمرُ

﴿ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ﴾ قال ابنُ مسعودٍ، [3]وابنُ عباسٍ، وعمرُو بنُ[3]

---

(١) فى م: «بينها».
(٢) أورده القرطبى فى تفسيره ١١/ ٣٣٢. ولم يذكر قائله، بل قال: وأنشد ثعلب.
(٣- ٣) سقط من: الأصل.

[(1)] ميمونٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، ومحمدُ بنُ كعبٍ، والحسنُ[(1)]، وقَتادةُ، والضّحّاكُ[(2)]: ظلمةُ بطنِ[(3)] الحوتِ، وظُلمةُ البحرِ، وظُلمةُ الليلِ. وقال سالمُ ابنُ أبي الجَعْدِ: ابتلَع الحوتَ حوتٌ آخرُ، فصار ظُلمةُ الحوتَيْنِ مع ظُلمةِ البحرِ.

وقولُه تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ قيل: معناه؛ لولا أنّه سبّح اللَّهَ هنالك، وقال ما قال مِن التهليلِ والتسبيحِ، والاعترافِ للّهِ بالخضوعِ، والتَّوبةِ إليه، والرجوعِ إليه، لَلَبِث هنالك إلى يومِ القيامةِ، ولَبُعِث مِن جَوفِ ذلك الحوتِ.. هذا معنى ما رُوِي عن سعيدِ ابنِ جُبيْرٍ في إحدى الروايتين عنه[(4)]. وقيل: معناه: فلولا أنّه كان مِن قبلِ أَخْذِ الحوتِ له مِن المسبّحين أي؛ المُطيعينَ المصلينَ الذاكرينَ اللَّهَ كثيرًا. قاله الضحاكُ بنُ قَيْسٍ، وابنُ عباسٍ، وأبو العاليةِ، ووهْبُ بنُ مُنبِّهٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، والضَّحّاكُ[(5)]، والسُّدّيُّ، وعطاءُ بنُ السائبِ، والحسنُ البصريُّ، وقَتادةُ، وغيرُ واحدٍ. واختاره ابنُ جَريرٍ[(6)]. ويَشْهَدُ لهذا ما رواه الإمامُ أحمدُ وبعضُ أهلِ السُّنَنِ[(7)]، عن ابنِ عباسٍ، أن رسولَ اللَّهِ ﷺ: قال لي: «يا غلامُ، إنّي مُعلمُك كلماتٍ؛ احفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احفظِ اللَّهَ تَجِدْه تُجاهَك، تَعرَّفْ إلى اللَّهِ في الرَّخاءِ يَعْرِفْكَ في الشِّدَّةِ». وروَى ابنُ جَريرٍ في «تفسيرِه»،

(١- ١) سقط من: الأصل.
(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٨٠. والتفسير ٥/ ٣٦١.
(٣) زيادة من: ا.
(٤) تفسير الطبري ١٧/ ٨١، تفسير ابن كثير ٥/ ٣٦١، ٧/ ٣٤.
(٥) هو ابن مزاحم.
(٦) تفسير الطبري ٢٣/ ٩٩- ١٠١. التفسير ٧/ ٣٤.
(٧) المسند ١/ ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧. من طرق، والترمذي (٢٥١٦). وقال: حسن صحيح. (صحيح).

والبَزّارُ فى « مسندِه »[1] ، مِن حديثِ محمدِ بنِ إسحاقَ ، عمَّن حدَّثه ، عن عبدِ اللَّهِ بنِ رافعٍ مَوْلَى أُمِّ سَلَمَةَ ، سمِعتُ أبا هريرةَ يقولُ : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « لَمَّا أراد اللَّهُ حَبْسَ يونُسَ فى بطنِ الحوتِ ، أَوْحَى اللَّهُ [١٤٤/١ظ] إلى الحوتِ ، أَنْ خُذْ ، ولا تَخدِشْ لحمًا ، ولا تَكسِرْ عَظْمًا . فلمَّا انتهَى به إلى أسفلِ البحرِ ، سَمِع يونُسُ حِسًّا ، فقال فى نفسِه : ما هذا ؟ فأوحَى اللَّهُ إليه ، وهو فى بطنِ الحوتِ : إنَّ هذا تسبيحُ دوابِّ البحرِ » . قال : « فسبَّح وهو فى بطنِ الحوتِ ، فسَمِعت الملائكةُ تسبيحَه ، فقالوا : يا ربَّنا ، إنَّا نَسمعُ صوتًا ضَعيفًا بأرضٍ غَريبةٍ . قال : ذاك عبدى يونُسُ ، عَصَانى فحبَسْتُه فى بطنِ الحوتِ فى البحرِ . قالوا : العبدُ الصَّالحُ الذى كان يَصْعَدُ إليك منه فى كلِّ يومٍ وليلةٍ عملٌ صالحٌ ؟ قال : نعم » . قال : « فشَفَعوا له عندَ ذلك ، فأمَر الحوتَ فقذَفه فى الساحلِ ، كما قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ » . هذا لفظُ ابنِ جَريرٍ إسنادًا ومَتْنًا . ثم قال البَزّارُ : لا نعلمُه يُروَى عن النبىِّ ﷺ إلا بهذا الإسنادِ . كذا قال .

وقد قال ابنُ أبى حاتمٍ فى « تفسيرِه »[2] : حدثنا أبو عُبيدِ[3] اللَّهِ أحمدُ بنُ عبدِ الرحمنِ ابنُ[4] أخى ابنِ وهْبٍ ، حدثنا عَمِّى ، حدثنى أبو صَخْرٍ ، أن يزيدَ الرَّقاشِىَّ حدَّثه قال : سمعتُ أنسَ بنَ مالكٍ ، ولا أَعلمُ إلا أنَّ أنسًا يَرفعُ الحديثَ

---

(١) تفسير الطبرى ١٧/ ٨١. وكشف الأستار (٢٢٥٤) .
قال الهيثمى ٧/ ٩٨: رواه البزار عن بعض أصحابه ولم يسمه ، وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ، وبقية رجاله رجال الصحيح .
(٢) عزاه فى الدر المنثور ٢٨٧/٥ إلى ابن أبى حاتم .
(٣) فى النسخ : « عبد » . والمثبت من التفسير ٧/ ٣٤، وانظر ترجمته فى تهذيب الكمال ١/ ٣٨٧.
(٤) سقط من : ح ، م ، ص .

إلى رسولِ اللّهِ ﷺ : «إن يونُسَ النبيَّ ، عليه السلامُ ، حين بَدَا له أن يدعوَ بهذه الكلماتِ ، وهو فى بطنِ الحوتِ قال : اللهمَّ لا إلهَ إلا أنتَ سبحانَك إنِّى كنتُ مِن الظالِمين. فأقبلَتِ الدعوةُ تحِنُّ بالعرشِ ، فقالت الملائكةُ : يا ربِّ ، صوتٌ ضعيفٌ معروفٌ من بلادٍ غريبةٍ . فقال : أما تَعرفون ذاك ؟ قالوا : يا ربِّ ، ومَن هو ؟ قال : عبدى يونسُ . قالوا : عبدُك يونُسُ الذى لم يَزَلْ يُرفَعُ له عملٌ متقبلٌ ودعوةٌ مجابةٌ ؟ قال : نعمْ . قالوا : يا ربِّ ، أوَ لا تَرحمُ ما كان يصنعُ فى الرخاءِ ، فتُنجِّيَه مِن البلاءِ؟ قال : بلى . فأمَرَ الحوتَ فطرَحه فى العراءِ» . ورواه ابنُ جريرٍ[1] ، عن يونُسَ ، عن ابنِ وهْبٍ به . زاد ابنُ أبى حاتمٍ[2] : قال أبو صَخْرٍ حُمَيْدُ بنُ زيادٍ : فأخبرنى ابنُ قُسَيْطٍ وأنا أحدِّثُه هذا الحديثَ ، أنه سَمِع أبا هُرَيْرةَ يقولُ : طُرِح بالعَراءِ ، وأَنبَت اللّهُ عليه اليَقْطِينةَ . قلنا : يا أبا هُرَيرةَ ، وما اليَقْطِينةُ ؟ قال : شجرةُ الدُّبَّاءِ . قال أبو هُرَيرةَ : وهيَّأَ اللّهُ له أُرْوِيَّةً[3] وحْشيةً تأكلُ مِن خَشاشِ الأرضِ - أو قال: هَشاشِ الأرضِ - قال : فتَنفشِخُ عليه فتَرْوِيه مِن لبنِها ، كلَّ عَشِيَّةٍ وبُكْرَةٍ ، حتى نبَتَ . وقال أمَيَّةُ بنُ أبى الصَّلْتِ[4] فى ذلك بيتًا مِن شعرِه :

فأَنْبَتَ يَقْطِينًا عَليهِ برحمةٍ   مِن اللّهِ لولا اللّهُ [5]أُلْفِىَ ضاحِيَا[5] [١/١٤٥و]

وهذا غريبٌ أيضًا مِن هذا الوجهِ ، ويزيدُ الرَّقاشِيُّ ضعيفٌ ، ولكن يَتقوَّى

---

(١) فى تفسيره ٢٣/ ١٠٠.

(٢) عزاه فى الدر المنثور ٥/ ٢٨٧، ٢٨٨ إلى ابن أبى حاتم .

(٣) الأروية - بضم الألف وكسرها - أنثى الوعول .

(٤) ديوان أمية ص ٦٥.

(٥ - ٥) فى الأصل : «ألقى ضاحيا» . وفى ح ، م : «أصبح ضاويا» .

بحديثِ أبى هُرَيرةَ المتقدِّمِ، كما يَتقوَّى ذاك بهذا. واللَّهُ أعلمُ.

وقد قال اللَّهُ تعالى[1]: ﴿ فَنَبَذْنَهُ ﴾ أى؛ ألْقيْناه ﴿ بِٱلْعَرَآءِ ﴾ وهو المكانُ القَفْرُ الذى ليس فيه شىءٌ مِن الأشجارِ، بل هو عارٍ منها ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ أى؛ ضعيفُ البدنِ. قال ابنُ مسعودٍ: كهيئةِ الفَرْخِ، ليس عليه ريشٌ[2]. وقال ابنُ عباسٍ، والسُّدِّىُّ، وابنُ زيدٍ: كهيئةِ الصَّبِىِّ حينَ يُولدُ، وهو المَنْفوسُ[3]، ليس عليه شىءٌ ﴿ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾. قال ابنُ مسعودٍ، وابنُ عباسٍ، [4]وعِكْرِمةُ، ومُجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ[4]، ووهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ، وهلالُ بنُ يَسافٍ، وعبدُ اللَّهِ بنُ طاووسٍ، والسُّدِّىُّ، وقَتادةُ، والضحاكُ، وعطاءٌ الخُراسانىُّ، وغيرُ واحدٍ: هو القَرْعُ[5].

قال بعضُ العلماءِ: فى إنباتِ القَرْعِ عليه حِكَمٌ جَمَّةٌ؛ منها، أنّ ورَقَه فى غايةِ النعومةِ، وكثيرٌ وظَليلٌ، ولا يَقْرَبُه ذُبابٌ، ويُؤكَلُ ثمرُه من أولِ طُلوعِه إلى آخرِه، نيئًا ومطبوخًا، وبقِشْرِه وبِبِزْرِه أيضًا، وفيه نفعٌ كثيرٌ، وتقويةٌ للدماغِ، وغيرُ ذلك. وتقدَّم كلامُ أبى هُرَيرةَ فى تسخيرِ اللَّهِ تعالى له تلك الأُرْوِيَّةَ التى كانت تُرضِعُه لبنَها، وتَرْعَى فى البرِّيَّةِ، وتأتِيه بُكْرةً وعَشِيَّةً. وهذا مِن رحمةِ اللَّهِ به، ونعمتِه عليه، وإحسانِه إليه، ولهذا قال اللَّه تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾ أى؛ الكربِ والضيقِ الذى كان فيه ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنۨجِى

---

(١) التفسير ٧/ ٣٤ وما بعدها. تفسير الطبرى ٢٣/ ١٠٢.
(٢) أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف ١١/ ٥٤١، ٥٤٢ من حديث ابن مسعود مطولا.
(٣) فى الأصل، ح: «المنقوش».
(٤ - ٤) فى ا: «وأصحابه».
(٥) تفسير الطبرى ٢٣/ ١٠٢، ١٠٣، التفسير ٧/ ١٣٥.

﴿ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ أى ؛ وهذا صنيعُنا بكلِّ مُؤْمنٍ[1] دعانا واستَجار بنا .

قال ابنُ جريرٍ[2] : حدثنى عِمْرانُ بنُ بكّارٍ الكَلَاعىُّ ، حدثنا يَحيى بنُ صالحٍ ، حدثنا أبو يَحيى بنُ عبدِ الرحمنِ ، حدثنى بشرُ بنُ منصورٍ ، عن علىِّ ابنِ زيدٍ ، عن سعيدِ بنِ المُسيَّبِ ، قال : سمعتُ سعدَ بنَ مالكٍ - وهو ابنُ أبى وقاصٍ - يقولُ : سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ : « اسمُ اللَّهِ الذى إذا دُعِىَ به أَجَاب ، وإذا سُئِل به أَعْطَى ، دعوةُ يُونُسَ بنِ مَتَّى » . قال : فقلتُ : يا رسولَ اللَّهِ ، هى ليونُسَ خاصَّةً أم لجماعةِ المسلمين؟ قال : « هى ليونُسَ خاصَّةً ، وللْمُؤْمِنينَ عامّةً إذا دَعَوْا بها ، ألَمْ تَسمعْ قولَ اللَّهِ تعالى : ﴿ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ . فهو شرطٌ مِن اللَّهِ لمن دعاه به[3] » . وقال ابنُ أبى حاتمٍ[4] : حدثنا أبو سعيدٍ الأشَجُّ ، حدثنا أبو خالدٍ الأحمرُ ، عن كثيرِ بنِ زيدٍ ، عن المطَّلِبِ بنِ حَنْطَبٍ - قال أبو خالدٍ : أَحسَبُه عن مُصْعبٍ . يعنى ابنَ سعدٍ - [١/١٤٥ظ] عن سعدٍ[5] قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « مَن دعا بدعاءِ يونُسَ استُجِيبَ له » . قال أبو سعيدٍ الأشجُّ : يريدُ به ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ . وهذانِ طريقانِ عن سعدٍ .

---

(١) فى الأصل ، ح ، ص : « من » .
(٢) تفسير الطبرى ١٧/ ٨٢.
(٣) فى ابن جرير : « بها » .
(٤) عزاه السيوطى فى الدر المنثور ٤/٣٣٤ إلى ابن أبى حاتم ، وانظر ما بعده .
(٥) فى الأصل: « سعيد » .

وثالثٌ أحسنُ منهما؛ قال الإمامُ أحمدُ[1] : حدثنا إسماعيلُ بنُ عمرَ، حدثنا يونُسُ بنُ أبى إسحاقَ الهَمْدَانِىُّ، حدثنا إبراهيمُ بنُ محمدِ بنِ سعدٍ، حدثنى والدى محمدٌ، عن أبيه سعدٍ - وهو ابنُ أبى وقاصٍ - قال: مَرَرْتُ بعثمانَ بنِ عفانَ فى المسجدِ، فسلّمتُ عليه، فملأ عينَيْه مِنِّى، ثُم لم يَرْدُدْ علىَّ السلامَ، فأتيتُ عمرَ بنَ الخطابِ، فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين، هل حَدَث فى الإسْلامِ شَىْءٌ؟ مرَّتَيْنِ. قال: لا، وما ذاك؟ قلتُ: لا، إلا أنى مررتُ بعثمانَ آنِفًا فى المسجدِ، فسلَّمتُ عليه، فمَلأ عينَيْه مِنِّى، ثُم لم يردُدْ علىَّ السَّلامَ. قال: فأرسَل عمرُ إلى عثمانَ فدعاه، فقال: ما منَعَك أن لا تكونَ ردَدتَ على أخيك السلامَ؟ قال: ما فعلتُ. قال سعْدٌ: قلتُ: بلى. حتى حلَفَ وحلفْتُ. قال: ثُم إنَّ عثمانَ ذكَر، فقال: بلى، وأَستغفِرُ اللَّهَ وأتوبُ إليه، إنك مررتَ بى آنِفًا، وأنا أُحدِّثُ نفسى بكلمةٍ سَمِعْتُها مِن رسولِ اللَّهِ ﷺ، لا واللَّهِ، ما ذكرتُها قَطُّ إلا تَغَشَّى بصرى وقلبى غِشاوةٌ. قال سعدٌ: فأنا أنبئُك بها، إن رسولَ اللَّهِ ﷺ ذكَر لنا أوَّلَ دعوةٍ، ثم جاء أعرابىٌّ فشغَله، حتى قام رسولُ اللَّهِ ﷺ، فاتَّبَعْتُه، فلمَّا أشْفَقْتُ أنْ يَسْبِقَنى إلى منزلِه، ضربتُ بقَدَمِى الأرضَ، فالتفتَ إلىَّ رسولُ اللَّهِ ﷺ، فقال: «مَن هذا؟ أبو إسحاقَ؟» قال: قلتُ: نعمْ، يا رسولَ اللَّهِ. قال: «فَمَهْ؟» قلتُ: لا واللَّهِ، إلا أنَّك ذكَرتَ لنا أولَ دعوةٍ، ثم جاء هذا الأعرابىُّ فشغلَك. قال: «نعمْ، دعوةُ ذى النُّونِ؛ إذ

---

(1) فى المسند ١/ ١٧٠. (إسناده صحيح).

هو فى بطنِ الحوتِ : ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فإنه لم يَدْعُ بها مسلمٌ ربَّه فى شَيْءٍ قطُّ إلا استجاب له » . ورواه التِّرْمِذىُّ ، والنَّسائىُّ ، مِن حديثِ إبراهيمَ بنِ محمدِ بنِ سعدٍ به[1] .

(١) الترمذى (٣٥٠٥). والنسائى فى الكبرى (١٠٤٩١، ١٠٤٩٢). كلاهما مختصرًا. (صحيح الترمذى ٢٧٨٥).

ذكرُ فضلِ يونسَ، عليه السلامُ

قال اللَّهُ تعالى[1] : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات: ١٣٩]. وذكَره تعالى في جملةِ الأنبياءِ الكِرامِ، في سورتَي «النساءِ» و«الأنعامِ»، عليهم مِن اللَّهِ أفضلُ الصلاةِ والسلامِ.

وقال الإمامُ أحمدُ[2] : حدثنا وكيعٌ، حدثنا سفيانُ، عن الأعمشِ، عن أبي وائلٍ، عن عبدِ اللَّهِ، قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «لا يَنبغِي لأحدٍ أن يقولَ: أنا خيرٌ مِن يونُسَ بنِ مَتَّى». ورواه البخاريُّ[3] مِن حديثِ سُفيانَ الثَّوْرِيِّ به. وقال البخاريُّ أيضًا[4] : حدثنا حَفْصُ بنُ عُمَرَ، [١/١٤٦و] حدثنا شعبةُ، عن قَتادةَ، عن أبي العاليةِ، عن ابنِ عباسٍ، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «ما يَنبغِي لعبدٍ أن يقولَ: إنِّي خيرٌ مِن يونُسَ بنِ مَتَّى». ونَسَبه إلى أبيه[5]. ورواه أحمدُ، ومسلمٌ، وأبو داودَ، مِن حديثِ شُعبةَ به[6]. قال شُعبةُ فيما حكاه أبو داودَ عنه[7] : لم يَسْمَعْ قَتادةُ مِن أبي العاليةِ سوى أربعةِ أحاديثَ، هذا أحدُها.

وقد رواه الإمامُ أحمدُ[8]، عن عفانَ، عن حمادِ بنِ سَلَمَةَ، عن عليِّ بنِ زيدٍ،

---

(١) التفسير ٧/ ٣٣.
(٢) فى المسند ١/ ٣٩٠. (إسناده صحيح).
(٣) البخارى (٣٤١٢، ٤٦٠٣).
(٤) البخارى (٣٤١٣).
(٥) انظر فتح البارى ٦/ ٤٥٢.
(٦) أحمد ١/ ٣٤٢. ومسلم (٢٣٧٦). وأبو داود (٤٦٦٩).
(٧) قاله أبو داود عقب حديث (٢٠٢) من سننه، من كتاب الطهارة.
(٨) فى المسند ١/ ٢٥٤. (إسناده صحيح).

عن يوسُفَ بنِ مِهْرَانَ ، عن ابنِ عباسٍ ، عن النبيِّ ﷺ ، قال : « وما ينبغي لعبدٍ أن يقولَ : أنا خيرٌ مِن يونُسَ بنِ مَتَّى » . تفرَّد به أحمدُ .

ورواه الحافظُ أبو القاسمِ الطَّبَرَانيُّ[1] ، حدثنا محمدُ بنُ الحسنِ بنِ كَيْسانَ ، حدثنا عبدُ اللَّهِ بنُ رجاءٍ ، أنبأنا إسرائيلُ ، عن أبي يحيى القتاتِ[2] ، عن مُجاهدٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، أن رسولَ اللَّهِ ﷺ ، قال : « لا ينبغي لأحدٍ أن يقولَ : أنا عندَ اللَّهِ خيرٌ مِن يونُسَ بنِ مَتَّى » . إسنادُه جيِّدٌ ، ولم يُخرِّجوه .

وقال البخاريُّ[3] : حدثنا أبو الوليدِ ، حدثنا شعبةُ ، عن سعدِ بنِ إبراهيمَ ، سمعتُ حُمَيْدَ بنَ عبدِ الرحمنِ ، عن أبي هُرَيرةَ ، عن النَّبيِّ ﷺ ، قال : « لا ينبغي لعبدٍ أن يقولَ : أنا خيرٌ مِن يونُسَ بنِ مَتَّى » . وكذا رواه مسلمٌ[4] مِن حديثِ شُعبةَ به . وفي « البخاريِّ » و « مسلمٍ »[5] مِن حديث عبدِ اللَّهِ بنِ الفَضْلِ ، عن عبدِ الرحمنِ بنِ هُرْمُزَ الأَعْرَجِ ، عن أبي هُرَيرةَ ، في قصةِ المسلمِ الذي لطَم وجهَ اليهوديِّ حين قال : لا ، والذي اصطَفَى موسى على العالمين . قال البخاريُّ في آخرِه : « ولا أقولُ : إنّ أحدًا خيرٌ مِن يونُسَ بنِ مَتَّى » . أي ؛ ليس لأحدٍ أن يُفضِّلَ نفسَه على يونسَ . وفي روايةٍ : « لا ينبغي لأحدٍ أن

---

(١) المعجم الكبير (١١١٢٢) . وقال الهيثمي في المجمع ٨/ ٢٠٩: وفيه أبو يحيى القتات . وهو ضعيف وقد وثق .

(٢) في ح ، م ، ص : « العتاب » ، وفي ا : « القطاف » .
وهو أبو يحيى القتات واسمه زاذان . انظر تهذيب التهذيب ١٢/ ٢٧٧.

(٣) البخاري (٣٤١٦) .

(٤) مسلم (٢٣٧٦) .

(٥) البخاري (٣٤١٤، ٣٤١٥) ، مسلم (٢٣٧٣) .

يفضِّلَنى على يونُسَ بنِ مَتَّى». كما قد ورَد فى بعضِ الأحاديثِ[1]: «لا تُفضِّلونى على الأنبياءِ، ولا على يُونُسَ بنِ مَتَّى». وهذا من بابِ الهَضْمِ والتَّواضعِ مِنه، صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه، وعلى سائرِ أنبياءِ اللَّهِ والمرسَلِين.

---

(١) أورده القاضى عياض فى الشفا ١٧٠/١ بنحوه.

ذِكْرُ قصّةِ موسى الكليمِ،

عليه الصلاةُ والسلامُ

وهو موسى بنُ عمرانَ بنِ قاهثَ[1] بنِ عازرَ بنِ لَاوِى بنِ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ، عليهم السلامُ، قال اللَّهُ تعالى[2]: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٥١- ٥٣]. [3]ذكَره بالرسالةِ والنُّبُوَّةِ والإخلاصِ والتَّكْلِيمِ والتَّقْرِيبِ، ومَنَّ عليه بأن جعَل أخاه هارونَ نبيًّا[3] وقد ذكَره اللَّهُ تعالى فى مواضعَ كثيرةٍ متفرقةٍ من القرآنِ، وذكَرَ قصتَه فى مَوَاضِعَ متعددةٍ مبسوطةً، ومتوسِّطةً، ومختصَرةً، وقد تكلَّمْنا [١/ ١٤٦ظ] على ذلك كلِّه فى مواضِعِه من «التفسيرِ»، وسَنُورِدُ[4] سِيرتَه هـهنا، مِن ابتِدائِها إلى آخِرِها مِن الكتابِ والسنَّةِ، وما ورَد فى الآثارِ المنْقولَةِ من الإسرائيلياتِ، التى ذكَرها السَّلَفُ وغيرُهم، إن شاء اللَّهُ، وبه الثِّقةُ وعليه التُّكْلانُ.

قال اللَّهُ تعالى[5]: ﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟

---

(١) فى الأصل، ص: «ماهث»، وفى ا: «قاهب».
(٢) التفسير ٥/ ٢٣٢، ٢٣٣.
(٣- ٣) زيادة من: ا.
(٤) سقط من: الأصل.
(٥) التفسير ٦/ ٢٣٠، ٢٣١.

عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ١ - ٦].

يذكرُ تعالى مُلخَّصَ القِصَّةِ ثم يَبسُطُها بعد هذا، فذكَر أنه سبحانَه يَتْلُو على نبيِّه خبرَ موسى وفرعونَ بالحقِّ؛ أي بالصِّدقِ الذى كأنَّ سامعَه مُشاهِدٌ للأمرِ مُعايِنٌ له ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ أى؛ تجبَّر وعتا، وطغَى وبغَى، وآثَرَ الحياةَ الدُّنيا وأَعْرَضَ عن طاعةِ الربِّ الأعلى. ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ أى؛ قسَّم رَعِيَّتَه إلى أقسامٍ وفِرَقٍ وأَنْواعٍ ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ وهم شعبُ بنى إسرائيلَ، الذين هم مِن سُلالةِ نبىِّ اللَّهِ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ خليلِ اللَّهِ. وكانوا إذ ذاك خِيارَ أهلِ الأرضِ، وقد سَلَّطَ اللَّهُ عليهم هذا المِلكَ الظالمَ الغاشمَ الكافرَ الفاجرَ، يَستعبِدُهم ويَستخدمُهم فى أخسِّ الصنائعِ والحِرَفِ، وأرْدَئِها، (١)وأدناها، ومع هذا(١) ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾. وكان الحامِلَ له على هذا الصَّنيعِ القَبِيحِ، أنَّ بنى إسرائيلَ كانوا يتدارَسون فيما بينَهم ما كانوا يَأْثُرونَه عن إبراهيمَ الخليلِ، عليه السلامُ، مِن أنه سَيَخرجُ مِن ذُرِّيَّتِه غلامٌ يكونُ هلاكُ مَلِكِ مصرَ على يدَيْهِ، وذلك، واللَّهُ أعلمُ، حينَ جرَى على سَارَّةَ امرأةِ الخليلِ مِن مَلِكِ مصرَ، (٢)ما جرى(٢) مِن إرادتِه إيَّاها على السُّوءِ، وعِصْمَةِ اللَّهِ لها.

(١ - ١) فى ا: «وما كفاه هذا حتى».
(٢ - ٢) سقط من: م، ص.

وكانت هذه البِشارةُ مَشْهُورةً فى بنى إسرائيلَ، فتحَدَّثَ بها القِبْطُ فيما بينَهم، ووصلَت إلى فرعونَ (١ فى مَجْلسِ مُسامَرتِه مع ١) أُمَرائِه وأَسَاوِرَتِه[٢] وهم يَسمُرون عندَه، فأمَرَ عند ذلك بقتلِ أبناءِ بنى إسرائيلَ؛ حَذَرًا مِن وجودِ هذا الغُلامِ، ولن يُغْنِىَ حذَرٌ مِن قَدَرٍ.

وذكر السُّدِّىُّ[٣] عن أبى صالحٍ، وأبى مَالكٍ، عن ابنِ عباسٍ، وعن مُرَّةَ، عن ابنِ مسعودٍ، وعن أناسٍ من الصَّحابةِ أن فرعونَ رأى فى منامِه كأنَّ نارًا قد أقبلَت مِن نحوِ بيتِ المقدسِ، فأحْرَقَت دُورَ مصرَ وجميعَ القِبْطِ، ولم تَضُرَّ بنى إسرائيلَ، فلمَّا استيقَظَ هالَه ذلك [١/١٤٧و] فجمع الكَهَنَةَ والحُزَاةَ[٤] والسَّحَرةَ وسألهم عن ذلك، (٥ فقال له الكَهَنَةُ ٥): هذا غلامٌ يُولَدُ مِن (٦ بنى إسرائيلَ ٦)، يكونُ سبَبُ هلاكِ أهلِ مصرَ على يدَيْه. فلهذا أمَرَ بقتلِ الغِلمانِ وتَرْكِ النِّسوانِ. ولهذا قال اللَّهُ تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ وهم بنو إسرائيلَ ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ أى؛ الذين يئُولُ مُلْكُ مصرَ وبلادُها إليهم ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾ أى؛ سنجعلُ الضعيفَ قويًّا، والمقهورَ قاهرًا[٧]، والذليلَ عزيزًا. وقد جرَى هذا كلُّه لبنى إسرائيلَ؛ كما قال

(١ - ١) فى الأصل، م: «فذكرها له بعض».
(٢) الإسوار: بكسر الهمزة قائد العجم كالأمير فى العرب والجمع أساورة.
(٣) ابن جرير فى تاريخه ١/ ٣٨٨.
(٤) جمع «حازٍ» وهو الكاهن.
(٥ - ٥) فى ح، م، ص: «هؤلاء».
(٦ - ٦) فى ح، م، ص: «فقالوا».
(٧) فى م: «قادرا».

تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ ﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وقال تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ٥٧- ٥٩]. وسيأتى تفصيلُ ذلك فى موضِعِه إن شاء اللَّهُ تعالى.

والمقصودُ أن فرعونَ احتَرَز كلَّ الاحترازِ أن لا يُوجَدَ موسى، حتى جَعَلَ رجالًا وقَوابِلَ يدُورون على الحبَالَى، ويَعلَمون مِيقاتَ وَضْعِهنَّ، فلا تلِدُ امرَأَةٌ ذكرًا إلا ذَبَحه أولئك الذَّبَّاحون [(١] مِن ساعتِه [١)]. [(٢] وعندَ أهلِ الكتابِ[٣] أنَّه إنَّما كان يأمرُ بذَبْحِ الغِلْمانِ لِتَضْعُفَ شوكةُ بنى إسرائيلَ، فلا يقاومونهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم. وفى هذا نظرٌ، بل هو باطلٌ، وإنما وقع هذا بعدَ بَعْثَةِ موسى فجعل يَقْتُلُ الوِلْـدانَ، كما قـال تعـالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ ﴾ [غافر: ٢٥] [٢)]. [(٤] ولهذا قالت بنو إسرائيلَ لموسى: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ ﴾ [الأعراف: ١٢٩]. فالصحيحُ أن فرعونَ إنما أمر بقتلِ الغِلمانِ أولًا حَذَرًا من وجودِ موسى [٤)] عليه السلامُ. هذا، والقَدَرُ يقولُ: يا أيُّها المَلِكُ الجبارُ، المغرورُ بكثرةِ جنودِه، وسُلْطَةِ بأسِه واتِّساعِ سلطانِه[٥]، قد حكَم العظيمُ الذى لا

(١ - ١) سقط من: ص.
(٢ - ٢) سقط من: ح.
(٣) سفر الخروج الأصحاح ١/٨- ٢٢.
(٤ - ٤) سقط من: ح.
(٥) سقط من: ص.

يُغالَبُ ولا يُمانَعُ، ولا تُخالَفُ أقدارُه أن هذا المولودَ الذى تَحترِزُ منه، وقد قَتلْتَ بسببِه مِن النفوسِ ما لا يُعَدُّ ولا يُحصَى، لا يكونُ مَرْبَاه إلا فى دارِك وعلى فِراشِك، ولا يُغَذَّى إلا بطَعامِك وشَرَابِك (1فى مَنْزِلِك1)، وأنت الذى تتبنَّاه وتُربِّيه وتَتَعَدّاه(2)، ولا تَطَّلِعُ على سرِّ معناه، ثم يكونُ هلاكُك فى دُنياك وأُخراك على يدَيْه؛ لمُخالَفَتِك ما جاءَك به مِن الحقِّ المبينِ، وتَكْذِيبِك ما أوحِىَ إليه، لتَعْلَمَ أنت وسائِرُ الخَلْقِ أن ربَّ السمواتِ والأرضِ هو الفعَّالُ لِمَا يريدُ، وأنه هو القوىُّ الشديدُ، ذو البأسِ [١/١٤٧ظ] العظيمِ، والحَوْلِ والقوةِ والمشيئةِ، التى لا مَرَدَّ لها.

وقد ذكر غيرُ واحدٍ من المفسرين، أن القِبْطَ شَكَوْا إلى فرعونَ قلةَ بنى إسرائيلَ، بسببِ قتلِ وِلْدانِهم الذكورِ، وخَشَوْا أن تَتفانَى الكبارُ مع قتلِ الصِّغارِ، فَيَصِيرون هم الذين يَلُون ما كان يَليه(3) بنو إسرائيلَ (4مِن الأعمالِ الشاقَّةِ4)، فأمَر فرعونُ بقتلِ الأبناءِ عامًا، وأن يُترَكوا عامًا، فوُلِدَ هارونُ، عليه السلامُ، فى عامِ المسامحةِ عن قتلِ الأبناءِ، ووُلِدَ موسى، عليه السلامُ، فى عامِ قتلِهم، فضاقَت أمُّه به ذَرْعًا، واحترَزَتْ من أولِ ما حَبِلَت بِهِ، ولم يكنْ يَظهرُ عليها مَخايِلُ(5) الحبَلِ، فلمَّا وَضَعَت أُلْهِمت أنِ اتَّخَذَتْ له تابوتًا، فربَطَتْه فى حبلٍ، وكانت دارُها متاخِمةً للنيلِ، فكانت تُرضِعُه، فإذا خَشِيَت مِن أحدٍ وضَعَتْه فى ذلك التابوتِ فأرسلَتْه فى البحرِ، وأمسكَتْ طَرَفَ الحبلِ عندَها،

(١ - ١) سقط من: ص.
(٢) فى ح: «تتفداه».
(٣) سقط من: م، ص.
(٤ - ٤) فى ح، م، ص: «يعالجون».
(٥) أى دلائل.

فإذا ذهبوا استرجَعَته إليها به .

قال الله تعالى[1] : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص: ٧ - ٩] . هذا الوحيُ وحيُ إلهامٍ وإرشادٍ ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩] . وليس هو بوحيِ نُبُوَّةٍ ؛ كما زعَمه ابنُ حزمٍ[2] ، وغيرُ واحدٍ من المتكلِّمين ، بل الصحيحُ الأولُ ، كما حكاه أبو الحسنِ الأشعريُّ عن مذهبِ[3] أهلِ السنةِ والجماعةِ . قال السُّهَيْليُّ[4] : واسمُ أمِّ موسى ياوخ[5] . وقيل : أياذخت .

والمقصودُ أنها أُرشدَت إلى هذا الذى ذَكَرْناه ، وأُلْقِىَ فى خَلَدِها ورُوعِها أن لا تخافى ولا تَحْزَنى ، فإنه إن ذهَب فإن اللَّهَ سيردُّه إليكِ ، وإنَّ اللَّهَ سيجعلُه نبيًّا مرسَلًا ، يُعلى كلمتَه فى الدنيا والآخرةِ ، فكانت تصنعُ ما أُمِرَت به ، فأَرسلَته ذاتَ يومٍ ، وذَهَلَتْ أن تَرْبطَ طَرَفَ الحبلِ عندَها ، فذهَبَ مع النِّيلِ ، فمرَّ على

---

(١) التفسير ٦/ ٢٣١- ٢٣٣.

(٢) انظر الفصل ٥/ ١٧، ١٨.

(٣) سقط من : م .

(٤) التعريف والإعلام ص ٢٣٩.

(٥) فى الأصل: «أيارخا». وفى ح، ص: «أتارخا». وفى م: «أيادخا». والمثبت من التعريف والإعلام.

دارِ فرعونَ ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ . قال اللَّهُ تعالى : ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ قال بعضُهم : هذه لامُ العاقبةِ . وهو ظاهرٌ إن كان متعلِّقًا بقولِه : ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ﴾ . وأما إن جُعِل متعلِّقًا بمضمونِ الكلامِ ؛ وهو أنَّ آلَ فرعونَ قُيِّضُوا لالتقاطِه ؛ ليكونَ لهم عدوًّا وحَزَنًا ، صارت اللامُ معلِّلةً لِغيرِها ، واللَّهُ أعلمُ . ويقوِّى هذا التفسيرَ[1] الثانىَ قولُه[2] : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ وهو الوزيرُ السُّوءُ ﴿وَجُنُودَهُمَا﴾ المتابعين لهما ﴿كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ أى ؛ كانوا على خلافِ الصوابِ ، فاستحقُّوا هذه العقوبةَ والحسرةَ .

وذكر المفسِّرون أن الجوارِىَ التقَطْنَه مِن البحرِ فى تَابوتٍ مُغْلَقٍ عليه ، فلم يَتجاسَرْنَ على فَتْحِه ، حتى وضَعْنَه بين يدَيِ امرأةِ فرعونَ ؛ آسِيَةَ بنتِ مُزَاحِمِ بنِ عُبَيْدِ بنِ الرَّيَّانِ بنِ الوليدِ ، الذى كان فرعونَ مصرَ فى زمنِ يوسفَ . وقيل : إنها كانت مِن بنى إسرائيلَ مِن سِبْطِ موسى . وقيل : بل كانت عمَّتَه . حكاه السُّهَيْلِىُّ[3] . فاللَّهُ أعلمُ . وسيأتى مدحُها والثَّناءُ عليها[4] فى قِصةِ مَرْيَمَ بنتِ عمرانَ ، وأنَّهما يكونانِ يومَ القيامةِ مِن أزواجِ رسولِ اللَّهِ ﷺ فى الجَنَّةِ[5] . فلمّا فَتَحَتِ البابَ وكَشفَتِ الحِجابَ ، رأت وجْهَه يَتَلَأْلأُ بتلك الأنوارِ النبويةِ والجلالةِ المُوسَوِيَّةِ ، فلمَّا رأتْه ووقَع نظرُها عليه أحبَّتْه حُبًّا شديدًا ، فلمّا جاء

---

(١) فى م : « التقدير » .

(٢) بعده فى الأصل : « ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ أى ؛ هم أهل لهذا التقييض [١/ ١٤٨و] ليكون أبلغ فى إهانتِهم ، وأقوى فى حسرتِهم ، أن يربوا عدوَّهم فى دارهم . ولهذا قال : ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ » .

(٣) التعريف والإعلام ص ٢٣٩.

(٤) انظر صفحات ٤٢٦ - ٤٣١.

(٥) انظر صفحة ٤٣٣ .

فرعونُ قال: ما هذا؟ وأمَر بذَبْحِه، فاستوهَبَتْه منه ودَفَعَت عنه، وقالت: ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾. فقال لها فرعونُ: أمّا لكِ فنَعَمْ، وأمّا لى فلا. أى؛ لا حاجةَ لى به. والبلاءُ مُوكَّلٌ بالمَنْطِقِ. وقولُها: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ ﴾ وقد أنالَها اللَّهُ ما رجَت مِن النَّفْعِ؛ أمّا فى الدنيا فهَداها اللَّهُ به، وأمّا فى الآخِرةِ فأسكَنها جَنَّتَه بسببِه ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ وذلك لأنَّهما تبَنَّياه؛ لأنه لم يكنْ لهما ولدٌ. قال اللَّهُ تعالى: ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أى؛ لا يَدرون ماذا يريدُ اللَّهُ بهم، أن قَيَّضهم لالتقاطِه، مِن النِّقْمةِ العَظِيمةِ بفرعونَ وجنودِه. (١) وعندَ أهلِ الكتابِ أنَّ الذى التقطتْ موسى ورَبَّتْه ابنةُ فرعونَ، وليس لامرأتِه ذِكْرٌ بالكُلِّيَّةِ(٢). وهذا مِن غلطِهم على كتابِ اللَّهِ، عَزَّ وجَلَّ. قال اللَّهُ تعالى(١): ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٣) [القصص: ١٠- ١٣]. قال ابنُ عباسٍ، ومُجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، وأبو عُبَيْدَةَ، والحسنُ، وقَتادةُ، والضَّحّاكُ، وغيرُهم: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ﴾ أى؛ مِن كلِّ شَىْءٍ مِن أُمورِ الدنيا إلا مِن

(١- ١) زيادة من: ص.
(٢) سفر الخروج الأصحاح ٢/ ٥- ١٠.
(٣) التفسير ٦/ ٢٣٣، ٢٣٤.

أمرِ[1] موسى ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ ﴾ أى ؛ لَتُظْهِرُ أمرَه وتسألُ عنه جَهْرَةً . ﴿ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ أى ؛ صبَّرْناها وثبَّتْناها ﴿ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ [١٤٨/١ ظ] وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ ﴾ وهى ابنتُها الكبيرةُ : ﴿ قُصِّيهِ ﴾ أى ؛ اتَّبِعِى أَثَرَه واطلُبِى لى خَبَرَه ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ ﴾ . قال مُجاهدٌ : عن بُعْدٍ . وقال قَتادةُ : جعلَت تَنظُرُ إليه وكأنَّها لا تريدُه . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ وذلك لأن موسى ، عليه السلامُ ، لمّا استقَرَّ بدارِ فرعونَ أرادوا أن يُغَذُّوه برضَاعةٍ ، فلم يَقْبَلْ ثَدْيًا ولا أَخَذ طعامًا ، فحارُوا فى أمرِه ، واجتهدوا فى ذلك ، أى على تَغْذِيَتِه بكلِّ ممكنٍ فلم يَفْعَلْ ، كما قال تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ فأرسَلُوه مع القوابِلِ والنساءِ إلى السُّوقِ ؛ لعلهم يجدونَ مَن يُوافِقُ رَضَاعَتَه ، فبينما هم وُقوفٌ به والناس عُكوفٌ عليه ، إذ بَصُرَت به أختُه ، فلم تُظْهِرْ أنها تَعْرِفُه ، بل قالت : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ . قال ابنُ عباسٍ[2] : لمّا قالت ذلك ، قالوا لها : ما يُدْرِيكِ بنُصْحِهم وشَفَقَتِهم عليه ؟ فقالت : رغبةً فى صِهْرِ المَلِكِ ، ورجاءَ منفعتِه . فأطلَقُوها وذهَبوا معها إلى منزلِهم ، فأخذَتْه أمُّه ، فلمّا أرضَعَتْه التقَمَ ثَدْيَها وأخَذَ يَمْتَصُّه ويَرْتَضِعُه ، ففرِحوا بذلك فرحًا شديدًا ، وذهَبَ البَشيرُ إلى آسيةَ يُعْلِمُها بذلكَ ، فاستَدْعَتْها إلى منزلِها ، وعَرَضَتْ عليها أن تكونَ عندَها ، وأن تُحْسِنَ إليها ، فأبَتْ عليها وقالت : إن لى بَعْلًا وأولادًا ، ولستُ

---

(١) سقط من : ص ، م .

(٢) رواه النسائى فى الكبرى (١١٣٢٦) ، والطبرى فى تفسيره ١٦/ ١٦٥، وأبو يعلى (٢٦١٨). وغيرهم .

وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٧/ ٥٦- ٦٦:... ورجاله رجال الصحيح غير أصبغ بن زيد والقاسم ابن أبى أيوب وهما ثقتان . والحديث معروف بحديث الفتون الطويل .

أَقدِرُ على هذا إلا أن تُرسِليه معى . فأرسلَته معها ، ورتَّبتْ لها رواتِبَ ، وأَجْرَت عليها النفقاتِ والكُساوَى والهِباتِ ، فرجَعَت به تَحوزُه إلى رَحْلِها ، وقد جَمَع اللَّهُ شملَه بشملِها ، قال اللَّهُ تعالى : ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى ؛ كما وعدْناها بردِّه ورسالتِه ، فهذا رَدُّه ، وهو دَليلٌ على صدقِ البشارةِ برسالتِه ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقد امتَنَّ اللَّهُ بهذا على موسى ليلةَ كلَّمه ، فقال له فيما قال له[1] : ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى ﴾ [طه : ٣٧- ٣٩] . [2]وذلك أنَّه لا يَراه أحدٌ إلَّا أحبَّه[2] ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ قال[3] قَتادةُ ، وغيرُ واحدٍ من السلفِ[4] : أى تُطْعَمُ وتُرَفَّهُ وتُغذَّى بأطيبِ المآكِلِ ، وتَلبَسُ أحسنَ الملابِسِ ؛ بمَرْأًى منِّى ، وذلك كلُّه بحِفْظِى وكَلاءَتِى لك فيما صنعتُ بك ولك ، وقَدَّرْتُه من الأمورِ التى لا يَقدِرُ عليها غيرى ﴿ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ ﴾ [طه : ٤٠] . وسنُورِدُ حديثَ [١/١٤٩و] الفُتُونِ فى موضعِه بعدَ هذا ، إن شاء اللَّهُ تعالى ، وبه الثِّقةُ وعليه التُّكْلانُ .

---

(١) التفسير ٥/ ٢٧٧، ٢٧٨.

(٢ - ٢) سقط من : ح ، م .

(٣) قبله فى ح ، م ، ص : « إذ » .

(٤) التفسير ٥/ ٢٧٨.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص: ١٤- ١٧][1]. لمّا ذكر تعالى أنه أنعَم على أُمِّه بردِّه إليها، وإحسانِه بذلك، وامتنانِه عليها، شرَع في ذِكْرِ أنه لمّا بلَغَ أَشُدَّه واستوَى؛ وهو احتكامُ الخَلْقِ والخُلُقِ، وهو سنُّ الأربعين، في قولِ الأكثرينَ، آتاهُ اللَّهُ حُكْمًا وعلمًا؛ وهو النُّبوةُ والرسالةُ التى كان بشَّر بها أُمَّه، حيثَ قال: ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾. ثم شرَع في ذكرِ سببِ خروجِه من بلادِ مصرَ، وذَهابِه إلى أرضِ مَدْيَنَ وإقامتِه هنالِك، حتى كَمَلَ الأجلُ، وانقضَى الأمَدُ، وكان ما كان مِن كلامِ اللَّهِ له، وإكرامِه بما أكرَمَه به كما سيأتى.

قال تعالى: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾. قال ابنُ عباسٍ، وسعيدُ بنُ جُبيرٍ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ: وذلك نصفَ النهارِ. [2]وفى روايةٍ[2] عن ابنِ عباسٍ: بينَ العِشاءَيْنِ[3] ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾ أى؛ يَتضاربان ويتهاوشان ﴿ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ ﴾ أى؛ إسرائيلىٌّ ﴿ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ أى؛ قِبْطِىٌّ. قاله ابنُ عباسٍ، وقَتادةُ، والسُّدِّىُّ، ومحمدُ بنُ إسحاقَ

---

(١) التفسير ٦/ ٢٣٤، ٢٣٥.

(٢ - ٢) سقط من الأصل، ح، م.

(٣) تفسير الطبرى ٢٠/ ٤٤. التفسير ٦/ ٢٣٥.

﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ وذلك أن موسى ، عليه السلامُ ، كانت له بديارِ مصرَ صَوْلَةٌ ؛ بسببِ نسبتِه إلى تَبنِّى فرعونَ له وتربيتِه فى بيتِه ، وكانت بنو إسرائيلَ قد عَزُّوا وصارت لهم وَجاهةٌ ، وارتفعت رءوسُهم بسببِ أنهم أرضَعُوه ، وهم أخوالُه ، أى من الرَّضاعةِ ، فلمَّا اسْتَغاثَ ذلك الإسرائيليُّ موسى ، عليه السلامُ ، على ذلك القِبْطِيِّ ، أقبَل إليه موسى ﴿ فَوَكَزَهُۥ ﴾ قال مُجاهدٌ : أى طَعَنه بجُمْعِ[1] كَفِّه . وقال قَتادةُ : بِعَصًا كانت معه ﴿ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أى ؛ فمات منها . وقد كان ذلك القِبْطِيُّ كافرًا مشركًا باللَّهِ العظيمِ ، ولم يُرِدْ موسى قَتْلَه بالكليةِ ، وإنما أراد زَجْرَه ورَدْعَه ، ومع هذا قال موسى : ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ [١/١٤٩ظ] بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ ﴾ . [2]أى ، مِن العزِّ والجاهِ[2] ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾.

﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[3] [القصص : ١٨ - ٢١] . يخبرُ تعالى

---

(١) فى ح ، ص : « بجميع » .
(٢ - ٢) سقط من : الأصل ، ص .
(٣) التفسير ٦/ ٢٣٥، ٢٣٦.

أنّ موسى أصْبَح بمدينةِ مصرَ خـائفًا أى مِن فرعونَ ومَلَئِه ، أن يعلموا أن هذا القتيلَ الذى رُفِع إليه أمرُه إنما قتلَه موسى فى نُصْرةِ رجلٍ مِن بنى إسرائيلَ ، فتقْوَى ظُنونُهم أنَّ موسى مِنهم ويَتَرَتَّبَ على ذلك أمرٌ عظيمٌ ، فصار يسيرُ فى المدينةِ فى صبيحةِ ذلك اليومِ ﴿ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ أى ؛ يَتلفَّتُ . فبينَما هو كذلك ، إذا ذلك الرجلُ الإسْرائيلىُّ الذى استنْصَره بالأمْسِ ﴿ يَسْتَصْرِخُهُۥ ﴾ أى ؛ يَصرُخُ به ، ويَستغيثُه على آخرَ قد قاتَلَه ، فعنَّفه موسى ولامَه على كَثْرةِ شرِّه ، ومُخاصَمَتِه ، قال له :﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ ، ثم أرادَ أن يَبْطِش بذَلك القِبْطىِّ ، الذى هو عدوٌّ لموسى ولِلإسرائيلىِّ ، فيَرْدَعَه عنه ويُخلِّصَه منه ، فلما عزَم على ذلك وأقبَل على القِبْطىِّ ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [القصص: ١٩] ، قال بعضُهم : إنما قال هذا الكلامَ الإسرائيلىُّ الذى اطَّلَع على ما كان صنَع موسى بالأمسِ ، وكأنَّه لما رأَى موسى مُقْبِلًا إلى القِبطىِّ ، اعتقَد أنه جاءَ إليه لمَّا عنَّفه قبلَ ذلك بقولِه : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ . فقال ما قال لموسى ، وأَظْهَر الأمرَ الذى كان وقَع بالأمسِ ، فذهب القِبطىُّ (١ فاستعْدَى فِرعونَ على موسى ١) . وهذا الذى لم يَذْكُرْه كَثيرٌ من الناسِ سواه . ويَحتمِلُ أنَّ قائلَ هذا هو القِبْطىُّ ، وأنَّه لمَّا رآه مُقْبِلًا إليه خافَه ؛ ورأَى مِن سَجيَّتِه انتصارًا جيِّدًا للإسرائيلىِّ ، فقال ما قال مِن بابِ الظَّنِّ والفِراسةِ ، أنَّ هذا لعلَّه قاتلُ ذاك القتيلِ بالأمسِ ، أو لعلَّه فَهِم من كلامِ الإسْرائيلىِّ ، حينَ استَصْرَخَه عليه ، ما دَلَّه على هذا . واللَّهُ أعلمُ .

والمقصودُ أن فرعونَ بلَغه أن موسى هو قاتلُ ذلك المقتولِ بالأمسِ ، فأرسَلَ

(١ - ١) فى النسخ : « فاستعدى موسى إلى فرعون » . والمثبت كما فى قصص الأنبياء للمصنف ٢/ ١٤. لتستقيم العبارة .

فى طلبِه ، وسَبَقَهم رجلٌ ناصحٌ من طريقٍ أقربَ إليه ، ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ﴾ ساعيًا إليه مشفقًا عليه [١/١٥٠و] فقال : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ ﴾ أى ؛ مِن هذه البلدةِ ﴿ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ أى ؛ فيما أقولُه لك . قال اللَّهُ تعالى : ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ أى ؛ فخرَج مِن مدينةِ مصرَ مِن فورِه ، على وجهِه ، لا يَهتدِى إلى طريقٍ ولا يَعرِفُه ، قائلًا : ﴿ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٢- ٢٤][1] . يُخبِرُ تعالى عن خروجِ عبدِه ورسولِه وكَليمِه مِن مصرَ ﴿ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ أى ؛ يَتلفَّتُ خشيةَ أنْ يُدرِكَه أحدٌ مِن قومِ فرعونَ ، وهو لا يَدرِى أين يتوجَّهُ ، ولا إلى أين يذهبُ ؛ وذلك لأنَّه لم يَخرجْ من مصرَ قبلَها ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ ﴾ [(٢]أى ؛ اتَّجه له طريقٌ يذهبُ فيه[٢)] ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ . أى ؛ عسى أن تكونَ هذه الطريقُ مُوَصِّلةً إلى المَقصودِ . وكذا وقَع ، أوْصَلَتْه إلى مقصودٍ ، وأىُّ مقصودٍ ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ وكانت بئرًا يَستقُون منها . ومَدْيَنُ هى المَدينةُ التى أهلك اللَّهُ فيها أصحابَ الأَيْكَةِ ، وهم قومُ شُعَيْبٍ عليه السلامُ ، وقد

---

(١) التفسير ٦/ ٢٣٦.

(٢ - ٢) سقط من : ح ، ا.

كان هلاكُهم قبلَ زمنِ موسى ، عليه السلامُ ، فى أحدِ قَوْلَىِ العلماءِ . ولمّا ورد الماءَ المذكورَ ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ ﴾ أى ؛ تُكفكِفانِ غنَمَهما أن تَختلِطَ بغَنَمِ الناسِ . [(1] وعندَ أهلِ الكتابِ[(2)] ، أنهنَّ كُنَّ سبعَ بَناتٍ . وهذا أيضًا مِن الغَلَطِ . ولعَلَّه كان له سَبْعٌ ، ولكن إنما كان تَسْقى اثنتانِ منهنَّ . وهذا الجمعُ ممكنٌ إن كان ذلك محفوظًا ، وإلا فالظاهرُ أنَّه لم يَكُنْ له سوى بنتين[1)] .

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ أى ؛ لا نَقدِرُ على وِرْدِ الماءِ إلا بعدَ صُدُورِ الرِّعاءِ ؛ لِضَعفِنا ، وسببُ مُباشَرَتِنا هذه الرِّعِيَّةَ ضَعفُ أبينا وكِبَرُه . قال اللَّهُ تعالى : ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ . قال المفسّرون : وذلك أن الرِّعاءَ كانوا إذا فرَغُوا مِن وِرْدِهم ، وضَعوا على فَمِ البئرِ صَخْرةً عَظِيمةً ، فتجىءُ هاتانِ المرأتانِ فيُشْرِعان غنمَهما فى فضلِ أغنامِ الناسِ ، فلمّا كان ذلك اليومُ جاء موسى فرفَع تلك الصخْرةَ وحدَه ، ثُم استقَى لهما ، وسقَى غنَمَهما ، ثُم رَدَّ الصخْرةَ كما كانت . قال أميرُ المؤمنين عُمَرُ : وكان لا يَرْفَعُه إلا عشرةٌ[(3)] . وإنما [١/١٥٠ظ] استقَى ذَنُوبًا واحدًا فكَفَاهما ، ثم تولَّى إلى الظِّلِّ . قالوا : وكان ظلَّ شجرةٍ من السَّمُرِ[(4)] . وروَى ابنُ جريرٍ[(5)] ،

(١ - ١) سقط من : ح .

(٢) سفر الخروج الأصحاح ١٦/٢.

(٣) رواه ابن أبى شيبة فى المصنف ٥٣٠/١١ مطولًا . وذكره السيوطى فى الدر المنثور ٥/ ١٢٤، ١٢٥ وعزاه لابن أبى حاتم والحاكم وغيرهما .

وقال ابن كثير فى التفسير ٢٣٧/٦: إسناد صحيح .

(٤) فى الأصل : « الشمس » .

(٥) فى تفسيره ٥٨/٢٠.

عن ابنِ مَسعودٍ، أنه رآها خَضْراءَ تَرِفُّ. ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾. قال ابنُ عباسٍ: سار مِن مصرَ إلى مَدْيَنَ، لم يأكلْ إلا البَقْلَ وورَقَ الشجرِ، وكان حافيًا فسقَطَتْ نَعْلَا قدَمَيْه من الحَفاءِ، وجلَسَ فى الظِّلِّ، وهو صفوةُ اللَّهِ مِن خَلْقِه، وإنَّ بطنَه لاصقٌ بظَهْرِه مِن الجوعِ، وإنَّ خُضْرةَ البَقْلِ لَتُرَى مِن داخلِ جَوْفِه، وإنه لمُحتاجٌ إلى شِقِّ تمرةٍ[1]. قال عطاءُ بنُ السَّائبِ[2]: لمَّا قال: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾. أَسْمَعَ المرأةَ.

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [القصص: ٢٥- ٢٨]. لمَّا جلَس موسى، عليه السَّلامُ، فى الظِّلِّ، وقال: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾. سَمِعَته المرأتان، فيما قيل، فذهَبَتا إلى أبيهما، فيقالُ: إنَّه استنكَر سرعةَ رُجوعِهما، فأخبَرَتاه ما كان من أمرِ موسى عليه السلامُ، فأمَرَ إحداهما أن تذهبَ إليه فتدعُوَه ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى

---

(١) رواه ابن جرير فى تفسيره ٢٠/٥٩ مختصرًا، وأورده فى الدر المنثور ١٢٥/٥ مختصرًا أيضًا، وعزاه إلى أحمد فى الزهد وابن أبى حاتم وابن المنذر، كلهم من قول ابن عباس.

(٢) رواه ابن جرير فى تفسيره ٢٠/ ٥٩.

ٱسۡتِحۡيَآءٖ ﴾ أى؛ مَشْىَ الحَرائرِ. (١ قال عمرُ، رَضِىَ اللَّهُ عنه: تَسْتُرُ وجْهَها بكُمِّ دِرعِها(١)(٢) ﴿ إِنَّ أَبِى يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ ﴾ صرَّحَتْ له بهذا؛ لِئلَّا يُوهِمَ كلامُها رِيبةً، وهذا مِن تمامِ حيائِها وصيانتِها. ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ ﴾ أى؛ وأخبرَه خبَرَه، وما كان من أمرِه؛ فى خروجِه مِن بلادِ مصرَ فِرارًا من فِرعونِها، قال له ذلك الشيخُ(٣): ﴿ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أى؛ خرجتَ مِن سُلْطانِهم، فلستَ فى دَوْلَتِهم.

وقد اخْتَلفوا فى هذا الشيخِ؛ مَن هو؟ فَقيل: هو شُعَيْبٌ، عليه السلامُ. وهذا هو المشهورُ عندَ كثيرين. ومِمَّن نَصَّ عليه الحسنُ البصرىُّ، ومالكُ بنُ أنسٍ، وجاء مصرَّحًا به فى حديثٍ(٤)، ولكنْ فى إسنادِه نَظَرٌ. وصرَّح طائفةٌ بأنَّ شُعَيْبًا، عليه السلامُ، عاش عُمْرًا طَويلًا بعدَ هلاكِ قومِه، حتى أدركَه موسى، عليه السلامُ، وتزوَّج بابنتِه. وروَى ابنُ أبى حاتمٍ وغيرُه(٥)، عن الحسنِ البصرىِّ، أنَّ صاحبَ موسى، عليه السلامُ، هذا اسمُه [١/١٥١و] شُعَيبٌ، وكان سيدَ الماءِ، ولكن ليس بالنبىِّ صاحبِ مَدْيَنَ. وقيل: إنه ابنُ أخى شُعَيْبٍ. وقيل: ابنُ عمِّه. وقيل: رجلٌ مؤمنٌ مِن قومِ شُعَيْبٍ. وقيل: رجلٌ

(١ - ١) زيادة من حاشية الأصل.

(٢) رواه ابن جرير فى تفسيره ٢٠/ ٦٠.

(٣) انظر التفسير ٦/ ٢٣٨.

(٤) ذكره المصنف فى تفسيره ٦/ ٢٤٢، ٢٤٣. وعزاه إلى البزار وابن أبى حاتم. وانظر الدر المنثور ٥/ ١٢٦.

(٥) ذكره فى الدر المنثور ٥/ ١٢٦. وعزاه لابن أبى حاتم وابن المنذر. ورواه ابن جرير فى تفسيره ٢٠/ ٦٢.

اسمُه يثرونُ . هكذا هو فى كتبِ أهلِ الكتابِ[1] : يثرونُ كاهنُ مَدْيَنَ . أى ؛ كبيرُها وعالِمُها . قال ابنُ عباسٍ ، وأبو عُبَيْدَةَ بنُ عبدِ اللَّهِ : اسمُه يثرونُ . زاد أبو عُبيْدَةَ : وهو ابنُ أخى شعيبٍ . زاد ابنُ عباسٍ : صاحبُ مَدْيَنَ .

والمقصودُ أنه لمَّا أضافه وأكرمَ مثواه ، وقصَّ عليه ما كان من أمرِه ، بشَّره بأنه قد نجا ، فعندَ ذلك قالت إحدى البِنْتَيْنِ لأبيها ﴿ يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ﴾ أى ؛ لرَعْيِ غنمِك . ثم مدَحته بأنَّه قوىٌّ أمينٌ . قال عُمَرُ ، وابنُ عباسٍ ، وشُرَيْحٌ القاضى ، وأبو مالكٍ ، وقَتادةُ ، ومحمدُ بنُ إسحاقَ ، وغيرُ واحدٍ : لمَّا قالت ذلك قال لها أبوها : وما عِلْمُك بهذا ؟ فقالت : إنه رفَع صخرةً لا يُطيقُ رَفْعَها إلا عشَرةٌ ، وإنَّه لمَّا جِئتُ معه تقدَّمْتُ أمامَه ، فقال : كونى مِن ورائى ، فإذا اختلف الطريقُ فاحْذِفِى لى بحصاةٍ أَعْلَمْ بها كيف الطريقُ . قال ابنُ مسعودٍ : أفرسُ الناسِ ثلاثةٌ ؛ صاحبُ يوسفَ حين قال لامرأتِه : ﴿ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ ﴾ ، وصاحبةُ موسى حين قالت : ﴿ يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ ، وأبو بكرٍ حين استخْلَف عمرَ بنَ الخطابِ[2] .

﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ استدلَّ بهذا جماعةٌ من أصحابِ أبى حنيفةَ ، رحِمه اللَّهُ ، على صحةِ ما إذا باعه أحدَ هذَيْن العبدَيْنِ أو الثوْبَيْنِ ، ونحوَ ذلك ، أنه يَصِحُّ ؛ لقولِه : ﴿ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ ﴾ وفى هذا نَظَرٌ ؛ لأن هذه مراوَضـــةٌ لا معاقَدةٌ .

---

(١) سفر الخروج الأصحاح ٣/ ١.
(٢) تقدم تخريجه ١/ ٤٦٧.

واللَّهُ أعلمُ. واستَدَلَّ أصحابُ أحمدَ على صحة الإيجارِ بالطُّعْمةِ والكُسْوةِ، كما جرَت به العادةُ، واستأنسوا بالحديثِ الذى رواه ابنُ ماجَه[1] فى «سننِه» مترجِمًا فى كتابه «بابُ استئجارِ الأجيرِ على طعامِ بطنِه»: حدَّثنا محمدُ بنُ المُصَفَّى الحِمْصِىُّ، حدثَّنا بَقِيَّةُ بنُ الوليدِ، عن مَسْلَمَةَ بنِ عَلِىٍّ، عن سعيدِ بنِ أبى أيُّوبَ، عن الحارثِ بنِ يزيدَ، عن علىِّ بنِ رَبَاحٍ، قال: سمعتُ عُتْبَةَ بنَ النُّدَّرِ[2] يقولُ: كنَّا عندَ رسولِ اللَّهِ ﷺ، فقرأ «طسم»[3] حتى إذا بلَغ قصةَ موسى قال: «إنَّ موسى، عليه السلامُ، آجَرَ نفسَه ثمانىَ سِنِينَ، أو عَشْرًا، على عفَّةِ فرجِهِ وطعامِ بطنِه». وهذا من هذا الوجهِ لا يصحُّ؛ لأن مَسْلَمَةَ بنَ عَلِىٍّ الخُشَنِىَّ الدمشقىَّ البَلَاطِىَّ ضعيفٌ عندَ [١/١٥١ظ] الأئمةِ، لا يُحْتَجُّ بتفردِه، ولكن قد رُوِى مِن وجهٍ آخرَ؛ فقال ابنُ أبى حاتمٍ[4]: حدَّثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا يَحيى بنُ عبدِ اللَّهِ بنِ بُكَيْرٍ[5]، حدَّثنى ابنُ لَهِيعَةَ، (ح). وحدَّثنا أبو زُرْعَةَ، حدَّثنا صَفْوانُ، حدَّثنا الوليدُ؛ حدَّثنا عبدُ اللَّهِ بنُ لَهِيعَةَ، عن الحارثِ بنِ يزيدَ الحَضْرَمِىِّ، عن علىِّ بنِ رَباحٍ اللَّخْمِىِّ، قال: سمعتُ عُتْبَةَ بنَ النُّدَّرِ السُّلمِىَّ، صاحبَ رسولِ اللَّهِ ﷺ يُحدِّثُ أنّ رسولَ اللَّهِ قال: «إن موسى، عليه السلامُ، آجَرَ نَفْسَه لعفةِ فَرْجِه وطُعْمَةِ بَطْنِه».

---

(١) ابن ماجه (٢٤٤٤). (ضعيف ابن ماجه ٥٣٣)، وانظر الإرواء (١٤٨٨).

(٢) فى الأصل: «العدد»، وفى م: «الدر».

(٣) فى ح، م، ص: «طس».

(٤) ذكره المصنف فى تفسيره ٢٤٢/٦ من كلا الطريقين وعزاه لابن أبى حاتم. وأورده السيوطى فى الدر المنثور ١٢٦/٥ وعزاه أيضًا لابن أبى حاتم.

(٥) فى ح، م: «بكر».

ثُم قال تعالى[(1)] : ﴿ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [القصص: ٢٨]. يقولُ: إن موسى قال لصِهْرِه: الأمرُ على ما قلتَ، فأيُّهما قضيتُ فلا عدوانَ عليَّ، واللَّهُ على مقالتِنا سامعٌ وشاهِدٌ، ووكيلٌ عليَّ وعليك. ومع هذا فلم يَقْضِ موسى إلا أكملَ الأجلَيْنِ وأتمَّهما، وهو العشرُ سنينَ كواملَ تامَّةً.

قال البخاريُّ[(2)] : حدَّثنا محمدُ بنُ عَبدِ الرَّحيمِ، حدَّثنا سعيدُ بنُ سليمانَ، حدَّثنا مَرْوانُ بنُ شُجَاعٍ، عن سالمِ الأَفْطَسِ، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ، قال: سأَلَني يهوديٌّ من أهلِ الحيرةِ: أيَّ الأجلَيْنِ قضَى موسى؟ فقلتُ: لا أدْرى، حتى أَقْدَمَ على حَبْرِ العربِ فأَسأَلَه. فقَدِمتُ، فسألتُ ابنَ عباسٍ، فقال: قضَى أَكثَرَهما وأَطيبَهما، إنّ رسولَ اللَّهِ إذا قال فعَل. تفرَّدَ به البخاريُّ من هذا الوجهِ. وقد رواه النَّسائيُّ[(3)] فى حديثِ الفُتُونِ، كما سيأتى مِن طريقِ القاسمِ ابنِ أبى أيوبَ، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ به[(4)] . وقد رَواه ابنُ جريرٍ، عن أحمدَ بنِ محمدٍ الطُّوسيِّ، وابنُ أبى حاتمٍ[(5)] عن أبيه، كلاهما عن الحُمَيْدِيِّ، عن سفيانَ ابنِ عُيَيْنةَ، حدثنى إبراهيمُ بنُ يحيى بنِ أبى يعقوبَ، عن الحكَمِ بنِ أَبَانَ، عن عِكرِمةَ، عن ابنِ عباسٍ، أن رسولَ اللَّهِ ﷺ، قال: «سألتُ جبريلَ: أيَّ الأجلَيْنِ قضى موسى؟ قال: أتمَّهما وأكملَهما». وإبراهيمُ هذا غيرُ معروفٍ إلا

---

(١) التفسير ٦/ ٢٤١.

(٢) البخارى (٢٦٨٤).

(٣) انظر تخريجه فى صفحة ١٨١.

(٤) سقط من: ح، م.

(٥) ابن جرير فى تفسيره ٢٠/ ٦٨ وتاريخه ١/ ٣٩٩. وعزاه فى الدر المنثور ٥/ ١٢٦ إلى ابن أبى حاتم. والمصنف فى تفسيره ٦/ ٢٤١. صحيح (صحيح الجامع ٣٥٨٥).

بهذا الحديثِ . وقد رواه البزَّارُ[1] عن أحمدَ بنِ أبانَ القُرَشيِّ ، عن سفيانَ بنِ عُيَيْنةَ ، عن إبراهيمَ بنِ أَعْيَنَ ، عن الحكَمِ بنِ أَبَانَ ، عن عِكْرِمةَ ، عن ابنِ عباسٍ ، عن النبيِّ ﷺ ، فذكَره . وقد روَاهُ سُنَيْدٌ[2] عن حجَّاجٍ ، عن ابنِ جُرَيْجٍ ، عن مُجاهِدٍ مُرسَلًا ، أن رسولَ اللَّهِ ﷺ سأَل عن ذلك جبريلَ ، فسأَل جبريلُ إسرافيلَ ، فسأَل إسرافيلُ الرَّبَّ ، عز وجلَّ ، فقال : « أبرُّهما وأوفاهما » .

وبنحوِه رَواه ابنُ أبى حاتمٍ مِن حديثِ يوسفَ بنِ سَرْجٍ مرسَلًا . ورواه ابنُ جَريرٍ[3] من طريقِ محمدِ بنِ كعبٍ ، أن رسولَ اللَّهِ ﷺ سُئِل : أىَّ الأجلَيْنِ قضى موسى ؟ [١٥٢/١و] قال : « أوفاهما وأتمُّهما » . وقد رَواه البزَّارُ وابنُ أبى حاتمٍ[4] ، من حديثِ عُوَيْدِ بنِ أبى عِمْرانَ الجَوْنيِّ - وهو ضعيفٌ - عن أبيه ، عن عبدِ اللَّهِ بنِ الصامتِ ، عن أبى ذرٍّ أن رسولَ اللَّهِ ﷺ ، سُئل : أىَّ الأجلَيْنِ قضى موسى ؟ قال : « أوْفاهما وأبرَّهما » . قال : « وإن سُئلتَ : أىَّ المرْأتَيْنِ تزوَّجَ ؟ فقل : الصغرى منهما » . وقد رواه البزَّارُ وابنُ أبى حاتمٍ[5] من طريقِ عبدِ اللَّهِ بنِ لَهِيعَةَ ، عن الحارثِ بنِ يزيدَ الحَضْرَميِّ ، عن علىِّ بنِ رَبَاحٍ ، عن عُتْبَةَ بنِ النُّدَّرِ ، أن رسولَ اللَّهِ ﷺ ، قال : « إن موسَى آجَرَ نفسَه بعفَّةِ فَرْجِه وطعامِ

---

(١) كشف الأستار (٢٢٤٥) . وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٨٧: رواه أبو يعلى ، ورجاله رجال الصحيح غير الحكم بن أبان وهو ثقة ، ورواه البزار .

(٢) فى ص : « مسدد » . والحديث رواه ابن جرير فى تفسيره ٢٠/ ٦٨، ٦٩. من طريق سنيد به .

(٣) فى تفسيره ٢٠/ ٦٨.

(٤) كشف الأستار (٢٢٤٤) . وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٨٨: فيه إسحاق بن إدريس وهو متروك ، ورواه الطبرانى فى الصغير والأوسط بأطول من هذا ، وإسناده حسن . وعزاه فى الدر المنثور ١٢٧/٥ إلى ابن أبى حاتم .

(٥) كشف الأستار (٢٢٤٦) . وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٨٧، ٨٨: رواه البزار والطبرانى ... وفى إسنادهما ابن لهيعة ، وفيه ضعف وقد يحسن حديثه ، وبقية رجالهما رجال الصحيح .

وعزاه فى الدر المنثور ١٢٦/٥ إلى ابن أبى حاتم .

بَطْنِه . فلمَّا وفىَّ الأجَلَ » . قيل : يا رسولَ اللَّهِ ، أىَّ الأجلَيْنِ ؟ قال : « أبرَّهما وأوفاهما ، فلمَّا أراد فِراقَ شُعَيْبٍ ، أمَر امرأتَه أن تسألَ أباها أن يُعْطِيَها من غنمِه ما يعيشون به ، فأعْطاها (١ما ولَدَتْ غَنَمُه١) مِن قالبِ لونٍ(٢) مِن وَلَدِ ذلك العامِ ، وكانت غنمُه سُودًا حِسانًا ، فانطلَقَ موسى ، عليه السلامُ ، إلى عصًا قسَمها من طرَفِها ، ثُم وضَعها فى أدنَى الحَوضِ ، ثُم أوْرَدَها فسقاها ، ووَقَف موسى ، عليه السلامُ ، بإزاءِ الحوضِ ، فلم تَصْدُرْ منها شاةٌ إلا ضرَبَ جَنْبَها شاةً شاةً قال : فأتأَمَت وأثْلَثَت(٣) ووضَعت كلُّها قَوالبَ ألوانٍ ، إلا شاةً أو شاتَيْنِ ؛ ليس فيها فَشُوشٌ ، ولا ضَبُوبٌ ، ولا عَزُوزٌ ، ولا ثَعُولٌ ، ولا كَمْشَةٌ تَفُوتُ الكفَّ » . قال النبىُّ ﷺ : « لو افْتَتَحْتُم الشامَ وَجَدتُّم بقايا تلك الغنمِ ، وهى السَّامِريَّةُ » . قال ابنُ لَهِيعةَ : الفَشُوشُ : واسعةُ الشُّخْبِ . والضَّبوبُ : طويلةُ الضَّرْعِ تجرُّه . والعَزُوزُ : ضيِّقةُ الشّخبِ . والثَّعُولُ : الصَّغيرةُ الضَّرْعِ كالحَلَمتَيْنِ . والكَمْشَةُ التى لا يُحكَمُ الكفُّ على ضَرْعِها لصِغَرِه . وفى صحةِ رفعِ هذا الحديثِ نَظَرٌ ، وقد يكونُ موقوفًا(٤) ، كما قال ابنُ جريرٍ(٥) : حدثنا محمدُ بنُ المُثَنَّى ، حدثنا مُعَاذُ بنُ هشامٍ ، حدثنا أبى ، عن قَتادةَ ، حدثنا أنسُ بنُ مالكٍ ، قال : لمّا دعا نبىُّ اللَّهِ موسى صاحبَه إلى الأجلِ الذى كان بينَهما ، قال له صاحبُه : كلُّ شاةٍ ولدَتْ على لونِها فلَكَ ولدُها . فعَمَد فوضَع خيالًا على الماءِ ، فلمّا رأتِ الخيالَ فَزِعَتْ ، فجالت جَوْلةً ، فولَدْنَ كلُّهن بُلْقًا إلا شاةً واحدةً ،

(١ - ١) فى الأصل ، ح ، م : « ما ولدت من غنمه » . وفى ص : « ولد من ولدت من غنمه » . والمثبت من مصدر التخريج . وانظر مختصر تاريخ دمشق ٣١٤/٢٥ .
(٢) قالب لون : ما لونها على غير لون أمها .
(٣) فى الأصل : « وأثبت » ، وفى باقى النسخ : « وأنثت » . والمثبت من الدر المنثور ، وتفسير ابن كثير ٦/ ٢٤٣. وأتأمت الحامل : ولدت أكثر من واحد فى بطن واحد . وأثلثت الحامل : ولدت الثالث .
(٤) فى ا : « مرفوعًا » .
(٥) فى تفسيره ٢٠/ ٦٩.

فذهَب بأولادِهنَّ ذلك العامَ . وهذا إسنادٌ رجالُه ثقاتٌ . واللَّهُ أعلمُ . وقد تقدَّم ، عن نقلِ أهلِ الكتابِ [1] ، عن يعقوبَ عليه السلامُ ، حين فارَقَ خالَه لابانَ ، أنه أَطْلَق له ما يُولَدُ مِن غنَمِه بُلْقًا ، ففعَل نحوَ ما ذُكِر عن [١٥٢/١ظ] موسى ، عليه السلامُ ، فاللَّهُ أعلمُ .

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٢٩ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٠ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ۝٣١ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [2] [القصص : ٢٩- ٣٢] .

تقدَّمَ أن موسى قضى أتمَّ الأجلين وأكملَهما ، وقد يُؤخَذُ هذا من قولِه : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ ﴾ . وعن مُجاهِدٍ ، أنه أكمَل عشرًا ، وعشرًا بعدَها . وقولُه : ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ﴾ أى ؛ مِن عندِ صِهْرِه ذاهِبًا ، فيما ذكَره غيرُ واحدٍ من المفسِّرين وغيرِهم ، أنه اشتاق إلى أهلِه ، فقصَد زيارتَهم ببلادِ مصرَ ، فى صورةِ مُخْتَفٍ ، فلمّا سار بأهلِه ، ومعه وِلدانٌ منهم ، وغنمٌ قد استفادها مدةَ مُقامِه . قالوا : واتَّفَقَ ذلك فى ليلةٍ مظلمةٍ باردةٍ ، وتاهُوا فى طريقِهم ، فلم يَهتدوا إلى

---

(١) تقدم فى ١/ ٤٥٠، ٤٥١. وهو عند أهل الكتاب فى سفر الخروج الأصحاح ٣/ ٦.
(٢) التفسير ٦/ ٢٤٣- ٢٤٥.

السُّلوكِ فى الدَّرْبِ المألوفِ ، وجعَل يُورِى زِنادَه فلا يُورِى شيئًا ، واشتَدَّ الظلامُ والبردُ ، فبينَما هو كذلك إذْ أَبْصَر عن بُعْدٍ نارًا تَأَجَّجُ فى جانبِ الطُّورِ ، وهو الجبلُ الغربىُّ منه عن يمينِه ، فقال لأهلِه : ﴿ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا ﴾ وكأنه - واللَّهُ أعلمُ - رآها دونَهم ؛ لأن هذه النارَ هى نورٌ فى الحقيقةِ ، ولا تَصلُحُ رؤيتُها لكلِّ أحدٍ ﴿ لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ ﴾ أى ؛ لعلِّى أَسْتَعْلِمُ مَن عندَها عن الطريقِ ﴿ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴾ فدَلَّ على أنَّهم كانوا قد تاهُوا عن الطريقِ فى ليلةٍ باردةٍ ومظلمةٍ ؛ لقولِه فى الآيةِ الأُخرى[1] : ﴿ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ﴾ [طه: ٩، ١٠] . فدلَّ على وجودِ الظلامِ ، وكونِهم تاهُوا عن الطريقِ .

وجَمَع الكُلَّ فى سورةِ « النملِ » فى قولِه تعالى[2] : ﴿ إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴾ [١/١٥٣و] [النمل: ٧] . وقد أتاهم منها بخبرٍ ، وأىُّ خبرٍ ؟ ووجد عندَها هدًى ، وأىُّ هدًى ؟ واقتبَس منها نورًا ، وأىُّ نورٍ ؟ . قال اللَّهُ تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ . وقال تعالى فى « النمل »[3] : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [النملِ: ٨] .

---

(١) التفسير ٥/ ٢٧٠.
(٢) التفسير ٦/ ١٩٠.
(٣) التفسير ٦/ ١٩٠.

أى ؛ سبحانَ اللهِ الذى يفعلُ ما يشاءُ ويَحكُمُ ما يُريدُ. ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [النمل: ٩]. وقال فى سورةِ «طه»[1]: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ [طه: ١١- ١٦]. قال غيرُ واحدٍ مِن المُفسِّرين، من السلفِ والخلفِ: لمَّا قصَد موسى إلى تلك النارِ التى رآها، فانتهَى إليها، وجدها تأَجَّجُ فى شجرةٍ خضراءَ من العَوْسَجِ[2]، وكلُّ ما لتلك النارِ فى اضطِّرامٍ، وكلُّ ما لخُضْرةِ تلك الشجرةِ فى ازديادٍ، فوقَف متعجِّبًا، وكانت تلك الشجرةُ فى لِحْفِ[3] جبلٍ غربىٍّ[4] عن يمينِه ؛ كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [القصص: ٤٤]. وكان موسى فى وادٍ اسمُه طُوًى، فكان موسى مُستقبِلَ القبلةِ، وتلك الشجرةُ عن يمينِه من ناحيةِ الغربِ، فناداه ربُّه بالوادِ المقدَّسِ طُوًى، فأُمِر أولًا بخَلْعِ نَعْلَيه ؛ تعظيمًا وتكريمًا وتوقيرًا لتلك البقعةِ المبارَكةِ، ولا سِيَّما فى تلك الليلةِ المبارَكةِ. وعندَ أهلِ الكتابِ[5] أنه وضَع يدَه على وجهِه من شدةِ ذلك النورِ ؛ مهابةً له، وخوفًا على بصرِه.

---

(١) التفسير ٥/ ٢٧٠- ٢٧٣.

(٢) العوسج: جنس نبات شائك. الوسيط (عوسج).

(٣) لحف - بكسر اللام - أصل الجبل. القاموس المحيط (ل ح ف).

(٤) بعده فى الأصل، ح، م، ص: «منه».

(٥) سفر الخروج الأصحاح ٦/٣.

ثُم خاطَبه تعالى كما يشاءُ قائلًا له: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ أى؛ أنا اللَّهُ ربُّ العالَمين، الذى لا تَصْلُحُ العبادةُ وإقامةُ الصلاةِ إلا له. ثُم أخبَرَه أنَّ هذه الدنيا ليست بدارِ قَرارٍ، وإنما الدارُ الباقيةُ يومَ القيامةِ، التى لا بدَّ من كونِها ووجودِها ﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ أى؛ مِن خيرٍ وشرٍّ. وحضَّه وحثَّه على العملِ لها، ومُجانبةِ مَن لا يُؤمِنُ بها، ممَّن عَصَى مولاه، واتَّبَع هَواه. ثُم قال له مخاطبًا ومؤانِسًا، ومُبيِّنًا له أنه القادرُ على كلِّ شَىْءٍ الذى يقولُ للشىءِ: كنْ. فيكونُ: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧]. أى؛ أَمَا هذه عصاك التى تَعرِفُها منذُ صَحِبتَها؟ ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾ [طه: ١٨]. أى؛ بل هذه عصاى التى أعرِفُها وأتحقَّقُها ﴿قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ﴾ [طه: ١٩، ٢٠]. وهذا خارِقٌ عظيمٌ، وبرهانٌ قاطعٌ على أن الذى يكلِّمُه هو الذى يقولُ للشىءِ: كنْ. فيكونُ، وأنه الفعَّالُ بالاختيارِ.

وعندَ أهلِ الكتابِ(١) أنه سأل [١/١٥٣ظ] برهانًا على صدقِه عندَ مَن يكذِّبُه مِن أهلِ مصرَ، فقال له الربُّ، عزَّ وجلَّ: ما هذه التى فى يَدِك؟ قال: عصاىَ. قال: أَلْقِها إلى الأرضِ ﴿فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ﴾ فهرَب موسى مِن قُدَّامِها، فأمَره الربُّ، عزَّ وجلَّ، أن يَبْسُطَ يدَه ويأخذَها بذَنَبِها، فلمَّا استَمْكَنَ مِنها ارتدت عصًا فى يدِه. وقد قال اللَّهُ تعالى فى الآيةِ الأخرى(٢): ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ

---

(١) سفر الخروج الأصحاح ٤/ ١.
(٢) التفسير ٦/ ٢٤٥.

﴿ يُعَقِّبْ ﴾ أى ؛ صارت حَيَّةً عظيمةً ، لها ضَخامةٌ هائِلةٌ ، وأنيابٌ تَصْطَكُّ[1] ، وهى مع ذلك فى سُرعةِ حركةِ الجانِّ ؛ وهو ضربٌ من الحيَّاتِ ، يقالُ له : الجانُّ والجنانُ . وهو لَطيفٌ ، ولكنه سريعُ الاضطرابِ والحركةِ جدًّا ، فهذه جمعَت الضخامَةَ والسرعةَ الشديدةَ ، فلمّا عايَنَها موسى ، عليه السلامُ ، ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ﴾ أى ؛ هاربًا مِنها ؛ لأن طبيعتَه البشريةَ تَقْتَضى ذلك ، ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أى ؛ ولم يلْتَفِتْ ، فناداه ربُّه قائلًا له : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾ فلما رجع أمره اللهُ تعالى أن يُمسِكَها ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ فيقالُ : إنه هابَها شديدًا ، فوضَع يدَه فى كُمِّ مِدْرَعَتِه ، ثُم وضَع يدَه فى وسَطِ فَمِها - وعند أهلِ الكتابِ[2] : بذَنَبِها - فلمَّا استَمْكَنَ منها ، إذا هى قد عادت كما كانت عصًا ذاتَ شُعْبَتَيْنِ . فسبحانَ القديرِ العظيمِ ، ربِّ المشرِقَيْنِ وربِّ المغْرِبَيْنِ . ثُم أمَره تعالى بإدخالِ يدِه فى جَيْبِه ، ثُم أمَره بنَزْعِها فإذا هى تَتَلألأُ كالقمرِ بَياضًا ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ أى ؛ من غيرِ برَصٍ ولا بَهَقٍ . ولهذا قال : ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ﴾ قيل : معناه إذا خِفْتَ ، فضَعْ يَدَكَ على فؤادِك ، يَسْكُنْ جأشُك . وهذا وإن كان خاصًّا به ، إلا أنَّ بِبَرَكَةِ الإيمانِ به حَقَّ الإيمانِ[3] يَنْتَفِعُ مَن استعمل ذلك على وجهِ الاقتداءِ بالأنبياءِ . وقال فى سورةِ « النملِ »[4] : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ

---

(١) تصطك : تضطرب . الوسيط (ص ك ك) .
(٢) سفر الخروج الأصحاح ٤/ ١- ٤.
(٣) فى ح ، م : « بأن » .
(٤) التفسير ٦/ ١٩١.

غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [النمل: ١٢].
أى؛ هاتانِ الآيتانِ وهما العصَا واليدُ، وهما البُرهانانِ المشارُ إليهما فى قولِه:
﴿ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ ومع ذلك سبعُ آياتٍ أُخَرَ، فذلك تسعُ آياتٍ بيِّناتٍ، وهى المذكورةُ فى آخرِ سورةِ «سبحان» حيثُ يقولُ تعالى[1]: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ [١٥٤/١و] عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠١، ١٠٢]. وهى المبسوطةُ فى سورةِ «الأعرافِ» فى قولِه: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠- ١٣٣]. كما سيأتى الكلامُ على ذلك فى موضعِه. وهذه التِّسعُ الآياتُ غيرُ العشْرِ كلماتٍ؛ فإن التسعَ من آياتِ[2] اللَّهِ القَدَريَّةِ، والعشْرَ من كلماتِه الشَّرعيَّةِ. وإنما نَبَّهْنَا على هذا؛ لأنَّه قد اشتَبَهَ أمرُها على بعضِ الرواةِ، فظنَّ أن هذه هى هذه، كما قرَّرْنا ذلك فى تفسيرِ آخرِ سورةِ بنى إسرائيلَ[3].

---

(١) التفسير ٥/ ١٢٢.

(٢) فى ح، م: «كلمات».

(٣) التفسير ٥/ ١٢٤.

والمقصودُ أنَّ اللَّهَ سبحانَه لمَّا أمَرَ موسى، عليه السلامُ، بالذَّهابِ إلى فرعونَ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [القصص: ٣٣- ٣٥][1]. يقولُ تعالى مخبِرًا عن عبدِه ورسولِه وكَلِيمِه موسى، عليه السلامُ، في جوابِه لربِّه، عزَّ وجلَّ، حينَ أمَرَه بالذَّهابِ إلى عدوِّه، الذي خرَج مِن ديارِ مصرَ فِرارًا من سَطْوَتِه وظُلْمِه، حينَ كان مِن أمْرِه ما كان في قتلِ ذلك القِبْطيِّ، ولهذا ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ أي؛ اجعَلْه مَعى مُعينًا ورِدْءًا ووزيرًا يساعدُني ويُعِينُني على أداءِ رسالتِكَ إليهم؛ فإنه أفصحُ مِنِّي لسانًا وأبلغُ بيانًا. قال اللَّهُ تعالى، مُجيبًا له إلى سُؤالِه: ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا ﴾ أي؛ برهانًا ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ أي؛ فلا ينالون منكما مَكْروهًا بسببِ قيامِكما بآياتِنا. وقيل: ببركةِ آياتِنا ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾. وقال في سورةِ «طه»[2]: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴾ [طه: ٢٤- ٢٨]. قيل: إنه أصابه في لسانِه لُثْغةٌ؛ بسببِ تلك الجَمْرةِ التي وضَعها على لسانِه، التي كان فرعونُ أراد [١٥٤/١ظ] اختبارَ عقلِه، حينَ

---

(١) التفسير ٦/ ٢٤٥- ٢٤٧.
(٢) التفسير ٥/ ٢٧٥- ٢٧٧.

أخذَ بلحيتِه وهو صغيرٌ، فهَمَّ بقتلِه، فخافت عليه آسيةُ، وقالت: إنه طفلٌ. فاختبَرَه بوضعِ تَمْرةٍ وجَمْرةٍ بينَ يدَيْه، فهَمَّ بأخذِ التمرةِ، فصَرَفَ المَلَكُ يدَه إلى الجمرةِ، فأَخَذَها، فوضَعها على لسانِه، فأصابَه لُثْغَةٌ بسببِها، فسأَل زوالَ بعضِها بمقدارِ ما يفْهَمون قولَه، ولم يَسأَلْ زوالَها بالكُلِّيَّةِ. قال الحسنُ البصريُّ: والرُّسلُ إنما يَسأَلون بحسَبِ الحاجةِ. ولهذا بَقِيَتْ فى لسانِه بَقِيَّةٌ، ولهذا قال فرعونُ، قَبَّحه اللَّهُ، فيما زعَم أنه يَعِيبُ به الكَليمَ: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢]. أى؛ يُفصِحُ عن مرادِه، ويُعبِّرُ عمَّا فى ضميرِه وفؤادِه.

ثم قال موسى، عليه السلامُ: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ۝٣٢ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝٣٥ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[1] [طه: ٢٩- ٣٦]. أى؛ قد أجَبْناك إلى جميعِ ما سألتَ، وأعطيناك الذى طلبتَ. وهذا مِن وَجَاهتِه عندَ ربِّه، عزَّ وجلَّ، حين شفَع أن يُوحِيَ اللَّهُ إلى أخيه، فأَوْحَى إليه، وهذا جاهٌ عظيمٌ، قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]. وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣]. وقد سَمِعَتْ أمُّ المؤمنين عائشةُ رجلًا يقولُ لأناسٍ، وهم سائرون فى طريقِ الحجِّ: أىُّ أخٍ أَمَنُّ على أخيه؟ فسكَت القومُ، فقالت عائشةُ لِمَن حوْلَ هَوْدَجِها: هو موسى بنُ عِمْرانَ حين شفَع فى أخيه أن يكونَ نبيًّا يُوحى إليه[2]. قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾.

---

(١) التفسير ٥/ ٢٧٧.

(٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٥/٢٧٧ بنحوه.

وقال تعالى فى سورةِ «الشُّعراءِ»[1] : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠- ١٩]. تقديرُ الكلامِ: فأَتِيَاه فقُولَا له ذلك، وبلِّغاه ما أُرْسِلْتُما به؛ مِن دعوتِه إلى عبادةِ اللَّهِ تعالى وحدَه لا شريكَ له، وأن يَفُكَّ أُسَارَى بنى إسرائيلَ مِن قَبْضَتِه وقَهْرِه وسَطْوتِه، ويَترُكَهم يَعْبُدون ربَّهم حيث شاءوا، ويتفرَّغون لتوحيدِه، ودعائِه، والتضرُّعِ[2] لَدَيْه. فتكبَّر فرعونُ فى نفسِه، وعتَا وطغَى، ونظَر إلى موسى، عليه السلامُ، بعينِ الازْدِراءِ والتنقُّصِ، قائلًا له: ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ أى؛ أمَا [١/ ١٥٥و] أنت الذى ربَّيْناه فى مَنْزِلِنا وأحسنَّا إليه، وأَنْعَمْنا عليه مدةً من الدَّهرِ؟ وهذا يدُلُّ على أن فرعونَ الذى بُعِث إليه هو الذى فرَّ منه، خِلافًا لِمَا عندَ أهلِ الكتابِ[3] مِن أن فرعونَ الذى فرَّ منه مات فى مدةِ مُقامِه بمَدْيَنَ، وأن الذى بُعِث إليه فرعونُ آخرُ. وقولُه: ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أى؛ وقتلتَ الرجلَ القِبْطِيَّ، وفرَرْتَ منَّا، وجَحَدْتَ نِعْمتَنا

---

(١) التفسير ٦/ ١٤٦.

(٢) بعده فى الأصل: «لدعائه».

(٣) سفر الخروج الأصحاح ٤/ ١٩- ٢٣.

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾[1] أى ؛ قبلَ أن يُوحَى إلىَّ ، ويُنَزَّلَ علىَّ ، ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[1] [الشعراء: ٢١] . ثم قال مُجيبًا لفرعونَ عمَّا امتنَّ به عليه[2] من التربيةِ والإحسانِ إليه ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[3] [الشعراء: ٢٢] . أى ؛ وهذه النعمَةُ التى ذكَرْتَ ، مِن أنك أَحسنتَ إلىَّ ، وأنا رجلٌ واحدٌ مِن بنى إسرائيلَ ، تُقابِلُ ما استخدمتَ هذا الشعبَ العظيمَ بكمالِه ، واستعبدتَهم فى أعمالِك وخدمتِك وأشغالِك .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[4] [الشعراء: ٢٣- ٢٨] . يَذكرُ تعالى ما كان بينَ[5] فرعونَ وموسى ، مِن المُقاوَلةِ والمُحاجَّةِ والمُناظَرةِ ، وما أقامَه الكَليمُ على فرعونَ اللئيمِ مِن الحُجَّةِ العَقْليةِ المَعْنويةِ ثُم الحِسِّيةِ . وذلك أن فرعونَ ، قبَّحه اللَّهُ ، أَظْهَر جَحْدَ الصانعِ تبارك وتعالى ، وزعم أنه الإلهُ ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[6] [النازعات: ٢٣، ٢٤] . وقالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص: ٣٨] . وهو فى هذه المقالةِ معانِدٌ ،

---

(١) التفسير ٦/ ١٤٧.
(٢) ليست فى : ح ، م.
(٣) التفسير ٦/ ١٤٧.
(٤) التفسير ٦/ ١٤٧، ١٤٨.
(٥) فى الأصل ، ص : «من».
(٦) التفسير ٨/ ٣٣٨.

يَعلمُ أنه عبدٌ مَرْبوبٌ ، وأنَّ اللَّهَ هو الخالقُ البارئُ المُصوِّرُ ، الإلهُ الحقُّ ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٤] . ولهذا قال لموسى ، عليه السلامُ ، على سبيلِ الإنكارِ لرسالتِه ، والإظهارِ أنَّه ما ثَمَّ ربٌّ أَرْسَلَه : ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣] . لأنَّهما قالا له : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فكأنه يقولُ لهما : ومَنْ ربُّ العالمين ، الذى تَزعُمان أنه أَرسَلكما وابتَعَثكما ؟ فأجابه موسى قائلًا : ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٤] . يعنى ربَّ العالمين ، خالقَ هذه السمواتِ والأرضِ المُشاهَدةِ ، وما بينَهما من المخلوقاتِ المتجدِّدةِ ؛ من السحابِ والرياحِ والمطرِ والنباتِ والحيواناتِ ، التى يَعلمُ[(١)] كلُّ موقِنٍ أنها [١/١٥٥ظ] لم تَحْدُثْ بأنْفُسِها ، ولابدَّ لها من مُوجِدٍ ومُحْدِثٍ وخالقٍ ، وهو اللَّهُ الذى لا إلهَ إلا هو ربُّ العالمين . ﴿ قَالَ ﴾ أى ؛ فرعونُ ﴿ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ ﴾ مِن أمرائِه ، ومَرازِبَتِه[(٢)] ووُزَرائِه ، على سَبيلِ التَّهكُّمِ والتَّنقُّصِ لِما قرَّره موسى ، عليه السلامُ : ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ يعنى كلامَه هذا . قال موسى مخاطبًا له ولهم : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٦] . أى ؛ هو الذى خلَقَكم والذين مِن قبلِكم ؛ من الآباءِ والأجدادِ والقرونِ السالفةِ فى الآبادِ ، فإنَّ كلَّ أحدٍ يَعْلمُ أنه لم يَخلُقْ نفسَه ولا أبوه ولا أُمُّه ، ولم يَحْدُثْ من[(٣)] غيرِ مُحدِثٍ ، وإنما أوْجدَه وخلَقَه اللَّهُ ربُّ العالمِين . وهذانِ المَقامانِ هما

---

(١) بعده فى الأصل : « الله الذى لا إله إلا هو و » .

(٢) فى الأصل : « ومرازبة » . والمَرْزُبان - بضم الزاى - هو الفارس الشجاع المقدم على القوم دون الملك ، وهو معرب . اللسان (ر ز ب) .

(٣) فى الأصل : « عن » .

المذْكورانِ فى قولِه تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. ومع هذا كلِّه لم يَسْتَفِقْ فرعونُ من رَقْدَتِه، ولا نزَع عن ضلالتِه، بل استمرَّ على طُغيانِه وعنادِه، وكفرانِه ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٧، ٢٨]. أى؛ هو المسخِّرُ لهذه الكواكبِ الزاهرةِ، المسيِّرُ للأفلاكِ الدائرةِ، خالقُ الظلامِ والضياءِ، وربُّ الأرضِ والسماءِ، ربُّ الأوَّلِينَ والآخِرينَ، خالقُ الشمسِ والقمرِ، والكواكبِ السائرةِ والثوابتِ الحائرةِ[1]، خالقُ الليلِ بظَلامِه والنهارِ بضيائِه، والكلُّ تحتَ قهرِه وتسخيرِه وتَسْييرِه سائرونَ، وفى فلَكٍ يَسْبَحون، يَتعاقَبون فى سائرِ الأوقاتِ ويَدُورون، فهو تعالى الخالقُ المالِكُ المتصرِّفُ فى خلقِه بما يشاءُ.

فلمّا قامتِ الحُجَجُ على فرعونَ وانقطعَتْ شُبَهُه، ولم يَبْقَ له قولٌ سِوى العنادِ، عدَل إلى استِعمالِ سلطانِه وجاهِه وسَطْوتِه، قال: ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾[2] [الشعراء: ٢٩- ٣٣]. وهذان هما البرهانانِ اللذانِ أيَّده اللَّهُ بهما، وهما العصا واليدُ. وذلك مَقامٌ أَظْهَرَ فيه الخارقَ العظيمَ، الذى بهرَ به العقولَ والأبصارَ، حينَ ألقى عصاه فإذا هى ثعبانٌ مبينٌ، أى عظيمُ الشكلِ، بديعٌ فى الضَّخامةِ والهَوْلِ، والمَنْظرِ العظيمِ الفَظيعِ الباهرِ، حتى قيل: إن فرعونَ

(١) فى الأصل: «الجائرة».
(٢) التفسير ٦/١٤٨، ١٤٩.

لمَّا شاهَد ذلك وعاينَه، أخَذَه رُعْبٌ شديدٌ، وخوفٌ عظيمٌ، بحيثُ إنه حصَل له إسْهالٌ عظيمٌ أكثرَ من أربعينَ مرَّةً فى يومٍ واحدٍ[1]، وكان قبلَ ذلك لا يَتبرَّزُ فى كلِّ أربعينَ يومًا إلا مرةً واحدةً، فانعكَس عليه الحالُ. وهكذا لمَّا أدخَل موسى، عليه السلامُ، يدَه فى جَيْبِه واستخرجَها، [١/١٥٦و] أخرجَها وهى كفِلْقَةِ القمرِ، تَتَلأْلأُ نورًا يَبْهَرُ الأبصارَ، فإذا أعادها إلى جَيْبِه رجعَت إلى صفَتِها الأولى، ومع هذا كلِّه لم يَنتَفِعْ فرعونُ، لعنه اللَّهُ، بشىءٍ من ذلك، بل استَمرَّ على ما هو عليه، وأظْهَرَ أنَّ هذا كلَّه سِحْرٌ، وأراد معارضَتَه بالسَّحَرةِ، فأرْسَلَ يَجْمَعُهم مِن سائرِ مَمْلَكتِه، ومَن فى رَعيَّتِه وتحتَ قهرِه ودَوْلتِه، كما سيأتى بَسْطُه وبيانُه فى موضعِه؛ من إظهارِ اللَّهِ الحقَّ المبينَ، والحُجةَ الباهرةَ القاطعةَ على فِرْعونَ وملئِه، وأهلِ دولتِه ومِلَّتِه، وللَّهِ الحمدُ والمِنَّةُ.

وقال تعالى فى سورةِ «طه»[2]: ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٠- ٤٦]. يقولُ تعالى مخاطِبًا لموسى، فيما كَلَّمه به ليلةَ أَوْحَى إليه، وأَنْعَمَ بالنبوةِ عليه، وكَلَّمه مِنه إليه: قد كنتُ مشاهِدًا لك وأنتَ فى دارِ فرعونَ، وأنتَ تحتَ كَنَفِى وحِفْظِى ولُطْفى، ثُم أَخْرَجْتُك مِن أرضِ مصرَ إلى أرضِ مَدْيَنَ بمشيئَتِى، وقُدْرَتى[3] وتَدْبيرى، فلَبِثْتَ

---

(١) زيادة من: الأصل.

(٢) التفسير ٥/ ٢٨٧- ٢٨٩.

(٣) فى الأصل، ح: «وقدرى».

فيها سنينَ ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ ﴾ أى ؛ مِنِّى لذلك ، فوافَقَ ذلك تَقْديرى وتَسْيِيرى ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ أى ؛ اصْطَفَيْتُك لِنَفْسِى برسالَتِى وبكَلامِى ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾ يَعنى : ولا تَفْتُرا فى ذكرى ، إذ قدِمْتُما عليه ، ووَفَدْتُما إليه ؛ فإن ذلك عونٌ لكما على مخاطبتِه ومجاوَبَتِه ، وإهداءِ النصيحَةِ إليه ، وإقامةِ الحُجَّةِ عليه . وقد جاء فى بعضِ الأحاديثِ[1] : « يقولُ اللّٰهُ تعالى : « إن عَبْدِى كُلَّ عَبْدِى الَّذِى يَذْكُرُنِى وَهو مُلَاقٍ قِرْنَه » . وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال : ٤٥] .

ثُم قال تعالى : ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ وهذا من حِلمِه[2] تعالى ، وكرمِه ورأفتِه ورحمتِه بخلقِه ، مع علمِه بكفرِ فرعونَ وعُتُوِّه ، وتَجَبُّرِه ، وهو إذ ذاك أرْدَى خلقِه ، وقد بعَث إليه صفوتَه مِن خلقِه فى ذلك الزمانِ ، ومع هذا يقولُ لهما ويأمرُهما أن يَدْعُواه إليه بالتى هى أحسنُ ؛ برِفْقٍ ولِينٍ ، ويُعامِلاه معاملةَ مَن يَرجُو أن يتذكَّرَ أو يخشَى ، كما قال تعالى لرسولِه ﷺ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [النحل : ١٢٥] . وقال تعالى : ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ [١/١٥٦ظ] ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ ﴾ الآية [العنكبوت : ٤٦] . قال الحسنُ البصرىُّ : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ ؛ أَعْذِرَا إليه ، قولا له : إنَّ لك ربًّا ، ولك مَعادًا ، وإنَّ بين يدَيْكَ جنة

---

(١) رواه الترمذى (٣٥٨٠) وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . (ضعيف الترمذى ٧٢١) .

(٢) فى الأصل : « حكمة اللّٰه » . فى ص : « علمه » .

ونارًا[1] . وقال وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ : قولا له : إنى إلى العفوِ والمَغْفِرةِ أقربُ منِّى إلى الغَضَبِ والعُقُوبةِ . وقال يَزِيدُ الرَّقَاشِىُّ عندَ هذه الآيةِ : يا مَن يَتحبَّبُ إلى مَن يُعاديه ، فكيف بمَن يتولَّاه ويُناديه[2] ؟ ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ وذلك أن فرعونَ كان جبَّارًا عَنيدًا ، شيطانًا مَريدًا ، له سلطانٌ فى بلادِ مصرَ طويلٌ عريضٌ ، وجاهٌ وجنودٌ وعساكرُ وسَطْوةٌ ، فهاباه من حيثُ البشريةُ ، وخافا أن يَسْطُوَ عليهما فى بادئ الأمرِ ، فثبَّتهما اللَّهُ تعالى ، وهو العلىُّ الأعلى ، فقال : ﴿ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ ، كما قال فى الآيةِ الأخرى : ﴿ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [طه: ٤٧، ٤٨] . يذكرُ تعالى أنَّه أمَرهما أن يَذْهَبا إلى فرعونَ ، فيَدْعُوَاه إلى اللَّهِ تعالى ؛ أن يعبدَه وحدَه لا شريكَ له ، وأن يُرسِلَ معهم بنى إسرائيلَ ، ويُطْلِقَهم مِن أسْرِه وقَهْرِه ، ولا يُعذِّبهم ﴿ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ ﴾ وهو البرهانُ العظيمُ فى العصا واليدِ ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ تَقْييدٌ مفيدٌ بليغٌ عظيمٌ . ثم تهدَّداه وتوعَّداه على التكذيبِ ، فقالا : ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أى ؛ كذَّب بالحقِّ بقلبِه ، وتولَّى عن العملِ بقالَبِه .

وقد ذكَر السُّدِّىُّ وغيرُه[3] ، أنه لما قَدِم من بلاد مَدْيَنَ ، دخَل على أُمِّه

---

(١) ذكره فى الدر المنثور ٤/ ٣٠١، وعزاه إلى ابن أبى حاتم .

(٢) ذكره فى الدر ٣٠١/٤ وعزاه إلى ابن أبى حاتم من حديث الفضل بن عيسى الرقاشى .

(٣) تاريخ الطبرى ١/ ٤٠٣.

وأخيه هارونَ ، وهما يَتعشَّيانِ من طعامٍ فيه الطُّفَيْشَلُ[1] ؛ وهو اللُّفْتُ ، فأكل معَهما ، ثُم قال : يا هارونُ ، إن اللَّهَ أمَرنى وأمَرك أن نَدعُوَ فرعونَ إلى عبادتِه ، فقُم معى . فقاما يَقصِدانِ بابَ فرعونَ ، فإذا هو مُغْلَقٌ ، فقال موسى للبوَّابِينَ والحَجَبَةِ : أَعْلِموه أنَّ رسولَ اللَّهِ بالبَابِ . فجعَلوا يسخَرون منه ويستهزئون به . وقد زعَم بعضُهم أنه لم يُؤْذَنْ لهما عليه إلا بعدَ حينٍ طويلٍ . وقال محمدُ بنُ إسحاقَ : أُذِنَ لهما بعدَ سنتينِ[2] ؛ لأنه لم يَكُ أحدٌ يَتجاسَرُ على الاستئذانِ لهما . فاللَّهُ أعلمُ . ويقالُ : إن موسى تقدَّم إلى البابِ فطرَقه بعصاه ، فانزعَج فرعونُ ، وأمرَ بإحضارِهما ، فوقفا بينَ يديْه ، فدَعَواه إلى اللَّهِ ، عزَّ وجلَّ ، كما أمَرهما . وعندَ أهلِ الكتابِ[3] ، أنَّ اللَّهَ قال لموسى ، عليه السلامُ : إنَّ هارونَ اللَّاوِيَّ - يعنى الذى مِن [١/١٥٧و] نسلِ لاوِى بنِ يعقوبَ - سيخْرجُ ويتلقَّاك . وأَمَرَه أن يأخذَ معه مشايخَ بنى إسرائيلَ إلى عندِ فرعونَ ، وأمَره أن يُظهرَ ما آتاه من الآياتِ . وقال له : سأُقسِّى قلبَه فلا يُرْسِلُ الشعبَ ، وأُكْثِرُ آياتى وأعاجيبى[4] بأرضِ مصرَ . وأَوْحَى اللَّهُ إلى هارونَ أن يَخْرُجَ إلى أخيه ، يتَلقَّاه بالبَرِّيَّةِ عندَ جبلِ حوريب ، فلمَّا تَلَقَّاه ، أخبرَه موسى بما أَمَرَه به ربُّه ، فلمَّا دخَلا مصرَ ، جَمعَا شُيوخَ بنى إسرائيلَ ، وذهَبا إلى فرعونَ ، فلمَّا بلَّغَاه رسالةَ اللَّهِ ، قال : مَن هو اللَّهُ ؟ لا أعرِفُه ، ولا أُرسِلُ بنى إسرائيلَ .

وقال اللَّهُ[5] مُخْبِرًا عن فرعونَ : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا

---

(١) نوع من المرق . تاج العروس (طفشل) .
(٢) فى الأصل : « سنين » . انظر تاريخ الطبرى ١/ ٤٠٥ .
(٣) سفر الخروج الأصحاح ٤/ ١٤- ٢١، ٢٧- ٣٠ .
(٤) فى الأصل : « وإياى » .
(٥) التفسير ٥/ ٢٩١، ٢٩٢ .

﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝٥٢ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٤٩- ٥٥]. يقولُ تعالى مُخبِرًا عن فرعونَ أنه أنكَر إثباتَ الصانعِ تعالى، قائلًا: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أى؛ هو الذى خلَق الخلقَ، وقدَّر لهم أعمالًا وأرزاقًا وآجالًا، وكتَب ذلك عندَه فى كتابِه اللوحِ المحفوظِ، ثُم هدَى كلَّ مخلوقٍ إلى ما قدَّره له، فطابَق عِلْمَه فيهم على الوجهِ الذى قدَّره وعَلِمه؛ لكمالِ عِلمِه وقُدْرَتِه وقَدَرِه. وهذه الآيةُ كقولِه تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ١- ٣]. أى؛ قدَّر قَدَرًا، وهدَى الخلائقَ إليه ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ يقول فرعونُ لموسى: فإذا كان ربُّك هو الخالقَ المقدِّرَ، الهادىَ الخلائِقَ، لِمَا قدَّره، وهو بهذه المثابةِ مِن أنه لا يَستحقُّ العبادةَ سواه، فلِمَ عَبَدَ الأولون غيرَه، وأشرَكُوا به مِن الكواكبِ والأندادِ ما قد عَلِمتَ؟ فهلَّا اهتَدَى إلى ما ذَكَرْتَهُ القرونُ الأولى؟ ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ أى؛ هم وإن عبدُوا غيرَه فليس ذلك بحُجَّةٍ لك، ولا يدُلُّ على خلافِ ما أقولُ؛ لأنَّهم جَهَلَةٌ مثلُك، وكلُّ شىْءٍ فَعَلوه مُسْتَطَرٌ عليهم فى الزُّبُرِ، من صغيرٍ وكبيرٍ، وسيَجزِيهم على ذلك ربِّى، عز وجل، ولا يَظْلِمُ أحدًا مثقالَ ذرةٍ؛ لأن جميعَ أفعالِ العبادِ مكتوبةٌ عندَه فى كتابٍ لا يَضِلُّ عنه شَىْءٌ، ولا يَنْسَى ربِّى شيئًا. ثم ذكَر له عظمةَ الربِّ، وقدرتَه على خلقِ الأشياءِ وجَعْلَه الأرضَ

مِهادًا ، والسماءَ سقفًا محفوظًا ، وتسخيرَه السحابَ والأمطارَ لرزقِ العبادِ ودَوَابِّهم وأنعامِهم ، كما قال : ﴿ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾ أى ؛ لِذَوِى العقولِ [1] الصحيحةِ المستقيمةِ والفِطَرِ القويمةِ غيرِ السَّقيمةِ . فهو تعالى الخالقُ الرّازقُ . وكما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١، ٢٢] . ولمَّا ذكر إحياءَ الأرضِ بالمطرِ ، واهتزازَها بإخراجِ نباتِها فيه ، نبَّه به على المَعادِ فقال : ﴿ مِنۡهَا ﴾ أى ؛ من الأرضِ ﴿ خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٩] . وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [الروم : ٢٧] .

ثم قال تعالى [2] : ﴿ وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ۝٥٨ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ﴾ [طه : ٥٦- ٥٩] . يخبِرُ تعالى عن شقاءِ فرعونَ وكثرةِ جهلِه ، وقِلَّةِ عقلِه فى تكذيبِه بآياتِ اللَّهِ ، واستكبارِه عن اتِّباعِها ، وقولِه لموسى : إنَّ هذا الذى جئتَ به سِحرٌ ، ونحن نعارضُك بمثلِه . ثُم طلَب من موسى [1]

(١- ١) سقط من : الأصل .
(٢) التفسير ٥/ ٢٩٢، ٢٩٣ .

(1)أن يواعدَه إلى وقتٍ معلومٍ ومكانٍ معلومٍ، وكان هذا من أكبرِ مقاصدِ موسى، عليه السلامُ؛ أن يُظْهِرَ آياتِ اللَّهِ وحُجَجَه وبراهينَه جَهْرةً بحضرةِ الناسِ، ولهذا قال: ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾ وكان يومَ عيدٍ من أعيادِهم، ومجتمَعٍ لهم ﴿ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ أى؛ من أولِ النهارِ، فى وقتِ اشتدادِ ضياءِ الشمسِ، فيكونُ الحقُّ أَظْهرَ وأَجْلَى. ولم يَطْلُبْ أن يكونَ ذلك ليلًا فى ظَلامٍ، كَيْما يُرَوِّجُ عليهم مِحالًا وباطلًا، بل طلَب أن يكونَ نهارًا جَهْرةً؛ لأنه على بَصيرةٍ من ربِّه، ويقينٍ أن اللَّهَ سيُظهرُ كلمتَه ودينَه، وإنْ رَغِمَت أنوفُ القِبْطِ.

قال اللَّهُ تعالى(2): ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ۝٦٢ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ۝٦٣ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾ [طه: ٦٠- ٦٤]. يخبرُ تعالى عن فرعونَ أنه ذهَب، فجمَع مَن كان ببلادِه من السحَرةِ، وكانت بلادُ مصرَ فى ذلك الزَّمانِ مملوءةً سَحَرةً، فُضَلَاءَ، فى فَنِّهِم غايةٌ، فجُمعوا له من كلِّ بلدٍ، ومن كلِّ مكانٍ، فاجتمَع منهم خَلْقٌ كثيرٌ وجَمٌّ غفيرٌ. فقيل: كانوا ثمانينَ ألفًا. قاله محمدُ بنُ كعبٍ. وقيل: سبعين ألفًا. قاله القاسمُ بن أبى بَزَّةَ(3). وقال السُّدِّىُّ: بِضعةً وثلاثين ألفًا. وعن أبى أمامةَ: تسعةَ عشَرَ ألفًا. وقال(1)

(١- ١) سقط من: الأصل.

(٢) التفسير ٥/ ٢٩٤، ٢٩٥.

(٣) فى ا، م، ص: «بردة». وانظر التقريب ٢/ ١١٥.

(1) محمدُ بنُ إسحاقَ : خمسةَ عشَرَ ألفًا . وقال كعبُ الأحبارِ : كانوا اثنَىْ عشَرَ ألفًا . وروَى ابنُ أبى حاتمٍ عن ابنِ عباسٍ : كانوا سَبْعينَ رجلًا . وروَى عنه أيضًا أنهم كانوا أربعين غُلَامًا من بنى إسرائيلَ ، أمَرهم فرعونُ أن يَذهبوا إلى العُرَفاءِ ، فيتعلَّموا السِّحرَ . ولهذا قالوا : ﴿ وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ وفى هذا نظَرٌ[2] .

وحضَر فرعونُ وأمراوه وأهلُ دَوْلتِه وأهلُ مِصْرَ عن بَكْرَةِ أبيهم ؛ وذلك أن فرعونَ نادَى فيهم أن يَحضُروا هذا الموقفَ العظيمَ ، فَخَرَجوا وهم يقولون : ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴾[3] [الشعراء: ٤٠] ، وتَقَدَّم موسى عليه السلامُ إلى السحرةِ ، فوعَظَهم وزجَرَهم عن تعاطِى السحْرِ الباطلِ ، الذى فيه معارَضةٌ لآياتِ اللّهِ وحُجَجِه ، فقال : ﴿ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ ﴾ قيل : معناه أنهم اختلَفوا فيما بينَهم ؛ فقائِلٌ يقولُ : هذا كلامُ نبىٍّ وليس بساحرٍ . وقائلٌ منهم يَقولُ : بل هو ساحرٌ . فاللّهُ أعلمُ . وأسرُّوا التَّناجىَ بهذا وغيرِه ﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا ﴾ يقولون : إنَّ هذا وأخاه هارونَ ساحرانِ ، عَليمانِ ، مُطْبقانِ مُتْقِنانِ لهذه الصناعةِ ، ومرادُهم أن يَجتمعَ الناسُ عليهما ، ويَصُولَا على المَلِكِ وحاشيتِه ، ويَستأصِلاكم عن آخِرِكم ، ويَستأمِرا عليكم بهذه الصناعةِ(1)

(١ - ١) سقط من: الأصل.

(٢) انظر الأقوال السابقة فى التفسير ٥/ ٢٩٦. والدر المنثور ٣/ ١٠٦. وقصص الأنبياء للثعلبى ص ١٦٣.

(٣) التفسير ٦/ ١٤٩، ١٥٠.

(1) ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴾ وإنما قالوا الكلامَ الأولَ ليتدبَّروا ويتَوَاصَوْا، ويأتُوا بجميعِ ما عندَهم من المكيدةِ والمكرِ والخديعةِ والسحرِ والبُهْتانِ. وهَيْهاتَ، كذَبَتْ واللَّهِ الظنونُ، وأخْطأَتِ الآراءُ، أنَّى يُعارِضُ البهتانُ والسِّحْرُ والهَذَيانُ خوارِقَ العاداتِ، التى أَجْراها الدَّيَّانُ على يَدَىْ عبدِه الكَليمِ ورَسولِه الكَريمِ، المؤيَّدِ بالبُرْهانِ الذى يَبْهَرُ(2) الأبصارَ، وتحارُ فيه العقولُ والأذهانُ. وقولُهم: ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ﴾ أى؛ جميعَ ما عِندَكم، ﴿ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ﴾ أى؛ جملةً واحدةً. ثُم حَضَّ بعضُهم بعضًا على التقَدُّمِ فى هذا المقامِ؛ لأنَّ فرعونَ كان قد وعَدهم ومنَّاهم، وما يَعِدُهمُ الشيطانُ إلا غُرورًا.

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ (1) [١٥٧/١ظ] وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾(3) [طه: ٦٥- ٦٩]. لمَّا اصْطَفَّ السحَرةُ ووقَفَ موسى وهارونُ، عليهما السلامُ، تُجاهَهم، قالوا له: إمَّا أن تُلقِيَ قبلَنا، وإمَّا أن نُلقِيَ قبلَك. قال: بلْ أَلْقُوا أنتم. وكانوا قد عَمَدوا إلى حِبالٍ وعِصِيٍّ، فأوْدَعوها الزِّئْبَقَ وغيرَه من الآلاتِ التى تَضطرِبُ بسببِها(4) تلك الحبالُ والعِصِيُّ اضطرابًا يُخَيِّلُ للرائى أنها تَسْعَى

(١- ١) سقط من: الأصل.

(٢) فى ح: «بهر».

(٣) التفسير ٥/ ٢٩٥، ٢٩٦.

(٤) فى ص: «فشبهها».

باختيارِها، وإنما تَتحرَّكُ بسببِ ذلك، فعندَ ذلك سَحَروا أعينَ النَّاسِ واسترْهَبوهم، وألْقَوْا حبالَهم، وعِصِيَّهم وهم يقولون: ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٤]. قال اللَّهُ تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ١١٦]. وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ أى؛ خاف على الناسِ أن يَفْتَتِنوا بسحْرِهم ومِحالِهم قبل أن يُلقِيَ ما فى يدِه، فإنه لا يَضَعُ شيئًا قبلَ أن يُؤْمَرَ، فأَوْحى اللَّهُ إليه فى الساعةِ الراهنةِ: ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾، فعندَ ذلك أَلْقَى موسى عصاه، وقال: ﴿ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس: ٨١، ٨٢]. وقال تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٥]. ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الأعراف: ١١٨- ١٢٢]. وذلك أنَّ موسى، عليه السلامُ، لمَّا "تقدَّمَ و" ألقاها، صارتْ حيَّةً عظيمةً ذاتَ قوائمَ - فيما ذكَره غيرُ واحدٍ من علماءِ السلفِ - وعُنُقٍ عَظيمٍ، وشَكْلٍ هائلٍ مُزْعِجٍ، بحيثُ إنَّ الناسَ انحازُوا مِنها، وهرَبوا سِراعًا، وتأخَّروا عن مَكانِها، وأَقْبلَت هى على ما أَلْقَوْه من الحِبالِ والعِصِيِّ، فجعَلَت تَلْقَفُه واحدًا واحدًا، فى أسرعِ ما يكونُ من الحركةِ،

(١- ١) زيادة من: الأصل.

والناسُ يَنظرون إليها، ويَتعجبون مِنها. وأمَّا السحرةُ فإنهم رأَوْا ما هالَهم وحيَّرَهم فى أمرِهم، واطَّلَعوا على أمرٍ لم يكنْ فى خَلَدِهم ولا بالِهم، ولا يَدْخلُ تحتَ صناعاتِهم وأشغالِهم، فعندَ ذلك وهنالِك تحقَّقُوا بما عندَهم من العلمِ أن هذا ليس بسحرٍ، ولا شَعْبَذَةٍ، ولا مِحالٍ ولا خيالٍ [١٥٨/١و] ولا زورٍ ولا بهتانٍ ولا ضلالٍ، بل حقٌّ لا يَقدِرُ عليه إلا الحقُّ الذى ابتَعَث هذا المؤيَّدَ به بالحقِّ، وكشَف اللَّهُ عن قلوبِهم غِشاوةَ الغفلةِ، وأنارها بما خلَق فيها من الهُدَى، وأزاح عنها القسوةَ، وأنابوا إلى ربِّهم، وخرُّوا له ساجدينَ، وقالوا جَهْرةً للحاضرين، ولم يَخْشَوْا عقوبةً ولا بَلْوَى: آمَنّا بربِّ موسى وهارونَ.

كما قال تعالى[1]: ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [طه: ٧٠- ٧٦]. قال سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، وعِكْرِمةُ، والقاسمُ بنُ أبى بَزَّةَ[2]، والأوزاعىُّ، وغيرُهم: لمّا سجَد السحرةُ، رأَوْا منازلَهم وقصورَهم فى

---

(١) التفسير ٥/٢٩٧ - ٣٠٠.

(٢) فى الأصل، م: «بردة».

الجنةِ تُهَيَّأُ لهم، وتُزَخرَفُ لقُدومِهم، ولهذا لم يَلْتفِتوا إلى تَهْويلِ فرعونَ، وتهْديدِه ووَعيدِه. وذلك لأن فرعونَ لمَّا رأى هؤلاءِ السحرةَ قد أسْلَموا، وأشْهَروا ذِكْرَ موسى وهارونَ فى الناسِ على هذه الصفةِ الجميلةِ، أفزَعه ذلك، ورأى أمرًا بَهَره، وأَعْمَى بصيرتَه وبصَرَه، وكان فيه كيدٌ ومكرٌ وخِداعٌ، وصَنْعةٌ بَليغةٌ فى الصَّدِّ عن سبيلِ اللَّهِ، فقال مُخاطِبًا للسحَرةِ بحضرةِ الناسِ: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أى؛ هلَّا شَاوَرْتُمونى فيما صَنَعتُم من الأمرِ الفظيعِ بحَضْرةِ رَعِيَّتى. ثُم تَهدَّد وتوعَّد، وأَبْرَقَ وأَرْعَدَ، وكذَب فأَبْعَدَ، قائلًا: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾. وقال فى الآيةِ الأخرى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣]. وهذا الذى قاله مِن البهتانِ الذى يَعلمُ كلُّ فردٍ عاقلٍ ما فيه من الكفرِ والكذبِ والهَذَيانِ، بل لا يَرُوجُ مثلُه[1] على الصِّبيانِ؛ فإنَّ النّاسَ كلَّهم، مِن أهلِ دولتِه وغيرِهم، يَعلمون أن موسى لم يَرَهُ هؤلاءِ يومًا مِن الدهرِ، فكيفَ يكونُ كَبيرَهَم الذى علَّمهمُ السحْرَ؟! ثُم هو لم يَجمَعْهم ولا عَلِم باجتماعِهم، حتى كان فرعونُ هو الذى استدعاهم واجتباهم من كلِّ فجٍّ عميقٍ ووادٍ سَحيقٍ، ومِن حواضِرِ بلادِ مِصرَ والأطرافِ، ومن المدنِ والأَرْيافِ [١/١٥٨ظ].

قال اللَّهُ تعالى فى سورةِ «الأعرافِ»[2]: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ

---

(١) فى ح: «قبله».
(٢) التفسير ٣/ ٤٤٩- ٤٥٥.

﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٠٣ - ١٢٦].

وقال تعالى في سورة «يونس»[1] : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَـٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا

(١) التفسير ٤/٢٢٠ - ٢٢٢.

جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس: ٧٥- ٨٢].

وقال تعالى في سورة «الشعراءِ»[(١)]: ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم [١٥٩/١و] بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ

---

(١) التفسير ٦/ ١٤٨- ١٥١.

ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٤٩- ٥١].

والمقصودُ أن فرعونَ كذَّب وافترى، وكفَر غايةَ الكفرِ في قولِه: ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ ﴾ وأتى ببهتانٍ يَعْلَمُه العالَمُونَ، بل العالَمُونَ في قولِه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِى ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾. وقولِه: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ﴾ يعنى: يَقطعُ اليدَ اليُمنى والرِّجلَ اليُسرى وعَكْسَه، ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ أى؛ لَيَجعلُهم مَثُلَةً ونَكالًا؛ لئلَّا يَقتدِىَ بهم أحدٌ من رعيتِه وأهلِ مِلَّتِه، ولهذا قال: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ ﴾ أى؛ على جُذوعِ النخلِ؛ لأنَّها أَعْلَى وأَشْهَرُ ﴿ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴾ يعنى: فى الدنيا ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ أى؛ لن نُطيعَك ونَترُكَ ما وقَر فى قلوبِنا مِن البيناتِ، والدَّلائلِ القاطعاتِ، ﴿ وَٱلَّذِى فَطَرَنَاۖ ﴾ قيل: مَعْطوفٌ. وقيل: قَسَمٌ ﴿ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ ﴾ أى؛ فافْعَلْ ما قَدَرْتَ عليه، ﴿ إِنَّمَا تَقۡضِى هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴾ أى؛ إنما حُكْمُك علينا فى هذه الحياةِ الدنيا، فإذا انتقَلْنا مِنها إلى الدارِ الآخرةِ، صِرْنا إلى حكمِ الذى أسلَمْنا له واتَّبَعْنا رُسُلَه، ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ [طه: ٧٣] أى؛ وثوابُه خيرٌ مما وعَدْتَنا به من (١)التَّقْريبِ والترْغيبِ(١)، ﴿ وأبقى ﴾ أى؛ وأَدْوَمُ مِن هذه الدارِ الفانيةِ. وفى الآيةِ الأخرى: ﴿ قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطۡمَعُ

(١- ١) فى ص: «الترهيب والترغيب».

أن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ ﴾ أى ؛ ما اجترَمْناه من المـآثمِ والمحارِمِ ﴿ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى ؛ من القبطِ ، بموسى وهارونَ ، عليهما السلامُ . وقالوا له أيضًا : ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ﴾ [(1] أى ؛ ليس لنا عندك ذنبٌ إلا إيمانُنا بما جاءنا به رسولُنا ، واتباعُنا آياتِ ربِّنا لمَّا جاءتنا[1)] ، ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ أى ؛ ثَبِّتْنا على ما ابْتُلِينا به ، [١٥٩/١ظ] مِن عقوبةِ هذا الجبارِ العَنيدِ ، والسلْطانِ الشديدِ ، بل الشيطانِ المَرِيدِ ، ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ وقالوا أيضًا يَعِظونَه ويُخَوِّفونه بأسَ ربِّه العَظيمِ : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ يقولون له : فإيَّاك أن تكونَ منهم . فكان منهم . ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾ أى ؛ المَنازلُ العَاليةُ ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ فاحرِصْ أن تكونَ منهم . فحالت بينَه وبينَ ذلك الأقدارُ التى لا تُغالَبُ ، ولا تُمانَعُ ، وحكمُ العَلىِّ العَظيمِ بأنَّ فرعونَ ، لعنَه اللَّهُ ، مِن أهلِ الجحيمِ ، ليُباشِرَ العذابَ الأليمَ ، يُصَبُّ مِن فوقِ رأسِه الحميمُ . ويقالُ له ، على وجهِ التَّقْريعِ والتَّوْبيخِ ، وهو المَقْبوحُ المَنْبوحُ ، الذَّميمُ اللئيمُ : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ [الدخان : ٤٩] .

والظاهِرُ من هذه السياقاتِ أن فرعونَ ، لعَنَه اللَّهُ ، صَلَبَهم وعذَّبهم ، رَضِىَ اللَّهُ عنهم . قال عبدُ اللَّهِ بنُ عباسٍ ، وعُبَيْدُ بنُ عُمَيْرٍ : كانوا مِن أوَّلِ النهارِ سحَرَةً ، فصاروا مِن آخِرِه شهداءَ بَرَرَةً[2] . ويؤيدُ هذا قولُهم : ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ .

(١ - ١) سقط من : الأصل .

(٢) تفسير الطبرى ٩/ ٢٤. والتفسير ٣/ ٤٥٥.

فَصْلٌ

ولمَّا وقَع ما وقَع من الأمرِ العظيمِ ، وهو الغَلَبُ الذى غُلِبَه فِرْعونُ وقومُه مِن القِبْطِ فى ذلك الموقفِ الهائلِ ، وأَسلَمَ السَّحرةُ ، الذين استَنصَروا بِهم[1] لم يَزِدْهم ذلك إلا كفرًا وعنادًا وبُعْدًا عن الحقِّ .

قال اللَّهُ تعالى ، بعدَ قَصَصِ ما تقدَّم فى سورةِ «الأَعْرافِ»[2] : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧- ١٢٩]. يخبرُ تعالى عن الملأِ من قومِ فرعونَ ، وهم الأُمَراءُ والكُبَراءُ ، أنَّهم حرَّضوا مَلِكَهم فرعونَ على أذيَّةِ نبىِّ اللَّهِ موسى ، عليه السلامُ ، ومقابلتِه - بدلَ التَّصديقِ بما جاء به - بالكفرِ والرَّدِّ والأذى ، فقالوا : ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ ﴾ يَعْنون ، قبَّحهم اللَّهُ، أَنَّ دعوتَه إلى عبادةِ اللَّهِ وحدَه لا شريكَ له ، والنَّهْىَ عن عبادةِ ما سواه فسادٌ بالنسبةِ إلى اعتقادِ القِبْطِ ، لعنهم اللَّهُ . وقرأ بَعْضُهم[3] :

---

(١) فى م : «ربهم».

(٢) التفسير ٣/ ٤٥٦، ٤٥٧.

(٣) سقط من : ح . والقراءة قراءة ابن عباس ومجاهد . انظر تفسير الطبرى ٩/ ٢٥، ٢٦. والتفسير ٣/ ٤٥٦.

(وَيَذَرَكَ وَإِلَاهَتَكَ) أى ؛ وعِبادتَك . ويَحتَمِلُ شيئين ؛ أحدُهما ، ويَذَرُ دينَك . وتُقَوِّيه القراءةُ الأخرى . الثانى ، ويذَرُ أن يَعبدَك ، فإنه كان يَزْعُمُ أنه إلهٌ ، لَعَنه اللَّهُ ﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ [١٦٠/١و] وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾ أى ؛ لِئَلَّا تَكْثُرَ مُقاتِلَتُهم ، ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ أى ؛ غالبون ، ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١أى ؛ إذا هَمُّوا هم بأذِيَّتِكم والفَتْكِ بكم فاسْتَعينُوا أنتم بربِّكم ، واصْبِروا على بَلِيَّتِكم ، ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ١) أى ؛ فكونوا أنتم مِنَ(٢) المتقين ؛ لتكونَ لكم العاقبةُ ، كما قال تعالى فى الآيةِ الأخرى(٣) : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يونس: ٨٤- ٨٦] . وقولُهم : ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ أى ؛ قد كانتِ الأبناءُ تُقتَلُ قبلَ مَجيئِك ، وبعدَ مجيئِك إلينا ، ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ .

وقال اللَّهُ تعالى ، فى سورةِ « حم المؤمن »(٤) : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر: ٢٣، ٢٤] . وكان فرعونُ الملكَ ، وهامانُ الوزيرَ ، وكان

(١ - ١) سقط من: ص.

(٢) زيادة من: الأصل.

(٣) التفسير ٤/٢٢٣، ٢٢٤.

(٤) التفسير ٧/١٢٨.

قارونُ إسرائيليًّا من قومِ موسى ، إلا أنَّه كان على دينِ فرعونَ ومَلئِه ، وكان ذا مالٍ جزيلٍ جدًّا ، كما ستأتى قصتُه فيما بعدُ ، إن شاء اللَّهُ تعالى .

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ [غافر: ٢٥] . وهذا القتلُ للغِلْمانِ ، مِن بعدِ بَعْثةِ موسى ، إنما كان على وجهِ الإهانةِ والإذلالِ ، والتقليلِ لملأ بنى إسْرائيل ؛ لِئَلَّا تكونَ لهم شَوْكَةٌ يَمتَنِعون بها أو[1] يَصُولون على القِبْطِ بسببِها ، وكانت القِبْطُ مِنهم يَحْذَرون ، فلم يَنْفَعْهم[2] ذلك ؛ ولم [3]يرُدَّ عَنهم[3] قَدَرَ الذى يقولُ للشىءِ : كُنْ . فيكونُ . ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾[4] [غافر: ٢٦] . ولهذا يقولُ الناسُ على سبيلِ التَّهكُّمِ : صار فرعونُ مُذَكِّرًا . وهذا منه ، فإن فرعونَ فى زَعْمِه يَخافُ على الناسِ أن يُضِلَّهم موسى ، عليه السلامُ . ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾[5] [غافر: ٢٧] . أى ؛ عُذْتُ باللَّهِ ، ولجَأْتُ إليه واسْتَجَرْتُ[6] بجَنابِه[7] مِن أن يَسطُوَ فرعونُ أو غيرُه علىَّ بسوءٍ . وقولُه : ﴿ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أى ؛ جَبارٍ عَنيدٍ ، لا يَرْعَوِى[8] ولا

(١) فى م ، ص : « و » .
(٢) فى الأصل : « يمنعهم » .
(٣ - ٣) فى الأصل : « يردعهم » .
(٤) التفسير ٧/ ١٢٩.
(٥) التفسير ٧/ ١٢٩.
(٦) سقط من : م ، ص .
(٧) فى ص : « بجانبه » .
(٨) أى يكف ويرتدع .

يَنتهِى ، ولا يَخافُ عذابَ اللهِ وعقابَه ؛ لأنه لا يَعْتقدُ مَعادًا ولا جَزاءً ، ولهذا قال : ﴿ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ .

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ [١/١٦٠ظ] ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِالْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾[1] [غافر: ٢٨، ٢٩] . هذا الرجلُ هو ابنُ عمِّ فرعونَ ، وكان يَكْتُمُ إيمانَه من قَومِه ، خوفًا مِنهم عَلى نَفْسِه . وزعَم بعضُ الناسِ أنه كان إسرائيليًّا ، وهو بعيدٌ ومخالفٌ لسياقِ الكلامِ لفظًا ومعنًى[2] . واللهُ أعلمُ .

قال ابنُ جُرَيْجٍ : قال ابنُ عباسٍ : لم يُؤْمِنْ من القِبْطِ بموسى إلا هذا ، والذى جاء مِن أقْصى المدينةِ ، وامرأةُ فرعونَ . رواه ابنُ أبى حاتمٍ[3] . قال الدَّارَقُطْنِىُّ : لا يُعْرفُ مَن اسمُه شَمْعانُ - بالشين المُعْجَمةِ - إلا مؤمنُ آلِ فِرْعونَ . حكاه السُّهَيْلِىُّ[4] . وفى « تاريخِ الطبرِىِّ »[5] أن اسمَه : جبرٌ[6] . فاللهُ أعلمُ .

والمقصودُ أن هذا الرجلَ كان يَكْتُمُ إيمانَه ، فلمَّا هَمَّ فِرعونُ ، لعنه اللهُ ،

---

(١) التفسير ٧/ ١٢٩- ١٣٢.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٢٤/ ٥٧، ٥٨.

(٣) ذكره فى الدر المنثور ٥/ ٣٥٠ وعزاه إلى ابن أبى حاتم. وانظر التفسير ٧/ ١٣٠.

(٤) التعريف والإعلام ص ٢٤١. وانظر الإكمال لابن ماكولا ٤/ ٣٦٥.

(٥) تاريخ الطبرى ١/ ٤٠٧.

(٦) فى ح ، م ، ص : « خير » ، وفى ا : « خبر » . وفى تاريخ الطبرى : « حبرك » . وفى تفسير الطبرى : « جبريل » .

وذكر السهيلى فى « التعريف والإعلام » ص ٢٨٣ عن الطبرى فى تاريخه أن اسمه : « جبر » .

بقَتْلِ، موسى، عليه السلامُ، وعزَم على ذلك وشاوَر ملأَه فيه، خاف هذا المؤمنُ على موسى، فتلطَّفَ فى ردِّ فرعونَ بكلامٍ جمَع فيه الترْغيبَ والترْهيبَ، فقال (١كَلِمةَ الحقِّ١) على وجهِ المَشورَةِ والرأْيِ. وقد ثبَت فى الحديثِ(٢) عن رسولِ اللَّهِ ﷺ، أنَّه قال: «أفْضَلُ الجهادِ كلمةُ عَدْلٍ عندَ سُلْطانٍ جائرٍ». وهذا مِن أعلى مَراتبِ هذا المَقامِ، فإنَّ فِرْعونَ لا يكونُ أشدَّ(٣) جوْرًا مِنه، وهذا الكلامُ لا أعدلَ منه؛ لأنَّ فيه عِصمةَ دمِ(٤) نبيٍّ. ويَحتمِلُ أنه (٥شارَّ لهم٥) بإظهارِ إيمانِه، وصرَّح لهم بما كان يكتُمُه. والأولُ أظْهَرُ. واللَّهُ أعلمُ. قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ أى؛ مِن أجلِ أنه قال: ربِّىَ اللَّهُ. فمِثْلُ هذا لا يُقابَلُ بمثلِ هذا، بل بالإكرامِ والاحْترامِ والمُوادَعةِ وتركِ الانتقامِ، يعنى: لأنه ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أى؛ بالخوارقِ التى دلَّت على صدقِه فيما جاء به عمَّن أرسَلَه، فهذا إن وادعْتُمُوه(٦) كنتُم فى سلامةٍ؛ لأنه ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ ولا يَضرُّكم ذلك، ﴿وَإِن يَكُ صَـٰدِقًا﴾ (٧وقد تعرَّضتُم له٧) ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ أى؛ وأنتم تُشْفِقون أن يَنالكم أيسرُ جَزاءٍ مِمَّا يَتوعدُكم به، فكيفَ بكم إن حَلَّ جميعُه عليكم؟ وهذا

(١ - ١) زيادة من: ا.

(٢) فى الأصل، «الصحيح». والحديث أخرجه أبو داود (٤٣٤٤)، والترمذى (٢١٧٤)، وابن ماجه (٤٠١١). كلهم من حديث أبى سعيد الخدرى. وقال الترمذى: حسن غريب من هذا الوجه. (صحيح أبى داود ٣٦٥٠). وانظر السلسلة الصحيحة (٤٩١).

(٣) فى ح، م، أ، ص: «لأشد».

(٤) زيادة من: ا.

(٥ - ٥) فى ح، م، ص: «كاشرهم». وشارَّ لهم أى خاصمهم.

(٦) فى الأصل: «أودعتموه». وفى ا: «تركتموه».

(٧ - ٧) ليست فى: الأصل.

الكلامُ فى هذا المَقام مِن أعلى مَقاماتِ التلطفِ والاحترازِ والعَقْلِ التامِّ . وقولُه : ﴿ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ يحذِّرُهم أن يُسْلَبوا هذا المُلْكَ العزيزَ ، فإنه ما تعرَّضَتِ الدُّولُ للدينِ إلا سُلِبوا مُلْكَهم وذَلُّوا[1] بعدَ عزِّهم ، وكذا وقَع لآلِ فرعونَ ؛ ما زالوا فى شكٍّ وريْبٍ ، ومخالفةٍ ومُعاندةٍ لِمَا جاءهم موسى به ، حتى أخرَجهم اللَّهُ ممّا [١٦١/١و] كانوا فيه من المُلْكِ والأملاكِ[2] ، والدُّورِ والقصورِ ، والنعْمةِ والحُبُورِ ، ثُم حُوِّلوا إلى البحرِ مُهانِين ، ونُقِلَتْ أرواحُهم بعدَ العُلُوِّ والرِّفْعةِ إلى أسْفلِ السافلين . ولهذا قال هذا الرجلُ المؤمنُ الصادِقُ ، البارُّ الرَّاشِدُ ، التابعُ للحقِّ الناصحُ لقومِه ، الكاملُ العقلِ : ﴿ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أى ؛ عالِينَ على الناسِ حاكِمينَ عليهم ، ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ ﴾ أى ؛ لو كنتم أضعافَ ما أنتم عليه[3] من العَدَدِ والعُدَّةِ والقوةِ والشدَّةِ ، لمَا نَفعنا ذلك ولا ردَّ عنا بأسَ مالِكِ الممالكِ . ﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ﴾ أى ؛ فى جواب هذا كلِّه : ﴿ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ﴾ أى ؛ ما أقولُ لكم إلا ما عندى ﴿ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ وكذَب فى كلٍّ من هذينِ القولين ، وهاتَيْنِ المقدِّمتَيْنِ ، فإنَّه قد كان يَتحقَّقُ ويَعْلمُ[4] فى باطنِه وفى نفسِه أن هذا الذى جاء به موسى حقٌّ[5] مِن عندِ اللَّهِ لا محالةَ ، وإنما كان يُظْهِرُ خلافَه بَغيًا وعُدْوانًا ، وعُتُوًّا وكفرانًا .

قال اللَّهُ تعالى إخبارًا عن موسى : ﴿ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ

---

(١) سقط من : الأصل .

(٢) فى الأصل : « الآمال » .

(٣) سقط من : ح . وفى م ، ص : « فيه » .

(٤) زيادة من : الأصل ، ص .

(٥) زيادة من : ا .

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٢].
وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٣، ١٤]. وأما قولُه: ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾. فقد كذَب أيضًا، فإنه لم يكنْ على رشادٍ مِن الأمرِ، بل كان على سَفَهٍ وضَلالٍ، وخَبالٍ، وكان أولًا مِمَّن يعبدُ الأصنامَ والأمثالَ، ثُم دعا قومَه الجهَلَةَ الضُّلَّالَ إلى أن اتَّبَعُوه وطاوَعُوه، وصدَّقُوه فيما زعم من الكفرِ المُحالِ فى دعواه أنه ربٌّ، تعالى اللَّهُ ذو الجلالِ والإكرامِ. قال اللَّهُ تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ [الزخرف: ٥١- ٥٦]. وقال تعالى: ﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾ [النازعات: ٢٠- ٢٦]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ [١٦١/١ظ] وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ [هود: ٩٦- ٩٩]. والمقصودُ بيانُ كَذِبِه فى قولِه: ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ﴾، وفى قولِه: ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾[1] [غافر: ٣٠- ٣٥]. يحذِّرُهم وليُّ اللَّهِ، إن كذَّبوا برسولِ اللَّهِ موسى[2]، أن يَحِلَّ بهم ما حَلَّ بالأُمَمِ مِن قبلِهم مِن النَّقماتِ والمَثُلاتِ، ممَّا تواتَرَ عِندَهم وعندَ غيرِهم؛ ما حَلَّ بقومِ نوحٍ، وعادٍ، وثمودَ، ومَن بعدَهم إلى زمانِهم ذلك، مما أقام اللَّهُ[3] به الحُجَجَ على أهلِ الأرضِ قاطِبةً، في صدقِ ما جاءَت به الأنبياءُ، بما أَنزَلَ من النِّقْمَةِ بمكذِّبيهم من الأعداءِ، وما أَنجَى اللَّهُ من اتَّبَعهم من الأوْلياءِ، وخوَّفَهم يومَ القيامةِ، وهو يومُ التَّنادِ؛ أي حينَ يُنادِي الناسُ بعضُهم بعضًا حينَ يُولُّون مُدْبِرِينَ، إن قَدَروا على ذلك، ولا إلى ذلك سبيلٌ. ﴿ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ﴾ [القيامة: ١٠- ١٢]. وقال تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا

---

(١) التفسير ٧/ ١٣٢، ١٣٣.

(٢) سقط من: ص.

(٣) زيادة من: ح.

تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ٣٣- ٣٦]. وقرأ بعضُهم: (يَوْمَ التَّنَادِّ) بتشديدِ الدالِ، أي يومَ الفِرارِ. ويَحْتَمِلُ أن يكونَ يومَ القيامةِ، ويَحتَمِلُ أن يكونَ يومَ يُحِلُّ اللَّهُ بهمُ البأسَ، فيَوَدُّون الفِرارَ ولاتَ حينَ مَناصٍ. ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٢، ١٣]. ثُم أَخْبَرهم عن نبوةِ يوسفَ فى بلادِ مصرَ؛ ما كان منه مِن الإِحسانِ إلى الخلقِ فى دنياهم وأُخراهم، وهذا مِن سُلالتِه وذُرِّيَّتِه، ويَدْعُو الناسَ إلى توحيدِ اللَّهِ وعبادتِه، وأن لا يُشْرِكوا به أحدًا من بريَّتِه، وأَخبَرَ عن أهلِ الديارِ المِصْريةِ فى ذلك الزمانِ، أنَّ مِن سَجيَّتِهم التَّكْذيبَ بالحقِّ ومخالفةَ الرسلِ؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ﴾ أى؛ [١٦٢/١و] وكذَّبتُم فى هذا. ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ﴾ أى؛ يَرُدُّونَ[1] حُجَجَ اللَّهِ وبراهينَه ودلائلَ توحيدِه بلا حُجَّةٍ ولا دليلٍ عندَهم مِنَ اللَّهِ، فإِنَّ هذا أمرٌ يَمقُتُه اللَّهُ غايةَ المَقْتِ؛ أى يُبْغِضُ مَن تلبَّس به من الناسِ، ومَن اتَّصف به مِنَ الخلْقِ، ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ قُرِئَ بالإِضافةِ وبالنعتِ، وكلاهما مُتلازِمٌ؛ أى هكذا إذا خالفَتِ القلوبُ الحقَّ، ولا تخالفُه إلا بلا برهانٍ، فإِنَّ اللَّهَ يَطْبَعُ عليها؛ أى يَخْتِمُ عليها.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ

(١) فى م: «يريدون».

ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾[1] [غافر: ٣٦، ٣٧]. كذَّب فرعونُ موسى، عليه السلامُ، فى دَعْواه أنَّ اللَّهَ أَرْسلَه، وزعَم فرعونُ لقومِه ما كذَّبه وافتراه، فى قولِه لهم: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [القصص: ٣٨]. وقال هٰهنا: ﴿ لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ۝٣٦ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ﴾ أى؛ طُرُقَها ومسالكَها ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ﴾ ويحتَملُ هذا معنيَيْنِ؛ أحدُهما، وإنى لأظنُّه كاذبًا فى قولِه: إن للعالَمِ ربًّا غيرى. [2]والثانى، فى دعواه أن اللَّهَ أَرْسلَه. والأولُ أَشْبَهُ بظاهرِ حالِ فرعونَ، فإنَّه كان يُنكِرُ ظاهرَ إثباتِ الصانعِ[2]، والثانى أقربُ إلى اللفظِ؛ حيث قال: ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ ﴾ أى؛ فأسألَه هل أَرْسلَه أم لا، ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ﴾ أى؛ فى دَعْواه ذلك. وإنَّما كان مَقْصودُ فرعونَ أن يَصُدَّ الناسَ عن تَصْديقِ موسى، عليه السلامُ، وأَن يَحُثَّهم على تكذيبِه. قال اللَّهُ تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾، وقُرِئَ: (وصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ) قال ابنُ عباسٍ ومُجاهدٌ[3]: يقولُ: إلا فى خَسارٍ. أى باطلٍ، لا يحصُلُ له شىءٌ مِن مَقْصودِه الذى رامَه، فإنَّه لا سبيلَ للبَشَرِ أن يَتَوصَّلوا بقُوَاهم إلى نَيْلِ السماءِ أبدًا - أعْنى السماءَ الدنيا - فكيف بما بعدَها مِن السماواتِ العُلَى، وما فوقَ

---

(١) التفسير ٧/ ١٣٤.

(٢ - ٢) سقط من: ح.

(٣) تفسير الطبرى ٢٤/ ٦٦. وانظر الدر المنثور ٥/ ٣٥١.

ذلك من الارتفاعِ الذى لا يَعلمُه إلا اللَّهُ عز وجل.

وذكَر غيرُ واحدٍ من المفسِّرين[1] أن هذا الصَّرْحَ، وهو القَصْرُ الذى بناه وزيرُه هامانُ له، لم يُرَ بناءٌ أعْلَى منه، وأنَّه كان مبنيًّا من الآجُرِّ المشوىِّ بالنارِ، ولهذا قال: ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا ﴾. وعندَ [١/١٦٢ظ] أهلِ الكتابِ[2] أن بنى إسرائيلَ كانوا يُسخَّرون فى ضَرْبِ اللَّبِنِ، وكان ممَّا حُمِّلوا مِن التكاليفِ الفِرْعَوْنيةِ أنَّهم لا يُساعَدون على شَىْءٍ ممَّا يَحتاجون إليه فيه، بل كانوا هم الذين يَجْمَعون ترابَه وتِبْنَه وماءَه، ويُطْلَبُ مِنهم كلَّ يومٍ قِسْطٌ معينٌ، إن لم يَفْعلُوه وإلا ضُرِبوا وأُهينوا غايةَ الإهانةِ، وأُوذوا غايةَ الأذيَّةِ. ولهذا قالوا لموسى: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾، فوعَدهم بأن العاقبةَ لهم على القِبْطِ، وكذلك وقَع، وهذا من دلائلِ النُّبوةِ.

ولْنَرْجِعْ إلى نَصِيحةِ المؤمنِ ومَوْعِظتِه واحتجاجِه، قال اللَّه تعالى[3]: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر: ٣٨- ٤٠]. يدعوهم، رَضِى اللَّهُ عنه، إلى طريقِ الرَّشادِ والحقِّ، وهى مُتابَعَةُ نبىِّ اللَّهِ

---

(١) تفسير الطبرى ٢٠/ ٧٧، قصص الأنبياء للثعلبى ص ١٦٧، التفسير ٦/ ٢٤٨.

(٢) سفر الخروج الأصحاح ١/ ١٤.

(٣) التفسير ٧/ ١٣٤.

موسى، وتصديقُه فيما جاء به من ربِّه، ثُم زهَّدَهم فى الدنيا الدَّنيَّةِ الفانيةِ المُنْقَضيةِ لا محالةَ، ورغَّبَهم فى طَلَبِ الثوابِ عندَ اللَّهِ، الذى لا يَضِيعُ عملُ عاملٍ لديه، القديرِ الذى ملكوتُ كلِّ شيءٍ بيدَيْه، الذى يُعطِى على القليلِ كثيرًا، ومِن عَدْلِه لا يُجازِى على السَّيِّئةِ إلا مِثلَها. وأخبرَهم أن الآخرةَ هى دارُ القرارِ، التى مَن وافاها مُؤمِنًا قد عَمِل الصالحاتِ، فلهم الجناتُ العالياتُ، والغُرَفُ الآمِناتُ، والخيْراتُ الكثيرةُ الفائِقاتُ، والأرْزاقُ الدائمةُ التى لا تَبِيدُ، والخيرُ الذى كلُّ ما لهم منه فى مزيدٍ.

ثم شرَع فى إبطالِ ما هم عليه، وتَخْويفِهم مما يَصيرون إليه، فقال[1]: ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤١- ٤٦]. كان يَدْعوهم إلى عبادةِ ربِّ السمواتِ والأرضِ، الذى يَقُولُ للشيءِ: كُنْ. فيكونُ، وهم يَدْعُونه إلى عِبادةِ فرعونَ الجاهلِ الضالِّ الملعونِ، ولهذا قال [١٦٣/١و] لهم على سبيلِ الإنكارِ: ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي

---

(١) التفسير ٧/ ١٣٥- ١٣٨.

بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴾ ، ثم بيَّن لهم بُطلانَ ما هم عليه من عِبادةِ ما سِوى اللَّهِ من الأندادِ والأوْثانِ ، وأنها لا تَملِكُ مِن نفعٍ ولا إضرارٍ. فقال : ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ أى ؛ لا تَملِكُ تَصرُّفًا [1]ولا حُكمًا[1] فى هذه الدَّارِ ، فكَيف تَمْلِكُه يومَ القرارِ ؟ وأمَّا اللَّهُ ، عز وجل ، فإنَّه الخالقُ الرازقُ للأبرارِ والفُجَّارِ ، وهو الذى أَحْيا العبادَ ويُميتُهم ويَبْعَثُهم ، فيُدْخِلُ طائِعَهم الجنةَ ، وعاصيَهم النارَ. ثُم توعَّدهم إنْ هم اسْتَمَرُّوا على العنادِ ، بقولِه : ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾. قال اللَّهُ تعالى : ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾ أى ؛ بإنكارِه سَلِم مِمَّا أصابَهم مِن العُقوبةِ على كُفرِهم باللَّهِ ، ومكرِهم فى صدِّهم عن سبيلِ اللَّهِ ، مِمَّا أَظْهَروا للعامَّةِ مِن الخَيالاتِ والمحَالاتِ التى لَبَّسوا بها على عَوامِّهم وطَغامِهم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَحَاقَ ﴾ أى ؛ أحاطَ ﴿ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ أى ؛ تُعرَضُ أرْواحُهم فى بَرْزَخِهم صَباحًا ومَساءً على النارِ ، ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ ، وقد تكلَّمْنا على دَلالةِ هذه الآيةِ على عذابِ القبرِ فى « التفسيرِ »[2]. وللَّهِ الحمدُ.

والمَقصودُ أن اللَّهَ تعالى لم يُهْلِكْهم إلا بعدَ إقامةِ الحُجَجِ عليهم ، وإرسالِ الرَّسولِ إليهم ، وإزاحةِ الشُّبَهِ عنهم ، وأَخْذِ الحُجَّةِ عليهم مِنهم ، فبالتَّرْهيبِ تارةً

(١- ١) سقط من : ح.

(٢) التفسير ٧/ ١٣٦- ١٣٨.

والترغيبِ أخرى، كما قال تعالى[1] : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠- ١٣٣]. يخبرُ تعالى أنه ابتَلَى آلَ فرعونَ، وهم قومُه من القِبْطِ، بالسِّنينَ، وهى أعوامُ الجَدْبِ التى لا يُستغلُّ فيها زَرْعٌ، ولا يُنْتفَعُ بضَرْعٍ. وقولُه: ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ وهى قِلَّةُ الثمارِ من الأشْجارِ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أى؛ فلم يَنتفِعوا ولم يَرْعَوُوا، بل تَمرَّدوا واستمَرُّوا على كُفرِهم وعنادِهم، ﴿ فَإِذَا [١٦٣/١ظ] جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ ﴾ وهو الخِصْبُ ونحوُه ﴿ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ﴾ أى؛ هذا الذى نَستحقُّه، وهذا الذى يَليقُ بنا، ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾ أى؛ يقولون هذا؛ بشُؤْمِهم أصابنا هذا. ولا يقولون فى الأوَّلِ: إنه بركتُهم وحسنُ مجاورَتِهم، ولكنْ قلوبُهم مُنْكِرةٌ مُسْتَكْبِرةٌ نافرةٌ عن الحقِّ، إذا جاء الشَّرُّ أَسنَدوه إليه، وإن رأَوْا خيرًا ادَّعَوه لأنفسِهم. قال اللَّهُ تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أى؛ اللَّهُ يَجزيهم على هذا أوْفَرَ الجزاءِ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أى؛ مَهْما جِئتَنا به مِن الآياتِ، وهى الخوارِقُ للعاداتِ، فلَسْنا نُؤمِنُ بك ولا نَتَّبِعُك ولا نُطيعُك ولو جِئتَنا بكلِّ آيةٍ. وهكذا أخبَرَ اللَّهُ عنهم فى

---

(١) التفسير ٣/ ٤٥٧- ٤٦٢.

قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] . قال اللَّهُ تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ .

أمَّا الطُّوفانُ ، فعن ابنِ عباسٍ : هو كثرةُ الأمطارِ المُتْلِفةِ للزُّروعِ والثمارِ . وبه قال سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ ، وقَتادةُ ، والسُّدِّيُّ ، والضَّحَّاكُ . وعن ابنِ عباسٍ ، وعطاءٍ : هو كَثرةُ الموتِ . وقال مُجاهدٌ : الطوفانُ الماءُ ، والطاعونُ على كلِّ حالٍ . وعن ابنِ عباسٍ : أمرٌ طافَ بهم[(١)] . وقد روَى ابنُ جَريرٍ وابنُ مَرْدَوَيْهِ[(٢)] ، من طريقِ يحيى بنِ يَمَانٍ ، عن المِنْهالِ بنِ خليفةَ ، عن الحجَّاجِ ، عن الحكَمِ بنِ مِيْنَاءَ ، عن عائشةَ ، عن النبيِّ ﷺ : « الطوفانُ الموْتُ » وهو غريبٌ .

وأمَّا الجرَادُ فمعروفٌ . وقد روَى أبو داودَ[(٣)] ، عن أبي عثمانَ ، عن سلمانَ الفارسيِّ ، قال : سُئِلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ عن الجراد ، فقال : « أكثرُ جنودِ اللَّهِ ، لا آكُلُه ولا أُحرِّمُه » . وترْكُ النبيِّ ﷺ أكْلَه إنَّما هو على وجْهِ التَّقذُّرِ له ؛ كما ترَك أكْلَ الضَّبِّ[(٤)] ، وتنزَّه عن أكْلِ البصلِ والثُّومِ والكُرَّاثِ[(٥)] ، لِمَا ثبت في

---

(١) أخرج هذه الأقوال الطبرى فى تفسيره ٩/ ٣٠، ٣١. وانظر الدر المنثور ٣/ ١٠٨، والتفسير ٣/ ٤٥٨.

(٢) الطبرى فى تفسيره ٩/ ٣١. وذكره فى الدر المنثور ١٠٨/٣ وعزاه إلى ابن مردويه . وقال الحافظ ابن حجر فى الفتح ٨/ ٣٠٠: وعند ابن مردويه بإسنادين ضعيفين عن عائشة . وانظر تفسير ابن جرير بتحقيق أحمد شاكر ٥١/١٣ حاشية (١) .

(٣) أبو داود (٣٨١٣) . (ضعيف أبى داود ٨١٩) .

(٤) البخارى (٥٥٣٦)، مسلم (١٩٤٣) .

(٥) البخارى (٨٥٥)، مسلم (٥٦٤) .

« الصحيحين »[1] ، عن عبدِ اللَّهِ بنِ أبى أَوْفَى ، قال : غَزَوْنَا مع رسولِ اللَّهِ ﷺ سبعَ غَزَواتٍ نَأكلُ الجَرَادَ . وقد تكلَّمْنا على ما ورَد فيه مِن الأحاديثِ والآثارِ فى « التفسيرِ »[2] .

والمقصودُ أنه استاق خَضْرَاءَهم ، فلم يَترِكْ لهم زُرُوعًا ولا ثِمارًا ، ولا سَبَدًا ولا لَبَدًا[3] .

وأما القُمَّلُ ، فعن ابنِ عباسٍ : هو السُّوسُ الذى يَخرجُ من الحِنْطةِ ، وعنه ، أنه الجرادُ الصِّغارُ الذى لا أجنحةَ له . وبه قال مُجاهدٌ ، وعِكْرمةُ ، وقَتادةُ . وقال سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ ، والحسنُ : هو [١/١٦٤و] دوَابُّ سُودٌ صِغارٌ . وقال عبدُ الرحمنِ ابنُ زيدِ بنِ أَسْلَمَ : هى البراغيثُ . وحكَى ابنُ جَريرٍ عن أهلِ العربيَّةِ[4] أنها الحَمْنانُ . وهى صِغارُ القِرْدانِ ، فَوْقَ القَمْقَامَةِ[5] ، فدخَل معهم البيوتَ والفُرُشَ ، فلم يَقِرَّ لهم قرارٌ ، ولم يُمْكِنْهم معه الغَمْضُ ولا العيشُ . وفسَّره عطاءُ ابنُ السائبِ بهذا القُمَّلِ المعروفِ . وقرأها الحسنُ البصرىُّ كذلك بالتَّخْفيفِ[6] .

وأمَّا الضَّفادِعُ فمَعْروفةٌ ، لَبِسَتْهم حتى كانت تَسقطُ فى أَطعِماتِهم وأوانيهم ، حتى إِنِ أحدَهم إذا فتَح فَمَه لطعامٍ أو شرابٍ ، سقَطت فى فِيه ضِفْدِعَةٌ من تلك الضَّفادعِ .

---

(١) البخارى (٥٤٩٥) ، مسلم (١٩٥٢) .
(٢) التفسير ٣/ ٤٥٨- ٤٦١.
(٣) ولا سَبَدًا ولا لَبَدًا أى؛ ولا قليلًا ولا كثيرًا .
(٤) انظر مجاز القرآن لأبى عبيدة ١/ ٢٢٦.
(٥) القمقام : صغار القردان ، وضرب من القمل شديد التشبث بأصول الشعر . واحدتها قمقامة . اللسان (ق م م) .
(٦) تفسير الطبرى ٩/ ٣٢، ٣٣. التفسير ٣/ ٤٦١. وانظر الدر المنثور ٣/ ١١٠.

وأمَّا الدَّمُ فكان قد مُزِج ماؤهم كلُّه به ، فلا يَسْتَقُون من النِّيلِ شيئًا إلا وجدوه دَمًا عَبِيطًا[1] ، ولا مِن نهرٍ ولا بئرٍ ولا شيءٍ إلا كان دَمًا في الساعةِ الراهنةِ . هذا كلُّه ، ولم يَنَلْ بَنِى إسرائيلَ من ذلك شيءٌ بالكليةِ . وهذا من تمامِ المعجزةِ الباهرةِ ، والحُجَّةِ القاطعةِ أنَّ هذا كلَّه يَحصُلُ لهم عن فعلِ موسى ، عليه السلامُ ، فيَنالُهم عن آخرِهم ، ولا يَحصُلُ هذا لأحدٍ مِن بنى إسرائيلَ ، وفى هذا أدلُّ دليلٍ .

قال محمدُ بنُ إسحاقَ[2] : فرجَع عدوُّ اللَّهِ فرعونُ حينَ آمنَت السَّحَرةُ مغلوبًا مَفْلولًا ، ثُم أَبَى إلا الإقامةَ على الكُفرِ والتَّمادىَ فى الشَّرِّ ، فتابَعَ اللَّهُ عليه بالآياتِ ، فأخذَه بالسِّنينَ ، فأرْسَلَ عليه الطُّوفانَ ، (3ثُم الجرَادَ ، ثُم القُمَّلَ ، ثُم الضَّفادِعَ ، ثم الدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ ؛ فأرسَلَ الطُّوفانَ3) - وهو الماءُ - ففاض على وجهِ الأرضِ ، ثُم ركَدَ ، لا يَقدِرُون على أن يَحرُثُوا[4] ولا أن يَعْمَلُوا شيئًا ، حتى جُهِدُوا جُوعًا ، فلمَّا بَلَغَهم ذلك ، ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الأعراف : ١٣٤] . فدعا موسى ربَّه ، فكشَفه عنهم ، فلمْ يَفُوا له بشَىْءٍ ، فأَرسَلَ اللَّهُ عليهم الجرَادَ ، فأكَل الشَّجَرَ ، فيما بَلَغنى ، حتى إنْ كان لَيأكُلُ مساميرَ الأبوابِ مِن الحديدِ ، حتى تَقَعَ دورُهم ومساكنُهم ، فقالوا مثلَ ما قالوا ، (5فدعا ربَّه فكشَف عنهم ، فلم يَفُوا له بشىءٍ ممَّا قالُوا5) ، فأَرسَل اللَّهُ عليهم القُمَّلَ ، فذُكِر لى أنَّ موسى ، عليه السلامُ ، أُمِرَ أنْ يَمْشِىَ إلى كَثِيبٍ حتى يَضْرِبَه بعَصاه ، فمَشَى إلى كَثِيبٍ أَهْيَلٍ عظيمٍ ، فضَرَبَه بها ، فانثال

(١) عبيطًا أى طريًا.
(٢) تفسير الطبرى ٩/ ٣٧. والتفسير ٣/ ٤٦٢ .
(٣ - ٣) سقط من: الأصل.
(٤) كذا فى الأصل، والطبرى، والتفسير. وفى باقى النسخ: «يخرجوا».
(٥ - ٥) سقط من: الأصل.

عليهم قُمَّلًا ، حتى غلَب على البُيُوتِ والأَطْعِمةِ ، ومنَعهم النَّومَ والقرارَ ، فلمّا جَهَدَهم ، قالوا له مثلَ ما قالوا له ، فدعا ربَّه ، فكشف عنهم ، فلمْ يَفُوا له بشَيْءٍ ممَّا قالوا ، فأَرْسَل اللَّهُ عليهم الضَّفادِعَ ، فَمَلَأَتِ البُيوتَ والأَطْعِمةَ والآنيةَ ، فلم يَكْشِفْ أحدٌ ثوْبًا ولا طعامًا إلا وَجَد فيه الضَّفادِعَ قد غلبت عليه ، فلمّا جَهَدَهم ذلك ، قالوا له مثلَ ما قالوا ، فدعا ربَّه ، فكشفَ عنهم ، فلم يَفُوا له[1] بشَيْءٍ ممَّا قالوا ، فأرسَل اللَّهُ عليهم الدَّمَ [١٦٤/١ظ] فصارتْ مياهُ آلِ فِرْعَوْنَ دَمًا ، لا يَسْتَقُون مِن بِئْرٍ ، ولا نَهْرٍ ولا[2] يَغْتَرِفُون مِن إناءٍ ، إلَّا عادَ دمًا عَبِيطًا .

وقال زيدُ ابنُ أسلمَ : المرادُ بالدَّمِ الرُّعافُ . رواه ابنُ أبي حاتمٍ[3] .

قال اللَّهُ تعالى[4] : ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٤- ١٣٦] . يُخبِرُ تعالى ، عن كفرِهم ، وعُتُوِّهم ، واستمرارِهم على الضَّلالِ والجَهْلِ ، والاستكبارِ عن اتِّباعِ آياتِ اللَّهِ ، وتصديقِ رَسولِه ، مع ما أُيِّدَ به مِن الآياتِ العَظيمةِ الباهِرةِ ، والحُجَجِ البَليغةِ القاهِرةِ ، التي أراهم اللَّهُ إياها عِيانًا ، وجعَلها عليهم دَليلًا وبُرْهانًا ، وكلّما شاهدُوا آيةً وعايَنُوها ، وجَهَدَتْهم وأَضْنَكَتْهم ، حَلَفُوا وعاهَدُوا مُوسى ؛ لَئِنْ كَشَفَ عنهم

---

(١) زيادة من : الأصل .

(٢) سقط من : ح ، م ، ص .

(٣) رواه ابن جرير ٩/ ٣٩. وعزاه فى الدر ٣/ ١١٠ إلى ابن أبى حاتم . وانظر التفسير ٣/ ٤٦٣.

(٤) التفسير ٣/ ٤٦٢، ٤٦٣.

هذه، لَيُؤمِنُنَّ به، ولَيُرْسِلُنَّ معه مَنْ هو مِن حِزْبِه، فكلَّما رُفِعَتْ عنهم تلك الآيةُ، عادُوا إلى شَرٍّ مِمَّا كانوا عليه، وأَعْرَضُوا عمّا جاءَهم به مِن الحقِّ، ولم يَلْتفِتُوا إليه، فيُرْسِلُ اللَّهُ عليهم آيةً أخرى، هى أَشدُّ مِمَّا كانت قبلَها وأَقْوَى، فيقولُون، فيَكْذبون. ويَعِدُون ولا يَفُون ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فيُكْشَفُ عنهم ذلك العذابُ الوَبِيلُ. ثم يَعُودُون إلى جَهْلِهم العريضِ الطَّوِيلِ. هذا، والعظيمُ الحليمُ القديرُ يُنْظِرُهم ولا يَعْجَلُ عليهم، ويؤخِّرُهم ويتقدَّمُ بالوعيدِ إليهم، ثم أَخَذَهم - بعدَ إقامةِ الحُجَّةِ عليهم، والإعذارِ[1] إليهم - أَخْذَ عزيزٍ مقتدرٍ، فجعلَهم عِبْرَةً، ونَكَالًا وسَلَفًا لِمَنْ أَشْبَهَهم مِن الكافرين، ومَثَلًا لِمَن اتَّعَظَ بهم مِن عبادِه المؤمنين.

وقال اللَّهُ تبارك وتعالى، وهو أَصْدَقُ القائلين، فى سورةِ «حم والكتابِ المبينِ»[2]: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَاۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ [١٦٥/١و] ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ

(١) فى ح، م: «الإنذار».
(٢) التفسير ٧/ ٢١٧- ٢١٩.

﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ [الزخرف: ٤٦- ٥٦].

يذْكُرُ تعالى إرسالَهَ عبدَه الكليمَ الكريمَ[(١)] ، إلى فِرْعَوْنَ الخسيسِ اللَّئِيمِ ، وأنَّه تعالى أَيَّدَ رسولَه بآياتٍ بيِّناتٍ واضِحاتٍ ، تستَحِقُّ أن تُقابَلَ بالتَّصْديقِ والتَّعْظيمِ ، وأنْ يَرْتَدِعُوا عمَّا هم فيه مِن الكُفرِ ، ويَرْجِعوا إلى الحقِّ والصِّراطِ المُسْتقيمِ ، فإذا هم منها يَضْحَكُون ، وبها يَسْتَهْزِئُون ، وعن سبيلِ اللَّهِ يَصُدُّون ، وعن الحَقِّ يَحِيدُونَ ، فأرسلَ اللَّهُ عليهمُ الآياتِ تَتْرَى ، يَتْبَعُ بعضُها بعضًا ، وكلُّ آيةٍ أكبرُ مِن أُخْتِها[(٢)] التى تَتْلُوها ؛ لأنَّ المُؤَكِّدَ[(٣)] أبلغُ مِمَّا قبلَه ، ﴿ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ ، لم يكنْ لفظُ السَّاحِرِ فى زَمانِهم نقصًا ولا عَيْبًا ؛ لأنَّ علماءَهم ، فى ذلك الوقتِ ، همُ السَّحَرَةُ ؛ ولهذا خاطبُوه بِهِ فى حالِ احتياجِهم إليه ، وضَراعَتِهم لَدَيْه ، قال اللَّهُ تعالى : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ ، ثُم أخبرَ تعالى عن تَبَجُّحِ فِرْعَوْنَ بمُلْكِه ، وعَظَمَةِ بَلَدِه وحُسنِها ، وتَخَرُّقِ الأنهارِ فيها ، وهى الخُلْجانُ التى يَكْسِرُونها أمامَ زيادةِ النِّيلِ ، ثُم تَبَجَّحَ بنفسِه وحِلْيَتِه ، وأَخَذَ يَتَنَقَّصُ رسولَ اللَّهِ موسى ، عليه السلامُ ، ويَزْدَرِيه بكَوْنِه ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ يَعْنى كلامَه ، بسببِ ما كان فى لسانِه مِن بَقِيَّةٍ تلك اللُّثْغَةِ ، التى هى شَرَفٌ له ، وكمالٌ وجمالٌ ، ولم تكنْ مانعةً له أَنْ كلَّمه اللَّهُ تعالَى ، وأَوْحَى إليه ، وأَنْزَلَ بعدَ ذلك التَّوراةَ عليه ، وتَنَقَّصَه فِرْعَوْنُ ، لَعَنَه اللَّهُ ، بكونِه لا

---

(١) زيادة من : ح ، م .

(٢) زيادة من : الأصل .

(٣) فى ح ، م ، ص : « التوكيد » .

أساوِرَ فى يَديه[1] ولا زِينةَ عليه، وإنَّما ذلك مِن حِلْيَةِ النِّساءِ، لا يَلِيقُ بشهامةِ الرِّجالِ، فكيف بالرُّسُلِ الذين هم أكملُ عَقْلًا، وأتمُّ معرفةً، وأَعْلَى هِمَّةً، وأزهدُ فى الدُّنيا، وأعلمُ بما أعدَّ اللَّهُ لأَوْليائِه فى الأُخْرَى. وقولُه: ﴿ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ لا يحتاجُ الأمرُ إلى ذلك، إنْ كان المرادُ أنْ تعظِّمَه الملائكةُ. فالملائكةُ يُعَظِّمُون ويتواضَعُون لِمَن هو دونَ موسى، عليه السَّلامُ، بكثيرٍ، كما جاء فى الحديثِ: «إنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَها لِطالِبِ الْعِلْمِ رِضًى بِمَا يَصْنَعُ»[2]. فكَيْف يكونُ تواضُعُهم وتعظيمُهم لموسى الكَليمِ، عليه الصَّلاةُ والتَّسليمُ والتَّكريمُ؟ وإن كان[3] المرادُ شهادتَهم له بالرِّسالةِ، فقد أُيِّد مِن المُعجزاتِ بما يَدُلُّ قطعًا لذوى الألبابِ، ولِمَن قصدَ إلى الحقِّ والصَّوابِ، ويَعْمَى عمّا جاءَ به مِن البيِّناتِ والحُجَجِ الواضِحاتِ، مَن نَظَرَ إلى القُشُورِ، وتَرَكَ لُبَّ اللُّبابِ، وطبَع على قلبِه ربُّ الأرْبابِ، وخَتَم عليه بما فيه [١/١٦٥ظ] مِن الشَّكِّ والارْتيابِ، كما هو حالُ فِرْعَوْنَ القِبْطىِّ العَمِىِّ الكذَّابِ، قال اللَّهُ تعالى: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾ أى؛ اسْتخَفَّ عقولَهم، ودَرَّجَهم مِن حالٍ إلى حالٍ، إلى أن صَدَّقُوه فى دَعْواه الرُّبوبيَّةَ، لَعَنه اللَّهُ وقبَّحهم، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾. ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ﴾ أى؛ أَغْضَبُونا؛ ﴿ ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ أى؛ بالغَرَقِ، والإهانةِ، وسَلْبِ العِزِّ، والتَّبدُّلِ بالذُّلِّ وبالعَذَابِ بعدَ النِّعْمَةِ، والهوانِ بعدَ الرَّفَاهِيَةِ، والنَّارِ بعدَ طِيبِ العَيْشِ، عِياذًا باللَّهِ العظيمِ وسلطانِه القَديمِ مِن ذلك، ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا ﴾ أى؛ لِمَنِ اتَّبعَهم فى الصِّفاتِ، ﴿ وَمَثَلًا ﴾ أى؛ لِمَنِ اتَّعَظَ بهم، وخافَ مِن وَبِيلِ

---

(١) فى ح، م، ص: «بدنه».

(٢) تقدم تخريجه ١/ ١٢٤.

(٣) بعده فى الأصل، ح: «إنما».

مَصْرَعِهِم ، مِمَّن بلغَه جَلِيَّةُ خبَرِهم ، وما كان مِن أمرِهم ؛ كما قال اللَّهُ تعالى[(1)] : ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾ [القصص: ٣٦- ٤٢].

يُخبِرُ تعالى أنَّهم لمَّا استَكبَرُوا عن اتِّباعِ الحقِّ ، وادَّعى مَلِكُهم الباطلَ ، ووافقُوه عليه ، وأطاعُوه فيه ، اشتَدَّ غضبُ الرَّبِّ القديرِ العَزيزِ ، الذى لا يُغالَبُ ولا يُمانَعُ ، عليهم ، فانتقَمَ منهم أشدَّ الانتقامِ ، وأغرَقه هو وجنودَه فى صَبيحةٍ واحدةٍ ، فلمْ يَفلِتْ مِنهم أحدٌ ، ولم يَبْقَ مِنهم دَيّارٌ ، بل كلٌّ قد غَرِق ، فدَخَلَ النّارَ ، وأُتْبِعُوا فى هذه الدّارِ لعنةً بينَ العالمينَ ، ويومَ القيامةِ ، بِئْسَ الرِّفْدُ المَرْفُودُ ، ويومَ القيامةِ هم مِنَ المَقْبُوحِينَ .

---

(١) التفسير ٦/ ٢٤٧، ٢٤٨.

ذكرُ[1] هلاكِ فِرْعَوْنَ وجنودِه

لمَّا تمادَى قِبْطُ مصرَ على كفرِهم، وعُتُوِّهم، وعنادِهم، متابَعَةً لِمَلِكِهم فِرْعَوْنَ، ومخالفَةً لنبيِّ اللَّهِ ورسولِه وكليمِه، موسى بنِ عِمْرَانَ، عليه السَّلامُ، وأقامَ اللَّهُ على أهلِ مصرَ الحُجَجَ العظيمةَ القاهرةَ، وأراهم مِن خوارقِ العاداتِ ما بَهَرَ الأبصارَ وحَيَّرَ العقولَ، وهم مع ذلك لا يَرْعَوُون، ولا يَنْتَهُون، ولا يَنْزِعُون[2]، ولا يَرْجِعُون، ولم يُؤْمِنْ [١/١٦٦و] منهم إلا القليلُ، قيل: ثلاثةٌ؛ وهم امرأةُ فِرْعَوْنَ، ولا عِلْمَ لأهلِ الكتابِ بخبرِها، ومؤمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ، الذى تَقدَّم حكايةُ موعظتِه، ومَشورتِه، وحُجَّتِه عليهم، والرَّجلُ النَّاصحُ، الذى جاء يَسْعَى مِن أَقْصَى المدينةِ، فقال: ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾. قاله ابنُ عباسٍ، فيما رواه ابنُ أبى حاتمٍ عنه[3]. ومُرادُه غيرُ السَّحرةِ، فإنَّهم كانوا مِنَ القِبْطِ. وقيل: بل آمَنَ به طائفةٌ مِن القِبْطِ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ، والسَّحرةُ كلُّهم، وجميعُ شَعْبِ بنى إسرائيلَ. ويدلُّ على هذا قولُه تعالى: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [يونس: ٨٣]. فالضَّميرُ فى قولِه: ﴿ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ عائدٌ على فِرْعَوْنَ؛

---

(١) زيادة من: الأصل.

(٢) فى الأصل: «يقترعون». وفى ا: «يفزعون».

(٣) تقدم تخريجه فى ص ٨٤.

لأنَّ السِّياقَ يدلُّ عليه . وقِيل : على موسى ؛ لقُرْبِه . والأوَّلُ أَظْهرُ ، كما هو مُقرَّرٌ في « التَّفسيرِ »[1] . وإيمانُهم كان خُفْيةً ؛ لمخافَتِهم مِن فِرْعَوْنَ وسَطْوَتِه ، وجَبَرُوتِه وسُلْطتِه ، ومِن مَلَئِهم أنْ يَنِمُّوا عليهم إليه ، فيَفتِنَهم عن دينِهم ، قال اللَّهُ تعالى ، مُخْبِرًا عن فِرْعَوْنَ ، وكفى باللَّهِ شهيدًا : ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ . أي ؛ جبَّارٌ ، عَنيدٌ ، مُسْتعْلٍ بغيرِ الحقِّ ، ﴿ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ أي ؛ في جميعِ أمورِه وشئونِه وأحوالِه ، ولكنَّه جُرْثُومَةٌ قد حانَ انجِعافُها ، وثَمَرَةٌ خَبيثَةٌ قد آنَ قِطافُها ، ومُهْجَةٌ مَلْعُونَةٌ قد حُتِم إتْلافُها . وعندَ ذلك قال موسى[2] : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يونس: ٨٤- ٨٦] . يأمرُهم بالتَّوكُّلِ على اللَّهِ ، والاستعانةِ به والالتجاءِ إليه ، فأْتَمَرُوا بذلك ، فجعَل اللَّهُ لهم مِمَّا كانوا فيه فَرَجًا ومَخْرَجًا . ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَوْحَى اللَّهُ تعالى إلى موسى وأخيه هارونَ ، عليهما السَّلامُ ، أنْ يَتَّخِذا لقَوْمِهما بيوتًا مُتَمَيِّزَةً فيما بينَهم عن بيوتِ القِبْطِ ؛ ليكُونُوا على أُهْبَةٍ من الرَّحيلِ ، إذا أُمِرُوا به ، ليَعْرِفَ بعضُهم بيوتَ بعضٍ . وقولُه[3] : ﴿ وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ قِيل : مساجدَ . وقِيل : معناه كَثْرَةُ الصَّلاةِ فيها . قالَه مُجاهدٌ ، وأبو مالكٍ ، وإبراهيمُ النَّخَعِيُّ ، والرَّبيعُ ، والضَّحَّاكُ ، وزيدُ بنُ أَسْلَمَ ، وابنُه عبدُ الرَّحمنِ ، وغيرُهم[4] .

---

(١) التفسير ٤/ ٢٢٢، ٢٢٣.

(٢) التفسير ٤/ ٢٢٣، ٢٢٤.

(٣) التفسير ٤/ ٢٢٤.

(٤) انظر تفسير الطبرى ١١/ ١٥٣- ١٥٥. والتفسير ٤/ ٢٢٤.

ومعناه على هذا ، الاستعانةُ على ما هم فيه مِن الضُّرِّ ، والشِّدَّةِ ، والضِّيقِ ، بكَثْرَةِ الصَّلاةِ ؛ كما قال تعالَى : ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ [١٦٦/١ظ] وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٥]. وكان رسولُ اللَّهِ ﷺ إذا حَزَبَه أمرٌ صَلَّى[(١)] . وقِيل : معناه أنّهم لم يكونُوا حينَئِذٍ يَقْدِرُون على إظهارِ عبادتِهم في مجتمعاتِهم ، ومعابِدِهم ، فأُمِرُوا أنْ يُصَلُّوا فى بُيُوتِهم ، عِوَضًا عمّا فاتَهم مِن إظهارِ شِعَارِ الدِّينِ الحقِّ فى ذلك الزّمانِ ، الذى اقْتَضَى حالُهم إخفاءَه ؛ خوفًا مِن فِرْعَوْنَ ومَلَئِه . والمعنى الأولُ أَقْوَى ؛ لقولِه : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وإنْ كان لا يُنافِى الثّانىَ أيضًا ، واللَّهُ أعلمُ . وقال سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ[(٢)] ، ﴿ وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ أى : متقابلةً .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[(٣)] [يونس: ٨٨، ٨٩] . هذه دعوةٌ عظيمةٌ ، دعا بها كليمُ اللَّهِ موسى ، على عدوِّ اللَّهِ فِرْعَوْنَ ؛ غضبًا للَّهِ عليه ، لتكبُّرِه عن اتِّباعِ الحقِّ ، وصَدِّه عن سبيلِ اللَّهِ ، ومعاندتِه ، وعُتُوِّه ، وتَمرُّدِه ، واستمرارِه على الباطلِ ، ومكابرتِه الحقَّ الواضحَ الجَلِيَّ الحِسِّيَّ والمعنويَّ ، والبرهانَ القَطْعِيَّ ، فقال : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ ﴾ يعنى : قومَه مِن القِبْطِ ، ومَن كان على مِلَّتِه ، ودانَ بدِينِه ﴿ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن

---

(١) رواه أبو داود (١٣١٩) من حديث حذيفة . حديث حسن (صحيح أبى داود ١١٧١) .
(٢) تفسير الطبرى ١١/ ١٥٥. والتفسير ٤/ ٢٢٤.
(٣) التفسير ٤/ ٢٢٥، ٢٢٦.

سَبِيلِكَۖ ﴾ أى ؛ وهذا يَغْتَرُّ به مَن يُعظِّمُ أمرَ الدّنيا ، فيَحْسَبُ الجاهلُ أنَّهم على شىءٍ ؛ لكَوْنِ هذه الأموالِ[1] ، وهذه الزِّينةِ ؛ مِن اللِّباسِ ، والمراكِبِ الحسنةِ الهَنِيَّةِ ، والدُّورِ الأَنِيقَةِ ، والقُصورِ المَبْنِيَّةِ ، والمآكلِ الشَّهِيَّةِ ، والمناظرِ البَهِيَّةِ ، والمُلْكِ العزيزِ ، والتَّمْكِينِ ، والجاهِ العَريضِ ، فى الدُّنيا لا الدِّينِ ، ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ قال ابنُ عباسٍ ، ومُجاهدٌ . أى ؛ أَهْلِكْها . وقال أبو العَالِيةِ ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ ، والضَّحَّاكُ : اجْعَلْها حجارةً مَنْقوشةً كهَيْئةِ ما كانت . وقال قَتادةُ : بَلَغَنا أَنَّ زُرُوعَهم صارتْ حِجارةً . وقال محمدُ بنُ كَعْبٍ : جعل سُكَّرَهم حجارةً[2] . وقال أيضًا : صارتْ أموالُهم كلُّها حجارةً . ذُكِر ذلك لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ، فقال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ لغلامٍ له : ائْتِنِى بكِيسٍ . فجاءَه بكِيسٍ ، فإذا فيه حِمَّصٌ وبَيْضٌ [3]قدْ قُطِّعَ[3] ، قد حُوِّل حجارةً . رواه ابنُ أبى حاتمٍ[4] . وقولُه : ﴿ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ قال ابنُ عباسٍ : أى ؛ اطْبَعْ عليها . وهذه دعوةُ غضبٍ للَّهِ تعالى ولدِينِه ، ولبراهينِه ، فاستجابَ اللَّهُ تعالى لها ، وحقَّقَها ، وتقبَّلها ؛ كما استجابَ لنوحٍ فى قومِه ، حيثُ قال [١/١٦٧و] : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦، ٢٧] . ولهذا قال تعالى ، مخاطِبًا لموسى ، حينَ دعا على فِرْعَوْنَ ومَلَئِه ، وأَمَّنَ أخوه هارونُ على دعائِه ، فنَزَلَ ذلك منزلةَ الدّاعِى أيضًا : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت

---

(١) فى الأصل : « الأمور » .

(٢) انظر هذه الأقوال فى تفسير الطبرى ١٩/ ١٥٧، ١٥٨. والتفسير ٤/ ٢٢٥. والدر المنثور ٣/ ٣١٥.

(٣ - ٣) سقط من : م، ص.

(٤) ذكره فى الدر المنثور ٣/ ٣١٥ وعزاه لابن أبى حاتم من حديث محمد بن كعب القرظى . وانظر التفسير ٤/ ٢٢٥.

دَعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ قال المفسِّرُون وغيرُهم مِن أهلِ الكتابِ : استَأذَنَ بنو إسرائيلَ فرعونَ ، فى الخروجِ إلى عِيدٍ لهم ، فأَذِنَ لهم وهو كارِهٌ ، ولكنَّهم تجهَّزُوا للخُروجِ ، وتأهَّبُوا له ، وإنَّما كان فى نفسِ الأمرِ مَكِيدَةً بفِرْعَوْنَ وجنودِه ؛ لِيتخلَّصُوا مِنهم ، ويَخْرُجُوا عنهم ، وأمرَهم اللَّهُ تعالى - فيما ذَكَرَه أهلُ الكتاب - أنْ يَسْتَعِيرُوا حُلِيًّا مِنهم ، فأعارُوهم شيئًا كثيرًا ، فخَرَجُوا بلَيْلٍ ، فسارُوا مستمرِّين ذاهِبين مِن فَوْرِهم ، طالِبِين بلادَ الشَّامِ ، فلمَّا عَلِمَ بذَهابِهم فِرْعَونُ ، حَنِقَ عليهم كلَّ الحَنَقِ ، واشتدَّ غَضَبُه عليهم ، وشَرَعَ فى استِحْثاثِ جيشِه ، وجمعِ جنودِه ليَلْحَقَهم ، ويَمْحَقَهم ، قال اللَّهُ تعالى[1] : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ٥٢- ٦٨] . قال علماءُ التَّفسيرِ[2] : لمَّا رَكِبَ فِرْعَوْنُ فى جنودِه ، طالبًا بَنى إسرائيلَ ، يَقْفُو أَثَرَهم ، كان فى جيشٍ كَثيفٍ عَرَمْرَمٍ[3] ،

---

(١) التفسير ٦/ ١٥١- ١٥٥.

(٢) انظر تفسير الطبرى ١٩/٧٤ وما بعدها. قصص الأنبياء للثعلبى ص ١٧٣، ١٧٤. التفسير ٦/ ١٥٣. الدر المنثور ٥/ ٨٤، ٨٥.

(٣) جيش عرمرم: كثير. الوسيط (ع ر م).

حتى قِيل : كان فى خيولِه مائةُ ألفِ فَحْلٍ أَدْهَمَ . وكانت عِدَّةُ جنودِه تزيدُ على ألفِ ألفٍ ، وستِّمائةِ ألفٍ . فاللَّهُ أعلمُ . وقِيل : إنَّ بنى إسرائيلَ كانوا نحوًا مِن ستِّمائةِ ألفِ مقاتِلٍ غيرَ الذُّرِّيَّةِ ، وكان بينَ خُروجِهم مِن مصرَ صُحْبةَ موسى ، عليه السّلامُ ، ودخولِهم إليها صُحْبَةَ أبيهم إسرائيلَ ، أربعُمائةِ سنةٍ وسِتٌّ وعِشرون سنةً شَمْسِيَّةً[1] .

والمقصودُ أنَّ فِرْعَوْنَ لَحِقَهم بالجنودِ ، فأَدْرَكَهم عندَ شُروقِ الشَّمسِ ، وتراءَى الجَمْعَان ، [١/١٦٧ظ] ولم يَبْقَ ثَمَّ رَيْبٌ ، ولا لَبْسٌ ، وعايَنَ كلٌّ مِن الفَرِيقَيْنِ صاحبَه ، وتحقَّقَه ورآه ، ولم يَبْقَ إلا المُقاتَلَةُ ، والمُجَاوَلَةُ[2] ، والمُحاماةُ ، فعندَها قال أصحابُ موسى ، وهم خائِفون : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ وذلك لأنَّهم اضطُرُّوا فى طريقِهم إلى البحرِ ، فليس لهم طريقٌ ولا مَحِيدٌ إلا سلوكُه وخَوْضُه ، وهذا ما لا يَسْتَطِيعُه أحدٌ ، ولا يَقْدِرُ عليه ، والجبالُ عن يَسْرَتِهم ، وعن أيمانِهم ، وهى شاهِقةٌ مُنِيفةٌ ، وفِرْعَوْنُ قد غالقَهم وواجَهَهم ، وعايَنُوه فى جُنودِه وجُيوشِه وعَدَدِه وعُدَدِه ، وهم منه[3] فى غايةِ الخوفِ والذُّعْرِ ، لِما قاسَوْا فى سلطانِه مِن الإهانةِ والنُّكْرِ ، فَشَكَوْا إلى نبىِّ اللَّهِ ما هم فيه ، مِمَّا قد شاهدُوه وعايَنُوه ، فقال لهم الرَّسولُ الصّادقُ المصْدُوقُ : ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ . وكان فى السّاقةِ ، فتقدَّم إلى المقدِّمةِ ، ونظَر إلى البحْرِ ، وهو يَتَلاطَمُ بأمواجِه ، ويتزايدُ زَبَدُ أُجاجِه ، وهو يقولُ : هاهنا أُمِرْتُ . ومعه أخوه هارونُ ؛ ويُوشَعُ بنُ نُونٍ ، وهو يومَئِذٍ مِن ساداتِ بنى إسرائيلَ ، وعُلَمائِهم ،

---

(١) انظر ما تقدم ١/ ٤٩٩، ٥٠٠.
(٢) فى الأصل ، م : « المجادلة » . وفى ص : « المحاولة » .
(٣) فى الأصل : « منهم » .

وعُبَّادِهم الكِبارِ ، وقد أَوْحَى اللَّهُ إليه ، وجعلَه نبيًّا بعدَ موسى وهارونَ ، عليهما السَّلامُ ، كما سنذكُرُه فيما بعدُ إن شاءَ اللَّهُ تعالى ، ومعهم أيضًا مؤمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ ، وهم وُقوفٌ ، وبنو إسرائيلَ بكمالِهم عليهم عُكُوفٌ . ويقالُ : إنَّ مؤمِنَ آلِ فِرْعَوْنَ جعَل يَقْتَحِمُ بفرَسِه مِرارًا فى البحرِ ، هل يمكنُ سُلُوكُه ؟ فلا يُمْكِنُ ، ويقولُ لموسى ، عليه السَّلامُ : يا نبيَّ اللَّهِ ، أههنا أُمِرْتَ ؟ فيقولُ : نعم . فلمَّا تَفاقَمَ الأمرُ ، وضاقَ الحالُ ، واشتدَّ الأمرُ ، واقْتَرَبَ فِرْعَوْنُ وجنودُه فى جِدِّهم ، وحَدِّهم وحَديدِهم ، وغضَبِهم ، وحَنَقِهم ، وزاغتِ الأبْصارُ ، وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ ، فعندَ ذلك أَوْحَى الحليمُ العظيمُ القديرُ ، ربُّ العرشِ الكريمُ إلى موسى الكليمِ : ﴿ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾ . فلمّا ضربَه ، يقالُ : إنَّه قال له : انفلِقْ بإذنِ اللَّهِ . ويُقالُ : إنَّه كَنَّاه بأبى خالدٍ[1] . فاللَّهُ أعلمُ[2] . قال اللَّهُ تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ويُقالُ : إنَّه انفلَقَ اثْنَىْ عشَرَ طريقًا ، لكلِّ سِبْطٍ طريقٌ يَسيرُون فيه ، حتى قيل : إنَّه صارَ أيضًا شَبابيكَ ؛ ليَرَى بعضُهم بعضًا . وفى هذا نَظَرٌ ؛ لأنَّ الماءَ جِرْمٌ شَفّافٌ ، إذا كان مِن ورائِه ضياءٌ حَكَاه . وهكذا كان ماءُ البحرِ قائمًا مثلَ الجبالِ ، مَكْفوفًا بالقُدْرةِ العظيمةِ الصَّادرةِ عن الذى [١/١٦٨و] يقولُ للشىءِ : كُنْ . فيكونُ . وأَمَرَ اللَّهُ ريحَ الدَّبُورِ ، فَلَفَحَتْ[3] حالَ[4] البحرِ ، فأَذْهَبَتْه حتى صار يابسًا لا يَعْلَقُ فى سَنابكِ الخُيُولِ والدَّوابِّ .

---

(١) فى ح ، م ، ص : « خلد » .

(٢) انظر تاريخ الطبرى ١/ ٤١٣- ٤١٥. قصص الأنبياء للثعلبى ص ١٧٥. التفسير ٦/ ١٥٣، ١٥٤.

(٣) فى ح ، م : « فلقحت » . وفى ص : « فلحقت » .

(٤) فى ص : « جبال » . والحال : الطين الأسود .

قالَ اللَّهُ تعالى[1] : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ [طه : ٧٧ - ٧٩] .

والمقصودُ أنّه لَمّا آلَ أمرُ البحرِ إلى هذه الحالِ ، بإذْنِ الربِّ العظيمِ الشّديدِ المحالِ ، أُمِرَ موسى ، عليه السّلامُ ، أن يَجُوزَه ببنى إسرائيلَ ، فانْحَدَرُوا فيه مُسْرِعِينَ ، مُسْتَبْشِرِينَ ، مُبادِرِينَ ، وقد شاهدُوا مِن الأمرِ العظيمِ ما يُحَيِّرُ النّاظرين ، ويَهْدِى قلوبَ المُؤْمِنين ، فلمَّا جاوَزُوه ، وجاوَزَه وخرجَ آخِرُهم منه ، وانْفَصَلُوا عنه ، كان ذلك عندَ قدُومِ أوّلِ جيشِ فِرْعَوْنَ إليه ، ووُفودِهم عليه ، فأرادَ موسى ، عليه السّلامُ ، أنْ يَضْرِبَ البحرَ بعصاه ، ليَرْجِعَ كما كان عليه ؛ لِئَلّا يكونَ لفِرْعَوْنَ وجنودِه وصولٌ إليه ، ولا سبيلٌ عليه ، فأَمَرَه القديرُ ذو الجَلالِ ، أنْ يَتْرُكَ البحرَ على هذه الحالِ ، كما قال ، وهو الصّادقُ فى المَقالِ[2] .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ

(١) التفسير ٥/ ٣٠٠، ٣٠١.
(٢) التفسير ٧/ ٢٣٧- ٢٤١.

﴿ٱلْمُهِينِ ۝٣٠ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٣١ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٢ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ [الدخان: ١٧- ٣٣]. فقولُه تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ أى؛ ساكنًا على هَيئتِه، لا تغيِّرْه عن هذه الصِّفةِ. قاله عبدُ اللَّهِ بنُ عباسٍ، ومُجاهدٌ، وعِكْرِمَةُ، والرّبيعُ، والضَّحّاكُ، وقَتادةُ، وكَعْبُ الأحبارِ، وسِماكُ بنُ حَرْبٍ، وعبدُ الرّحمنِ بنُ زيدِ بنِ أسلمَ، وغيرُهم[(١)]. فلمّا تَرَكَه على هيئتِه وحالتِه، وانتهَى فِرْعَوْنُ، فرَأَى ما رَأَى، وعايَنَ ما عايَنَ، هالَه هذا المنظَرُ العظيمُ، [١/١٦٨ظ] وتحقَّقَ ما كان يتحقَّقُه قبلَ ذلك، مِن أنَّ هذا مِن فِعْلِ ربِّ العرشِ الكريمِ، فأَحْجَمَ ولم يتقدّمْ، ونَدِمَ فى نفسِه على خروجِه فى طلبِهم، والحالةُ هذه، حيثُ لا ينفعُه النَّدَمُ، لكنَّه أظهَرَ لجنودِه تجلُّدًا، وعامَلَهم معاملةَ العِدَا، وحملتْه النَّفسُ الكافرةُ، والسَّجيَّةُ الفاجرةُ، على أنْ قال لِمَن استخفَّهم فأَطاعُوه، وعلى باطلِه تابعُوه[(٢)]: انْظُرُوا كيف انْحَسَرَ البحرُ لى؛ لأُدْرِكَ عبيدِى الآبِقين مِن يدِى، الخارِجينَ عن طاعتِى وبلدِى؟ وجعَلَ يُورِى فى نفسِه أنْ يَذْهَبَ خلْفَهم، ويَرجُو[(٣)] أنْ يَنْجُوَ، وهَيْهاتَ، ويُقْدِمُ تارةً، ويُحْجِمُ تاراتٍ. فذَكَرُوا أَنّ جِبريلَ، عليه السّلامُ، تَبَدَّى فى صورةِ فارسٍ، راكِبٍ على رَمَكَةٍ حائلٍ[(٤)]، فمرَّ بينَ يَدَىْ فحلِ فرعونَ، لَعَنَه اللَّهُ، فحَمْحَمَ إليها، وأَقْبَلَ عليها، وأَسْرَعَ جبريلُ بينَ يَدَيْه، فاقْتَحَمَ البحرَ، واسْتَبَقَ الجَوادَ، وقد أجادَ، فبادرَ مُسْرِعًا، هذا وفرعونُ لا يملِكُ

---

(١) انظر تفسير الطبرى ٢٥/ ١٢١، ١٢٢. والتفسير ٧/ ٢٣٨.

(٢) فى الأصل، ص: «بايعوه».

(٣) فى الأصل: «يجوز». وفى ح: «يجور».

(٤) رمَكَة حائل: فرس أنثى مشتهاة غير حامل.

مِنْ نفسِه (١ولا لِنَفْسِه١) ضَرًّا ولا نَفْعًا ، فلمّا رأته الجنودُ قد سَلَكَ البحرَ ، اقْتَحَمُوا وراءَه مُسْرِعِينَ ، فحَصَلُوا فى البحرِ أَجْمَعِينَ أَكْتَعِينَ أَبْصَعِينَ ، حتى هَمّ أولُهم بالخروجِ منه ، فعندَ ذلك ، أمَرَ اللَّهُ تعالى كليمَه ﷺ فيما أَوْحاه إليه ، أن يَضْرِبَ البحرَ بعصاه ، فضرَبه ، فارتطم[٢] عليهم البحرُ كما كان ، فلم يَنْجُ مِنهم إنسانٌ . قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أى فى إنجائِه أولياءَه ، فلم يَغرَقْ منهم أحدٌ ، وإغراقِه أعداءَه ، فلم يَخْلُصْ منهم أحدٌ ، آيةٌ عظيمةٌ ، وبرهانٌ قاطِعٌ على قدرتِه تعالى العظيمةِ ، وصِدْقِ رسولِه فيما جاءَ به عن ربِّه مِن الشَّريعَةِ الكريمةِ ، والمناهِجِ المُسْتقيمةِ .

وقال تعالى[٣] : ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ [يونس: ٩٠- ٩٢] . يُخْبِرُ تعالَى ، عن كيفيةِ غَرَقِ فِرْعَوْنَ ، زعيمِ كَفَرَةِ القِبْطِ ، وأنّه لَمَّا جَعَلَتِ الأمواجُ تَخْفِضُه تارةً ، وتَرْفَعُه أُخْرَى ، وبنو إسرائيلَ يَنْظُرُون إليه ، وإلى جُنُودِه ، ماذا أحلَّ اللَّهُ به وبهم مِن البأسِ العَظيمِ ، والخَطْبِ الجَسيمِ ، ليكونَ أقرَّ لأَعْيُنِ بنى إسرائيلَ ، وأَشْفَى لنفوسِهم ، فلمّا عايَنَ فرعونُ الهَلَكَةَ [١/١٦٩و] ، وأُحِيطَ به ، وباشرَ سَكَراتِ

(١ - ١) زيادة من : الأصل .

(٢) فى الأصل : « فانتظم » .

(٣) التفسير ٤/ ٢٢٦- ٢٢٩.

الموتِ ، أنابَ حينئذٍ ، وتابَ ، وآمَنَ حينَ لا يَنْفَعُ نفسًا إيمانُها ؛ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] . وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥] .

وهكذا دعا موسى على فِرْعَوْنَ وملئِه ، أنْ يُطْمَسَ على أمْوالِهم ، ويُشْدَدَ على قلوبهم ، ﴿ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ أى ؛ حينَ لا ينفعُهم ذلك ، ويكونُ حَسْرةً عليهم ، وقد قال تعالى لهما ؛ أى لموسى وهارونَ ، حين دَعَوا بهذا : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ . فهذا مِن إجابةِ اللَّهِ تعالى دَعْوَةَ كليمِه وأخيه هارونَ ، عَليهما السَّلامُ .

ومِن ذلك ، الحديثُ الذى رواه الإمامُ أحمدُ[1] : حدثّنا سليمانُ بنُ حَرْبٍ ، حدّثنا حمادُ بنُ سَلَمَةَ ، عن عليِّ بنِ زَيْدٍ ، عن يوسفَ بنِ مِهْرانَ ، عن ابنِ عباسٍ ، قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « لمَّا قَالَ فِرْعَوْنُ : ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ » قال : « قالَ لى جِبْرِيلُ : لَوْ رَأَيْتَنِى وقدْ أخَذْتُ مِنْ حالِ البَحْرِ فَدَسَسْتُه فى فيهِ ، مَخافَةَ أَن تَنالَهُ الرَّحْمَةُ » . ورواه التِّرْمِذِىُّ ، وابنُ جريرٍ ، وابنُ أبى حاتمٍ ، عندَ هذه الآيةِ ، مِن حديثِ حمّادِ بنِ سَلَمَةَ[2] . وقال التِّرمذىُّ : حديثٌ حَسَنٌ .

---

(١) أحمد فى المسند ١/ ٣٠٩. (إسناده صحيح).

(٢) الترمذى (٣١٠٧)، تفسير الطبرى ١١/ ١٦٣. وعزاه فى الدر المنثور ٣/ ٣١٥ إلى ابن أبى حاتم. (صحيح الترمذى ٢٤٨٣).

وقال أبو داودَ الطَّيالِسِيُّ[1] : حدَّثنا شُعْبَةُ ، عن عَدِيِّ بنِ ثابتٍ ، وعطاءِ بنِ السّائبِ ، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « قال لى جِبريلُ : لو رَأَيْتَنى وأنا آخُذُ مِن حالِ البحرِ فأَدُسُّه فى فَمِ فِرْعَوْنَ ؛ مخافةَ أنْ تُدْرِكَه[2] الرَّحْمةُ » . ورواه التِّرْمِذِىُّ ، وابنُ جريرٍ ، مِن حديثِ شُعْبَةَ ، وقال التِّرْمِذِىُّ : حَسَنٌ غريبٌ صحيحٌ . وأشارَ ابنُ جريرٍ فى روايةٍ إلى وَقْفِه[3] .

وقال ابنُ أبى حاتمٍ[4] : حدَّثنا أبو[5] سعيدٍ الأشَجُّ ، حدَّثنا أبو خالدٍ الأحمرُ ، عن عمرَ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ يَعْلَى الثَّقفىِّ ، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، قال : لمّا أغْرَقَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ ، أشارَ بأُصْبُعِه ، ورفَع صَوْتَه : ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ . قال : فخاف جبريلُ أن تَسْبِقَ رحمةُ اللَّهِ فيه غضبَه ، فجعَل يأخذُ الحالَ بجَناحَيْه ، فيَضْرِبُ به وجهَه فيرمُسُه . ورواه ابنُ جَريرٍ ، مِن حديثِ أبى [١٦٩/١ظ] خالدٍ به . وقد رواه ابنُ جَريرٍ ، مِن طريقِ كثيرِ بنِ زاذانَ ، وليس بمَعْروفٍ[6] ، عن أبى حازمٍ ، عن أبى هريرةَ ، قال : قال رسولُ اللَّه ﷺ : « قالَ لى جِبْرِيلُ : يَا مُحَمَّدُ ، لَوْ رَأَيْتَنى ، وَأَنَا أَغُطُّهُ ، وَأَدُسُّ مِن الحَالِ فِى فِيهِ ، مَخافَةَ أَنْ تُدْرِكَه رَحْمَةُ اللَّهِ ؛ فَيَغْفِرَ لَهُ »[7] . يعْنى

---

(١) مسند أبى داود الطيالسى (٢٦١٨) .
(٢) فى ح ، م ، ص : « يناله » .
(٣) الترمذى (٣١٠٨) وقال : حسن صحيح غريب من هذا الوجه . ابن جرير فى التفسير ١٦٣/١١ مرفوعًا ، ١٦٤/١١ موقوفًا . (صحيح الترمذى ٢٤٨٤) .
(٤) ذكره السيوطى فى الدر ٣١٥/٣ وعزاه إلى ابن أبى حاتم مطولا .
(٥) فى الأصل : « ابن » .
(٦) بعده فى الأصل، م، ص: « و ». وهو خطأ .
(٧) ابن جرير فى تفسيره ١٦٤/١١ من حديث أبى خالد الأحمر به مختصرا ، وفى ١٦٣/١١ من طريق كثير بن زاذان عن أبى حازم عن أبى هريرة .

فِرْعَوْنَ . وقد أرْسلَه غيرُ واحدٍ مِن السّلَفِ ؛ كإبراهيمَ التَّيْمِيِّ ، وقَتادةَ ، ومَيْمونِ ابنِ مِهْرَانَ ، ويُقالُ : إنّ الضَّحاكَ بنَ قَيْسٍ خَطَبَ به النّاسَ[1] . وفى بعضِ الرِّواياتِ : « إنّ جبريلَ قال : ما بَغَضْتُ أحدًا بُغْضِى لِفِرْعَوْنَ ، حينَ قال : أنا ربُّكم الأعْلَى . ولقد جَعَلْتُ أَدُسُّ فى فِيه الطِّينَ حين قال ما قال » . وقولُه تعالى : ﴿ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ استفهامُ إنكارٍ ، ونصٌّ على عدمِ قَبولِه تعالَى منه ؛ ذلك لأنّه ، واللَّهُ أعلمُ ، لو رُدَّ إلى الدُّنْيا كما كان ، لَعادَ إلى ما كان عَليه ، كما أخبرَ تعالى عن الكفارِ ، إذا عايَنُوا النّارَ وشاهدُوها ، أنّهم يقولُون : ﴿ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٧] . قال اللَّهُ : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٨] . وقولُه : ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ قال ابنُ عباسٍ ، وغيرُ واحدٍ : شَكَّ بعضُ بنى إسرائيلَ فى موتِ فِرْعَوْنَ ، حتى قال بعضُهم : إنّه لا يموتُ . فأمَرَ اللَّهُ البَحْرَ ، فرَفَعه على مُرْتَفَعٍ - قِيل : على وجهِ الماءِ . وقِيل : على نَجْوَةٍ مِن الأرضِ - وعليه دِرْعُه التى يَعْرِفُونها مِن ملابِسه ؛ ليتحقّقُوا بذلك هلاكَه ، ويعلمُوا قُدرةَ اللَّهِ عليه ؛ ولهذا قال : ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ أى ؛ مُصاحِبًا دِرْعَكَ المَعْروفَةَ بك ﴿ لِتَكُونَ ﴾ أى ؛ أنتَ آيةً ﴿ لِمَنْ خَلْفَكَ ﴾ أى ؛ مِن بنى إسرائيلَ ، دليلًا على قَدْرةِ اللَّهِ الذى أهْلَكَه . ولهذا قَرَأَ بعضُ السّلفِ : (لِتكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً)[2] . ويَحْتَمِلُ أن يكونَ المرادُ : نُنَجِّيك مصاحِبًا دِرْعَك[3] ؛ ليكونَ دِرْعُك علامةً لِمَن

---

(١) تفسير الطبرى ١١/ ١٦٣، ١٦٤. والتفسير ٤/ ٢٢٨.

(٢) انظر القرطبى ٨/ ٣٨١.

(٣) سقط من : م، ص.

وراءَكَ مِن بنى إسرائيلَ، على معرفتِك، وأنَّك هَلَكْتَ، واللَّهُ أعلمُ. وقد كان هلاكُه وجنودِه فى يومِ عَاشُوراءَ.

كما قال الإمامُ البخاريُّ فى «صحيحِه»[1]: حدَّثنا محمدُ بنُ بَشّارٍ[2]، حدثنا غُنْدَرٌ، حدّثنا شُعْبَةُ، عن أبى[3] بِشْرٍ، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ، عن ابنِ عباسٍ، قال: قَدِم النَّبىُّ ﷺ المدينةَ، واليهودُ تَصومُ يومَ عاشوراءَ، فقالوا: هذا يومٌ ظَهَرَ فيه موسى على فِرْعَوْنَ. قال النَّبىُّ ﷺ: «أَنْتُمْ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنهم فَصومُوا». وأصلُ هذا الحديثِ فى «الصَّحيحَيْنِ» وغيرِهما[4]. واللَّهُ أعلمُ [١/١٧٠و].

---

(١) البخارى (٤٦٨٠).
(٢) فى الأصل: «يسار». وانظر ترجمته فى تهذيب التهذيب ٩/ ٧٠.
(٣) فى الأصل: «ابن».
(٤) البخارى (٢٠٠٤، ٣٣٩٧، ٣٩٤٣، ٤٧٣٧). مسلم (١١٣٠). والنسائى فى الكبرى (٢٨٣٤، ٢٨٣٥). ابن ماجه (١٧٣٤).

فَصلٌ فيما كانَ مِن أَمْرِ بنى إسرائيلَ بعدَ هلاكِ فِرْعَوْنَ

قال اللَّهُ تعالى[1] : ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٣٦- ١٤١]. يَذْكُرُ تعالى ما كان مِن أمرِ فِرْعَوْنَ وجنودِه، فى غَرَقِهم، وكيف سَلَبَهُم عِزَّهم، ومالَهم، وأنفسَهم، وأَوْرَثَ بنى إسرائيلَ جميعَ أموالِهم وأملاكِهم، كما قال: ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ٥٩]. وقال: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص: ٥].

---

(١) التفسير ٣/ ٤٦٣، ٤٦٤.

وقال هاهنا: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ أي: أَهْلَكَ ذلك جميعَه، وسَلَبَهم عِزَّهم العزيزَ العريضَ في الدُّنيا، وهَلَكَ المَلِكُ وحاشيتُه، وأُمراؤُه، وجنودُه، ولم يَبْقَ ببلدِ مصرَ سوى العامّةِ والرَّعايا. فذكَر ابنُ عبدِ الحكمِ، في «تاريخِ مصرَ»[1]، أنَّه مِن ذلك الزَّمانِ تسلَّط نساءُ مصرَ على رجالِها؛ بسببِ أنَّ نساءَ الأمراءِ والكُبَراءِ تزوَّجْنَ بِمَنْ دونَهنَّ مِن العامّةِ، فكانت لهنّ السَّطوةُ عليهم، واستَمرَّتْ هذه سُنّةَ نساءِ مصرَ إلى يومِك هذا.

وعندَ أهلِ الكتابِ، أنَّ بني إسرائيلَ لمَّا أُمِرُوا بالخروجِ مِن مصرَ، جَعَل اللّهُ ذلك الشَّهرَ أولَ سَنَتِهم، وأُمِرُوا أَنْ يَذْبَحَ كلُّ أهلِ بيتٍ حَمَلًا[2] مِن الغَنَمِ، فإنْ كانوا لا يحتاجُون إلى حملٍ[3]، فلْيشترِكِ الجارُ وجارُه فيه، فإذا ذبحُوه فَلْينضَحُوا مِن دمِه على أعتابِ أبوابِهم؛ ليكونَ علامةً لهم على بُيُوتِهم، ولا يَأْكُلُونه مطبوخًا، ولكنْ مَشْويًّا برأسِه، وأكارِعه، وبَطْنِه، ولا يُبْقُوا منه شيئًا، ولا يَكْسِرُوا له عَظْمًا، ولا يُخْرِجُوا مِنه شيئًا إلى خارجِ بيوتِهم، ولْيَكُنْ خُبْزُهم فَطِيرًا سبعةَ أيامٍ، ابتداؤُها مِن الرّابعَ عَشَرَ مِن الشّهرِ الأولِ مِن سَنَتِهم، وكان ذلك في فصلِ الرّبيعِ، فإذا أَكَلُوا، فَلْتَكُنْ أوساطُهم مَشْدُودةً، وخِفافُهم في أرجلِهم، وعِصِيُّهم في أيديهم، ولْيَأْكُلُوا بسرعةٍ، قِيامًا، ومَهْمَا فضَل عن [١/

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم ص ٢٨.
(٢) في ح، م، ص: «جملًا».
(٣) في ح، م، ص: «جمل».

١٧٠ظ] عَشائِهم، فما بَقِيَ إلى الغدِ فَلْيَحْرِقُوه بالنَّارِ، وشُرِع لهم هذا عيدًا لأعقابِهم، ما دامتِ التّوراةُ مَعْمولًا بها، فإذا نُسِخَتْ، بَطَلَ شَرْعُها، وقد وَقع. قالوا: وقَتَلَ اللّهُ عَزَّ وجَلَّ فى تلك الليلةِ أبكارَ القِبْطِ، وأبكارَ دوابِّهم، ليَشْتَغِلُوا عنهم، وخَرَج بنو إسرائيلَ حين انتصفَ الليلُ[1]، وأهلُ مصرَ فى مَناحةٍ عظيمةٍ، على أبْكارِ أولادِهم، وأبْكارِ أموالِهم، ليس مِن بيتٍ إلّا وفيه عَويلٌ. وحينَ جاءَ الوَحْىُ إلى موسَى، خرجُوا مسرِعينَ، فحمَلُوا العجينَ قبل اختمارِه، وحملُوا الأزوادَ فى الأَرْدِيَةِ، وألقَوْها على عواتِقِهم، وكانوا قد استعارُوا مِن أهلِ مصرَ حُلِيًّا كثيرًا، فخرجُوا وهم ستُّمائةِ ألفِ رجلٍ، سوى الذَّرارِىِّ، بما معهم مِن الأنعامِ، وكانت مدةُ مُقامِهم بمصرَ أربعَمائةِ سنةٍ وثَلاثين سنةً. هذا نصُّ كتابِهم[2]. وهذه السَّنةُ عندَهم تسمَّى سَنَةَ الفَسخِ، وهذا العيدُ عيدُ الفسخِ، ولهم عيدُ الفَطيرِ، وعيدُ الحَمَلِ، وهو أولُ السَّنةِ. وهذه الأعيادُ الثّلاثةُ آكَدُ أعيادِهم، منصوصٌ عليها فى كتابِهم. ولمَّا خَرَجُوا مِن مصرَ، أَخْرَجُوا معهم تابوتَ يوسفَ، عليه السّلامُ، وخرجُوا على طريقِ بَحْرِ سُوفَ. وكانوا فى النّهارِ يسيرُون، والسّحابُ بينَ أيدِيهم يسيرُ أمامَهم، فيه عامودُ نورٍ، وبالليلِ أمامَهم عامودُ نارٍ، فانتهى بهمُ الطَّريقُ إلى ساحلِ البحرِ، فنَزَلُوا هُنالِكَ، وأدرَكَهم فِرْعَوْنُ وجنودُه مِن المصريِّين، وهم هناك حُلُولٌ على شاطئِ اليَمِّ، فقَلِقَ كثيرٌ مِن بنى إسرائيلَ، حتى قال قائلُهم: كان بقاؤُنا بمصرَ أحبَّ إلينا مِن الموتِ بهذه البَرِّيَّةِ. وقال موسى، عليه السّلامُ، لِمَن قال هذه المقالةَ: لا

---

(١) كذا فى الأصل وهو الموافق لما عند أهل الكتاب وتاريخ الطبرى. وقصص الأنبياء للثعلبى.
(٢) سفر الخروج الأصحاح ١٢/١- ٤٠.

تخشَوْا ، فإنّ فِرْعَوْنَ وجنودَه لا يَرجعُون إلى بلدِهم بعدَ هذا . قالوا : وأمرَ اللَّهُ موسى ، عليه السّلامُ ، أنْ يضرِبَ البحرَ بعصاه ، وأنْ يَقْسِمَه ؛ ليدخلَ بنو إسرائيلَ فى البحرِ واليَبَسِ . وصارَ الماءُ مِن هلهنا وهلهنا كالجبلَيْنِ ، وصار وسَطُه يَبَسًا ؛ لأنَّ اللَّهَ سَلَّطَ عليه ريحَ الجَنُوبِ والسَّمُومِ ، فجاز بنو إسرائيلَ البحرَ ، وأَتْبَعَهم فِرْعَوْنُ وجنودُه ، فلمَّا توسَّطُوه ، أمَرَ اللَّهُ موسى ، فضَرَبَ البحرَ بعصاه ، فرجَع الماءُ كما كان عليهم . لكنْ عندَ أهلِ الكتابِ ، أنّ هذا كان فى الليلِ ، وأنّ البحرَ ارْتَطَمَ عليهم عندَ الصُّبْحِ ، وهذا مِن غَلَطِهم ، وعدمِ فَهْمِهم فى تَعْرِيبِهم ، واللَّهُ أعلمُ . قالوا : ولَمَّا أَغْرَقَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ وجنودَه ، حينَئذٍ سبَّحَ موسى وبنو إسرائيلَ بهذا التسبيحِ للرَّبِّ ، وقالُوا : نُسَبِّحُ الربَّ البَهِيَّ الذى قهَر الجنودَ ، ونبَذ فُرْسانَها فى البحرِ المنيعِ المحمودِ . وهو تَسبيحٌ طويلٌ . قالوا : وأخذتْ مريمُ النَّبِيَّةُ ، أختُ هارونَ [١٧١/١و] دُفًّا بيدِها ، وخرج النِّساءُ فى أثرِها ، كُلُّهن بدفوفٍ وطُبولٍ ، وجعلتْ مريمُ تُرَتِّلُ لهنَّ ، وتقولُ : سبحانَ الرَّبِّ القهّارِ ، الذى قَهَرَ الخيُولَ ورُكْبانَها ، إلقاءً فى البحرِ . هكذا رأيتُه فى كتابِهم(١) . ولعلَّ هذا هو مِن الذى حَمَلَ محمدَ بنَ كعبٍ القُرَظِيَّ على زعمِه أَنّ مريمَ بنتَ عِمْرَان ، أمَّ عيسى ، هى أُختُ هارونَ وموسَى ، مع قولِه : ﴿ يَتَأُخْتَ هَـٰرُونَ ﴾ . وقد بيَّنَّا غَلَطَه فى ذلك(٢) ، وأنَّ هذا لا يمكنُ أَنْ يُقالَ ، ولم يتابِعْه أحدٌ عليه ، بل كلُّ واحدٍ خالَفَه فيه ، ولو قُدِّرَ أَنَّ هذا محفوظٌ ، فهذه مريمُ بنتُ عِمْرانَ ، أختُ موسى وهارونَ ، عليهما السّلامُ ، (٣وأمُّ عيسى عليها السّلامُ٣) ، وافقتْها فى

---

(١) سفر الخروج الأصحاح ١٤/ ١٠- ٣١، ١٥/ ١- ٣، ٢٠، ٢١.
(٢) انظر التفسير ٥/ ٢٢١، ٢٢٢.
(٣ - ٣) سقط من : الأصل.

الاِسمِ ، واسمِ الأبِ ، واسمِ الأخِ ؛ لأنّهم ، كما قال رسولُ اللّهِ ، ﷺ ، للمُغيرَةِ بنِ شُعْبَةَ لَمّا سَألَه أهلُ نجْرانَ ، عن قولِه : ﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ ﴾ . فلم يَدْرِ ما يقولُ لهم ، حتى سأَلَ رسولَ اللّهِ ﷺ ، عن ذلك ، فقال : « أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُم كَانُوا يُسَمُّونَ بِأَسْمَاءِ أَنْبِيائِهِمْ » . رواه مسلمٌ[1] . وقولُهم : النَّبِيَّةُ . كما يُقالُ للمرْأةِ مِن بيتِ المَلِك : مَلِكَةٌ . ومِن بيتِ الإمْرَةِ : أَميرةٌ . وإن لمْ تكنْ مباشِرةً شيئًا مِن ذلك ، فكذا هذه اسْتِعارةٌ لها ، لا أَنَّها نَبِيَّةٌ حقيقةً يُوحَى إليها . وضَرْبُها بالدُّفِّ فى مثلِ هذا اليومِ - الذى هو أعظمُ الأعيادِ عندَهم - دليلٌ على أنَّه قد كان شَرْعُ مَن قبلَنا ضَرْبَ الدُّفِّ فى العيدِ . وهذا مَشْروعٌ لنا أيضًا فى حقِّ النِّساءِ ؛ لحديثِ الجاريَتَيْنِ اللتَيْنِ كانتا عندَ عائشةَ تضرِبان بالدُّفِّ فى أيامِ مِنًى ، ورسولُ اللّهِ ﷺ مُضْطَجِعٌ ، مُوَلٍّ ظهرَه إليهم ، ووجهُه إلى الحائطِ ، فلمّا دخَل أبو بكرٍ زَجَرَهُنّ ، وقال : أبِمَزْمُورِ الشَّيطانِ فى بيتِ رسولِ اللّهِ ﷺ ؟ فقال : « دَعْهُنَّ يَا أَبَا بَكْرٍ ، فإِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا ، وَهَذَا عِيدُنَا »[2] . وهكذا يُشْرَعُ عندَنا فى الأعْراسِ ، ولِقُدومِ الغُيّابِ ، كما هو مُقَرَّرٌ فى موضِعِه . واللّهُ أعلمُ .

وذكرُوا أنّهم لَمّا جاوزُوا البحرَ ، وذهبُوا قاصدين إلى بلادِ الشّامِ ، مكثُوا ثلاثةَ أيام ، لا يجدُون ماءً ، فتكَلَّمَ مَن تَكَلَّم مِنهم بسببِ ذلك ، فوجَدُوا ماءً زُعاقًا[3] أُجاجًا ، لم يستطيعُوا شُرْبَه ، فأَمَرَ اللّهُ موسى ، عليه السلامُ ، فأَخَذَ خَشَبَةً فوضَعَها فيه ، فَحَلَا وساغ شُرْبُه ، وعلَّمه الرَّبُّ هنالِكَ فرائضَ وسُنَنًا ، ووصَّاه وصايَا كثيرةً . وقد قال اللّهُ تعالى ، فى كتابِه العزيزِ ، المُهَيْمِنِ على ما

---

(١) مسلم (٢١٣٥) .

(٢) رواه البخارى (٩٤٩) . ومسلم (٨٩٢) .

(٣) فى ح : « زهاقًا » . والماء الزعاق : المالح .

عداه مِن الكتبِ: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [١٧١/١ظ].

قالوا هذا الجهلَ والضّلَالَ، وقد عاينُوا مِن آياتِ اللّهِ وقُدْرتِه، (١)ما دلَّهم على صِدْقِ(١) ما جاءَهم به رسولُ ذى الجلالِ والإكرامِ، وذلك أنَّهم مرُّوا على قومٍ يَعْبُدُون أصنامًا، قِيل: كانتْ على صُوَرِ البَقَرِ. فكأنّهم سألُوهم: لِمَ يَعْبُدُونها، فزعمُوا لهم أنّها تَنْفعُهم وتضرُّهم، ويَسْتَرْزِقُون بها عندَ الضّروراتِ، فكأنَّ بعضَ الجُهّالِ مِنهم صَدَّقُوهم فى ذلك، فسألُوا نبيَّهم الكليمَ الكريمَ العظيمَ، أنْ يجعَلَ لهم آلهةً كما لأُوْلَئِكَ آلهةٌ، فقال لهم، مبيِّنًا لهم أنَّهم لا يعقِلُون ولا يَهْتَدُون: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. ثُم ذكَّرهم نعمةَ اللّهِ عليهم، فى تفضيلِه إيّاهم على عالَمى زمانِهم بالعلمِ، والشَّرعِ، والرّسولِ الذى بينَ أَظْهُرِهم، وما أحسنَ به إليهم، وما امتَنَّ به عليهم، مِن إنجائِهم مِن قَبْضةِ فِرْعَوْنَ الجبّارِ العنيدِ، وإهلاكِه إيّاه وهم يَنْظُرون، وتوريثِه إيّاهم ما كان فِرْعَوْنُ ومَلَؤُه يَجمعُونه مِن الأموالِ والسّعادةِ، وما كانوا يعرِشُون، وبيَّنَ لهم أنَّه لا تَصْلُحُ العبادةُ إلا للّهِ وحدَه، لا شريكَ له؛ لأنَّه الخالِقُ الرّازِقُ القهّارُ، وليس كلُّ بنى إسرائيلَ سَأَلَ هذا السؤالَ، بل الضّميرُ عائِدٌ على الجنسِ فى قولِه: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ﴾ أى؛ قال بعضُهم، كما فى قولِه: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾

(١- ١) سقط من: الأصل.

وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف: ٤٧، ٤٨]. فالذين زَعَمُوا هذا بعضُ النَّاسِ، لا كلُّهم.

وقد قال الإمَامُ أحمدُ[1]: حدَّثنا عبدُ الرَّزاقِ، حدثنا مَعْمَرٌ، عن الزّهْرِيِّ، عن سنانِ بنِ أبي سنانٍ الدِّيلِيِّ، عن أبي واقِدٍ اللَّيْثِيِّ، قال: خَرجْنا مع رسولِ اللَّهِ، ﷺ، قِبَلَ حُنينٍ[2]، فمرَرْنا بسِدْرَةٍ، فقلتُ: يا رسولَ اللَّهِ، اجعلْ لنا ذاتَ أَنْواطٍ، كما للكُفارِ ذاتُ أَنْواطٍ. وكان الكُفارُ يَنُوطُون سلاحَهم بسِدْرَةٍ، ويَعْكُفُون حوْلَها، فقال النبيُّ ﷺ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، هذا كما قالتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾. إِنَّكُم تَرْكَبُونَ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ». ورواه النَّسائِيُّ، عن محمدِ بنِ رافعٍ، عن عبدِ الرّزاقِ به. ورواه التِّرْمِذِيُّ، عن سعيدِ بنِ عبدِ الرَّحْمنِ المَخْزُومِيِّ، عن سُفْيانَ بنِ عُيَيْنَةَ، عن الزُّهْرِيِّ به[3]. ثم قال: حَسَنٌ صحيحٌ[4]. وقد روَى ابنُ جريرٍ[5]، مِن حديثِ محمدِ بنِ إسحاقَ، ومَعْمَرٍ، وعَقيلٍ، عن الزُّهْرِيِّ، عن سنانِ بن أبي سنانٍ، عن أبي واقدٍ اللَّيْثِيِّ، أنَّهم خَرجُوا مِن مكةَ مع رسولِ اللَّهِ ﷺ إلى حُنَيْنٍ[6]، قال: وكان للكفارِ [١٧٢/١و] سِدْرَةٌ، يعكُفُون عندَها، ويعلِّقُون بها أسلحتَهم، يُقالُ لها: ذاتُ أنْواطٍ. قال: فمَرَرْنا بسِدْرَةٍ خضراءَ عظيمةٍ، قال: فقلنا: يا رسولَ

---

(١) في المسند ٥/ ٢١٨.

(٢) في الأصل، ا: «خيبر». وهو لفظ الترمذي.

(٣) سقط من: الأصل.

(٤) النسائي في الكبرى (١١١٨٥). والترمذي (٢١٨٠) وقال: حسن صحيح (صحيح الترمذي ١٧٧١).

(٥) ابن جرير في تفسيره ٩/ ٤٥، ٤٦.

(٦) في م، ح، ا: «خيبر».

اللَّهِ ، اجعلْ لنا ذاتَ أنْواطٍ ، كما لهم ذاتُ أنْواطٍ . قال : « قُلْتُمْ ، وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ ، كَما قالَ قَوْمُ مُوسَى لِمُوسَى . ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ » .

والمقصودُ أنّ موسَى ، عليه السّلامُ ، لمّا انْفَصَلَ مِن بلادِ مصرَ ، وواجَهَ بلادَ بيتِ المقدسِ ، وَجَدَ فيها قومًا مِن الجبّارِينَ ، مِن الحيثانيِّين ، والفزاريِّين[1] ، والكَنْعانيِّين ، وغيرِهم ، فأمَرَهم موسى ، عليه السّلامُ ، بالدّخولِ عليهم ، ومقاتلَتِهم ، وإجلائِهم إيّاهم عن بيتِ المَقْدِسِ ، فإنّ اللَّهَ كَتَبَه لهم ، ووعَدَهم إيّاه ، على لسانِ إبراهيمَ الخليلِ ، وموسى الكَليمِ الجليلِ ، فأَبَوْا ونَكَلُوا عن الجهادِ ، فسَلَّطَ اللَّهُ عليهم الخوفَ ، وألقاهم فى التِّيهِ ؛ يَسيرُون ، ويَحِلُّون ، ويَرْتَحِلُون ، ويَذهبُون ، ويَجيئُون ، فى مُدّةٍ مِن السِّنينَ طويلةٍ ، هى مِن العَدَدِ أربعُون ؛ كما قال اللَّهُ تعالى[2] : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ

---

(١) فى ح : « الفرزانيين » .

(٢) التفسير ٣/ ٦٧- ٧٥.

﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٠- ٢٦]. يذكِّرُهم نبيُّ اللَّهِ نعمةَ اللَّهِ عليهم، وإحسانَه إليهم بالنِّعمِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، ويأمرُهم بالجهادِ في سبيلِ اللَّهِ، ومقاتلةِ أعدائِه فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ (1أي؛ تَنكِصوا على أعقابِكم، وتَنْكِلُوا على قتالِ أعدائِكم1). ﴿فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ﴾ أي؛ فتخسَروا بعد الرِّبحِ، وتنقُصوا بعدَ الكمالِ. ﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ أي؛ عُتاةً كَفرةً، متمرِّدين، ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾، خافوا مِن هؤلاءِ الجبّارين، وقد عايَنوا هلاكَ فِرْعَوْنَ، وهو أكثرُ تجبُّرًا مِن هؤلاءِ، وأشدُّ بأسًا، وأكثرُ جمْعًا، وأعظمُ جُنْدًا. [١٧٢/١ظ] وهذا يدلُّ على أنَّهم مَلُومون في هذه المَقالةِ، ومَذْمُومونَ على هذه الحالةِ، مِن الذِّلةِ عن مُصاوَلةِ الأعداءِ، ومُقاومةِ المَرَدَةِ الأشقياءِ.

وقد ذَكَرَ كثيرٌ مِن المفسِّرين ههنا آثارًا، فيها مُجازَفاتٌ كثيرةٌ باطلةٌ، يدلُّ العقلُ والنَّقْلُ على خلافِها؛ مِن أنَّهم كانوا أَشكالًا هائلةً ضِخامًا جدًّا، حتى إنَّهم ذَكَروا أنَّ رُسُلَ بني إسرائيلَ، لمَّا قَدِموا عليهم، تلقّاهم رجلٌ مِن رُسُلِ الجبّارين، فجَعَل يأخذُهم واحدًا واحدًا، ويلُفُّهم في أكمامِه وحُجْزةِ سَرَاويلِه، وهم اثنا عَشَرَ رجلًا، فجاء بهم، فنثَرَهم بين يَدَىْ مَلِكِ الجبّارين، فقال: ما هؤلاءِ؟ ولم يَعْرِفْ أنَّهم مِن بني آدمَ حتى عرَّفُوه. وكلُّ هذه هَذَياناتٌ

(١- ١) سقط من: ح، م، ص.

وخُرافاتٌ لا حقيقةَ لها ، وأَنّ المَلِكَ بعَث معهم عِنَبًا ، كلُّ عِنَبةٍ تَكْفِي الرَّجُلَ ، وشيئًا مِن ثمارِهم ؛ ليعلمُوا ضَخامةَ[1] أشكالِهم ، وهذا ليس بصحيحٍ[2] .

وذكروا هلهنا أَنَّ عُوجَ بنَ عُنُقَ ، خرج مِن عندِ الجبَّارين إلى بنى إسرائيلَ ؛ ليُهلِكَهم ، وكان طولُه ثلاثةَ آلافِ ذِراعٍ ، وثلثَمائةِ ذراعٍ ، وثلاثةً وثلاثين ذراعًا ، وثُلُثَ ذراعٍ ، هكذا ذكره البَغَوِيُّ وغيرُه[3] ، وليس بصحيحٍ ، كما قدَّمْنا بيانَه[4] عندَ قولِه ﷺ : « إنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ ، طُولُه سِتُّون ذِراعًا ، ثُمَّ لَمْ يَزَلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الآنَ »[5] . قالوا : فعَمَدَ عُوجُ إلى قِمَّةِ جبلٍ ، فاقْتَلَعَها ، ثم أخذَها بيدَيْه ؛ ليُلْقِيَهَا على جيشِ موسى ، فجاءَ طائرٌ ، فنَقَرَ تلك الصَّخرةَ ، فخرَقَها ، فصارتْ طَوْقًا فى عُنُقِ عُوجَ بنِ عُنُقَ ، ثُم عَمَدَ موسى إليه ، فوَثَب فى الهواءِ عَشَرَةَ أَذْرُعٍ ، وطولُه عَشَرَةُ أَذْرُعٍ ، وبيدِه عصاه ، وطولُها عَشَرَةُ أَذْرُعٍ ، فوصَل إلى كعبِ قَدمِه فقتلَه . يُرْوَى هذا عن نَوْفٍ[6] البِكَالِيِّ[7] ، ونقلَه ابنُ جَريرٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، وفى إسنادِه إليه نَظَرٌ[8] . ثُم هو مع هذا كلِّه من الإسرائيليّاتِ ، وكلُّ هذه مِن وَضْعِ جُهّالِ بنى إسرائيلَ ، فإنَّ الأخبارَ الكَذِبةَ قد كَثُرَتْ عندَهم ، ولا تَمْييزَ لهم بينَ صَحيحِها وباطِلِها . ثُم لو كان هذا

---

(١) فى الأصل : « أصحابه » .

(٢) انظر تفسير الطبرى ٦/ ١٧٤، تاريخه ١/ ٤٢٩، تفسير القرطبى ٦/ ١٢٥، التفسير ٣/ ٧٠.

(٣) لم نجده فى مظانه من تفسير البغوى ، وانظر قصص الأنبياء للثعلبى ص ٢١٣- ٢١٥، تفسير القرطبى ٦/ ١٢٥- ١٢٧.

(٤) تقدم فى ١/ ٢٦٦، ولم ينسبه لأحد بعينه من المفسرين.

(٥) تقدم تخريجه ١/ ٢٦٧.

(٦) فى ح، م، ا: « عوف » . وانظر التقريب ٢/ ٣٠٩.

(٧) رواه ابن جرير فى تاريخه ١/ ٤٣١، وأبو الشيخ فى العظمة (١٠٠٤) ، وإسناد أبى الشيخ موضوع .

(٨) فى تاريخه ١/ ٤٣١، وبنحوه عن ابن عباس ، وأبو الشيخ فى العظمة (١٠٠٢) ، وإسناد أبى الشيخ موضوع .

صحيحًا، لكان بنو إسرائيلَ مَعْذُورِين في النُّكُولِ عن قتالِهم، وقد ذمَّهم اللَّهُ تعالى على نُكُولِهم، وعاقَبَهم بالتِّيهِ على تركِ جهادِهم، ومُخالَفَتِهم رسولَهم، وقد أشارَ عليهم رَجُلان صالحان منهم[1] بالإِقدامِ، ونَهَيَاهم عن الإِحْجامِ. ويُقالُ: إنّهما يُوشَعُ بنُ نونٍ، وكالِبُ بنُ يُوفنّا. قاله ابنُ عباسٍ، ومُجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، وعطيَّةُ، والسُّدِّيُّ، والربيعُ بنُ أنسٍ، وغيرُ واحدٍ[2].

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ أي؛ يَخافون اللَّهَ، وقرأ بعضُهم: (يُخَافُون)؛ أي؛ يُهابُون، ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ أي؛ بالإِسْلامِ، والإِيمانِ، والطَّاعةِ، والشَّجاعةِ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ [١/١٧٣و] إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي؛ إذا توكَّلْتُم على اللَّهِ، واسْتَعَنْتُم به، ولجَأْتُم إليه، نصرَكم على عدوِّكم، وأيَّدكُم عليهم، وأَظْفَرَكم بهم.

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ فصمَّم مَلَؤُهم على النُّكُولِ عن الجهادِ، ووَقَعَ أمرٌ عظيمٌ، ووَهَنٌ كبيرٌ. فيُقالُ: إنّ يوشَعَ، وكالَبَ لمّا سَمِعا هذا الكلامَ شَقَّا ثيابَهما، وإنَّ موسى وهارونَ، عليهما السلامُ، سجَدا؛ إعظامًا لهذا الكلامِ، وغضبًا للَّهِ، عزَّ وجلَّ، وشفَقةً عليهم مِن وَبِيلِ هذه المقالةِ.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ

---

(١) سقط من: الأصل.

(٢) تفسير الطبرى ٦/ ١٧٦، ١٧٧، التفسير ٣/ ٧١.

ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ قال ابنُ عباسٍ: اقْضِ بينى وبَيْنَهم. ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾، عُوقِبُوا على نُكُولِهم بالتِّيهان فى الأرضِ، يَسيرون إلى غيرِ مقصِدٍ، ليلًا ونهارًا، وصباحًا ومساءً. ويُقالُ: إنَّه لم يَخرجْ أحدٌ مِن التِّيهِ مِمَّن دخلَه، بل ماتوا كلُّهم فى مدةِ أربعينَ سنةً، ولم يَبْقَ إلَّا ذرارِيُّهم سوى يُوشَعَ، وكالِبَ، عليهما السّلامُ.

لكنَّ أصحابَ محمدٍ، ﷺ، يومَ بدرٍ، لم يقولُوا له كما قال قومُ موسى لموسى، بل لمّا استشارَهم فى الذَّهابِ إلى النَّفيرِ، تكلَّمَ الصِّدِّيقُ فأحسنَ، وغيرُه مِن المهاجرين، ثم جَعل يقولُ: «أَشِيرُوا عَلَيَّ» حتى قال سعدُ بنُ مُعاذٍ: كأنَّك تُعَرِّضُ بنا يارسولَ اللَّهِ، فوالذى بعثَك بالحقِّ لو اسْتَعْرَضْتَ بنا هذا البَحْرَ فخُضْتَه لخُضْناه معك، ما تخلَّفَ مِنّا رجلٌ واحدٌ، وما نَكْرَهُ أنْ تَلقَى بنا عدوَّنا غدًا، إنّا لَصُبُرٌ فى الحربِ، صُدُقٌ فى اللِّقاءِ، لعلَّ اللَّهَ يُرِيك مِنَّا ما تَقَرُّ به عينُك. فَسِرْ بنا على بَرَكَةِ اللَّهِ. فَسُرَّ رسولُ اللَّهِ ﷺ بقَوْلِ سعدٍ، وبَسَطَه ذلك[1].

وقال الإمامُ أحمدُ[2]: حدَّثنا وَكيعٌ، حدَّثنا سفيانُ، عن مُخارِقِ بنِ عبدِ اللَّهِ الأَحْمَسِيِّ، عن طارقٍ هو ابنُ شِهابٍ، أَنَّ المِقْدادَ قال لرسولِ اللَّهِ ﷺ، يومَ بَدْرٍ: يا رسولَ اللَّهِ، إنَّا لا نقولُ لك كما قالت بنو إسرائيلَ لموسى:

---

(١) بهذا اللفظ أخرجه الطبرى فى التفسير ٩/ ١٨٥، ١٨٦. وانظر سيرة ابن هشام ١/ ٦١٥. والتفسير ٣/ ٧٥٧، كلهم من حديث ابن عباس. وأصل الحديث فى مسلم (١٧٧٩) من حديث أنس بن مالك.

(٢) فى المسند ٤/ ٣١٤.

﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ . ولكن اذهبْ أَنتَ وربُّكَ فقاتلَا إِنَّا معكم مقاتِلون . وهذا إسنادٌ جيدٌ مِن هذا الوجهِ ، وله طُرقٌ[1] أخرى .

قال أحمدُ[2] : حدّثنا أسودُ بنُ عامرٍ[3] ، حدّثنا إسرائيلُ ، عن مُخارِقٍ ، عن طارقِ بنِ شِهابٍ ، قال : قال عبدُ اللَّهِ بنُ مسعودٍ ، رَضِىَ اللَّهُ عنه : لقد شَهِدْتُ مِن المِقْدادِ مَشْهَدًا ، لَأَنْ أكونَ أنا صاحبَه ، أحبُّ إلىَّ مما عُدِل به ؛ أَتَى رسولَ اللَّهِ ﷺ ، وهو يدعُو على المشرِكين ، فقال : واللَّهِ [١/١٧٣ظ] يا رسولَ اللَّهِ ، لا نقولُ لك كما قالت بنو إسرائيلَ لموسى : ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ . ولكنَّا نقاتِلُ عن يمينِك ، وعن يسارِك ، ومِن بينِ يدَيْك ، ومِن خلفِك . فرأيتُ وَجْهَ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، يُشْرِقُ لذلك ، وسُرَّ بذلك . رواه البخاريُّ فى التفسيرِ والمَغازِى ، مِن طرقٍ ، عن مُخارِقٍ به[4] .

وقال الحافظُ أبو بكرِ بنُ مَرْدَوَيْهِ[5] : حدّثنا علىُّ بنُ الحسنِ بنِ علىٍّ ، حدَّثنا أبو حاتمٍ الرّازِىُّ ، حدَّثنا محمدُ بنُ عبدِ اللَّهِ الأنصارىُّ ، حدثنا حُمَيْدٌ ، عن أنسٍ ، أَنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ ، لَمَّا سار إلى بدرٍ ، استشارَ المسْلِمين ، فأشارَ عليه عمرُ ، ثُم استشارَهم ، فقالتِ الأنصارُ : يا معشرَ الأنصارِ ، إيَّاكم يريدُ رسولُ اللَّهِ ﷺ . قالوا : إذًا لا نقولَ له كما قال بنو إسرائيلَ لموسى : ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ والذى بعثَك بالحقِّ ، لو ضربتَ أكبادَها إلى بَرْكِ الغِمَادِ لاتَّبعْناك . رواه الإمامُ أحمدُ ، عن عَبيدةَ بنِ حُمَيْدٍ ، عن حُمَيْدٍ

---

(١) فى الأصل ، ص : « طريق » .
(٢) فى المسند ١/ ٣٨٩. إسناده صحيح .
(٣) فى الأصل : « عباس » .
(٤) البخارى (٣٩٥٢، ٤٦٠٩) .
(٥) ذكره المصنف فى التفسير ٣/ ٧٢ وعزاه لابن مردويه بسنده .

الطَّويلِ، عن أنسٍ به. ورواه النَّسائىُّ عن محمدِ بنِ المثنى، عن خَالدِ بنِ الحارِثِ، عن (١ حُمَيْدٍ عن ١) أنسٍ به نحوَه. وأَخْرَجَه ابنُ حِبّانَ فى «صحيحِه»، عن أبى يَعْلَى، عن عبدِ الأَعْلَى بنِ حمادٍ، عن معتمرٍ[٢] عن (١ حُمَيْدٍ، عن ١) أنسٍ به نحوَه[٣].

(١ - ١) فى الأصل: «حند بن».

(٢) فى الأصل: «معمر».

(٣) أحمد فى المسند ٣/ ١٨٨، والنسائى فى الكبرى (١١١٤١). والإحسان (٤٧٢١). وقال الشيخ شعيب: صحيح على شرط الشيخين.

فصلٌ فى دخولِ بنى إسرائيلَ التّيهَ
ومَا جرَى لهم فيه مِن الأمورِ العجيبةِ

قد ذَكَرْنا نُكُولَ بنى إسرائيلَ عن قتالِ الجبّارين، وأَنَّ اللَّهَ تعالى عاقبَهم بالتِّيهِ، وحكَم بأَنَّهم لا يَخْرُجُون مِنه إلى أربعينَ سنةً، ولم أرَ فى كتابِ أهلِ الكتابِ قصةَ نُكُولِهم عن قتالِ الجبّارين، ولكن فيها[1] أَنَّ يُوشَعَ جَهَّزَه موسى لقتالِ طائفةٍ مِن الكُفّارِ، وأَنَّ موسى وهارونَ، وخورَ، جلسُوا على رأسِ أَكَمَةٍ، ورَفَعَ موسى عصاه، فكُلَّما رفعَها انتصرَ يُوشَعُ عليهم وكلَّما مالتْ يدُه بها، مِن تَعَبٍ أو نحوِه، غلَبه أولئك، وجعل هارونُ وخورُ يُدعِّمان يدَيْه مِن عن يمينِه وشِمالِه ذلك اليومَ إلى غروبِ الشّمسِ، فانتصرَ حزبُ يُوشَعَ، عليه السّلامُ[2]. وعندَهم؛ أنّ يثْرونَ كاهنَ مَدْيَنَ، وخَتَنَ موسى، عليه السلامُ، بلغَه ما كان مِن أمرِ موسى، وكيف أَظْفَرَه اللَّهُ بعدوِّه فِرْعَوْنَ، فقدِم على موسى مُسْلِمًا، ومعه ابنتُه صِفُّوَرا زوجةُ موسى، وابناها منه؛ جرْشونُ، وعَازرُ، فتلقّاه موسى وأكرَمَه، واجتمعَ به شيوخُ بنى إسرائيلَ، وعَظَّموه وأَجَلُّوه[3]. وذكرُوا أَنّه رأى كثرةَ اجتماعِ بنى إسرائيلَ على موسى، فى الخُصُوماتِ التى تقعُ [١/ ١٧٤و] بينَهم، فأشار على موسى أنْ يجعلَ على النّاسِ رجالًا أُمناءَ، أتقياءَ،

---

(١) كذا فى النسخ. ولعلها: «فيه».
(٢) سفر الخروج الأصحاح ١٧/ ٨- ١٣.
(٣) سفر الخروج الأصحاح ١٨/ ١- ١٢.

أَعِفَّاءَ، يُبْغِضون الرِّشا والخيانةَ، فيجعَلَهم على النّاسِ رءوسَ أُلوفٍ، ورُءوسَ مِئِينَ، ورُءوسَ خَمسينَ، ورءوسَ عشَرَةٍ، فيَقْضُوا بينَ النّاسِ، فإذا أَشْكَلَ عليهم أمرٌ جاءُوك، ففَصَلْتَ بينَهم ما أَشْكَلَ عَليهم، ففعلَ ذلك موسى، عليه السّلامُ[1]. قالوا: ودخَل بنو إسرائيلَ البَرِّيَّةَ، عندَ سَيْناءَ فى الشّهرِ الثّالثِ مِن خروجِهم مِن مصرَ، وكان خروجُهم فى أولِ السّنةِ التى شُرِعَتْ لهم، وهى أولُ فَصلِ الرَّبيعِ. فكأنّهم دخلُوا التِّيهَ فى أولِ فصلِ الصَّيْفِ. واللَّهُ أعلمُ.
قالوا: ونزلَ بنو إسرائيلَ حولَ طُورِ سَيْناءَ، وصَعِدَ موسى الجبلَ، فكلَّمه ربُّه، وأَمَرَه أنْ يُذكِّرَ بَنى إسرائيلَ ما أنعمَ اللَّهُ به عليهم مِن إنجائِه إيّاهم مِن فرعونَ وقومِه، وكيف حملَهم على مِثْلِ جَناحَىْ نَسْرٍ مِن يدِه وقبضتِه، وأَمَرَه أن يَأْمُرَ بنى إسرائيلَ بأن يتطهَّرُوا ويَغْتَسِلُوا، ويَغْسِلُوا ثيابَهم، ولْيستعدُّوا إلى اليومِ الثّالثِ، فإذا كان فى اليومِ الثالثِ، فليَجتمِعُوا حولَ الجبلِ، ولا يَقْتَرِبَنَّ أحدٌ منهم إليه، فمَن دنا مِنه قُتِلَ، حتى ولا شَىْءٌ مِن البهائمِ، ما دَامُوا يسْمعُون صوتَ القَرْنِ، فإذا سَكَن القَرْنُ، فقد حلَّ لكم أنْ ترتقُوه، فسَمِعَ بنو إسرائيلَ ذلك، وأطاعُوا، واغْتَسَلُوا، وتَنَظَّفُوا، وتَطَيَّبُوا، فلمّا كان اليومُ الثّالثُ، رَكِبَ الجبلَ غَمامةٌ عظيمةٌ، وفيها أصواتٌ وبُرُوقٌ، وصوتُ الصُّورِ شديدٌ جدًّا، ففَزِعَ بنو إسرائيلَ مِن ذلك فَزَعًا شديدًا، وخرجُوا، فقاموا فى سَفْحِ الجبلِ، وغَشِىَ الجبلَ دُخانٌ عظيمٌ فى وسَطِه عمودُ نُورٍ، وتَزَلْزَلَ الجبلُ كلُّه زَلزلةً شَديدةً، واستَمَرَّ صَوْتُ الصُّورِ، وهو البُوقُ، واشتدَّ، وموسى، عليه السّلامُ، فوقَ الجبلِ، واللَّهُ يكلِّمُه ويناجِيه، وأَمَر الرَّبُّ، عزَّ وجلَّ، موسى أنْ يَنزِلَ، فيأمرَ بنى

---

(١) سفر الخروج الأصحاح ١٨/ ١٣- ٢٧.

إسرائيلَ أَنْ يقترِبُوا مِن الجبلِ؛ ليسمعُوا وَصيَّةَ اللَّهِ، ويأمرَ الأحبارَ، وهم علماؤُهم، أَنْ يَدْنُوا، فيصْعَدوا الجبلَ؛ ليتقدَّمُوا بالقُرْبِ - وهذا نصٌّ فى كتابِهم على وقوعِ النسخِ لا محالةَ[1] - فقال موسى: يا ربِّ، إِنَّهم لا يستطيعُون أَن يَصْعَدُوه، وقد نَهَيْتَهم عن ذلك، فأَمَرَه اللَّهُ تعالى أَنْ يذْهبَ، فيَأْتِيَ معه بأخيه هارونَ، ولْيَكُنِ الكَهَنةُ، وهم العلماءُ، والشَّعْبُ، وهم بقيّةُ بنى إسرائيلَ، غيرَ بعيدٍ. ففعل موسى، وكلّمه ربُّه، عزّ وجلَّ، فأَمَرَه حينَئِذٍ بالعَشْرِ كَلِماتٍ[2].

وعندَهم؛ أَنَّ بنى إسرائيل سَمِعُوا كلامَ اللَّهِ، ولكن لم يفهمُوا حتى فهَّمهم موسى، وجعلُوا يقولُون لموسى: بلِّغْنا أنتَ عن [١/١٧٤ظ] الرَّبِّ، فإنّا نخافُ أنْ نموتَ. فبلَّغَهم عنه، فقال هذه العشْرَ الكلماتِ؛ وهى الأمرُ بعبادةِ اللَّهِ وحدَه لا شريكَ له، والنَّهْىُ عن الحَلِفِ باللَّهِ كاذبًا، والأمرُ بالمحافظةِ على السَّبْتِ، ومعناه تفرُّغُ يومٍ مِن الأُسْبوعِ للعبادةِ. وهذا حاصِلٌ بيومِ الجُمُعةِ، الذى نَسَخَ اللَّهُ به السَّبْتَ، أكرِمْ أباك وأمَّك، ليطولَ عمُرُك فى الأرضِ، الذى يُعْطِيك اللَّهُ ربُّك، لا تَقتُلْ، لا تزْنِ، لا تَسْرِقْ، لا تَشْهَدْ على صاحبِك شَهادةَ زُورٍ، لا تَمُدَّ عينَك إلى بيتِ صاحبِك، ولا تشتَهِ امرأةَ صاحبِك، ولا عبدَه، ولا أَمَتَه، ولا ثَوْرَه، ولا حِمارَه، ولا شيئًا مِن الذى لصاحبِك، ومعناه النَّهْىُ عن الحسدِ[3].

وقد قال كثيرٌ مِن علماءِ السّلفِ وغيرِهم: مضمونُ هذه العشْرِ الكلماتِ

---

(١) انظر ما تقدم فى ١/٤٤٩ حاشية (٢).
(٢) سفر الخروج الأصحاح التاسع عشر.
(٣) سفر الخروج الأصحاح ٢٠/١- ١٧.

فى آيتَيْنِ مِن القرآنِ، وهما قولُه تعالى فى سورةِ «الأنعامِ»: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١- ١٥٣]. وذكَروا بعدَ العشْرِ الكلماتِ وصايَا كثيرةً، وأحكامًا متفرِّقةً عزيزةً، كانت فزالتْ وعُمِلَ بها حينًا مِن الدَّهرِ، ثُم طرَأَ عليها عِصْيانٌ مِن المكلَّفين بها ثم عَمَدُوا إليها فبدَّلُوها، وحرَّفُوها، وأوَّلُوها. ثُم بعدَ ذلك كلِّه سُلِبُوها، فصارتْ مَنسوخةً مبدَّلةً، بعدَ ما كانت مَشْروعةً مُكَمَّلَةً، فللَّهِ الأمرُ مِن قبلُ ومِن بَعْدُ، وهو الذى يَحْكُمُ ما يشاءُ، ويَفْعلُ ما يريدُ، ألا له الخَلْقُ والأمرُ، تباركَ اللَّهُ ربُّ العالَمين.

وقد قال اللَّهُ تعالى[1]: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٠- ٨٢]. يذكرُ تعالى مِنَّته

---

(١) التفسير ٥/ ٣٠١، ٣٠٢.

وإحسانَه إلى بنى إسرائيلَ، بما أنجاهم مِن أعدائِهم، وخلَّصَهم مِن الضِّيقِ والحَرَجِ، وأنّه وَعَدَهم صُحْبةَ نبيِّهم كَليمِه إلى جانبِ الطُّورِ الأيمنِ، أىْ منهم، ليُنزِّلَ عليه[1] أحكامًا عظيمةً، فيها مصلحةٌ لهم فى دُنْياهم [١٧٥/١و] وأُخْراهم، وأنّه تعالى أنْزلَ عليهم فى حالِ شِدَّتِهم وضَرُورتِهم، فى سَفَرِهم فى الأرضِ التى ليس فيها زَرْعٌ ولا ضَرْعٌ، مَنًّا مِن السَّماءِ، يُصْبِحُون فيجِدُونه خِلَالَ بُيُوتِهم، فيأخذُون منه قَدْرَ حاجتِهم فى ذلك اليومِ إلى مثلِه مِن الغدِ، ومَن ادَّخَر منه لأكثرَ مِن ذلك فَسَدَ، ومَن أخذَ منه قليلًا كفاه، أو كثيرًا لم يَفْضُلْ عنه، فيَصْنَعُون منه مثلَ الخُبْزِ، وهو فى غايةِ البَياضِ والحلاوةِ، فإذا كان مِن آخرِ النَّهارِ غَشِيَهم طَيْرُ السَّلْوَى، فيَقْتَنِصُون منه بلا كُلْفَةٍ ما يحتاجُون إليه، حَسَبَ كفايتِهم لِعَشائِهم، وإذا كان فصلُ الصَّيْفِ، ظَلَّلَ اللَّهُ عليهم الغَمامَ، وهو السَّحابُ الذى يَسْتُرُ عنهم حرَّ الشَّمسِ، وضَوْءَها الباهرَ. كما قال اللَّهُ تعالى فى سورةِ «البقرةِ»[2]: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝٤٠ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤٠، ٤١]. إلى أن قال: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٤٩ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٠ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ

---

(١) فى الأصل: «عليهم».

(٢) التفسير ١/١١٧- ١٤٧.

ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٤٩- ٥٧]. إلى أن قال: ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا [١٧٥/١ظ] وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ٦٠، ٦١]. يَذْكُرُ تعالى إنعامَه عليهم، وإحسانَه إليهم بما يَسَّرَ لهم مِن المَنِّ والسَّلْوَى، طعامَيْنِ شَهِيَّيْنِ، بِلا كُلْفَةٍ، ولا سعيٍ لهم فيه، بل يُنَزِّلُ اللَّهُ المَنَّ باكِرًا، ويُرْسِلُ عليهم طيرَ السَّلْوَى عَشِيًّا، وأَنْبَعَ الماءَ لهم بضَرْبِ موسى، عليه السَّلامُ، حجرًا كانوا يَحْمِلُونه معهم، بالعصا فتفجَّرَ منه اثْنَتا عَشْرَةَ عينًا، لكلِّ سِبْطٍ عينٌ منه تَنْبَجِسُ، ثُم تَتَفَجَّرُ ماءً زُلالًا، فيسْتَقُون ويَشْرَبُون ويَسْقُون دوابَّهم، ويدَّخِرُون كفايَتَهم. وظلَّلَ عليهم الغَمامَ مِن الحرِّ. وهذه نِعَمٌ مِن اللَّهِ

عظيمةٌ وعَطِيَّاتٌ جَسيمةٌ ، فما رَعَوْها حقَّ رِعايتِها ، ولا قامُوا بشُكْرِها وحقِّ عبادتِها ، ثم ضَجِر كثيرٌ مِنها ، وتبرَّمُوا بها ، وسأَلُوا أنْ يستبدِلُوا منها بِبَدَلِها ، مِمَّا تُنبِتُ الأرضُ مِن بَقْلِها ، وقِثَّائِها ، وفُومِها ، وعَدَسِها ، وبَصَلِها . فقرَّعَهم الكَليمُ ، ووبَّخَهم ، وأنَّبَهم على هذه المَقالَةِ ، وعنَّفَهم قائلًا[1] : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ أى ؛ هذا الذى تَطْلُبونه ، وتريدُونه بدلَ هذه النِّعمِ التى أنتم فيها ، حاصِلٌ لأهلِ الأمصارِ الصِّغارِ والكبارِ ، موجودٌ بها ، وإذا هَبَطْتُم إليها ، أى ؛ ونَزَلْتُم عن هذه المَرْتَبَةِ التى لا تَصْلُحون لمَنْصِبِها ، تجدُوا بها ما تَشْتَهُون ، وما تَرومُون مِمَّا ذكَرْتُم مِن المآكلِ الدَّنِيَّةِ والأغذيةِ الرَّدِيَّةِ ، ولكنِّى لستُ أُجيبُكم إلى سؤالِكم ذلك هلهنا ، ولا أُبلِّغُكم ما تعنَّتُّم[2] به مِن المُنَى ، وكلُّ هذه الصِّفاتِ المذكورةِ عنهم الصَّادرةِ مِنهم ، تدُلُّ على أنَّهم لم يَنْتَهُوا عمَّا نُهُوا عنه ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ [طه : ٨١] . أى ؛ فقد هَلَكَ ، وحُقَّ له واللَّهِ الهلاكُ والدَّمارُ ، وقد حلَّ عليه غضبُ المَلِكِ الجبّارِ ، ولكنَّه تعالى ، مَزَج هذا الوعيدَ الشَّديدَ بالرَّجاءِ لِمَنْ أنابَ وتابَ ، ولم يستمرَّ على مُتابعةِ الشَّيطانِ المَرِيدِ ، فقال : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه : ٨٢] .

---

(١) التفسير ١/ ١٤٤.

(٢) فى الأصل : « بعثت » .

(1) سؤالُ الرُّؤيةِ (1)

قال اللَّهُ تعالى[2] : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ [١/١٧٦و] انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٤٢- ١٤٧] . قال جماعةٌ مِن السَّلفِ ؛ مِنهم ابنُ عباسٍ ، ومَسْرُوقٌ ، ومُجاهِدٌ[3] : الثَّلاثون ليلةً هي ؛ شهرُ ذي القَعْدَةِ

(١- ١) سقط من: ص.

(٢) التفسير ٣/ ٤٦٥- ٤٧٣.

(٣) تفسير الطبرى ٩/ ٤٧، ٤٨، التفسير ٣/ ٤٦٥، الدر المنثور ٣/ ١١٤، ١١٥.

بكمالِه ، وأتمّتْ أربعينَ ليلةً بعَشْرِ ذى الحِجّةِ . فعلى هذا يكونُ كلامُ اللّهِ له يومَ عيدِ النَّحْرِ ، وفى مِثْلِه أكملَ اللّهُ ، عزَّ وجلَّ ، لمحمدٍ ﷺ دِينَه ، وأقام حُجَّتَه ، وبراهينَه .

والمقصودُ أنّ موسى ، عليه السّلامُ ، لمّا استكملَ الميقاتَ ، وكان فيه صائمًا ، يُقالُ : إنّه لم يَسْتَطْعِمِ الطَّعامَ . فلمّا كَمَلَ الشَّهْرُ ، أخَذ لِحا شجرةٍ فمَضَغَه ، ليُطَيِّبَ رِيحَ فمِه ، فأمرَ اللّهُ أنْ يُمسِكَ عَشْرًا أخرى ، فصارتْ أربعين ليلةً . ولهذا ثبَت فى الحديثِ أنَّ : « خُلُوفَ فَمِ الصّائمِ أطيبُ عندَ اللّهِ مِن رِيحِ المِسْكِ »[1] . فلمّا عَزَم على الذَّهابِ ، استَخْلَفَ على شَعْبِ بنى إسرائيل أخاه هارونَ المُحَبَّبَ ، المُبَجَّلَ ، الجليلَ ، وهو ابنُ أمِّه وأبيه ، ووَزِيرُه فى الدَّعْوةِ إلى مصطَفِيه ، فوصّاه وأَمَرَه ونهاه ، وليس فى هذا لِعُلُوِّ منزلتِه فى نُبُوَّتِه مُنافاةٌ ، قال اللّهُ تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا ﴾ أى ؛ فى الوقتِ الذى أُمِرَ بالمَجىءِ فيه ، ﴿ وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ أى ؛ كلَّمه اللّهُ مِن وراءِ حِجابٍ ، إلا أنّه أسْمَعَه الخطابَ ، فنَادَاه وناجَاه ، وقرَّبه وأَدْناه ، وهذا مَقامٌ رفيعٌ ، ومَعْقِلٌ منيعٌ ، ومَنْصِبٌ شريفٌ ، ومنزِلٌ مُنِيفٌ ، فصلواتُ اللّهِ عليه تَتْرَى ، وسلامُه عليه فى الدُّنيا والأخرى . ولمّا أُعْطِىَ هذه المَنْزِلةَ العَلِيَّةَ والمَرْتبةَ السَّنِيَّةَ ، وسَمِعَ الخطابَ ، سأَل رَفْعَ الحِجابِ ، فقال للعَظيمِ ، الذى لا تُدْرِكُه الأبصارُ ، القوىِّ البُرْهانِ : ﴿ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى ﴾ . ثُم بيَّنَ تعالى أنّه لا يَسْتَطيعُ أنْ يَثْبُتَ عندَ تَجلِّيه تبارَكَ وتعالَى ؛ لأنَّ الجبَلَ الذى هو أقْوى وأكْبرُ ذاتًا ، وأشدُّ ثَباتًا مِن الإنسانِ ، لا يَثْبُتُ عندَ [١٧٦/١ظ] التَّجلِّى مِن الرَّحمنِ ، ولهذا قال :

---

(١) البخارى (١٨٩٤، ١٩٠٤، ٥٩٢٧، ٧٤٩٢، ٧٥٣٨)، ومسلم (١١٥١) .

﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ ﴾ .

وفي الكُتبِ المُتقدِّمَةِ أنَّ اللَّهَ تعالى قال له : يا موسى ، إنه لا يراني حَيٌّ إلا ماتَ ، ولا يابِسٌ إلا تَدَهْدَهَ[1] . وفي « الصَّحِيحَيْنِ »[2] ، عن أبي موسى ، عن رسولِ اللَّهِ ﷺ ، أنَّه قال : « حِجَابُهُ النُّورُ » . وفي رِوايةٍ : « النَّارُ ، لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ » . وقال ابنُ عباسٍ ، في قولِه تعالَى : ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ : ذاكَ نُورُهُ ، الذى هو نورُه ، إذا تجلَّى لشَىْءٍ ، لا يقومُ له شَىْءٌ ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ . قال مُجاهدٌ : ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ ﴾ فإنه أكبرُ منكَ ، وأشدُّ خَلْقًا ، فلمّا تجلَّى ربُّه للجَبَلِ ، فنَظَرَ إلى الجبلِ لا يتمالَكُ ، وأقبلَ الجبلُ فدُكَّ على أوَّلِه ، ورأى موسى ما يَصْنَعُ الجبلُ ، فخرَّ صَعِقًا .

وقد ذكرْنا في « التَّفسيرِ » ما رَواه الإمامُ أحمدُ ، والتِّرمذيُّ ، وصحَّحه[3] ، وابنُ جَريرٍ ، والحاكمُ ، مِن طريقِ حمّادِ بنِ سَلَمَةَ ، عن ثابتٍ ، زادَ ابنُ جريرٍ ، وليثٍ ، عن أنسٍ ، أنّ رسولَ اللَّهِ ﷺ ، قرأ : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا ﴾ قال : هكذا بأُصْبُعِهِ ، ووَضَعَ النَّبيُّ ﷺ ، الإِبْهامَ على المَفْصِلِ الأَعْلَى

---

(١) وهو لفظ حديث مرفوع أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٢٣٥. من حديث ابن عباس.
(٢) أخرجه مسلم (١٧٩). وابن ماجه (١٩٦). ولم نجده في البخارى، وانظر تحفة الأشراف ٦/ ٤٧٢.
(٣) زيادة من : ح.

مِن الخِنْصَرِ، فساخ الجبلُ. لفظُ ابنِ جريرٍ[1]. وقال السُّدِّىُّ، عن عِكْرِمةَ، عن[2] ابن عباسٍ: ما تجلَّى - يَعْنى مِن العَظَمَةِ - إلا قَدْرُ الخِنْصَرِ، فجعل الجبلَ دَكًّا، قال: ترابًا ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ﴾ أى؛ مَغْشِيًّا عليه[3]. وقال قَتادةُ: مَيِّتًا. والصَّحِيحُ الأوَّلُ؛ لقولِه: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾. فإنّ الإفاقَةَ إنّما تكونُ عن غَشْيٍ. قال: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ تَنْزِيهٌ، وتعظيمٌ، وإجلالٌ أن يراه بعَظَمتِه أحدٌ. ﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾، أى: فلَسْتُ أسألُ بعدَ هذا الرُّؤْيَةَ: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أنّه لا يراك حَىٌّ إلا مات، ولا يابِسٌ إلا تَدَهْدَهَ. وقد ثَبَتَ فى «الصَّحيحَيْن»[4]، مِن طريقِ عمرِو بنِ يَحْيَى بنِ عمارةَ بنِ أبى حَسَنٍ المازِنِىِّ الأنصارىِّ، عن أبيه، عن أبى سعيدٍ الخُدْرِىِّ، قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُخَيِّرُونى مِن بَيْنِ الأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَن يُفِيقُ، فإذا أنا بمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ العَرْشِ، فَلَا أَدْرِى أَفاقَ قَبْلِى، أَمْ جُوزِىَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ». لفظُ البخارىِّ، وفى أوَّلِه قصةُ اليهودىِّ الذى لَطَم وَجْهَه الأنصارِىُّ، حينَ قال: لا والذى اصطفَى موسى على البشرِ. فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ [١/١٧٧و]: «لَا تُخَيِّرُونى مِنْ بَيْنِ الأَنْبِيَاءِ». وفى

---

(١) رواه أحمد فى المسند ٣/ ٢٠٩. الترمذى (٣٠٧٤) وقال: حسن غريب صحيح لا نعرفه إلا من حديث حماد بن سلمة. وابن جرير فى تفسيره ٩/ ٥٣. والحاكم فى المستدرك ٢/ ٥٧٧. أما رواية ليث عن أنس، عند ابن جرير، فقال الشيخ أحمد شاكر فى تعليقه على تفسير الطبرى ١٣/ ٩٩: وليس ذلك كما نقل - أى ابن كثير - فإن الثابت فى المخطوطة والمطبوعة «حماد، عن ثابت، عن أنس»، ليس فيها «ليث»، فلا أدرى كيف وقع هذا للحافظ ابن كثير ولا من أين؟.

(٢) فى ح: «وعن». وهو خطأ.

(٣) تفسير ابن جرير ٩/ ٥٢، ٥٣. تاريخ الطبرى ١/ ٤٢٣.

(٤) البخارى (٤٦٣٨، ٦٩١٧)، مسلم (٢٣٧٤).

« الصَّحيحَيْنِ »[1] ، مِن طريقِ الزُّهْرِيِّ ، عن أبي سَلَمَةَ ، وعبدِ الرحمنِ الأَعْرَجِ ، عن أبي هُرَيرةَ ، عن النَّبيِّ ﷺ ، بنَحْوِه ، وفيه : « لَا تُخَيِّرُونِي على موسى » . وذكَر تمامَه . وهذا مِن بابِ الهَضْمِ والتَّواضُعِ ، أو نَهْيٌ عن التَّفْضِيلِ بينَ الأنبياءِ على وَجْهِ الغَضَبِ والعَصَبِيَّةِ ، أو ليس هذا إليكم ، بلِ اللَّهُ هو الذى رَفَعَ بعضَهم فوقَ بعضٍ درجاتٍ ، وليس يُنالُ هذا بمجردِ الرأيِ ، بل بالتَّوْقيفِ . ومَن قال : إنَّ هذا قالَه قبلَ أَنْ يَعْلَمَ أنَّه أفضلُ ، ثُم نُسِخَ باطِّلاعِه على أفضليَّتِه عليهم كلِّهم . ففي قَوْلِه نَظَرٌ ؛ لأَنَّ هذا مِن روايةِ أبي سَعيدٍ ، وأبي هُرَيرةَ ، وما هاجَرَ[2] [3]أبو هُرَيْرةَ[3] إلَّا عامَ خَيْبَرَ[4] متأخِّرًا ، فيَبْعُدُ أنَّه لم يَعْلَمْ بهذا إلا بعدَ هذا . واللَّهُ أعلمُ . ولا شكَّ أنَّه ، صَلَواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه ، أفضلُ البَشَرِ ، بل الخَلِيقةِ . قال اللَّهُ تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] . وما كَمُلُوا إلا بشَرَفِ نبيِّهم ، وثَبَتَ بالتَّواتُرِ عنه ، صلَواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه ، أنَّه قال : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ »[5] . ثُم ذكَر اختصاصَه بالمَقامِ المحمودِ ، الذى يَغْبِطُه به الأَوَّلُون والآخِرُون ، الذى تَحِيدُ عنه الأَنْبياءُ والمُرْسَلون ، حتى أُولو العَزْمِ الأَكْمَلُون ؛ نوحٌ ، وإبراهيمُ ، ومُوسى ، وعيسى ابنُ مَرْيَمَ . وقولُه ﷺ : « فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ ، فَأَجِدُ موسَى باطِشًا بِقَائِمَةِ الْعَرْشِ - أَىْ ؛ آخِذًا بها - فَلَا أَدْرِى أَفَاقَ قَبْلِي ، أَمْ جُوزِىَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ »[6] .

---

(١) البخارى (٢٤١١) . ومسلم (٢٣٧٣) .
(٢) فى الأصل : « هاجرا » .
(٣ - ٣) سقط من : الأصل .
(٤) فى ح ، م ، ص : « حنين » .
(٥) مسلم (٢٢٧٨) . أبو داود (٤٦٧٣) . الترمذى (٣١٤٨، ٣٦١٥) .
(٦) تقدم تخريجه فى الصفحة السابقة .

دليلٌ على أنّ هذا الصَّعْقَ، الذى يَحْصُلُ للخلائِقِ فى عَرَصاتِ القِيامةِ، حينَ يَتَجلَّى الرّبُّ لفَصْلِ القضاءِ بينَ عبادِه، فيُصْعَقُون مِن شدَّةِ الهَيْبَةِ والعظمةِ والجَلالِ، فيكونُ أولَهم إفاقةً محمدٌ، خاتَمُ الأنبياءِ، ومُصْطَفَى ربِّ الأرضِ والسّماءِ على سائرِ الأنبياءِ، فيجدُ موسى باطِشًا بقائمةِ العَرْشِ. قال الصّادِقُ المَصْدُوقُ: «فلا أَدْرِى أَصُعِقَ، فَأَفَاقَ قَبْلِى»[(١)]. أىْ، وكانت صَعْقَتُه خفيفةً؛ لأَنَّه قد نالَه بهذا السَّببِ فى الدُّنْيا صَعْقٌ، أو جُوزِىَ بصَعْقَةِ الطُّورِ، يَعْنى فلم يُصْعَقْ بالكُلِّيَّةِ، وهذا فيه شَرَفٌ كَبيرٌ وعُلُوُّ مَرْتَبةٍ لموسى، عليه السلامُ، مِن هذه الحَيْثِيَّةِ، ولا يَلْزَمُ تفضيلُه بها مطلقًا مِن كلِّ وجهٍ؛ ولهذا نَبَّه رسولُ اللَّهِ ﷺ على شَرفِه وفَضيلتِه بهذه الصِّفةِ؛ لأنّ المسْلِمَ لمّا ضَرَبَ وَجْهَ اليهودىِّ، حينَ قال: لا والذى اصطفى موسى على البشرِ. قد يَحْصُلُ فى نفوسِ بعْضِ[(٢)] المشاهِدين لذلك هَضْمٌ بجَنابِ موسى، عليه السّلامُ، فبيَّنَ النّبىُّ ﷺ فضيلتَه وشَرفَه [١/١٧٧ظ]. وقولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ أىْ فِى ذلك الزّمانِ، لا ما قبلَه؛ لأنّ إبراهيمَ الخليلَ أفضلُ منه، كما تقدَّمَ بيانُ ذلك فى قصةِ إبراهيمَ[(٣)]، ولا ما بعدَه؛ لأنّ محمدًا ﷺ أفضلُ مِنهما؛ كما ظهرَ شرفُه ليلةَ الإسراءِ على جميعِ المُرْسَلين والأنبياءِ، وكما ثَبت أنّه قال: «سَأَقُومُ مَقامًا يرغَبُ إِلَىَّ الخَلْقُ حَتَّى إِبْرَاهِيمُ»[(٤)]. وقولُه تعالى: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أى؛ فخُذْ ما أعطيتُك مِن الرِّسالةِ

---

(١) أبو داود (٤٦٧١). (صحيح أبى داود ٣٩٠٥).
(٢) زيادة من: الأصل، ا.
(٣) انظر ما تقدم فى ١/ ٣٨٤- ٣٩٨.
(٤) تقدم تخريجه فى ١/ ٣٨٥.

والكلامِ، ولا تسألْ زيادةً عليه، وكُنْ مِن الشَّاكِرين على ذلك.

قال اللَّهُ تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ وكانتِ الألواحُ مِن جوهَرٍ نَفيسٍ، ففى «الصَّحيحِ» أنَّ اللَّهَ كتَب له التَّورَاةَ بيدِه، وفيها مواعِظُ عن الآثامِ، وتفْصيلٌ لكلِّ ما يَحْتاجُونَ إليه مِن الحلالِ والحرامِ [1]والحُدودِ والأحْكام[1][2]، ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ أىْ؛ بعَزْمٍ ونيَّةٍ صَادقةٍ قويَّةٍ، ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ﴾ أى، يضعُوها على أحسنِ وُجوهِها، وأجْملِ محامِلِها، ﴿ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ أى؛ ستَرَوْا عاقبةَ الخارِجين عن طاعتى، المخالِفين لأمرِى، المكذِّبين لرُسُلى.
﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ﴾ أى؛ عن فَهْمِها، وتَدَبُّرِها، وتعَقُّلِ معناها الذى أُرِيدَ منها، ودلَّ عليه مقتضاها، ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ﴾ أىْ؛ ولو شاهَدُوا مهما شاهدُوا مِن الخَوارِقِ، والمُعْجِزاتِ، لا يَنْقادُوا لاتِّباعِها، ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ أىْ؛ لا يَسْلُكوه، ولا يتَّبِعُوه، ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أىْ؛ صَرَفْناهم عن ذلك؛ لتَكْذِيبِهم بآياتِنا، وتغافُلِهم عَنها، وإعْراضِهم عن التَّصْديقِ بها، والتَّفكُّرِ فى مَعْناها، وتَرْكِ العملِ بمُقْتَضاها، ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

(١- ١) زيادة من: الأصل.
(٢) رواه البخارى (٦٦١٤). مسلم (٢٦٥٢).

قصَّةُ عِبادتِهم العِجْلَ في

غَيْبَةِ كَلِيمِ اللهِ موسى، عليه السلامُ

قال اللَّهُ تعالى[1] : ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى [١٧٨/١و] وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف: ١٤٨- ١٥٤].

وقال اللَّهُ تعالى[2] : ﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ

---

(١) التفسير ٣/ ٤٧٣- ٤٧٧.
(٢) التفسير ٥/ ٣٠٢- ٣٠٨.

عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [طه: ٨٣- ٩٨].

يَذْكُرُ تعالى ما كان مِن أمرِ بنى إسرائيلَ، حينَ ذهبَ مُوسى، عليه السّلامُ، إلى ميقاتِ ربِّه، فمَكَثَ على الطُّورِ يُناجِيه ربُّه، ويسأَلُه موسى، عليه السّلامُ، عن أشياءَ كثيرةٍ، وهو تعالى يُجيبُه عنها، فعَمَدَ رجلٌ مِنهم يُقالُ له[1]: السّامِرِىُّ.

---

(١) بعده فى الأصل، ح، م، ص: «هارون». وقد صرح المصنف - رحمه الله - فى التفسير =

فأخَذ ما كان اسْتَعارُوه مِن الحُلِيِّ فصاغ منه عِجْلًا، وألقَى فيه قَبْضةً مِن التُّرابِ، كان أخذَها مِن أثرِ فرسِ جِبْرِيلَ، حينَ رآه يومَ أغْرَقَ اللَّهُ فِرْعَون على يدَيْه، فلمَّا أَلْقَاها فيه[1]، خارَ كما يَخُورُ العِجْلُ الحَقيقيُّ، ويُقالُ: إنّه اسْتَحال عِجْلًا جَسَدًا. أى، لحمًا ودَمًا، حيًّا يَخُورُ. قاله قَتادةُ وغيرُه[2]. وقيل: بل كانت الرِّيحُ إذا دَخَلَتْ [١٧٨/١ظ] مِن دُبُرِه، خَرجَتْ مِن فَمِه، فيَخُورُ كما تَخُورُ البَقَرةُ، فيرْقُصون حولَه ويَفْرحُون[3]. ﴿ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴾ أى؛ فنسِيَ موسى ربَّه عندَنا، وذهَب يتطلَّبُه، وهو هٰهنا. تعالَى اللَّهُ عمّا يَقُولُون عُلوًّا كبيرًا، وتقدَّسَتْ أسماؤُه وصِفاتُه، وتضاعفَتْ آلاؤُه وعِداتُه. قال اللَّهُ تعالى، مُبيِّنًا لهم بطلانَ ما ذهبُوا إليه، وما عوَّلُوا عليه، مِن إلٰهيّةِ هذا الذى قُصاراه أنْ يكونَ حيوانًا بَهِيمًا وشَيْطانًا رَجيمًا: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾. وقال: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾ فذكَرَ أنّ هذا الحيوانَ لا يتكلَّمُ، ولا يَرُدُّ جوَابًا، ولا يَمْلِكُ ضَرًّا ولا نَفْعًا، ولا يَهْدِى إلى رُشْدٍ، اتَّخذوه وهم ظالمون لأنفسِهم، عالِمون فى أنفسِهم بُطْلانَ ما هم عليه مِن الجَهْلِ والضَّلالِ، ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى؛ نَدِمُوا على ما صَنَعُوا، ﴿ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾.

= ٥/ ٣٠٣، أنه من الكتب الإسرائيلية. واسم السامرى: موسى بن ظفر. انظر: تاريخ الطبرى ١/ ٤٢٥، المعارف ص ٤٤، التعريف والإعلام ص ٢٠٥، الدر المنثور ٤/ ٣٠٥.

(١) ليست فى: الأصل.

(٢) تفسير الطبرى ١٦/ ٢٠٠، التفسير ٥/ ٣٠٧.

(٣) انظر قصص الأنبياء للثعلبى ص ١٨٦. التفسير ٥/ ٢٨٥.

ولمّا رَجَع موسى، عليه السّلامُ، إليهم، ورأى ما هم عليه مِن عبادةِ العِجْلِ، ومعه الألواحُ المتضمِّنَةُ التَّوراةَ، ألقاها، فيُقالُ: إنّه كَسَرَها. وهكذا هو عندَ أهلِ الكتابِ[1]، وإنَّ اللَّهَ أبْدَلَه غيرَها. وليس في اللفظِ القرآنيِّ ما يدلُّ على ذلك، إلّا أنّه ألقاها حينَ عاينَ ما عاينَ. وعندَ أهلِ الكتابِ[2]، أنّهما كانا لَوْحَيْنِ. وظاهِرُ القرآنِ أنّها ألواحٌ متعدِّدةٌ، ولم يتأثرْ بمجردِ الخبرِ مِن اللَّهِ تعالى، عن عبادتِهم العِجْلَ، فأمَرَه بمعاينةِ ذلك. ولهذا جاء في الحديثِ الذي رواه الإمامُ أحمدُ[3]، وابنُ حِبّانَ، عن ابنِ عباسٍ، قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ». ثُم أقْبَلَ عليهم فعنَّفَهم، ووبَّخهم، وهَجَّنَهم في صنيعِهم، هذا القَبيحِ، فاعتذرُوا إليه بما ليسَ بصَحيحٍ؛ قالوا: إنا ﴿حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾، تحرَّجوا مِن تملُّكِ حُليِّ آلِ فرعونَ، وهم أهلُ حربٍ، وقد أمَرَهم اللَّهُ بأخْذِه، وأباحَه لهم، ولم يَتحرَّجُوا بجهلِهم، وقِلَّةِ عِلْمِهم وعَقلِهم مِن عبادةِ العِجْلِ الجَسَدِ، الذي له خُوارٌ، مع الواحدِ الأَحَدِ، الفَرْدِ الصَّمَدِ القَهّارِ. ثُم أقبلَ على أخيه هارونَ، عليهما السّلامُ، قائلًا له: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أي؛ هلّا لمّا رأيتَ ما صَنَعُوا اتَّبعْتَني فأعْلَمْتَني بما فعلُوا، فقال: ﴿إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي؛ تَرَكْتَهم وجِئْتَني، وأنتَ قد اسْتَخْلَفْتَني فيهم، ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وقد كان هارونُ، عليه السّلامُ، [١/١٧٩و]

---

(١) سفر الخروج الأصحاح ٣٢/ ١٩.
(٢) سفر الخروج الأصحاح ٣٢/ ١٥، ١٦.
(٣) في المسند ١/ ٢١٥، ٢٧١، والإحسان (٦٢١٣). (صحيح).

نهاهم عن هذا الصَّنيعِ الفَظِيعِ أشدَّ النَّهْيِ، وزَجَرَهم عنه أتمَّ الزَّجْرِ، قال اللَّهُ تعالى: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم ﴾ أى؛ إنما قَدَّرَ اللَّهُ أمرَ هذا العِجْلِ، وجعلَه يَخورُ فِتْنةً واختبارًا لكم. ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ أىْ؛ لا هذا العِجْلُ، ﴿ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ أى؛ فيما أقولُ لكم، ﴿ وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ يشهدُ اللَّهُ لهارونَ، عليه السّلامُ، وكَفَى باللَّهِ شهيدًا، أنّه نهاهم وزَجَرَهم عن ذلك، فلم يُطيعُوه ولم يَتَّبِعُوه، ثُم أقبَل موسى، عليه السلامُ، على السّامِرِىِّ، ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴾ أى؛ ما حَمَلَك على ما صَنَعْتَ. ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ ﴾ أى؛ رأيتُ جِبْرائيلَ، [1]وهو راكبٌ فرسًا ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ أى؛ مِن أثَرِ فَرَسِ جِبْرِيلَ[1]. وقد ذَكَرَ بعضُهم أنّه رآه وكان كُلّما وَطِئَتْ بحوافرِها على موضعٍ، اخْضَرَّ وأَعْشَبَ، فأخذَ مِن أثرِ حافرِها، فلمّا ألقاه فى هذا العِجْلِ المصنوعِ مِن الذَّهَبِ، كان مِن أمرِه ما كان، ولهذا قال: ﴿ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ وهذا دعاءٌ عليه بأنْ لا يَمَسَّ أحدًا؛ معاقبةً له على مَسِّه ما لم يكنْ له مَسُّه. هذا معاقبةٌ له فى الدُّنيا، ثُم توعَّدَه فى الأُخْرَى، فقال: ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ﴾ وقُرِئَ: (لَنْ نُخْلِفَهُ)[2]. ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾ قال: فعَمَدَ موسى، عليه السّلامُ، إلى هذا العِجْلِ فحَرَّقَه، قيل: بالنّارِ. كما

(١ - ١) سقط من: الأصل.

(٢) وهى قراءة ابن كثير وأبى عمرو. تفسير القرطبى ١١/٢٤٢. وانظر تفسير الطبرى ١٦/٢٠٦، ٢٠٧.

قالَه قَتادةُ، وغيرُه. وقيل: بالمَبارِدِ. كما قاله عليٌّ، وابنُ عباسٍ، وغيرُهما[1].

وهو نصُّ أهلِ الكتابِ[2]. ثم ذَرَّاه فى البحْرِ، وأمرَ بنى إسرائيلَ فشَرِبُوا، فمَن كان مِن عابدِيه، عَلِقَ على شِفاهِهم مِن ذلك الرَّمادِ مِنه ما يدلُّ عليه، وقِيل: بلِ اصْفَرَّتْ ألوانُهم.

ثم قال تعالَى إخبارًا عن موسى أنّه قال لهم: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾. وهكذا وقَع، وقد قال بعضُ السَّلَفِ ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾: مُسَجَّلةٌ لكلِّ صاحبِ بِدْعَةٍ إلى يوم القيامةِ[3]. ثُم أخبرَ تعالى عن حِلْمِه ورحْمتِه بخَلْقِه، وإحسانِه على عَبيدِه، فى قَبولِه توبةَ مَن تاب إليه، بتوبتِه عليه فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. لكن لم يقبلِ اللَّهُ توبةَ عابدِى العِجلِ إلا بالقتْلِ، كما قال تعالى[4]: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ [١/١٧٩ظ] فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٥٤] فيُقالُ: إنَّهم أصبحُوا يومًا، وقد أَخذَ مَن لم يَعْبُدِ العِجْلَ فى أيْديهم السُّيوفَ، وألْقَى اللَّهُ عليهم ضَبابًا، حتى لا يَعْرِفَ القريبُ قريبَه، ولا النَّسِيبُ نَسِيبَه، ثم مالُوا على

---

(١) تفسير الطبرى ١٦/٢٠٨، ٢٠٩، والقرطبى ١١/٢٤٢، ٢٤٣، والتفسير ٥/٣٠٧.

(٢) سفر الخروج الأصحاح ٣٢/٢٠.

(٣) انظر أقوال السلف فى التفسير ٣/٤٧٥، والقرطبى ٧/٢٩٢.

(٤) التفسير ١/١٣٠- ١٣٢.

عابدِيه، فقتلُوهم، وحصدُوهم. فيُقالُ: إنّهم قَتَلُوا فى صبيحةٍ واحدةٍ سبعينَ ألفًا. ثُم قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ استدلَّ بعضُهم بقولِه: ﴿ وَفِى نُسْخَتِهَا ﴾ على أنّها تكَسَّرَتْ، وفى هذا الاستدلالِ نَظَرٌ، وليس فى اللَّفظِ ما يدلُّ على أنّها تكَسَّرَتْ، واللَّهُ أعلمُ[1]. وقد ذَكَرَ ابنُ عباسٍ فى حديثِ الفُتُونِ، كما سيأتى، أَنّ عبادتَهم العِجْلَ، كانت على أَثَرِ خُروجِهم مِن البحرِ، وما هو ببعيدٍ؛ لأَنَّهم حين خرجُوا ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ ﴾.

وهكذا عندَ أهلِ الكتابِ، فإنّ عبادتَهم العِجْلَ، كانت قبلَ مجيئِهم بلادَ بيتِ المقدسِ، وذلك أنّهم لمَّا أُمِرُوا بقَتْلِ مَن عبدَ العِجْلَ، قَتَلُوا فى أولِ يوم ثلاثةَ آلافٍ[2]. ثُم ذهب موسى يَستغفِرُ لهم، فغُفِرَ لهم، بشرطِ أنْ يَدْخُلُوا الأرضَ المقدَّسةَ.

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ

---

(١) انظر تفسير القرطبى ٧/٢٨٨، والتفسير ٣/ ٤٧٦.

(٢) سفر الخروج الأصحاح ٣٢/ ٢٨.

﴿ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٥- ١٥٧] [1]. ذكَر السُّدِّيُّ، وابنُ عباسٍ، وغيرُهما، أنَّ هَؤُلاءِ السَّبْعين كانوا علماءَ بنى إسرائيلَ، ومعهم موسى، وهارونُ، ويُوشَعُ، ونادابُ، وأَبِيهُو، ذهبُوا مع موسى، عليه السّلامُ، لِيَعتذِروا عن بنى إسرائيلَ فى عبادةِ مَن عَبَد مِنهم العِجْلَ، وكانوا قد أُمِرُوا أنْ يَتَطَيَّبُوا، ويَتَطَهَّرُوا، ويَغْتَسِلُوا، فلمَّا ذهبُوا معه، واقتربُوا مِن الجبلِ، وعليه الغَمامُ، وعمودُ النُّورِ ساطِعٌ، وصَعِد موسى الجبلَ، فذَكَرَ بنو إسرائيلَ أنَّهم سَمِعُوا كلامَ اللَّهِ، وهذا قد وافَقَهم [١/١٨٠و] عليه طائفةٌ مِن المفسِّرين [2]، وحمَلُوا عليه قولَه تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]. وليس هذا بلازمٍ؛ لقولِه تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ﴾ أىْ؛ مُبلَّغًا، وهكذا هَؤُلاءِ سَمِعُوه مُبلَّغًا مِن [3] موسى، عليه السّلامُ. وزَعَمُوا أيضًا أنّ السَّبْعين رَأَوُا اللَّهَ، وهذا غَلَطٌ منهم؛ لأنَّهم لمّا سَأَلُوا الرُّؤْيَةَ، أخذَتْهم الرَّجفةُ؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥، ٥٦]. وقال هلهنا:

---

(١) التفسير ٣/ ٤٧٧- ٤٨٨.

(٢) انظر تفسير الطبرى ١/ ٣٦٧، والتفسير ١/ ١٦٤، ١٦٥.

(٣) فى الأصل، ص: «عن».

﴿ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ ﴾ . قال محمدُ بنُ إسحاقَ : اختار موسى مِن بنى إسرائيلَ سبعينَ رجلًا ، الخَيِّرَ فالخَيِّرَ ، وقال : انطلِقُوا إلى اللَّهِ ، فتوبُوا إليه ممّا صَنعْتُم ، وسَلُوه التَّوْبَةَ على مَن تركتُم وراءَكم مِن قَوْمِكم ، صومُوا وتَطَهَّرُوا ، وطَهِّرُوا ثيابَكم . فخرجَ بهم إلى طُورِ سَيْناءَ لميقاتٍ وقَّتَه له ربُّه ، وكان لا يأْتِيه إلا بإذنٍ مِنه وعِلْمٍ ، فطلَب[1] منه السَّبْعون أن يَسْمَعُوا كلامَ اللَّهِ ، فقال : أَفْعَلُ . فلمّا دنا موسى مِن الجبلِ ، وقَع عليه عمودُ الغَمامِ ، حتى تَغَشَّى الجبلَ كلَّه ، ودنا موسى فدخَلَ فى الغَمامِ ، وقال للقومِ : ادْنُوا . وكان موسى إذا كَلَّمَه اللَّهُ وَقَع على جَبْهَتِه نورٌ ساطعٌ ، لا يَسْتَطِيعُ أحدٌ مِن بنى آدمَ أنْ يَنْظُرَ إليه ، فضُرِب دونَه بالحجابِ ، ودنا القومُ ، حتى إذا دَخَلُوا فى الغَمامِ ، وَقَعُوا سُجُودًا ، فسَمِعُوه وهو يُكَلِّمُ موسى ، يأمُرُه ويَنْهاه ؛ افعَلْ . ولا تفعلْ . فلمّا فرَغ اللَّهُ مِن أمْرِه ، وانكَشفَ عن موسى الغَمامُ أَقْبَلَ إليهم قالوا لموسى : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ فأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ - وهى الصَّاعِقَةُ - فافتُلِتَتْ[2] أرْوَاحُهم ، فماتُوا جميعًا فقام موسى يُناشِدُ ربَّه ، ويدعُوه ، ويَرْغَبُ إليه ، ويقولُ : ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ أى ؛ لا تُؤاخِذْنا بما فعَل السّفهاءُ الذين عَبَدُوا العجلَ منّا ، فإنا بُرَآءُ ممّا عَمِلُوا[3] . وقال ابنُ عباسٍ ، ومُجاهدٌ ،

---

(١) فى الأصل ، ح : « فقال له وطلب » .

(٢) فى الأصل ، ح ، ا ، م : « فالتقت » . وكذا فى تاريخ الطبرى . وفى ص : « فأثبت » . وما أثبت هو الصواب إن شاء اللَّه . فيقال : افتُلِتت نفسه . أى مات فلتة ، أى بغتة . وفى البخارى : أن رجلًا أتى رسول اللَّه ﷺ فقال : إن أمى افتُلِتت نفسها ، فماتت ولم توص . فأتصدق عنها ؟ انظر النهاية لابن الأثير ٣/ ٤٦٧ .

(٣) تفسير الطبرى ١/ ٢٩١ ، وتاريخ الطبرى ١/ ٤٢٧ ، والتفسير ٣/ ٤٧٧ .

وقَتادةُ ، وابنُ جُرَيْجٍ : إنَّما أخذَتْهم الرَّجْفةُ لأنَّهم لم يَنْهَوْا قومَهم عن عبادةِ العِجلِ. وقولُه : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ أي ؛ اختبارُك ، وابتلاؤُك ، وامتحانُكَ . قاله ابنُ عباسٍ ، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ ، وأبو العاليةِ ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ ، وغيرُ واحدٍ مِن علماءِ السَّلَفِ والخَلَفِ . يعنى : أنت الذى قَدَّرْتَ هذا ، وخلقْتَ [١/١٨٠ظ] ما كان مِن أمرِ العِجْلِ ، اختبارًا تَخْتَبِرُهم به ، كما قال لهم هارونُ مِن قَبْلُ : ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ﴾ أي ؛ اختُبِرْتم به ، ولهذا قال : ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ﴾ أي ؛ مَن شِئْتَ أضْلَلْتَه باختِبارِك إيّاه ، ومَن شِئْتَ هَدَيْتَه ، لك الحُكْمُ والمَشيئةُ ، فلا مانعَ ولا رادَّ لِما حَكَمْتَ وقَضَيْتَ . ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾ .

﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ أي ؛ تُبْنا إليك ، ورَجَعْنا ، وأَنَبْنا . قاله ، ابنُ عباسٍ ، ومُجاهدٌ ، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ ، وأبو العاليةِ ، وإبراهيمُ التَّيْمِيُّ ، والضَّحّاكُ ، والسُّدِّيُّ ، وقَتادةُ ، وغيرُ واحدٍ ، وهو كذلك فى اللغةِ [1] . ﴿ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ أي ؛ أنا أعذِّبُ مَن شِئْتُ بما أشاءُ مِنَ الأمورِ ، التى أخْلُقُها وأُقدِّرُها ، ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ كما ثَبَت فى «الصَّحيحَيْنِ» [2] ، عن رسولِ اللَّهِ ﷺ ، أنَّه قال : « إِنَّ اللَّهَ لَمَّا فَرَغَ مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، كَتَبَ كِتابًا ، فهو مَوْضُوعٌ عندَه فوقَ العرشِ : إِنَّ رَحْمَتى تَغْلِبُ غَضَبِى » . ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾

---

(١) التفسير ٣/ ٤٧٩.
(٢) البخارى (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١).

أى ؛ فسأُوجِبُها حَتْمًا لِمَن يَتَّصِفُ بهذه الصِّفاتِ ، ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ﴾ الآية . وهذا فيه تَنْوِيهٌ بذِكرِ محمدٍ ﷺ ، وأُمَّتِه ، مِن اللَّهِ تعالى لموسى ، عليه السّلامُ ، فى جُمْلةِ ما ناجاه به ، وأَعْلَمَه وأَطْلَعَه عليه . وقد تكلّمْنا على هذه الآيةِ وما بعدَها فى « التّفسيرِ » ، بما فيه كفايةٌ ومَقْنَعٌ ، ولِلَّهِ الحمدُ والمِنّةُ[1] . وقال قَتادةُ : قال موسى : ياربِّ ، أجِدُ فى الألواحِ أُمّةً ، خيرَ أُمّةٍ أُخْرِجَتْ للنّاسِ ، يأمرُون بالمعروفِ ، ويَنهَوْن عن المُنْكَرِ ، ربِّ ، اجعلْهم أُمّتى . قال : تلك أُمّةُ أحمدَ . قال : ربِّ ، إنِّى أجدُ فى الألْواحِ أُمّةً ، هم الآخِرون فى الخَلْقِ ، السّابقون فى دخولِ الجنّةِ ، ربِّ ، اجْعَلْهم أُمّتى . قال : تلك أُمّةُ أحمدَ . قال : ربِّ ، إنِّى أجدُ فى الألواحِ أُمّةً أناجِيلُهم فى صُدورِهم ، يقرؤُونها ، وكان مَن قَبْلَهم يقرؤُون كتابَهم نَظَرًا ، حتى إذا رَفعُوها لم يَحْفَظُوا شيئًا ، ولم يَعْرِفُوه ، وإن اللَّهَ أعْطاكُم أيَّتُها الأُمّةُ مِن الحفظِ شيئًا ، لمْ يُعطِه أحدًا مِن الأمَمِ . قال : ربِّ ، اجْعَلْهم أُمّتى . قال : تلك أُمّةُ أحمدَ . قال : ربِّ ، إنِّى أجدُ فى الألواحِ أُمّةً يؤمِنُون بالكتابِ الأوَّلِ ، وبالكتابِ الآخِرِ ، ويقاتِلُون فضُولَ الضَّلالةِ ، حتى يُقاتِلُوا الأعورَ الكذّابَ ، فاجْعلْهم أُمّتى . قال : تلك أُمّةُ أحمدَ . قال : رَبِّ ، إنِّى أجدُ فى الألواحِ أُمّةً ، صَدَقاتُهم [١/١٨١و] يأْكُلُونها فى بطونِهم ، ويُؤْجَرُون عليها ، وكان مَن قَبْلَهم إذا تصدَّقَ بصَدقةٍ ، فقُبِلتْ منه ، بعثَ اللَّهُ عليها نارًا فأكَلَتها ، وإن رُدَّتْ عليه ، تُرِكتْ فتأْكلُها السِّباعُ والطَّيرُ ، وإنّ اللَّهَ أخذَ صَدَقاتِكم مِن غَنِيِّكم لفقيرِكم ، قال : رَبِّ ، فاجْعلْهم أُمّتى . قال : تلك أُمّةُ أحمدَ . قال : ربِّ ، فإنِّى أجدُ فى الألواحِ أُمّةً إذا هَمَّ أحدُهم

---

(١) انظر التفسير ٣/ ٤٧٩- ٤٨٨.

بحَسَنةٍ ، ثُم لم يَعْملْها كُتِبتْ له حَسَنةٌ ، فإنْ عَمِلها كُتِبتْ له عَشْرُ أَمْثالِها ، إلى سَبْعِمائةِ ضِعْفٍ ، قال : رَبِّ ، اجْعلْهم أُمَّتى . قال : تلك أُمَّةُ أحمدَ . قال : رَبِّ ، إنِّى أجدُ فى الألواحِ أُمَّةً هم المُشفَّعُون ، المشْفوعُ لهم ، فاجْعلْهم أُمَّتى . قال : تلك أمّةُ أحمدَ . قال قَتادةُ : فذُكِر لنا أنّ موسى ، عليه السّلامُ ، نَبَذَ الألواحَ ، وقال : اللهم ، اجعلْنى مِن أُمَّةِ أحمدَ[1] . وقد ذَكَرَ كثيرٌ مِن النّاسِ ما كان مِن مُناجاةِ موسى ، عليه السّلامُ ، وأَوْرَدُوا أشياءَ كثيرةً لا أصلَ لها ، ونحن نَذْكُرُ ما تَيَسَّرَ ذِكْرُه مِن الأحاديثِ والآثارِ ، بعَوْنِ اللّهِ وتوْفيقِه ، وحُسنِ هدايتِه ومَعُونتِه وتأْييدِه .

قال الحافِظُ أبو حاتمٍ ، محمدُ بنُ حاتمِ بنِ حِبّانَ فى « صحيحِه »[2] : ذِكْرُ سؤالِ كليمِ اللّهِ ربَّه ، عزَّ وجلَّ ، عن أَدْنَى أهلِ الجنّةِ وأرفعِهم منزلةً ؛ أخبرَنا عمرُ بنُ سعيدٍ الطائىُّ بمَنْبِجٍ ، حدّثنا حامدُ بنُ يَحيَى البَلْخِىُّ ، حدثنا سُفْيانُ ، حدثنا مُطَرِّفُ بنُ طريفٍ ، وعبدُ الملكِ بنُ أَبْجَرَ[3] - شيخان صالحان - سَمِعْنا الشَّعْبِىَّ يقولُ : سَمِعْتُ المُغيرةَ بنَ شُعْبَةَ يقولُ على المنبرِ ، عن النَّبىِّ ﷺ : « إنَّ موسى ، عليه السّلامُ ، سَأَلَ رَبَّه ، عزَّ وجلَّ : أَىُّ أَهْلِ الجَنَّةِ أَدْنَى مَنْزِلَةً ؟ فَقالَ : رَجُلٌ يَجِئُ بَعْدَمَا يَدْخُلُ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ ، فيُقالُ : ادْخُلِ الجَنَّةَ . فَيَقُولُ : كَيْفَ أَدْخُلُ الجَنَّةَ وَقَدْ نَزَلَ النّاسُ مَنازِلَهُمْ وأَخَذُوا أَخَذاتِهم[4] . فيُقالُ لَهُ : تَرْضَى أَن يَكُونَ لَكَ مِنَ الجَنَّةِ مِثْلُ ما كان لِمَلِكٍ مِن مُلُوكِ الدُّنْيا ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ أَىْ رَبِّ .

---

(١) تفسير الطبرى ٩/ ٦٥.

(٢) الإحسان (٦٢١٦). إسناده صحيح.

(٣) فى ح : « الحر ». وانظر تهذيب التهذيب ٦/ ٣٩٤.

(٤) فى النسخ : « أخاذاتهم ». والمثبت من مصدر التخريج.

فيُقالُ : لكَ هذا ، ومِثْلُهُ ، وَمِثْلُهُ . فَيَقُولُ : أَىْ رَبِّ ، رَضِيتُ . فيُقالُ : [1] إِنَّ لَكَ هَذَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهِ . فيقولُ : أى رَبِّ ، رَضِيتُ . فيُقالُ [1] له : لَكَ مَعَ هَذَا مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ ، ولَذَّتْ عَيْنُكَ . وسَأَلَ رَبَّه : أَىُّ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَرْفَعُ مَنْزِلَةً ؟ قَالَ : سَأُحَدِّثُكَ عَنْهُمْ ، غَرَسْتُ كَرامَتَهُمْ بِيَدِى ، وخَتَمْتُ عَلَيْهَا ، فَلَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » ومِصْدَاقُ ذَلِكَ فِى كِتَابِ اللَّهِ تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ الآية [السجدة : ١٧] . وهكذا رواه مسلمٌ ، والتِّرْمِذِيُّ [2] ، كلاهما عن ابنِ أبى عُمَرَ ، عن سُفْيانَ ، وهو ابنُ عُيَيْنَةَ ، به [3] ، ولفظُ مسلم : « فَيُقالُ لَهُ : أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَك مِثْلُ مُلْكِ [4] مَلِكٍ مِن مُلُوكِ الدُّنْيا ؟ فَيَقُولُ : رَضِيتُ رَبِّ . فَيَقُولُ : لك ذَلِك ومِثْلُهُ ومِثْلُهُ [١٨١/١ظ] ومِثْلُهُ ومِثْلُهُ . فَيَقُولُ فِى الخَامِسَةِ : رَضِيتُ رَبِّ . فيقولُ : هَذَا لَكَ وعَشَرَةُ أمثالِه ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ ، ولَذَّت عَيْنُكَ . فَيَقُولُ : رَضِيتُ رَبِّ . قَالَ : رَبِّ ، فَأَعْلَاهُم مَنْزِلَةً ؟ قال : أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ [5] كرامَتَهمْ بِيَدِى ، وَخَتَمْتُ عَلَيها ، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ ، وَلَمْ يَخْطُرْ على قَلْبِ بَشَرٍ » . قَالَ : ومِصْدَاقُهُ مِن كتابِ اللَّهِ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ . وقال التِّرْمِذِيُّ : حسنٌ صحيحٌ . قال : ورواه بَعضُهم عن الشَّعْبِىِّ ، عن المُغِيرةِ ، فلم يَرْفَعْه ، والمَرْفُوعُ أَصَحُّ [6] .

(١ - ١) سقط من : ح ، م ، ص .
(٢) مسلم (١٨٩) ، الترمذى (٣١٩٨) .
(٣) سقط من : الأصل .
(٤) سقط من : الأصل .
(٥) فى م ، ص : « غرس » .
(٦) والرواية الموقوفة التى أشار إليها الترمذى عند مسلم (١٨٩) ، والطبرانى فى الكبير (٩٨٩) .

وقال ابنُ حِبّانَ[1] : ذِكْرُ سؤالِ الكَليمِ ربَّه عن خِصالٍ سَبْعٍ ؛ حدَّثنا عبدُ اللَّهِ بنُ محمدِ بنِ سَلْمٍ[2] ، ببيْتِ المقدِسِ ، حدّثنا حَرْمَلَةُ بنُ يَحْيَى ، حدّثنا ابنُ وَهْبٍ ، أخبرني عمرُو بنُ الحارثِ ، أَنّ أبا السَّمْحِ ، حدَّثَه عن ابنِ[3] حُجَيْرَةَ ، عن أبي هُرَيرةَ ، عن النَّبيِّ ﷺ ، أنه قال : « سَأَلَ موسى رَبَّهُ ، عَزَّ وَجَلَّ ، عَنْ سِتِّ خِصالٍ ، كانَ يَظُنُّ أَنَّهَا لهُ خَالِصَةً ، والسَّابِعَةُ لَمْ يَكُنْ موسى يُحِبُّهَا ؛ قالَ : يارَبِّ ، أَيُّ عِبادِكَ أَتْقَى ؟ قالَ : الَّذِى يَذْكُرُ وَلَا يَنْسَى . قالَ : فَأَيُّ عِبادِكَ أَهْدَى ؟ قالَ : الَّذِى يَتَّبِعُ الْهُدَى . قالَ : فَأَيُّ عِبادِكَ أَحْكَمُ ؟ قال : الَّذِى يَحْكُمُ لِلنَّاسِ كَمَا يَحْكُمُ لِنَفْسِهِ . قالَ : فَأَيُّ عِبادِكَ أَعْلَمُ ؟ قَالَ : عَالِمٌ لَا يَشْبَعُ مِنَ الْعِلْمِ ، يَجْمَعُ عِلْمَ النَّاسِ إلى عِلْمِه . قالَ : فَأَيُّ عبادِكَ أَعَزُّ ؟ قالَ : الَّذِى إِذَا قَدَرَ غَفَرَ . قال : فَأَيُّ عِبادِكَ أَغْنَى ؟ قالَ : الَّذِى يَرْضَى بما يُؤْتَى . قال : فأَيُّ عبادِكَ أَفْقَرُ ؟ قال : صاحِبٌ منقُوصٌ » . قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « لَيْسَ الْغِنَى عَنْ ظَهْرٍ ، إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ ، وإذا أرادَ اللَّهُ بعبدٍ خَيْرًا جَعَلَ غِناه فى نفسِه ، وتُقاه فى قَلْبِه ، وإذا أرادَ بعبدٍ شَرًّا ، جعلَ فَقْرَه بينَ عَيْنَيْهِ » .

قال ابنُ حِبَّانَ : قولُه : صاحِبٌ منقُوصٌ . يريدُ به مَنْقُوصَ حالتِه ، يَسْتَقِلُّ ما أُوتِيَ ، ويَطْلُبُ الفَضْلَ .

وقد رواه ابنُ جريرٍ فى « تاريخِه »[4] ، عن ابنِ حُمَيْدٍ ، عن يعقوبَ

---

(١) الإحسان (٦٢١٧) . إسناده حسن .

(٢) فى النسخ : « مسلم » . والمثبت من الإحسان . وانظر سير أعلام النبلاء ١٤/ ٣٠٦.

(٣) فى الأصل: « أبى » . وانظر تهذيب التهذيب ٦/ ١٦٠.

(٤) ابن جرير ١/ ٣٧١.

القُمّىّ[1] ، عن هارونَ بنِ عَنترةَ[2] ، عن أبيه ، عن ابنِ عباسٍ ، قال : سأل موسى ربَّه ، عَزَّ وجَلَّ ، فذكر نحوَه ، وفيه : قال : أىْ رَبِّ ، فأَىُّ عبادِك أَعْلَمُ ؟ قال : الذى يَبْتَغِى عِلْمَ النّاسِ إلى علمِه ، عسى أنْ يُصِيبَ كَلِمةً تَهْدِيه إلى هُدًى ، أو تَرُدُّه عن رَدًى . قال : أَىْ رَبِّ ، فهل فى الأرْضِ أحدٌ أَعْلَمُ[3] منِّى ؟ قال : نَعَمْ ، الخَضِرُ . فسأَل السَّبيلَ إليْه ، فكان ما سنَذْكُرُه بعدُ ، إنْ شاءَ اللَّهُ تعالى ، وبه الثِّقةُ .

---

(1) فى الأصل ، ا : « العمى » . وفى م ، ص : « التميمى » . والمثبت من مصدر التخريج . وانظر تهذيب التهذيب ١١/ ٣٩٠، ٣٩١.

(2) فى ح ، م : « عبيرة » . وانظر تهذيب التهذيب ١١/ ٩.

(3) فى ص : « أعمر » .

ذِكرُ حديثٍ آخرَ بمعنى مَا ذَكَرَه ابنُ حِبَّانَ

قال الإمامُ أحمدُ[1] : حدَّثنا يَحيَى بنُ إسحاقَ ، حدَّثنا ابنُ لَهِيعَةَ ، عن درَّاجٍ ، [2]عن أبي الهيثمِ[2] ، عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ [١/١٨٢و] ، عن النَّبيِّ ﷺ ، أنَّه قال : « إنَّ موسى قالَ : أَىْ رَبِّ ، عَبْدُكَ الْمُؤْمِنُ مُقَتَّرٌ عَلَيْهِ فى الدُّنْيا . قالَ : فَفُتِحَ لَهُ بابٌ مِن الجنَّةِ ، فنظَرَ إليْها ، قالَ : يا موسى ، هَذَا ما أَعْدَدْتُ له . فقالَ موسى : يا رَبِّ ، وعزَّتِكَ وجَلالِكَ ، لوْ كان أَقْطعَ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ ، يُسْحَبُ عَلى وَجْهِه مُنْذُ يومَ خَلَقْتَه إلى يَوْمِ القِيامَةِ ، وكان هذا مصيرَه ، لم يَرَ بُؤْسًا قَطُّ . قالَ : ثُمَّ قالَ : أَىْ رَبِّ ، عَبْدُكَ الْكَافِرُ مُوَسَّعٌ عَلَيْهِ فِى الدُّنْيا . قالَ : فَفُتِحَ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ ، فَيَقُولُ : يا موسى ، هذَا ما أَعْدَدْتُ له . فقال : أَىْ رَبِّ ، وَعِزَّتِكَ وَجلالِكَ ، لو كانتْ له الدُّنيا مُنْذُ يومَ خَلَقْتَهُ إلى يومِ القِيامَةِ ، وكان هذا مَصيرَه ، لمْ يَرَ خَيْرًا قَطُّ » . تَفَرَّدَ به أحمدُ مِن هذا الوجهِ . وفى صحَّتِه نَظَرٌ ، واللَّهُ أعلمُ .

وقال ابنُ حِبّانَ[3] : ذِكْرُ سؤالِ كليمِ اللَّهِ رَبَّه ، جَلَّ وَعَلَا ، أَنْ يعلِّمَه شيئًا يَذْكُرُه به ، حدَّثنا [4]ابنُ سَلْمٍ[4] ، حدَّثنا حَرْمَلَةُ بنُ يَحْيَى ، حدَّثنا ابنُ وَهْبٍ ، أخبرَنى عمرُو بنُ الحارِثِ ، أنَّ درَّاجًا حدَّثه ، عن أبى الهَيْثَمِ ، عن أبى سعيدٍ ،

---

(١) فى المسند ٣/ ٨١. وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٢٦٧: وفيه ابن لهيعة ودرّاج ، وقد وثقا على ضعف فيهما . وقال الساعاتى فى « بلوغ الأمانى » ١٩/ ١١٦: وقصارى القول أن هذا الحديث ضعيف .
(٢- ٢) فى الأصل : « بن أبى الهيثم » . وانظر التقريب ١/ ٢٣٥.
(٣) الإحسان (٦٢١٨) . إسناده ضعيف .
(٤- ٤) فى ا : « أبو مسلم » . وفى م ، ص : « ابن سلمة » . وانظر صفحة ١٥٨ حاشية (٢) .

عن النبىِّ ﷺ، أنه قال: «قالَ موسى: يارَبِّ، عَلِّمْنى شَيْئًا أَذْكُرُكَ بِهِ، وَأَدْعُوكَ بِهِ. قال: قُلْ يا موسى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. قال: يارَبِّ، كُلُّ عِبادِكَ يقولُ هَذَا. قالَ: قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. قالَ: إِنَّما أُرِيدُ شَيْئًا تَخُصُّنى به. قالَ: يا موسى، لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، والْأَرَضِينَ السَّبْعِ فى كِفَّةٍ، ولَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فى كِفَّةٍ، مالَتْ بِهِمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». ويَشْهَدُ لهذا الحديثِ حديثُ البِطاقةِ[1]. وأَقْرَبُ شَىْءٍ إلى معناه، الحديثُ المَرْوِىُّ فى «السُّنَنِ»[2]، عن النبىِّ ﷺ أنه قال: «أَفْضَلُ الدُّعَاءِ، دُعَاءُ عَرَفَةَ، وَأَفْضَلُ ما قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَه لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وهو على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ».

وقال ابنُ أبى حاتمٍ[3]، عندَ تفسيرِ آيةِ الكُرْسِىِّ: [4]حدَّثنا أحمدُ بنُ القاسمِ ابنِ عَطِيَّةَ، حدَّثنا أحمدُ بنُ عبدِ الرَّحمنِ الدَّشْتَكِىُّ[5]، حدَّثنى أَبِى، عن أبيه، حدَّثنا أشعثُ بنُ إسحاقَ، عن جَعْفَرِ بنِ أبى المغيرةِ، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ[4]، عن ابنِ عباسٍ، أَنَّ بنى إسرائيلَ قالُوا لموسى: هل ينامُ ربُّكَ؟ قال: اتَّقُوا اللَّهَ. فناداه ربُّه: يا موسى، سأَلُوكَ هل ينامُ ربُّكَ، فخُذْ زُجاجَتَيْنِ فى يَدَيْكَ، فقُمِ اللَّيْلَ، ففعَلَ موسى، فلمّا ذهبَ مِن الليلِ ثُلُثٌ، نَعَسَ، فوَقَعَ لرُكْبَتَيْه، ثُم انتعشَ،

---

(١) رواه الترمذى (٢٦٣٩) وقال: حديث حسن غريب. ابن ماجه (٤٣٠٠). (صحيح الترمذى ٢١٢٧).

(٢) الترمذى (٣٥٨٥). وقال: حديث غريب... (صحيح الترمذى ٢٨٣٧). وانظر السلسلة الصحيحة (١٥٠٣).

(٣) ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٣٢٧/١ وعزاه إلى ابن أبى حاتم. وابن كثير فى التفسير ٤٥٦/١. ورواه أبو الشيخ فى العظمة (١٤٠) عن ابن أبى حاتم به. وإسناده حسن.

(٤ - ٤) سقط من: ا.

(٥) فى ح، م: «الدسكى». وفى ص: «الدسيلى». وانظر تهذيب التهذيب ٥٣/١.

فضَبَطَهما ، حتى إذا كان آخِرُ الليلِ نَعَسَ ، فسَقَطَتِ الزُّجاجتان ، فانْكَسَرَتا . فقال : يا موسى ، لو كنتُ أنامُ ، لسَقَطَتِ السَّماواتُ والأَرْضُ ، فهَلَكْنَ كما هَلَكَتِ الزُّجاجتانِ فى يَدَيْكَ . [١٨٢/١ظ] قال : وأَنْزَلَ اللَّهُ على رسولِه آيةَ الكُرْسِيِّ .

وقال ابنُ جَريرٍ[(١)] : حدَّثنا إسحاقُ بنُ أبى إسرائيلَ ، حدَّثنا هشامُ بنُ يوسُفَ ، عن أُمَيَّةَ بنِ شبلٍ ، عن الحكَمِ بنِ أبانَ ، عن عِكْرِمَةَ ، عن أبى هُرَيْرَةَ ، قال : سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يَحْكِي عن موسى ، عليه السَّلامُ ، على المِنْبرِ ، قال : « وَقَعَ فى نَفْسِ موسى ، عليه السَّلامُ ، هَلْ يَنامُ اللَّهُ ، عَزَّ وَجَلَّ ؟ فأَرْسَلَ اللَّهُ إليه مَلَكًا ، فأَرَّقَه ثلاثًا ، ثُم أعطاه قارُورتَيْن ، فى كُلِّ يدٍ قارُورةٌ ، وأمَرَه أنْ يَحْتَفِظَ بهما ، قال : فجَعَلَ ينامُ ، وكادت يداه تَلتقيان فيَستَيْقِظُ ، فيَحْبِسُ إحْدَاهما على الأخرى ، حتى نامَ نَوْمةً ، فاصْطَفَقَتْ يداه ، فانْكَسَرَتِ القارُورَتان » . قال : ضَرَبَ اللَّهُ له مَثَلًا ، أَنْ لو كان ينامُ ، لم تَسْتَمْسِكِ السَّماءُ والأرضُ . وهذا حديثٌ غريبٌ رَفْعُه ، والأَشْبَهُ أَنْ يكونَ مَوْقوفًا ، وأن يكونَ أصلُه إسْرائيليًّا[(٢)] .

وقال اللَّهُ تعالى[(٣)] : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ

---

(١) فى تفسيره ٣/ ٧، ٨.

(٢) قال ابن الجوزى فى العلل المتناهية ٢٧/١ بعد أن رواه من طريق هشام بن يوسف به : ولا يثبت هذا الحديث عن رسول الله ﷺ وغلط من رفعه ، والظاهر أن عكرمة رأى هذا فى كتب اليهود فرواه ، فما يزال عكرمة يذكر عنهم أشياء ، لا يجوز أن يخفى هذا على نبى الله عز وجل . وقد روى عبد الله بن أحمد بن حنبل فى كتاب السنة عن سعيد بن جبير قال : إن بنى إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام : هل ينام ربنا ؟ وهذا هو الصحيح . فإن القوم كانوا جهالا بالله . اهـ .

(٣) التفسير ١/ ١٤٩، ١٥٠.

ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [البقرة: ٦٣، ٦٤]. وقال تعالى[١]: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧١]. قال ابنُ عباسٍ، وغيرُ واحدٍ مِن السَّلَفِ: لمَّا جاءَهم موسى بالألواحِ فيها التَّوْراةُ، أمَرَهم بقَبُولِها، والأخذِ بها بقُوةٍ وعَزْمٍ، فقالوا: انشُرْها علينا، فإنْ كانت أوامرُها ونواهيها سَهْلَةً، قَبِلْناها. فقال: بل اقْبَلُوها بما فيها. فراجَعُوه مِرارًا، فأمَر اللَّهُ الملائكةَ، فرفعُوا الجبلَ على رؤوسِهم حتى صارَ كأنَّه ظُلَّةٌ، أىْ غَمامةٌ على رءوسِهم، وقِيلَ لهم: إنْ لم تَقْبلُوها بما فيها، وإلا سقَطَ هذا الجبلُ عليكم. فقَبِلُوا ذلك، وأُمِرُوا بالسُّجودِ فسَجَدُوا، فجعلُوا يَنْظُرُون إلى الجبلِ بشِقِّ وجُوهِهم، فصارَتْ سُنَّةً لليهودِ إلى اليومِ، يقولُون: لا سَجْدَةَ أعظمُ مِن سَجْدَةٍ رَفَعَتْ عنَّا العذابَ.

وقال سُنَيْدُ بنُ داودَ[٢]، عن حَجاجِ بنِ محمدٍ، عن أبى بكرِ بنِ عبدِ اللَّهِ، قال: فلمّا نَشَرَها لم يَبْقَ على وجهِ الأرْضِ جَبلٌ، ولا شَجَرٌ، ولا حَجَرٌ، إلَّا اهتزَّ، فليس على وجهِ الأرضِ يَهودِىٌّ صغيرٌ ولا كبيرٌ تُقْرَأُ عليه التَّوْراةُ إلا اهْتزَّ، ونفَضَ لها رأسَه.

---

(١) التفسير ٣/ ٤٩٩، ٥٠٠.

(٢) رواه ابن جرير فى تفسيره ٩/ ١٠٩ من طريق سنيد بن داود. كما ذكره المصنف فى التفسير ٣/ ٤٩٩ عن سنيد.

قال اللَّهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أى ؛ ثُم بعدَ مشاهدةِ هذا الميثاقِ العظيمِ ، والأمرِ الجَسيمِ ، نَكَثْتُم عهودَكم ومواثيقَكم ، ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ بأن تَدَارَكَكم بالإرسالِ إليكم [١٨٣/١و] ، وإنزالِ الكِتابِ عَليكم ﴿ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

قِصَّةُ بَقَرَةِ بنى إسرائيلَ

قال اللَّهُ تعالى[1] : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٦٧- ٧٣]

قال ابنُ عباسٍ، وعَبِيدَةُ السَّلْمانىُّ، وأبو العاليةِ، ومُجاهدٌ، والسُّدِّىُّ، وغيرُ واحدٍ مِن السَّلَفِ: كان رَجُلٌ فى بنى إسرائيلَ كثيرَ المالِ، وكان شيخًا كبيرًا، وله بَنُو أخٍ، وكانوا يتمنَّوْن موتَه؛ ليرِثُوه، فعَمَدَ أحدُهم فقتَلَه فى الليلِ، وطَرَحه فى مَجمَعِ الطرقِ، ويُقالُ: على بابِ رجلٍ منهم. فلما أَصْبَحَ النّاسُ، اخْتَصَمُوا فيه، وجاءَ ابنُ أخيه، فجعلَ يَصْرُخُ ويتظَلَّمُ، فقالوا: ما لكم تَخْتَصِمُون ولا تأْتون نبىَّ اللَّهِ، فجاءَ ابنُ أخيه، فشَكَى أمرَ عمِّه إلى رسولِ اللَّهِ موسى ﷺ، فقال موسى، عليه السّلامُ: أَنْشُدُ اللَّهَ رجلًا عندَه عِلْمٌ مِن أمرِ

---

(١) التفسير ١/ ١٥٤- ١٦٢.

هذا القَتيلِ إلّا أعْلَمَنا به . فلم يكنْ عند أحدٍ منهم عِلْمٌ ، وسألُوه أن يسألَ في هذه القضيةِ رَبَّه ، عزَّ وجلَّ ، فسألَ ربَّه ، عزَّ وجلَّ ، في ذلك فأَمَره اللَّهُ أنْ يأمُرَهم بذَبْحِ بَقَرَةٍ ، فقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوٓا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ ، يَعْنُون ؛ نحن نسألُك عن أمرِ هذا القتيلِ ، وأنتَ تقولُ هذا . ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ أي ؛ أعوذُ باللَّهِ أنْ أقولَ عنه غيرَ ما أَوْحَى إليَّ . وهذا هو الذي أجابَني حينَ سألْتُه عما سألْتُموني عنه أن أَسْأَلَه فيه . قال ابنُ عباسٍ ، وعَبِيدَةُ ، ومُجاهدٌ وعِكْرِمَةُ ، والسُّدِّيُّ ، وأبو العاليةِ ، وغيرُ واحدٍ : فلو أنَّهم عَمَدُوا إلى أيِّ بَقَرَةٍ ، فذَبَحُوها ، لحَصَلَ المقصودُ مِنها ، ولكنَّهم شَدَّدُوا ، فَشَدَّدَ اللَّهُ عليهم[(1)] . وقد ورَد فيه حَديثٌ مَرفوعٌ ، وفي إسنادِه ضَعْفٌ[(2)] ، فسألُوا عن صفتِها ، ثُم عن لَوْنِها ، ثُم عن سِنِّها فأُجِيبُوا بما عَزَّ وُجُودُه عليهم ، وقد ذكَرْنا تَفْسيرَ ذلك كلِّه في «التّفسيرِ»[(3)] .

والمقصودُ أنَّهم [١٨٣/١ظ] أُمِرُوا بذَبحِ بَقَرَةٍ عَوَانٍ ؛ وهي الوَسَطُ بينَ النَّصفِ الفارضِ ، وهي الكبيرةُ ، والْبِكْرِ ، وهي الصَّغِيرةُ . قاله ابنُ عباسٍ ، ومُجاهدٌ ، وأبو العاليةِ ، وعِكْرِمَةُ ، والحسنُ ، وقَتادةُ ، وجماعةٌ . ثم شَدَّدُوا ، وضَيَّقُوا على أنفسِهم ، فسألُوا عن لونِها ، فأُمِرُوا بِصَفْراءَ فاقِعٍ لونُها ، أَيْ مُشْرَبٍ بحُمْرَةٍ ، تَسُرُّ الناظِرين ، وهذا اللونُ عزيزٌ . ثم شَدَّدُوا أيضًا فقالوا : ﴿ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن

---

(١) التفسير ١/ ١٥٨.

(٢) سيأتي بعد قليل كما ذكره المصنف في التفسير ١٥٩/١ سندا ومتنا ، وعزاه لابن مردويه من حديث أبي هريرة مرفوعًا ، وقال : وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، وأحسن أحواله أن يكون من كلام أبي هريرة . وبنحوه مرفوعا رواه سعيد بن منصور في سننه ٥٦٥/٢ في كتاب التفسير من حديث عكرمة يرفعه . وسنده ضعيف لإرساله .

(٣) التفسير ١٥٨/١ وما بعدها .

﴿لَنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ ففى الحديثِ المرفوعِ، الذى رواه ابنُ أبى حاتمٍ، وابنُ مَرْدَوَيْهِ[1]: «لولا أنّ بنى إسرائيلَ استثْنَوْا لَمَا أُعْطُوا». وفى صحَّتِه نظرٌ. واللَّهُ أعلمُ. ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ وهذه الصّفاتُ أَضْيَقُ مِمّا تقدَّمَ، حيثُ أُمِرُوا بذَبْحِ بَقَرةٍ، ليستْ بالذَّلُولِ؛ وهى المُذَلَّلةُ بالحِراثةِ وسَقْيِ الأرضِ بالسّانِيَةِ، مُسَلَّمَةٍ؛ وهى الصّحيحةُ التى لا عَيْبَ فيها. قاله أبو العاليةِ، وقَتادةُ. وقولُه: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ﴾ أى؛ ليس فيها لَوْنٌ يخالِفُ لونَها، بل هى مُسَلَّمَةٌ مِن العُيوبِ، ومِن مخالطةِ سائرِ الألْوانِ غيرَ لَوْنِها، فلمّا حدَّدَها بهذه الصّفاتِ، وحَصَرَها بهذه النُّعوتِ والأوْصافِ، ﴿قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ ويقالُ: إنّهم لم يَجِدُوا هذه البقرةَ بهذه الصّفةِ إلا عندَ رجلٍ منهم، كان بارًّا بأبيه، فطَلَبُوها منه، فأبى عليهم، فأَرْغَبُوه فى ثَمنِها، حتى أعطَوْه - فيما ذَكَره السُّدِّىُّ - بوزنِها ذهبًا، فأبى عليهم، حتى أعطَوْه بوزنِها عَشْرَ مرّاتٍ، فباعَها مِنهم، فأمرَهم نبيُّ اللَّهِ موسى بذَبْحِها، ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ أى؛ وهم يَتَرَدَّدُون فى أمرِها. ثم أَمَرَهم عن اللَّهِ أَنْ يضرِبُوا ذلك القتيلَ ببعضِها، قِيل: بلَحْمِ فَخِذِها. وقِيل: بالعظمِ الذى يَلِى الغُضْرُوفَ. وقِيل: بالبَضْعَةِ التى بينَ الكَتِفَيْنِ، فلمّا ضربُوه ببعْضِها، أحياه اللَّهُ تعالى، فقام(*) وهو تَشْخَبُ أوداجُه، فسأَلَه نبيُّ اللَّهِ: مَن قتلَكَ؟ قال: قَتَلَنى ابنُ أخِى. ثم عادَ

---

(1) ذكره السيوطى فى الدر ٧٧/١ وعزاه لابن أبى حاتم وابن مردويه. وذكره المصنف فى التفسير ١/ ١٥٩ وعزاه إليهما.

(*) إلى هنا ينتهى الجزء الأول من نسخة أحمد الثالث والمشار لها بـ (أ).

مَيِّتًا كما كان ، قال اللَّهُ تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى ؛ كما شاهَدْتم إحياءَ هذا القتيلِ ، عن أمرِ اللَّهِ له ، كذلك أَمْرُه فى سائرِ المَوْتَى ، إذا شاء إحياءَهم أحياهم فى ساعةٍ واحدةٍ ، كما قال : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ الآية [لقمان : ٢٨] .

قِصَّةُ موسى والخَضِرِ، عليهما الصلاةُ والسلامُ

قال اللَّهُ تعالى[1]: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ [١٨٤/١و] لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن

---

(١) التفسير ٥/ ١٧٠- ١٨٢.

يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٦٠- ٨٢].

قال بعضُ أهلِ الكتابِ: إنَّ موسى هذا الذى رَحَلَ إلى الخَضِرِ، هو موسى بنُ ميشا بنِ يوسفَ بنِ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ. وتابَعَهم على ذلك بعضُ مَن يَأْخُذُ مِن صُحُفِهم، ويَنْقُلُ عن كُتُبِهم، منهم نوفُ بنُ فَضَالةَ الحِمْيَرىُّ الشّامِىُّ البِكَالِىُّ، ويُقالُ: إنّه دِمَشْقِىٌّ. وكانت أُمُّه زوجةَ كعبِ الأحبارِ[1]. والصّحيحُ الذى دَلَّ عليه ظاهرُ سياقِ القرآنِ، ونصُّ الحديثِ الصحيحِ الصريحِ المتفقِ عليه، أنّه موسى بنُ عِمْرانَ، صاحبُ بنى إسرائيلَ.

قال البخارىُّ[2]: حدّثنا الحُمَيْدِىُّ، حدّثنا سفيانُ، حدّثنا عمرُو[3] بنُ دينارٍ، أخبرنى سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، قال: قلتُ لابنِ عباسٍ [١/١٨٤ظ]: إنّ نوْفًا البِكالىَّ يَزْعُمُ أنّ موسى صاحبَ الخَضِرِ ليس هو موسى صاحبَ بنى إسرائيلَ. قال ابنُ عباسٍ: كَذَبَ عَدُوُّ اللّهِ؛ حدّثنا أُبَىُّ بنُ كَعْبٍ، أنّه سَمِعَ رسولَ اللّهِ

---

(١) انظر ترجمته فى تهذيب الكمال ٣٠/ ٦٥.
(٢) البخارى (٤٧٢٥).
(٣) فى الأصل، م: «عمر».

ﷺ يقولُ : «إنّ موسى قامَ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَسُئِلَ : أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ ؟ فقالَ : أَنَا . فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ ؛ إِذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إِلَيْهِ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ : إِنَّ لِى عَبْدًا بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ ، هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ . قالَ موسى : يَارَبِّ ، وَكَيْفَ لِى بِهِ ؟ قالَ : تَأْخُذُ مَعَكَ حُوتًا فَتَجْعَلُهُ فِى مِكْتَلٍ فحيثُمَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فهو ثَمَّ . فَأَخَذَ حُوتًا فَجَعَلَهُ بِمِكْتَلٍ ، ثُمَّ انْطَلَقَ ، وَانْطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ ، حَتَّى إِذَا أَتَيَا الصَّخْرَةَ ، وَضَعَا رُءُوسَهُما فناما ، وَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِى الْمِكْتَلِ ، فَخَرَجَ مِنْهُ فَسَقَطَ فِى الْبَحْرِ ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى الْبَحْرِ سَرَبًا ، وَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنِ الْحُوتِ جِرْيَةَ الْمَاءِ ، فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلُ الطَّاقِ ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نَسِىَ صَاحِبُهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالْحُوتِ ، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتِهما ، حَتَّى إذا كان مِنَ الْغَدِ ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ . ولمْ يَجِدْ موسى النَّصَبَ حَتَّى جاوَزَ الْمَكانَ الَّذِى أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ ﴿ قَالَ ﴾ له فَتاه : ﴿ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ قالَ : فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا ، وَلِمُوسَى وَلِفَتَاهُ عَجَبًا ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ قالَ : فَرَجَعَا يَقُصَّانِ أَثَرَهُما ، حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ ، فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى بِثَوْبٍ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى ، فَقَالَ الْخَضِرُ : وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ . قَالَ : أَنَا مُوسَى . قَالَ : مُوسَى بَنِى إِسْرَائِيلَ ؟ قَالَ: نَعَمْ ، أَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِى مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا . ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ ، يَا مُوسَى ، إِنِّى عَلَى عِلْمٍ مِن عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ اللَّهُ ، لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ ، وَأَنْتَ على عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكَهُ اللَّهُ لا أَعْلَمُهُ ، فَقَالَ موسى : ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾ . قال لهُ الْخَضِرُ : ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾

فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ على ساحلِ الْبَحْرِ ، فَمَرَّتْ سَفِينَةٌ ، فَكَلَّمَهُمْ أَن يَحْمِلُوهُمْ فَعَرَفُوا الخَضِرَ ، فَحَمَلُوهُمْ بِغَيْرِ نَوْلٍ ، فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ لم يَفْجَأْ إِلَّا والخَضِرُ قَدْ قَلَعَ لَوْحًا مِن أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ بالقَدُومِ ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى : قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ ، عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا ﴿ لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴾ » . قال : وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَكَانَتِ [١/١٨٥و] الأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا . قَالَ : وَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ على حَرْفِ السَّفِينَةِ ، فَنَقَرَ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً ، فَقَالَ لَهُ الخَضِرُ : مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ فِي عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مثلُ مَا نقص هذا الْعُصْفُورُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ . ثُم خرجا مِن السَّفِينَةِ ، فَبَيْنَمَا هُمَا يَمْشِيانِ عَلَى السَّاحِلِ ، إِذْ أَبْصَرَ الخَضِرُ غُلَامًا يَلْعَبُ مع الغِلْمَانِ ، فَأَخَذَ الخَضِرُ رَأْسَهُ بِيَدِهِ ، فاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ فَقَتَلَهُ ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴾ ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ قَالَ : وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الأُولَى ، ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ [1]قَال : مَائِلٌ . فقال الخَضِرُ بِيَدِهِ[1] ﴿ فَأَقَامَهُۥ ﴾ [2]فقالَ موسى : قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعِمُونا ، وَلَمْ يُضَيِّفُونَا[2] ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ » . قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَى كَانَ

(١- ١) سقط من : الأصل .

(٢- ٢) فى الأصل : « قال » .

صَبَرَ ، حَتَّى يَقُصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا ». قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : فَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقْرَأُ : (وَكَانَ أَمَامَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا). وكان يَقْرَأُ : (وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا وَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ).

ثم رواه البخاريُّ أيضًا عن قُتَيْبَةَ ، عن سُفيانَ بنِ عُيَيْنَةَ ، بإسنادِه نحوَه[1] . وفيه : « فَخَرَجَ مُوسَى ، وَمَعَهُ فَتَاهُ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ ، وَمَعَهُمَا الْحُوتُ ، حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ ، فَنَزَلَا عِنْدَهَا . قَالَ : فَوَضَعَ مُوسَى رَأْسَهُ فَنَامَ ». قال سفيانُ : وفى حديثِ غيرِ عمرٍو ، قال : « وَفِى أَصْلِ الصَّخْرَةِ عَيْنٌ يُقَالُ لَهَا : الْحَيَاةُ . لَا يُصِيبُ مِنْ مَائِهَا شَيْءٌ إِلَّا حَيِيَ ، فَأَصَابَ الْحُوتُ مِنْ مَاءِ تِلْكَ الْعَيْنِ ، قَالَ : فَتَحَرَّكَ ، وَانْسَلَّ مِنَ الْمِكْتَلِ ، وَدَخَلَ الْبَحْرَ ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ قال موسى لفتاه : آتنا غداءَنا ». كذا قال . وساقَ الحديثَ ، وقالَ : « وَوَقَعَ عُصْفُورٌ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ ، فَغَمَسَ مِنْقَارَهُ فِى الْبَحْرِ ، فَقَالَ الْخَضِرُ لِمُوسَى : مَا عِلْمِى وَعِلْمُكَ وَعِلْمُ الْخَلَائِقِ ، فِى عِلْمِ اللَّهِ ، إِلَّا مِقْدَارُ مَا غَمَسَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْقَارَهُ » وذَكَرَ تمامَ الحديثِ .

وقال البخاريُّ[2] : حدّثنا إبراهيمُ بنُ موسى ، حدّثنا هشام بنُ يوسفَ ، أنّ ابنَ جُرَيْجٍ أخبرَهم ، قال : أخبرنى يَعْلى بنُ مُسْلمٍ ، وعمرُو بنُ دينارٍ ، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ - [3]يزيدُ أحدُهما على صاحبِه ، وغيرُهما قد سَمِعْتُه يُحَدِّثُه عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ[3] - قال : إنّا لَعِنْدَ ابنِ عباسٍ فى بيتِه ، إذ قال : سَلُونى . فقلتُ : أىْ أبا عباسٍ ، جَعَلَنِى اللَّهُ فِداكَ ، بالكوفةِ رجلٌ قاصٌّ ، يُقالُ له : نوفٌ . يَزْعُمُ أنّه ليس بموسى بنى إسرائيلَ . أمّا عمرٌو فقال لى : قال : قد كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ .

---

(١) البخارى (٤٧٢٧).

(٢) البخارى (٤٧٢٦).

(٣ - ٣) سقط من : ح . وانظر معناه فى فتح البارى ٨/ ٤١٢.

وأمّا يَعْلَى، فقال لى[1] : قالَ ابنُ عباسٍ : حدَّثَنِى أُبَىُّ بنُ كَعْبٍ [١/١٨٥ظ] قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « مُوسَى رَسُولُ اللَّهِ، قال : ذَكَّرَ النَّاسَ يَوْمًا، حَتَّى إِذَا فَاضَتِ العُيونُ ورَقَّتِ القُلُوبُ، ولَّى، فأَدْرَكَه رجلٌ، فقال : أىْ رسولَ اللَّهِ، هَلْ فِى الأَرْضِ أَحَدٌ[2] أَعْلَمُ مِنْكَ؟ قَالَ : لَا . فعتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ؛ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَى اللَّهِ . قِيلَ : بَلَى . قَالَ : أَىْ رَبِّ، فَأَيْنَ؟ قَالَ : بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ . قَالَ : أَىْ رَبِّ، اجْعَلْ لِى[3] عَلَمًا أَعْلَمُ ذَلِكَ بِهِ . قال لى عَمْرٌو : قال : حَيْثُ يُفَارِقُكَ الْحُوتُ . وقال لى يَعْلَى : قَالَ : خُذْ حُوتًا[4] مَيِّتًا، حَيْثُ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَأَخَذَ حُوتًا، فَجَعَلَهُ فِى مِكْتَلٍ، فَقَالَ لِفَتَاهُ : لَا أُكَلِّفُكَ إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنِى بِحَيْثُ يُفَارِقُكَ الْحُوتُ . قَالَ مَا كَلَّفْتَ كَبِيرًا . فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ﴾ يُوشَعَ بنِ[5] نُونٍ - ليست عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ[6] - قَال : « فَبَيْنَمَا هُوَ فِى ظِلِّ صَخْرَةٍ، فِى مَكَانٍ ثَرْيَانَ[7] ؛ إِذْ تَضَرَّبَ الْحُوتُ، وَمُوسَى نَائِمٌ، فَقَالَ فَتَاهُ : لَا أُوقِظُهُ . حَتَّى إذا اسْتَيْقَظَ، نَسِىَ أَن يُخْبِرَه، وَتَضَرَّبَ الْحُوتُ حَتَّى دَخَلَ الْبَحْرَ، فَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنْهُ جِرْيَةَ الْبَحْرِ[8]، حَتَّى كَأَنَّ أَثَرَه فِى حَجَرٍ » . قال لى عمرٌو[9] : « هكذا كأَنَّ أثرَه فى[10] حَجَرٍ » وحَلَّقَ بينَ إبْهامَيْه واللَّتَيْنِ تَلِيانِهما . « ﴿ لَقَدْ

---

(١) سقط من : ص .
(٢) فى الأصل، ص : « رجل » .
(٣) سقط من : ح .
(٤) فى ح مكتوبٌ فوقها : « نونًا » . وهو لفظ إحدى روايات البخارى . انظر الفتح ٨/ ٤١٤ .
(٥) فى م : « بين » .
(٦) القائل هو ابن جريج . الفتح ٨/ ٤١٤ .
(٧) أى مبلول . الفتح ٨/ ٤١٤ .
(٨) فى الأصل، ح : « الماء » .
(٩) القائل هو ابن جريج . الفتح ٨/٤١٦ .
(١٠) سقط من : الأصل ، ص .

لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ » قال : « وَقَدْ قَطَعَ اللَّهُ عَنْكَ النَّصَبَ » ليستْ هذه عن سعيدٍ ، « أَخْبَرَهُ فَرَجَعَا ، فَوَجَدَا خَضِرًا ، قال لي عثمانُ بنُ أبي سليمانَ : « عَلَى طِنْفِسَةٍ[1] خَضْرَاءَ ، عَلَى كَبِدِ الْبَحْرِ » . قال سعيدٌ[2] : « مُسَجًّى بِثَوْبِهِ ، قَدْ جَعَلَ طَرَفَهُ تَحْتَ رِجْلَيْهِ ، وَطَرَفَهُ تَحْتَ رَأْسِهِ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ ، وَقَالَ : هَلْ بِأَرْضٍ مِنْ سَلَامٍ ؟ مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا مُوسَى . قَالَ : مُوسَى بَنِى إِسْرائِيلَ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : فَمَا شَأْنُكَ ؟ قَالَ : جِئْتُكَ لـ ﴿ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ قَالَ : أَمَا يَكْفِيكَ أَنَّ التَّوْرَاةَ بِيَدَيْكَ وَأَنَّ الْوَحْىَ يَأْتِيكَ ؟ يَا مُوسَى ، إِنَّ لِى عِلْمًا لَا يَنْبَغِى لَكَ أَنْ تَعْلَمَهُ ، وإِنَّ لَكَ عِلْمًا لَا يَنْبَغِى لِى أَنْ أَعْلَمَهُ ، فَأَخَذَ طَائِرٌ بِمِنْقَارِهِ مِنَ الْبَحْرِ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا عِلْمِى وَعِلْمُكَ فِى جَنْبِ عِلْمِ اللَّهِ ، إِلَّا كَمَا أَخَذَ هَذَا الطَّائِرُ بِمِنْقَارِه مِنَ الْبَحْرِ ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ ﴾ وَجَدَا مَعَابِرَ صِغارًا ، تَحْمِلُ أَهْلَ هَذَا السَّاحِلِ إِلَى أَهْلِ هَذَا السَّاحِلِ الآخَرِ ، عَرَفُوهُ ، فقالُوا : عَبْدُ اللَّهِ الصَّالِحُ ؟ » قال : فقلنا لسعيدٍ : خَضِرٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ . « لَا نَحْمِلُه بِأَجْرٍ فَخَرَقَهَا وَوَتَّدَ فيها وَتِدًا ﴿ قَالَ ﴾ مُوسَى : ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ – قال مُجاهدٌ : مُنْكَرًا[3] – ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ كَانَتِ الْأُولَى نِسْيَانًا ، والْوُسْطَى شَرْطًا ، والثَّالثةُ عَمْدًا ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ [١٨٦/١و] وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ۝٧٣ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ ﴾ » قال يَعْلَى : قال سَعيدٌ : وَجَدَ غِلْمانًا يلعبُون ، فَأَخَذَ غُلامًا كافِرًا ظَرِيفًا ، فَأَضْجَعَه ، ثُمَّ ذَبَحه بالسِّكِّينِ ﴿ قَالَ

---

(١) قال الحافظ في الفتح ٨/ ٤١٧: والطنفسة: فرش صغير. وهي بكسر الطاء والفاء بينهما نون ساكنة، وبضم الطاء والفاء، وبكسر الطاء وبفتح الفاء، لغات.

(٢) القائل هو ابن جريج. الفتح ٨/ ٤١٦.

(٣) هي رواية ابن جريج عن مجاهد. الفتح ٨/ ٤١٩.

أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ لم تعْمَلْ بالحَنْثِ[1] » . ابنُ عباسٍ قرَأَها : (زَكِيَّةً زَاكِيَةً مُسْلِمَةً) . كقولِكَ : غُلامًا زكيًّا[2] . فانطَلَقَا فوَجَدَا جِدارًا يُرِيدُ أن يَنقَضَّ فَأَقامه » ، قال[3] بيدِه هكذا ، ورَفَعَ يدَه فاسْتَقَامَ . قال يَعْلَى : حَسِبْتُ أن سعيدًا قال : « فمَسَحه بيدِه فاسْتَقَامَ ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ » . قال سعيدٌ : أجرًا نأكُله « ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم ﴾ » (وَكَانَ أَمَامَهُمْ) قرَأَها ابنُ عباسٍ . أمامَهم ﴿ مَّلِكٌ ﴾ يَزْعُمون عن غيرِ سَعيدٍ أنه هُدَدُ بنُ بُدَدَ ، والغلامُ المقتولُ يَزْعُمون : جَيْسُورُ[4] « ﴿ مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ ، فإذا هي مَرَّتْ به يدَعُها بعَيْبِها ، فإذا جاوَزُوا أصلَحُوها فانْتَفَعُوا بها . مِنهم مَن يقولُ : سَدُّوها بقارُورَةٍ . ومِنهم مَن يقولُ : بالقارِ . ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ وكان كافرًا ﴿ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَنًا وَكُفْرًا ﴾ » أي ؛ يَحْمِلَهما حُبُّه على أنْ يُتابِعَاه على دِينِه ، ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ لقولِه : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ وَ ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ هما به أرْحَمُ مِنهما بالأَوَّلِ ، الذي قَتَلَ خَضِرٌ . [5]وزعم غيرُ سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ أنَّهما أُبْدِلا جَارِيةً[5] ، وأمّا داودُ بنُ أبي عاصمٍ فقال عن غيرِ واحدٍ : إنَّها جَارِيَةٌ .

---

(١) كذا بالنسخ . وهي أحد ألفاظ روايات الصحيح . انظر متن صحيح البخاري ٦/ ١١٤.

(٢) هو تفسير من الراوي . يشير به إلى القراءتين ؛ قراءة ابن عباس وقراءة غيره . واختلف في ضبط « مسلمة » فالأكثر بسكون السين وكسر اللام . ولبعضهم بفتح السين وتشديد اللام المفتوحة . انظر الفتح ٨/ ٤١٩، ٤٢٠ .

(٣) بعده في صحيح البخاري : « سعيد » . والقائل هو ابن جريج .

(٤) في الأصل : « حيسور » . وهو لفظ إحدى روايات البخاري . والقائل هو ابن جريج . الفتح ٨/ ٤٢٠ .

(٥ - ٥) في الأصل ، ح : « وزعم عن سعيد بن جبير أنهما أبدلا جارية » . وفي م : « وزعم سعيد بن جبير ، أنه ابن لا جارية » . وفي ص : « وزعم سعيد بن جبير إنه ابن أبدلا جارية » . والمثبت من صحيح البخاري .

وقد رَواه عبدُ الرَّزّاقِ[1] ، عن مَعْمَرٍ ، عن أبى إسحاقَ ، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، قال : خَطَبَ مُوسَى بنى إسرائيلَ ، فقالَ : ما أَحَدٌ أَعْلَمُ باللَّهِ وبأَمْرِه مِنِّى . فأُمِرَ أنْ يَلْقَى هذا الرّجلَ . فذَكَر نحوَ ما تقدَّمَ .

وهكذا رواه محمدُ بنُ إسحاقَ[2] ، عن الحسنِ بنِ عُمارةَ ، عن الحكمِ بنِ عُتَيْبَةَ[3] ، عن سَعيدِ بنِ جُبَيْرٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، عن أُبَىِّ بنِ كَعْبٍ ، عن رسولِ اللَّهِ ﷺ كنَحْوِ ما تقدَّمَ أيضًا ، ورواه العَوفِىُّ[4] عنه موقوفًا .

وقال الزّهْرِىُّ[5] ، عن عبيدِ اللَّهِ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ عتبةَ ، عن ابنِ عباسٍ ، أنَّه تمارَى هو والحرُّ بنُ قَيْسِ بنِ حِصنٍ الفَزارِىُّ ، فى صاحبِ موسى ، فقال ابنُ عباسٍ : هو خَضِرٌ . فمرَّ بهما أُبَىُّ بنُ كَعْبٍ ، فدعاه ابنُ عباسٍ ، فقال : إنِّى تَمارَيْتُ أنا وصاحِبِى هذا ، فى صاحبِ موسى الذى سأَلَ السَّبيلَ إلى لُقِيِّهِ ، فهل سَمِعْتَ مِن رسولِ اللَّهِ فيه شيئًا ؟ قال : نَعَمْ . وذَكَرَ الحديثَ ، وقد تَقَصَّيْنَا طُرُقَ هذا الحديثِ ، وألفاظَه فى تفسيرِ سورةِ الكَهْفِ ، ولِلَّهِ الحمدُ والمِنَّةُ[6] .

وقولُه : ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى [١٨٦/١ظ] ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا

---

(١) عبد الرزاق فى تفسيره ٢/ ٤٠٥.
(٢) رواه ابن جرير من طريق ابن إسحاق به . تفسير ابن جرير ١٥/ ٢٧٩. تاريخه ١/ ٣٧٢.
(٣) فى الأصل ، م ، ص : «عيينة» .
(٤) فى الأصل : «البغوى» . والأثر فى التفسير ٥/ ١٧٦.
(٥) رواه ابن جرير من طريق الزهرى به . تفسير ابن جرير ١٥/ ٢٨٢.
(٦) التفسير ٥/ ١٧٢- ١٧٧.

﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ قال السُّهَيْلِيُّ[1]: وهما أصرمُ وصريمٌ، ابنا كاشحَ.

﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ قِيل: كان ذَهَبًا. قاله عِكْرِمَةُ، وقِيل: عِلْمًا. قاله ابنُ عباسٍ، والأَشْبَهُ أنّه كان لَوْحًا مِن ذَهَبٍ، مكتوبًا فيه عِلْمٌ[2].

قال البَزّارُ[3]: حدّثنا إبراهيمُ بنُ سعيدٍ الجَوْهَرِيُّ، حدّثنا بِشْرُ بنُ المُنْذِرِ، حدّثنا الحارثُ بنُ عبدِ اللَّهِ اليَحْصُبِيُّ، عن عياشِ بنِ عباسٍ الغَسّانيِّ، عن ابنِ حُجَيرةَ، عن أبى ذَرٍّ، رَفَعَه، قال: «إنّ الكَنْزَ الذى ذَكَرَ اللَّهُ فى كتابِه لَوْحٌ مِن ذَهَبٍ مُصْمَتٍ: عَجِبْتُ لمَنْ أيقنَ بالقَدَرِ، كَيْفَ نَصِبَ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ ذَكَرَ النّارَ[4] ثُم ضَحِكَ، وعَجِبْتُ لِمَنْ ذَكَرَ المَوْتَ ثُم غَفَلَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وهكذا رُوِىَ عن الحسنِ البَصْرِىِّ، وعمرَ مولى غُفْرَةَ[5]، وجَعْفَرٍ الصّادقِ، نحوُ هذا[6]. وقولُه: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾. وقد قِيل: إنّه كان الأَبَ السّابعَ، وقِيل: العاشرَ. وعلى كلِّ تقديرٍ، فيه دَلالةٌ على أنّ الرَّجُلَ الصّالحَ يُحْفَظُ فى ذُرِّيَّتِه، فاللَّهُ المستعانُ.

وقولُه: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ دليلٌ على أنّه كان نَبِيًّا، وأنّه ما فعلَ شيئًا مِن تِلقاءِ نفسِه، بل بأمرِ ربِّه، فهو نَبِيٌّ، وقِيل: رسولٌ. وقيل: وَلِيٌّ. وأَغْرَبُ

---

(١) التعريف والإعلام ص ١٩٣.

(٢) التفسير ٥/ ١٨٢.

(٣) كشف الأستار (٢٢٢٩). وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٧/ ٥٤: رواه البزار من طريق بشر بن المنذر عن الحارث بن عبد الله اليحصبى ولم أعرفهما، وبقية رجاله ثقات.

(٤) سقط من: الأصل.

(٥) فى ح، م، ص: «عفرة». وانظر التقريب ٢/ ٥٩.

(٦) رواها ابن جرير فى تفسيره عن الحسن وعمر وجعفر ١٦/ ٥، ٦.

مِن هذا مَن قال: كان مَلَكًا. [1]قلتُ: وقد أَغْرَبَ جِدًّا مَن قال: هو ابنُ فِرْعَوْنَ. وقِيل: إنَّه ابنُ ضَحَّاكٍ الذى مَلَكَ الدّنيا ألفَ سنةٍ. قال ابنُ جَريرٍ[2]: والذى عليه جُمهورُ أهلِ الكتابِ، أنّه كان فى زَمَنِ أفريدونَ. ويُقالُ: إنّه كان على مُقَدِّمَةِ ذى القَرْنَيْنِ، الذى قِيل: إنّه كان أفريدونَ، وذُو الفرسِ هو الذى كان فى زَمَنِ الخليلِ. وزَعَمُوا أنّه شَرِبَ مِن ماءِ الحياةِ، فَخَلَدَ، وهو باقٍ إلى الآنَ. وقيل: إنّه مِن وَلَدِ بعضِ مَنْ آمَنَ بإبراهيمَ وهاجَرَ معه مِن أرضِ بَابِلَ. وقِيل: اسْمُه ملكانُ. وقِيل: أرميا بنُ حلقيا. وقِيل: كان نبيًّا فى زَمَنِ سباسبَ ابنِ لهراسبَ. قال ابنُ جَريرٍ: وقد كان بينَ أفريدونَ وبينَ سباسبَ دُهُورٌ طويلةٌ، لا يَجْهَلُها أحدٌ مِن أهلِ العلمِ بالأنسابِ[3]. قال ابنُ جَريرٍ: والصّحيحُ أنّه كان فى زَمَنِ أفريذُونَ، واستمرّ حيًّا إلى أنْ أَدْرَكَه موسى، عليه السّلامُ، وكانت نُبُوَّةُ موسى فى زَمَنِ منُوشِهْرَ، الذى هو مِن وَلَدِ إيرَجَ بنِ أفريذُونَ، أحدِ ملوكِ الفُرْسِ، وكان إليه المُلْكُ بعد جَدِّه أفريدونَ لعهدِه، وكان عادلًا، وهو أَوَّلُ مَن خَنْدَقَ الخَنادِقَ، وأوّلُ مَن جَعَلَ فى كلِّ قريةٍ دِهْقانًا، وكانت مدَّةُ مُلْكِه قريبًا مِن مائةٍ وخمسين سنةً[4]. ويُقالُ: إنّه كان مِن سُلالةِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ. وقد ذُكِرَ عنه مِن الخُطَبِ الحِسانِ، والكَلِمِ البَليغِ النّافعِ الفَصيحِ، ما يَبْهَرُ العقلَ، ويُحَيِّرُ السّامعَ، وهذا يدلُّ على أنّه مِن سُلالةِ الخليلِ. واللّهُ أعلمُ.[1]

وقد قالَ اللّهُ تعـالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم

(١ - ١) سقط من: الأصل، ح.

(٢) تاريخ الطبرى ١/ ٣٦٥.

(٣) تاريخ الطبرى ١/ ٣٦٦.

(٤) تاريخ الطبرى ١/ ٣٧٦.

(١ ﴿مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ [آل عمران: ٨١].

فأخذَ اللَّهُ ميثاقَ كلِّ نبيٍّ على أنْ يُؤْمِنَ بمَنْ يَجِيءُ بعدَه مِن الأنبياءِ، ويَنْصُرَه، فلو كان الخَضِرُ حيًّا فى زمانِه، لَمَا وَسِعَه إلا اتِّباعُه، والاجتماعُ به، والقيامُ بنَصْرِه، ولكان مِن جُمْلةِ مَن تحتَ لوائِه يومَ بَدْرٍ، كما كان تحتَها جِبْرِيلُ وسَاداتٌ مِن الملائكةِ، وقُصارَى الخَضِرِ، عليه السّلامُ، أنْ يكونَ نبيًّا، وهو الحقُّ، أو رسولًا، كما قِيل، أو مَلِكًا فيما ذُكِرَ، وأيًّا ما كان، فجِبْرِيلُ رئيسُ الملائكةِ، وموسى أشرفُ مِن الخَضِرِ، ولو كان حَيًّا لوَجَبَ عليه الإيمانُ بمحمدٍ، ونُصْرتُه، فكَيْفَ إن كان الخَضِرُ وَلِيًّا، كما يقولُه طوائفُ كثيرون، فأَوْلَى أنْ يَدْخُلَ فى عُمومِ البَعْثَةِ، وأَحْرَى.

ولم يُنْقَلْ فى حديثٍ حسنٍ، بلْ ولا ضَعِيفٍ يُعتَمَدُ، أنَّه جاء يومًا واحدًا إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ، ولا اجتمعَ به، وما ذُكِرَ مِن حديثِ التَّعْزِيَةِ فيه، وإن كان الحاكِمُ قَدْ رَوَاهُ، فإسنادُه ضعيفٌ[٢]. واللَّهُ أعلمُ. وسنُفْرِدُ لِخَضِرِ ترجمةً على حِدَةٍ بعدَ هذا١).

(١ - ١) سقط من: الأصل، ح.
(٢) الحاكم فى المستدرك ٣/ ٥٨. وسيرد فى الصفحة ٢٥٧.

ذِكرُ الحديثِ المُلقَّبِ بحديثِ الفُتُونِ المتَضمنِ قِصّةَ موسى مبسوطةً مِن أوَّلِها إلى آخرِها

قال الإمامُ أبو عبدِ الرَّحمنِ النَّسائىُّ، فى كتابِ التَّفسيرِ مِن سُنَنِه[1]، عندَ قولِه تعالى فى سورةِ «طه»: ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾.

(حديث الفتون):

حدّثنا عبدُ اللَّهِ بنُ محمدٍ، حدّثنا يَزيدُ بنُ هارُونَ، أنبأنا أَصْبَغُ بنُ زَيدٍ، حدّثنا القاسمُ بنُ أبى أيوبَ، أخبرنى سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، قال: سألتُ عبدَ اللَّهِ بنَ عباسٍ عن قولِ اللَّهِ تعالى لموسى[2]: ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾. فسألتُه عن الفُتونِ: ما هو؟ فقال: اسْتَأْنِفِ النَّهارَ يا بنَ جُبَيْرٍ، فإنّ لها حَدِيثًا طويلًا. فلمّا أَصْبَحْتُ، غَدَوْتُ إلى ابنِ عباسٍ؛ لأنْتَجِزَ منه ما وَعَدَنى مِن حديثِ الفُتونِ، فقال: تذاكَرَ فِرعونُ وجُلساؤُه ما كان اللَّهُ وعَد إبراهيمَ، عليه السّلامُ، أن يَجْعَلَ فى ذُرِّيَّتِه أنْبياءَ ومُلوكًا، فقال بَعضُهم: إنَّ بنى إسرائيلَ يَنتظِرُون ذلك، ما يَشُكُّون فيه، وكانوا يَظُنُّون أنّه يوسفُ بنُ يعقوبَ، فلمَّا هَلَكَ، قالوا: ليس هكذا كان[3] وعدُ إبراهيمَ. فقال فرعونُ: فكيفَ تَرَوْن؟ فائْتَمَرُوا، وأجْمَعُوا أمْرَهم على أنْ يَبْعَثَ رِجالًا مَعهم الشِّفارُ، يطوفون فى بنى إسرائيلَ، فلا يَجِدُون مَوْلودًا ذَكَرًا

---

(١) النسائى فى الكبرى (١١٣٢٦).
(٢) زيادة من: الأصل، ص.
(٣) ليست فى: الأصل.

إلا ذَبَحُوه ، [١٨٧/١و] ففعلُوا ذلك ، فلمَّا رَأَوْا أنّ الكِبارَ مِن بنى إسرائيلَ يموتون بآجالِهم ، والصِّغارَ يُذْبَحُون ، قالوا : تُوشِكُون أنْ تُفْنُوا بنى إسرائيلَ ، فتَصيرُوا إلى أن تُباشِرُوا مِن الأعْمالِ والخِدْمةِ ، الذى كانوا يَكْفُونَكم ، فاقتلُوا عامًا كلَّ مولودٍ ذَكَرٍ ، فيقِلَّ نباتُهم[1] ، ودَعُوا عامًا فلا تَقْتُلُوا مِنهم أحدًا فيَشِبَّ الصِّغارُ مكانَ مَن يموتُ مِن الكبارِ ، فإنَّهم لن يكْثُرُوا بمَنْ تستَحْيُون مِنهم ، فتخافُوا مُكاثَرَتَهم إيَّاكم ، ولن يَفْنَوْا[2] بِمَن تَقْتلُون ، وتحْتاجُون إليهم . فأجْمَعُوا أمرَهم على ذلك ، فحَمَلَتْ أمُّ موسى بهارونَ فى العامِ الذى لا يُذْبَحُ فيه الغِلْمانُ ، فولدتْه عَلانِيَةً آمِنَةً . فلمَّا كان مِن قَابِلٍ ، حَمَلَتْ بموسى ، عليه السّلامُ ، فوَقَعَ فى قَلْبِها الهمُّ والحزْنُ - وذلك مِن الفُتُونِ يا بنَ جُبَيْرٍ - ما دخلَ عليه فى بطنِ أمِّه مِمَّا يُرادُ به[3] ؛ فأَوْحَى اللَّهُ إليها : أن لا تخافِى ولا تحْزَنِى ، إنّا رادُّوه إليكِ ، وجاعِلُوه مِن المُرْسَلين . فأَمَرَها إذا وَلَدَتْ أَن تجعَلَه فى تابوتٍ ، وتُلْقِيَه فى اليَمِّ ، فلمَّا وَلَدَتْ فعلتْ ذلك ، فلمّا توارَى عنها ابنُها ، أتاها الشّيطانُ ، [4]فقالتْ فى نفسِها[4] : ما فعلْتُ بابْنِى ؟ لو ذُبِحَ عندِى فَوارَيْتُه وكَفَّنْتُه ، كان أحبَّ إليَّ مِن أن أُلْقِيَه إلى دَوابِّ البحرِ وحِيتانِه . فانتهى الماءُ به حتى أوْفَى به عندَ فُرْضَةِ[5] ، [6]تَسْتَقِى منها[6] جوارِى امْرَأةِ فِرْعَوْنَ ، فلمّا رأَيْنَه أَخَذْنَه ، فهَمَمْنَ أنْ يَفْتَحْنَ

---

(١) فى الأصل، ح، م: «بناتهم». وفى ص: «أبناؤهم». وكذا فى التفسير. والمثبت من سنن النسائى.

(٢) فى ح، م: «تفتنوا». وفى ص: «يفتتوا».

(٣) زيادة من: ص.

(٤ - ٤) سقط من: ح.

(٥) فرضة النهر: مشرب الماء منه.

(٦ - ٦) فى سنن النسائى: «مستقى».

التّابوتَ ، فقال بعضُهنّ : إنّ فى هذا مالًا ، وإنا إن فتحْناه ، لم تصدِّقْنا امرأةُ المَلِكِ بما وَجَدْنا فيه ، فحَمَلْنه كهَيْئتِه لم يُخْرِجْن منه شيئًا حتى دَفَعْنَه إليها ، فلمّا فتَحَتْه رَأَتْ فيه غُلامًا ، فأُلْقِىَ عليه منها مَحَبَّةٌ ، لم تُلْقَ مِنها على أحدٍ قطُّ ، وأصبحَ فؤادُ أمِّ موسى فارِغًا مِن ذِكْرِ كلِّ شىءٍ، إلا مِن ذِكْرِ موسى ، فلمّا سَمِع الذبَّاحُون بأمرِه ، أَقْبَلُوا بشِفارِهم إلى امرأةِ فِرْعونَ ؛ ليَذْبَحُوه - وذلك مِن الفُتُونِ يا بنَ جُبَيْرٍ - فقالت لهم : أَقِرُّوه ، فإنَّ هذا الواحدَ لا يَزِيدُ فى بنى إسرائيلَ ، حتى آتِىَ فرعونَ ، فأَسْتَوْهِبَه مِنه ، فإن وَهَبَه لى[1] ، كنتُم قد أحسنتُم وأجمَلْتُم ، وإن أَمَرَ بذَبْحِه ، لم أَلُمْكم . فأَتَتْ فرعونَ ، فقالت : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ [القصص : ٩] . فقال فرعونُ : يكونُ لكِ ، فأمّا لى ، فلا حاجةَ لى فيه[2] . فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « وَالَّذِى يُحْلَفُ به ، لو أَقَرَّ فِرْعَوْنُ أنْ يَكُونَ لَه قُرَّةَ عَيْنٍ كما أقَرَّتِ امْرَأَتُه ، لَهَدَاه اللَّهُ كما هَدَاهَا ، وَلكِنَّ اللَّهَ حَرَمَه ذلك » . فأرْسلَتْ إلى مَن حولَها ، إلى كلِّ امرأةٍ لها لَبَنٌ[3] ، تختارُ له ظِئْرًا ، فجعلَ كلّما أَخَذَتْه امرأةٌ مِنهنَّ لتُرْضِعَه ، لم يُقْبِلْ على ثَدْيِها ، حتى أَشْفَقَتِ امرأةُ فِرْعونَ أنْ يمتنِعَ مِن اللَّبَنِ فيموتَ ، فأحزَنَها ذلك فأمرتْ به ، فأُخْرِجَ إلى السّوقِ ومَجْمَعِ النّاسِ [١/ ١٨٧ظ] ترجو أن تجِدَ له ظِئْرًا تأْخُذُهُ مِنها ، فلم يَقبلْ ، وأصبحتْ أمُّ موسى والِهًا ، فقالتْ لأختِه : قُصِّى أثَرَه ، واطلُبِيه ، هل تَسْمَعِين له ذِكْرًا ؟ أحىٌّ ابْنى ، أم أكَلَتْه الدّوابُّ ؟ ونَسِيَتْ ما كان اللَّهُ وَعَدَها فيه ، فبَصُرَتْ به أختُه عن جُنُبٍ - والجُنُبُ ؛ أن يَسْمُوَ بصرُ الإنسانِ إلى شَىْءٍ بعيدٍ ، وهو إلى جَنْبِه لا

---

(١) فى النسخ : « منى » . والمثبت من سنن النسائى .

(٢) زيادة من : النسخ .

(٣) فى النسخ : « لأن » . والمثبت من سنن النسائى .

يَشْعُرُ به - فقالت مِن الفرَحِ ، حينَ أعياهم الظُّؤُوراتُ : أنا أَدُلُّكم على أهلِ بيتٍ يَكْفُلُونه لكم ، وهم له ناصحون . فأخَذُوها[1] فقالوا : ما يُدرِيكِ ما نُصْحُهم ؟ هل تَعْرِفُونَه ؟ حتى شَكُّوا فى ذلك - وذلك مِن الفُتونِ يابنَ جُبَيْرٍ - فقالت : نُصْحُهم له وشَفَقَتُهم عليه ، رَغْبَتُهم[2] فى صِهْرِ المَلِكِ ، ورجاءُ مَنْفعةِ المَلِكِ . فأرسلُوها ، فانطلقتْ إلى أمِّها ، فأَخْبَرَتْها الخبرَ ، فجاءتْ أمُّه ، فلمّا وَضَعَتْه فى حِجْرِها نَزا إلى ثَدْيِها ، فمصَّه حتى امتلأَ جَنْباه رِيًّا ، وانطلقَ البَشِيرُ إلى امرأةِ فرعونَ يُبَشِّرُونها أن قد وَجَدْنا لابنِك ظِئْرًا ، فأَرْسَلَتْ إليها ، فأتتْ بها وبه . فلمّا رَأَتْ ما يَصنعُ بها ، قالت : امْكُثِى تُرْضِعِى ابنى هذا ؛ فإنّى لم أُحِبَّ شيئًا حُبَّه قَطُّ . قالت أمُّ موسى : لا أسْتطيعُ أن أترُكَ بيتى وولدِى فيَضِيعَ ، فإن طابتْ نفسُك أنْ تُعْطِينِيه ، فأذْهبَ به إلى بيتى فيكونَ معى لا آلُوه خيرًا ، فَعَلْتُ ، فإنّى غيرُ تاركةٍ بيتى وولَدِى . وذَكَرَتْ أمُّ موسى ما كان اللَّهُ وَعَدَها ، فتعاسَرَتْ على امرأةِ فرعونَ ، وأيقنَتْ أنَّ اللَّهَ مُنْجِزٌ مَوْعودَه ، فرجعَتْ إلى بيتِها مِن يومِها ، وأنبته اللَّهُ نباتًا حَسَنًا ، وحَفِظَه لِما قد قَضَى فيه ، فلم يَزَلْ بنو إسرائيلَ ، وهم فى ناحيةِ القريةِ ، مُمتنِعِين مِن السُّخْرَةِ والظُّلْمِ ما كان فيهم ، فلمّا تَرَعْرَعَ ، قالتِ امرأةُ فرعونَ لأُمِّ موسى : أَرِينى ابنى . فوَعَدَتْها يومًا تُرِيها إيّاه فيه ، وقالتِ امرأةُ فرعونَ لخُزّانِها وظُؤُورِها وقَهارِمَتِها[3] : لا يَبْقَيَنَّ أحدٌ مِنكم إلا استقبلَ ابنىَ اليومَ بهَدِيّةٍ وكرامةٍ ؛ لأرى ذلك فيه ، وأنا باعثةٌ أمينًا يُحصِى كلَّ ما يَصْنَعُ كلُّ إنسانٍ مِنكم . فلم تَزَلِ الهدايا والكرامةُ والنُّحَلُ تستَقبلُه مِن حينَ خرَجَ مِن بيتِ

---

(١) زيادة من : ص .

(٢) فى الأصل : « فى رغبتهم » . وفى ح ، م : « ورغبتهم » .

(٣) قهارمتها جمع قهرمان ؛ وهو أمين الملك ووكيله الخاص بتدبير دخله وخرجه . وهو فارسى معرب .

أمّه ، إلى أن دخَل على امرأةِ فِرعونَ ، فلمّا دخَل عليها نحَلَتْه ، وأكرمَتْه وفرِحَتْ به ، ونَحَلَتْ أمَّه بحُسْنِ أَثَرِها عليه ، ثُم قالت : لآتِيَنَّ به[1] فرعونَ ، فَلَيَنْحَلَنَّه ، ولَيُكْرِمَنَّه . فلمّا دخلتْ به عليه ، جعَله فى حِجْرِه ، فتناولَ موسى لِحْيَةَ فرعونَ فمدَّها إلى الأرضِ ، فقال الغُواةُ مِن أعداءِ اللَّهِ لفرعونَ : ألا تَرَى ما وَعَد اللَّهُ إبراهيمَ نبيَّه ، أنّه زَعَم أنْ يَرِثَك[2] ويَعْلُوَك ، ويَصْرَعَك ؟ فأَرْسَلَ إلى الذّبّاحِين لِيَذْبَحُوه - وذلك مِن الفُتونِ يابنَ جُبَيْرٍ ، بعدَ كلِّ بلاءٍ ابْتُلِىَ به [١/١٨٨و] وأُرِيدَ به فُتُونًا - فجاءَتِ امرأةُ فرعونَ تَسْعَى إلى فرعونَ ، فقالت : ما بدا لكَ فى هذا الغلامِ الذى وَهَبْتَه لى ؟ فقال : ألا تَرَيْنَه يَزْعُمُ أنَّه يَصْرَعُنى ويَعْلُونى ؟ فقالت : اجعلْ بينى وبينَك أمرًا تَعْرِفُ فيه الحقَّ ؛ ائتِ بجَمْرَتَيْنِ ، ولُؤْلُؤَتَيْنِ ، فقَرِّبْهنّ إليه ، فإن بَطَش باللُّؤْلُؤَتَيْنِ واجْتَنَبَ الجَمْرَتَيْنِ ، عَرَفْتَ أنّه يَعْقِلُ . وإن تناولَ الجَمْرتَيْنِ ، ولم يُرِدِ اللُّؤْلُؤَتَيْنِ ، عَلِمْتَ أنّ أحدًا لا يُؤْثِرُ الجَمْرَتَيْنِ على اللُّؤْلُؤَتَيْنِ وهو يَعْقِلُ . فقَرَّبَ إليه ، فتناوَل الجَمْرَتَيْنِ ، فانْتَزَعَهما مِنه مخافَةَ أنْ يَحْرِقا يدَه ، فقالتِ المرأةُ : ألا تَرَى ؟ فصَرَفَه اللَّهُ عنه ، بعدَ ما كان هَمَّ به ، وكان اللَّهُ بالِغًا فيه أمرَه ، فلمَّا بَلَغَ أَشُدَّه ، وكان مِن الرِّجالِ ، لم يكنْ أحدٌ مِن آلِ فرعونَ يَخْلُصُ إلى أحدٍ مِن بنى إسرائيلَ معه ، بظُلْمٍ ولا سُخْرَةٍ ، حتى امتنعُوا كلَّ الامتناعِ ، فبينَما موسى ، عليه السّلامُ ، يمشى فى ناحيةِ المدينةِ ، إذ هو برَجُلَيْنِ يَقْتَتِلان ، أحدُهما فِرْعَوْنِىٌّ ، والآخَرُ إسرائيلىٌّ ، فاسْتَغاثَه الإسرائيلىُّ على الفِرْعَوْنِىِّ ، فغضِب موسى غضبًا شديدًا ؛ لأنّه تناولَه ، وهو يعلمُ منزلتَه مِن بنى

---

(١) زيادة من : النسخ .

(٢) فى ح ، م : « يرثك » . وفى ص : « بترك » .

إسرائيلَ ، وحِفْظَه لهم (١لا يَعْلَمُ الناسُ إلَّا أنَّه مِن الرَّضاعِ إلَّا أُمُّ مُوسى ، إلَّا أن يكونَ اللَّهُ أطْلَعَ مُوسى مِن ذلك عَلى١) ما لم يُطْلِعْ عليه غيرَه ، فوَكَزَ موسى الفِرْعونيَّ ، فقتلَه ، وليس يراهما أحدٌ إلا اللَّهُ ، عزَّ وجلَّ ، والإسرائيليَّ ، فقال موسى حينَ قتَلَ الرَّجلَ : ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ ثم قال : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [القصص: ١٥، ١٦] . فأَصْبحَ فى المدينةِ خائفًا يَتَرَقَّبُ الأخبارَ ، فأُتِىَ فرعونُ ، فقيل له : إنّ بنى إسرائيلَ قَتلُوا رجلًا مِن آلِ فِرْعونَ ، فخُذْ لنا بحقِّنا ، ولا تُرخِّصْ لهم . فقال : ابْغُونى قاتلَه ، مَنْ يشهدُ عليه ؟ فإنّ المَلِكَ ، وإن كان صَفْوُه مع قومِه ، لا يَسْتَقِيمُ له أن يُقِيدَ بغيرِ بيِّنَةٍ ولا ثَبَتٍ ، فاطْلُبُوا لى عِلْمَ ذلك ، آخُذْ لكم بحقِّكُم . فبينَما هم يَطوفُونَ لا يَجِدون بيِّنَةً ، إذا موسى مِن الغَدِ قد رأى ذلك الإسرائيليَّ ، يقاتِلُ رجلًا مِن آلِ فرعونَ آخَرَ ، فاسْتَغاثَه الإسْرائيليُّ على الفِرعونيِّ ، فصادفَ موسى قد نَدِم على ما كان مِنه ، وكَرِه الذى رأى ، فغَضِبَ الإسرائيليُّ ، وهو يريدُ أن يَبْطِشَ بالفِرْعَونيِّ ، فقال للإسرائيليِّ ، لِمَا فَعَل بالأمسِ واليومِ : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص: ١٨] . فَنَظَرَ الإسرائيليُّ إلى موسى ، بعد ما قالَ له ما قال ، فإذا هو غَضْبانُ كغَضَبِه بالأمسِ ، الذى قَتَل فيه الفِرْعونيَّ ، فَخَافَ أن يكونَ بعدَ ما قال له : إنّك لَغَوِىٌّ مُبِينٌ [١٨٨/١ظ] . أن يكونَ إيَّاه أرادَ ، ولم يَكُنْ أرادَه ، إنّما أرادَ الفِرْعونيَّ ، فخاف الإسرائيليُّ ، وقالَ : يا موسى ، أتريدُ أنْ تَقْتُلَنى كما قَتَلْتَ نفسًا بالأمسِ ؟ وإنّما قال له ؛ مخافةَ أنْ يكونَ إيَّاه أرادَ موسى ليقتلَه ، فتتارَكَا ،

(١- ١) زيادة من : الأصل .

وانْطَلَقَ الفِرْعونيُّ، فأَخْبَرَهم بما سَمِعَ مِن الإسرائيليِّ مِن الخبرِ، حينَ يقولُ: أتريدُ أنْ تَقْتُلَنى كما قَتَلْتَ نفسًا بالأمسِ؟ فأرسلَ فرعونُ الذَّبّاحين ليقتلُوا موسى، فأَخَذ رُسُلُ فِرْعونَ الطّريقَ الأَعْظَمَ، يَمْشُون على هِينَتِهم[1] يطلُبُون موسى، وهم لا يخافُون أن يفوتَهم، فجاء رجلٌ مِن شِيعةِ موسى، مِن أقْصى المدينةِ، فاختصرَ طريقًا حتى سَبَقَهم إلى موسى فأَخْبَرَه - وذلك مِن الفُتُونِ يا بنَ جُبَيْرٍ - فخرَج موسى مُتَوَجِّهًا نحوَ مَدْيَنَ، لم يَلْقَ بلاءً قبلَ ذلك، وليس له بالطّريقِ علمٌ إلَّا حُسْنُ ظَنِّه بربِّه، عزَّ وجلَّ، فإنه قال: ﴿ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ [القصص: ٢٢، ٢٣]. يعنى بذلك حابِسَتَيْنِ غَنَمَهما، فقال لهما: ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ مُعْتَزِلَتَيْنِ، لا تَسْقِيانِ مع النّاسِ؟ قالتا: ليس لنا قوةٌ نزاحِمُ القومَ، وإنّما ننتظِرُ فُضُولَ حِياضِهم. فسقَى لهما، فجعلَ يَغْرِفُ مِن الدَّلْوِ ماءً كثيرًا، حتى كان أولَ الرِّعاءِ، وانصرَفَتا بغنمِهما إلى أبيهما، وانْصَرَفَ موسى، فاسْتَظَلَّ بشَجَرَةٍ، ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٤]. واسْتَنْكَرَ أبوهما سُرْعَةَ صُدورِهما بغَنَمِهما حُفَّلًا بِطانًا، فقال: إنَّ لكما اليومَ لَشَأْنًا. فأخبرَتاه بما صَنَع موسى، فأَمَر إحداهما أنْ تدعُوَه، فأَتَتْ موسى فدَعَتْه، فلمّا كَلَّمه قال: ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٢٥] ليس لفرعونَ ولا لِقومِه علينا مِن سلطانٍ، ولسنا فى مَمْلَكَتِه ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص: ٢٦]. فاحْتَمَلَتْه الغَيْرَةُ على

---

(١) فى سنن النسائى: «هيئتهم». وعلى هينتهم أى على رِسْلهم.

أن قال لها : ما يُدْرِيكِ ما قُوَّتُه ، وما أمانتُه ؟ فقالت : أمّا قوّتُه فما رأيتُ منه فى الدَّلْوِ حين سَقَى لنا ، لم أرَ رَجُلًا قَطُّ أَقْوَى فى ذلك السَّقْيِ منه ، وأمَّا الأمانةُ فإنه نظَر إلىَّ حينَ أقبلْتُ إليه ، وشَخَصْتُ له ، فلمّا عَلِمَ أنّى امرأةٌ صَوَّب رأسَه ، فلم يَرْفَعْه حتى بَلَّغْتُه رسالَتَك ، ثم قال لى : امشِى خَلْفِى ، وانْعَتِى لىَ الطّريقَ . فلم يفعلْ هذا إلا وهو أمينٌ . فسُرِّىَ عن أبيها ، وصدَّقها ، وظنَّ به الذى قالت ، فقال له : هل لك ﴿ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [القصص: ٢٧] . ففعل ، فكانت على نبىِّ اللَّه موسى ثمانى سنينَ واجبةً ، وكانت السَّنتان عِدَةً منه [١٨٩/١و] ، فقضى اللَّهُ عنه عِدَتَه ، فأَتَمَّهَا عَشْرًا .

قال سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ : فلَقِيَنِى رجلٌ مِن أهلِ النَّصْرانيَّةِ ، مِن علمائِهم ، قال : هل تَدْرِى أَىَّ الأجلَيْنِ قَضَى موسى ؟ قلتُ : لا . وأنا يَوْمَئِذٍ لا أَدْرِى ، فلقِيتُ ابنَ عباسٍ ، فذكرتُ ذلك له فقال : أما عَلِمْتَ أنَّ ثمانيةً كانت على نبىِّ اللَّهِ واجبةً ؟ لم يَكُنْ نبىُّ اللَّهِ لِيَنْتَقِصَ منها شيئًا وتعلمُ أنَّ اللَّهَ كان قاضِيًا عن موسى عِدَتَه التى وَعَدَه ، فإنّه قَضَى عَشْرَ سنينَ . فلَقِيتُ النَّصْرانىَّ ، فأخبرْتُه ذلك ، فقال : الذى سألتَه فأخبرَك أعلمُ مِنك بذلك . قلتُ : أَجَلْ ، وأَوْلَى .

فلمّا سار موسى بأهلِه ، كان مِن أمرِ النّارِ ، والعصا ، ويدِه ، ما قصَّ اللَّهُ عليك فى القرآنِ ، فشكا إلى اللَّهِ تعالى ما يتخوَّفُ مِن آلِ فِرعونَ فى القتيلِ ، وعُقْدَةَ لِسانِه ، فإنّه كان فى لسانِه عُقْدةٌ تمنعُه مِن كثيرٍ مِن الكلامِ ، وسأل ربَّه أنْ يُعينَه بأخيه هارونَ ، يكونُ له رِدْءًا ويتكلمُ عنه بكثيرٍ مما لا يُفْصِحُ به لسانُه ،

فآتاه اللَّهُ، عزَّ وجلَّ، سُؤْلَه[1] وحَلَّ عُقْدَةً مِن لسانِه، وأَوْحَى اللَّهُ إلى هارونَ، فأَمَره أنْ يَلْقاه، فانْدَفَعَ موسى بعصَاه حتى لَقِيَ هارونَ، فانطلقا جميعًا إلى فِرْعَوْنَ، فأقاما على بابِه حِينًا لا يُؤْذَنُ لهما، ثم أُذِنَ لهما بعدَ حِجابٍ شديدٍ، فقالا: إنَّا رسولا ربِّك. فقال: فَمَن رَبُّكما؟ فأَخْبَرَه بالذى قَصَّ اللَّهُ عليكَ فى القرآنِ، قال: فما تُريدان؟ وذكَّره القتيلَ، فاعْتَذَرَ بما قد سَمِعْتَ، قال: أُريدُ أن تُؤْمِنَ باللَّهِ، وتُرْسِلَ مَعِى بنى إسرائيلَ. فأبَى عليه، وقال: ائتِ بآيةٍ إن كنتَ مِن الصَّادقين. فألْقَى عصاه فإذا هى حيَّةٌ عَظيمةٌ، فاغِرةٌ فاها، مُسْرِعةٌ إلى فِرْعَوْنَ، فلمَّا رآها فِرْعونُ قاصِدةً إليه خافها، فاقْتَحَمَ عن سَرِيرِه، واستغاثَ بموسى أنْ يَكُفَّها عنه، ففعَل، ثُم أخرجَ يدَه مِن جَيْبِه، فرآها بيضاءَ مِن غيرِ سُوءٍ - يَعْنى مِن غيرِ بَرَصٍ - ثم رَدَّها فعادتْ إلى لونِها الأولِ، فاستشارَ الملأَ حولَه فيما رأى، فقالوا له: هذانِ ساحران يُرِيدان أن يُخْرِجاكم مِن أرضِكم بِسِحْرِهما ويَذْهبا بطريقتِكم المُثْلَى. يَعْنى مُلْكَهمُ الذى هم فيه، والعَيْشَ، وأَبَوْا على موسى أَنْ يُعْطُوه شيئًا مِمَّا طَلَبَ، وقالوا له: اجْمَعِ السَّحرةَ، فإنَّهم بأرضِك كثيرٌ؛ حتى تَغْلِبَ بسِحْرِك سِحْرَهما. فأرسلَ إلى المدائنِ، فحُشِرَ له كلُّ ساحرٍ مُتَعالِمٍ، فلَمَّا أَتَوْا فِرْعونَ، قالوا: بِمَ يَعْمَلُ هذا الساحرُ؟ قالوا: يَعْمَلُ بالحيَّاتِ. قالوا: فلا واللَّهِ ما أحدٌ فى الأرضِ يَعملُ بالسِّحْرِ بالحيَّاتِ والحِبالِ والعِصِىِّ الذى نعملُ، وما أَجرُنا إن نحن غَلَبْنَا؟ قال لهم: أنتم أقارِبى وخاصَّتى [١/ ١٨٩ظ]، وأنا صانعٌ إليكم كلَّ شَىْءٍ أَحْبَبْتُم. فتواعَدُوا يومَ الزِّينةِ وأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى. قال سعيدٌ: فحدَّثنى ابنُ عباسٍ أَنَّ يومَ الزِّينةِ اليومَ الذى أَظْهَرَ اللَّهُ فيه موسى على فِرْعونَ والسَّحَرةِ، هو يومُ عاشوراءَ، فلمَّا اجْتَمَعُوا فى

---

(١) سقط من: النسخ. والمثبت من سنن النسائى الكبرى.

صعيدٍ قال النَّاسُ بعضُهم لبعضٍ : انطلِقُوا فلْنَحضُرْ هذا الأمرَ ؛ لعلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إن كانوا همُ الغالبين . يَعْنُون موسى وهارونَ ، اسْتِهزاءً بهما ، فقالوا : يا موسى - بقُدْرَتِهم بسِحْرِهم - إمّا أن تُلْقِيَ وإمّا أن نكونَ نحن المُلْقِين . قال : بل أَلْقُوا . ﴿ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٤٤] . فرأى موسى مِن سِحْرِهم ما أَوْجَسَ فى نفسِه خِيفَةً ، فأَوْحَى اللَّهُ إليه : أن أَلْقِ عصاك ، فلمّا ألقاها ، صارتْ ثُعبانًا عظيمةً ، فاغِرَةً فاها ، فجعلتِ العِصِيُّ تَلْتَبِسُ بالحبالِ ، حتى صارتْ جُرَزًا[1] على الثّعبانِ تدْخلُ فيه ، حتى ما أبقَتْ عصًا ولا حَبْلًا إلا ابتلعتْه ، فلَمَّا عرَف السَّحَرَةُ ذلك ، قالوا : لو كان هذا سِحْرًا لم تَبْلُغْ[2] مِن سِحْرِنا كلَّ هذا ، ولكنَّه أمرٌ مِن اللَّهِ تعالى ، آمنّا باللَّهِ وبما جاء به موسى ، ونتوبُ إلى اللَّهِ ممَّا كُنّا عليه . فكَسَرَ اللَّهُ ظَهْرَ فِرْعونَ فى ذلك الموطِنِ وأشياعِه ، وظهَر الحقُّ وبطَل ما كانوا يعملُون ، فغُلِبُوا هنالِك وانقَلَبُوا صاغِرين ، وامرأةُ فرعونَ بارِزةٌ مُتَبَذِّلَةٌ تدعُو اللَّهَ بالنَّصْرِ لموسى على فرعونَ وأشياعِه ، فَمَنْ رآها مِن آلِ فِرْعونَ ظَنَّ أنَّها إنّما ابْتَذَلَتْ للشَّفقةِ على فِرْعونَ وأشياعِه ، وإنّما كان حُزْنُها وهمُّها لموسى ، فلمَّا طال مُكْثُ موسى بمواعيدِ فِرْعونَ الكاذبةِ ، كلَّما جاء بآيةٍ وَعَدَه عندَها أن يُرْسِلَ معه بنى إسرائيلَ ، فإذا مَضَتْ أَخْلَفَ مَوْعِدَه وقال : هل يستطيعُ ربُّك أن يصنَعَ غيرَ هذا ؟ فأرسلَ اللَّهُ على قومِه الطُّوفانَ ، والجَرادَ ، والقُمَّلَ ، والضَّفادِعَ ، والدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ ، كلُّ ذلك يَشْكُو إلى موسى ويطْلُبُ إليه أن يَكُفَّها عنه ، ويُوافِقُهُ على أن يُرْسِلَ معه بنى إسرائيلَ ، فإذا كَفَّ ذلك عنه ، أَخْلَفَ مَوْعِدَه ، ونَكَثَ عَهْدَه ، حتى

---

(١) الجُرَزُ جمع جُرزة ، وهى الحُزْمة من القَتِّ ونحوه .

(٢) فى ح ، م : « تبلع » . والمثبت موافق لما فى سنن النسائى ومسند أبى يعلى .

أُمِرَ موسى بالخروجِ بقومِه ، فخرَج بهم ليلًا ، فلمَّا أصبحَ فرعونُ ، ورأى أنَّهم قد مَضَوْا ، أَرْسَلَ فى المدائنِ حاشرين ، فَتَبِعَه بجنودٍ عظيمةٍ كثيرةٍ ، وأَوْحَى اللَّهُ إلى البَحْرِ : إذا ضَرَبَكَ عبدِى موسى بعصاه ، فانْفَلِقْ اثْنَتَىْ عَشْرَةَ فِرْقَةً ، حتى يَجوزَ موسى ومَن معه ، ثم الْتَقِ على مَن بَقِيَ بعدُ مِن فِرْعونَ وأشياعِه . فَنَسِيَ موسى أن يَضرِبَ البحرَ بالعَصا ، وانتهى إلى البحرِ وله قَصِيفٌ[1] ، مخافةَ أنْ يَضْرِبَه موسى بعصاه وهو غافلٌ [١/١٩٠و] فيصيرَ عاصيًا للَّهِ ، عزَّ وجلَّ ، فلمّا تراءى الجَمْعان وتقاربا ، قال أصحابُ موسى : إنّا لَمُدْرَكُون ، افعل ما أَمَرَك به ربُّك ، فإنَّه لم يَكْذِبْ ولم تَكْذِبْ . قال : وَعَدَنى ربِّى إذا أَتَيْتُ البحرَ انفرَقَ اثْنَتَىْ عَشْرَةَ فِرقَةً حتى أُجاوِزَه ، ثم ذَكَرَ بعدَ ذلك العَصَا ، فضَرَبَ البحرَ بعصاه ، حينَ دنا أوائلُ جُندِ فِرْعونَ مِن أواخِرِ جُندِ موسى ، فانفَرَق البَحْرُ كما أَمَرَه رَبُّه ، وكما وَعَد موسى ، فلمّا أن جاوَز موسى وأصحابُه كلُّهم البحرَ ، ودخَل فِرْعونُ وأصحابُه ، الْتَقَى عليهم البحرُ ، كما أُمِر ، فلمّا جاوَز موسى ، قال أصحابُه : إنّا نخافُ أن لا يكونَ فرعونُ غَرِقَ ، ولا نُؤمِنُ بهلاكِه . فدعا ربَّه ، فأَخْرَجَه له ببَدِنه ، حتى اسْتَيْقَنُوا بهلاكِه ، ثم مَرُّوا بعدَ ذلك على قَومٍ يَعْكُفُون على أصنامٍ لهم ، ﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝١٣٨ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٨، ١٣٩] . قد رأيْتُم مِن العِبَرِ ، وسَمِعْتم ما يَكْفِيكم ومَضَى ، فأَنزَلهم موسى مَنْزِلًا ، وقال : أطيعُوا هارونَ ، فإنِّى قد اسْتَخْلَفْتُه عليكم ، فإنِّى ذاهِبٌ إلى ربِّى . وأَجَّلَهم ثَلاثين يومًا أَنْ يَرْجِعَ إليهم فيها ، فلمّا أتى ربَّه ، عزَّ وجلَّ ، وأرادَ أنْ

---

(١) له قصيف ؛ أى له صوت شديد يشبه صوت الرعد .

يُكَلِّمَه فى ثلاثين يومًا ، وقد صامَهُنَّ ، لَيْلَهن ونهارَهُنَّ ، وكَرِه أنْ يُكَلِّمَ ربَّه وريحُ فِيه رِيحُ فمِ الصّائمِ ، فتناولَ موسى شيئًا مِن نباتِ الأرضِ فمضغَه ، فقال له ربُّه حينَ أتاه : لِمَ أَفْطَرْتَ ؟ وهو أعلمُ بالذى كان ، قال : ياربِّ ، إنِّى كَرِهْتُ أنْ أُكَلِّمَكَ إلا وفَمِى طَيِّبُ الرِّيحِ . قال : أَوَ ما عَلِمْتَ يا موسى أنّ ريحَ فمِ[(1)] الصّائمِ أطيبُ مِن ريحِ المِسْكِ ، ارْجِعْ فصُمْ عَشْرًا ، ثم ائْتِنى . ففَعَل موسى ما أَمَرَه به ربُّه ، فلمّا رأى قومُ موسى أنّه لم يَرْجِعْ إليهم فى الأجَلِ ، ساءَهم ذلك ، وكان هارونُ قد خَطَبَهم وقال : إنّكم خَرَجْتُم مِن مصرَ ، ولِقَوْمِ فِرْعونَ عندَكم عَوارِىُّ وودائعُ ، ولكم فيها مِثْلُ ذلك ، وأنا أَرَى أنْ تَحْتَسِبُوا ما لكُم عندَهم ، ولا أُحِلُّ لكم وديعةً استُودِعْتُموها ، ولا عاريّةً ، ولسنا برادِّين إليهم شيئًا مِن ذلك ، ولا مُمْسِكيه لأنفُسِنا . فحفَر حَفِيرًا ، وأَمَرَ كلَّ قومٍ عندَهم مِن ذلك مِن متاعٍ أو حِلْيَةٍ أَن يَقْذِفُوه فى ذلك الحَفِيرِ . ثُم أَوْقَد عليه النّارَ فأَحْرَقه ، فقال : لا يكونُ لنا ولا لهم .

وكان السّامِرىُّ مِن قومٍ يعبُدُون البَقَرَ ، جيرانٍ لبنى إسرائيل ، ولم يكنْ مِن بنى إسرائيلَ ، فاحتملَ مع موسى وبنى إسرائيلَ حينَ احْتَمَلُوا ، فقُضِىَ له أَن رَأَى أثرًا فَقَبَضَ منه قَبْضَةً ، فمرَّ بهارونَ ، فقال له هارونُ : يا سامِرِىُّ ، ألا تُلْقِى ما فى يدِكَ ؟ وهو قابِضٌ عليه ، لا يراه أحدٌ طوالَ [١/١٩٠ظ] ذلك ، فقال : هذه قَبْضَةٌ مِن أثرِ الرّسولِ الذى جاوزَ بِكم البحرَ ، ولا أُلْقِيها لشىءٍ إلا أن تَدْعُوَ اللّهَ إذا أَلْقَيْتُها أن يكونَ ما أُريدُ . فألقاها ودَعَا له هارونُ ، فقال : أُريدُ أن تكونَ عِجْلًا . فاجْتَمَع ما كان فى الحُفرةِ مِن متاعٍ أو حِلْيَةٍ ، أو نُحاسٍ ، أو حديدٍ ،

---

(1) سقط من : الأصل ، ح .

فصار عِجْلًا أجوفَ، ليس فيه رُوحٌ، له خُوارٌ.

قال ابنُ عباسٍ: لا واللهِ ما كان له صَوْتٌ قَطُّ، إنّما كانتِ الرِّيحُ تدخلُ مِن دُبُرِه، وتخرجُ مِن فِيه، فكان ذلك الصّوتُ مِن ذلك، فتَفرَّق بنو إسرائيلَ فِرَقًا، فقالتْ فِرْقةٌ: يا سامريُّ، ما هذا، وأنت أعلمُ به؟ قال: هذا رَبُّكم، ولكنَّ موسى أَضَلَّ الطَّريقَ. وقالتْ فِرْقةٌ: لا نُكَذِّبُ بهذا حتى يَرْجِعَ إلينا موسى، فإن كان ربَّنا، لم نَكُنْ ضَيَّعْناه وعَجَزْنا فيه حينَ رأيْناه، وإن لم يكنْ ربَّنا، فإنا نَتَّبِعُ قولَ موسى. وقالت فِرْقةٌ: هذا عملُ الشَّيطانِ، وليس بربِّنا، ولا نُؤْمِنُ به، ولا نُصدِّقُ. وأُشْرِبَ فِرْقةٌ في قلوبِهِمُ الصِّدْقَ بما قال السّامريُّ في العِجْلِ، وأَعْلَنُوا التكْذِيبَ به، فقال لهم هارونُ عليه السّلامُ: ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾ [طه: ٩٠]. ليس هذا، قالوا: فما بالُ موسى وَعَدَنا ثلاثينَ يومًا ثُم أَخْلَفَنا؟ هذه أربَعونَ يومًا قد مَضَت. فقال سفهاؤُهم: أخطأَ ربَّه، فهو يطلُبُه ويَبْتَغِيه. فلمّا كلَّمَ اللّهُ موسى وقال له ما قال، أَخْبَرَه بما لَقِيَ قومُه مِن بعدِه، فرَجَع إلى قومِه غَضْبانَ أَسِفًا، فقال لهم ما سَمِعْتُم في القُرْآنِ، وأخذ بَرأسِ أخيه يَجُرُّه إليه، وأَلْقَى الألواحَ مِن الغَضَبِ، ثم إنّه عَذَرَ أخاه بعُذْرِه، واسْتَغْفَرَ له، فانْصَرَفَ إلى السّامِريِّ، فقال له: ما حَمَلَك على ما صَنَعْتَ؟ قال: ﴿ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ وفَطِنْتُ لها، وعُمِّيَتْ عليكم فَقَذَفْتُها ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ۝٩٦ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴾ [طه: ٩٦، ٩٧]. ولو كان إِلهًا لم نخْلُصْ إلى ذلك منه، فاسْتَيْقَنَ بنو إسرائيلَ بالفِتْنةِ، واغتبطَ

الذين كان رأيُهم فيه مثلَ رَأْيِ هارونَ ، فقالوا جَماعَتُهم[1] : يا موسى ، سَلْ لنا أنْ يُفْتَحَ لنا بابُ توبةٍ نصنعُها ، فيُكَفَّرَ عنّا ما عَمِلْنا . فاختار موسى قومَه سبعين رجُلًا لذلك ، لا يألُو الخيرَ ، خيارَ بنى إسرائيلَ ، ومَن لم يُشْرِكْ فى العِجْلِ[2] ، فانطَلَقَ بهم يسألُ لهم التّوبةَ ، فرجَفَتْ بهمُ الأرضُ ، فاستَحْيَا نبىُّ اللّهِ ، عليه السّلامُ ، مِن قومِه ، ومِن وَفْدِه ، حينَ فُعِلَ بهم ما فُعِلَ ، فقال : ﴿ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ وفيهم مَنْ كان اللّهُ اطَّلَعَ منه على ما أُشْرِبَ قلبُه [١/١٩١و] مِن حبِّ العِجْلِ ، وإيمانٍ به ، فلذلك رجَفَتْ بِهِم الأرضُ ، فقال : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧] . فقال : ياربِّ ، سأَلْتُك التّوبةَ لقومِى ، فقلتَ : إنّ [3]رَحْمتَك كَتَبْتَها[3] لقومٍ غيرِ قومِى ، فليتَك أخَّرْتَنى حتى تُخْرِجَنى فى أُمّةِ ذلك الرَّجلِ المرحومةِ . فقال له : إنَّ توبتَهم أن يَقْتُلَ كلُّ رجلٍ مَن لَقِىَ مِن والدٍ وولدٍ ، فيقتلَه بالسّيفِ ، لا يُبالى مَن قَتَل فى ذلك الموطِنِ . وتاب[4] أولئك الذين كان خَفِىَ على موسى وهارونَ ، واطَّلَعَ اللّهُ مِن ذنوبِهم ، فاعترفُوا بها ، وفعلُوا ما أُمِرُوا ، وغَفَرَ اللّهُ للقاتلِ والمقتولِ ، ثم سار بهم موسى ، عليه السّلامُ ، مُتَوَجِّهًا نحوَ الأرضِ المقدَّسةِ ، وأخَذ الألواحَ بعدَما سكتَ عنه الغضبُ ، فأمَرهم بالذى أُمِرَ به مِن الوظائفِ فثَقُلَ ذلك عَليهم ، وأَبَوْا أنْ يُقِرُّوا بها ، ونَتَقَ

---

(١) فى النسخ : « لجماعتهم » . والمثبت من مسند أبى يعلى .
(٢) فى النسخ : « الحق » . والمثبت من سنن النسائى .
(٣ - ٣) فى النسخ : « رحمتى كتبتها » . والمثبت من مسند أبى يعلى .
(٤) فى سنن النسائى : « ويأتى » .

اللَّهُ عليهمُ الجبلَ كأنَّه ظُلَّةٌ، ودنا مِنهم حتى خافُوا أن يَقَع عليهم، فأَخَذُوا الكتابَ بأَيمانِهم وهم [1] يُصْغُونَ [2] يَنظُرون إلى الجبلِ، والكتابُ بأيديهم وهم مِن [1] وراءِ الجبلِ، مخافةَ أنْ يقَعَ عليهم، ثم مَضَوْا حتى أَتَوُا الأرض المقدَّسةَ، فوَجَدُوا مَدينةً فيها قومٌ جَبّارون، خَلْقُهم خَلْقٌ مُنْكَرٌ - وذَكَر مِن ثمارِهم أمرًا عَجِيبًا مِن عِظَمِها - فقالوا: يا موسى، إنّ فيها قومًا جبّارين لا طاقةَ لنا بهم، ولا نَدْخُلُها ما دامُوا فيها، فإن يَخْرُجُوا مِنها فإنا داخلُون. قال رجلان مِن الذين يَخافون - قِيل ليزيدَ: هكذا قَرَأه؟ قال: نعم - مِن الجبّارين آمَنَا بموسى، وخرجا إليه، فقالوا: نحنُ أعلمُ بقومِنا، إن كنتم إنّما تَخافون ما رأيتُم مِن أجسامِهم وعددِهم، فإنَّهم لا قلوبَ لهم، ولا مَنَعَةَ عندَهم، فادْخُلُوا عليهم البابَ، فإذا دَخَلْتُمُوه فإنّكم غالِبون. ويقول أُناسٌ: إنّهما [3] مِن قومِ موسى. فقال الذين يَخافون؛ بنو إسرائيلَ: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]. فأَغْضَبُوا موسى، فَدَعَا عليهم، وسَمَّاهم فاسِقين، ولم يَدْعُ عليهم قبلَ ذلك؛ لِما رأى مِنهم مِن المعصيةِ وإساءتهم، حتى كان يومَئِذٍ، فاستَجابَ اللَّهُ له وسمَّاهم كما سمَّاهم فاسِقِين، فحرَّمَها عليهم أربعين سَنَةً، يَتِيهُون فى الأرضِ، يُصْبِحُون كلَّ يوم، فيسيرُون ليس لهم قرارٌ، ثم ظَلَّلَ عليهم الغَمامَ فى التِّيهِ، وأنزلَ عليهمُ المَنَّ والسَّلْوَى، وجعَل لهم ثيابًا لا تَبْلَى ولا تَتَّسِخُ، وجعَل بينَ ظَهْرانَيْهِمْ حَجَرًا مُرَبَّعًا [١/١٩١ظ]، وأَمَر موسى فضرَبه بعصاه،

(١ - ١) سقط من: الأصل.

(٢) كذا فى النسخ وفى مسند أبى يعلى. وفى سنن النسائى: «مصطفُّون».

(٣) فى النسخ: «إنهم». والمثبت من سنن النسائى.

فانْفَجَرَتْ منه اثنتا عَشْرَةَ عينًا ، فى كلِّ ناحيةٍ ثلاثةُ أَعْيُنٍ ، وأَعْلَمَ كلَّ سِبْطٍ عينَهم التى يَشْربون مِنها ، فلا يَرْتَحِلُون من مَنْقَلَةٍ إلا وَجَدُوا ذلك الحَجَرَ بالمكانِ الذى كان فيه بالأمسِ . رَفَع ابنُ عباسٍ هذا الحديثَ إلى النَّبىِّ ﷺ ، وصَدَّق ذلك عندِى أنَّ معاويةَ سَمِعَ ابنَ عباسٍ حدَّثَ هذا الحديثَ ، فأنكرَ عليه أن يكونَ الفِرْعَوْنِىُّ الذى أَفْشَى على موسى أَمْرَ القتيلِ الذى قَتَل ، فقال : كيف يُفْشِى عليه ، ولم يَكُنْ عَلِمَ به ولا ظَهَرَ عليه إلا الإسرائيلىُّ الذى حَضَر ذلك ؟ فَغَضِب ابنُ عباسٍ ، فأَخَذَ بيدِ معاويةَ ، فانطَلَقَ به إلى سعدِ بنِ مالكٍ الزُّهْرِىِّ ، فقال له : يا أبا إسحاقَ ، هل تَذْكُرُ يومَ حدَّثنا رسولُ اللَّهِ ﷺ عن قَتيلِ موسى الذى قَتَل مِن آلِ فرعونَ ؟ الإسرائيلىُّ الذى أَفْشَى عليه ، أم الفِرْعَونىُّ ؟ (1) قال : إنَّما أَفْشَى عليه الفِرْعَوْنىُّ بما سَمِع الإسرائيلىَّ الذى شَهِد ذلك وحَضَره (1) . هكذا ساقَ هذا الحديثَ الإمامُ النَّسائىُّ ، وأَخْرَجه ابنُ جَريرٍ ، وابنُ أبى حاتمٍ فى تفْسيرَيْهما ، مِن حديثِ يزيدَ بنِ هارونَ [2] ، والأَشْبَهُ ، واللَّهُ أعلمُ ، أنَّه موقوفٌ ، وكونُه مرفوعًا فيه نَظَرٌ ، وغالبُه مُتَلَقًّى مِن الإسرائيليّاتِ ، وفيه شىءٌ يسيرٌ مُصَرَّحٌ برفْعِه فى أثناءِ الكلامِ ، وفى بعضِ ما فيه نَظَرٌ ونَكَارةٌ ، والأغلبُ أنَّه من كلامِ كعبِ الأحبارِ ، وقد سَمِعْتُ شيخَنا الحافظَ أبا الحجّاجِ المِزِّىَّ يقولُ ذلك ، واللَّهُ سبحانَه وتعالى أعلمُ .

(1 - 1) سقط من : ص .

(2) ابن جرير فى تفسيره 16/ 164. وذكره السيوطى فى الدر المنثور 4/296 وعزاه إلى ابن أبى حاتم وغيره . كما أخرجه أبو يعلى فى مسنده (2618) .

قال الهيثمى فى مجمع الزوائد 7/ 66: رجاله رجال الصحيح غير أصبغ بن زيد والقاسم بن أبى أيوب وهما ثقتان .

ذِكرُ[1] بناءِ قُبَّةِ الزَّمانِ

قال أهلُ الكتاب[2] : وقد أَمَرَ اللَّهُ موسى ، عليه السّلامُ ، بعَمَلِ قُبَّةٍ مِن خَشَبِ الشّمشارِ ، وجلودِ الأنعامِ ، وشَعْرِ الأَغْنامِ ، وأَمرَ بزِينتِها بالحريرِ المُصَبَّغِ ، والذَّهَبِ ، والفِضَّةِ ، على كيفيّاتٍ مفصَّلَةٍ عندَ أهلِ الكتابِ ، ولها عَشْرُ سُرادِقاتٍ ، طولُ كلِّ واحدٍ ثمانيةٌ وعِشرون ذِراعًا ، وعَرْضُه أربعةُ أَذْرُعٍ ، ولها أربعةُ أبوابٍ ، وأطنابٌ مِن حريرٍ ودِمَقْسٍ مُصبَّغٍ ، وفيها رفوفٌ[3] وصفائحُ من ذهبٍ وفضّةٍ ، ولكلِّ زاويةٍ بابانِ ، وأبوابٌ أُخرُ كبيرةٌ ، وستورٌ من حريرٍ مصَبَّغٍ ، وغيرُ ذلك ممّا يطولُ ذِكْرُه ، وبعَمَلِ تابوتٍ مِن خَشَبِ الشّمشارِ ، يكونُ طولُه ذِراعَيْنِ ونِصْفًا ، وعَرْضُه ذراعَيْنِ ، وارتفاعُه ذراعًا ونِصْفًا ، ويكونُ مُضبَّبًا بذَهَبٍ خالِصٍ ، مِن داخِلِه وخارجِه ، وله أربعُ حِلَقٍ ، فى أربعِ زواياه ، ويكونُ [١/ ١٩٢و] على حافَّتَيْه كَرُوبِيّانِ مِن ذَهَبٍ ، يَعْنُون صِفَةَ مَلَكَيْنِ بأَجْنِحَةٍ ، وهما متقابلان ، صنَعه رجلٌ اسمُه بصليالُ . وأَمَرَه أنْ يَعْمَلَ مائدةً مِن خَشَبِ الشّمشارِ ، طولُها ذراعَان ، وعَرْضُها ذراعٌ ونصفٌ ، لها ضِبابُ ذهبٍ ، وإكليلُ ذَهَبٍ بشَفَةٍ مرْتفِعةٍ ، بإكليلٍ مِن ذَهَبٍ ، وأربعُ حِلَقٍ مِن نَوَاحِيها مِن ذهبٍ ؛ خَرزُه مثلُ الرّمّانِ مِن خشبٍ مُلَبَّسٍ ذَهَبًا ، واعمَلْ صِحافًا ومصافِىَ وقِصاعًا على المائدةِ ، واصنَعْ منارةً مِنَ ذَهبٍ دُلِّىَ فيها سِتُّ قَصَباتٍ مِن ذهبٍ ، مِن كلِّ

---

(١) سقط من : م .

(٢) سفر الخروج الأصحاح ٢٥ - ٢٧.

(٣) فى الأصل ، ح : « دفوف » . ورفوف جمع رف ، وهو شبه الطاق تجعل عليه طرائف البيت .

جانبٍ ثلاثٌ، على كلِّ قَصَبَةٍ ثلاثُ سُرُجٍ، وليكنْ فى المنارةِ أربعُ قناديلَ، ولتكنْ هى وجميعُ هذه الآنيةِ مِن قِنطارٍ مِن ذهبٍ، صنَعَ ذلك بصليَالُ أيضًا، وهو الذى عَمِل المذْبَحَ أيضًا، ونَصَبَ هذه القُبَّةَ أولَ يومٍ مِن سَنَتِهم، وهو أولُ يومٍ مِن الرَّبِيعِ، ونَصَبَ تابوتَ الشّهادةِ، وهو - واللَّهُ أعلمُ - المذكورُ فى قولِه تعالى: ﴿ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

وقد بُسِطَ هذا الفصلُ فى كتابِهم مُطولًا جدًّا، وفيه شرائعُ لهم، وأحكامٌ، وصفةُ قُرْبانِهم، وكَيْفِيَّتُه، وفيه أنَّ قُبَّةَ الزّمانِ كانت موجودةً قبلَ عبادتِهم العجْلَ، الذى هو مُتقدِّمٌ على مَجيئِهم بيتَ المقدسِ، وأنَّها كانت لهم كالكعبةِ يُصَلُّون فيها وإليها، ويَتَقَرَّبُون عندَها، وأنَّ موسى، عليه السّلامُ، كان إذا دخلَها يَقِفُون عندَها، وينزلُ عمودُ الغَمامِ على بابِها، فيَخِرُّون عندَ ذلك سُجَّدًا للَّهِ، عزّ وجلّ، ويكلِّمُ اللَّهُ موسى، عليه السّلامُ، من ذلك العمودِ الغمامِ، الذى هو نورٌ، ويخاطبُه، ويناجِيه، ويَأْمُرُه[1]، ويَنْهاه، وهو واقفٌ عندَ التّابوتِ، صامِدٌ إلى ما بينَ الكَرُوبِيَّيْنِ فإذا فُصِل الخطابُ، يخبرُ بنى إسرائيلَ بما أوحاه اللَّهُ، عزّ وجلّ، إليه مِن الأوامرِ والنّواهِى، وإذا تحاكَمُوا إليه فى شىءٍ، ليس عندَه مِن اللَّهِ فيه شىءٌ، يَجِىءُ إلى قُبَّةِ الزّمانِ، ويَقِفُ عندَ التّابوتِ، ويَصمُدُ لما بينَ ذَيْنِكَ الكَروبِيَّيْنِ، فيأتِيه الخِطابُ بما فيه فَصْلُ تلك الحكومةِ، وقد كان هذا مشروعًا لهم فى زَمانِهم، أَعْنى استعمالَ الذّهبِ والحريرِ المُصَبَّغِ،

---

(١) سقط من: الأصل.

واللآلئ في معبدِهم، وعندَ مُصَلَّاهم، فأمَّا في شريعتنا فلا، بل قد نُهينا عن زَخْرَفَةِ المساجدِ، وتزْيينِها؛ لِئَلَّا تَشْغَلَ المصلِّين، كما قال عمرُ بنُ الخطابِ، رَضِيَ اللَّهُ عنه، لمَّا وسَّعَ في مسجدِ رسولِ اللَّهِ ﷺ، فقال [١/١٩٢ظ] للذي وكَّله على عِمارتِه: ابنِ للنَّاسِ ما يُكِنُّهم، وإياك أنْ تُحَمِّرَ أو تُصَفِّرَ، فتَفْتِنَ النَّاسَ[1]. وقال ابنُ عباسٍ: لتُزَخْرِفُنَّها كما زَخْرَفَتِ اليهودُ والنَّصارَى كنائسَهم[2].

وهذا مِن بابِ التَّشْريفِ والتَّكْريمِ والتَّنْزيهِ، فهذه الأُمَّةُ غَيرُ مشابِهةٍ مَن كان قبلَهم مِن الأممِ؛ إذْ جمَع اللَّهُ هَمَّهم في صَلاتِهم على التَّوجُّهِ إليه، والإقبالِ عليه، وصان أبصارَهم وخواطِرَهم عن الاشْتِغالِ والتفكُّرِ في غيرِ ما هم بِصَدَدِه مِن العبادةِ العظيمةِ، فللهِ الحمدُ والمِنَّةُ.

وقد كانت قُبَّةُ الزَّمانِ هذه مع بني إسرائيلَ في التِّيهِ، يُصَلُّون إليها، وهي قِبْلَتُهم وكَعْبَتُهم، وإمامُهم كليمُ اللَّهِ موسى، عليه السَّلامُ، ومقدِّمُ القُربانِ أخوه هارونُ، عليه السَّلامُ.

فلمّا مات هارونُ، ثُم موسى، عليهما السَّلامُ، استمرَّتْ بنو هارونَ في الذي كان يَلِيه أبوهم مِن أمْرِ القُرْبانِ، وهو فيهم، إلى الآنَ، وقام بأعباءِ النُّبوّةِ بعدَ موسى وتدبيرِ الأمرِ بعدَه، فتاه يوشَعُ بنُ نونٍ، عليه السَّلامُ، وهو الذي دخَل بهم بيتَ المقدِسِ؛ كما سيأتي بيانُه.

---

(١) أخرجه البخاري ١/٥٣٩ معلقًا. وقال الحافظ في الفتح ١/ ٥٣٩: هو طرف من قصة في ذكر تجديد المسجد النبوي. ويبّض له في تغليق التعليق ٢/ ٢٣٦.

(٢) البخاري معلقًا بصيغة الجزم ١/ ٥٣٩. وأبو داود (٤٤٨). (صحيح أبي داود ٤٣١). وانظر الإحسان (١٦/٥).

والمقصودُ هنا أنَّه لمَّا استقرَّتْ يدُه على البيتِ المقدَّسِ، نَصَب هذه القُبَّةَ على صَخْرَةِ بيتِ المقدِسِ، فكانوا يُصَلُّون إليها، فلمَّا بادتْ صلَّوْا إلى مَحِلَّتِها، وهى الصَّخْرَةُ، فلهذا كانت قِبْلَةَ الأنبياءِ بعدَه إلى زمانِ رسولِ اللَّهِ ﷺ، وقد صلَّى إليها رسولُ اللَّهِ ﷺ قبلَ الهجرةِ، وكان يجعلُ الكعبةَ بينَ يَدَيْه، فلما هاجر، أُمِر بالصَّلاةِ إلى بيتِ المقدِسِ، فصلَّى إليها سِتَّةَ عَشَرَ، وقِيل: سَبْعَةَ عَشَرَ شَهرًا. ثم حُوِّلَتِ القِبْلَةُ إلى الكعبةِ، وهى قِبلةُ إبراهيمَ، فى شعبانَ سنةَ ثِنْتَيْنْ، فى وقتِ صلاةِ العصرِ. وقِيل: الظُّهْرِ[1]، كما بَسَطْنا ذلك فى «التَّفسيرِ»[2]، عندَ قولِه تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ إلى قولِه: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [البقرة: ١٤٢- ١٤٤].

---

(١) انظر صحيح البخارى (٤٠، ٣٩٩، ٤٤٩٢، ٧٢٥٢). ومسلم (٥٢٥).
(٢) التفسير ٢٧٣/١ - ٢٨٢.

قصةُ قارونَ مع موسى، عليه السلامُ

قال اللَّهُ تعالى[1] : ﴿ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن [١٩٣/١و] كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٧٦- ٨٣]. قال الأعمشُ: عن المِنْهالِ بنِ عمْرٍو، عن[2] سعيدِ بنِ جُبَيرٍ، عن ابنِ عباسٍ، قال: كان قارونُ ابنَ عمِّ

---

(١) التفسير ٦/٢٦٣ - ٢٦٩.

(٢) في الأصل، م: «بن».

موسى . وكذا قال إبراهيمُ النَّخَعِيُّ ، وعبدُ اللَّهِ بنُ الحارثِ بنِ نَوْفَلٍ ، وسِماكُ ابنُ حَرْبٍ ، وقَتادةُ ، ومالكُ بنُ دينارٍ ، وابنُ جُرَيجٍ ، وزاد فقال : هو قارونُ بنُ يصهرَ بنِ قاهثَ ، وموسى بنُ عمرانَ بنِ قاهثَ[1] . قال ابنُ جَريرٍ[2] : وهذا قولُ أكثرِ أهْلِ العِلمِ ؛ أنَّه كان ابنَ عمِّ موسى . وردَّ قولَ ابنِ إسحاقَ أنَّه كان عمَّ موسى . قال قَتادةُ : وكان يُسمَّى المنوَّرَ[3] ؛ لحُسنِ صَوتِه بالتَّوراةِ ، ولكنَّ عدوَّ اللَّهِ نافَق ، كما نافَق السّامِرِيُّ ، فأهلكه البَغْيُ ؛ لكَثْرةِ مالِه . وقال شَهْرُ بنُ حَوْشَبٍ : زاد فى ثيابِه شِبْرًا طولًا ؛ ترفُّعًا على قومِه . وقد ذكَر اللَّهُ تعالى كثرةَ كُنوزِه ؛ حتى إنَّ مَفاتيحَه كان يَثْقُلُ حَمْلُها على الفِئامِ[4] مِن الرِّجالِ الشِّدادِ ، وقد قِيل : إنَّها كانَت مِن الجُلودِ ، وإنَّها كانَت تُحمَلُ على ستينَ بَغْلًا . فاللَّهُ أعلمُ . وقد وعَظه النُّصحاءُ مِن قومِه ؛ قائلين : ﴿ لَا تَفْرَحْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ أى ؛ لا تَبْطَرْ بما أُعطِيتَ ، وتفْخَرْ على غيرِك . ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَۖ ﴾ يقولون : لِتَكُنْ هِمَّتُك مصروفةً لتَحْصيلِ ثوابِ اللَّهِ فى الدّارِ الآخِرةِ ، فإنَّه خيرٌ وأبقى ، ومع هذا ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَاۖ ﴾ أى ؛ وتَناوَلْ منها بمالِك ما أحلَّ اللَّهُ لك ، فتمتَّعْ لنفسِك بالملاذِّ الطَّيبةِ الحلالِ ، ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ ﴾ أى ؛ وأحسِن إلى خَلْقِ اللَّهِ ، كما أحسنَ اللَّهُ خالقُهم وبارئُهم إليك ، ﴿ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِۖ ﴾ أى ؛ ولا تسئْ إليهم ، ولا تُفسِدْ فيهم [١/١٩٣ظ] فتقابلَهم ضدَّ ما

(١) فى ح : « فاهث » ، وفى م : « هافث » . وانظر الأقوال السابقة فى التفسير ٦/ ٢٦٣.
(٢) فى الأصل ، ح ، م : « جريج » . وانظر كلام ابن جرير فى تفسيره ٢٠/ ١٠٥.
(٣) فى ح ، م : « النور » .
(٤) فى الأصل ، م ، ص : « القيام » . والفئام : الجماعة من الناس .

أُمِرْتَ فيهم ، فيُعاقِبَك ويَسلُبَك ما وهبَك ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ فما كان جوابَه[1] لهذه النَّصيحَةِ الصَّحيحَةِ الفَصيحَةِ ، إلا أَنْ ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ يعنى : أنا لا أحتاجُ إلى استعمالِ ما ذكرْتُم ، ولا إلى ما إليه أشَرْتُم ؛ فإنَّ اللَّهَ إنما أعطانى هذا لعلمِه أنّى أستحقُّه ، وأنّى أهلٌ له ، ولولا أنّى حبيبٌ إليه ، وحَظِيٌّ عنده ، لَمَا أعطانى ما أعطانى . قال اللَّهُ تعالى رادًّا عليه فيما ذهَب إليه : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ أى ؛ قد أَهْلَكْنا مِن الأُمَمِ الماضين بذُنوبِهم وخَطاياهم ، مَن هو أشدُّ مِن قارونَ قوةً ، وأكثرُ أموالًا وأوْلادًا ، فلو كان ما قال صَحيحًا لمْ نُعاقِبْ أحدًا مِمَّن كان أكثرَ مالًا منه ، ولمْ يكنْ مالُه دليلًا على محبَّتِنا له ، واعتنائِنا به ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ﴾ [سبأ: ٣٧]. وقال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]. وهذا الرَّدُّ عليه يدلُّ على صحَّةِ ما ذهَبْنا إليه مِن معنى قولِه : ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ .

وأمَّا مَن زعم أنَّ المُرادَ مِن ذلك ، أنَّه كان يَعرِفُ صَنْعةَ الكِيمِياءِ[2] ، أو أنَّه كان يَحْفَظُ الاسمَ الأعظَمَ ، فاستعْمَلَه فى جمعِ الأموالِ ، فليس بِصَحيحٍ ؛ لأنَّ

---

(١) فى م ، ص : « جواب قومه ».

(٢) الكيمياء : الحيلة والحذق ، وكان يراد بها عند القدماء : تحويل بعض المعادن إلى بعض . وعلم الكيمياء عندهم : علم يعرف به طرق سلب الخواص من الجواهر المعدنية وجلب خاصّة جديدة إليها ، ولاسيما تحويلها إلى ذهب . الوسيط ٢/ ٨٤٠.

الكِيمياءَ تَخْييلٌ وصِبْغةٌ لا تُحِيلُ الحقائقَ، ولا تشابِهُ صَنْعةَ الخالِقِ، والاسمُ الأعظمُ لا يَصْعَدُ الدُّعاءُ به مِن كافرٍ به، وقارونُ كان كافرًا فى الباطنِ، منافِقًا فى الظَّاهِرِ، ثُم لا يَصِحُّ جوابُه لهم بهذا، على هذا التَّقْديرِ، ولا يَبْقَى بينَ الكَلامَيْنِ تلازُمٌ، وقدْ وضَّحْنَا هذا فى كِتابِنا «التَّفسيرِ»[1]، وللَّهِ الحمدُ.

قال اللَّهُ تعالى[2]: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦٓ ﴾ ذكَر كثيرٌ مِنَ المُفسِّرينَ أنَّه خرَج فى تجمُّلٍ عَظيمٍ؛ مِن مَلابِسَ، ومَراكِبَ، وخدَمٍ، وحَشَمٍ، فلمَّا رآه مَن يُعظِّمُ زَهْرةَ الحياةِ الدُّنيا تمنَّوْا أنْ لو كانوا مثلَه، وغَبَطُوه بما عليه وله، فلما سَمِع مَقالَتَهم العلماءُ ذَوُو الفَهْمِ الصَّحيحِ، الزُّهَّادُ الألِبَّاءُ، قالوا لهم: ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ أى؛ ثوابُ اللَّهِ فى الدَّارِ الآخِرَةِ خيرٌ وأبقَى، وأجلُّ وأعْلَى، قال اللَّهُ تعالى: ﴿ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ أى؛ وما يُلَقَّى هذه النَّصيحَةَ، وهذه المَقالَةَ، وهذه الهِمَّةَ السَّامِيَةَ إلى[3] الدَّارِ الآخِرةِ العَلِيَّةِ، عندَ النَّظَرِ إلى زَهْرةِ هذه الدُّنيا الدَّنِيَّةِ، إلا مَن هدى اللَّهُ قلبَه، وثبَّت فؤادَه، وأيَّد لُبَّه، وحَقَّق مُرادَه [١/١٩٤و]، وما أحسنَ ما قال بعضُ السَّلفِ: إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ البصرَ النافِذَ عندَ وُرودِ الشُّبُهاتِ، والعقلَ الكامِلَ عندَ حُلولِ الشَّهَواتِ.

قال اللَّهُ تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ

---

(١) التفسير ٦/ ٢٦٤، ٢٦٥.
(٢) التفسير ٦/ ٢٦٥. وتفسير الطبرى ٢٠/ ١١٤، ١١٥.
(٣) فى الأصل: «فى».

يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ . لمّا ذكَر تعالى خُروجَه فى زينتِه ، واختيالَه فيها ، وفَخْرَه على قومِه بها ، قال : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ .

كما رَوى البخاريُّ[1] مِن حديثِ الزُّهْرِيِّ ، عن سَالمٍ ، عن أبيه ، عن النَّبيِّ ﷺ ، قال : « بَيْنا رَجلٌ يجرُّ إزارَه ، إذْ خُسِف به ، فهو يَتَجَلْجَلُ فى الأَرْضِ إلى يومِ القيامةِ » . ثُم رواه البخاريُّ[2] مِن حديثِ جريرِ بنِ زيدٍ ، عن سالمٍ ، عن أبى هُرَيْرةَ ، عن النَّبيِّ ﷺ نحوَه .

وقد ذُكِرَ عن ابنِ عباسٍ والسُّدِّىِّ أنَّ قارونَ أعطَى امرأةً بَغِيًّا مالًا ، على أنْ تَقولَ لموسى ، عليه السَّلامُ ، وهو فى ملأٍ مِن النَّاسِ : إنَّك فعلتَ بى كذا وكذا . فيُقالُ : إنّها قالت له ذلك ، فأُرْعِدَ مِن الفَرَقِ ، وصلَّى ركعتين ، ثُم أَقبَل عليها ، فاستحْلَفَها : [3]مَنْ دَلَّكِ[3] على ذلك ، وما حَمَلَكِ عليه؟ فذكرَتْ أنَّ قارونَ هو الذى حملَها على ذلك ، واسْتَغْفَرَتِ اللَّهَ ، وتابتْ إليه ، فعندَ ذلك خَرَّ موسى للَّهِ ساجدًا ، ودعا اللَّهَ على قارونَ ، فأوحى اللَّهُ إليه : إنِّى قدْ أَمرْتُ الأَرضَ أنْ تُطيعَك فيه ، فأمر موسى الأَرضَ أَنْ تبتَلِعَه ودارَه ، فكان ذلك[4] . فاللَّهُ أعلمُ . وقد قِيل : إنَّ قارونَ لمّا خَرَج على قومِه فى زينتِه ، مرَّ بجَحْفَلِه ، وبغالِه ، وملابِسِه ، على مجلسِ موسى ، عليه السَّلامُ ، وهو يذكِّرُ قومَه بأيَّامِ اللَّهِ ، فلمّا رآه النَّاسُ انصرفتْ وجوهُ كثيرٍ مِن الناسِ يَنْظُرون إليه ، فدعاه

---

(١) البخارى (٣٤٨٥، ٥٧٩٠).

(٢) البخارى (٥٧٩٠).

(٣ - ٣) في النسخ : « من ذلك ».

(٤) تفسير الطبرى ٢٠/ ١١٧. والتفسير ٦/ ٢٦٧.

موسى ، عليه السّلامُ ، فقال له : ما حملَك على هذا ؟ فقال : يا موسى ، أما لَئِنْ كنتَ فُضِّلْتَ عليَّ بالنُّبوةِ ، فلَقدْ فُضِّلتُ عليك بالمالِ ، ولَئِنْ شئتَ لتَخْرُجَنَّ فلَتَدْعُوَنَّ عليَّ ، ولأَدْعُوَنَّ عليكَ . فخرَج ، وخرَج قارونُ في قومِه ، فقال له موسى : تَدْعو أو أَدْعو ؟ قال : أَدْعو أنا . فدعا قارونُ ، فلم يُجَبْ في موسى ، فقال موسى : أدعو ؟ قال : نعمْ . فقال موسى : اللَّهُمَّ مُرِ الأرضَ فلْتُطِعْنى اليومَ . فأَوْحَى اللَّهُ إليه : إنِّى قَدْ فعلتُ . فقال موسى : يا أرضُ خُذيهم . فأَخذَتْهم إلى أَقْدامِهم ، ثُم قال : خُذيهم . فأَخذَتْهم إلى رُكَبِهم ، ثُم إلى مَناكِبِهم ، ثُم قال : أَقْبِلى بكنوزِهم وأموالِهم . فأَقْبَلتْ بها ، حتى نَظَروا إليها ، ثُم أشار موسى بيدِه ، فقال : اذْهَبوا بَنى لاوِى . فاسْتَوتْ بهمُ الأرضُ . وقد رُوِى عن قَتادةَ أنَّه قال : يُخْسَفُ بهم كلَّ يومٍ قامةً ، إلى يومِ القيامةِ . [١/١٩٤ظ] وعن ابنِ عباسٍ أنَّه قال : خُسِف بهم إلى الأرضِ السّابعةِ[1] . وقد ذكَر كثيرٌ مِن المفَسِّرين ههنا إسْرائيلياتٍ كثيرةً ، أَضْرَبْنا عنها صَفْحًا ، وتركناها قَصْدًا .

وقولُه تعالى[2] : ﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ ، لم يكنْ له ناصرٌ مِن نفسِه ، ولا مِن غيرِه ، كما قال : ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق : ١٠] . ولمّا حلّ به ما حلَّ مِن الخَسْفِ ، وذَهابِ الأَمْوالِ ، وخَرابِ الدَّارِ ، وهَلاكِ النَّفسِ والأَهْلِ والعَقارِ ، ندِم مَن كان تَمَنَّى مثلَ ما أُوتِىَ ، وشكروا اللَّهَ تعالى الذى يُدَبِّرُ عبادَه بما يشاءُ ، مِن حُسْنِ التَّدْبيرِ المخْزونِ ، ولهذا قالوا : ﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا

(١) التفسير ٦/ ٢٦٧.
(٢) التفسير ٦/ ٢٦٧.

يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ ، وقد تكلَّمْنا على لفظِ : « وَيْكَ » فى « التّفسيرِ »[1] ، وقد قال قَتادةُ : ويكأَنّ بمعنى أَلم تَر أَنَّ . [2]وهذا قولٌ حَسنٌ مِن حيثُ المعنى . واللَّهُ أعلمُ . ثُم أخبَر تعالى ﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ ﴾ وهى دارُ[2] القرارِ . وهى الدّارُ التى يُغْبَطُ مَن أُعْطِيَها ، ويُعَزَّى مَن حُرِمَها ، إنَّما هى مُعَدَّةٌ للذين لا يُريدون عُلُوًّا فى الأرضِ ولا فسادًا . فالعُلُوُّ هو التَّكَبُّرُ والفَخْرُ والأَشَرُ والبَطَرُ . والفسادُ هو عملُ المَعاصى اللَّازِمةِ والمُتَعَدِّيَةِ ؛ مِن أَخْذِ أموالِ النَّاسِ ، وإفسادِ معايِشِهم ، والإِساءةِ إليهم ، وعدمِ النُّصْحِ لهم ، ثم قال تعالى : ﴿ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ .

وقصَّةُ قارونَ هذه ، قد تكونُ قبلَ خروجِهم مِن مصرَ ؛ لقولِه : ﴿ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ ﴾ ، فإنّ الدَّارَ ظاهرةٌ فى البُنْيانِ ، وقد تكونُ بعدَ ذلك فى التِّيهِ ، وتَكونُ الدَّارُ عبارةً عن المحَلَّةِ التى تُضْرَبُ فيها الخيامُ ، كما قال عَنْترةُ[3] :

يا دارَ عبلةَ بالجَواءِ[4] تكلَّمى ... وعِمى صَباحًا دارَ عبلةَ واسْلَمِى

واللَّهُ أعلمُ .

وقد ذكَر اللَّهُ تعالى مَذَمَّةَ قارونَ فى غيرِ ما آيةٍ مِن القرآنِ ؛ قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ﴾ [غافر: ٢٣، ٢٤] . وقال تعالى فى سورةِ « العَنْكبوتِ » بعدَ ذِكْرِ عادٍ وثمودَ : ﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا

---

(١) التفسير ٦/ ٢٦٨.
(٢ - ٢) سقط من: الأصل.
(٣) ديوان عنترة ص ٩٨.
(٤) الجواء اسم موضع.

أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٣٩، ٤٠]. فالذى خُسِف به الأرضُ قارونُ، كما تقدَّمَ، والذى أُغرِق فِرْعَونُ وهَامَانُ وجُنُودُهما، إنَّهم كانوا خاطِئِينَ.

وقد قال الإمامُ أحمدُ[1]: حدَّثنا أبو عبدِ الرَّحمنِ، حدَّثنا سَعِيدٌ، حدَّثنا كَعْبُ بنُ عَلْقَمَةَ، عن عيسى بنِ هِلَالٍ الصَّدَفِىِّ[2]، عن عبدِ اللَّهِ بنِ عَمْرٍو، عن النَّبىِّ ﷺ، أنَّه ذكَر الصَّلاةَ يومًا، فقال: «مَن حافَظَ عَلَيها كانَتْ لَه نُورًا وبُرْهَانًا ونَجاةً يومَ القِيامَةِ [١/١٩٥و]، ومَن لمْ يُحافِظْ عَليها، لم يَكنْ لَه نورٌ ولا بُرهانٌ ولا نَجاةٌ، وكَان يومَ القِيامةِ مَع قارونَ وفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وأُبَىِّ بنِ خَلَفٍ». انفَرَد به أحمدُ، رَحِمَه اللَّهُ.

---

(١) فى المسند ٢/ ١٦٩. (إسناده صحيح).
(٢) فى الأصل: «الصندلى».

ذِكْرُ فضائِلِ مُوسى، عَليه السلامُ
وَشمائِلِه وصِفاتِه ووَفاتِه[1]

قال اللَّهُ تعالى[2] : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥١ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٥١- ٥٣]. وقال تعالى[3] : ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي ﴾ [الأعراف: ١٤٤]. وتَقَدَّم فى «الصَّحيحَيْنِ»[4] ، عن رَسولِ اللَّهِ ﷺ، أنَّه قال: «لا تُفَضِّلُونى عَلى مُوسى، فإنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يومَ القيامةِ، فأكونُ أولَ مَن يُفِيقُ، فأَجِدُ مُوسى باطِشًا بقائِمةِ العَرْشِ، فَلا أَدْرِى أَصُعِق فأَفاقَ قَبْلى، أَمْ جُوزِىَ بصَعْقَةِ الطُّورِ». وقدَّمنا[5] أنَّ هذا من رسولِ اللَّهِ ﷺ، مِن باب الهَضْمِ والتَّواضُعِ، وإلَّا فهو، صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه، خاتَمُ الأَنْبياءِ، وسيِّدُ ولدِ آدمَ فى الدُّنْيا والآخرةِ، قَطْعًا جَزْمًا لا يَحْتَمِلُ النَّقِيضَ. وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ إلى أن قال: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ

---

(١) فى م: «ووفاته».
(٢) التفسير ٥/ ٢٣٢، ٢٣٣.
(٣) التفسير ٣/ ٤٧١.
(٤) تقدم فى ١/ ٣٩٥، ٣٩٦.
(٥) تقدم ص ٣٠ .

﴿ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ [النساء: ١٦٣، ١٦٤]. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

قال الإمامُ أبو عبدِ اللَّهِ البخاريُّ[(١)]: حدثنا إسْحاقُ بنُ إبراهيمَ حدَّثنا[(٢)] رَوْحُ بنُ عُبادةَ، عن عَوْفٍ، عن الحسنِ ومحمدٍ وخِلَاسٍ، عن أبى هُرَيرَةَ، قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «إنَّ موسى كان رجلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا، لا يُرَى جِلْدَه شىءٌ؛ اسْتِحْياءً مِنه، فآذاه مَن آذاه مِن بَنى إسْرائيلَ، فقالوا: ما يَسْتَتِرُ هذا التَّستُّرَ إلا مِن عَيْبٍ بجلْدِه؛ إمّا بَرَصٌ، وَإمَّا أُدْرَةٌ، وإمَّا آفةٌ، وإنَّ اللَّهَ، عزَّ وجلَّ، أرادَ أن يُبَرِّئَه ممَّا قالوا لموسى، فخَلا يومًا وَحْدَه، فوَضَعَ ثيابَه على الحَجَرِ، ثُم اغْتَسَلَ، فلمَّا فَرَغ، أقْبَلَ إلى ثِيابِه لِيأْخُذَها، وإنَّ الحَجَرَ عَدَا بثَوْبِه، فأخَذ مُوسى عَصاهُ، وطَلَب الحَجَرَ، فجَعَلَ يَقُولُ: ثَوْبِى حَجَرُ، ثَوْبِى حَجَرُ. حتى انتهى إلى ملأٍ مِن بَنى إسْرائيلَ، فَرَأَوْه عُرْيانًا، أحْسَنَ ما خَلَق اللَّهُ وأَبْرَأَهُ ممَّا يَقُولُونَ، وقام الحَجَرُ، فأخَذَ ثوبَه فلَبِسَه، وطَفِق بالحَجَرِ ضَرْبًا بعَصاه، فَوَاللَّهِ إنَّ بالحَجَرِ لنَدَبًا مِن أَثَرِ ضَرْبِه ثلاثًا أوْ أرْبَعًا، أو خَمْسًا» قال: «فذلك قولُه عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ [١٩٥/١ظ] لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾». وقَدْ رَواهُ الإمامُ أحمدُ[(٣)] مِن حديثِ عبدِ اللَّهِ بنِ شَقِيقٍ، وهَمَّامِ بنِ مُنَبِّهٍ، عن أبى هُرَيرةَ به[(٤)]، وهو فى

---

(١) البخارى (٣٤٠٤).

(٢) فى م، ص: «بن». وهو خطأ.

(٣) مسند أحمد ٣٢٤/٢ من حديث عبد اللَّه بن شقيق، ٣١٥/٢ من حديث همام بن منبه.

(٤) سقط من: الأصل، ص.

«الصَّحيحين»[1] مِن حديثِ عَبدِ الرَّزَّاقِ، عن مَعْمَرٍ، عن هَمَّامٍ، عنه به، ورواه مُسْلِمٌ[2] مِن حديثِ عَبدِ اللَّهِ بنِ شَقِيقٍ العُقَيْلِيِّ عنه.

قال بعضُ السَّلَفِ: كان مِن وَجاهتِه أنَّه شفَع فى أخيه عندَ اللَّهِ، وطَلَب مِنه أن يكونَ مَعَه وزيرًا، فأجابه اللَّهُ إلى سؤالِه، وأعْطاه طَلِبَتَه، وجعلَه نبيًّا؛ كما قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾. ثُم قال البُخاريُّ[3]: حدَّثنا أبو الوَليدِ، حدَّثنا شُعْبَةُ، عن الأَعْمشِ، سألْتُ أبا وائِلٍ، قال: سمعتُ عبدَ اللَّهِ، قال: قسَم رسولُ اللَّهِ ﷺ، قَسْمًا، فقال رجلٌ: إنَّ هذه لَقِسْمَةٌ ما أُرِيدَ بها وجهُ اللَّهِ. فأتَيْتُ النَّبيَّ ﷺ، فأَخْبَرْتُه[4]، فغَضِبَ حتى رأيتُ الغَضَبَ فى وجهِه، ثُم قال: «يَرحَمُ اللَّهُ موسى، قدْ أُوذِىَ بِأَكثَرَ مِن هَذا فصَبَرَ». وكذا رواه مُسْلِمٌ[5]، مِن غيرِ وجهٍ، عن سُلَيمانَ بنِ مِهْرانَ الأَعْمَشِ بهِ.

وقال الإمامُ أحمدُ[6]: حدَّثنا[7] حَجَّاجٌ، سَمِعتُ إسْرائيلَ بنَ يُونُسَ، عن الوَليدِ بنِ أبى هاشِمٍ[8]، مَوْلًى لهَمْدانَ، عن زيدِ بنِ أبى زائدٍ، عن عبدِ اللَّهِ بنِ مَسْعودٍ، قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ لأصْحابِهِ: «لا يبلِّغْنى أحدٌ عن أحدٍ شيئًا،

---

(١) البخارى (٢٧٨)، ومسلم (٣٣٩).
(٢) مسلم (١٥٦) (٠٠٠) من كتاب الفضائل.
(٣) البخارى (٣٤٠٥).
(٤) سقط من: ح، م.
(٥) مسلم (١٠٦٢) من حديث حفص بن غياث عن الأعمش به. وهو وجه واحد. ولعل ابن كثير أخطأ - على ما ورد فى تحفة الأشراف ٤٤/٧ - فى عزو الحافظ المزى على طرق البخارى فجعلها طرقًا لحديث الإمام مسلم. وهو ما وقع خطأ فى المطبوع من التحفة. فانظره.
(٦) مسند أحمد ٣٩٥/١، ٣٩٦. (إسناده حسن).
(٧) بعده فى م، ص: «أحمد بن».
(٨) فى المسند: «هشام» وكلاهما ورد. انظر تهذيب الكمال ١٠٤/٣١.

فإنّى أُحِبُّ أن أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ ، وأَنا سَلِيمُ الصَّدْرِ » قال : وأتى رسولَ اللَّهِ ﷺ مَالٌ فقسَمَه ، قال : فمَرَرْتُ برَجُلَيْنِ ، وأحدُهما يقولُ لصاحبِه : واللَّهِ ما أراد محمدٌ بقِسْمَتِه وجهَ اللَّهِ ، ولا الدَّارَ الآخِرةَ ، فتَبَتُّ[1] حتى سَمِعتُ ما قالا . ثم أَتيتُ رسولَ اللَّهِ فقلتُ : يا رسولَ اللَّهِ ، إنَّك قلتَ لنا : « لا يُبَلِّغْنِى أحدٌ عن أحدٍ مِن أصحابى شيئًا » . وإنّى مَرَرْتُ بفلانٍ وفلانٍ ، وهما يقولان كذا وكذا ، فاحمرَّ وجهُ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، وشقَّ عليه ، ثُم قال : « دعْنا مِنك ، فقد أُوذِىَ مُوسى أكثرَ مِن ذلك فصَبَرَ » . وهكذا رواه أبو داودَ ، والتِّرمذىُّ[2] ، مِن حديثِ إسرائيلَ ، عن الوليدِ بنِ أبى هاشمٍ به ، وفى روايةٍ للتِّرمذِىِّ ، ولأبى داود[3] ، مِن طريقِ [4]الحسينِ بنِ محمدٍ[4] عن إسْرائيلَ ، عن السُّدِّىِّ ، عن الوليدِ به . وقال التِّرمذىُّ : غريبٌ مِن هذا الوجهِ .

وقد ثَبَت فى « الصَّحيحِ »[5] فى أحاديث الإِسراءِ أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ ، مرَّ بموسى ، وهو قائمٌ يصلِّى فى قَبْرِه . ورَواه مسلمٌ[6] عن أَنَسٍ .

وفى « الصّحيحَين »[7] ، مِن رِوايةِ قَتادَةَ ، عن أَنَسٍ ، عن مَالِكِ بنِ صَعْصَعَةَ ، عن النَّبىِّ ﷺ ، أنَّه مرَّ ليلةَ أُسْرِىَ به ، بموسى فى السَّماءِ السَّادِسَةِ ، فقال لَهُ جِبْرِيلُ : هذا موسى ، فسلِّمْ عليه . [١٩٦/١و] قال : « فسَلَّمْتُ عليه . فقال :

---

(١) فى المسند : « فتثبت » .

(٢) أبو داود (٤٨٦٠) ، الترمذى (٣٨٩٦) . (ضعيف الترمذى ٨١٧) .

(٣) أبو داود (٤٨٦٠) ، الترمذى (٣٨٩٧) . (ضعيف أبى داود ١٠٣٥) .

(٤ - ٤) فى الأصل ، ح ، ص : « ابن العبد » . وفى م : « ابن عبد » . والمثبت من سنن أبى داود والترمذى .

(٥) فى ح ، ص ، م : « الصحيحين » . وتقدم تخريجه ص ٩٧ .

(٦) مسلم (٢٣٧٥) .

(٧) البخارى (٣٢٠٧) ، ومسلم (١٦٤) .

مرحبًا بالنَّبىِّ الصّالحِ، والأَخِ الصّالحِ. فلمَّا تجاوَزْتُ بكى؛ قِيل له: ما يُبْكِيكَ؟ قال: أَبْكِى لأنَّ غُلامًا بُعِثَ بَعدِى يدْخُلُ الجنَّةَ مِن أمَّتِه أكثرُ ممَّا يدْخُلُها مِن أمَّتى». وذكَر إبراهيمَ فى السَّماءِ السَّابعَةِ. وهذا هو المحفوظُ، وما وقَع فى حديثِ شَرِيكِ بنِ أبى نَمِرٍ، عن أَنَسٍ، مِن أنَّ إبراهيمَ فى السّادسةِ، وموسى فى السّابعةِ، بتَفْضيلِ كَلامِ اللَّهِ، فقدْ ذكَر غيرُ واحدٍ مِن الحُفّاظِ أنَّ الذى عليه الجادَّةُ أنَّ موسى فى السّادسةِ، وإبراهيمَ فى السّابعةِ، وأنَّه مُسْنِدٌ ظهْرَه إلى البيتِ المَعْمورِ، الذى يدْخُلُه كلَّ يومٍ سَبْعون ألفًا مِن الملائكةِ، ثُم لا يَعودُونَ إليه آخِرَ ما عَليهم. واتفقتِ الرِّواياتُ كلُّها على أنَّ اللَّهَ تعالى، لمَّا فَرَض على محمدٍ ﷺ، وأمَّتِه، خَمْسينَ صلاةً فى اليومِ والليلةِ، فمرَّ بموسى، قال: «ارجِعْ إلى ربِّك فاسْأَلْه التَّخفيفَ لأُمَّتِك، فإنِّى قد عالَجْتُ بنى إسرائيلَ قبْلَك أشَدَّ المعالجَةِ، وإنَّ أمَّتَك أضعفُ أسماعًا، وأبصارًا، وأفئدةً» فلم يَزَلْ يتردَّدُ بينَ موسى وبينَ اللَّهِ، عزَّ وجلَّ، ويخفِّفُ عنه فى كلِّ مَرَّةٍ، حتى صارتْ خمسَ صَلَواتٍ فى الْيومِ والليْلَةِ. وقال اللَّهُ تعالى: «هى خمسٌ، وهى خَمْسون»[1]. أى؛ بالمضاعَفَةِ، فجزى اللَّهُ عنَّا محمدًا ﷺ خيرًا، وجزى اللَّهُ عنَّا موسى، عليه السّلامُ، خيرًا.

وقال البُخاريُّ[2]: حدَّثنا مُسَدَّدٌ، حدَّثنا حُصَينُ بنُ نُمَيْرٍ، عن حُصَيْنِ بنِ عبدِ الرَّحمنِ، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ، عن ابنِ عباسٍ، قال: خرَج علينا رسولُ اللَّهِ ﷺ يومًا، فقال: «عُرِضَتْ علىَّ الأُمَمُ، ورأَيتُ سَوادًا كثيرًا، سدَّ الأُفُقَ،

---

(١) البخارى (٣٤٩).
(٢) البخارى (٥٧٥٢).

فقِيل: هذا موسى فى قومِه». هكذا رَوى البخارىُّ هذا الحديثَ ههنا مختَصَرًا.

وقد رواه الإمامُ أحمدُ[1] مطوَّلًا، فقال: حدَّثنا سُرَيجٌ[2]، حدَّثنا هُشَيْمٌ[3]، حدَّثنا حُصَينُ بنُ عبدِ الرَّحمنِ، قال: كنتُ عندَ سعيدِ بنِ جُبَيرٍ، قال: أيُّكم رأَى الكوكبَ الذى انقضَّ البارِحةَ؟ قُلتُ: أنا. ثُم قلت: أَمَا إنِّى لم أَكُنْ فى صلاةٍ، ولكنى[4] لُدِغتُ. قال: وكيفَ فعلتَ؟ قلتُ: استرْقَيتُ. قال: وما حمَلَك على ذلك؟ قال: قلتُ: حديثٌ حدثناه الشَّعْبىُّ، عن بُرَيْدَةَ الأسلمىِّ، أنَّه قال: «لا رُقْيَةَ إلا مِن عينٍ أو حُمَةٍ». فقال سَعيدٌ - يَعْنى ابنَ جُبَيْرٍ -: قد أحْسنَ مَن انتهى إلى ما سَمِع. ثُم قال: حدَّثنا ابنُ عباسٍ، عن النَّبىِّ ﷺ، قال: «عُرِضَتْ علىَّ الأممُ، فرأيتُ النَّبىَّ ومعه الرُّهْطَ، والنَّبىَّ معه الرَّجُلَ والرجُلَيْنِ[5]، والنَّبىَّ وليس معه أحدٌ؛ إذ رُفِع لى سوادٌ عظيمٌ، فقلتُ: هذِه أمَّتى. فقِيل: هذا موسى وقومُه، ولكنِ انظُرْ إلى الأُفُق. فإذا سَوادٌ عظيمٌ، [١/١٩٦ظ] ثُم قِيل: انظُرْ إلى هذا الجانِبِ. فإذا سَوادٌ عظيمٌ، فَقِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ، ومعهم سَبْعُونَ أَلفًا، يَدْخُلُونَ الجنَّةَ بِغيرِ حسابٍ وَلا عَذابٍ». ثُم نَهَضَ رسولُ اللَّهِ ﷺ، فدخَل، فخاض القومُ فى ذلك، فقالوا: مَن هؤلاءِ الذين يدْخُلُون الجنّةَ بغيرِ حسابٍ ولا عذابٍ؟ فقال بَعْضُهم: لعلَّهم الذين صَحِبوا النَّبىَّ ﷺ. وقال بَعْضُهم: لعلَّهم الذين وُلِدُوا فى الإسْلامِ، ولم يُشْرِكوا باللَّهِ

(١) مسند أحمد ١/ ٢٧١.
(٢) فى الأصل، م، ص: «شريح».
(٣) فى م، ص: «هشام».
(٤) فى النسخ: «ولكن». والمثبت من مصدر التخريج.
(٥) كذا فى الأصل، ح، ص، والمسند. وفى م وصحيح مسلم (٢٢٠): «الرجلان».

شيئًا قطُّ . وذكروا أشياءَ ، فخرَج إليهم رسولُ اللَّهِ ﷺ ، فقال : « ما هذا الذى كُنتم تخوضُونَ فيه ؟ » . فأَخْبَرُوه بمقالَتِهم ، فقال : « هم الذين لا يَكْتَوُونَ ، ولا يَسْتَرْقُونَ ، ولا يَتَطَيَّرونَ ، وعلى ربِّهم يتوكَّلونَ » . فقام عُكَّاشةُ بنُ مِحْصَنٍ الأَسَدِىُّ ، فقال : أنا مِنهم يا رسولَ اللَّهِ ؟ قال : « أنتَ مِنهم » . ثُم قام آخَرُ فقال : أنا مِنهم يا رسولَ اللَّهِ ؟ فقال : « سَبَقَك بها عُكَّاشةُ » . وهذا الحديثُ له طُرُقٌ كثيرةٌ جدًّا ، وهو فى الصِّحاحِ والحِسانِ ، وغَيْرِها ، وسنورِدُها إنْ شاءَ اللَّهُ تعالى فى بابِ صفةِ الجنَّةِ ، عندَ ذِكْرِ أحوالِ القيامةِ وأَهْوَالِهَا . وقد ذكَر اللَّهُ تعالى موسى ، عليه السّلامُ ، فى القرآنِ كثيرًا ، وأَثْنَى عليه ، وأَوْرَدَ قِصّتَه فى كتابِه العزيزِ مِرارًا ، وكرَّرَها كثيرًا ، مطوَّلةً ومَبْسوطةً ، ومَخْتَصَرَةً ، وأثْنى عليه بليغًا . وكثيرًا ما يَقْرِنُه[1] اللَّهُ ، ويذكرُه ، ويذكرُ كتابَه مع محمدٍ ﷺ ، وكتابِه ، كما قال فى سورةِ « البقرةِ » : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٠١] . وقال تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [آل عمران : ١ - ٤] . وقال تعالى فى سورةِ « الأنعامِ » : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ۝٩١ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ

---

(١) فى الأصل : « يقربه » .

ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [الأنعام: ٩١، ٩٢]. فأثنى تعالى على التَّوراةِ، ثُم مدَح القرآنَ العَظِيمَ مدحًا عَظيمًا، وقال تعالى فى آخرِها: ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٤، ١٥٥]. وقال تعالى فى سورةِ «المائدةِ»: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ [١/١٩٧و] يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]. إلى أن قال: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ ﴾ الآية. [المائدة: ٤٧، ٤٨]. فجعَل القرآنَ حاكِمًا على سائرِ الكُتُبِ غيرِه، وجعَله مُصَدِّقًا لها، ومُبيِّنًا ما وقَع فيها مِن التحريفِ والتبديلِ، فإنَّ أهلَ الكتابِ استُحْفِظُوا على[1] ما بأيديهم مِن الكتبِ، فلم يَقْدِروا على حِفْظِها، ولا على ضَبْطِها وصَوْنِها، فلهذا دَخَلَها ما دَخَلَها مِن تَغْييرِهم وتَبديلِهم؛ لسوءِ فُهُومِهم، وقُصُورِهم فى عُلومِهم، ورَداءةِ قُصودِهم، وخيانَتِهم لِمَعْبُودِهم، عَليهم لَعائِنُ اللَّهِ المُتَتابعةُ[2] إلى يوم القِيامةِ، ولهذا يُوجَدُ فى كُتُبِهم مِن الخطأِ البيِّنِ على اللَّهِ، وعلى رُسُلِه[3]، ما لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ، وما لا

---

(١) سقط من: الأصل.

(٢) فى الأصل، ح: «التابعة».

(٣) فى م: «رسوله».

يُوجَدُ مِثلُه ولا يُعْرفُ . وقال تعالى فى سورةِ « الأنبياءِ » : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨- ٥٠] . وقال اللَّهُ تعالى فى سورةِ « القَصص » : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [القصص: ٤٨، ٤٩] . فأثْنى اللَّهُ على الكِتابَيْنِ ، وعلى الرَّسولَيْنِ ، عَلَيْهما السَّلامُ ، وقالتِ الجِنُّ لقومِهم : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [الأحقاف: ٣٠] . وقال وَرَقَةُ بنُ نَوْفَلٍ ، لَمَّا قَصَّ عليه رسولُ اللَّهِ ﷺ ، خبَرَ ما رأَى مِن أَوَّلِ الوحيِ ، وتَلا عليه : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١- ٥] . قال: سُبُّوحٌ سُبُّوحٌ ، هذا النّاموسُ الذى أُنْزِلَ على مُوسى بنِ عِمْرانَ[١] .

وبالجُمْلَةِ ، فشَريعةُ موسى ، عَليه السّلامُ ، كانت شَريعةً عَظيمةً ، وأُمَّتُه كانت أُمَّةً كَثيرةً ، ووُجِدَ فيهم أنبياءُ ، وعلماءُ ، وعُبادٌ ، وزُهّادٌ ، وأَلِبّاءُ ، ومُلوكٌ ، وأُمَراءُ ، وساداتٌ ، وكُبَراءُ ، لكنَّهم كانوا ، فبادُوا وتبدَّلوا ، كما بُدِّلتْ شَريعتُهم ، ومُسِخوا قِردةً وخَنازيرَ ، ثُم نُسِخَتْ بعدَ كلِّ حِسابٍ مِلَّتُهم ، وجَرَت[٢] عليهم خُطوبٌ ، وأُمورٌ يَطُولُ ذِكْرُها ، [١٩٧/١ظ] ولكن سَنورِدُ ما فِيه مَقْنَعٌ لِمَنْ أرادَ أن يَبْلُغَه خبرُها ، إن شاءَ اللَّهُ تعالى ، وبه الثقةُ وعليه التُّكْلانُ .

---

(١) البخارى (٣، ٣٣٩٢، ٤٩٥٣، ٤٩٥٥، ٤٩٥٧، ٦٩٨٢)، ومسلم (١٦٠).

(٢) فى الأصل: «حق». وفى ح: «حرمت».

ذِكرُ حَجّ موسى، عليه السَّلامُ،

إلى البيتِ العتيقِ وصفتِه

قال الإمامُ أحمدُ[1]: حدَّثنا هشيمٌ، حدثنا داودُ بنُ أبى هِندٍ، عن أبى العاليةِ، عن ابنِ عباسٍ، أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ، مَرَّ بوادى الأزرقِ، فقال: «أىُّ وادٍ هذا؟» قالوا: وادِى الأَزْرَقِ. قال: «كأنِّى أنْظُرُ إلى موسى، وهو هابِطٌ مِن الثَّنِيَّةِ، وله جُؤَارٌ[2] إلى اللَّهِ، عزَّ وجلَّ، بالتَّلْبِيَةِ». حتى أتى على ثَنِيَّةِ هَرْشَاء[3]، فقال: «أىُّ ثَنِيَّةٍ هذه؟» قالوا: هذه ثنيةُ هَرْشاءَ. قال: «كأنِّى أنظرُ إلى يونُسَ بنِ مَتَّى على ناقَةٍ حمراءَ، عليه جُبَّةٌ مِن صُوفٍ، خِطامُ ناقتِه خُلْبَةٌ - قال هُشَيْمٌ: يعنى لِيفًا - وهو يُلَبِّى». وأَخْرَجَه مسلمٌ مِن حديثِ داودَ بنِ أبى هندٍ به[4]. ورَوَى الطَّبَرانِىُّ[5]، عن ابنِ عباسٍ مرفوعًا: «إنَّ موسى حَجَّ على ثَوْرٍ أحمرَ». وهذا غريبٌ جدًّا.

وقال الإمامُ أحمدُ[6]: حدثنا محمدُ بنُ أبى عَدِىٍّ، عن ابنِ عونٍ، عن مُجاهِدٍ، قال: كنّا عندَ ابنِ عباسٍ، فذكرُوا الدَّجّالَ، فقال: إنَّه مكتوبٌ بين

---

(١) أحمد فى المسند ١/ ٢١٥، ٢١٦. (إسناده صحيح).
(٢) الجؤار: التضرع والاستغاثة بصوت مرتفع.
(٣) ثنية بين مكة والمدينة، وقيل: جبل قرب الجحفة فى طريق مكة.
(٤) مسلم (١٦٦).
(٥) الطبرانى فى الكبير (١٢٥١٠). قال الهيثمى «مجمع الزوائد» ٣/ ٢٢١: رواه الطبرانى وفيه ليث ابن أبى سليم وهو ثقة ولكنه مدلس وبقية رجاله ثقات.
(٦) المسند ١/ ٢٧٦، ٢٧٧. (إسناده صحيح).

عَيْنَيْه : (ك ف ر) . قال : ما تقولون ؟ قال : يقولون : مكتوبٌ بين عينَيْه (ك ف ر) ، فقال ابنُ عباسٍ : لم أسْمَعْه قال ذلك ، ولكن قال : « أمّا إبراهيمُ فانظروا إلى صاحِبِكم ، وأمّا موسى ، فرجُلٌ آدَمُ جَعْدٌ ، على جَمَلٍ أحمرَ مخطُومٍ بخُلْبَةٍ ، كأنّى أنْظُرُ إليه وقد انْحَدَرَ مِن الوادى يُلَبِّى » . قال هُشَيْمٌ : الخُلْبَةُ اللِّيفُ .

ثم رواه الإمامُ أحمدُ[1] عن أسودَ ، عن إسرائيلَ ، عن عثمانَ بنِ المغيرةِ ، عن مُجاهدٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « رأيتُ عيسى ابنَ مريمَ ، وموسى ، وإبراهيمَ ؛ فأمّا عيسى ، فأبيضُ ، جَعْدٌ ، عريضُ الصّدرِ ، وأمّا موسى فآدَمُ جَسِيمٌ » قالوا : فإبراهيمُ ؟ قال : « انظرُوا إلى صاحبِكم » . وقال الإمامُ أحمدُ[2] : حدَّثنا يونسُ ، حدَّثنا شَيْبانُ ، قال : حَدَّثَ قَتادةُ ، عن أبى العاليةِ ، حدثنا ابنُ عمِّ نبيِّكم ، ابنُ عباسٍ ، قال : قال نبيُّ اللَّهِ ﷺ : « رأيتُ ليلةَ أُسْرِىَ بى موسى بنَ عِمْرَانَ ، رجلًا طُوَالًا ، جَعْدًا ، كأنّه مِن رجالِ شَنُوءَةَ ، ورأيتُ عيسى ابنَ مريمَ مَرْبوعَ الخَلْقِ ، إلى الحُمْرةِ والبَياضِ ، سَبْطَ الرّأسِ » . وأخرجاه مِن حديثِ قَتادةَ به[3] .

وقال الإمامُ أحمدُ[4] : حدثنا عبدُ الرّزّاقِ ، حدثنا مَعْمَرٌ ، قال الزُّهْرِىُّ : وأخبرنى سعيدُ بنُ المسيّبِ ، عن أبى هُرَيرةَ ، قال : قال رسولُ اللَّه ﷺ ، حينَ أُسْرِىَ به : « لَقِيتُ موسى » . فنَعَتَه ، فقال رجلٌ : قال : حَسِبْتُه قال :

---

(1) المسند ١/ ٢٩٦. (إسناده صحيح) .
(2) المسند ١/ ٢٤٥. (إسناده صحيح) .
(3) البخارى (٣٢٣٩، ٣٣٩٦) ، ومسلم (١٦٥) .
(4) المسند ٢/ ٢٨٢. (إسناده صحيح) .

« مضطرِبٌ رَجِلُ الرَّأسِ ، كأنَّه مِن [١/١٩٨و] رجالِ شَنُوءَةَ . ولقيتُ عيسى » . فنَعَتَه رسولُ اللَّهِ ﷺ ، فقال : « رَبْعَةٌ أحمرُ ، كأنَّما خَرَجَ مِن دِيماسٍ » . يعنى حمّامًا ، قال : « ورأيتُ إبراهيمَ وأنا أشْبَهُ ولدِه به » . الحديث . وقد تقدَّم غالِبُ هذه الأَحاديثِ فى ترجمةِ الخليلِ[1] ، صلواتُ اللَّهِ عليه وسلامُه .

---

(١) انظر ما تقدم فى ١/ ٤٠٠، ٤٠١.

ذِكْرُ وفاتِه، عليه السّلامُ

قال البخاريُّ[1] في « صحيحِه » : (وفاةُ موسى ، عليه السّلامُ) : حدَّثنا يحيى بنُ موسى ، حدَّثنا عبدُ الرَّزّاقِ ، أَخْبَرَنا مَعْمَرٌ عن ابنِ طاوسٍ ، عن أبيه ، عن أبى هُرَيرةَ ، قال : أُرْسِلَ مَلَكُ الموتِ إلى موسى ، عليه السّلامُ ، فلمّا جاءَه صَكَّه ، فرجع إلى ربِّه ، عزَّ وجلَّ ، فقال : أرسلْتَنى إلى عبدٍ لا يريدُ الموتَ ، قال : ارجِعْ إليه ، فقُلْ له يَضَعُ يدَه على مَتْنِ ثَوْرٍ ، فله بما غَطَّتْ يدُه ، بكلِّ شَعْرةٍ سَنَةٌ . قال : أىْ ربِّ ، ثُم ماذا ؟ قال : ثُم الموتُ ، قال : فالآنَ . قال : فَسَأَلَ اللَّهَ تعالى أنْ يُدْنِيَه مِن الأرضِ المقدَّسةِ ، رَمْيَةً بحجَرٍ ، قال أبو هُرَيرةَ : فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « فلو كنتُ ثَمَّ لأَرَيْتُكُمْ قَبْرَه ، إلى جانِبِ الطَّريقِ ، عندَ الكَثِيبِ الأحمرِ » .

قال[2] : وأنبأنا مَعْمَرٌ ، عن همّامٍ ، عن أبى هُرَيرةَ ، عن النَّبىِّ ﷺ نحوَه . وقد روى مسلمٌ الطّريقَ الأوَّلَ مِن حديثِ عبدِ الرَّزّاقِ به[3] . ورواه الإمامُ أحمدُ ، مِن حديثِ حمّادِ بنِ سَلَمَةَ ، عن عمّارِ بنِ أبى عمّارٍ ، عن أبى هُرَيرةَ مرفوعًا ، وسيأتى[4] .

---

(١) البخارى (١٣٣٩، ٣٤٠٧) موقوفًا ومرفوعًا.

(٢) أى : البخارى .

(٣) مسلم (٢٣٧٢) موقوفًا .

(٤) أحمد فى المسند ٢/ ٣١٩.

وقال الإمامُ أحمدُ[1] : [2]حدَّثنا الحسنُ[2] ، حدَّثنا ابنُ لَهِيعَةَ ، حدَّثنا أبو يونسَ ، يعنى سُلَيْمَ بنَ جُبَيْرٍ ، عن أبى هُرَيرةَ - قال الإمامُ أحمدُ : لم يَرْفَعْه - قال : جاءَ مَلَكُ الموتِ إلى موسى ، عليه السّلامُ ، فقال : أَجِبْ ربَّك . فلَطَمَ موسى عينَ مَلَكِ الموتِ ، ففَقَأَها ، فَرَجَع المَلَكُ إلى اللَّهِ ، فقال : إنَّك بَعَثْتَنى إلى عبدٍ لك لا يريدُ الموتَ . قال : وقد فقأ عينى ، قال : فردَّ اللَّهُ عينَه ، وقال : ارجِعْ إلى عبدِى ، فقلْ له : الحياةَ تريدُ ؟ فإنْ كنتَ تريدُ الحياةَ ، فضَعْ يَدَكَ على مَتْنِ ثَوْرٍ ، فما وارَتْ يَدُكَ مِن شَعْرِه ، فإنَّك تعيشُ بها سنةً ، قال : ثُم مَهْ ؟ قال : ثُم الموتُ ، قال : فالآنَ ياربِّ ، مِن قريبٍ . تفرَّدَ به أحمدُ ، وهو موقوفٌ بهذا اللَّفظِ .

وقد رواه ابنُ حِبَّانَ[3] فى « صحيحِه » ، مِن طريقِ مَعْمَرٍ ، عن ابنِ طاوسٍ ، عن أبيه ، [4]عن أبى هُرَيرةَ[4] ، قال مَعْمَرٌ : وأخبرَنى مَن سَمِعَ الحسنَ ، عن رسولِ اللَّهِ ﷺ فذكره ، ثم استَشْكَلَه ابنُ حِبّانَ ، وأجاب عنه بما حاصلُه : أنّ مَلَكَ الموتِ ، لَمّا قالَ له هذا لم يعرِفْه ؛ لمجيئِه له على غيرِ صورةٍ يعرفُها موسى ، عليه السّلامُ ، كما جاء جبريلُ ، عليه السلام ، فى صُورةِ [١/١٩٨ظ] أعرابىٍّ[5] ، وكما وَرَدَتِ الملائكةُ على إبراهيمَ ولوطٍ ، فى صورةِ شبابٍ ، فلم يعرفْهم إبراهيمُ ولا لوطٌ أوَّلًا ، وكذلك موسى ، لعلَّه لم يعرِفْه لذلك ، ولطَمَه ففقأَ عينَه ؛ لأنَّه دخلَ دارَه بغيرِ إذْنِه ، وهذا موافِقٌ لشَرِيعَتِنا فى جوازِ فَقْءِ عينِ مَن

---

(١) أحمد فى المسند ٢/ ٣٥١. (إسناده صحيح).

(٢ - ٢) سقط من : الأصل.

(٣) الإحسان (٦٢٢٣) . إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٤ - ٤) سقط من : الأصل.

(٥) أخرجه مسلم (٨).

نظرَ إليك فى دارِك بغيرِ إذنٍ. ثم أوردَ الحديثَ مِن طريقِ عبدِ الرَّزّاقِ[1]، عن مَعْمَرٍ، عن همّامٍ، عن أبى هُرَيرةَ، قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «جاء مَلَكُ الموتِ إلى موسى ليَقبِضَ رُوحَه، فقال له: أجِبْ ربَّك. فلَطَمَ موسى عينَ مَلَكِ الموتِ، ففَقَأَ عينَه». وذكرَ تمامَ الحديثِ - كما أشار إليه البخاريُّ - ثم تأوَّله على أنّه لمّا رفعَ يدَه ليَلْطِمَه، قال له: أجِبْ ربَّك. وهذا التأويلُ لا يَتَمَشَّى على ما وردَ به اللفظُ، مِن تعقيبِ قولِه: أجِبْ ربَّك. بلَطْمِه، ولو استمرَّ على الجوابِ الأولِ، لتمشَّى له. وكأنّه لم يَعرِفْه فى تلك الصُّورةِ، ولم يَحْمِلْ قولَه هذا على أنّه [2]مُطابِقٌ؛ إذ[2] لم يتحقَّقْ فى السّاعةِ الرّاهنةِ أنّه مَلَكٌ كريمٌ؛ لأنّه كان يرجو أمورًا كثيرةً، كان يُحِبُّ وُقوعَها فى حياتِه؛ مِن خروجِه مِن التِّيهِ، ودخولِهم الأرضَ المقدَّسةَ، وكان قد سبقَ فى قَدَرِ[3] اللَّهِ، أنّه، عليه السّلامُ، يموتُ فى التِّيهِ، بعدَ هارونَ أخيه، كما سنبيِّنُه إنْ شاءَ اللَّهُ تعالى، وقد زعمَ بعضُهم[4] أنّ موسى، عليه السّلامُ، هو الذى خرج بهم مِن التِّيهِ، ودخلَ بهم الأرضَ المقدَّسَةَ. وهذا خلافُ ما عليه أهلُ الكتاب، وجمهورِ المسلمين. وممّا يَدُلُّ على ذلك قولُه، لمّا اختارَ الموتَ: ربِّ، أَدْنِنى إلى الأرضِ المقدَّسةِ، رمْيَةً بحجَرٍ. ولو كان قد دَخلَها، لم يَسْأَلْ ذلك، ولكنْ لمّا كان مع قومِه بالتِّيهِ، وحانَتْ وفاتُه، عليه السَّلامُ، أَحَبَّ أنْ يَتَقَرَّبَ إلى الأرضِ التى هاجرَ إليها، وحثَّ قَوْمَه عليها، ولكنْ حالَ بينَهم وبينَها القَدَرُ، رَمية بحجَرٍ، ولهذا قال

---

(١) الإحسان (٦٢٢٤) (صحيح).

(٢ - ٢) سقط من: الأصل.

(٣) فى م، ص: «قدرة».

(٤) انظر التفسير ٣/ ٧٤، ٧٥. وتفسير الطبرى ٦/ ١٨٢، ١٨٤، ١٨٥.

سيِّدُ البشرِ ، ورسولُ اللَّهِ إلى أهلِ الوَبَرِ والمَدَرِ : « فلو كنتُ ثَمَّ لأَرَيْتُكُمْ قبرَه ، عندَ الكَثِيبِ الأحمرِ » [1] .

وقال الإمامُ أحمدُ [2] : حدَّثنا عفانُ ، حدَّثنا حمادٌ ، حدَّثنا ثابتٌ وسليمانُ التَّيميُّ ، عن أنسِ بنِ مالكٍ ، أنّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال : « لَمّا أُسْرِىَ بى ، مَرَرْتُ بموسى ، وهو قائمٌ يُصَلِّى فى قبرِه ، عندَ الكَثِيبِ الأحمرِ » . ورواه مسلمٌ مِن حديثِ حمّادِ بنِ سَلَمَةَ به [3] .

وقال السُّدِّيُّ [4] ، عن أبى مالكٍ ، وأبى صالحٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، وعن مُرَّةَ ، عن ابنِ مسعودٍ ، وعن ناسٍ مِن الصّحابةِ ، قالوا : ثُمَّ إنّ اللَّهَ تعالى أَوْحَى إلى موسى : إنِّى مُتَوَفٍّ هَارُونَ ، فائتِ به جبلَ كذا وكذا . فانطلَقَ موسَى وهَارُونُ [١٩٩/١و] نحوَ ذلك الجبلِ ، فإذا هم بشجرةٍ لم تُرَ شجرةٌ مثلُها ، وإذا هم ببيتٍ مبنىٍّ ، وإذا هم فيه بِسَريرٍ عليه فُرُشٌ ، وإذا فيه رِيحٌ طيبةٌ ، فلمّا نظر هَارُونُ إلى ذلك الجبلِ والبيتِ وما فيه ، أعجَبَه ، قال : يا موسى ، إنِّى أُحِبُّ أنْ أنامَ على هذا السّريرِ . قال له موسى : فَنَمْ عليه ، قال : إنِّى أخافُ أنْ يأتِىَ رَبُّ هذا البيتِ فيغضبَ علىَّ . قال له : لا ترهَبْ ، أنا أكفيكَ ربَّ هذا البيتِ ، فنَمْ . قال : يا موسى ، بل نَمْ معى ، فإنْ جاء ربُّ هذا البيتِ ، غَضِبَ علىَّ وعليك جميعًا . فلمّا ناما ، أخذ هارونَ الموتُ ، فلمّا وجد حِسَّه ، قال : يا موسى ، خَدعْتَنى . فلمّا قُبِضَ ، رُفِعَ ذلك البيتُ ، وذَهَبَتْ تلك الشَّجرةُ ، ورُفِعَ السّريرُ

---

(١) تقدم تخريجه صفحة ٢٢١.

(٢) أحمد فى المسند ٣/ ٢٤٨.

(٣) سقط من : الأصل . مسلم (٢٣٧٥) .

(٤) تاريخ الطبرى ١/ ٤٣٢.

به إلى السّماءِ ، فلمّا رجعَ موسى إلى قومِه ، وليس معه هَارُونُ ، قالوا : فإنَّ موسى قتلَ هارون ، وحَسَدَه حُبَّ بنى إسرائيلَ له . وكان هَارُونُ أَكَفَّ عَنهم وأَلْيَنَ لهم مِن موسى ، وكان فى موسى بعضُ الغِلْظَةِ عليهم ، فلمَّا بلغَه ذلك قال لهم : ويحَكُم ، كان أخى أَفَتَرَوْنِى أَقتُلُه ؟ فلمّا أكثَرُوا عليه ، قام فصلَّى ركعتَيْنْ ، ثم دَعا اللَّهَ فنزل السَّريرُ حتى نظروا إليه بينَ السَّماءِ والأرضِ ، ثم إنَّ موسى ، عليه السّلامُ ، بينَما هو يمشِى ويُوشَعُ فَتَاهُ ، إذْ أقبلَتْ ريحٌ سوداءُ ، فلمّا نظرَ إليها يُوشَعُ ظَنَّ أنّها السّاعةُ ، فالتزمَ موسى وقال : تقومُ السّاعةُ وأنا مُلتزِمٌ موسى نبيَّ اللَّهِ ، فاسْتُلَّ موسى ، عليه السّلامُ ، مِن تحتِ القميصِ ، وتُرِكَ القميصُ فى يَدَىْ يُوشَعَ ، فلمّا جاءَ يُوشَعُ بالقميصِ آخَذَتْه بنو إسرائيلَ ، وقالوا : قتلتَ نبيَّ اللَّهِ ؟ فقال : لا واللَّهِ ما قَتَلْتُه ، ولكنَّه اسْتُلَّ مِنّى . فلم يُصَدِّقُوه وأرادُوا قَتْلَه . قال : فإذا لم تصدِّقُونى فأخِّرُونى ثلاثةَ أيامٍ . فدَعا اللَّهَ ، فأُتِى كلُّ رجلٍ ممّن كان يحرسُه فى المنامِ ، فأُخبرَ أنَّ يُوشعَ لم يَقْتُلْ موسى ، وأنّا قد رَفَعْناه إلينا ، فتركُوه ، ولم يَبْقَ أحدٌ ممّن أَبَى أنْ يَدْخُلَ قَريةَ الجبّارينَ مع موسى ، إلّا مات ، ولم يَشْهَدِ الفَتْحَ . وفى بعضِ هذا السّياقِ نَكَارةٌ وغَرَابةٌ . واللَّهُ أعلمُ . وقد قَدَّمْنا أنّه لم يَخْرُجْ أحدٌ مِن التّيهِ ، ممّن كان مع موسى ، سوى يُوشَعَ بنِ نونٍ ، وكالبَ ابنِ يُوفَنّا ، وهو زوجُ مريمَ ، أختِ موسى وهَارُونَ ، وهما الرَّجلان المذكوران فيما تقدَّم ، اللذان أشارا على ملأ بنى إسرائيلَ بالدُّخولِ عليهم ، وذكر وَهْبُ ابنُ مُنَبِّهٍ[1] أنَّ موسى ، عليه السّلامُ ، مرَّ بملأٍ مِن الملائكةِ يَحْفِرُون قبرًا ، فلم يَرَ أَحسنَ منه ، ولا أَنْضَرَ ولا أَبْهَجَ ، فقال : يا ملائكةَ اللَّهِ ، لمَنْ تحْفِرون هذا القبرَ ؟

---

(١) تاريخ الطبرى ١/ ٤٣٣، ٤٣٤.

فقالوا : لعبدٍ مِن عبادِ اللَّهِ كريمٍ ، فإنْ كنتَ تُحِبُّ أنْ تكونَ هذا العبدَ ، فادخلْ هذا القبرَ ، وتمدَّدْ فيه ، وتوجَّهْ إلى رَبِّكَ ، وتنفَّسْ أسهلَ تنفُّسٍ . ففعل ذلك ، فماتَ ، صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه [١٩٩/١ظ] فصَلَّتْ عليه الملائكةُ ، ودَفَنُوه . وذَكَر أهلُ الكتابِ وغيرُهم أنَّه ماتَ وعمرُه مائةٌ وعشرون سنةً[١] .

وقد قال الإمامُ أحمدُ[٢] : حدّثنا أميةُ بنُ خالدٍ ، ويونسُ ، قالا : حدثنا حمادُ بنُ سَلَمَةَ ، عن عمّارِ بنِ أبي عمّارٍ ، عن أبي هُرَيرةَ ، عن النَّبيِّ ﷺ ، قال : يونسُ رفَع هذا الحديثَ إلى النبيِّ ﷺ ، قال : « كان مَلَكُ الموتِ يأتي النّاسَ عِيانًا ، قال : فأتى موسى ، عليه السّلامُ ، فلَطَمَه ، ففَقَأَ عينَه ، فأتى ربَّه ، فقال : ياربِّ ، عبدُك موسى فقأَ عيني ، ولولا كرامتُه عليك لَعَنُفْتُ به »[٣] . وقال يونسُ : « لَشَقَقْتُ عليه » . « قال له : اذهبْ إلى عبدِي ، فقلْ له : فليضَعْ يدَه على جِلْدِ – أو مَسْكِ – ثَوْرٍ ، فله بكلِّ شَعْرَةٍ وارَتْ يدُه سنَةٌ . فأتاه ، فقال له ، فقال : ما بعدَ هذا ؟ قال : الموتُ ، قال : فالآنَ » . قال : « فشمَّه شمّةً ، فقبض رُوحَه » . قال يونسُ : « فردَّ اللَّهُ عليه عينَه ، وكان يأتي النّاسَ خُفْيةً » . وكذا رواه ابنُ جَريرٍ[٤] ، عن أبي كُرَيبٍ ، عن مُصْعبِ بنِ المِقدامِ ، عن حمادِ بنِ سَلَمَةَ به ، فرَفَعَه أيضًا . واللَّهُ تعالى أعلمُ .

---

(١) سفر التثنية الأصحاح ٣٤/٧.

(٢) أحمد في المسند ٢/ ٥٣٣. قال الهيثمي في المجمع ٨/٢٠٥ رواه أحمد والبزار ورجاله رجال الصحيح.

(٣) في النسخ : « عليه » . والمثبت من المسند .

(٤) تاريخ الطبري ١/ ٤٣٤.

ذِكْرُ نُبُوَّةِ يوشعَ وقيامِه بأعباءِ بنى إسرائيلَ بعدَ موسى وهارونَ، عليهم السلامُ

هو يُوشَعُ بنُ نونِ بنِ أفراييمَ بنِ يوسفَ بنِ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ، عليهم السّلامُ، (١وأهلُ الكِتابِ يقولون: يُوشَعُ ابنُ عمِّ هودٍ١). وقد ذكره اللّهُ تعالى فى القرآنِ غيرَ مصرَّحٍ باسمِه فى قصةِ الخَضِرِ، كما تقدَّم[٢] فى قولِه: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ﴾، [الكهف: ٦٠] ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ﴾ [الكهف: ٦٢]. وقدَّمْنا[٣] ما ثَبَتَ فى «الصَّحيحِ»، مِن رِوايةِ أُبَيِّ بنِ كعبٍ، رَضِىَ اللّهُ عنه، عن النَّبىِّ ﷺ، مِنْ أنّه يُوشَعُ بنُ نونٍ، وهو مُتَّفَقٌ على نُبُوَّتِه عندَ أهلِ الكتابِ[٤]، فإنّ طائِفَةً منهم، وهم السّامِرَةُ لا يُقِرُّون بنُبُوةِ أحدٍ بعدَ موسى إلّا يُوشَعَ بنِ نونٍ؛ لأنَّه مُصَرَّحٌ به فى التَّوْراةِ، ويَكْفُرون بما وراءَه، وهو الحقُّ مِن ربِّهم، فعليهم لعائِنُ اللّهِ المُتَتابِعَةُ إلى يومِ القِيامةِ.

وأمّا ما حكاه ابنُ جَرِيرٍ[٥] وغيرُه مِن المفسِّرين، عن محمدِ بنِ إسحاقَ، مِنْ أنّ النُّبوَّةَ حُوِّلَتْ مِن موسى إلى يُوشَعَ فى آخِرِ عُمْرِ موسى، فكان موسى يَلْقَى يُوشَعَ فيسألُه ما أحْدَثَ اللّهُ إليه من الأوامرِ والنّواهِى، حتى قال له: يا كليمَ

(١ - ١) سقط من: الأصل.
(٢) تقدم فى صفحة ١٦٩ .
(٣) تقدم فى صفحة ١٧٤ .
(٤) سفر يشوع الأصحاح ١/ ١، ٢.
(٥) تاريخ الطبرى ١/ ٤٣٣.

اللَّهِ ، إنِّى كنتُ لا أسألُك عمّا كان يوحِى اللَّهُ إليكَ ، حتى تُخبِرَنى أنتَ ابتداءً مِن تلقاءِ نفسِك . فعندَ ذلك كَرِه موسى الحياةَ ، وأَحَبَّ الموتَ . ففى هذا نَظَرٌ ؛ لأنَّ موسى ، عليه السّلامُ ، لم يَزَلِ الأمرُ والوَحْىُ ، والتّشريعُ ، والكلامُ مِن اللَّهِ تعالى إليه فى جميعِ أحوالِه ، حتى تَوَفّاه اللَّهُ ، عزّ وجلّ ، ولم يَزَلْ معزَّزًا ، مُكَرَّمًا ، مُدَلَّلًا ، وَجِيهًا عندَ اللَّهِ ، كما قدَّمْنا[1] فى « الصّحيحِ » ، مِن قِصةِ فَقْئِه عينَ مَلَكِ الموتِ ، ثُم [١/٢٠٠و] بَعَثَه اللَّهُ إليه إنْ كان يريدُ الحياةَ فَلْيَضَعْ يدَه على جِلْدِ ثَوْرٍ ، فله بكلِّ شَعْرَةٍ وارَتْ يدُه سَنةٌ يعيشُها ، قال : ثُمَّ ماذا ؟ قال : المَوتُ . قال : فالآنَ ياربِّ . وسأَلَ اللَّهَ أنْ يُدْنِيَه إلى بيتِ المَقْدِسِ رَمْيةً بحَجَرٍ ، وقد أُجِيبَ إلى ذلك ، صلواتُ اللَّه وسلامُه عليه ، فهذا الذى ذكره محمدُ بنُ إسحاقَ ، إنْ كان إنّما يقولُه مِن كُتُبِ أهلِ الكتاب ، ففى كتابِهم الذى يُسمُّونه التّوراةَ ، أنَّ الوحىَ لم يَزَلْ يَنزِلُ على موسى فى كلِّ أمرٍ[2] يحتاجون إليه ، إلى آخرِ مدةِ موسى ، كما هو المعلومُ مِن سياقِ كتابِهم عندَ تابُوتِ الشّهادةِ فى قُبَّةِ الزّمانِ[3] . وقد ذَكَرُوا فى السِّفْرِ الثّالثِ[4] ، أنّ اللَّهَ أمرَ موسى وهارونَ أَنْ يَعُدَّا بَنى إسرائيلَ على أسباطِهم ، وأنْ يَجْعلا على كلِّ سِبْطٍ من الاثْنَىْ عَشَرَ أميرًا ، وهو النّقيبُ ، وما ذاك إلا ليَتَأَهَّبُوا للقتالِ ؛ قتالِ الجبّارين عندَ الخروجِ مِن التِّيهِ ، وكان هذا عندَ اقترابِ انقضاءِ الأربعين سنةً . ولهذا قال بعضُهم : إنّما فقأَ موسى ، عليه السّلامُ ، عينَ مَلَكِ الموتِ ؛ لأنّه لم يَعْرِفْه فى صورتِه تلك ، ولأنّه

---

(١) تقدم ص ٢٢١ .
(٢) فى م : « حين » .
(٣) سفر الخروج الأصحاح ٧/٣٣ - ١١.
(٤) أى الأصحاح الأول من سفر العدد ، فيما هو موجود الآن فى كتابهم .

كان قد أُمِرَ بأَمْرٍ كان يَرْتَجِي وقُوعَه في زمانِه، ولم يَكُنْ في قَدَرِ اللَّهِ أَنْ يقعَ ذلك في زمانِه، بل في زمانِ فتاه يُوشَعَ بنِ نونٍ، عليه السّلامُ، كما أَنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ كان قد أرادَ غَزْوَ الرُّومِ بالشّامِ، فوصلَ إلى تَبُوكَ، ثم رَجَعَ عامَه ذلك في سنةِ تِسْعٍ، ثم حجَّ في سنةِ عَشْرٍ، ثم رَجَعَ فجهَّزَ جيشَ أسامةَ إلى الشّامِ، طليعةً بينَ يديه، ثُم كان على عَزْمِ الخروجِ إليهم؛ امتثالًا لقولِه تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩]. ولمّا جهّز رسولُ اللَّهِ جيشَ أسامةَ، تُوُفِّيَ، عليه الصّلاةُ والسّلامُ، وأسامةُ مُخَيِّمٌ بالجُرْفِ، فنَفَّذَه صديقُه وخليفتُه أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ، رَضِيَ اللَّهُ عنه، ثم لمّا لمَّ شَعَثَ جزيرةِ العربِ، وما كان وَهيَ[(١)] مِن أمرِ أهلِها، وعاد الحقُّ إلى نِصابِه، جَهَّزَ الجيوشَ يَمْنَةً ويَسْرةً إلى العِراقِ، أصحابِ كِسْرَى مَلِكِ الفُرسِ، وإلى الشّامِ أصحابِ قَيْصَرَ مَلِكِ الرّومِ، ففتحَ اللَّهُ لهم، ومكَّن لهم وبهم، وملَّكهم نواصِيَ أعدائِهم، كما سنوردُه في موضِعِه، إذا انتهيْنا إليه مفصَّلًا، إنْ شاء اللَّهُ تعالى، بعونِه وتوفيقِه، وحُسْنِ إرشادِه. وهكذا موسى عليه السلامُ؛ كان اللَّهُ تعالى قد أَمَرَه أَنْ يُجَنِّدَ بنى إسرائيلَ، وأَنْ يَجْعَل عليهم نُقَباءَ، كما قال تعالى[(٢)]: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ [١/ ٢٠٠ظ] نَقِيبًا ﴾. وقال اللَّهُ[(٢)]: ﴿ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا

(١) في م: «دهى».
(٢) التفسير ٣/ ٦٠ - ٦٢.

حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ١٢]. يقولُ لهم: لَئِنْ قُمْتم بما أوْجَبْتُ عليكم، ولم تَنْكِلُوا عن القتالِ، كما نَكَلْتُم أوّلَ مرةٍ، لَأجْعَلَنَّ ثوابَ هذه مكفِّرًا لِمَا وَقَعَ عليكم مِن عقابِ تلك، كما قال تعالى لِمَنْ تَخَلَّفَ مِن الأعرابِ عن رسولِ اللَّهِ ﷺ فى عمرةِ[1] الحُدَيْبِيَةِ: ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾. [الفتح: ١٦] وهكذا قال تعالى لبنى إسرائيلَ: ﴿ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾. ثم ذمَّهُم اللَّهُ تعالى على سُوءِ صَنيعِهم، ونَقْضِهم مَواثِيقَهم، كما ذمَّ مَن بعدَهم مِن النَّصارَى على اختلافِهم فى دينِهم وأديانِهم. وقد ذكَرْنا ذلك فى «التَّفسيرِ»[2] مُسْتقْصًى، ولِلَّهِ الحمدُ.

والمقصودُ أَنَّ اللَّهَ تعالى أمَرَ موسى، عليه السّلامُ، أنْ يَكْتُبَ أسماءَ المُقاتِلةِ مِن بنى إسرائيلَ، مِمَّن يَحمِلُ السّلاحَ ويقاتِلُ، مِمَّن بَلَغَ عشرين سنةً فصاعِدًا، وأنْ يجعلَ على كلِّ سِبْطٍ نَقِيبًا منهم؛ السِّبْطُ الأولُ سِبطُ رُوبيلَ؛ لأنَّه بِكْرُ يعقوبَ، كان عِدَّةُ المُقاتِلةِ منهم ستةً وأربعين ألفًا وخمسَمائةٍ، ونقيبُهم منهم، وهو أَلِيصُورُ بنُ شَدَيْئُورَا، السِّبطُ الثانى سِبْطُ شمعونَ، وكانوا تِسْعَةً وخمسين ألفًا وثلاثَمائةٍ، ونقيبُهم شَلُومِيئِيلُ بنُ هُورِيشَدَّاى، السِّبطُ الثّالثُ سِبطُ يَهُوذَا،

---

(١) فى م: «غزوة».

(٢) التفسير ٣/ ٦٢.

وكانوا أربعةً وسبعين ألفًا وستَّمائةٍ، ونقيبُهم نَحْشُونُ بنُ عَمِّيناداب، السِّبطُ الرّابعُ سِبْطُ إيسّاخَرَ، وكانوا أربعةً وخمسين ألفًا وأربعَمائةٍ، ونقيبُهم نَشائيلُ بنُ صُوغَرَ، السِّبْطُ الخامسُ سِبْطُ يوسفَ، عليه السَّلامُ، وكانوا أربعين ألفًا وخمسَمائةٍ، ونقيبُهم يُوشَعُ بنُ نونٍ، السِّبْطُ السّادسُ سِبْطُ ميشا، وكانوا أحدًا وثلاثين ألفًا ومائتين، ونقيبُهم جَمْلِيئِيلُ بنُ فَدَهْصُورَ. السِّبْطُ السّابعُ سِبطُ بنيامينَ، وكانوا خمسةً وثلاثين ألفًا وأربعَمائةٍ، ونقيبُهم أَبِيدَنُ بنُ جِدعُونَ، السِّبْطُ الثّامنُ سِبْطُ جادَ، وكانوا خمسةً وأربعين ألفًا وستَّمائةٍ وخمسين رجلًا، ونقيبُهم الياسافَ بنُ رَعُوئِيلَ، السِّبطُ التّاسعُ سِبْطُ أَشِيرَ، وكانوا أحدًا وأربعين ألفًا وخمسَمائةٍ، ونقيبُهم فجْعِيئِيلُ بنُ عُكْرَنَ، السِّبطُ العاشرُ سِبْطُ دانَ، وكانوا اثنين وستين ألفًا وسبعَمائةٍ، ونقيبُهم أَخِيعَزَرُ [١/٢٠١و] بنُ عَمِّيشَدَّاى، السِّبطُ الحادىَ عَشَرَ سِبْطُ نِفْتالى، وكانوا ثلاثةً وخمسين ألفًا وأربعَمائةٍ، ونقيبُهم أَخِيرَعُ بنُ عينَ، السِّبطُ الثانىَ عَشَرَ سبطُ زَبُولُونَ، وكانوا سبعةً وخمسين ألفًا وأربعَمائةٍ، ونقيبُهم ألِيابُ بنُ حِيلُونَ. هذا نصُّ كتابِهم[1] الذى بأيديهم. واللَّهُ أعلمُ. وليس منهم بنو لاوى، فأَمَرَ اللَّهُ موسى أنْ لا يَعُدَّهم معهم؛ لأنَّهم مُوَكَّلون بحَمْلِ قُبَّةِ الشّهادةِ، وخَزْنِها[2] ونَصْبِها، إذا ارْتَحَلُوا، وهم سِبْطُ موسى وهارُونَ، عليهما السّلامُ، وكانوا اثنين وعشرين ألفًا، مِن ابنِ شهرٍ فما فوقَ ذلك، وهم فى أنفسِهم قبائلُ، إلى كلِّ قبيلةٍ طائفةٌ مِن قُبّةِ الزّمان يَحْرُسونها، ويَحْفظُونها، ويَقُومون بمَصالِحِها، ونَصْبِها، وحَمْلِها، وهم كلُّهم

(١) سفر العدد، الأصحاح ١/٢٠ - ٤٧.

(٢) فى م: «وضربها».

حولَها يَنزِلون ويَرتَحِلُون أمامَها ويمينَها وشِمالَها ووراءَها.

وجملةُ ما ذُكِر مِن المقاتِلةِ، غيرَ بنى لاوى، خمسُمائةِ ألفٍ وأحدٌ وسبعون ألفًا وستُّمائةٍ وستةٌ وخمسون، لكنْ قالوا: فكان عددُ بنى إسرائيلَ، مِمّن عمرُه عشرون سنةً فما فوقَ ذلك، مِمّن حَمَل السّلاحَ، ستُّمائةِ ألفٍ وثلاثةَ آلافٍ وخمسَمائةٍ[1] وخمسين رجلًا، سوى بنى لاوى. وفى هذا نَظَرٌ؛ فإنّ جميعَ الجملِ المتقدِّمةِ، إنْ كانت كما وجدْنا فى كتابِهم؛ لا تطابِقُ الجملةَ التى ذَكَرُوها. واللَّهُ أعلمُ. فكان بنو لاوى، المُوَكَّلون بحِفْظِ قُبَّةِ الزّمانِ، يسيرون فى وَسْطِ بنى إسرائيلَ وهُمُ القلبُ، ورأسُ المَيْمَنَةِ بنو روبيلَ، ورأسُ الميسرةِ بنو رَانَ، وبنو نفتالى يكوّنون ساقةً، وقرّر موسى، عليه السّلامُ، بأمرِ اللَّهِ تعالى له، الكهانةَ فى بنى هارونَ، كما كانت لأبيهم مِن قبلِهم، وهم: ناداب، وهو بِكْرُه، وأبيهو، والعازرُ، ويثمرُ.

والمقصودُ أنّ بنى إسرائيلَ لم يَبْقَ منهم أحدٌ مِمّن كان نَكَل عن دخولِ مدينةِ الجبّارين، الذين قالوا: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤]. قاله الثّوريُّ، عن أبى سعيدٍ[2] عن عِكْرِمَةَ، عن ابنِ عباسٍ[3]. وقالَه قَتادةُ وعِكْرِمةُ، ورواه السُّدِّيُّ، عن ابنِ عباسٍ، وابنِ مسعودٍ، وناسٍ مِن الصّحابةِ[4]، حتى قال ابنُ عباسٍ، وغيرُه مِن علماءِ السّلفِ والخَلَفِ: ومات موسى، وهارونُ قبلَه، كلاهما فى التِّيهِ جميعًا. وقد زَعَمَ ابنُ

---

(١) بعده فى ح: «وخمسة».

(٢) فى الأصل: «سعد».

(٣) تاريخ الطبرى ١/ ٤٣٥، وتفسيره ٦/ ١٨٣.

(٤) تاريخ الطبرى ١/ ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٦، ٤٣٧، وتفسيره ١/ ١٨٢، ١٨٣.

إسحاقَ أنّ الذى فَتَحَ بيتَ المقدسِ هو موسى ، وإنّما كان يُوشَعُ على مُقدِّمتِه ، وذكر فى مُرورِه إليها قِصةَ بلعامَ بنِ باعوراء ، الذى قال تعالى فيه : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ [١/٢٠١ظ] هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٥- ١٧٧] . وقد ذكرْنا قصّتَه فى « التّفسيرِ »[(١)] ، وأنه كان فيما قاله ابنُ عباسٍ وغيرُه ، يعلمُ الاسمَ الأعظمَ ، وأنَّ قومَه سألوه أنْ يدعوَ على موسى وقومِه ، فامْتنَعَ عليهم ، فلَمَّا أَلحُّوا عليه ، رَكِبَ حِمارةً له ، ثم سار نحوَ مُعَسْكرِ بنى إسرائيلَ ، فلمّا أشرفَ عليهم ، رَبَضَتْ به حِمارتُه ، فضربَها حتى قامَتْ ، فسارتْ غيرَ بعيدٍ ورَبَضَتْ ، فضربَها ضَرْبًا أَشَدَّ مِن الأولِ فقامتْ ، ثم رَبَضَتْ فضربها ، فقالتْ له : يا بِلعامُ ، أين تذهبُ ؟ أما ترى الملائكةَ أَمَامى ، تَرُدُّنى عن وَجْهِى هذا ، أتذهبُ إلى نَبِىِّ اللّهِ والمؤمنين تدعُو عليهم؟ فلم يَنْزِعْ عنها ، فضربها حتى سارتْ به ، حتى أشرفَ عليهم مِن رأسِ جبلِ حُسْبَانَ ، ونظرَ إلى مُعَسْكَرِ موسى وبنى إسرائيلَ ، فأخذ يدعُو عليهم ، فجعل لسانُه لا يُطِيعُه إلا أنْ يدعوَ لموسى وقومِه ، ويدعوَ على قومِ نفسِه ، فلامُوه على ذلك ، فاعْتَذَر إليهم بأنّه لا يَجْرِى على لسانِه إلّا هذا ، وانْدَلَعَ لسانُه حتى وَقَع على صدرِه ، وقال لقومِه : ذهبتْ منّى الآنَ الدُّنيا والآخرةُ ، ولم يَبْقَ إلّا المكْرُ والحيلةُ . ثم أَمَرَ قومَه

---

(١) التفسير ٥٠٧/٣ - ٥١٢. وانظر تفسير الطبرى ١٢٤/٩ - ١٢٦.

أنْ يُزَيِّنوا النّساءَ، ويَبْعَثوهُنَّ بالأمْتِعةِ يَبِعْن عليهم، ويتَعَرَّضْنَ لهم، حتى لعلَّهم يَقَعُون فى الزِّنى، فإنّه متى زنَى رجلٌ منهم كُفِيتُموهم. ففعَلُوا وزيَّنوا نساءَهم، وبَعَثُوهنَّ إلى المعسكرِ، فمرّتِ امرأةٌ منهم اسمُها كستى، برجُلٍ مِن عظماءِ بنى إسرائيلَ، وهو زِمْرِىُّ بنُ شلومَ، يُقالُ: إنّه كان رأسَ سِبْطِ بنى شمعونَ بنِ يعقوبَ. فدخل بها قُبّتَه، فلمّا خلا بها، أرسلَ اللَّهُ الطّاعونَ على بنى إسرائيلَ، فجعل يَجُوسُ فيهم الموتُ، فلمّا بَلَغ الخبرُ إلى فنحاصَ بنِ العيزارِ بنِ هارونَ، أخذ حَرْبَتَه، وكانت مِن حديدٍ، فدَخَل عليهما القُبّةَ، فانْتَظَمَهما جميعًا فيها، ثم خرجَ بهما على النّاسِ والحَرْبَةُ فى يدِه، وقد اعتمدَ على خاصِرَتِه، وأسندَها إلى لِحيَتِه، ورفَعَهما نحوَ السّماءِ، وجعل يقولُ: اللهمَّ هكذا نَفعَلُ بمَن يَعصِيكَ. ورفَعَ اللَّهُ الطّاعونَ، فكان جملةُ مَن مات منهم فى تلك السّاعةِ سبعين ألفًا، والمُقَلِّلُ يقول: عشرين ألفًا. وكان فنحاصُ بِكْرَ أبيه العيزارِ بنِ هارونَ، فلهذا يَجْعَلُ بنو إسرائيلَ لولدِ فنحاصَ (1)مِنَ الذّبيحةِ(1) القِبَةَ(2) والذّراعَ واللَّحْىَ، ولهم البِكرَ مِن كلِّ أموالِهم وأنفُسِهم. وهذا الذى ذَكَره ابنُ إسحاقَ مِن قصةِ بلعامَ صحيحٌ قد ذكره غيرُ واحدٍ مِن علماءِ السّلفِ، لكنْ [٢٠٢/١و] لعلَّه لمّا أراد موسى دخولَ بيتِ المقدِسِ، (3)أوّلَ مَقْدَمِه مِن الدّيارِ المصريةِ، ولعلَّه مُرادُ ابنِ إسحاقَ، ولكنْ ما فَهِمَه بعضُ النّاقلين عنه. وقد قدَّمْنا عن نصِّ التَّوْراةِ ما يشهدُ لبعضِ هذا. واللَّهُ أعلمُ. ولعلَّ هذه قصةٌ أخرى كانت فى خلالِ(3)

(١ - ١) سقط من: الأصل.

(٢) فى م: «اللية». والقِبَة من الشاة - بكسر القاف وفتح الباء مخففة -: هَنَةٌ ذاتُ أطباق أسفل الكَرِش إلى جنبها، لا يخرج منها الفرث أبدًا. الوسيط (ق ب و).

(٣ - ٣) سقط من: ح.

[1] سَيْرِهم فى التِّيهِ، فإنَّ فى هذا السِّياقِ ذِكْرَ حُسْبَانَ، وهى بعيدةٌ عن أرضِ بيتِ المَقْدِسِ، أو لعلَّه كان هذا لجيشِ موسى، الذين عليهم يُوشَعُ بنُ نونٍ، حينَ خَرَج بهم مِن التِّيهِ قاصدًا بيتَ المقدِسِ[1]، كما صرَّح به السُّدِّىُّ[2]. واللَّهُ أعلمُ.

وعلى كلِّ تقديرٍ، فالذى عليه الجمهورُ، أنَّ هارونَ تُوُفِّىَ بالتِّيهِ قَبْلَ موسى أخيه بنحوٍ مِن سنتين. وبعدَه موسى فى التِّيهِ أيضًا، كما قدَّمْنا[3]، وأنَّه سأل ربَّه أنْ يُقَرِّبَ إلى بيتِ المقدسِ، فأُجِيبَ إلى ذلك، فكان الذى خَرَج بهم مِن التِّيهِ وقَصَدَ بهم بيتَ المقدِسِ هو يُوشَعُ بنُ نونٍ، عليه السّلامُ، فذَكَرَ أهلُ الكتابِ، وغيرُهم مِن أهلِ التّاريخِ[4]، أنّه قَطَعَ بِبَنِى[5] إسرائيلَ، نهرَ الأُرْدُنِّ، وانتهى إلى أَرِيحَا، وكانت مِن أحْصَنِ المدائنِ سُورًا، وأعلاها قُصورًا، وأكثرِها أهلًا، فحاصَرَها ستةَ أشهُرٍ، ثُم إنَّهم أحاطوا بها يومًا، وضربوا بالقُرونِ، يعنى الأبواقَ، وكبَّروا تكبيرةَ رجلٍ واحدٍ، فتَفَسَّخ سُورُها، وسَقَطَ وَجْبَةً واحدةً، فدَخَلُوها، وأَخَذُوا ما وَجَدُوا فيها مِن الغنائمِ، وقَتَلُوا اثْنَىْ عَشَرَ أَلْفًا مِن الرِّجالِ والنِّساءِ، وحاربوا مُلُوكًا كثيرةً، ويُقالُ: إنَّ يُوشَعَ ظَهَرَ على أحدٍ وثلاثين مَلِكًا مِن ملوكِ الشّامِ. وذكروا أنّه انتهى محاصرتُه لها إلى يومِ جُمُعَةٍ بعد العصرِ، فلمّا غَرَبتِ الشّمسُ، أو كادتْ تَغْرُبُ، ويَدْخُلُ عليهم السّبتُ الذى جُعِل

(١ - ١) سقط من: ح.
(٢) تقدم ص ٢٢٣.
(٣) تقدم ص ٢٢٣.
(٤) تاريخ الطبرى ١/ ٤٤١، ٤٤٢. سفر يشوع الأصحاح ١ - ١٠.
(٥) فى النسخ: «بنى». وأثبتنا ما يستقيم به السياق.

عليهم ، وشُرِع لهم ذلك الزّمانَ ، قال لها : إنّك مأمورةٌ وأنا مأمورٌ ، اللهمَّ احبِسْها عليَّ . فحبسَها اللّهُ عليه ، حتى تمكَّن مِن فَتْحِ البلدِ ، وأُمِرَ القمرُ ، فوَقَف عن الطُّلُوعِ ، وهذا يقْتَضِى أنَّ هذه الليلةَ كانت الليلةَ الرّابعةَ عَشْرَةَ مِن الشّهرِ . والأولُ[1] ، وهو قصّةُ الشّمسِ مذكورةٌ[2] فى الحديثِ الذى سأذكرُه . وأمّا قصةُ القمرِ ، فمن عندِ أهلِ الكتابِ ، ولا يُنافى الحديثَ ، بل فيه زيادةٌ تُستَفادُ ، فلا تُصَدَّقُ ولا تُكَذَّبُ ، ولكنَّ ذِكْرَهم أنّ هذا كان فى فتحِ أَرِيحَا ، فيه نَظَرٌ ، والأشبهُ ، واللّهُ أعلمُ ، أَنَّ هذا كان فى فتحِ بيتِ المقدِسِ ، الذى هو المقصودُ الأعظمُ ، وفتحُ أَرِيحَا كان وسيلةً إليه . واللّهُ أعلمُ .

قال الإمامُ أحمدُ[3] : حدَّثنا أَسْوَدُ بنُ عامرٍ ، حدَّثنا أبو بكرٍ ، عن هشامٍ ، عن ابنِ سِيرِينَ ، عن أبى هُرَيْرَةَ ، قال : قال رسولُ اللّهِ ﷺ : «إنّ الشّمسَ لم تُحْبَسْ لِبَشَرٍ إلّا ليُوشَعَ لَيالِىَ سارَ إلى بيتِ المقدِسِ» . انفردَ به [١/٢٠٢ظ] أحمدُ مِن هذا الوجهِ ، وهو على شرطِ البخارىِّ . وفيه دَلالةٌ على أنّ الذى فَتَحَ بيتَ المقدِسِ هو يُوشَعُ بنُ نونٍ ، عليه السّلامُ ، لا موسى ، وأنَّ حَبْسَ الشّمسِ كان فى فتحِ بيتِ المقدِسِ لا أَرِيحَا ، كما قُلْنا . وفيه أنّ هذا كان مِن خَصائصِ يُوشَعَ ، عليه السّلامُ ، فيَدُلُّ على ضَعْفِ الحديثِ الذى رَوَيْناه ؛ أنّ الشّمسَ رَجَعَتْ حتى صلَّى علىُّ بنُ أبى طالبٍ صلاةَ العصرِ ، بعدَما فاتَتْه ، بِسببِ نومِ النّبىِّ ﷺ على رُكْبتِه ، فسأل رسولَ اللّه ﷺ أنْ يَرُدَّها عليه ، حتى يُصلِّىَ

---

(١) فى م : «الأول» .

(٢) فى م : «المذكورة» .

(٣) أحمد فى المسند ٢/ ٣٢٥. (السلسلة الصحيحة ٢٠٢).

العصرَ، فرَجَعَتْ[1]. وقد صحَّحه أحمدُ[2] بنُ صالحِ المصريُّ، ولكنَّه مُنكَرٌ، ليس فى شَىْءٍ مِن الصِّحاحِ ولا الحِسانِ، وهو ممّا تتوفَّرُ الدّواعِى على نقْلِه، وتفرَّدَتْ بنقلِه امرأةٌ مِن أهلِ البيتِ مجهولةٌ، لا يُعْرَفُ حالُها. واللَّهُ أعلمُ.

وقال الإمامُ أحمدُ[3]: حدثنا عبدُ الرَّزّاقِ، حدثنا مَعْمَرٌ، عن همّامٍ، عن أبى هُرَيرةَ، قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «غزَا نبىٌّ مِن الأنبياءِ، فقال لقومِه: لا يَتْبَعْنِى رجلٌ قد مَلَكَ بُضْعَ امرأةٍ، وهو يريدُ أنْ يَبْنِىَ بها، ولمَّا يَبْنِ، ولا آخرُ قد بَنَى بُنْيانًا ولم يَرْفَعْ سَقْفَها، ولا آخرُ قد اشترى غَنَمًا أو خَلِفاتٍ، وهو يَنتظرُ أولادَها. فغزَا، فدَنَا مِن القريةِ حين صَلَّى العصرَ أو قريبًا مِن ذلك، فقال للشمسِ: أنتِ مأمورةٌ وأنا مأمورٌ، اللهمَّ احبِسْها علىَّ شيئًا. فحُبِسَتْ عليه، حتى فَتَحَ اللَّهُ عليه، فَجَمَعُوا ما غَنِمُوا، فأقْبَلَتِ النارُ لتأكُلَه، فأَبَتْ أنْ تَطْعَمَه فقال: فيكم غُلُولٌ، فَلْيُبايِعْنِى مِن كلِّ قبيلةٍ رجلٌ. فبايَعوه، فلَصِقَتْ يدُ رَجُلٍ بيدِه، فقال: فيكم الغُلُولُ، ولتُبايِعْنِى قبيلتُك. فبايَعَتْه قبيلَتُه، فلصِقَ بيدِ رَجُلَيْنِ أو ثلاثةٍ، فقال: فيكُمُ الغُلُولُ، أنتم غَلَلتُم. فأخرَجُوا له مثلَ رَأسِ بَقَرَةٍ مِن ذَهَبٍ، قال: فوضعوه بالمالِ، وهو بالصّعيدِ، فأقبلَتِ النّارُ فأكلَتْه، فلم تَحِلَّ الغنائمُ لأحدٍ مِن قَبْلِنا، ذلك بأنّ اللَّهَ رأى ضَعْفَنا وعَجْزَنا، فطيَّبها لنا». انفردَ به مسلمٌ مِن هذا الوجهِ[4].

---

(١) الطحاوى فى مشكل الآثار ٢/ ٨، ٩. والطبرانى فى الكبير (٣٨١). موضوع (السلسلة الضعيفة ٩٧١).

(٢) فى ح، م: «على». انظر تهذيب الكمال ١/ ٣٤٠ - ٣٥٤.

(٣) المسند ٢/ ٣١٨. (صحيح).

(٤) مسلم (١٧٤٧).

وقد روى البزّارُ[1] مِن طريقِ مباركِ [2]بنِ فَضَالةَ[2]، عن عُبيدِ اللَّهِ، عن سعيدٍ المَقْبُرِيِّ، عن أبي هُرَيرةَ، عن النَّبيِّ ﷺ [3]نحوَه. قال: ورواه محمدُ بنُ عَجْلانَ، عن سعيدٍ المَقْبُرِيِّ، قال: ورواه قَتادةُ، عن سعيدِ بنِ المسيَّبِ، عن أبي هُرَيْرةَ، عن النبيِّ ﷺ[3].

والمقصودُ أنّه لمّا دخَل بهم بابَ المدينةِ، أُمِروا أنْ يَدْخُلوها سُجَّدًا؛ أي رُكَّعًا مُتَواضِعينَ شَاكِرِين للَّهِ، عزَّ وجلَّ، على ما مَنَّ به عليهم مِن الفتحِ العظيمِ، الذى كان اللَّهُ وَعَدَهم إيّاه، وأن يقولوا حالَ دخولِهم: حِطَّةٌ. أيْ؛ حُطَّ عنّا خَطَايَانا التى سَلَفَتْ مِن نُكُولِنا الذى تقدَّم منّا. ولهذا لمّا دخلَ [١/٢٠٣و] رسولُ اللَّهِ ﷺ مكةَ يومَ فَتَحَها، دَخَلَها وهو راكبٌ ناقتَه، وهو متواضِعٌ حامِدٌ شاكِرٌ، حتى إنَّ عُثْنُونَه، وهو طَرَفُ لِحيَتِه، لَيَمَسُّ مَوْرِكَ رَحْلِهِ، ممّا يُطَأطِئُ رأسَه خُضْعانًا للَّهِ، عزَّ وجلَّ، ومعه الجنودُ والجيوشُ، مِمّن لا يُرَى منه إلا الحَدَقُ لا سيَّما الكتيبةُ الخضراءُ، التى فيها رسولُ اللَّهِ ﷺ، ثُم لمّا دَخَلَها، اغتسلَ وصلَّى ثمانيَ رَكَعاتٍ[4]. وهى صلاةُ الشُّكْرِ على النَّصرِ، على المنصورِ مِن قَوْلَيِ العلماءِ. وقيل: إنّها صلاةُ الضُّحَى. وما حَمَل هذا القائلَ على قولِه هذا، إلّا لأنّها وقعتْ وقتَ الضُّحَى[5]. وأمّا بنو إسرائيلَ، فإنّهم خالَفُوا ما أُمِرُوا به قولًا وفعلًا؛ دَخَلُوا البابَ يزحَفون[6] على أستاهِهم وهم

---

(١) ومن طريق مبارك بن فضالة، أخرجه الحاكم فى المستدرك ١٣٩/٢ وقال: غريب صحيح، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبى.

(٢ - ٢) فى الأصل: «وفضالة».

(٣ - ٣) سقط من: الأصل.

(٤) البخارى (١١٧٦). مسلم (٣٣٦).

(٥) انظر فتح البارى ٥٢/٣ - ٥٥.

(٦) فى الأصل: «يرجفون».

يقولون: حَبَّةٌ فى شَعْرَةٍ[1]. وفى روايةٍ[2]: حِنْطَةٌ فى شَعْرَةٍ. وحاصِلُه: أنّهم بدَّلُوا ما أُمِرُوا به، واستهزءوا به، كما قال تعالى، حاكِيًا عنهم فى سورةِ «الأعرافِ»، وهى مكيةٌ: ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦١، ١٦٢]. وقال تعالى فى سورةِ «البَقَرةِ» وهى مَدَنِيَّةٌ مُخاطِبًا لهم: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [البقرة: ٥٨، ٥٩]. قال الثَّوْرِىُّ، عن الأعمشِ، عن المِنْهالِ بنِ[3] عمرٍو، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ، عن ابنِ عباسٍ ﴿ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ قال: رُكَّعًا مِن بابٍ صغيرٍ. رواه الحاكمُ، وابنُ جَريرٍ، وابنُ أبى حاتمٍ[4]، وكذا رَوَى العَوفِىُّ[5]، عن ابنِ عباسٍ. وكذا رَوَى الثورىُّ[6]، عن أبى[7] إسحاقَ، عن البَرَاءِ. قال مجاهدٌ والسُّدِّىُّ،

---

(١) البخارى (٣٤٠٣). مسلم (٣٠١٥).

(٢) المسند ٢/ ٣١٢. (إسناده صحيح).

(٣) فى الأصل: «عن».

(٤) الحاكم فى المستدرك ٢/٢٦٢ مطولًا. والطبرى فى التفسير ١/ ٣٠٠. وابن أبى حاتم فى التفسير ١/ ١٨٢.

(٥) التفسير ١/ ١٤٠.

(٦) التفسير ١/ ١٤٢.

(٧) فى م، ص: «ابن».

والضَّحّاكُ[1] : البابُ هو بابُ حِطَّةٍ مِن بيتِ إِيلِيَاءَ، بيتِ المقدسِ. قال ابنُ مسعودٍ[2] : فدخلُوا مُقْنِعِي رؤوسِهم، ضدَّ ما أُمِروا به. وهذا لا يُنافى قولَ ابنِ عباسٍ، أَنَّهم دَخلُوا يَزحَفون على أَسْتَاهِهم[3]. وهكذا فى الحديثِ الذى سنوردُه بعدُ، فإنّهم دخلُوا يَزحَفُون وهم مُقْنِعُو رؤوسِهم. وقولُه: ﴿ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ ﴾ الواوُ هنا حاليَّةٌ، لا عاطفةٌ أى ادْخُلوا سُجَّدًا فى حالِ قَوْلِكم: حِطَّةٌ. قال ابنُ عباسٍ، وعَطاءٌ، والحسنُ، وقَتادةُ، والرَّبيعُ: أُمِرُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا[4].

قال البخارىُّ[5] : حدثنا محمدٌ، حدثنا عبدُ الرَّحمنِ بنُ مَهْدِيٍّ، عن ابنِ المباركِ، عن مَعْمَرٍ، عن همّامِ [١/٢٠٣ظ] بنِ مُنَبِّهٍ، عن أبى هُرَيرةَ، عن النَّبىِّ ﷺ، قال: «قِيل لبنى إسرائيلَ: ادخُلوا البابَ سُجَّدًا، وقولُوا حِطَّةٌ. فدَخَلُوا يَزحَفُون على أَسْتاهِهم، فبدَّلوا وقالوا: حِطَّةٌ؛ حَبَّةٌ فى شَعْرَةٍ». وكذا رواه النَّسائىُّ مِن حديثِ ابنِ المباركِ ببعضِه[6]، ورواه عن محمدِ بنِ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ، عن ابنِ مَهْدِيٍّ به موقوفًا[7]. وقد قال عبدُ الرَّزّاقِ: أنبأنا مَعْمَرٌ، عن همّامِ بنِ مُنَبِّهٍ، أنّه سَمِع أبا هُرَيرةَ يقولُ: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «قال اللَّهُ لبنى إسرائيلَ ﴿ ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ فبدَّلُوا فدَخَلُوا البابَ يَزحَفُون على

---

(١) التفسير ١/ ١٤٠. تفسير الطبرى ١/ ٢٩٩. تفسير ابن أبى حاتم ١/ ١٨٢.

(٢) التفسير ١/ ١٤٠. تفسير ابن أبى حاتم ١/ ١٨٣.

(٣) أخرج الطبرى فى التفسير ١/ ٣٠٤ بإسناده إلى ابن عباس، قال: فدخلوا على أستاههم مقنعى رءوسهم.

(٤) التفسير ١/ ١٤٠. تفسير الطبرى ١/ ٣٠٠. تفسير ابن أبى حاتم ١/ ١٨٣، ١٨٤.

(٥) البخارى (٤٤٧٩).

(٦) النسائى فى الكبرى (١٠٩٩٠).

(٧) النسائى فى الكبرى (١٠٩٨٩).

أَسْتَاهِهِم ، فقالوا : حَبَّةٌ في شَعْرَةٍ » . ورواه البخاريُّ ، ومسلمٌ ، والتِّرْمِذِيُّ ، مِن حديثِ عبدِ الرَّزّاقِ[(١)] ، وقال التِّرْمِذِيُّ : حَسَنٌ صحيحٌ . وقال محمدُ بنُ إسحاقَ[(٢)] : كان تبديلُهم ، كما حدّثنى صالحُ بنُ كَيْسانَ ، عن صالحٍ مولَى التَّوْأَمَةِ ، عن أبى هُرَيرةَ ، وعمّن لا أَتَّهِمُ ، عن ابنِ عباسٍ أنّ رسولَ اللَّهِ ﷺ ، قال : « دَخَلُوا البابَ الذى أُمِرُوا أَنْ يَدْخُلُوا فيه سُجَّدًا ، يَزْحَفُون على أَسْتَاهِهِم ، وهم يقولُون : حِنْطَةٌ فى شعيرةٍ » . وقال أسباطٌ[(٣)] عن السُّدِّيِّ ، عن مرةَ ، عن ابنِ مسعودٍ ، قال فى قولِه : ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ قال : قالوا : (هطى سمقاثا أزبة مزبا) فهى بالعربيّةِ : حبّةُ حِنْطَةٍ حمراءُ مثقوبةٌ ، فيها شعرةٌ سوداءُ . وقد ذكرَ اللَّهُ تعالى أنّه عاقبَهم على هذه المُخالفةِ بإرسالِ الرِّجْزِ الذى أنزلَه عليهم ، وهو الطّاعونُ ، كما ثَبَت فى « الصَّحيحَيْنِ »[(٤)] مِن حديثِ الزُّهْرِيِّ[(٥)] ، عن عامرِ بنِ سعدٍ ، ومِن حديثِ مالكٍ[(٦)] ، عن محمدِ بنِ المُنْكَدِرِ وسالمِ أبى النَّضْرِ ، عن عامرِ بنِ سعدٍ ، عن أسامةَ بنِ زيدٍ ، عن رسولِ اللَّهِ ﷺ أنّه قال : « إنّ هذا الوَجَعَ - أو السَّقَمَ - رِجْزٌ عُذِّبَ به بعضُ الأُمَمِ قبلَكم » . ورَوى النّسائيُّ ، وابنُ أبى حاتمٍ[(٧)] ، وهذا لفظُه ، مِن حديثِ الثَّورِيِّ ، عن حبيبِ بنِ أبى ثابتٍ ، عن إبراهيمَ بنِ سعدِ بنِ أبى وقّاصٍ ،

---

(١) البخارى (٣٤٠٣، ٤٦٤١) . مسلم (٣١٠٥) . الترمذى (٢٩٥٦) .

(٢) تفسير الطبرى ١/ ٣٠٣. سيرة ابن هشام ١/ ٥٣٥.

(٣) التفسير ١/ ١٤٢. تفسير ابن أبى حاتم ١/ ١٨٦. الحاكم فى المستدرك ٢/ ٣٢١. وقال : صحيح على شرط مسلم . ووافقه الذهبى .

(٤) فى ص : « الصحيح » .

(٥) البخارى (٦٩٧٤) . مسلم (٢٢١٨) .

(٦) البخارى (٣٤٧٣) . مسلم (٢٢١٨) .

(٧) النسائى فى الكبرى (٧٥٢٣) . تفسير ابن أبى حاتم ١/ ١٨٦، ١٨٧ . (صحيح الإسناد) .

عن أبيه ، وأسامةَ بنِ زيدٍ ، وخُزَيمةَ بنِ ثابتٍ ، قالوا : (1) قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « الطَّاعونُ رِجْزُ عذابٍ ، عُذِّب به مَن كان قبلكم » . و (1) قال الضَّحّاكُ ، عن ابنِ عباسٍ : الرِّجْزُ : العذابُ . وكذا قال مُجاهدٌ ، وأبو مالكٍ ، والسُّدِّيُّ ، والحسنُ ، وقَتادةُ ، وقال أبو العاليةِ : هو الغضبُ . وقال الشَّعْبِيُّ : الرِّجْزُ إمّا الطّاعونُ ، وإمّا البردُ . وقال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ : هو الطّاعونُ[2] .

ولمّا استقَرَّتْ يدُ بنى إسرائيلَ على بيتِ المقدِسِ ، استمرُّوا فيه ، وبين أَظْهُرِهم نبيُّ اللَّهِ يُوشَعُ ، يَحْكُمُ بينَهم بكتابِ اللَّهِ التَّوراةِ ، حتى قبضَه اللَّهُ إليه ، وهو ابنُ مائةٍ وسبعٍ وعشرين [١/٢٠٤و] سنةً ، فكان مدةُ حياتِه بعدَ موسى ، سبعًا وعشرين سنةً . واللَّهُ تعالى أعلمُ .

(١ - ١) سقط من : ص .

(٢) انظر الأقوال السابقة فى تفسير الطبرى ١/ ٣٠٥، ٣٠٦. تفسير ابن أبى حاتم ١/ ١٨٧. التفسير ١/ ١٤٢.

(١) ذِكرُ قِصَّتَي (١) الخَضِرِ وإلْيَاسَ، عليهما السلامُ

أما الخَضِرُ، فقد تقدّمَ أنّ موسى، عليه السّلامُ، رَحَلَ إليه فى طَلَبِ ما عندَه مِن العلمِ اللَّدُنِّيِّ [٢]، وقصَّ اللَّهُ مِن خبرِهما فى كتابِه العزيزِ، فى سورةِ «الكهفِ» [٣]، وذكرْنا فى تفسيرِ ذلك هُنالِكَ [٤]، وأوردْنا هنا ذِكْرَ الحديثِ [٥] المصرّحِ بذكرِ الخَضِرِ، عليه السّلامُ، وأنّ الذى رَحَلَ إليه هو موسى بنُ عِمْرانَ، نبيُّ بَنى إسرائيلَ، عليه السّلامُ، الذى أُنْزِلتْ عليه التّوراةُ.

وقد اخْتُلفَ فى الخَضِرِ؛ فى اسمِه، ونَسَبِه، ونبوّتِه، وحياتِه إلى الآنَ، على أقوالٍ سأذكرُها لك ههنا إنْ شاءَ اللَّهُ تعالى وبحَولِه وقوّتِه.

قال الحافِظُ ابنُ عساكرَ [٦]: يقال: إنّه الخَضِرُ بنُ آدمَ، عليه السّلامُ، لصُلْبِه. ثم رَوَى مِن طريقِ الدَّارَقُطْنِيِّ [٧]: حدَّثنا محمدُ بنُ الفتحِ القلانِسِيُّ، حدَّثنا العباسُ بنُ عبدِ اللَّهِ التَّرْقُفِيُّ حدثنا رَوَّادُ بنُ الجرَّاحِ، حدَّثنا مُقَاتِلُ بنُ سُلَيْمانَ، عن الضَّحَّاكِ، عن ابنِ عباسٍ قال: الخَضِرُ ابنُ آدمَ لصُلْبِه، ونُسِئَ له فى أَجَلِه حتى يُكذِّبَ الدَّجّالَ. وهذا منقَطِعٌ وغريبٌ. وقال أبو حاتمٍ سهلُ بنُ محمدِ بنِ عثمانَ السِّجِسْتانِيُّ: سمِعتُ مَشْيَخَتَنا؛ منهم، أبو عبيدةَ وغيرُه،

(١ - ١) فى م: «قصتا».
(٢) سقط من: الأصل، ص.
(٣) التفسير ٥/١٧٠ - ١٨٥.
(٤) انظر ما تقدم ص ١٦٨.
(٥) تقدم ١٦٨ - ١٧٠ .
(٦) تاريخ دمشق ١٦/ ٣٩٩.
(٧) تاريخ دمشق ١٦/ ٣٩٩، ٤٠٠.

قالوا : إنّ أطولَ بَنِى آدمَ عُمْرًا الخَضِرُ، واسمُه : خَضِرونُ بنُ قابيلَ بنِ آدمَ[1] .
قال[2] : وذكرَ ابنُ إسحاقَ أَنَّ آدمَ ، عليه السّلامُ ، لمّا حَضَرَتْهُ الوفاةُ أخبرَ بَنِيه أنّ الطُّوفانَ سيقعُ بالنّاسِ ، وأوصاهم إذا كان ذلك أَنْ يَحْمِلُوا جَسَدَه معهم فى السَّفينةِ ، وأنْ يَدْفِنُوه فى مكانٍ عيَّنَه لهم . فلمّا كان الطّوفانُ ، حملُوه معهم ، فلمّا هَبَطوا إلى الأرضِ ، أَمَر نوحٌ بنِيه أنْ يذهَبُوا ببدَنِه ، فيَدْفِنُوه حيثُ أَوْصَى ، فقالوا : إنّ الأرضَ ليس بها أنيسٌ ، وعليها وَحْشَةٌ ، فحرَّضَهُم ، وحثَّهم على ذلك . وقال : إنّ آدمَ دعا لِمَن يَلِى دفنَه بطولِ العُمُرِ ، فهابوا المسيرَ إلى ذلك الموضعِ فى ذلك الوقتِ ، فلم يَزَلْ جسدُه عندَهم ، حتى كان الخَضِرُ هو الذى تولَّى دفنَه ، وأَنْجزَ اللّهُ ما وعدَه ، فهو يَحْيَى إلى ما شاء اللّهُ له أنْ يَحْيَى . وذكر ابنُ قُتَيْبَةَ فى « المعارفِ »[3] ، عن وَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ ، أنّ اسمَ الخَضِرِ بَلْيا[4] .
ويُقال : إيليا بنُ ملكانَ بنِ فالغَ بنِ عَابرَ بنِ شالخَ بنِ أَرْفَخْشَذَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ ، عليه السّلامُ . وقال إسماعيلُ بنُ أبى أُوَيْسٍ[5] : اسمُ الخَضِرِ ، فيما بَلَغَنا - واللّه أعلمُ - المُعَمَّرُ بنُ مالكِ بنِ عبدِ اللّهِ بنِ نصرِ بنِ الأَزْدِ . وقال غيرُه : هو خَضِرونُ بنُ عمايِيلَ بنِ اليَفز بنِ العيصِ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ . ويُقالُ : هو أرميا [١/ ٢٠٤ظ] بنُ حلقيا . فاللّهُ أعلمُ . وقِيل : إنّه كان ابنَ فِرْعَونَ صاحبِ موسى ، مَلِكِ مِصْرَ . وهذا غريبٌ جِدًّا . قال ابنُ الجَوْزِىِّ : رواه محمدُ بنُ أيوبَ ، عن ابنِ لَهِيعَةَ ، وهما ضعيفان . وقيل : إنّه ابنُ مالكٍ ، وهو أخو إلياسَ . قاله السُّدِّىُّ كما سيأتى .

---

(١) تاريخ دمشق ١٦/ ٤٠٠.
(٢) تاريخ دمشق ١٦/ ٤٠٠.
(٣) المعارف ص ٤٢.
(٤) فى الأصل: « يليا ».
(٥) فى الأصل: « إدريس ». وانظر تاريخ دمشق ١٦/ ٣٩٩.

وقيل: إنه كان على مُقَدِّمَةِ ذى القَرْنَيْنِ. وقِيل: كان ابنَ بعضِ مَن آمنَ بإبراهيمَ الخليلِ وهاجرَ معه. وقِيل: كان نبيًّا فى زمنِ بشتاسبَ بنِ لهراسبَ.

قال ابنُ جَريرٍ[1]: والصَّحيحُ أنَّه كان متقدِّمًا فى زمنِ أفريدونَ بنِ أثفيانَ، حتى أدركَه موسى، عليهما السَّلامُ. وروى الحافظُ ابن عساكرَ[2]، عن سعيدِ بنِ المسيَّبِ أنَّه قال: الخَضِرُ أمُّه رُوميَّةٌ، وأبوه فارسيٌّ.

[3]وقد ورد ما يدلُّ على أنَّه كان مِن بنى إسرائيلَ فى زمانِ فِرْعَوْنَ أيضًا. قال أبو زُرْعَةَ، فى «دلائلِ النُّبوةِ»[4]: حدَّثنا صَفْوانُ بنُ صالحٍ الدِّمشقىُّ، حدثنا الوليدُ، حدثنا سعيدُ بنُ بَشيرٍ، عن قَتادةَ، عن مُجاهدٍ، عن ابنِ عباسٍ، عن أُبَىِّ بنِ كعبٍ، عن رسولِ اللَّهِ ﷺ، أنَّه ليلةَ أُسْرِىَ به وَجَدَ رائحةً طيبةً فقال: «يا جبريلُ، ما هذه الرَّائحةُ الطَّيبةُ؟ قال: هذه ريحُ قَبْرِ الماشِطةِ، وابنيْها[5]، وزوجِها. وقال: «وكان بَدْءُ ذلك أنَّ الخَضِرَ كان مِن[3] [6]أشرافِ بنى إسرائيلَ، وكان ممرُّه براهبٍ فى صومعتِه، فتطلَّعَ عليه الرَّاهبُ، فعلَّمَه الإسلامَ، فلمَّا بلَغ الخَضِرُ، زوَّجه أبوه امرأةً، فعلَّمَها الإسلامَ، وأخذ عليها أنْ لا تُعْلِمَ أحدًا، وكان لا يَقْرَبُ النِّساءَ، ثُم طلَّقَها، ثُم زوَّجه أبوه بأخرى فعلَّمها الإسلامَ، وأخذ عليها أنْ لا تُعْلِمَ أحدًا، ثُم طلَّقها، فكتمتْ إحداهما،[6]

---

(١) تاريخ الطبرى ١/ ٣٦٦.
(٢) تاريخ دمشق ١٦/ ٤٠٠، ٤٠١.
(٣ - ٣) سقط من: الأصل، ص.
(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٠٣٠)، وابن عساكر فى تاريخ «دمشق» ١٦/ ٤١٨ من طريق الوليد بن مسلم به.
(٥) فى ح، م: «وابنتها». والمثبت من تاريخ دمشق. والدر المنثور ٤/ ٢٣٦.
(٦ - ٦) سقط من: الأصل، ص.

[1] وأفْشَتْ عليه الأخرى، فانطلق هارِبًا حتى أتى جَزيرةً فى البحرِ، فأقبلَ رجلان يَحتطبان فرأياه، فكتَم أحدُهما وأفْشَى عليه الآخرُ، قال: [2] قد رأيتُ الخَضِرَ. فقيل [2]: ومَن رآه معك؟ قال: فلانٌ. فسُئِل فكتَم، وكان مِن دينِهم أنّه مَن كَذَب قُتِل، فقُتِل وكان قد تَزَوَّجَ الكاتمُ المرأةَ الكاتِمَةَ، قال: فبينَما هى تُمَشِّطُ بنتَ فِرْعَوْنَ، إذ سَقَط المُشْطُ مِن يدِها، فقالتْ: تَعِسَ فِرْعَوْنُ. فأخبرتْ أباها، وكان للمرأةِ ابنان وزَوْجٌ، فأَرْسَلَ إليهم، فراوَدَ المرأةَ وزوجَها أنْ يَرجِعا عن دينِهما فأبَيَا، فقال: إنّى قاتلُكما. فقالا: إحسانٌ منك إلينا إنْ أنتَ قَتَلْتَنا أنْ تجعلَنا فى قبرٍ واحدٍ. فجَعَلَهما فى قبرٍ واحدٍ». فقال: «وما وجدتُ ريحًا أطيبَ منهما، وقد دخلتِ الجنةَ». وقد تقدَّمَتْ قصةُ مائلةَ [3] بنتِ فِرْعَوْنَ، وهذا المُشْطُ [4] فى أمرِ الخَضِرِ قد يكونُ مُدْرجًا من كلامِ أُبَىِّ بنِ كَعْبٍ، أو عبدِ اللَّهِ بنِ عباسٍ، واللَّهُ أعلمُ [1]. وقال بعضُهم [5]: كُنْيَتُه أبو العباسِ. والأشبهُ - واللَّهُ أعلمُ - أنَّ الخَضِرَ لَقَبٌ غَلَبَ عليه.

قال البخاريُّ [6]، رَحِمَه اللَّهُ: حدَّثنا محمدُ بنُ سعيدٍ الأصبهانىُّ، حدَّثنا ابنُ المباركِ، عن مَعْمَرٍ، عن هَمّامٍ، عن أبى هُرَيرةَ، عن النبىِّ ﷺ قال: «إنّما سُمِّىَ الخَضِرَ؛ لأنّه جَلَسَ على فَرْوَةٍ بيضاءَ، فإذا هى تَهْتَزُّ مِن خلفِه خضراءَ». تفرَّدَ به البخاريُّ، وكذلك رواه عبدُ الرَّزّاقِ [7]، عن مَعْمَرٍ به. ثم قال عبدُ

(١ - ١) سقط من: الأصل، ص.

(٢ - ٢) سقط من. الأصل، ص، وفى ح، م: «قد رأيت العزقيل». والمثبت من سنن ابن ماجه.

(٣) كذا بالنسخ، ولعلها ماشطة، وقصتها لم تتقدم، بل سترد في صفحة ٢٥٥.

(٤) كذا فى: النسخ. ولعلها: «البسط».

(٥) هو الإمام النووى فى تهذيب الأسماء واللغات ١/ ١٧٦. حيث صرح به المصنف فى تفسيره ٥/ ١٨٤.

(٦) البخارى (٣٤٠٢).

(٧) الترمذى من طريق عبد الرزاق (٣١٥١). (صحيح الترمذى ٢٥١٩).

الرّزّاقِ : الفَرْوةُ ؛ الحَشِيشُ الأبيضُ وما أشبهَه ، يعنى الهَشِيمَ اليابسَ . وقال الخطّابىُّ[1] : وقال أبو عمرَ : الفَرْوةُ ؛ الأرضُ البيضاءُ ، التى لا نباتَ فيها ، وقال غيرُه : هو الهَشِيمُ اليابسُ ، شَبَّهَه بالفروةِ ، ومنه قيل : فَرْوَةُ الرّأسِ . وهى جِلْدَتُه بما عليها مِن الشّعْرِ كما قال الرّاعِى[2] :

ولقدْ تَرَى الحَبَشِىَّ [3]حولَ بُيوتِنا[3] جَذِلًا[4] إذا ما نالَ يومًا مَأْكَلا

[5]صَعِلًا أَسَكَّ[5] كأنَّ فروةَ رأسِه [6]بُذِرَتْ فأَنبتَ جَانباهُ[6] فُلْفُلَا

وقال الخطّابىُّ[7] : إنّما سُمِّىَ الخَضِرُ خَضِرًا ؛ لحُسْنِه وإشراقِ وجهِه .

قلت : هذا لا يُنافِى ما ثَبَتَ فى « الصحيحِ »[8] ، فإن كان ولا بُدَّ مِن التّعليلِ بأحدِهما ، فما ثَبَتَ فى « الصّحيحِ » أَوْلَى وأَقْوَى ، بل لا يُلْتَفَتُ إلى ما عداه .

وقد رَوَى الحافظُ ابنُ عساكرَ[9] هذا الحديثَ أيضًا مِن طريقِ [10]أبى إسماعيلَ[10] حفصِ بنِ عُمرَ الأَيْلِىِّ ، حدثنا عثمانُ ، وأبو جزىٍّ ، وهَمّامُ بنُ يَحْيَى ، عن قَتادةَ ، عن عبدِ اللَّهِ بنِ الحارثِ بنِ نَوْفَلٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، عن النبىِّ ﷺ قال : « إنّما سُمِّىَ الخَضِرُ خَضِرًا ؛ لأنّه صلَّى على فروةٍ بيضاءَ ، فاهتزّتْ خضراءَ » . وهذا غريبٌ مِن هذا الوجهِ . وقال قَبِيصةُ ، عن الثّورِىِّ ، عن

---

(1) انظر تاريخ دمشق ١٦/ ٤٠٢.

(2) البيتان فى ديوان الراعى النميرى ص ٢١٨.

(٣- ٣) فى الديوان : « وهو يصكها » .

(4) فى الديوان : « أشرا » .

(٥- ٥) فى م : « جعدا أصك » . وفى الديوان : « وسم الثياب » .

(٦- ٦) فى الديوان : « زرعت فأنبت جانباها » .

(7) تاريخ دمشق ١٦/ ٢٠٤.

(8) فى الأصل : « الحديث » .

(9) تاريخ دمشق ١٦/ ٤٠١، ٤٠٢.

(١٠ - ١٠) فى م ، ص : « إسماعيل بن » .

منصورٍ، عن مُجاهدٍ، قال: إنّما سُمِّيَ الخَضِرَ؛ لأنّه كان إذا صلّى اخْضَرَّ ما حولَه[1]. وتقدّم[2] أنّ موسى، ويُوشَعَ، عليهما السّلامُ، لمّا رَجَعا يَقُصّان الأثَرَ، وجداه على طِنْفِسَةٍ[3] خضراءَ، على كَبِدِ البحرِ، وهو [١/٢٠٥و] مُسَجًّى بثوبٍ، قد جُعِل طَرَفَاه مِن تحتِ رأسِه وقَدَمَيْه، فسلَّم عليه موسى، عليه السّلامُ، فكَشَفَ عن وَجْهِه، فردَّ وقال: أنَّى بأرضِك السّلامُ! مَنْ أنتَ؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بنى إسرائيلَ؟ قال: نعم. فكان مِن أمرِهما ما قصَّه اللَّهُ فى كتابِه عنهما.

وقد دلَّ سياقُ القصّةِ على نُبوَّتِه مِن وجوهٍ؛ أحدُها، قولُه تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥]. الثانى، قولُ موسى له: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف: ٦٦- ٧٠]. فلو كان وليًّا وليس بنَبيٍّ، لم يُخاطِبْه موسى بهذه المُخاطَبَةِ، ولم يردَّ على موسى هذا الردَّ، بل موسى إنّما سأل صُحبتَه لينالَ ما عنده مِن العلمِ، الذى اختصَّه اللَّهُ به دونَه، فلو كان غيرَ نبيٍّ لم يكنْ معصومًا، ولم يَكُنْ لموسى - وهو نبىٌّ عظيمٌ، ورسولٌ كريمٌ، واجِبُ العِصْمةِ - كبيرُ رغبةٍ، ولا

---

(١) تاريخ دمشق ١٦/٤٠٢. من طريق قبيصة به.

(٢) تقدم ص ١٦٩ فى قصة الخضر وموسى.

(٣) أى نمرقة.

عظيمُ طَلِبَةٍ فى علمِ وليٍّ غيرِ واجبِ العِصْمةِ ، ولمَّا عَزَمَ على الذَّهابِ إليه ، والتّفتيشِ عليه ، ولو أنّه يَمْضِى حُقُبًا مِن الزّمانِ ، قِيل : ثمانين سنةً . ثم لمّا اجتمعَ به ، تواضَعَ له ، وعظَّمه ، واتَّبعه فى صورةِ مستفيدٍ منه ، دلَّ على أنّه نبيٌّ مثلُه ، يُوحَى إليه كما يُوحَى إليه ، وقد خُصَّ مِن العلومِ اللَّدُنِّيَّةِ ، والأسرارِ النّبويَّةِ بما لم يُطْلِعِ اللَّهُ عليه موسى الكليمَ ، نبيَّ بنى إسرائيلَ الكريمَ ، وقد احتجَّ بهذا المَسْلكِ بعينِه الرُّمّانيُّ ، على نبوةِ الخَضِرِ ، عليه السّلامُ . الثّالثُ ، أنّ الخَضِرَ أقدمَ على قَتْلِ ذلك الغلامِ ، وما ذاك إلا للوَحْىِ إليه فيه مِن المَلِكِ العلّامِ . وهذا دليلٌ مستقِلٌّ على نبوتِه ، وبرهانٌ ظاهِرٌ على عِصْمَتِه ؛ لأنَّ الوليَّ لا يجوزُ له الإقدامُ على قتلِ النُّفوسِ بمجرَّدِ ما يُلْقَى فى خَلَدِه ، لأنَّ خاطِرَه ليس بواجبِ العِصْمَةِ ؛ إذ يجوزُ عليه الخطأُ بالاتّفاقِ . ولمّا أقدمَ الخَضِرُ على قَتْلِ ذلك الغلامِ ، الذى لم يبلغِ الحُلُمَ ، علمًا منه بأنه إذا بلَغ يَكْفُرُ ، ويَحْمِلُ أبويه على الكفرِ ؛ لِشدَّةِ محبَّتِهما له ، فيُتابعانه عليه ، ففى قَتْلِه مصلحةٌ عظيمةٌ تَرْبُو على بقاءِ مُهْجَتِه ؛ صيانةً لأبويه عن الوقوعِ فى الكفرِ وعقوبتِه ، دلَّ ذلك على نبوَّتِه ، وأنّه مؤيَّدٌ مِن اللَّهِ بعصمتِه . وقد رأيتُ الشّيخَ أبا الفرجِ ابنَ الجَوْزِىِّ طَرَقَ هذا المسلكَ بعينِه فى الاحتجاجِ على نبوةِ الخَضِرِ وصحَّحَه . وحكى الاحتجاجَ عليه الرُّمّانيُّ أيضًا . الرّابعُ ، أنّه لمّا فسَّر الخَضِرُ تأويلَ تلك الأفاعيلِ لموسى ، ووضَّح له عن حقيقةِ أمرِه ، وجَلَّى ، قال بعدَ ذلك كلِّه : ﴿ رَحْمَةً [١/٢٠٥ ظ] مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ ﴾ يعنى : ما فعلتُه مِن تلقاءِ نفسى ، بَل أُمِرْتُ به ، وأُوحِىَ إلىَّ فيه ، فدلَّتْ هذه الوجوهُ على نبوّتِه . ولا يُنافى ذلك حصولُ ولايتِه ، بل ولا رسالتِه ، كما قال آخرون . وأمّا كونُه مَلَكًا مِن الملائكةِ ، فغريبٌ جِدًّا . وإذا ثَبَتَتْ نبوّتُه كما ذكرْناه ، لم يَبْقَ لِمَن قال بولايتِه - وأنَّ الوليَّ قد يطَّلِعُ على

حقيقةِ الأمورِ دون أربابِ الشرْعِ الظَّاهرِ - مُسْتَنَدٌ يستندون إليه ، ولا مُعْتَمَدٌ يَعْتَمِدون عليه .

وأمّا الخلافُ فى وجودِه إلى زمانِنا هذا ، فالجمهورُ على أنّه باقٍ إلى اليومِ ، قِيل : لأنّه دَفَنَ آدمَ بعدَ خروجِهم مِن الطُّوفانِ ، فنالَتْه دعوةُ أبيه آدمَ بطولِ الحياةِ . وقيل : لأنّه شَرِبَ مِن عينِ الحياةِ فحَيِيَ .

وذَكَرُوا أخبارًا استشهدُوا بها على بقائِه إلى الآنَ ، وسنُورِدُها مع غيرِها ، إن شاءَ اللَّهُ تعالى ، وبه الثقةُ . وهذه وصيَّتُه لموسى حين ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف : ٧٨] . رُوِى فى ذلك آثارٌ مُنقطِعةٌ كثيرةٌ . قال البَيْهَقِيُّ[١] : أنبأنا أبو سعيدِ بنُ أبى عمرٍو ، حدَّثنا أبو عبدِ اللَّهِ الصَّفَّارُ ، حدثنا أبو بكرٍ ابنُ أبى الدُّنيا ، حدَّثنا إسحاقُ بنُ إسماعيلَ ، حدثنا جَريرٌ ، حدَّثنى أبو عبدِ اللَّهِ المَلَطِيُّ ، قال : لمّا أراد موسى أنْ يُفارِقَ الخَضِرَ ، قال له موسى : أوصِنى . قال : كنْ نَفَّاعًا ولا تكُنْ ضَرَّارا ، كنْ بَشَّاشًا ولا تكن غضبانَ ، ارجِعْ عن اللَّجاجةِ ، ولا تَمْشِ فى غيرِ حاجةٍ . وفى روايةٍ من طرقٍ أخرى زيادةٌ : ولا تَضْحَكْ إلَّا مِن عَجَبٍ[٢] . وقال وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ[٣] : قال الخَضِرُ : يا موسى ، إنّ النّاسَ معذَّبون فى الدُّنيا على قَدْرِ همومِهم بها . وقال بشرُ بنُ الحارثِ الحافى[٤] : قال موسى للخَضِرِ : أوصِنى . فقال : يسَّرَ[٥] اللَّهُ

---

(١) فى ح : « السهيلى » .
وقد أخرجه من طريق البيهقى ، ابن عساكر فى تاريخ دمشق ٦/ ٤١٥، ٤١٦.
(٢) تاريخ دمشق ١٦/ ٤١٦. الزهد لأحمد ٦١.
(٣) تاريخ دمشق ١٦/ ٤١٦.
(٤) تاريخ دمشق ١٦/ ٤١٦، ٤١٧.
(٥) فى تاريخ دمشق : « ستر » .

عليك طاعته. وقد ورد في ذلك حديثٌ مرفوعٌ، رواه ابن عساكرَ[1]، مِن طريقِ زكريا بنِ يَحيَى الوَقَارِ[2]، إلا أنّه مِن الكَذّابِين الكِبارِ. قال: قُرِئَ على عبدِ اللَّهِ بنِ وهبٍ، وأنا أسمعُ، قال الثوريُّ: قال مُجالِدٌ: قال أبو الوَدَّاكِ: قال أبو سعيدٍ الخُدْرِيُّ: قال عمرُ بنُ الخطابِ، قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «قال أخي موسى: يارِبِّ. ذكرَ كلمةً[3]، فأتاه الخَضِرُ، وهو فتًى طيِّبُ الرِّيحِ، حَسَنُ بياضِ الثِّيابِ، مُشَمِّرُها، فقال: السّلامُ عليكَ ورحمةُ اللَّهِ يا موسى بنَ عِمْرانَ، إنّ ربَّكَ يَقْرَأُ عليك السّلامَ. قال موسى: هو السّلامُ، وإليه السّلامُ، والحمدُ للَّهِ رَبِّ العالمين، الذى لا أُحْصِى نِعَمَه، ولا أَقْدِرُ على أداءِ شُكْرِه إلا بمعونتِه. ثُمَّ قال موسى: أُرِيدُ أنْ تُوصِيَنى بوصيَّةٍ، يَنفعُنى اللَّهُ بها بعدَك. فقال الخَضِرُ: يا طالبَ [١/٢٠٦و] العلمِ، إنَّ القائلَ أقلُّ مَلالَةً[4] مِن المُسْتَمِعِ، فلا تُمِلَّ جُلساءَك إذا حدَّثْتَهم، واعلمْ أنّ قَلْبَك وعاءٌ فانظرْ ماذا تَحْشُو به وعاءَك؟ واعزِفْ عن الدّنيا وانبِذْها وراءَك، فإنّها ليستْ لك بدارٍ، ولا لك فيها مَحِلُّ قَرارٍ. وإنّما جعِلَتْ بُلْغَةً للعبادِ، والتزوُّدِ منها ليومِ المَعَادِ. ورُضْ نفسَك على الصَّبرِ، تَخلُصْ مِن الإِثْمِ، يا موسى، تَفرَّغْ للعلمِ (٥ إنْ كنتَ تُرِيدُه، فإنّما العِلمُ لِمَن تَفرَّغَ له، ولا تكنْ مِكْثارًا بالمَنطقِ[6] مِهْدارًا[7] ٥)؛ فإنّ كثرةَ المَنطِقِ تَشِينُ

---

(١) في تاريخ دمشق ١٦/ ٤١٤، ٤١٥.
(٢) في ح: «الوتار». وفي م: «الوقاد»، انظر الإكمال لابن ماكولا ٧/ ٣٩٦. والكامل في الضعفاء لابن عدى ٣/ ١٠٧١، ١٠٧٢.
(٣) في م: «كلمته».
(٤) في ح، م: «ملامة».
(٥ - ٥) سقط من: ص.
(٦) في الأصل: «للعلم». وفي ح، م: «بالعلم».
(٧) في م: «مهذارا».

العلماءِ، وتُبْدِى مساوِئَ السُّخَفاءِ، ولكن عليك بالاقتصادِ، فإنَّ ذلك مِن التَّوفيقِ والسَّدادِ. وأعرِضْ عن الجُهَّالِ وبَاطِلِهم[1]، واحلُمْ عن السُّفهاءِ، فإنَّ ذلك فِعلُ الحكماءِ، وزَيْنُ العلماءِ، إذا شَتَمَك الجاهلُ فاسكُتْ عنه حِلْمًا، وجانِبْه حَزْمًا؛ فإنَّ ما بَقِيَ مِن جَهْلِه عليك، وسبِّه إيَّاكَ، أكثرُ وأعظمُ. يا بنَ عِمْرانَ، ولا تَرَ أنَّك أُوتيتَ مِن العلمِ إلا قليلًا؛ فإنَّ الاندِلاثَ[2] والتعسُّفَ، مِن الاقتِحامِ والتَّكلُّفِ. يا بنَ عِمْرانَ، لا تَفْتَحَنَّ بابًا لا تَدْرِى ما غلْقُه، ولا تُغْلِقَنَّ بابًا لا تَدْرِى ما فتْحُه. يا بنَ عِمْرانَ مَن لا تنتهى مِن الدّنيا نَهْمَتُه، ولا تَنْقَضِى منها رغبتهُ [3]كيف يكون عابدًا[3]؟! ومَن يَحقِرُ حالَه ويتَّهِمُ اللَّهَ فيما قَضَى له، كيف يكونُ زاهدًا؟! هل يكفُّ عن الشَّهواتِ مَن غَلَبَ عليه هواه، أو يَنفعُه طلبُ العلمِ، والجهلُ قد حَوَاه؛ لأنَّ سعْيَه إلى آخرتِه وهو مُقْبِلٌ على دنياه؟! يا موسى، تعلَّمْ ما تعلَّمْتَ لِتَعْمَلَ به، ولا تَعَلَّمْه لِتُحَدِّثَ به، فيكونَ عليكَ بَوارُه ولغيرِك نورُه. يا موسَى بنَ عِمْرانَ، اجعلِ الزُّهْدَ والتَّقْوَى لباسَك، والعلمَ والذِّكرَ كلامَك، واستَكثِرْ مِن الحسناتِ، فإنَّك مصيبٌ السيِّئاتِ، وزَعْزِعْ بالخوفِ قلبَك، فإنَّ ذلك يُرضِى ربَّكَ، واعملْ خيرًا فإنَّك لابُدَّ عاملٌ سُوءًا. قد وُعِظْتَ إنْ حَفِظْتَ». قال: «فتولَّى الخَضِرُ، وبَقِيَ موسى مَحْزُونًا مَكروبًا يَبْكِي».

لا يصِحُّ هذا الحديثُ[4]، وأظنُّه مِن صَنْعةِ زكريا بنِ يَحْيَى الوَقَّارِ[5]

---

(١) فى ح، م: «ماطلهم».
(٢) الاندلاث: التقدم بلا فكرة ولا رويَّة. اللسان (د ل ث).
(٣ - ٣) سقط من: ح، م.
(٤) انظر تنزيه الشريعة لابن عراق ١/ ٢٤٣، ٢٤٤.
(٥) فى م: «الوقاد». وانظر ص ٢٥١ حاشية (٢).

المِصرِىُّ، كذَّبَه غيرُ واحدٍ [(1)] من الأئمةِ [(1)]، والعَجَبُ أنّ الحافظَ ابنَ عساكرَ سَكَتَ عنه. وقال الحافظُ أبو [(2)] نُعَيمٍ الأَصْبَهانِىُّ [(3)]: حدَّثنا سليمانُ بنُ أحمدَ بنِ أيوبَ الطَّبَرانِىُّ، ثنا عمرُو بنُ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ بنِ العلاءِ الحِمْصِىُّ، حدَّثنا محمدُ بنُ الفضلِ بنِ عِمرانَ الكِنْدِىُّ، حدثنا بَقِيَّةُ بنُ الوليدِ، عن محمدِ بنِ زِيادٍ، عن أبى أُمامةَ، أَنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال لأصحابِه: «ألا أحدِّثُكُم عن الخَضِرِ؟» قالوا: بلى يارسولَ اللَّهِ. قال: [١/٢٠٦ظ] «بينَما هو ذاتَ يومٍ يَمشِى فى سُوقٍ بنى إسرائيل، أبْصَرَه رجلٌ مُكاتَبٌ، فقال: تَصَدَّقْ علىَّ، بارَكَ اللَّهُ فيك. فقال الخَضِرُ: آمنتُ باللَّهِ، ما شاءَ اللَّهُ مِن أمرٍ يكونُ، ما عندى مِن شىءٍ أُعْطِيكَه. فقال المِسْكينُ: أسألُك بوجهِ اللَّهِ لَمَا تصدَّقْتَ علىَّ، فإنِّى نظرْتُ السِّيماءَ [(4)] فى وَجْهِك، ورجوْتُ البركةَ عندَك. فقال الخَضِرُ: آمنتُ باللَّهِ، ما عندى شىءٌ أُعطِيكه، إلا أنْ تَأْخُذَنى فتَبِيعَنى. فقال المسكينُ: وهل يستقيمُ هذا؟ قال: نعم، الحقَّ أقولُ لك، لقد سألتَنى بأمرٍ عظيمٍ، أَما إنِّى لا أُخيِّبُك بوجهِ ربِّى، بِعْنى. قال: فقدَّمه إلى السُّوقِ فباعَه بأربعمائةِ دِرْهَمٍ، فمَكَث عند المُشترِى زمانًا لا يَستعمِلُه فى شىءٍ؛ فقال له: إنّك إنما ابْتَغَتَنى التِماسَ خيرٍ عندِى، فأَوْصِنى بعملٍ. قال: أكرهُ أنْ أشُقَّ عليك، إنّك شيخٌ كبيرٌ ضعيفٌ. قال: ليس تَشُقُّ علىَّ. قال: فانقُلْ هذه الحجارةَ. وكان لا ينقُلُها دونَ ستَّةِ نَفَرٍ فى يومٍ، فخرج الرّجُلُ لبعضِ حاجَتِه، ثم انصرَفَ وقد نقَلَ

(١ - ١) سقط من: ح، م.

(٢) فى الأصل: «ابن».

(٣) ومن طريقه أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق ١٦/٤١٧، ٤١٨. وأخرجه الطبرانى شيخ أبى نعيم فى المعجم الكبير (٧٥٣٠). وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٨/٢١٣: رواه الطبرانى فى الكبير ورجاله موثقون، إلا أن فيه بقية بن الوليد، وهو مدلس. وزاد فى موضع آخر ٣/١٠٣:.. ولكنه ثقة.

(٤) فى م، ص: «إلى السماء».

الحجارةَ فى ساعةٍ . فقال : أحسنْتَ وأجملْتَ ، وأطقْتَ ما لم أَرَكَ تُطِيقُه . ثم عَرَضَ للرجلِ سَفَرٌ فقال : إنِّى أَحْسَبُك أمينًا ، فاخْلُفْنى فى أهلى خلافةً حَسَنَةً . قال : فأوصِنى بعملٍ . قال : إنِّى أكرهُ أنْ أَشُقَّ عليك . قال : ليس تَشقُّ علىَّ . قال : فاضرِبْ مِن اللَّبِنِ لبيتى حتى أقدَمَ عليك . فمضى الرَّجُلُ لسفرِه ، فرَجَعَ وقد شَيَّدَ بناءَه . فقال : أسألُك بوجهِ اللَّهِ ما سَبَبُك[1] وما أمرُك ؟ فقال : سَأَلْتَنى بوجهِ اللَّهِ ، والسؤالُ بوجهِ اللَّهِ أوقَعَنى فى العبوديَّةِ ، سأُخبِرُك مَن أنا ، أنا الخَضِرُ الذى سَمِعْتَ به[2] ، سألَنى مِسكينٌ صدقةً ، فلم يكنْ عندى شىءٌ أُعْطِيه ، فسألنى بوجهِ اللَّهِ فأمكنْتُه مِن رَقَبَتى ، فباعَنى ، وأُخْبِرُك أنَّه مَن سُئِل بوجهِ اللَّهِ ، فرَدَّ سائلَه وهو يَقْدِرُ ، وَقَفَ يومَ القيامةِ ؛ جلدُه لا لحمَ له ، ولا عَظْمَ يَتَقَعْقَعُ . فقال الرَّجُلُ : آمنتُ باللَّهِ ، شقَقْتُ عليك يا نبىَّ اللَّهِ ولم أعلمْ . فقال : لا بَأْسَ ، أحسنْتَ وأبقَيْتَ . فقال الرَّجُلُ : بأبى وأمى يا نبىَّ اللَّهِ ، احكُمْ فى أهلى ومالى بما أراكَ اللَّهُ ، أو أُخيِّرُك فأُخَلِّى سبيلَك . فقال : أُحِبُّ أنْ تُخَلِّىَ سبيلى فأعبُدَ ربِّى . فخلَّى سبيلَه ، فقال الخَضِرُ : الحمدُ للَّهِ الذى أوقَعَنى فى العبوديَّةِ ثم نَجَّانى منها » . وهذا حديثٌ رفعُه خطأٌ ، والأشْبهُ أنْ يكونَ موقوفًا ، وفى رجالِه مَن لا يُعْرَفُ . فاللَّهُ أعلمُ .

وقد رواه ابنُ الجَوْزِىِّ ، فى كتابِه « عُجالةِ المنتظِرِ فى شرْحِ حالِ الخَضِرِ » مِن طريقِ عبدِ الوهَّابِ بنِ الضَّحّاكِ [١/٢٠٧و] ، وهو متروكٌ[3] عن بَقِيَّةَ[3] . وقد

(١) فى م : « سبيلك » .
(٢) سقط من : ح .
(٣ - ٣) فى الأصل : « غير ثقة » .

روى الحافِظُ ابنُ عساكرَ[1] ، بإسنادِه إلى السُّدِّيِّ ، أنّ الخَضِرَ وإلياسَ كانا أَخَوَيْن ، وكان أبوهما مَلِكًا ، فقال إلياسُ لأبيه : إنّ أخى الخَضِرَ لا رغبةَ له فى المُلْكِ ، فلو أنَّك زَوَّجْتَه ؛ لعلَّه يَجِيءُ منه ولدٌ يكونُ المُلْكُ له . فزوَّجَه أبوه بامرأةٍ حسناءَ بِكْرٍ ، فقال لها الخَضِرُ : إنّه لا حاجةَ لى فى النِّساءِ ، فإنْ شِئْتِ أطلقْتُ سَراحَكِ ، وإنْ شئتِ أقمْتِ معى تَعْبُدِينَ اللَّهَ ، عزَّ وجلَّ ، وتَكْتُمِين علىَّ سِرِّى . فقالت : نعمْ . وأقامتْ معه سنةً ، فلمّا مضتِ السَّنَةُ دعاها المَلِكُ فقال : إنّكِ شابَّةٌ وابنى شابٌّ ، فأين الولدُ ؟ فقالت : إنما الولدُ مِن عندِ اللَّهِ ، إنْ شاءَ كان ، وإنْ لم يشأْ لم يكنْ . فأمره أبوه فطلَّقَها ، وزوَّجَه أُخرَى ثَيِّبًا قد وُلِدَ لها ، فلمّا زُفَّتْ إليه ، قال لها كما قال لِلَّتى قبلَها ، فأجابتْ إلى الإقامةِ عندَه ، فلمّا مضتِ السَّنةُ ، سألَها المَلِكُ عن الولدِ ، فقالت : إنَّ ابنَك لا حاجةَ له فى النِّساءِ . فتَطَلَّبَه أبوه فهَرَب ، فأرْسَل وراءَه ، فلم يَقدِرُوا عليه ، فيُقالُ : إنّه قَتلَ المرأةَ الثّانيةَ ، لكونِها أفشَتْ سرَّه[2] ، فهَرَبَ مِن أجلِ ذلك ، وأُطْلِقَ سراحُ الأُخرَى ، فأقامتْ تَعْبُدُ اللَّهَ فى بعضِ نواحِى تلك المدينةِ ، فمرّ بها رجلٌ يومًا ، فسمِعَتْه يقول : بسمِ اللَّهِ . فقالتْ له : أَنَّى لك هذا الاسمُ ؟ فقال : إنّى مِن أصحابِ الخَضِرِ . فتَزَوَّجَتْه ، فولدَتْ له أولادًا ، ثم صار مِن أمرِها أنْ صارتْ ماشِطَةَ بنتِ فِرْعَوْنَ ، فبينَما هى يومًا تُمَشِّطُها ؛ إذ وَقَع المُشْطُ مِن يدِها ، فقالت : بسمِ اللَّهِ . فقالتِ ابنةُ فِرْعَوْنَ : أبى ؟ فقالت : لا ، رَبِّى وربُّكِ وربُّ أبيك ، اللَّهُ . فأعلمَتْ أباها ، فأمَرَ ببَقَرَةٍ[3] مِن نُحاسٍ ، فأُحْمِيَتْ ، ثم أُمِرَ بها ، فأُلْقِيَتْ فيه ، فلمّا عاينَتْ

---

(1) تاريخ دمشق ٤١٨/١٦ - ٤٢٠ . وقد ذكره ابن كثيرٍ هنا بمعناه لا بلفظه .

(2) الذى قتل المرأة لأنها أفشتْ سرَّ ولده ؛ هو الملك والدُ الخضر ، كما فى تاريخ دمشق مفصَّلًا .

(3) فى م ، ص : « بنقرة » . والبقرة : قِدْرٌ واسعة كبيرة . تاج العروس (ب ق ر) .

ذلك ، تقاعستْ أنْ تقعَ فيها ، فقال لها ابنٌ معها صغيرٌ : يا أُمَّهْ ، اصْبِرِى فإنّكِ على الحقِّ . فألقَتْ نفسَها فى النّارِ ، فماتتْ ، رَحِمَها اللَّهُ تعالى .

وقد رَوَى ابنُ عساكرَ[1] ، عن أبى داودَ الأعمَى نُفَيْعٍ ، وهو كذّابٌ وضّاعٌ ، عن أنسِ بنِ مالكٍ ، ومِن طريقِ كَثِيرِ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرِو بنِ عوفٍ ، وهو كذّابٌ أيضًا ، عن أبيه ، عن جَدِّه ، أنّ الخَضِرَ جاء ليلةً فسَمِعَ النَّبىُّ ﷺ كلامَه[2] وهو يدعُو ويقولُ : اللهمّ أعِنِّى على ما يُنَجِّينى ممّا خَوَّفْتَنى ، وارْزُقْنى شوقَ الصّالحين إلى ما شوَّقْتَهم إليه . فبعَث إليه رسولُ اللَّهِ أنسَ بنَ مالكٍ ، فسلَّم عليه ، فردّ عليه السّلامَ ، وقال له : قُل له : إنّ اللَّهَ فضَّلك على الأنبياءِ ، كما فضَّلَ شهرَ رمضانَ على سائرِ الشُّهورِ ، وفضَّل أُمَّتَك على الأممِ ، [١/٢٠٧ظ] كما فضَّل يومَ الجُمُعةِ على غيرِه . الحديث ، وهو مكذوبٌ ، لا يصحُّ سندًا ولا مَتْنًا ؛ كيف لا يتمثَّلُ بين يَدَىْ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، ويَجِيءُ بنفسِه مُسَلِّمًا ومتعلِّمًا ، وهم يَذْكُرون فى حكاياتِهم ، وما يُسْنِدُونه عن بعضِ مشايخِهم ، أَنّ الخَضِرَ يأتى إليهم ، ويسلِّمُ عليهم ، ويعرِفُ أسماءَهم ومنازلَهم ومَحالَّهم ، وهو مع هذا لا يعرِفُ موسى بنَ عِمْرانَ ، كليمَ اللَّهِ الذى اصطفاه اللَّهُ فى ذلك الزّمانِ على مَن سواه ، حتى يتعرَّفَ إليه بأنّه موسى بنى إسرائيلَ . وقد قال الحافظُ أبو الحسينِ ابنُ المُنادِى بعد إيرادِه حديثَ أنسٍ هذا : وأهلُ الحديثِ مُتَّفِقون على أنّه حديثٌ مُنْكَرُ الإسنادِ ، سَقِيمُ المَتْنِ ، يَتَبَيَّنُ فيه أثرُ الصَّنعةِ . فأمّا الحديثُ الذى رواه

---

(١) تاريخ دمشق ١٦/ ٤٢٣، ٤٢٤. وساقه ابن كثيرٍ هنا بتصرفٍ مختصرًا . وانظر الموضوعات لابن الجوزى ١/١٩٣ - ١٩٥.

(٢) سقط من : م.

الحافظُ أبو بكرٍ البيهقيُّ[1] ، قائِلًا : أخبرَنا أبو عبدِ اللَّهِ الحافظُ ، أخبرَنا أبو بكرِ ابن بالَوَيْهِ ، حدَّثنا محمدُ بنُ بِشرِ بنِ مَطَرٍ ، حدثنا كاملُ بنُ طلْحةَ ، حدثنا عَبَّادُ ابنُ عبدِ الصَّمدِ ، عن أنسِ بنِ مالكٍ ، قال : لمَّا قُبِضَ رسولُ اللَّهِ ﷺ ، أَحْدَقَ به أصحابُه ، فبَكَوْا حولَه ، واجتمعُوا ، فدخل رجُلٌ أَشْهَبُ اللِّحيةِ ، جَسيمٌ ، صَبيحٌ ، فتخطَّى رقابَهم فبَكَى ، ثم التفتَ إلى أصحابِ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، فقال : إن فى اللَّهِ عزاءً مِن كلِّ مُصيبةٍ ، وعِوَضًا مِن كلِّ فائتٍ ، وخَلفًا مِن كلِّ هالِكٍ ، فإلى اللَّهِ فأنِيبوا ، وإليه فارغَبوا ، ونَظَرُه إليكم فى البلاءِ فانظُروا ، فإنَّ المُصابَ مَن لم يُجْبَرْ . وانصرفَ[2] ، فقال بعضُهم لبعضٍ : تعرِفون الرَّجُلَ ؟ فقال أبو بكرٍ ، وعليٌّ : نَعَمْ ، هذا أخو رسولِ اللَّهِ ﷺ ، [3]الخَضِرُ عليه السّلامُ[3] . وقد رواه أبو بكرٍ ابنُ أبى الدّنيا[4] ، عن كاملِ بنِ طلحةَ به[5] ، وفى مَتْنِه مُخالَفَةٌ لسياقِ البيهقيِّ ، ثم قال البيهقيُّ[6] : عَبّادُ بنُ عبدِ الصّمدِ ضعيفٌ ، وهذا مُنْكَرٌ بمرةٍ . قلتُ : عَبّادُ بنُ عبدِ الصّمدِ هذا ، هو أبو[7] مَعْمَرٍ البصريُّ ؛ رَوَى عن أنسٍ نُسْخَةً . قال ابنُ حِبّانَ والعُقَيْليُّ[8] : أكثرُها موضوعٌ . وقال البخاريُّ[9] : مُنْكَرُ الحديثِ . وقال أبو حاتمٍ[10] : ضعيفُ الحديثِ جِدًّا مُنْكَرُه .

---

(١) فى دلائل النبوة ٧/ ٢٦٩. والحاكم في المستدرك ٣/ ٥٨، ومن طريق البيهقى، أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق ١٦/ ٤٢٤.
(٢) سقط من: ح.
(٣ - ٣) سقط من: الأصل.
(٤) ذكره الحافظ ابن حجر فى الإصابة بسنده ٢/ ٣١٦.
(٥) سقط من: الأصل.
(٦) دلائل النبوة ٧/ ٢٦٩.
(٧) فى الأصل، ح، م: «ابن».
(٨) انظر المجروحين لابن حبان ٢/ ١٧١. والضعفاء الكبير ٣/ ١٣٩.
(٩) فى التاريخ الكبير ٦/ ٤١.
(١٠) فى الجرح والتعديل ٦/ ٨٢.

وقال ابنُ عَدِيٍّ[1] : عامّةُ ما يَرْوِيه فى فضائلِ عليٍّ ، وهو ضعيفٌ ، غالٍ فى التَّشيُّعِ .

وقال الشّافعيُّ فى « مسندِه »[2] : أخبَرَنا القاسمُ بنُ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرَ ، عن جعفرِ بنِ محمدٍ ، عن أبيه ، عن جدِّه عليِّ بنِ الحسينِ ، قال : لمَّا تُوفِّيَ رسولُ اللَّهِ ﷺ ، وجاءتِ التَّعْزِيَةُ ، سَمِعوا قائلًا يقولُ : إنَّ فى اللَّهِ عزاءً مِن كلِّ مصيبةٍ ، وخَلَفًا مِن كلِّ هالكٍ ، ودَرَكًا مِن كلِّ فائتٍ ، فباللَّهِ فثِقُوا ، وإيّاه فارجُوا ، فإنَّ المُصابَ مَن حُرِمَ الثَّوابَ . قال عليُّ بنُ الحسينِ : أتدرون [١/ ٢٠٨و] مَن هذا ؟ هذا الخَضِرُ . شيخُ الشّافعيِّ القاسمُ العُمَرِيُّ متروكٌ . قال أحمدُ ابنُ حنبلٍ ، ويحيى بنُ مَعِينٍ[3] : يَكْذِبُ . زاد أحمدُ : ويَضَعُ الحديثَ[3] . ثم هو مرسَلٌ ، ومثلُه لا يُعْتَمَدُ عليه ههنا . واللَّهُ أعلمُ .

وقد رُوِىَ مِن وجهٍ آخرَ ضعيفٍ ، عن جعفرِ بنِ محمدٍ ، عن أبيه ، عن جدِّه ، عن أبيه ، عن عليٍّ[4] . ولا يصحُّ .

وقد رَوَى عبدُ اللَّهِ بنُ وهبٍ[5] ، عمَّن حدَّثَه ، عن محمدِ بنِ عَجْلَانَ ، عن محمدِ بنِ المُنْكَدِرِ ، أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ بينَما هو يُصلِّى على جِنازةٍ ؛ إذْ سَمِعَ هاتفًا وهو يقولُ : لَا تسبِقْنا يرحمُكَ اللَّهُ . فانتظرَه حتى لَحِقَ بالصفِّ ، فذَكَر دعاءَه للميِّتِ ؛ إنْ تُعذِّبْه فكثيرًا عصاك ، وإنْ تَغفِرْ له ففقيرٌ إلى رحمتِك . ولمَّا

---

(١) فى الكامل فى الضعفاء ٤/ ١٦٤٨.

(٢) ترتيب مسند الشافعى ١/ ٢١٦. ومن طريق الشافعى أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة ٧/ ٢٦٨.

(٣) كتاب المجروحين لابن حبان ٢/ ٢١٢. وتهذيب الكمال ٢٣/ ٣٧٧.

(٤) فى دلائل النبوة للبيهقى ٢٦٧/٧ مطولًا .

(٥) تاريخ دمشق ١٦/ ٤٢٤، ٤٢٥.

دُفِن قال : طُوبَى لك يا صاحبَ القبرِ ، إنْ لم تكُنْ عَرِيفا ، أو جابِيًا ، أو خازِنا ، أو كاتبًا ، أو شُرْطِيًّا . فقال عمرُ : خذوا الرَّجُلَ نسألْه عن صلاتِه وكلامِه عمَّن هو . قال : فتوارَى عنهم ، فنَظَروا فإذا أثَرُ قَدَمِه ذِراعٌ . فقال عمرُ : هذا واللَّهِ الخَضِرُ الذى حدَّثنا عنه رسولُ اللَّهِ ﷺ . وهذا الأثَرُ فيه مُبْهَمٌ ، وفيه انقطاعٌ ، ولا يصحُّ مثلُه .

وروى الحافِظُ ابنُ عساكرَ[1] ، عن الثَّورِىِّ ، عن عبدِ اللَّهِ بن المُحَرَّرِ[2] ، عن يزيدَ بنِ الأصمِّ ، عن علىِّ بنِ أبى طالبٍ ، قال : دخلْتُ الطَّوافَ فى بعضِ الليلِ ، فإذا أنا برَجُلٍ مُتعلِّقٍ بأستارِ الكعبةِ ، وهو يقولُ : يا مَن لا يَمنعُه سمعٌ عن سَمْعٍ ، ويا مَن لا تُغْلِطُه المسائلُ ، ويا مَن لا يُبْرِمُه إلحاحُ المُلِحِّين ، ولا مسألةُ السَّائلين ، ارزُقْنى بَرْدَ عفوِك ، وحلاوةَ رحمتِك . قال : فقلتُ : أعِدْ علىَّ ما قلتَ . فقال لى : أوَ سَمِعْتَه ؟ قلتُ : نعم . فقال لى : والذى نفسُ الخَضِرِ بيدِه - قال : وكان هو الخَضِرَ - لا يَقولُها عبدٌ خَلْفَ صلاةٍ مكتوبةٍ ؛ إلَّا غفرَ اللَّهُ له ذنوبَه ، ولو كانت مثلَ زَبَدِ البحرِ[3] ، [4]وورقِ الشَّجرِ[4] ، وعددِ النُّجومِ ؛ لَغفَرَها اللَّهُ له . وهذا ضعيفٌ مِن جهةِ عبدِ اللَّهِ بن المُحَرَّرِ ؛ فإنّه متروكُ الحديثِ ، ويزيدُ بنُ الأصمِّ لم يُدْرِكْ عليًّا . ومثلُ هذا لا يصحُّ . واللَّهُ أعلمُ . وقد رواه أبو

---

(١) تاريخ دمشق ١٦/ ٤٢٦. ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات ١/١٩٨ من طريق سفيان الثورى ، وقال : هذا حديث لا يصح . وانظر تنزيه الشريعة ١/ ٢٣٥.

(٢) فى م : « محرز » . وانظر تهذيب الكمال ١٦/ ٢٩.

(٣) بعده فى تاريخ دمشق : « ورمل عالج » .

(٤ - ٤) سقط من : الأصل.

إسماعيلَ التِّرْمِذِيُّ[١] : حدَّثنا مالكُ بنُ إسماعيلَ ، حدَّثنا صالحُ بنُ أبى الأسودِ ، عن محفوظِ بنِ عبدِ اللَّهِ الحَضْرَمِىِّ ، عن محمدِ بنِ يَحْيَى ، قال : بينَما علىٌّ بنُ أبى طالبٍ يطوفُ بالكعبةِ ، إذا هو برَجُلٍ متعلِّقٍ بأستارِ الكعبةِ ، وهو يقولُ : يا مَنْ لا يَشْغَلُه سَمْعٌ عن سَمْعٍ ، ويا مَن لا يُغْلِطُه السّائلون ، ويا مَن لا يَتبرَّمُ بإلحاحِ المُلِحِّين ، أذِقْنى بَرْدَ عفوِك ، وحلاوةَ رحمتِك . قال : فقال له علىٌّ : يا عبدَ اللَّهِ ، أعِدْ دُعاءَك هذا . قال : وقد سمعتَه ؟ [١/٢٠٨ظ] قال : نعم . قال : فادْعُ به فى دُبُرِ كلِّ صلاةٍ ، فوالذى نفسُ الخَضِرِ بيدِه ، لو كان عليك مِن الذُّنوبِ عددُ نجومِ السّماءِ ومطرِها ، وحَصْباءِ الأرضِ وتُرابِها ، لَغُفِرَ لك أسرعَ مِن طَرْفةِ عينٍ . وهذا أيضًا منقَطِعٌ ، وفى إسنادِه مَن لا يُعْرَفُ . واللَّهُ أعلمُ .

وقد أوْرَدَه ابنُ الجوزىِّ[٢] ، مِن طريقِ أبى بكرِ ابنِ أبى الدّنيا : حدَّثنا يعقوبُ بنُ يوسفَ ، حدثنا مالكُ بنُ إسماعيلَ ، فذكَرَ نحوَه . ثم قال : وهذا إسنادٌ مجهولٌ منقطِعٌ ، وليس فيه ما يدلُّ على أنَّ الرَّجُلَ الخَضِرُ .

وقال الحافظُ أبو القاسمِ ابنُ عساكرَ[٣] : أنبأَنا أبو القاسمِ بنُ الحُصَينِ ، أنبأَنا أبو طالبٍ محمدُ بنُ محمدٍ ، أنبأنا أبو إسحاقَ المُزَكِّى[٤] ، حدثنا محمدُ بنُ إسحاقَ بنِ خُزَيمةَ ، حدثَنا محمدُ بنُ أحمدَ بنِ زيدٍ[٥] ، أمَلَّه علينا بعَبّادانَ ، أنبأنا عمرُو بنُ عاصمٍ ، حدّثنا الحسنُ بنُ رَزِينٍ[٦] ، عن ابنِ جُرَيْجٍ ، عن عطاءٍ ، عن

---

(١) فى الأصل : « اليزيدى » .
وقد أخرجه من طريق أبى إسماعيل الترمذى ، ابن عساكر فى تاريخ دمشق ١٦/ ٤٢٦.
(٢) ذكره الحافظ ابن حجر فى الإصابة ٢/ ٣٢٠ من طريق ابن أبى الدنيا .
(٣) تاريخ دمشق ١٦/ ٤٢٦، ٤٢٧. ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات ١/ ١٩٥.
(٤) فى الأصل : « المزلى » .
(٥) فى م : « يزيد » .
(٦) فى م : « زريق » .

ابنِ عباسٍ - قال : ولا أعْلَمُه إلَّا مرفوعًا إلى النَّبىِّ ﷺ - قال : « يَلتقِى الخَضِرُ وإلياسُ كلَّ عامٍ فى المَوسمِ ، فيَحلِقُ كلُّ واحدٍ منهما رأسَ صاحبِه ، ويَتَفرَّقان عن هؤلاءِ الكلماتِ : بسم اللَّهِ ما شاء اللَّهُ ، لا يَسُوقُ الخيرَ إلَّا اللَّهُ ، ما شاءَ اللَّهُ ، لا يَصْرِفُ الشَّرَّ إلَّا اللَّهُ ، ما شاءَ اللَّهُ ، ما كان مِن نِعمةٍ فمِن اللَّهِ ، ما شاءَ اللَّهُ ، لا حَوْلَ ولا قوةَ إلَّا باللَّهِ » . قال : وقال ابنُ عباسٍ : مَن قالَهنّ حينَ يُصبِحُ وحينَ يُمْسِى ثلاثَ مرّاتٍ ، آمَنَه اللَّهُ مِن الغَرَقِ ، والحَرَقِ ، والسرَقِ . قال : وأحسَبُه قال : ومِن الشَّيطانِ ، والسُّلطانِ ، والحَيَّةِ ، والعقربِ .

قال الدّارَقُطْنِىُّ فى « الأفرادِ » : هذا حديثٌ غريبٌ مِن حديثِ ابنِ جُرَيْجٍ ، لم يُحدِّثْ به غيرُ هذا الشّيخِ عنه . يعنِى الحسنَ بنَ رَزِينٍ[1] هذا . وقد رَوَى عنه محمدُ بنُ كَثِيرٍ العَبْدِىُّ أيضًا ، ومع هذا قال فيه الحافظُ أبو أحمدَ ابنُ عدىٍّ : ليس بالمعروفِ . وقال الحافظُ أبو جعفرٍ العُقَيلىُّ[2] : مجهولٌ ، وحديثُه غيرُ محفوظٍ . وقال أبو الحُسينِ[3] ابنُ المُنادى : هو حديثٌ واهٍ ، بالحسنِ بنِ رَزِينٍ[4] .

وقد رَوَى ابنُ عساكرَ[5] نحوَه مِن طريقِ علىِّ بنِ الحسنِ الجَهْضَمِىِّ ، وهو كذّابٌ ، عن ضَمْرةَ بنِ حَبيبٍ المقدسىِّ ، عن أبيه ، عن العلاءِ بنِ زِيادٍ

---

(١) فى م : « زريق » .
وانظر الكامل فى الضعفاء ٢/ ٧٤٠.
(٢) الضعفاء الكبير ١/ ٢٢٤، لسان الميزان ٢/ ٢٠٥، ٢٠٦.
(٣) فى م، ص : « الحسن » .
(٤) الإصابة : ٢/ ٣٠٥.
(٥) فى ح، م : « زريق » .
(٦) تاريخ دمشق ١٦/ ٤٢٧. ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات ١/ ١٩٦، ١٩٧.

القُشَيْرِىِّ[1]، عن عبدِ اللَّهِ بنِ الحسنِ، عن أبيه، عن جَدِّه، عن علىِّ بنِ أبى طالبٍ مرفوعًا، قال: يَجتمعُ كلَّ يومِ عرفةَ بعَرَفاتٍ جبريلُ، وميكائيلُ، وإسرافيلُ، والخَضِرُ. وذكر حديثًا طويلًا موضوعًا، تركْنا إيرادَه قَصْدًا. وللَّهِ الحمدُ.

ورَوَى ابنُ عساكرَ[2]، مِن طريقِ هشامِ بنِ خالدٍ، عن الحسنِ بنِ يَحْيَى الخُشَنىِّ، عن ابنِ[3] أبى رَوَّادٍ[4] قال: إلياسُ والخَضِرُ يَصُومان شهرَ رمضانَ فى بيتِ [١/٢٠٩و] المقدِسِ، ويحجّان فى كلِّ سنةٍ، ويشربان مِن ماءِ زمزمَ شَرْبةً تَكفِيهما إلى مِثْلِها مِن قابِلٍ.

ورَوَى ابنُ عَساكرَ[5] أنَّ الوليدَ بنَ عبدِ الملكِ بنِ مَرْوانَ، بانىَ جامعِ دِمَشْقَ، أحبَّ أنْ يتعبَّدَ ليلةً فى المسجدِ فأمرَ القَوَمَةَ أنْ يُخْلوه له، ففَعَلوا، فلمّا كان مِن الليلِ، جاء مِن بابِ السّاعاتِ، فدَخَل الجامعَ، فإذا رجلٌ قائمٌ يصلِّى فيما بينَه وبينَ بابِ الخضراءِ[6]، فقال للقَوَمَةِ: ألم آمُرْكم أنْ تُخْلُوه؟ فقالوا: يا أميرَ المؤمنين، هذا الخَضِرُ، يَجِىءُ كلَّ ليلةٍ يُصلِّى هـهنا.

وقال ابنُ عساكرَ[7] أيضًا: أنبأنا أبو القاسمِ[8] إسماعيلُ بنُ أحمدَ، أنبأنا أبو

---

(١) فى تاريخ دمشق: «النشيرى». وانظر تهذيب الكمال ٣/ ٣١٥، ٣١٦.
(٢) تاريخ دمشق ١٦/ ٤٢٨.
(٣) سقط من: ص.
(٤) فى الأصل: «زياد».
(٥) تاريخ دمشق ١٦/ ٤٠٢، ٤٠٣.
(٦) فى الأصل: «الخضر».
(٧) تاريخ دمشق ١٦/ ٤٣٢. رواه ابن الجوزى فى الموضوعات ١/ ١٩٨، ١٩٩.
(٨) بعد هذا فى م: «بن».

بكرِ ابنُ الطَّبَرِىِّ ، أنبأنا أبو الحسينِ بنُ الفضلِ ، أنبأنا عبدُ اللَّهِ بنُ جعفرٍ ، حدَّثَنا يعقوبُ - هو ابنُ سفيانَ - الفَسَوِىُّ[1] ، حدَّثنى محمدُ بنُ عبدِ العزيزِ ، حدثنا ضَمْرةُ[2] ، عن السَّرِىِّ بنِ[3] يحيَى ، عن[4] رِياحِ[5] بنِ عَبِيدَةَ ، قال : رأيتُ رجلًا يُماشِى عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ ، مُعتمِدًا على يدَيْه ، فقلتُ فى نفْسى : إنَّ هذا الرَّجُلَ جافٍ[6] . قال : فلَمّا انصرفَ مِن الصلاةِ ، قلتُ : مَن الرَّجُلُ الذى كان معتمِدًا على يدِكَ آنفًا ؟ قال : وهل رأيتَه يا رياحُ[7] ؟ قلتُ : نعم . قال : ما أحْسَبُكَ إلا رجلًا صالحًا . ذاك أخى الخَضِرُ ، بَشَّرنى أنّى سَأَلِى وأَعْدِلُ . قال الشَّيخُ أبو الفرجِ ابنُ الجَوْزِىِّ : الرَّملِىُّ مجروحٌ عندَ العلماءِ . وقد قدَح أبو الحسينِ ابنُ المُنادِى فى ضَمْرةَ ، والسَّرِىِّ ، ورياحٍ . ثم أَوْرَدَ مِن طرقٍ أخرى ، عن عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ، أنّه اجتمع بالخَضِرِ . وضعَّفها كلَّها . وروى ابنُ عساكرَ[8] أيضًا ، أنّه اجتمع بإبراهيمَ التَّيمِىِّ[9] ، وبسفيانَ بنِ عُيَيْنَةَ ، وجماعةٍ يَطُولُ ذِكْرُهم .

وهذه الرِّواياتُ والحكاياتُ ، هى عمدةُ [10]مَن ذَهَب[10] إلى حياتِه إلى اليومِ . وكلٌّ مِن الأحاديثِ المرفوعةِ ضعيفةٌ جِدًّا ، لا يقومُ بمثلِها حُجَّةٌ فى

---

(١) فى ص : « الثورى » .
(٢) فى الأصل ، ح ، م : « حمزة » .
(٣) فى ص : « عن » .
(٤) فى ص : « بن » .
(٥) فى الأصل ، م ، ص : « رباح » . انظر تهذيب الكمال ٩/ ٢٥٨، ٢٥٩ .
(٦) فى ح ، م ، ص : « حافى » .
(٧) فى النسخ : « رباح » . وراجع حاشية (٥) .
(٨) تاريخ دمشق ١٦/ ٤٢٩ - ٤٣٣ .
(٩) فى تاريخ دمشق : « التميمى » . وهو خطأ ، وانظر الإصابة لابن حجر ٢/ ٣٢٩ .
(١٠ - ١٠) فى الأصل : « ابن وهب » .

الدِّينِ. والحكاياتُ لا يَخْلو أكثرُها عن ضعفٍ فى الإِسنادِ، وقُصَاراها أنّها صحيحةٌ إلى مَن ليس بمعصومٍ؛ مِن صحابىٍّ أو غيرِه؛ لأنّه يجوزُ عليه الخطأُ. واللَّهُ أعلمُ.

وقال عبدُ الرَّزاقِ[1]: أخبَرَنا مَعْمَرٌ، عن الزُّهْرِىِّ، أخبَرَنى عُبَيدُ اللَّهِ بنُ عبدِ اللَّهِ بنِ عُتْبَةَ أنّ أبا سعيدٍ، قال: حدَّثنا رسولُ اللَّهِ ﷺ حديثًا طويلًا عن الدَّجّالِ، فقال فيما يحدِّثُنا: «يأتى الدَّجالُ، وهو مُحرَّمٌ عليه أنْ يَدْخُلَ نِقابَ المدينةِ، فيَخْرُجُ إليه يومَئذٍ رجلٌ، هو خيرُ النّاسِ، أو مِن خيرِهم، فيقولُ: أشهدُ أنّك أنتَ الدَّجّالُ الذى حدَّثنا رسولُ اللَّهِ ﷺ بحديثِه. فيقولُ الدَّجّالُ: أرأيتم إنْ قتلتُ هذا ثم أَحْيَيْتُه، أتَشكُّون فى الأمرِ؟ فيقولون: لا. فيَقْتُلُه [١/ ٢٠٩ظ] ثم يُحْيِيه، فيقولُ حين يُحْيَى: واللَّهِ ما كنتُ أشدَّ بَصِيرةً فيكَ مِنّى الآنَ. قال: فيُرِيدُ قَتْلَه الثّانيةَ فلا يُسلَّطُ عليه» قال مَعْمَرٌ: بَلَغَنى أنّه يَجْعَلُ [2]على حَلْقِه[2] صَفِيحةً[3] مِن نُحاسٍ، وبلغنى أنَّه الخَضِرُ الذى يَقتلُه الدَّجّالُ، ثم يُحْيِيه. وهذا الحديثُ مخرَّجٌ فى «الصَّحيحَيْنِ»[4]، مِن حديثِ الزُّهْرِىِّ به.

وقال أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ محمدِ بنِ سفيانَ، الفقيهُ الرّاوِى عن مسلمٍ: الصَّحيحُ أنْ يُقالَ: إنّ هذا الرَّجُلَ الخَضِرُ. وقَوْلُ مَعْمَرٍ وغيرِه: بَلَغَنى. ليس فيه حُجّةٌ، وقد وَرَد فى بعضِ ألفاظِ الحديثِ: «فيَأتى بشابٍّ مُمْتَلِئٍ شبابًا فيَقتُلُه»[5]. وقولُه: «الذى حدَّثنا عنه رسولُ اللَّه ﷺ». لا يَقْتَضِى المُشافَهةَ،

---

(١) مصنف عبد الرزاق (٢٠٨٢٤).

(٢ - ٢) سقط من: ص.

(٣) فى الأصل، م: «صحيفة».

(٤) البخارى (١٨٨٢، ٧١٣٢). مسلم (٢٩٣٨).

(٥) مسلم (٢٩٣٧). ابن ماجه (٤٠٧٥). الترمذى (٢٢٤٠). كلهم من حديث النواس بن=

بل يَكفى التَّواتُرُ.

وقد تصدَّى الشيْخُ أبو الفَرَجِ ابنُ الجَوزِىّ[1]، رَحِمَه اللَّهُ فى كتابِه: «عُجالةُ المنتظرِ، فى شرحِ حالِ الخَضِرِ» للأحاديثِ الواردةِ فى ذلك مِن المرفوعاتِ، فبيَّنَ أنَّها موضوعاتٌ، ومِن الآثارِ عن الصَّحابةِ والتَّابعين ومَن بعدَهم، فبيَّنَ ضعْفَ أسانيدِها ببيانِ أحوالِها، وجَهالَةِ رجالِها، وقد أجادَ فى ذلك، وأحسنَ الانتقادَ.

وأمّا الذين ذهبوا إلى أنّه قد مات، ومنهم البخارىُّ، وإبراهيمُ الحربِىُّ، وأبو الحسينِ ابنُ المنادى، والشّيخُ أبو الفرجِ ابنُ الجوزىِّ، وقد انتصر لذلك وصَنّف فيه كتابًا سمّاه: «عُجالةُ المُنتظِرِ فى شرحِ حالِ الخَضِرِ» فيُحتجُّ لهم بأشياءَ كثيرةٍ؛ منها، قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]. فالخَضِرُ، إنْ كانَ بشرًا، فقد دخل فى هذا العمومِ لا مَحالةَ، ولا يجوزُ تخصيصُه منه إلا بدليلٍ صحيحٍ، والأصلُ عدمُه حتى يَثْبُتَ، ولم يُذْكَرْ ما فيه دليلٌ على التّخصيصِ عن معصومٍ يجبُ قبولُه. ومنها، أنّ اللّهَ تعالى قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]. قال ابنُ عباسٍ[2]: ما بعثَ اللّهُ نبيًّا إلا أَخذ عليه الميثاقَ: لَئِنْ بُعِثَ

= سمعان رضى اللّه عنه. وفى هذه المواضع ليس فيها: «فيقتله». ولكن فيها: «فيضربه بالسيف فيقطعه».

(١) انظر الموضوعات لابن الجوزى ١/١٩٣ - ١٩٩. وترجمة الخضر فى الإصابة لابن حجر ٢/ ٢٨٦ - ٣٣٥.

(٢) التفسير ٢/٥٦.

محمدٌ، وهو حَيٌّ؛ لَيُؤْمِنَنَّ به ولَيَنْصُرَنَّه. (1) وأَمَرَه أنْ يأخذَ على أُمَّتِه الميثاقَ: لَئِنْ بُعِث محمدٌ وهم أحياءٌ؛ لَيُؤْمِنُنَّ به ولَيَنْصُرُنَّه (1). ذكره البخاريُّ عنه. فالخَضِرُ إنْ كان نبيًّا أو وليًّا، فقد دخل فى هذا الميثاقِ، فلو كان حيًّا فى زمنِ رسولِ اللَّهِ ﷺ؛ لكان أشرفَ أحوالِه أنْ يكونَ بينَ يَدَيْه، يُؤْمِنُ بما أنْزَل اللَّهُ عليه، ويَنصرُه إن وَصَل أحدٌ مِن الأعداءِ إليه؛ لأنَّه إنْ كان [١/٢١٠و] وليًّا؛ فالصِّدِّيقُ أفضلُ منه، وإنْ كان نبيًّا؛ فموسى أفضلُ منه.

وقد رَوَى الإمامُ أحمدُ فى «مسندِه»[2]: حدَّثنا سُرَيْجُ[3] بنُ النُّعمانِ، حدَّثنا هُشيمٌ، أنبأنا مُجَالدٌ[4]، عن الشَّعْبِيِّ، عن جابرِ بنِ عبدِ اللَّهِ، أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ، قال: «والذى نَفْسِى بيدِه، لو أنَّ موسى كان حَيًّا ما وَسِعَه إلَّا أنْ يَتَّبِعَنى». وهذا الذى يُقْطَعُ به، ويُعْلَمُ مِن الدِّينِ عِلْمَ الضَّرورةِ، وقد دَلَّتْ عليه هذه الآيةُ الكريمةُ؛ أنَّ الأنبياءَ كلَّهم لو فُرِضَ أنَّهم أحياءٌ[5] فى زمنِ رسولِ اللَّهِ ﷺ، لكانوا كلُّهم أتباعًا له، وتحتَ أوامرِه، وفى عمومِ شَرعِه، كما أنَّه صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه لمَّا اجتَمعَ معهم ليلةَ الإسراءِ، رُفِع فوقَهم كلِّهم، ولمَّا هَبَطُوا معه إلى بيتِ المقدِسِ، وحانتِ الصَّلاةُ؛ أمَرَه جبريلُ عن أمرِ اللَّهِ أنْ يَؤُمَّهم، فصلَّى بهم فى مَحَلِّ وِلايتِهم، ودارِ إقامتِهم، فدَلَّ على أنَّه الإمامُ الأعظمُ، والرَّسولُ الخاتَمُ، المُبجَّلُ، المُقدَّمُ، صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه وعليهم أجمعين. فإذا عُلِم هذا - وهو معلومٌ عندَ كلِّ مؤمنٍ - عُلِم أنَّه لو كان الخَضِرُ

(١ - ١) سقط من: الأصل، ح.
(٢) تقدم فى ١/٤٥٧.
(٣) فى م، ص: «شريح».
(٤) فى الأصل: «مجاهد».
(٥) بعد هذا فى ح، م: «مكلفون».

حَيًّا ، لكان مِن جُمْلَةِ أُمةِ محمدٍ ﷺ ، وممَّن يَقْتَدِى بشرعِه ، لا يَسَعُه إلَّا ذلك . هذا عيسى ابنُ مريمَ ، عليه السّلامُ ، إذا نزلَ فى آخرِ الزّمانِ ، يَحْكُمُ بهذه الشّريعةِ المُطهَّرةِ ، لا يَخرُجُ منها ، ولا يَحِيدُ عنها ، وهو أحدُ أُولى العَزْمِ الخمسةِ المُرسَلين ، وخاتمُ أنبياءِ بنى إسرائيلَ . ومعلومٌ أنّ الخَضِرَ ، لم يُنْقَلْ بسندٍ صحيحٍ ولا حسنٍ تَسْكُنُ النَّفْسُ إليه ، أنّه اجتمعَ برسولِ اللَّهِ ﷺ فى يومٍ واحدٍ ، ولم يَشهدْ معه قِتالًا فى مَشْهَدٍ مِن المَشاهِدِ ، وهذا يومُ بدرٍ ، يقولُ الصّادقُ المصدوقُ ، فيما دعا به لربِّه عزّ وجلّ ، واسْتَنْصَرَه ، واسْتَفْتَحه على مَن كفَره : « اللهمَّ إنْ تَهلِكْ هذه العِصابةَ لا تُعْبَدْ بعدَها فى الأرضِ »[1] ، وتلك العِصابةُ كان تحتَها سادةُ المسلمينَ يَوْمَئِذٍ ، وسادةُ الملائكةِ ، حتى جبريلُ ، عليه السّلامُ ، كما قال حسّانُ بنُ ثابتٍ[2] فى قصيدةٍ له ، فى بيتٍ يقالُ : إنّه أَفْخَرُ بيتٍ قالتْه العربُ :

وبِبِئْرِ[3] بدْرٍ إذْ يرُدُّ وُجوهَهم   جِبْريلُ تحتَ لِوائِنا ومُحمدُ

فلو كان الخَضِرُ حيًّا لكان وقوفُه تحتَ هذه الرّايةِ أشرفَ مَقاماتِه ، وأعظمَ غَزَوَاتِه .

قال القاضى أبو يَعْلَى محمدُ بنُ الحُسينِ بنِ الفَرّاءِ الحنبليُّ : سُئِل بعضُ

---

(١) مسلم (١٧٦٣) . والترمذى (٣٠٨١) . ومسند أحمد ٢/ ٣٠، ٣٢.

(٢) أورده ابن هشام فى السيرة ١٥٨/١ فى : ذكر ما قيل من الشعر يوم أحد ، ونسبه إلى كعب بن مالك ، وليس كما قال ابن كثير أنه من شعر حسان . وكذا أورده ابن كثير نفسه فى مصنفه – البداية المطبوع – ٥٨/٤ فى : فصل فيما تقاول به المؤمنون والكفار فى وقعة أحد من الأشعار ، وقال : قال ابن هشام : وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها – أى القصيدة – لحسان . وقال ابن إسحاق : قال كعب بن مالك . أى ينسبها له .

(٣) فى ح : « وسين » . وفى م ، ص : « وثبير » .

أصحابِنا عن الخَضِرِ: هل مات؟ فقال: نعم. قال: وبلغنى مثلُ هذا عن أبى طاهرِ ابنِ الغُبارِىِّ قال: وكان يحتجُّ بأنَّه لو كان حيًّا، لجاءَ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ. نَقَلَه ابنُ الجَوْزِىِّ [١/٢١٠ظ] فى «العُجالةِ»[١]. فإنْ قِيل: فهلَّا يُقالُ: إنَّه كان حاضِرًا فى هذه المواطنِ كلِّها، ولكنْ لم يكنْ أحدٌ[٢] يراه. فالجوابُ أنَّ الأصلَ عدمُ هذا الاحتمالِ البعيدِ، الذى يلزَمُ منه تخصيصُ العموماتِ بمجرَّدِ التَّوهُّماتِ، ثم ما الحَامِلُ[٣] له على هذا الاختفاءِ؟ وظهورُه أعظمُ لأَجْرِه، وأعلَى فى مَرْتَبَتِه، وأظهرُ لمُعْجِزَتِه. ثم لو كان باقيًا بعدَه، لكان تبليغُه عن رسولِ اللَّهِ ﷺ الأحاديثَ النبويةَ والآياتِ القرآنيةَ، وإنكارُه لِما وقَعَ مِن الأحاديثِ المكذوبةِ، والرِّواياتِ المقلوبةِ، والآراءِ البِدْعِيَّةِ، والأهواءِ العَصَبِيَّةِ، وقتالُه مع المسلمين فى غَزَواتِهم، وشُهودُه جُمَعَهم وجماعاتِهم، ونَفْعُه إيَّاهم، ودفعُه الضَّررَ عنهم، ممَّن سواهم، وتسديدُه العُلماءَ والحُكَّامَ، وتقريرُه الأدلَّةَ والأحكامَ، أفضلَ مم[٤] يُقالُ عنه مِن كُنونِه فى الأمصارِ، وجَوْبِه الفَيافِىَ والأقطارَ، واجتماعِه بعُبَّادٍ لا يُعْرَفُ أحوالُ كثيرٍ منهم، وجَعْلِه لهم كالنَّقيبِ المُتَرْجِمِ عنهم. وهذا الذى ذَكَرْناه لا يَتوقَّفُ أحدٌ فيه بعد التَّفَهُّمِ، واللَّهُ يَهْدِى مَن يَشاءُ إلى صِراطٍ مستقيمٍ. ومِن ذلك ما ثَبَتَ فى «الصَّحيحَيْنِ» وغيرِهم[٥]، عن عبدِ اللَّهِ بنِ عُمرَ أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ صلَّى ليلةً العِشاءَ، ثم

---

(١) وذكره نقلًا عن ابن الجوزى، الحافظ ابن حجر فى الإصابة ٢/ ٢٩٩، وعنده: «أبو طاهر ابن العبادى»، والصحيح ما هو مثبت هنا، وانظر طبقات الحنابلة ٢/ ١٨٨، والمنهج الأحمد ٢/ ٩٩.

(٢) سقط من: الأصل.

(٣) فى م: «الحاصل».

(٤) فى ح، م: «ما».

(٥) البخارى (٦٠١). مسلم (٢٥٣٧). الترمذى (٢٢٥١). أبو داود (٤٣٤٨). النسائى فى الكبرى (٥٨٧١). كلهم من حديث عبدالله بن عمر.

قال: «أرأيتُم ليلتَكم هذه، فإنّه إلى مائةِ سنةٍ، لا يَبْقَى مِمَّن هو على وَجْهِ الأرضِ اليومَ أحدٌ». وفي روايةٍ[1]: «عينٌ تَطْرِفُ». قال ابنُ عمرَ: فَوَهِلَ[2] النّاسُ في مقالةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ هذه، وإنّما أرادَ انْخِرَامَ قَرْنِهِ.

قال الإمامُ أحمدُ[3]: حدَّثنا عبدُ الرزّاقِ، أنبأنا مَعْمَرٌ، عن الزُّهْرِيِّ، قال: أخبرَني سالمُ بنُ عبدِ اللَّهِ، وأبو بكرِ بنُ سليمانَ بنِ أبي حَثْمَةَ[4]، أَنَّ عبدَ اللَّهِ بنَ عمرَ قال: صلَّى رسولُ اللَّهِ ﷺ ذاتَ ليلةٍ صلاةَ العِشاءَ في آخِرِ حياتِه، فلمّا سَلَّمَ قام، فقال: «أرأيتُم ليلتَكم هذه، فإنَّ على رأسِ مائةِ سنةٍ لا يَبْقَى مِمَّنْ على ظَهْرِ الأرضِ أحدٌ». وأخرجَه البخاريُّ، ومسلمٌ، مِن حديثِ الزُّهريِّ[5].

وقال الإمامُ أحمدُ[6]: حدَّثنا محمدُ بنُ أبي عَدِيٍّ، عن سليمانَ التَّيْمِيِّ، عن أبي نَضْرَةَ، عن جابرِ بنِ عبدِ اللَّهِ، قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ، قبلَ مَوْتِه بقليلٍ أو بشَهْرٍ: «ما مِن نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ - أو: ما منكم مِن نفسٍ اليومَ منفوسةٍ - يأتي عليها مائةُ سنةٍ وهي يَوْمَئِذٍ حيَّةٌ».

وقال أحمدُ[7]: حدَّثنا موسى بنُ داودَ، حدَّثنا ابنُ لَهِيعَةَ، عن أبي الزُّبيرِ، عن جابرٍ، عن النبيِّ ﷺ، أنّه قال، قبلَ أنْ يموتَ بشَهْرٍ: «يَسألُوني عن السّاعةِ، وإنّما عِلْمُها عندَ اللَّهِ، أُقْسِمُ باللَّهِ، ما على الأرضِ نفسٌ منْفُوسَةٌ اليومَ،

---

(١) مشكل الآثار ١/١٦١ من حديث أبي مسعود.

(٢) قال ابن حجر الفتح ٢/٧٥: أي غلطوا أو توهموا، أو فزعوا أو نسوا، والأول أقرب هنا، وقيل: وهَل - بالفتح - بمعنى وهِم بالكسر، ووهل - بالكسر - مِثْله. وقيل: بالفتح؛ غَلِطَ. وبالكسر؛ فَزِع.

(٣) أحمد في المسند ٢/٨٨. (إسناده صحيح).

(٤) البخاري (١١٦، ٥٦٤)، ومسلم (٢٥٣٧).

(٥) في الأصل، م: «خيثمة». وفي ص: «حتمة». وانظر تقريب التهذيب ٢/٣٩٧.

(٦) مسند أحمد ٣/٣٠٥، ٣٠٦.

(٧) المسند ٣/٣٤٥.

يَأْتِي عليها مائةُ سنةٍ » . وهكذا رواه مسلمٌ ، مِن طريقِ أبى نَضْرَةَ ، [١/٢١١و] وأبى الزُّبيرِ ، كلٌّ منهما عن جابرِ بنِ عبدِ اللَّهِ به نحوَه[١] .

وقال التِّرْمِذِيُّ[٢] : حدَّثنا هنادٌ[٣] ، حدثنا أبو معاويةَ ، عن الأعمشِ ، عن أبى سفيانَ ، عن جابرٍ قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « ما على الأرضِ نفسٌ مَنْفوسةٌ[٤] ، يأتى عليها مائةُ سنةٍ » . وهذا أيضًا على شرطِ مسلمٍ . قال ابنُ الجَوزىِّ[٥] : فهذه الأحاديثُ الصِّحاحُ تَقْطَعُ دَابِرَ دَعْوَى حياةِ الخَضِرِ . قالوا : فالخَضِرُ إنْ لم يكنْ قد أَدْرَكَ زمانَ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، كما هو المَظْنُونُ الذى يَتَرَقَّى فى القوةِ إلى القَطْعِ ، فلا إشْكالَ . وإنْ كان قد أَدْرَكَ زمانَه ، فهذا الحديثُ يَقْتَضِى أنَّه لم يَعِشْ بعدَه[٦] مائةَ سنةٍ ، فيكونُ الآنَ مفقودًا لا موجودًا ؛ لأنَّه داخِلٌ فى هذا العمومِ ، والأصلُ عدمُ المُخَصِّصِ له ، حتى يَثْبُتَ بدليلٍ صحيحٍ يَجِبُ قبولُه . واللَّهُ أعلمُ .

وقد حَكَى الحافِظُ أبو القاسمِ السُّهَيْلِىُّ فى كتابِه : « التَّعْرِيفُ والإِعْلَامُ »[٧] عن البخارىِّ وشيخِه أبى بكرٍ ابنِ العربىِّ ، أنَّه أَدْرَكَ حياةَ النَّبىِّ ﷺ ، [٨]ولكنْ ماتَ[٨] بعدَه ؛ لهذا الحديثِ . وفى كَوْنِ البخارىِّ ، رَحِمَه اللَّهُ ، يقولُ بهذا ، وأنَّه بَقِىَ إلى زمانِ النَّبىِّ ﷺ ، نَظَرٌ . ورجَّحَ السُّهَيْلِىُّ بقاءَهَ ، وحَكاه عنِ

---

(١) مسلم (٢٥٣٨) .

(٢) الترمذى (٢٢٥٠) . (صحيح الترمذى ١٨٣٤) .

(٣) فى ح ، م : « عباد » .

(٤) بعدها فى الترمذى : « يعنى اليوم » .

(٥) لعل هذا القول فى كتاب ابن الجوزى « عجالة المنتظر فى شرح حال الخضر » .

(٦) فى م : « بعد » .

(٧) التعريف والإعلام ١/ ١٩٠.

(٨ - ٨) سقط من : ص .

الأَكْثَرِين[1] ؛ قال : وأمّا اجتماعُه مع النّبيّ ﷺ ، وتعزِيتُه لأهلِ البيتِ ، فَمَرْوِيٌّ مِن طُرُقٍ صحاحٍ[2] . ثم ذَكَرَ ما تقدَّمَ مِمّا ضعَّفْناه[3] ، ولم يُورِدْ أسانيدَها . واللَّهُ أعلمُ .

---

(١) التعريف والإعلام ١/ ١٩٠.

(٢) التعريف والإعلام ١/ ١٩٠.

(٣) التعريف والإعلام ١/١٩٥ - ١٩٨.

أمّا إلْيَاسُ ، عليه السّلامُ

فقال اللَّهُ تعالى ، بعدَ قصةِ موسى وهارونَ مِن سورةِ « الصّافّاتِ »[1] :
﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات : ١٢٣- ١٣٢] . قال علماءُ النَّسَبِ : هو إلياسُ بن[2] تسبى[3] . ويُقال : ابنُ ياسينَ بنِ فنحاصَ بنِ العيزارِ[4] بنِ هارونَ . وقِيل : إلياسُ بنُ العازرِ بنِ العيزارِ[4] بنِ هارونَ بنِ عِمْرانَ . قالوا : وكان إرسالُه إلى أهلِ بَعْلَبَكَّ ، غربيَّ دِمَشْقَ[5] ، فدعاهُم إلى عبادةِ اللَّهِ ، عزَّ وجلَّ ، وأنْ يَتْرُكوا عبادةَ صَنَمٍ لهم ، كانوا يُسمُّونه بَعْلًا . وقِيل : كانت امرأةً اسمُها بَعْلٌ[6] . والأولُ أصحُّ . ولهذا قال لهم : ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ فكذَّبُوه وخالفوه ، وأرادوا قتْلَه ، فيُقالُ : إنّه هَرَبَ منهم ، واختَفَى عنهم .

---

(١) التفسير ٧/ ٣١، ٣٢.
(٢) سقط من : م .
(٣) في م : « التشبي » . وفي ص : « تشبي » .
(٤) في الأصل : « الغيزار » .
(٥) تاريخ دمشق ٩/ ٢٠٥.
(٦) انظر القولين وقائليهما في تفسير الطبري ٢٣/ ٩٢، ٩٣.

قال أبو يعقوبَ الأذْرَعِيُّ[(١)] ، عن يزيدَ بنِ عبدِ الصَّمدِ ، عن هشام بن عمار [١٠/٢١١ظ] قال : وسَمِعْتُ مَن يَذْكُرُ عن كعبِ الأحبارِ ، أنّه قال : إنّ إلياسَ اخْتبأ مِن مَلِكِ قومِه ، فى الغارِ الذى تحتَ الدَّمِ[(٢)] ، عشرَ سِنِينَ ، حتى أهلكَ اللَّهُ المَلِكَ ، ووَلِىَ غيرُه ، فأتاه إلياسُ ، فعَرَض عليه الإسلامَ ، فأسْلَمَ ، وأسلَم مِن قومِه خَلْقٌ عظيمٌ غيرَ عشَرةِ آلافٍ منهم ، فأمَرَ بهم فقُتِلُوا عن آخرِهم .

وقال ابنُ أبى الدُّنيا[(٣)] : حدَّثنى أبو محمدٍ القاسمُ بنُ هاشمٍ ، حدَّثنا عمرُ ابنُ سعيدٍ الدِّمَشْقِىُّ ، حدثنا سعيدُ بنُ عبدِ العزيزِ ، عن بعضِ مَشْيَخَةِ دِمَشْقَ ، قال : أقامَ إلياسُ ، عليه السّلامُ ، هاربًا مِن قومِه فى كهفِ جبلٍ عشرين ليلةً ، أو قال : أربعين ليلةً ، تَأْتيه الغِرْبانُ برِزْقِه .

وقال محمدُ بنُ سعدٍ ، كاتبُ الواقِدِىِّ[(٤)] : أنبأنا هشامُ بنُ محمدِ بنِ السّائِبِ الكَلْبِىُّ ، عن أبيه ، قال : أَوَّلُ نبىٍّ بُعِث إدريسُ ، ثم نوحٌ ، ثم إبراهيمُ ، ثم إسماعيلُ وإسحاقُ ، ثم يعقوبُ ، ثم يوسفُ ، ثم لوطٌ ، ثم هودٌ ، ثم صالحٌ ، ثم شعيبٌ ، ثم موسى وهارونُ ابنا عِمْرانَ ، ثم إلياسُ بنُ[(٥)] تسبى بنِ العازرِ بنِ هارونَ بنِ عِمْرانَ بنِ قاهثَ بنِ لاوى بنِ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ ، عليهم السّلامُ. هكذا قال ، وفى هذا التّرتيبِ نَظَرٌ. وقال مكحولٌ عن كعبٍ[(٦)] :

---

(١) تاريخ دمشق ٩/ ٢٠٥.

(٢) فى ح : «المدم».

(٣) وأخرجه من طريق ابن أبى الدنيا ، ابن عساكر فى تاريخ دمشق ٩/ ٢٠٦.

(٤) طبقات ابن سعد ١/ ٥٤، ٥٥ مطولًا . ومن طريق ابن سعد ، أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق ٩/ ٢٠٦ بنحو ما أورده ابن كثير.

(٥) سقط من : م. وفى ح : «ثم».

(٦) أخرجه بإسناده ، ابن عساكر فى تاريخ دمشق ٦/ ٢٠٧. وعنده : «اليوم» ، بدل «أحياء». و : «فى الدنيا» ، بدل «فى الأرض».

أربعةُ أنبياءَ أحياءٌ؛ اثنان فى الأرضِ: إلياسُ والخَضِرُ، واثنان فى السَّماءِ: إدريسُ وعيسى. وقد قدَّمْنا قولَ مَن ذَكَرَ أنَّ إلياسَ والخَضِرَ يجتمِعانِ فى كلِّ عامٍ فى شهرِ رمضانَ ببيتِ المَقدِسِ، وأنَّهما يحُجّان كلَّ سنةٍ، ويشربان مِن زمزمَ شَرْبَةً تَكفيهما إلى مِثلِها مِن العامِ المُقْبِلِ. وأوْرَدْنا الحديثَ الذى فيه أنَّهما يجتمعان بعَرَفاتٍ كلَّ سَنَةٍ، وبيَّنَّا أنَّه لم يَصِحَّ شىءٌ مِن ذلك، وأنَّ الذى يقومُ عليه الدَّليلُ: أنَّ الخَضِرَ مات، وكذلك إلياسُ، عليهما السَّلامُ. وما ذَكَرَه وهبُ بنُ مُنبِّهٍ وغيرُه[1]؛ أنَّه لمَّا دعا ربَّه، عزَّ وجلَّ، أنْ يَقبِضَه إليه لمّا كذَّبوه، وآذَوْه فجاءَتْه دابّةٌ، لونُها لونُ النّارِ، فرَكِبَها، وَجَعَلَ اللَّهُ له رِيشًا، وألْبَسَه النُّورَ، وقَطَع عنه لَذَّةَ المَطْعَمِ والمشربِ، وصار مَلَكِيًّا بَشَرِيًّا سماويًّا أرضيًّا، وأوْصَى إلى اليَسَعَ بنِ أخْطُوبَ، ففى هذا نَظَرٌ، وهو مِن الإِسْرائيليّاتِ، التى لا تُصدَّقُ ولا تُكذَّبُ، بل الظّاهِرُ أنَّ صحتَها بعيدةٌ. واللَّهُ أعلمُ.

فأمّا الحديثُ الذى رَواه الحافظُ أبو بكرٍ البيهقىُّ[2]: أخْبَرَنا أبو عبدِ اللَّهِ الحافظُ، حدَّثنى [3]أبو العباسِ أحمدُ بنُ سعيدٍ المَعْدانىُّ[4] بِبُخارَى، حدَّثنا عبدُ اللَّهِ بنُ محمودٍ، حدَّثنا عَبْدانُ بنُ سِنانٍ، حدَّثنى[3] أحمدُ بنُ عبدِ اللَّهِ

---

(١) تاريخ دمشق ٩/ ٢١٠. عن وهب. وتاريخ الطبرى ١/٤٦٢ - ٤٦٤ مطولًا، وتفسيره ٢٣/ ٩٣، ٩٤، عن ابن إسحاق مطولًا.

(٢) فى دلائل النبوة ٥/ ٤٢١. وأخرجه الحاكم فى المستدرك ٢/٦١٧ وقال: صحيح الإسناد. وقال الذهبى: بل موضوع قبّح اللَّه من وضعه. كما قال ابن كثير نفسه عقب الحديث. وقال ابن حجر فى لسان الميزان ٦/ ٢٩٥: حديث باطل.

وأخرجه من طريق البيهقى، ابن عساكر فى تاريخ دمشق ٩/٢١٢ وذكر عقبه كلام البيهقى الذى ذكره ابن كثير.

(٣ - ٣) سقط من: ص.

(٤) فى الأصل: «العدانى». وفى دلائل النبوة: «البغدادى». وانظر الأنساب ٥/ ٣٣٩.

البَرْقِيُّ[1]، حدَّثَنا يزيدُ بنُ يزيدَ البَلَوِيُّ[2]، حدَّثنا أبو إسحاقَ الفَزَارِيُّ، عن الأَوْزاعِيِّ، عن مَكْحُولٍ، عن أنسِ بنِ مالكٍ، قال [١/٢١٢و]: كُنّا مع رسولِ اللَّهِ ﷺ في سَفَرٍ، فنَزَلْنا مَنْزِلًا، فإذا رجُلٌ في الوادِي، يقولُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنى مِن أُمَّةِ محمدٍ ﷺ المرحومةِ، المغفورةِ، المُثابِ لها. قال: فأشرفْتُ على الوادى، فإذا رجلٌ طولُه أكثرُ مِن ثلثمائةِ ذراعٍ، فقال لى: مَنْ أنت؟ قلتُ: أنسُ بنُ مالكٍ، خادِمُ رسولِ اللَّهِ ﷺ. قال: فأين هو؟ قلتُ: هو ذا يسمعُ كلامَكَ. قال: فَأْتِه فأَقْرِئْه السّلامَ، وقُلْ له: أخوك إلياسُ يُقْرِئُك السَّلامَ. قال: فأتيتُ النَّبِيَّ ﷺ فأخبرتُه، فجاء حتى لَقِيَه، فعانقَه وسلَّم، ثم قَعَدَا يتحدَّثان، فقال له: يا رسولَ اللَّهِ، إنِّى ما آكُلُ فى سَنَةٍ إلا يومًا، وهذا يومُ فِطْرِى، فآكلُ أنا وأنت. قال: فنزلتْ عليهما مائدةٌ مِن السَّماءِ عليها خُبْزٌ، وحُوتٌ، وكَرَفْسٌ، فأكَلا وأطْعَمانى، وصَلَّيْنا العصرَ، ثم ودَّعه، ورأيتُه مرَّ فى السَّحابِ نحوَ السَّماءِ. فقد كَفانا البيهقيُّ أمرَه، وقال: هذا حديثٌ ضعيفٌ بمرَّةٍ. والعَجَبُ أنّ الحاكِمَ أبا عبدِ اللَّهِ النَّيْسَابُورِيَّ أخرجَه فى «مُستدرَكِه على الصَّحيحَيْن»، وهذا مِمّا يُسْتدرَكُ به على «المستدرَكِ»، فإنّه حديثٌ موضوعٌ، مُخالِفٌ للأحاديثِ الصِّحاحِ مِن وجوهٍ. ومعناه لا يَصِحُّ أيضًا، فقد تقدّم فى «الصَّحيحين»[3] أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «إنّ اللَّهَ خَلَقَ آدمَ طُولُه ستُّون ذِراعًا فى السَّماءِ»، إلى أنْ قال: «ثم لم يَزَلِ الخَلْقُ ينقُصُ، حتى الآنَ». وفيه أنّه لم يأْتِ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ حتى كان هو الذى ذهبَ إليه. وهذا لا يصِحّ؛ لأنّه

---

(١) فى دلائل النبوة: «الرقى». وانظر ميزان الاعتدال ٤/ ٤٤١. ولسان الميزان ٦/ ٢٩٥.
(٢) فى دلائل النبوة: «العلوى». وانظر ميزان الاعتدال ٤/ ٤٤١. ولسان الميزان ٦/ ٢٩٥.
(٣) تقدم تخريجه فى ١/ ٢٠٦.

كان أحقَّ بالسَّعى إلى بين يَدَىْ خاتَمِ الأنبياءِ . وفيه أنّه يأكلُ فى السَّنةِ مرّةً ، وقد تقدَّمَ عن وَهْبٍ أنّه سَلَبَه اللَّهُ لذّةَ المطعَمِ والمشرَبِ ، وفيما تقدّم عن بعضِهم أنّه يشربُ مِن زَمْزَمَ كُلَّ سنةٍ شَرْبةً تَكْفِيه إلى مثلِها مِن الحَوْلِ الآخَرِ . وهذه أشياءُ مُتعارِضةٌ ، وكلُّها باطلةٌ ، لا يصحُّ شىءٌ منها .

وقد ساق ابنُ عساكرَ هذا الحديثَ مِن طريقٍ أُخرى[1] ، واعترفَ بضَعْفِها ، وهذا عَجَبٌ منه ، كيف تكلَّمَ عليه ، فإنّه أورَدَه مِن طريقِ [2]خَيْرِ بنِ عرفةَ[2] ، عن هانئِ بنِ الحسنِ[3] ، عن بَقِيَّةَ ، عن الأوْزاعِىِّ ، عن مكحولٍ ، عن واثِلَةَ[4] بنِ الأسْقَعِ ، فذَكَر نحوَ هذا مطوَّلًا ، وفيه أنَّ ذلك كان فى غزوةِ تَبوكَ ، وأنّه بعثَ إليه رسولُ اللَّهِ ﷺ أنسَ بنَ مالكٍ ، وحُذَيفَةَ بنَ اليمانِ ، قالا : فإذا هو أعلى جِسمًا مِنَّا[5] بذراعين أو ثلاثةٍ ، واعتذرَ بعدمِ قدومِه[6] لِئَلَّا تَنفِرَ الإبلُ . وفيه أنّه لمَّا اجْتَمَع به رسولُ اللَّهِ ﷺ [٢١٢/١ظ] أكَلا مِن طعامِ الجنَّةِ ، وقال : إنّ لى فى كلِّ أربعينَ يومًا أَكْلَةً ، وفى المائدةِ خبزٌ ، ورُمّانٌ ، وعنبٌ ، ومَوزٌ ، ورُطَبٌ ، وبَقْلٌ ما عدا الكُرّاثَ . وفيه أنّ رسولَ اللَّهِ ﷺ سألَه عن الخَضِرِ ، فقال : عهدِى به عامَ أوّلَ ، وقال لى : إنّك ستَلْقاه قبلى ، فأَقْرِئْه منى السّلامَ . وهذا يدلُّ على أنّ الخَضِرَ وإلياسَ ، بتقديرِ وجودِهما وصحةِ هذا الحديثِ ، لم يَجتَمِعا

---

(١) تاريخ دمشق ٢١٢/٩ - ٢١٤ مطولًا . وقال ابن عساكر عقبه : هذا حديث منكر وليس بالقوى .

(٢ - ٢) فى تاريخ دمشق : « خبر بن عوفة » . والصحيح ما أثبتناه . وانظر سير أعلام النبلاء ٤١٣/١٣ ، ٤١٤ . والإصابة لابن حجر ٣٠٧/٢ حيث ذكر الخبر عن ابن شاهين ، وحقَّق اسم « خير » ص ٣٠٩ .

(٣) فى الأصل : « الحسين » . والمثبت موافق لما عند ابن عساكر . وفى الإصابة : « هانئ بن المتوكل » .

(٤) بعده فى م : « عن » .

(٥) سقط من : م .

(٦) فى ح ، م : « قدرته » .

به إلى سنةِ تِسعٍ مِن الهِجْرةِ ، وهذا لا يُسَوَّغُ شرعًا ، وهذا موضوعٌ أيضًا . وقد أورد ابنُ عساكرَ طُرُقًا فى مَن اجْتَمَع بإلياسَ مِن العُبَّادِ[1] ، وكلُّها لا يُفْرَحُ بها ؛ إمَّا لضَعْفِ إسنادِها ، أو لجَهالةِ المُسنَدِ إليه فيها . ومِن أحسنِها ما قال أبو بكرِ ابنُ أبى الدُّنيا[2] : حدَّثنى بشرُ بنُ مُعاذٍ ، حدَّثنا حمَّادُ[3] بنُ واقِدٍ ، عن ثابتٍ ، قال : كنَّا مع مُصْعَبِ بنِ الزُّبَيْرِ ، بسَوادِ الكوفةِ ، فدخلتُ حائطًا أصلِّى فيه ركعتين ، فافتتحتُ ﴿ حمٓ ۞ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۞ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾ [غافر: ١- ٣] . فإذا رجُلٌ مِن خَلْفِى على بَغْلةٍ شَهْباءَ ، عليه مُقَطَّعاتٌ يَمَنِيَّةٌ ، فقال لى : إذا قلتَ : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ ﴾ . فقُل : يا غافرَ الذَّنبِ ، اغفِرْ لى ذنبى . وإذا قلتَ : ﴿ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ ﴾ . فقُل : يا قابِلَ التَّوْبِ ، تقبَّلْ تَوْبَتى . وإذا قلتَ : ﴿ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ﴾ . فقُل : يا شديدَ العِقاب ، لا تُعاقِبْنى . وإذا قلتَ : ﴿ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾. فقُل : يا ذا الطَّولِ ، تَطَوَّلْ علىَّ برحْمةٍ . فالتفَتُّ فإذا لا أحدَ ، وخَرَجْتُ فسألْتُ : مرَّ بكم رجُلٌ على بَغْلةٍ شهباءَ ، عليه مُقَطَّعاتٌ[4] ، يَمَنِيَّةٌ ؟ فقالوا : ما مرَّ بنا أحدٌ . فكانوا لا يَرَوْنَ إلَّا أنَّه إلياسُ . وقولُه تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ . أى ؛ للعذابِ ؛ إمّا فى الدّنيا والآخِرةِ ، وإمّا فى الآخِرةِ ، والأولُ أظهرُ ، على ما ذكره المفسّرون والمؤرِّخون . وقولُه : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ . أى ؛ إلا مَن آمَن منهم ، وقولُه : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴾ . أى ؛ أبقينا بعدَه ذِكْرًا حسنًا له فى

---

(١) انظرها فى تاريخ دمشق ٩/ ٢١٤ - ٢١٧.

(٢) أخرجه ابن عساكر من طريقه ، فى تاريخ دمشق ٩/ ٢١٦، ٢١٧.

(٣) فى تاريخ دمشق : «أحمد» . وما أثبتناه هو الصحيح . وانظر تهذيب الكمال ٧/ ٢٨٩، ٢٩٠.

(٤) المقطعات : بُرُودٌ عليها وَشْيٌ مُقَطَّع. الوسيط (ق ط ع).

العالَمين، فلا يُذْكَرُ إلا بخيرٍ، ولهذا قال[1]: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾. أى؛ سلامٌ على إلياسَ. والعربُ تُلْحِقُ النُّونَ فى أسماءٍ كثيرةٍ، وتُبدِلُها مِن غيرِها، كما قالوا: إسماعيلُ وإسماعينُ، وإسرائيلُ وإسرائينُ، وإلياسُ وإلياسينُ. ومَن قرأ (سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ) أى؛ على آلِ محمدٍ، وقرأ ابنُ مسعودٍ وغيرُه: (سَلَامٌ عَلَى إِدْرَاسِينَ)[2]. ونُقِل عنه مِن طريقِ إسحاقَ، عن عَبِيدَةَ بنِ رَبيعةَ، عن ابنِ مسعودٍ[3]، أنّه قال: إلياسُ هو إدريسُ. وإليه ذهب الضَّحّاكُ بنُ مُزاحِمٍ، وحكاه قَتادةُ، ومحمدُ بنُ إسحاقَ، والصَّحيحُ [١/٢١٣و] أنّه غيرُه كما تقدَّم، واللَّهُ تعالى أعلمُ بالصوابِ.

---

(١) انظر التفسير ٧/ ٣٢.

(٢) انظر التفسير ٧/ ٣٢. وتفسير الطبرى ٢٣/ ٩٦. والقرطبى ١٥/ ١١٨، ١١٩.

(٣) أورده المصنف فى التفسير ٣١/٧ وعزاه لابن أبى حاتم.

بابُ ذِكْرِ جماعَةٍ من أنبياءِ بنى إسرائيلَ بَعْدَ موسى، عليه السَّلامُ

ثم نُتْبِعُهم بذِكْرِ داودَ وسليمانَ، عليهما السَّلامُ. قال ابنُ جريرٍ، فى «تاريخِه»[1]: لا خلافَ بين أهلِ العلْمِ بأخبارِ الماضِينَ، وأُمورِ السَّالِفِين من أُمَّتِنا[2]، وغيرِهم؛ أنَّ القَيِّمَ بأُمورِ بنى إسرائيلَ بعدَ يوشعَ، كالبُ بنُ يُوفَنَّا. يَعْنِى أحَدَ أصحابِ موسى، عليه السلامُ، وهو زَوْجُ أُخْتِه مريمَ، وهو أحدُ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْن مِمَّن يَخافُونَ اللَّهَ، وهما يوشعُ وكالبُ، وهما القائلانِ لبنى إسْرائيلَ حين نَكَلُوا عن الجهادِ[3]: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣]. قال ابنُ جريرٍ[4]: ثُمَّ مِن بَعْدِه كان القائمُ بأمورِ بنى إسْرائيلَ حِزْقيلَ بنَ بوذى[5]. وهو الذى دعا اللَّهَ فأحْيا الَّذينَ خرجُوا مِن ديارِهم وهم أُلُوفٌ حَذَرَ الموتِ.

---

(١) ١/ ٤٥٧.

(٢) فى ص: «أئمتنا».

(٣) التفسير ٣/ ٧١.

(٤) فى تاريخه ١/ ٤٥٧.

(٥) فى الأصل: «لورى». وفى ح: «بورى». وفى ص: «نورى».

قصَّةُ حِزْقِيلَ

قال اللَّهُ تعالى[1] : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٣]. قال محمدُ بنُ إسحاقَ[2] ، عن وَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ : إن كالبَ بنَ يُوفنّا[3] لَمَّا قَبضَه اللَّهُ إليه [4]بعدَ يوشعَ[4] ، خلَف في بني إسْرائيلَ حِزْقيلَ بنَ بوذى ، وهو ابنُ العَجُوزِ ، وهو الذى دعا للقومِ الذين ذكَرهمُ اللَّهُ في كتابِه ، فيما بلَغَنا : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ . [5]قال ابنُ إسحاقَ[5] : فرُّوا مِنَ الوَباءِ ، فنَزَلُوا بصَعيدٍ مِن الأرضِ ، فقال لهمُ اللَّهُ : مُوتُوا . فماتوا جميعًا ، فحَظَرُوا عليهم حَظِيرةً[6] دُونَ السِّباعِ ، فمضتْ عليهم دُهورٌ طويلةٌ ، فمَرَّ بهم حِزقيلُ ، عليه السَّلامُ ، فوقَفَ عليهم مُتفكِّرًا[7] ، فقيل له : أتُحِبُّ أن يبعثَهمُ اللَّهُ وأنت تنظُرُ؟ فقال : نعم . فأُمِر أن يدْعُوَ تلكَ العظامَ أن تكْتَسِيَ لحْمًا ، وأن يتَّصِلَ العَصَبُ بعضُه ببعضٍ . فناداهم عن أمْرِ اللَّهِ له بذلك ، فقامَ القومُ

---

(١) التفسير ١/ ٤٤٠.

(٢) أخرجه الطبرى فى تاريخه ١/ ٤٥٩، ٤٦٠ من قول محمد بن إسحاق . وفى تفسيره ٢/ ٥٨٧، ٥٨٨.

(٣) سقط من : ص.

(٤ - ٤) سقط من : ص.

(٥ - ٥) سقط من : ح.

(٦) فى ح : « خطرة ».

(٧) فى ح : « مفكرًا ».

أجمعونَ ، وكبَّرُوا تكْبيرةَ رجُلٍ واحدٍ[(1)] . وقال أسْباطُ ، عن السُّدِّيِّ ، عن أبى مالكٍ ، وعن أبى صالحٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، وعن مُرَّةَ[(2)] ، عن ابنِ مسعودٍ ، وعن أُناسٍ مِن الصحابةِ[(3)] ، فى قولِه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ﴾ . قالوا : كانتْ[(4)] قريةٌ يُقال لها : « دَاوَرْدَانُ »[(5)] ، قِبَلَ « وَاسِطٍ » ، وقعَ بها الطَّاعونُ ، فهرَب [1/ 213ظ] عامَّةُ أهلِها ، فنزلُوا ناحيةً منها ، فهلَكَ مَن بَقِىَ فى القريةِ ، وسَلِمَ الآخَرون ، فلم يَمُتْ منهم كثيرٌ ، فلمَّا ارْتفَع الطاعونُ ، رجعُوا سالِمِين ، فقال الذين بَقُوا : أصحابُنا هؤلاءِ كانوا أحْزَمَ مِنَّا ، لو صَنَعْنا كما صنعُوا بَقِينَا ، ولئِنْ وقع الطاعونُ ثانيةً لَنَخْرُجَنَّ معهم . فوقَعَ فى[(6)] قابِلٍ ، فهرَبُوا وهم بِضعةٌ وثلاثون ألفًا ، حتى نزلُوا ذلك المكانَ ، وهو وادٍ أَفْيَحُ ، فناداهم مَلَكٌ مِن أسْفلِ الوادى ، وآخَرُ مِن أعْلاه : أن مُوتُوا . فماتُوا ، حتى إذا هَلَكُوا ، وبَقِيَتْ أجسادُهم ، مَرَّ بهم نَبِيٌّ ، يقال له : حِزْقِيلُ[(7)] . فلمَّا رآهم وقَفَ عليهم ، فجعل يتفكَّرُ فيهم ، ويَلْوِى شِدْقَيْه وأصابِعَه ، فأوْحَى اللَّهُ إليه : تُرِيدُ أن أُرِيَكَ كيف أُحْيِيهم ؟ قال : نعم . وإنَّما كان تفكُّرُه أنَّه تعجَّبَ[(8)] مِن قُدرةِ اللَّهِ عليهم ، فقيل له : نَادِ . فنادَى : يا أيَّتُها العظامُ ، إنَّ اللَّهَ يأمرُكِ أن تجْتَمِعِى . فجعلتِ العظامُ

---

(1) أخرجه الطبرى فى تاريخه 1/ 460 مطولًا من طريق محمد بن إسحاق .

(2) فى الأصل : « عروة » .

(3) سقط من : ص .

(4) سقط من : ص .

(5) فى الأصل ، ح ، ص : « دراوردان » .

(6) سقط من : ص .

(7) فى التاريخ : « هزقيل » .

(8) سقط من : ح ، ص .

يطيرُ بعضُها إلى بعضٍ، حتى[1] كانتْ أجسادًا مِن عظامٍ، ثم أوْحَى اللَّهُ إليه؛ أنْ نادِ: يا أيَّتُها العظامُ، إنَّ اللَّهَ يأمُرُكِ أن تكْتَسِى [2]لحمًا. فاكتست[2] لحمًا ودمًا، وثيابَها[3] التى ماتتْ[4] فيها. ثم قيلَ له: نادِ. فنادى: أيتُها الأجسادُ، إنَّ اللَّهَ يأمُرُكِ أنْ تقومى. فقاموا. قال أَسْباطُ: فزعمَ منصورٌ، عن مجاهدٍ، أنهمْ قالوا حينَ أُحْيُوا: سُبْحَانَكَ رَبَّنا، وبحَمْدِكَ، لا إِلَهَ إلا أنت. فَرَجعُوا إلى قومِهم أحياءً، يَعْرِفُونَ أنهم كانوا موتى، سَحْنَةَ الموتِ على وجوهِهم، لا يَلْبَسُون ثوبًا إلَّا عادَ [5]كَفَنًا دَسْمًا[5]، حتى ماتوا لآجالِهمُ التى كُتِبَتْ لهم[6].

وعن ابنِ عباسٍ؛ أنهم كانوا أربعةَ آلافٍ. وعنه: ثمانِيَةَ آلافٍ. وعن أبى صالحٍ: تسعةَ آلافٍ. وعن ابنِ عباسٍ أيضًا: كانوا أربعينَ ألفًا. وعن سعيدِ بنِ عبدِ العزيزِ: كانوا من أهلِ «أَذْرِعَاتٍ». وقال ابنُ جُرَيْجٍ، عن عطاءٍ: هذا مَثَلٌ[7]. يعنى أنه سِيقَ مثلًا مُبَيِّنًا أنهُ لن يُغْنِيَ حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ. وقولُ الجُمهورِ أقوى؛ أَنَّ هذا وَقَعَ.

وقد روَى الإمامُ أحمدُ وصاحبا «الصحيحِ»[8]، مِنْ طريقِ الزُّهْرِيِّ، عن عبدِ الحميدِ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ زَيدِ بنِ الخطَّابِ، عن عبدِ اللَّهِ [9]بنِ عبدِ اللَّهِ[9] بنِ الحارثِ

---

(١) بعده فى ح: «إذا».
(٢ - ٢) سقط من: ص.
(٣) فى ح: «ونباتها».
(٤) فى ص: «تجافت».
(٥ - ٥) فى ح: «كفنًا وسخًا». وفى م: «رسمًا». والدَّسْم: المطموس المَمْحِيّ.
(٦) أخرجه الطبرى فى تاريخه ١/ ٤٥٨، ٤٥٩ من طريق أسباط به. وانظر تفسير الطبرى ٢/ ٥٨٧.
(٧) التفسير ١/ ٤٤٠.
(٨) أحمد فى المسند (١/ ١٩٤). البخارى (٥٧٢٩). مسلم (٢٢١٩).
(٩ - ٩) سقط من النسخ، والمثبت من مصادر التخريج.

ابنِ نَوْفَلٍ ، عن عبدِ اللَّهِ بنِ عباسٍ ، أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ خرجَ إلى الشامِ ، حتى إذا كان بِسَرْغٍ ، لَقِيَهُ أمراءُ الأَجنادِ ، أبو عبيدةَ بنُ الجَرَّاحِ وأصحابُه ، فأخبروه أنَّ الوباءَ وقعَ بالشامِ ، فَذَكَرَ الحديثَ . يعنى فى مُشاوَرَتِه المهاجرين والأنصارَ ، فاختلَفُوا عليه ، فجاءَه عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ ، وكان مُتَغَيِّبًا ببعضِ حاجتِه ، فقال : إنَّ عندى مِنْ هذا عِلمًا ؛ سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ : « إذا كانَ بأرْضٍ وأنتمْ بها ، فلا تَخْرُجُوا فِرَارًا منه ، وإذا سَمِعْتُم به بأرضٍ ؛ فلا تَقْدَمُوا عليه » . فحمِدَ اللَّهَ [١/٢١٤و] عمرُ ثم انصرف .

وقال الإمامُ أحمدُ[(١)] : حدَّثنا حجَّاجٌ ويزيدُ المَغْنَى[(٢)] قالا : حدَّثنا ابنُ أبى ذئبٍ[(٣)] ، عن الزُّهْرِىِّ ، عن سالمٍ ، عن عبدِ اللَّهِ بنِ عامرِ بنِ ربيعةَ ، أنَّ عبدَ الرحمنِ بنَ عَوفٍ [(٤)] أَخْبَرَ عمرَ[(٤)] وهو فى الشامِ ، عن النبى ﷺ : « إن هذا السَّقَمَ عُذِّبَ به الأُمَمُ قَبْلَكُم ، فإذا سَمِعْتُمْ به فى أرضٍ ، فلا تَدْخُلُوها ، وإذا وقعَ بأرضٍ وأنتم بها ، فلا تَخْرُجوا فرارًا منه » . قال : فَرَجَعَ عمرُ من الشامِ . وأخرجاه[(٥)] من حديثِ مالكٍ عن الزُّهْرِىِّ ، بنَحْوِه .

قال محمدُ بنُ إسحاقَ[(٦)] : ولم يُذْكَرْ لنا مُدَّةُ لُبْثِ حِزْقيلَ فى بنى إسْرائيلَ ، ثم إنّ اللَّهَ قَبَضَهُ إليه ، فلمَّا قُبِضَ نَسِىَ بنو إسْرائيلَ عَهْدَ اللَّهِ إليهم ، وَعَظُمَتْ

---

(١) سقط من : ح ، م .
أحمد فى المسند ١/ ١٩٣. (إسناده صحيح) .
(٢) فى ح : « العنى » . وفى م ، ص : « المفتى » .
(٣) فى م : « ذؤيب » . وانظر : تهذيب التهذيب ٩/ ٣٠٣.
(٤ - ٤) فى ص : « أخبرهم » .
(٥) البخارى (٥٧٣٠، ٦٩٧٣) . مسلم (٢٢١٩) .
(٦) تاريخ الطبرى ١/ ٤٦٠، ٤٦١ .

فيهمُ الأحداثُ ، وعبدُوا الأوثانَ ، وكان فى جملةِ ما يَعبُدُونَهُ مِن الأصنامِ ، صنمٌ يُقالُ له : بَعْلٌ . فَبَعَثَ اللَّهُ إليهم إلياسَ بنَ ياسينَ[1] بنِ فِنْحاصَ بنِ العِيزارِ ابنِ هارونَ بنِ عِمرانَ . قلتُ : وقد قدَّمْنا قصةَ إلياسَ تَبَعًا لقصَّةِ الخَضِرِ ؛ لأنَّهما يُقْرَنَانِ فى الذِّكْرِ غالبًا ، ولأجْلِ أنها بعدَ قصةِ موسى فى سورةِ الصَّافَّاتِ ، فتَعَجَّلْنا قصَّتَه لذلك . واللَّهُ أعلمُ . قال محمدُ بنُ إسحاقَ[2] ، فيما ذُكِرَ له عن وَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ ، قال : ثُمَّ تنبَّأ فيهم بعدَ إلياسَ ، وَصِيُّه اليَسَعُ بنُ أخطوبَ ، عليه السَّلامُ . وهذه :

---

(١) فى ص : « الياسين » .

(٢) تاريخ الطبرى ١/ ٤٦٤.

قِصَّةُ اليَسَعِ، عَلَيهِ السَّلامُ

وقد ذَكَرَه اللَّهُ تعالى مع الأنبياءِ، في سورةِ «الأنعامِ» في قولِه: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٦].

وقال تعالى في سورةِ «ص»[1]: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٨]. قال إسحاقُ[2] بنُ بِشْرٍ، أبو حُذَيْفَةَ: أنبأنا سعيدٌ، عنْ قَتادَةَ، عنِ الحسَنِ قالَ: كان بعدَ إلياسَ، اليَسَعُ - عليهما السَّلامُ - فَمَكَثَ ما شاءَ اللَّهُ أن يَمْكُثَ؛ يَدْعُوهم إلى اللَّهِ، مُسْتَمْسِكًا بمنهاجِ إلياسَ وشريعتِه، حتى قبضَهُ اللَّهُ، عزَّ وجلَّ، إليه، ثم خَلَفَ فيهم الخُلُوفُ[3]، وعَظُمَتْ فيهم الأحْداثُ والخطايا، وكَثُرَتِ الجبابرةُ، وقتَلُوا الأنبياءَ، وكان فيهم مَلِكٌ جبارٌ[4] عنيدٌ طاغٍ، ويُقالُ: إنَّه الذى تَكَفَّلَ له ذو الكِفْلِ إنْ هو تابَ وراجَعَ، دَخَلَ الجنَّةَ؛ فسُمِّيَ ذا الْكِفْلِ. قال محمدُ بنُ إسحاقَ[5]: هو اليَسَعُ بنُ أخطوبَ.

وقال الحافظُ أبو القاسم ابنُ عَساكِرَ، في حرفِ الياءِ من «تاريخِه»[6]: اليَسَعُ؛ وهو: الأسْباطُ بنُ عَدِيِّ بنِ شوتلمَ بنِ أفرائيمَ بنِ يُوسُفَ بنِ يعقوبَ بنِ

---

(١) التفسير ٧/٦٧.
(٢) في ص: «ثنا».
(٣) الخُلُوف: التَّغيُّر والفَساد.
(٤) زيادة من: الأصل، ص.
(٥) تاريخ الطبرى ١/٤٦٢.
(٦) لعله من الجزء الساقط من مخطوط تاريخ دمشق. وانظر تاريخ دمشق ١٠٩/١٧ حاشية ٣، ومختصرة لابن منظور ٣٦/٢٨.

إسحاقَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ. ويُقالُ: هو ابنُ عمِّ إلياسَ النبيِّ، عليهما السَّلامُ [١/٢١٤ظ]. ويقالُ: كان مُسْتَخْفِيًا معه بجَبَلِ قاسِيُونَ من مَلِكِ بَعْلَبَكَّ، ثُمَّ ذَهَبَ معه إليها، فلمَّا رُفِعَ إلياسُ خَلَفَه اليَسَعُ فى قومِهِ، وَنَبَّأَهُ اللَّهُ بعدَه. ذَكَر ذلك عبدُ المنعمِ بنُ إِدْرِيسَ (١ بنِ سِنانٍ ١)، عن أبيه، عن وهبِ بنِ مُنَبِّهٍ. قال: وقال غيرُه: كان الأسباطُ[٢] ببانْياسَ. ثم ذكَر ابنُ عساكرَ قراءةَ مَنْ قَرَأَ: ﴿الْيَسَعَ﴾، بالتخفيفِ وبالتَّشديدِ، وَمَنْ قرَأَ: «اللَّيْسَعَ»[٣]، وهو اسمٌ واحِدٌ لنبيٍّ من الأنبياءِ. قلتُ: قد قدَّمْنا[٤] قصَّةَ ذِى الكِفْلِ بعدَ قصَّةِ أيُّوبَ، عليهما السَّلامُ؛ لأنه قد قِيلَ: إنَّه ابنُ أيُّوبَ، فاللَّهُ أعلمُ بالصَّوابِ.

(١ - ١) سقط من: ح، م.
(٢) سقط من: م.
(٣) فى الأصل: «اليسع».
(٤) تقدم فى ١/٥١٦.

فَصْــــلٌ

قال ابنُ جريرٍ[1] وغيرُهُ: ثم مَرَجَ أمرُ بنى إسْرائيلَ، وعَظُمتْ فيهم الأحداثُ والخُطُوبُ والخَطايا، وقَتَلُوا مَنْ قَتَلُوا مِن الأنبياءِ، وسَلَّطَ اللَّهُ عليهم بَدَلَ الأنبياءِ مُلُوكًا جبَّارِينَ يَظلِمُونَهم، ويَسْفِكُون دِماءَهم، وسلَّطَ اللَّهُ عليهم الأعداءَ مِنْ غيرِهم أيضًا. وكانوا إذا قاتلوا أحدًا مِنَ الأعداءِ، يكونُ معهم تابوتُ الميثاقِ الذى كان فى قُبَّةِ الزَّمانِ، كما تقدَّمَ ذِكْرُه[2]، فكانوا يُنْصَرُونَ ببَرَكَتِهِ، وبما جعلَ اللَّهُ فيهِ مِن السَّكِينةِ والبَقِيَّةِ، ممَّا تركَ آلُ موسى وآلُ هارونَ، فلمَّا كان فى بعضِ حروبِهم مَعَ أهلِ غَزَّةَ وعَسْقَلانَ، غلبوهم عليه[3]، وقَهَرُوهم على أَخْذِهِ، فانتزعوه من أيديهم، فلمَّا عَلِمَ بذلكَ مَلِكُ بنى إسرائيلَ فى ذلك الزَّمانِ، مالتْ عُنُقُه فمات كَمَدًا، وبَقِىَ بنو إسْرائيلَ كالغنمِ بلا راعٍ، حتى بَعَثَ اللَّهُ فيهم نبيًّا من الأنبياءِ، يُقالُ له: شمويلُ. فَطَلَبُوا منه أَنْ يُقيمَ لهم مَلِكًا لِيُقاتِلوا معه[4] الأعداءَ، فكانَ من أمرِهم ما سَنَذْكُرُه ممَّا قَصَّ اللَّهُ فى كتابِهِ.

قال ابنُ جريرٍ[5]: فكان بِينَ[6] وفاةِ يوشعَ بنِ نونٍ إلى أن بعَثَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ

---

(١) فى ص: «جريج». وانظر تاريخ الطبرى ١/٤٦٤ - ٤٦٦. وعرائس المجالس ٢٣٤، ٢٣٥.
(٢) تقدم فى صفحة ١٩٧ .
(٣) سقط من: م.
(٤) سقط من: الأصل.
(٥) تاريخ الطبرى ١/ ٤٦٥.
(٦) فى م، ص: «من».

شمويلَ بنَ بالى[1] ، أربعُمائةِ سنةٍ وستُّون سنةً . ثم ذَكَرَ تَفْصِيلَها بمُدَدِ الملوكِ الذين مُلِّكُوا عليهم ، وسمَّاهم واحدًا واحدًا ، تركْنا ذِكْرَهم قَصْدًا .

(١) فى الأصل : « مالى » .

قصَّةُ شمويلَ،

وفيها بَدَأَ أمرُ داودَ، عَلَيهما السَّلامُ

هو شمويلُ - ويُقال: أشمويلُ - بنُ بالى بنِ عَلْقَمَةَ بنِ يرخامَ[1] بنِ أليهو ابنِ [2]تهو بنِ صوفَ[2] بنِ عَلْقَمَةَ بنِ ماحثَ[3] بنِ عموصا بنِ عزريا. قال مُقاتِلٌ: هو من ذُرِّيَّةِ[4] هارونَ. وقال مجاهدٌ: هو أشمويلُ بنُ هلفاقا. ولم يَرْفَعْ فى نَسَبِه أكْثَرَ مِن هذا، فاللَّهُ أعلمُ[5].

حكَى السُّدِّىُّ بإسنادِه، عنِ ابنِ عباسٍ، وابنِ مسعودٍ، وأُناسٍ من الصَّحابةِ - والثَّعْلَبِىُّ[6] - وغيرُهم؛ أنَّه لمَّا غَلَبَتِ العمالقةُ من أرضِ غَزَّةَ وعَسْقَلانَ على بنى إسرائيلَ، وقتلُوا منهم [١/٢١٥و] خَلْقًا كثيرًا، وسَبَوْا من أبنائهم جمعًا كثيرًا، وانقطعتِ النُّبوَّةُ من سِبْطِ لاوِى، ولم يَبْقَ فيهم إلَّا امرأةٌ حُبْلَى، فجعلتْ تَدْعُو اللَّهَ، عزَّ وجلَّ، أن يَرْزُقَها ولدًا ذَكَرًا، فولدتْ غُلامًا فسَمَّتْه أشمويلَ، ومعناه بالعِبْرَانِيَّةِ[7] إسماعيلُ؛ أىْ سَمِعَ اللَّهُ دُعائى، فلمَّا

---

(١) فى الأصل، ح، ص: «حام».
(٢ - ٢) فى الأصل: «بهر صون». وفى ح: «بهر صوب». وفى ص: «صوب».
وراجع فى هذا الاسم وما سبقه: تاريخ الطبرى ١/ ٤٦٧.
(٣) فى الأصل، ص: «ماحب».
(٤) فى ح، م، ص: «ورثة».
(٥) التفسير ١/ ٤٤٣. وانظر عرائس المجالس ٢٣٥.
(٦) تاريخ الطبرى ١/ ٤٦٧، ٤٦٨. وانظر عرائس المجالس ٢٣٣، ٢٣٤.
(٧) فى ص: «بالعربية».

تَرَعْرَعَ بَعَثَتْه إلى المسجدِ ، وأسْلَمَتْه عندَ رجُلٍ صالحٍ فيه ؛ يكون عندَه ليَتَعَلَّمَ مِنْ خيرِه وعبادتِهِ ، فكانَ عندَه ، فلمَّا بَلَغَ أشُدَّه بينَما هو ذاتَ ليلةٍ نائمٌ ، إذا صَوْتٌ يَأْتِيهِ مِنْ ناحيةِ المسجدِ ، فانْتَبَهَ مَذْعُورًا ، فَظَنَّهُ الشيخُ يَدعُوه ، فسأَلَهُ : أدَعَوْتَنى ؟ فَكَرِهَ أنْ يُفْزِعَهُ فقال : نعم ، نَمْ . فنامَ . ثم ناداه الثانيةَ ، فكذلك ، ثم الثالثةَ ، فإذا جبريلُ يَدعُوه ، فجاءه فقال : إنَّ ربَّك قد بَعَثَكَ إلى قومِك[1] . فكان من أمرِهِ معهم ما قصَّ اللَّهُ فى كتابِهِ ، قال اللَّهُ تعالى فى كتابِهِ العزيزِ[2] : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ

---

(١) تاريخ الطبرى ١/ ٤٦٧، ٤٦٨.

(٢) التفسير ١/٤٤٣ - ٤٤٨.

يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

[البقرة: ٢٤٦- ٢٥١].

قالَ أكثرُ المفسِّرينَ: كان نبيُّ هؤلاءِ القومِ [١/٢١٥ظ] المذْكورِينَ فى هذهِ القصَّةِ، هو شمويلُ. وقيلَ: شمعونُ. وقيلَ: هما واحدٌ. وقيل: يوشعُ. وهذا بعيدٌ؛ لما ذَكَرَه الإمامُ أبو جعفرِ بنُ جَريرٍ فى «تاريخِهِ»[1]، أنَّ بينَ موتِ يوشعَ وبعْثَةِ شَمويلَ أربعَمائةِ سنةٍ وستِّينَ سنةً. فاللَّهُ أعلمُ.

والمقصودُ أنَّ هؤلاءِ القومَ لمَّا أنْهكَتْهُمُ الحروبُ وقهَرَهم الأعداءُ، سألوا نبيَّ اللَّهِ فى ذلكَ الزَّمانِ، وطلبُوا منه أن يُنَصِّبَ[2] لهم مَلِكًا يكونون تحتَ طاعتِه؛ ليُقاتِلُوا مِن ورائِهِ ومعه، وبينَ يديْهِ، الأعداءَ، فقال لهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أىْ: وأىُّ شئ يَمْنَعُنا مِن القتالِ ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا

---

(١) ١/ ٤٦٥.

(٢) فى الأصل: «ينصبوا».

وَأَبْنَآبِنَآ ﴾ . يقولون : نحن محروبون موتورونَ ، فحَقِيقٌ لنا أن نُقاتِلَ عن أبنائِنا المَنْهُوبِينَ[(١)] المُستضْعَفِينَ فيهم ، المأْسُورِينَ فى قبْضَتِهم . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ كما ذكَر[(٢)] فى آخِرِ القصَّةِ ، أنه لم يُجاوِزِ النهرَ [(٣)]مع الملكِ[(٣)] إلَّا القليلُ ، والباقُونَ رجعُوا ونَكَلُوا عن القتالِ : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ ، قال الثَّعْلَبِيُّ[(٤)] : وهو طالوتُ بنُ قيسِ[(٥)] بنِ أفيلَ بنِ صارو[(٦)] بن نحورت[(٧)] بنِ أفيحَ بنِ أنيسَ[(٨)] بنِ بنيامينَ بنِ يعقوبَ بنِ إسحاقَ ابنِ إبراهيمَ الخليلِ . قال عِكرمةُ والسُّدِّيُّ : كان سَقَّاءً . وقالَ وهبُ بنُ مُنَبِّهٍ : كان دبَّاغًا . وقِيل غيرُ ذلك . فاللَّهُ أعلمُ . ولهذا ﴿ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾ .

وقد ذكَرُوا أن النُّبوَّةَ كانت فى سِبْطِ لاوِى ، وأنّ المُلْكَ كان فى سِبْطِ يَهُوذا ، فلمَّا كان هذا مِنْ سِبْطِ بنيامينَ ، نَفَرُوا منه وَطَعَنُوا فى إمارَتِهِ عليهم ، وقالوا : نحنُ أحَقُّ بالمُلْكِ منه . وذكَرُوا أنَّه فقيرٌ لا سَعَةَ من المالِ معه ، فكيفَ يكونُ مِثْلُ هذا مَلِكًا ؟ ﴿ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى

---

(١) فى ح ، م : « المنهورين » . والمنهوبون : المأخوذون قهرًا .

(٢) فى ص : « ذكروا » .

(٣ - ٣) سقط من : الأصل .

(٤) فى عرائس المجالس ٢٣٥ .

(٥) فى م : « قيش » .

(٦) فى الأصل ، ح ، ص : « صرار » .

(٧) فى الأصل : « نحوث » . غير منقوطة . وفى ح : « لحوب » . وفى م : « تحورت » . وفى ص : « لموب » . والمثبت من عرائس المجالس .

(٨) فى الأصل ، ح ، ص : « أريش » .

ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾ . قيل : كان اللَّهُ قد أَوْحَى إلى شمويلَ ، أنَّ أىَّ بنى إسْرائيلَ كان طُولُه على طُولِ هذه العصا ، وإذا حَضَرَ عندَك يَفُورُ هذا القَرْنُ الذى فيه من دُهْنِ القُدْسِ ، فهو مَلِكُهم . فجعلُوا يَدخُلُون ويَقيسون أنْفُسَهم بتلك العصا ، فلم يكنْ أحدٌ منهم على طُولِها سوى طالوتَ ، ولَمَّا حَضَرَ عند شمويلَ فار ذلك القرنُ ، فدَهَنَهُ منه وعَيَّنَه المِلِكَ عليهم ، وقال لهم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ ؛ قيل : فى أمرِ الحروبِ . وقيل : بل مطلقًا . ﴿ وَٱلْجِسْمِ ﴾ ؛ قيل : الطُّولُ . وقيل : الجَمَالُ . والظّاهِرُ من السِّياقِ ، أنه كانَ أجْمَلَهم وأعْلَمَهم [٢١٦/١و] بعدَ نبيِّهم عليه السَّلامُ . ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ﴾ فله الحُكمُ ، وله الخَلْقُ والأمرُ ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ وهذا أيضًا مِن بَرَكَةِ وِلايةِ هذا الرجُلِ الصالحِ عليهم ويُمْنِهِ عليهمْ ؛ أن يَرُدَّ اللَّهُ عليهمُ التابوتَ الذى كان سُلِبَ منهم ، وَقَهَرَهُمُ الأعداءُ عليه ، وقد كانوا يُنْصَرُون على أعدائِهم بسَبَبِهِ . ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ، قِيلَ : طَسْتٌ[1] من ذهبٍ كان يُغْسَلُ فيه صُدُورُ الأنبياءِ . وقيل : السَّكِينَةُ مِثْلُ الرِّيحِ الخَجُوجِ[2] . وقيل : صُورتُها مِثْلُ الهِرَّةِ ، إذا صَرَخَتْ فى حالِ الحربِ ، أيْقَنَ بنو إسرائيلَ بالنصرِ . ﴿ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ

---

(١) فى ح ، م ، ص : « طشت » .

(٢) الخَجُوج : الشديدة المُرُور فى غير استواء . اللسان (خ ج ج) .
وهو أثر عن علىٍّ رضى اللَّه عنه ، رواه ابن جرير فى تفسيره ٢/ ٦١١.

وَءَالُ هَـٰرُونَ ﴾ قِيل : كان فيه رُضَاضُ[1] الألواحِ وشىءٌ مِن المَنِّ الذى كان يَنزِلُ عليهم بالتِّيهِ . ﴿ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُۚ ﴾ أى ؛ تأْتِيكم به الملائكةُ يَحْمِلُونه وأنتم تَرَوْن ذلك عِيانًا ؛ ليَكونَ آيةً للّٰهِ عليكم ، وحُجَّةً[2] باهرةً على صِدْقِ ما أقُولُه لكم ، وعلى صحَّةِ وِلايةِ هذا المَلِكِ الصالحِ عليكم ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ . وقِيل : إنه لمَّا غَلَبَ العمالقةُ على هذا التابوتِ ، وكان فيه ما ذُكِر من السَّكِينةِ والبقيَّةِ المُبارَكَةِ - وقيل : كان فيه التَّوْراةُ أيضًا - فلمَّا استقرَّ فى أيْدِيهِم ، وَضَعُوه تحتَ صَنَمٍ لهم بأرضِهِم ، فلمَّا أصْبَحُوا إذا التَّابوتُ على رأسِ الصنمِ فوضعوه تحتَه ، فلمَّا كان اليومُ الثانى إذا التابوتُ فوقَ الصَّنَمِ ، فلمَّا تَكَرَّرَ هذا علموا أن هذا أمرٌ مِن اللّٰهِ تعالى ، فأخْرَجُوه من بلدِهِم وجَعَلُوه فى قريةٍ من قُراهم ، فأخَذَهم داءٌ فى رِقابِهِم ، فلمَّا طال عليهم هذا جَعَلُوه فى عَجَلَةٍ ورَبَطُوها فى بَقَرَتَيْنِ وأرسلوهما ، فيُقالُ : إن الملائكةَ ساقَتْهما حتى جاءوا[3] بهما مَلأَ بنى إسرائيلَ وهم يَنظُرُون ، كما أخبَرَهم نبيُّهم بذلك . فاللّٰهُ أعلمُ على أىِّ صفةٍ جاءتْ به الملائكةُ ، والظَّاهِرُ أن الملائكةَ كانت تَحْمِلُه بأنفُسِهم ، كما هو المفهومُ[4] من الآيةِ . واللّٰهُ أعلمُ . وإنْ كان الأوَّلُ قد ذَكَرَه كثيرٌ مِنَ المُفسِّرِينَ أو أكْثَرُهم .

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّى وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ ﴾ قال

---

(١) رُضَاض الشىء : فُتاته .

(٢) فى الأصل : « وحجته » .

(٣) فى ص : « جاوزوا » .

(٤) فى الأصل ، ح ، ص : « المفهوم بالجنود » .

ابنُ عباسٍ وكثيرٌ من المفسِّرين: هذا النهرُ هو نهرُ الأُرْدُنِّ. وهو المُسَمَّى بالشَّريعةِ، فكان مِن أمرِ طالوتَ بجنودِه عندَ هذا [٢١٦/١ظ] النهرِ، عن أمرِ نبيِّ اللَّهِ له[1]، عن أمرِ اللَّهِ له، اختبارًا وامتحانًا؛ أنَّ مَن شَرِبَ مِن هذا النهرِ اليومَ[2] فلا يَصْحَبْنى فى هذه الغزوةِ، ولا يَصحبْنى إلَّا مَن لم يَطْعَمْهُ، إلَّا غُرْفَةً فى يدِه. قال اللَّهُ تعالى: ﴿ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾. قال السُّدِّىُّ: كان الجيشُ ثمانينَ ألفًا، فشَرِبَ منه ستَّةٌ وسبعونَ ألفًا، وتَبَقَّى معه أربعةُ آلافٍ. كذا قال.

وقد رَوَى البُخارِىُّ فى «صحيحِه»[3]، من حديثِ إسْرائيلَ وزُهَيْرٍ والثَّوْرِىِّ، عن أبى إسْحاقَ، عن البَرَاءِ بنِ عازِبٍ قال: كُنَّا أصحابَ محمدٍ ﷺ، نَتَحَدَّثُ أنَّ عِدَّةَ أصحابِ بَدرٍ على عِدَّةِ أصحابِ طالوتَ - الذين جاوزوا معه النهرَ، ولم يُجاوِزْ معه إلَّا [4]مُؤْمِنٌ - بِضْعَةَ عَشَرَ وثلثمائةٍ[4]. وقولُ السُّدِّىِّ أنَّ عِدَّةَ الجيشِ كانوا ثمانين ألفًا، [5]فيه نَظَرٌ؛ لأنَّ أرضَ بيتِ المَقْدِسِ لا تَحْتَمِلُ أن يَجتمعَ فيها جيشٌ مُقاتِلَةٍ يَبْلُغون ثمانينَ ألفًا[5]. واللَّهُ أعلمُ. قال اللَّهُ تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾، أى؛ اسْتَقَلُّوا أنْفُسَهم واسْتَضْعَفُوها عن مُقاوَمَةِ أعدائِهم، بالنِّسبةِ إلى قِلَّتِهم وكثرةِ عَدَدِ عَدُوِّهم، ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ

---

(١) فى الأصل: «لهم».

(٢) سقط من: م.

(٣) البخارى (٣٩٥٨). من حديث إسرائيل. و(٣٩٥٧) من حديث زهير. و(٣٩٥٩) من حديث الثورى.

(٤ - ٤) فى م: «بضعة عشر وثلثمائة مؤمن».

(٥ - ٥) سقط من: ص.

أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾؛ (1) يعني: ثَبَّتَهم الشُّجعانُ منهم والفُرسانُ (1) أهلُ الإيمانِ والإيقانِ، الصابرون على الجِلَادِ والجدالِ[2] والطِّعانِ. ﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ طلبُوا من اللّهِ أن يُفرِغَ عليهمُ الصبرَ؛ أىْ يَغْمُرَهم به مِن فوقِهم، فتستقِرَّ[3] قلوبُهم ولا تَقْلَقَ، وأَن يُثَبِّتَ أقدامَهم فى مجالِ الحربِ، ومُعْتَرَكِ الأبطالِ، وحَوْمَةِ الوَغَى، والدعاءِ إلى النِّزَالِ، فسألُوا التثبُّتَ الظاهرَ والباطنَ، وأن يُنْزِلَ عليهم النصرَ على أعدائِهم وأعدائِه، من الكافرينَ الجاحِدين بآياتِه وآلائِه، فأجابهمُ العظيمُ القديرُ السميعُ البصيرُ الحكيمُ الخبيرُ إلى ما سألوا، وأنالهُم ما إليه فيه رَغِبُوا، ولهذا قال: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ أىْ؛ بحَوْلِ اللّهِ لا بحَوْلِهِم، وبقُوَّةِ اللّهِ ونصْرِه لا بقُوتِهم وعَدَدِهم، مع كثْرةِ أعدائِهم وكمالِ عددِهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ ﴾ فيه دَلالةٌ على شجاعةِ داودَ، عليه السَّلامُ، وأنه قتَلَه قتْلًا أذلَّ به جندَه (4) وكَسَرَ جيشَهُ (4)، ولا أعْظَمَ مِن غَزْوَةٍ يَقْتُلُ فيها[5] مَلِكٌ عَدُوِّه، [1/217و] فيَغْنَمُ بسببِ ذلك الأموالَ الجَزيلَةَ، ويَأْسِرُ الأبطالَ

(1 - 1) فى ح: «يعنى ثبتهم الفرسان منهم والفرسان». وفى م: «يعنى بها الفرسان منهم والفرسان».
(2) الجدال: المخاصمة والصراع. تاج العروس (ج د ل).
(3) فى ص: «فتستتر».
(4 - 4) فى ح، م: «وكسره».
(5) سقط من: الأصل، ح، ص.

والشُّجعانَ والأقْرانَ[1] ، وتعلو كلمةُ الإيمانِ على الأوثانِ ، ويُدَالُ لأولياءِ اللَّهِ على أعدائِه ، ويَظهرُ الدِّينُ الحقُّ على الباطلِ وأوليائِه . وقد ذكر السُّدِّىُّ فيما يَرْوِيه ، أنَّ داوُدَ ، عليه السَّلامُ ، كان أصغرَ[2] أولادِ أبيه ، وكانوا ثلاثةَ عشرَ ذَكَرًا ، كان سَمِعَ طالوتَ ملكَ بنى إسْرائيلَ وهو يُحَرِّضُ بنى إسرائيلَ على قَتْلِ جالوتَ وجنودِهِ ، وهو يقولُ : مَن قتل جالوتَ زَوَّجْتُهُ بابنتى ، وأشركْتُه فى مُلْكِى . وكان داودُ ، عليه السلامُ ، يَرْمِى بالقَذَّافَةِ - وهو المِقْلاعُ - رَمْيًا عَظيمًا ، فَبَيْنَا هو سائرٌ مع بنى إسرائيلَ إذْ ناداهُ حَجَرٌ ، أنْ خُذْنى فإنَّ بى تَقْتُلُ جَالوتَ . فأَخذَه ، ثُمَّ حجرٌ آخرُ كذلك ، ثم آخرُ كذلك ، فأَخذَ الثلاثةَ فى مِخْلاتِهِ ، فلمَّا تَواجَهَ الصَّفَّانِ ، بَرَزَ جالوتُ ودعا إلى نَفْسِه ، فتقدَّمَ إليه داودُ ، فقال له : ارجِعْ ، فإنِّى أكْرَهُ قَتْلَكَ . فقال : لكنِّى أُحِبُّ قَتْلَكَ . وأخذَ تلكَ الأحجارَ الثلاثةَ [3]مِن مِخْلاتِهِ[3] فوَضَعَها فى القَذَّافَةِ ثم أدارَها ، فصارَتِ الثلاثةُ حجرًا واحدًا ، ثم رمَى بها جالوتَ ففَلَقَ رأسَه ، وفَرَّ جيشُهُ مُنْهَزِمًا ، فوَفَّى له طالوتُ بما وعدَه ؛ فزوَّجَه ابنتَهُ [4]وأَجْرَى حُكْمَه فى مُلْكِه[4] ، وعَظُمَ داودُ ، عليه السَّلامُ ، عندَ بنى إسْرائيلَ ، وأحبُّوه ومالُوا إليه أكْثَرَ مِنْ طالوتَ ، فذَكَرُوا أنَّ طالوتَ حَسَدَه وأرادَ قَتْلَه ، واحتالَ على ذلك ، فلم يَصِلْ إليه ، وجَعَلَ العلماءُ يَنْهَوْنَ طالوتَ عن قَتْلِ داودَ ، فتسلَّطَ عليهم فقتلَهم ، حتى لم يَبْقَ منهم إلَّا القليلُ ، ثم حَصَلَ له توبةٌ ونَدمٌ وإقلاعٌ عما سلَفَ منه ، وجعلَ يُكْثِرُ من البُكاءِ ،

---

(١) سقط من : الأصل ، ص .

(٢) فى الأصل : « صغيرا » .

(٣ - ٣) زيادة من : ص .

(٤ - ٤) فى ح : « وأخرى حلمه فى ملله » .

ويَخرُجُ إلى الجبَّانةِ فيبكِى حتى يَبُلَّ الثَّرَى بدُمُوعِه، فنُودِىَ ذاتَ يومٍ من الجبَّانَةِ: أن يا طالوتُ، قَتَلْتَنا ونحنُ أحياءٌ، وآذَيْتَنا ونحنُ أمواتٌ. فازدادَ لذلك بكاؤُه وخَوْفُهُ، واشتدَّ وَجَلُه، ثم جعلَ يسألُ عَنْ عَالِمٍ يسألُه عن أمرِهِ، وهل له مِن توبةٍ، فقِيل له: وهل أبقيتَ عالمًا؟ حتى دُلَّ على امرأةٍ مِن العابداتِ، فأَخَذَتْه فذهبت به إلى قبرِ يوشعَ، عليه السَّلامُ، قالوا: فدَعَتِ اللَّهَ، فقام يُوشعُ من قبرِه، فقال: أقامتِ القيامةُ؟ فقالتْ: لا، ولكنَّ هذا طالوتُ يسألُكَ: هل له من توبةٍ؟ فقال: نعم، يَنْخَلِعُ من المُلْكِ، ويَذهبُ فيُقاتِلُ فى سبيلِ اللَّهِ حتى يُقْتَلَ. ثم عاد ميتًا. فتَرَكَ[1] المُلْكَ لداودَ، عليه السَّلامُ، وذهبَ ومعه ثلاثةَ عشَرَ مِن أولادِه، فقاتلُوا فى سبيلِ اللَّهِ حتى قُتِلوا. قالوا: فذلك قولُه تعالى: ﴿ وَءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ [١/٢١٧ظ] ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾. هكذا ذَكَرَه ابنُ جَرِيرٍ فى «تاريخِه»[2]، مِن طريقِ السُّدِّىِّ بإسنادِه. وفى بعضِ هذا نظرٌ ونَكَارَةٌ. واللَّهُ أعلمُ.

وقال محمدُ بنُ إسحاقَ: النبىُّ الذى بُعِثَ فأَخبَرَ طالوتَ بتوبتِه، هو اليسعُ ابنُ أخطوبَ. حكاه ابنُ جريرٍ أيضًا[3]. وذكر الثَّعْلَبِىُّ[4] أنها أتتْ به إلى قبرِ أشمويلَ، فعاتَبَهُ على ما صنعَ بعدَه من الأمورِ. وهذا أنسَبُ. ولعلَّه إنَّما رآه فى النومِ، لا أنَّه قام من القبرِ حيًا؛ فإنَّ هذا إنما يكونُ معجزةً لنبىٍّ، وتلك المرأةُ لم

---

(١) فى ح: «فذهب».
(٢) ١/٤٧٢ - ٤٧٥. مطولًا.
(٣) فى تاريخه ١/ ٤٧٥.
(٤) عرائس المجالس ٢٤٣.

تكنْ نَبِيةً. واللَّهُ أعلمُ. (1) قال ابنُ جَرِيرٍ (1): وزَعَم أهلُ التوراةِ أن مُدَّةَ مُلْكِ طالوتَ إلى أن قُتِلَ مع أولادِه، (2) كانتَ أربعينَ (2) سنةً. فاللَّهُ أعلمُ.

(1 - 1) سقط من: م. وانظر تاريخ الطبرى 1/ 475.

(2 - 2) فى ح: «أربعين». وفى م: «أربعون».

قصةُ داوُدَ عليه السَّلامُ

وَمَا كان فى أيامِه وذِكْرُ[1]

فضائِلِه وَشمائِلِه وَدلائلِ نُبوَّتِه وأعْلامِهِ

هو داودُ بنُ إيشا بنِ عُوَيدَ بنِ باعزَ[2] بنِ سلمونَ بنِ نحشونَ[3] بنِ عويناذبَ[4] بنِ إرمَ بنِ حصرونَ بنِ فارصَ[5] بنِ يهوذا[6] بنِ يعقوبَ بنِ إسحاقَ ابنِ إبراهيمَ الخليلِ، عبدُ اللَّهِ ونبيُّه وخليفتُه فى أرضِ بيتِ المقدسِ.

قال محمدُ بنُ إسْحاقَ[7] عن بعضِ أهلِ العِلمِ، عن وَهْبِ بنِ مُنبِّهٍ: كان داودُ، عليه السلامُ، قصيرًا أزرقَ العَيْنَيْنِ، [8]قليلَ الشَّعْرِ[8]، طاهرَ القلبِ نَقِيَّه. تَقدَّمَ أنَّه لمَّا قَتَل جالوتَ، وكان قَتْلُه له - فيما ذَكَرَ ابنُ عساكرَ[9] - عند قَصْرِ أُمِّ حَكِيمٍ بقربِ مَرْجِ الصُّفَّرِ. فأَحَبَّتْه بنو إسرائيلَ ومالُوا إليه وإلى مُلْكِه عليهم، فكان مِن أمرِ طالوتَ ما كان، وصارَ المُلْكُ إلى داودَ، عليه السلامُ، وجمَع اللَّهُ

---

(١) فى م: «ثم».
(٢) فى ح، م، ص: «عابر».
(٣) فى ح: «لحسون». وفى ص: «بحشون».
(٤) فى ح: «عوسادب». وفى ص: «عوسادب».
(٥) فى الأصل: «مارض».
(٦) فى الأصل، ح، ص: «يهودا».
وراجع فى هذا الاسم وما سبقه: تاريخ الطبرى ١/ ٤٧٦.
(٧) تاريخ الطبرى ١/ ٤٧٦.
(٨ - ٨) سقط من: ح. وفى ص: «حسن الشعر».
(٩) تاريخ مدينة دمشق ١٧/ ٨٠.

له بين المُلْكِ والنُّبُوَّةِ ؛ بين خَيْرَيِ[1] الدنيا والآخرةِ ، وكان المُلْكُ يكون فى سِبْطٍ والنُّبُوَّةُ فى سِبْطٍ[2] آخَرَ ، فاجتمعَ فى داودَ هذا وهذا ، كما قال تعالى[3] : ﴿ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١] . أى ؛ لولا إقامةُ المُلوكِ حُكّامًا على الناسِ ، لأَكَلَ قَوِيُّ الناسِ ضعيفَهم . ولهذا جاء فى بعضِ الآثارِ : « السُّلطانُ ظِلُّ اللَّهِ فى أرضِه »[4] . وقال أميرُ المؤمنين عثمانُ بنُ عفّانَ : إنَّ اللَّهَ لَيَزَعُ بالسُّلطانِ ما لا يَزَعُ بالقرآنِ[5] . وقد ذَكَرَ ابنُ جريرٍ فى « تاريخِه »[6] : أنَّ جالوتَ لمَّا بارزَ طالوتَ ، فقال له : اخرُجْ إلىَّ أو أخرُجُ إليك . فندب طالوتُ الناسَ ، فانْتَدَبَ داودُ ، فَقَتَلَ جالوتَ . قال وهبُ بنُ مُنَبِّهٍ : فمال الناسُ إلى داودَ ، حتى لم يكُنْ لطالوتَ ذِكْرٌ ، وخلعُوا طالوتَ وولَّوْا عليهم داودَ . وقيل : إنَّ [١/٢١٨و] ذلك عن أمرِ شمويلَ ، حتى قال بعضُهم : إنَّه ولَّاه قبلَ الوَقْعَةِ .

قال ابنُ جريرٍ[7] : والذى عليه الجمهورُ ، أنه إنما وَلِىَ المُلْكَ[8] ، بعدَ قَتْلِ

---

(١) فى ح ، م ، ص : « خير » .
(٢) زيادة من : الأصل .
(٣) التفسير ١/ ٤٤٧.
(٤) أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة (١٠١٧، ١٠٢٤) . وهو عن أبى بكرة عن النبى ﷺ. وقال الألبانى : حديث حسن .
(٥) ذكر السيوطى فى الدر المنثور ١٩٩/٤ نحوه من قول عمر بن الخطاب ، وعزاه للخطيب البغدادى . وذكره المصنف فى تفسيره ١٠٩/٥ مرفوعًا .
(٦) ١/ ٤٧٨.
(٧) فى تاريخه ١/ ٤٧٨.
(٨) فى ح ، م : « ذلك » .

جالوتَ . واللَّهُ أعلمُ . (1) وروى ابنُ عساكرَ(2) ، عن سعيدِ بن عبدِ العزيزِ : أن قَتْلَه جالوتَ كان عندَ قصرِ أمِّ حكيمٍ ، وأنَّ النهرَ الذى هناك هو المذكورُ فى الآيةِ . فاللَّهُ أعلمُ(1) .

وقال تعالى(3) : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سبأ: 10، 11].

وقال تعالى(4) : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ۝٧٩ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: 79، 80]. أعانه اللَّهُ على عَمَلِ الدُّروعِ من الحديدِ ؛ ليُحصِنَ المُقاتِلَةَ من الأعداءِ ، وأرْشَدَه إلى صَنْعَتِها وكَيْفِيَّتِها ، فقال : ﴿ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ﴾ . أى ؛ لا تُدِقَّ(5) المِسمارَ فيَقْلَقَ(6) ، ولا تُغَلِّظْه فيَفْصِمَ . قاله مجاهدٌ ، وقتادةُ ، والحكَمُ ، وعِكْرِمَةُ ، وغيرُهم(7) . قال الحسنُ البصرىُّ ، وقتادةُ ، والأعمشُ : كان اللَّهُ قد ألانَ له الحديدَ حتى كان يَفْتِلُه بيدِه ، لا يحتاجُ إلى نارٍ ولا مِطْرَقَةٍ . قال قَتادَةُ : فكان أوَّلَ مَن عَمِلَ الدُّروعَ مِن زَرَدٍ(8) ،

(1 - 1) سقط من : الأصل.

(2) فى تاريخ دمشق 17/ 80.

(3) التفسير 6/ 485، 486.

(4) التفسير 5/ 352.

(5) فى الأصل : « ترق » . وتدق أى لا تجعله دقيقا رقيقا .

(6) فى الأصل : « فيفلق » . وفى ح : « مبعلق » . وفى م : « فيغلق » . وما أثبتناه هو الموافق للمعنى ، ولما أورده ابن كثير فى التفسير . ويقلق : يتقلقل ويتحرك ويكون غير ثابت .

(7) سقط من : ح ، م . وانظر التفسير 6/ 486.

(8) الزرد : حِلَق المِغْفَر والدِّرع .

وإنما كانت قبلَ ذلك صفائحَ. قال ابنُ شَوْذَبٍ: كان يعملُ كلَّ يومٍ دِرْعًا يبيعُها بستَّةِ آلافِ دِرْهَمٍ.

وقد ثَبَتَ في الحديثِ الصحيحِ[1]: «إنَّ أطْيَبَ ما أكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ، وإنَّ نبيَّ اللَّهِ دَاوُدَ كان يأْكُلُ مِن كَسْبِ يَدِهِ».

وقال تعالى[2]: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٧ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٩ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص: ١٧- ٢٠]. قال ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ: الأَيْدُ: القوةُ في الطاعةِ. يعني: كان[3] ذا قوَّةٍ في العبادةِ والعملِ الصالحِ. قال قتادةُ: أُعْطِيَ قوةً في العبادةِ وفِقْهًا في الإسلامِ. قال: وقد ذُكِرَ لنا أنه كان يقومُ الليلَ ويصومُ نصفَ الدهرِ.

وقد ثَبَتَ في «الصحيحَيْنِ»[4]، أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «أَحَبُّ الصَّلَاةِ إلى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ، وأَحَبُّ الصِّيامِ إلى اللَّهِ صِيامُ دَاوُدَ؛ كانَ يَنامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، ويَقُومُ ثُلُثَه، ويَنامُ سُدُسَهُ، وكان يَصُومُ يَوْمًا ويُفْطِرُ يَوْمًا، ولا يَفِرُّ إذا لَاقَى». وقولُه: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾، كما قال: ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ﴾ أي؛

---

(١) سقط من: ح، م.
والحديث أخرجه البخارى (٢٠٧٢) بلفظ: «ما أكل أحدٌ طعامًا قطُّ خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبيَّ اللَّه داودَ - عليه السلام - كان يأكل من عمل يده».
(٢) التفسير ٤٩/٧ - ٥١.
(٣) سقط من: ح، م.
(٤) فى مواضع متعددة، وأقربها إلى لفظ المصنف: البخارى (١١٣١، ٣٤١٩، ٣٤٢٠). مسلم (١١٥٩).

سَبِّحِى معه . قاله ابنُ عباسٍ ومجاهدٌ وغيرُ واحدٍ فى تفسيرِ هذه الآيةِ ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾ ؛ أى عندَ آخرِ النهارِ وأوَّلِه ؛ وذلك أنه كان اللَّهُ تعالى قد وَهَبَه من الصوتِ [١/٢١٨ظ] العظيمِ ما لم يُعْطِه أحدًا ، بحيثُ إنه كان إذا ترَنَّمَ بقراءةِ كتابِه ، يَقِفُ الطيرُ فى الهواءِ ، يُرَجِّعُ بترْجِيعِه ويُسَبِّحُ بتسبيحِهِ ، وكذلك الجبالُ تُجيبُه وتُسَبِّحُ معه كلَّما سَبَّحَ بُكْرَةً وعَشِيًّا ، صَلَواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه . وقال الأوْزَاعِىُّ : حدَّثنى عبدُ اللَّهِ بنُ عامرٍ قال : أُعْطِىَ داودُ من حُسْنِ الصوتِ ما لم يُعْطَ أحدٌ قَطُّ ؛ حتى إنْ كان الطيرُ والوحشُ لَيَعْكُفُ[(١)] حولَه حتى يموتَ عَطَشًا وجُوعًا ، وحتى إنَّ الأنهارَ لَتَقِفُ . وقال وهبُ بنُ مُنَبِّهٍ : كان لا يَسْمَعُه أحدٌ إلَّا حَجَلَ كهيئةِ الرَّقْصِ ، وكان يَقرأُ الزَّبُورَ بصوتٍ لم تَسْمَعِ الآذانُ بمثْلِه ، فيَعْكُفُ الجِنُّ والإنسُ والطيرُ[(٢)] والدَّوابُّ على صوتِه حتى يَهْلِكَ بعضُها جُوعًا .

وقال أبو عَوَانَةَ الإِسْفِرايِينىُّ[(٣)] : حَدَّثَنا أبو بكرٍ ابنُ أبى الدُّنْيا ، حدَّثنا محمدُ ابنُ منصورٍ الطُّوسِىُّ ، سَمِعتُ صُبَيْحًا[(٤)] أبا تُرابٍ . « ح »[(٥)] ، قال أبو[(٦)] عَوَانَةَ : وحدَّثنى أبو العبَّاسِ المُرِّىُّ[(٧)] ، حدثنا محمدُ بنُ صالحٍ العَدَوِىُّ ، حدثنا سَيَّارٌ[(٨)] ، هو ابنُ[(٩)] حاتمٍ ، عن جعفرٍ ، عن مالكٍ قال : كان داودُ ، عليه السَّلامُ ، إذا أَخَذَ

---

(١) فى ح ، م ، ص : « ينعكف » .
(٢) ليست فى : ح .
(٣) تاريخ دمشق ١٧/ ١٠٠.
(٤) سقط من : الأصل .
(٥) فى م : « أنبئنا براد » . و« ح » معناها تحويل الإسناد .
(٦) فى ص : « ابن » .
(٧) فى النسخ : « المدنى » . والمثبت من تاريخ دمشق .
(٨) فى ص : « سنان » .
(٩) فى ص : « أبو » .

فى قراءةِ الزَّبُورِ، تَفَتَّقَتِ[1] الْعَذَارَى. وهذا غريبٌ. وقال عبدُ الرزاقِ[2]، عن ابنِ جُرَيْجٍ: سألتُ عطاءً عن القراءةِ على الغناءِ، فقال: وما بأسٌ بذلك؟ سمعتُ عُبَيْدَ بنَ عُمَيْرٍ[3] يقول: كان داودُ، عليه السلامُ، يأخذُ المِعْزَفَةَ[4]، فيَضْرِبُ بها، فيقرأُ عليها، فتَرُدُّ عليه صوتَهُ؛ يريدُ بذلك أن يَبْكِيَ ويُبْكِيَ.

وقال الإمامُ أحمدُ[5]: حدَّثنا عبدُ الرَّزَّاقِ، حدَّثنا مَعْمَرٌ، عن الزُّهْرِيِّ، عن عُرْوَةَ، عن عائشةَ قالت: سَمِعَ رسولُ اللَّهِ ﷺ صوتَ أبى موسى الأَشْعَرِيِّ وهو يقرأُ، فقال: «لَقَدْ أُوتِيَ أبو مُوسَى مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ». وهذا على شرطِ الشيخَيْنِ، ولم يُخْرِجاه مِن هذا الوجهِ.

وقال أحمدُ[6]: حدَّثنا [7]حسنٌ، حدَّثنا حمَّادُ[7] بنُ سَلَمَةَ، عن محمدِ بنِ عَمْرٍو[8]، عن أبى سَلَمَة، عن أبى هُرَيْرَةَ، أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «لَقَدْ أُعْطِيَ أبو مُوسَى مِن مَزَامِيرِ دَاوُدَ». على شرطِ مسلمٍ.

وقد رُوِّينا عن أبى عُثمانَ النَّهْدِيِّ[9]، أنَّه قال: لَقَدْ سَمِعْتُ

---

(١) أي: ظهرت وبرزت، يقال: أفتقَ القمرُ. إذا برز بين سحابتين سوداوين. «اللسان» (ف ت ق).
(٢) مصنف عبد الرزاق ٢/ ٤٨١. ومن طريقه ابن عساكر ١٧/ ١٠١.
(٣) فى م: «عمر».
(٤) فى ح: «الغرفة». وفى م: «العزفة». وفى ص: «المغرفة».
(٥) أحمد فى المسند ٦/ ١٦٧.
(٦) أحمد فى المسند ٢/ ٣٥٤. قال الهيثمى فى المجمع ٩/ ٣٥٩: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن عمرو وهو حسن الحديث.
(٧ - ٧) فى ص: «حسن بن حماد».
(٨) فى م: «عمر».
(٩) فى ح، م: «الترمذى».

الْبَرْبَطَ[1] والمِزْمَارَ، فما سَمِعْتُ صَوْتًا أحْسَنَ مِنْ صَوْتِ أبى مُوسَى الأشْعَرِىِّ.

وقد كان مع هذا الصوتِ الرَّخِيمِ، سريعَ القراءةِ لكتابِهِ الزَّبُورِ، كما قال الإمامُ أحمدُ[2]: حدَّثنا عبدُ الرَّزَّاقِ، حدَّثنا مَعْمَرٌ، عن همامٍ، عن أبى هُرَيرةَ قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ القِرَاءَةُ، فكانَ يَأْمُرُ بِدَابَّتِهِ فَتُسْرَجُ، فَكَانَ يَقْرَأُ القُرْآنَ مِن قَبْلِ أن تُسْرَجَ دَابَّتُهُ، وكان لا يَأْكُلُ إلَّا مِن عَمَلِ يدَيْهِ».

وكذلك رواه البخارىُّ[3] مُنْفَرِدًا به عن عبدِ اللَّهِ بنِ محمدٍ، عن عبدِ الرَّزَّاقِ به، [١/٢١٩و] ولفظُه «خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ القُرآنُ، فكانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِّهِ فَتُسْرَجُ، فَيَقْرَأُ القُرآنَ قَبْلَ أن تُسْرَجَ دَوَابُّهُ، ولا يَأْكُلُ إلَّا مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ». ثم قال البخارىُّ: ورواه موسى بنُ عُقْبَةَ[4]، عن صَفْوانَ - هو ابنُ سُلَيْمٍ[5] - عن عطاءِ بنِ يَسَارٍ، عن أبى هُرَيْرَةَ، عن النبىِّ ﷺ. وقد أسْنَدَهُ ابنُ عساكرَ فى ترجمةِ داودَ، عليه السَّلامُ، فى «تاريخِه»[6] من طرقٍ عن إبراهيمَ بنِ طَهْمَانَ، عن موسى بنِ عُقْبَةَ، ومن طريقِ أبى عاصمٍ، عن أبى بكرٍ السَّبْرِىِّ، عن صَفْوَانَ بنِ سُليمٍ به.

والمرادُ بالقرآنِ هـهنا الزَّبُورُ الذى أنزلَهُ اللَّهُ[7] عليه وأوحاه إليه. وذِكْرُ

---

(١) البَرْبَط: العُود؛ من آلات الموسيقى.
(٢) أحمد فى المسند ٢/ ٣١٤. (صحيح).
(٣) البخارى (٣٤١٧).
(٤) فى ص: «عيينة».
(٥) فى الأصل: «سلم».
(٦) تاريخ دمشق ١٧/ ٨٩، ٩٠.
(٧) زيادة من: الأصل.

دَوَابِّهِ[1] أشبهُ أن يكونَ محفوظًا ؛ فإنه كان مَلِكًا له أتباعٌ ، فكان يَقرأُ الزَّبُورَ بمقدارِ ما تُسْرَجُ الدَّوابُّ ، وهذا أمرٌ سريعٌ مع التَّدَبُّرِ والتَّرَنُّمِ والتَّغَنِّى به على وَجْهِ التَّخَشُّعِ ، صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه . وقد قال اللَّهُ تعالى[2] : ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [النساء: ١٦٣] . والزبورُ كتابٌ مشهورٌ، وذَكَرْنا فى « التفسيرِ » الحديثَ الذى رواه أحمدُ[3] وغيرُه[4] ، أنه أُنْزِلَ فى شهرِ رمضانَ ، وفيه مِن المواعظِ والحِكَمِ ما هو مشهورٌ[5] معروفٌ لمن نَظَرَ فيه .

وقوله تعالى[6] : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص: ٢٠] . أى ؛ أعْطَيْناه مُلْكًا عظيمًا وحُكْمًا نافِذًا . روَى ابنُ جريرٍ وابنُ أبى حاتمٍ[7] ، عن ابنِ عباسٍ ، أن رَجُلَيْنِ تَداعَيا إلى داودَ ، عليه السَّلامُ ، فى بَقَرٍ ، ادَّعَى[8] أحدُهما على الآخَرِ أنه اغتصبَها منه ، فأنكرَ المُدَّعَى عليه[9] ، فأَرْجَأَ أمرَهما إلى الليلِ ، فلمَّا كان الليلُ ، أوحَى اللَّهُ إليه أن يَقْتُلَ المُدَّعِيَ ، فلمَّا أصبحَ قال له داودُ : إنَّ اللَّهَ قد أوحَى إلىَّ أن أَقْتُلَكَ ، فأنا قاتِلُكَ لا مَحالَةَ ، فما خَبَرُك فيما ادَّعَيْتَه على هذا؟ قال : واللَّهِ يا نبىَّ اللَّهِ ، إنِّى لَمُحِقٌّ فيما ادَّعَيْتُ عليه ،

---

(١) فى م ، ص : « رواية » .
(٢) التفسير ٢/ ٤٢٢.
(٣) فى المسند ٤/ ١٠٧. عن واثلة بن الأسقع، وليس فيه ذكر « الزبور » وكذا فى جامع المسانيد للمصنف ١٢/ ٣٤١. وحسّنه الألبانى فى الصحيحة (١٥٧٥) . أما الذى فيه لفظ « الزبور » فهو فى الأسماء والصفات للبيهقى ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، من طريق عمران به .
(٤) سقط من : الأصل.
(٥) زيادة من : الأصل.
(٦) التفسير ٧/ ٥٠، ٥١.
(٧) ابن جرير فى تفسيره ٢٣/ ١٣٨، ١٣٩. الدر المنثور ٥/ ٢٩٩، ٣٠٠. وعزاه لابن أبى حاتم.
(٨) فى الأصل : « ادعاها » .
(٩) سقط من : ح .

ولكنّى كنتُ اغْتَلْتُ أباه قبلَ هذا فقَتَلْتُهُ[1] . فأمرَ به داودُ فقُتِلَ ؛ فَعَظُمَ أمرُ داودَ في بنى إسْرائيلَ جِدًّا ، وخضعُوا له خُضُوعًا عظيمًا . قال ابنُ عباسٍ : فهو قولُه تعالى : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ ﴾ . وقولُه تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ ، أى ؛ النُّبُوَّةَ . ﴿ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ ، قال شُرَيْحٌ ، والشَّعْبِيُّ ، وقَتادَةُ ، وأبو عبدِ الرحمنِ السُّلَمِيُّ ، وغيرُهم ﴿ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ : الشُّهُودُ والأيمانُ . يَعْنُون بذلك البيِّنَةُ على المُدَّعِي ، واليمينُ على مَنْ أنْكَرَ . وقال مجاهدٌ والسُّدِّىُّ : هو إصابةُ القضاءِ وفَهْمُه . وقال مجاهدٌ : هو الفَصْلُ فى الكلامِ وفى الحُكْمِ . واختارَه ابنُ جريرٍ . وهذا لا يُنافِى ما رُوِىَ عن أبى موسى ، أنه قَوْلُ : أمّا بَعْدُ . وقال وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ : لَمَّا كَثُر الشَّرُّ وشَهاداتُ الزُّورِ فى بنى إسْرائيلَ ، أُعْطِىَ داودُ سلسلةً [٢١٩/١ظ] لفَصْلِ القضاءِ ، فكانت ممدودةً من السماءِ إلى صخْرةِ بيتِ المقدسِ ، وكانت مِن ذَهَبٍ ، فإذا تشاجرَ الرجُلانِ فى حقٍّ ، فأيُّهما كان مُحِقًّا نالَها ، والآخرُ لا يَصِلُ إليها ، فلم تَزَلْ كذلك حتى أَوْدَعَ رجلٌ رجلًا لؤلؤةً ، فجَحَدَها منه ، واتَّخَذَ عُكَّازًا وأوْدَعَها فيه ، فلمَّا حَضَرَا عند السّلسِلةِ[2] ، تناولَها المُدَّعِى ، فلمَّا قيلَ للآخرِ : خُذْها بيدِكَ . عَمَدَ إلى العُكّازِ ، فأعطاه المُدَّعِىَ ، وفيه تلك اللُّؤْلؤةُ ، وقال : اللَّهمَّ إنك تعلمُ أنّى دفعتُها إليه . ثم تناولَ السّلسِلةَ فنالَها ، فأشْكَلَ أمرُها على بنى إسْرائيلَ ، ثم رُفِعَتْ سريعًا من بينِهم[3] . ذَكَرَه بمعناه غيرُ واحدٍ من المفسّرين . وقد رواه إسحاقُ بنُ بشرٍ ، عن إدريسَ بنِ سِنانٍ[4] ، عن وهبٍ به بمعناه .

---

(١) زيادة من : الأصل .
(٢) فى ح ، م ، ص : « الصخرة » .
(٣) ذكره الثعلبى فى عرائس المجالس ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، بنحوها ص ٢٤٦ .
(٤) فى الأصل : « يسار » .

قال تعالى[1] : ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [ص: ٢١- ٢٥].

وقد ذَكَرَ كثيرٌ من المُفسِّرينَ، من السَّلَفِ والخَلَفِ، هاهنا قَصَصًا وأخبارًا أكثرُهَا إسرائيليّاتٌ، ومنها ما هو مَكْذُوبٌ لا مَحالةَ، تَرَكْنا إيرادَها فى كتابِنا قَصْدًا؛ اكْتِفَاءً واقْتِصارًا على مُجَرَّدِ تِلاوةِ القِصَّةِ من القُرْآنِ العَظِيمِ، واللَّهُ يَهْدِى مَن يَشاءُ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ.

وقد اختلفَ الأئمةُ فى سَجْدَةِ «ص»؛ هل هى مِن عَزائِمِ السُّجودِ، أو إنَّما هى سَجْدَةُ شُكْرٍ ليستْ مِن عزائمِ السُّجودِ؟ على قَوْلَيْنِ.

قال البُخارِىُّ[2] : حدثنا محمدُ بنُ عبدِ اللَّهِ، حَدَّثَنا محمدُ بنُ عُبَيْدٍ الطَّنَافِسِىُّ، عن العَوَّامِ قال: سألْتُ مجاهدًا عن سَجْدَةِ «ص»، فقال: سألْتُ ابنَ عباسٍ: من أين سَجَدْتَ؟ فقال: أَوَ ما تَقرأُ: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ ﴾ [الأنعام: ٨٤]، ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ ﴾

---

(١) التفسير ٧/٥١ - ٥٤.
(٢) البخارى (٣٤٢١).

[الأنعام: ٩٠]، فكان داودُ ممَّن أُمِرَ نبيُّكُمْ ﷺ أن يَقْتَدِىَ بِهِ، فَسَجَدَها داودُ عليه السلامُ؛ فسجدَها رسولُ اللَّهِ ﷺ.

وقد قال الإمامُ أحمدُ[(١)] : حدَّثنا إسماعيلُ، هو ابنُ عُلَيَّةَ، عن أيوبَ، عن عِكْرِمَةَ، عن ابنِ عباسٍ أنه قال فى السجودِ فى «ص»: ليستْ مِن عزائمِ السُّجُودِ، وقد رَأَيْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ، يَسْجُدُ فيها. وكذا رواه البخارىُّ، وأبو داودَ [١/٢٢٠و]، والتِّرمِذِىُّ، والنَّسائِىُّ[(٢)]، مِن حديثِ أيوبَ، وقال التِّرمِذِىُّ: حسنٌ صحيحٌ.

وقال النَّسائِىُّ[(٣)] : أخبَرَنى إبراهيمُ بنُ الحسنِ المِقْسَمِىُّ[(٤)]، حدَّثنا حجَّاجُ بنُ محمدٍ، عن عُمَرَ بنِ ذَرٍّ، عن أبيه، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ، عن ابنِ عباسٍ، أن النبىَّ ﷺ سَجَدَ فى «ص»، وقال: «سَجَدَهَا دَاوُدُ تَوْبَةً، ونَسْجُدُهَا شُكْرًا». تفرَّدَ به أحمدُ[(٥)] ورجالُه ثِقاتٌ.

وقال أبو داودَ: حَدَّثَنا أحمدُ بنُ صالحٍ، حدَّثنا ابنُ وَهْبٍ، أخبرنى عمرُو ابنُ الحارثِ، عن سعيدِ بنِ أبى هِلالٍ، عن عِيَاضِ بنِ[(٦)] عبدِ اللَّهِ بنِ سعدِ بنِ أبى سَرْحٍ، عن أبى سعيدِ الخُدْرِىِّ قال: قرأ رسولُ اللَّهِ ﷺ وهو على المِنْبَرِ «ص»، فلمَّا بلَغ السَّجْدَةَ، نزلَ فسَجَدَ وسجدَ الناسُ معه، فلمَّا كان يومٌ آخرُ

---

(١) فى المسند ١/ ٣٦٠. (إسناده صحيح).
(٢) البخارى (٣٤٢٢). وأبو داود (١٤٠٩). والترمذى (٥٧٧). والنسائى فى الكبرى (١١١٧٠).
(٣) النسائى (٩٥٦). وفى الكبرى (١١٤٣٨).
(٤) فى الأصل: «المعنمى». وفى ص: «المسمى».
(٥) زيادة من: «م». والمقصود به أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن على النسائى.
(٦) فى الأصل: «عن».

قرأها ، فلمَّا بَلَغَ السَّجْدةَ تَشَزَّنَ[1] الناسُ للسجودِ ، فقال : « إِنَّمَا هِيَ تَوْبَةُ نَبِيٍّ ، ولكِنْ رَأَيْتُكُمْ تَشَزَّنْتُم[2] » . فَنَزَلَ وسَجَدَ . تفرَّدَ به أبو داودَ ، وإسنادُه على شَرْطِ الصحيحِ[3] .

وقال الإمامُ أحمدُ[4] : حدَّثنا عفَّانُ ، حدَّثنا يَزِيدُ بنُ زُرَيْعٍ ، حدثنا حُمَيْدٌ ، حدَّثنا بَكْرٌ ، هو ابنُ عمرَ ، وأبو الصِّدِّيقِ النَّاجِيُّ ، أنه أخْبَرَه أن أبا سعيدٍ الخُدْرِيَّ رأى رُؤْيا ، أنه يَكْتُبُ « ص » ، فلمَّا بلَغَ إلى التي يَسْجُدُ بها ، رأى الدَّوَاةَ والقَلَمَ وكلَّ شيْءٍ بِحَضْرَتِه انقلبَ ساجدًا . قال : فقصَّها على النبيِّ ﷺ ، فلم يَزَلْ يَسْجُدُ بها بَعْدُ . تَفَرَّدَ به أحمدُ .

وروَى التِّرمِذِيُّ ، وابنُ ماجَه[5] ، من حديثِ محمدِ بنِ يَزِيدَ [6] بنِ خُنَيْسٍ [6] ، عن الحسنِ بنِ محمدِ بنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بنِ أبي يَزِيدَ ، قال : قال لي[7] ابنُ جُرَيْجٍ : حَدَّثني جَدُّكَ عبيدُ اللَّهِ بنُ أبي يَزِيدَ ، عن ابنِ عباسٍ قال : جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال : يارسولَ اللَّهِ ، إنِّي رَأَيْتُ فيما يَرَى النائمُ كأني أُصَلِّي خلفَ شَجَرَةٍ ، فقرأْتُ السَّجْدَةَ فسجدتُ[8] ، فَسَجَدَتِ الشجرةُ لسُجُودِي[9] ، فسَمِعْتُها تقولُ وهي ساجدةٌ : اللَّهُمَّ اكْتُبْ لي بِهَا عِنْدَكَ أَجْرًا ، واجْعَلْهَا لي

---

(١) في ح ، م : «تشرف» . والتشزن : التأهب والتهيؤ للشيء ، والاستعداد له . النهاية (ش ز ن) .

(٢) في ح ، م : « تشرفتم » .

(٣) أبو داود (١٤١٠) . صحيح (صحيح أبي داود ١٢٥٣) .

(٤) أحمد في المسند ٣/ ٧٨.

(٥) الترمذي (٥٧٩) . وابن ماجه (١٠٥٣) . حسن (صحيح الترمذي ٤٧٣) .

(٦ - ٦) في الأصل : « ابن حبيس » . وفي ص : « وحسن » .

(٧) في الأصل ، ص : « عبد » .

(٨) سقط من : ح ، م .

(٩) في ح ، م : « بسجودي » .

عِنْدَكَ ذُخْرًا ، وضَعْ عَنِّى بها وِزْرًا ، واقْبَلْهَا مِنِّى كما قَبِلْتَ من عَبْدِكَ داوُدَ . قال ابنُ عباسٍ : فرَأَيْتُ النبيَّ ﷺ قَامَ فَقَرَأَ السَّجْدَةَ ثُمَّ سَجَدَ ، فَسَمِعْتُه يقولُ وهو ساجدٌ كما حَكَى الرجلُ عن كلامِ الشَّجَرَةِ . ثم قال التِّرمِذِىُّ : غريبٌ لا نَعْرِفُه إلَّا مِن هذا الوَجْهِ .

وقد ذَكَرَ بعضُ المُفسِّرين : أنه ، عليه السَّلامُ ، مَكَثَ ساجِدًا أربعينَ يومًا . وقاله مجاهدٌ والحسنُ وغيرُهما[1] . ووَرَدَ فى ذلك حديثٌ مرفوعٌ ، لكنَّه من روايةِ يزيدَ الرَّقَاشِىِّ ، وهو ضعيفٌ متروكُ الرِّوايةِ[2] .

قال اللَّهُ تعالى : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [ص : ٢٥] . أى ؛ وإنَّ له يومَ القيامةِ لزُلْفَى ، وهى القُرْبَةُ التى يُقَرِّبُه اللَّهُ بها ويُدْنِيهِ مِن [١/٢٢٠ظ] حَظِيرَةِ قُدُسِه بسببِها ، كما ثَبَتَ فى الحديثِ[3] : « المُقْسِطُونَ عَلَى مَنَابِرَ مِن نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ ، الَّذِينَ يُقْسِطُونَ فى أَهْلِيهِمْ وحُكْمِهِمْ وما وَلُوا » .

وقال الإمامُ أحمدُ فى « مسنده »[4] : حَدَّثنا يَحْيَى بنُ آدمَ ، حدَّثنا فُضَيْلٌ ، عن عَطِيَّةَ ، عن أبى سعيدٍ الخُدْرِىِّ . قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وأَقْرَبَهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا ، إِمَامٌ عَادِلٌ ، وإِنَّ أَبْغَضَ النَّاسِ

---

(١) تفسير الطبرى ١٤٨/٢٣ - ١٥٠.

(٢) فى ح : « البداية » .

والحديث رواه ابن جرير فى تفسيره ٢٣/ ١٥٠، ١٥١، وقال السيوطى فى الدر المنثور ٥/ ٣٠٠: بسند ضعيف .

(٣) فى م : « حديث » . والحديث أخرجه مسلم (١٨٢٧) .

(٤) المسند ٣/ ٢٢.

إِلَى اللَّهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وأَشَدَّهُمْ عَذَابًا، إِمَامٌ جَائِرٌ». وهكذا رواه التِّرْمِذِيُّ[1] من حديثِ فُضَيْلِ بنِ مَرْزُوقٍ الأَغَرِّ به، وقال: لا نَعْرِفُه مرفوعًا إلَّا مِن هذا الوجهِ.

وقال ابنُ أبى حاتمٍ[2]: حدَّثنا أبو زُرْعَةَ، حدَّثَنا عبدُ اللَّهِ بنُ أبى زِيَادٍ، حدَّثنا سَيَّارٌ، حدثنا جَعْفَرُ بنُ سُليمانَ، سَمِعْتُ مالكَ بنَ دِينَارٍ فى قولِه: ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ قال: يُقامُ[3] داودُ، عليه السَّلامُ، يومَ القيامةِ عندَ ساقِ العَرْشِ، فيقولُ اللَّهُ: يا دَاوُدُ، مَجِّدْنى اليَوْمَ بذلكَ الصَّوْتِ الحَسَنِ الرَّخِيمِ، الذى كُنْتَ تُمَجِّدُنى به[4] فى الدُّنْيا. فيقولُ: وكيف وقد سُلِبْتُه؟ فيقولُ: إنِّى أَرُدُّه عليكَ اليَوْمَ. قال: فيَرْفَعُ دَاودُ بصوتٍ يَسْتَفْرِغُ نعيمَ أهلِ الجِنانِ.

(5)قوله تعالى(5): ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦]. هذا خطابٌ من اللَّهِ تعالى مع داودَ، والمرادُ: وُلاةُ الأمورِ وحُكَّامُ الناسِ، وأَمْرُهم بالعدْلِ واتِّباعِ الحَقِّ المُنَزَّلِ من اللَّهِ لا ما سواه من الآراءِ والأَهْواءِ، وتَوَعُّدُ مَن سَلَكَ غيرَ ذلك وحَكَمَ بغيرِ ذلك، وقد كان داودُ، عليه السَّلامُ، هو المُقْتَدَى به فى ذلك الزَّمانِ، فى

---

(١) الترمذى (١٣٢٩). ضعيف. (ضعيف الترمذى ٢٢٥). وانظر (السلسلة الضعيفة ١١٥٦).
(٢) التفسير ٧/ ٥٤. وذكره فى الدر المنثور ٣٠٥/٥ وعزاه إلى ابن أبى حاتم.
(٣) فى ح، ص: «مقام». وفى م: «يقوم».
(٤) فى ص: «تحمدنى».
(٥ - ٥) سقط من: ح، م، ص. وانظر التفسير ٧/ ٥٤.

العَدْلِ وكثْرةِ العبادةِ وأنواعِ القُرُباتِ، حتى إنه كان لا تَمْضِى ساعةٌ من آناءِ الليلِ وأطرافِ النهارِ، إلَّا وأهلُ بيتِه فى عبادةٍ ليلًا ونَهارًا، كما قال تعالى[(1)]: ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣]. قال أبو بكرٍ ابنُ أبى الدُّنيا[(2)]: حدَّثنا إسماعيلُ بنُ إبراهيمَ بنِ بَسَّامٍ، حدَّثنا صالحٌ المُرِّىُّ[(3)]، عن أبى[(4)] عِمْرانَ الجَوْنِىِّ، عن أبى الجَلْدِ[(5)] قال: قَرَأْتُ فى مسألةِ داودَ، عليه السَّلامُ، أنه قال: يا ربِّ، كيف لى أنْ أشْكُرَك وأنا لا أَصِلُ إلى شُكْرِك إلا بنِعمتِك؟ قال: فأتاه الوَحْىُ: أن يا داودُ، أليس تَعلمُ أنَّ الذى بك من النِّعَمِ منِّى؟ قال: بلى يا ربِّ. قال: فإنِّى أَرْضَى بذلك منك.

وقال البَيْهَقِىُّ[(6)]: أخبرنا أبو عبدِ اللَّهِ الحافظُ، أنبأنا أبو بكرِ بنُ بالَوَيْهِ، حَدَّثَنا محمدُ بنُ يونسَ القُرَشِىُّ، حدَّثنا رَوْحُ بنُ عُبادَةَ، حدَّثنى عبدُ اللَّهِ بنُ لاحِقٍ، عن ابنِ شِهَابٍ قال: [١/٢٢١و] قال داودُ: الحمدُ للَّهِ كما يَنْبَغِى لكَرَمِ وَجْهِهِ وَعِزِّ جلالِه. فأَوْحَى اللَّهُ إليه: إنكَ أَتْعَبْتَ الحَفَظَةَ يا داودُ. ورواه أبو بَكْرٍ ابنُ أبى الدُّنْيا[(7)]، عن عَلِىِّ بنِ الجعْدِ، عن الثَّوْرِىِّ مِثْلَه.

وقال عبدُ اللَّهِ بنُ المُبارَكِ فى كتابِ «الزُّهْدِ»[(8)]: أنبأَنا سُفيانُ الثَّوْرِىُّ، عن

---

(١) التفسير ٦/ ٤٨٨، ٤٨٩.
(٢) أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر ص ٧.
(٣) فى م: «المزى».
(٤) سقط من: الأصل.
(٥) فى ح: «الجلل».
(٦) فى شعب الإيمان (٤٤١٦).
(٧) أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر ص ١٩.
(٨) الزهد لابن المبارك (٣١٣).

رجلٍ، عن وَهْبِ بنِ مُنبِّهٍ قال: إنَّ في حِكْمَةِ آلِ داودَ: حقٌّ على العاقِلِ أن لا يَغْفُلَ عن أَرْبَعِ ساعاتٍ؛ ساعةٌ يُناجِي فيها ربَّه، وساعةٌ[1] يُحاسِبُ فيها نفْسَه، وساعةٌ يُفْضِي فيها إلى إخوانِه الذين يُخْبِرُونه بعُيُوبِه ويَصْدُقُونه عن نفسِه، وساعةٌ يُخَلِّي[2] بين نَفْسِه وبين لَذَّاتِها فيما يَحِلُّ وَيَجْمُلُ؛ فإنَّ هذه الساعةَ عَوْنٌ على هذه الساعاتِ وإجْمامٌ للقلوبِ، وحقٌّ على العاقِلِ أن يَعْرِفَ زَمانَه، ويَحفظَ لسانَه، ويُقْبِلَ على شأنِه، وحقٌّ على العاقِلِ أن لا يَظْعَنَ إلَّا في إحدى ثلاثٍ: زادٌ لمَعادِه، ومَرَمَّةٌ[3] لمعاشِه، ولَذَّةٌ في غيرِ مُحَرَّمٍ.

وقد رَواه أبو بكرٍ ابنُ أبي الدُّنْيا[4]، عن أبي بكرِ بنِ أبي خَيْثَمَةَ[5]، عن ابنِ مَهْدِيٍّ، عن سُفيانَ عن أبي[6] الأَغَرِّ، عن وَهْبِ بنِ مُنبِّهٍ، فذَكَرَه. ورَواه أيضًا عن عليِّ بنِ الجَعْدِ، عن عُمَرَ بنِ الهَيْثَمِ الرَّقَاشِيِّ، عن أبي الأَغَرِّ، عن وَهْبِ بنِ مُنبِّهٍ، فذَكَرَه. وأبو الأَغَرِّ هذا، هو الذي أبْهَمَه[7] ابنُ المباركِ في روايتِه. قاله ابنُ عساكرَ[8].

وقال عبدُ الرَّزَّاقِ[9]: أنبأَنا بِشْرُ بنُ رافعٍ، حَدَّثنا شيخٌ من أهلِ صَنْعاءَ، يُقالُ له: أبو عبدِ اللهِ. قال: سَمِعْتُ وَهْبَ بنَ مُنبِّهٍ، فذَكَرَ مِثْلَه.

---

(١) سقط من: ص.
(٢) في الأصل: «يخلوا».
(٣) في ص: «مرة». والمَرَمَّة: متاع البيت.
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت مختصرا حديث رقم (٣١).
(٥) في ص: «حتمة».
(٦) في ص: «ابن».
(٧) في الأصل: «اتهمه».
(٨) لعله في الجزء الذي سقط من تاريخ ابن عساكر، راجع تاريخ دمشق ١٠٩/١٧ حاشية ٣.
(٩) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ٢١/١١، ٢٢، رقم (١٩٧٩٠).

(1) وقد رَوَى الحافظُ ابنُ عساكرَ[2] فى ترجمةِ داودَ، عليه السَّلامُ، أشياءَ كثيرةً مَليحةً، منها قولُه: كُنْ لليتيمِ كالأبِ الرَّحيمِ، واعلمْ أنك كما تَزرعُ كذلك تَحصُدُ. ورُوِىَ بسندٍ غريبٍ مرفوعًا، قال داودُ: يا زارِعَ السَّيئاتِ، أنت تَحصُدُ شَوْكَها وحَسَكَها[3]. وعن داودَ، عليه السَّلامُ، أنَّه قال[4]: مَثَلُ الخَطِيبِ الأحمَقِ فى نادِى القومِ، كَمَثَلِ المُغَنِّى عندَ رأسِ الميِّتِ. وقال أيضًا: ما أقْبَحَ الفقرَ بعدَ الغِنَى، وأقبحُ من ذلك الضَّلالةُ بعدَ الهُدَى. وقال: انْظُرْ ما تَكْرهُ أن يُذْكَرَ عنك فى نادِى القومِ، فلا تَفْعَلْه إذا خَلَوْتَ. وقال: لا تَعِدَنَّ أخاك بما لا تُنْجِزهُ له. فإن ذلك عداوةُ ما بينَك وبينَه (1).

وقال محمدُ بنُ سعدٍ[5]: أنبأنا محمدُ بنُ عُمَرَ الواقِدِىُّ، حَدَّثنى هِشامُ بنُ سَعدٍ، عن عُمَرَ مَوْلَى غُفْرةَ[6]، قال: قالتْ يَهُودُ لَمَّا رَأَتْ رسولَ اللَّه ﷺ يَتَزَوَّجُ النساءَ: انْظُروا إلى هذا الذى لا يَشْبَعُ مِنَ الطعامِ، ولا واللَّهِ ما له هِمَّةٌ إلَّا إلى النِّساءِ. حَسَدُوه لكثرةِ نسائِه، وعابُوه بذلك، فقالُوا: لو كان نبيًّا ما رَغِبَ فى النِّساءِ. وكان أشدَّهم فى ذلك حُيَىُّ بنُ أَخْطَبَ، فأكْذَبَهمُ اللَّهُ، وأخبَرَهم بفضلِ اللَّهِ وسَعَتِه على نبيِّه، صَلَواتُ اللَّهِ عليه وسلامُه، فقال[7]: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء: ٥٤]. يَعْنِى بالناسِ:

(١ - ١) سقط من: الأصل.

(٢) لعله فى الجزء الذى سقط من تاريخ ابن عساكر، راجع تاريخ دمشق ١٠٩/١٧ حاشية ٣.

(٣) فى ص: «وعسكها». والحَسَك: نباتٌ له ثمرة خشنة تعلق بأصواف الغنم. اللسان (ح س ك).

(٤) أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف ٢٠٣/١٣ .

(٥) أخرجه ابن سعد فى الطبقات ٢٠٢/٨ .

(٦) فى النسخ: «عفرة». والصحيح ما أثبتناه: غُفْرة؛ بضم المعجمة وسكون الفاء. انظر التقريب ٢/ ٥٩.

(٧) فى ص: «عليه». وانظر التفسير ٢/ ٢٩٥، ٢٩٦.

رسولَ اللَّهِ ﷺ ﴿ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾[النساء: ٥٤]. يَعْنى ما آتى اللَّهُ سُليمانَ بنَ داودَ، كانت له ألفُ امرأةٍ؛ سبعُمائةِ مَهيرَةٍ[1] وثلثُمائةِ سُرِّيَّةٍ. وكانت لداودَ، عليه السَّلامُ، مائةُ امرأةٍ، منهنَّ امرأةُ أوريا أُمُّ سُليمانَ بنِ داودَ، التى تزوَّجها بعدَ الفتنةِ، هذا أكثَرُ مِمَّا لمحمدٍ ﷺ. وقد ذَكَر الكَلْبِىُّ نحوَ هذا، وأنه كان لداودَ، عليه السلامُ، مائةُ امرأةٍ، ولسليمانَ ألفُ امرأةٍ، منهنَّ ثلثُمائةِ سُرِّيَّةٍ.

(٢) ورَوَى الحافظُ فى «تاريخِه»[3]، فى ترجمةِ صَدَقَةَ الدِّمَشْقِىِّ الذى يَرْوِى عن ابنِ عباسٍ، من طريقِ الفرَجِ (٢) (٤) بنِ فَضَالةَ الحِمْصِىِّ، عن أبى هُرَيْرَةَ الحِمْصِىِّ، عن صَدَقَةَ الدِّمَشْقِىِّ، أن رجلًا سأل ابنَ عباسٍ عن الصِّيامِ فقال: لَأُحَدِّثَنَّكَ بحديثٍ كان عِندِى فى التَّخْتِ[5] مَخْزُونًا، إن شئتَ أنبأْتُك بصومِ داودَ؛ فإنَّه كانَ صَوَّامًا قوَّامًا، وكان شُجَاعًا لا يَفِرُّ إذا لاقَى، وكان يصومُ يومًا ويُفْطِرُ يَوْمًا، وقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْضَلُ الصِّيامِ صِيَامُ دَاوُدَ». وَكَانَ يَقْرَأُ الزَّبُورَ بِسَبْعِينَ صَوْتًا يُلَوِّنُ فِيهَا، وَكَانَتْ لَهُ رَكْعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ يُبْكِى فِيهَا نَفْسَه، ويَبْكِى بِبُكَائِهِ كُلُّ شَىْءٍ، ويَطْرَبُ بصوتِه المَهمومُ والمحمومُ. وإن شئتَ أنبأْتُك بصومِ ابنِه سُليمانَ؛ فإنَّه كان يصومُ من أوَّلِ الشهرِ ثلاثةَ أيَّامٍ، ومن وَسَطِه ثلاثةَ أيامٍ، ومن آخِرِه ثلاثةَ أيامٍ، يَسْتَفْتِحُ الشهرَ بصيامٍ ووَسَطَه بصيامٍ ويَخْتِمُه (٤)

---

(١) فى م: «مهرية». والمهيرة: الحرَّة. اللسان (م هـ ر).

(٢ - ٢) سقط من: الأصل، ص.

(٣) تاريخ دمشق ٢٤/ ٤٧.

(٤ - ٤) سقط من: الأصل، ص.

(٥) فى م: «البحث». والتخت: وعاء تُصان فيه الثياب. اللسان (ت خ ت).

(1) بصيامٍ. وإن شئتَ أنبأتُكَ بصومِ ابنِ العذْراءِ البتُولِ عيسَى ابنِ مريمَ؛ فإنَّه كانَ يَصومُ الدَّهرَ ويأكُلُ الشَّعيرَ ويَلْبَسُ الشَّعرَ، يأكُلُ ما وَجَدَ ولا يَسألُ عمَّا فَقَد، ليس له ولدٌ يموتُ ولا بيتٌ يَخرَبُ، وكان أينَما أَدْرَكَه الليلُ (2) صفَنَ بينَ قَدميْه (2) وقام يُصلِّي حتى يُصْبِحَ، وكان راميًا لا يَفُوتُه صَيْدٌ يُرِيدُه، وكان يَمُرُّ بمجالسِ بنى إسرائيلَ فيَقْضِى لهم حَوائِجَهم. وإن شئتَ أنبأتُكَ بصومِ أُمِّه مريمَ بنتِ عِمْرانَ؛ فإنَّها كانتْ تصومُ يومًا وتُفطِرُ يومَيْنِ. وإن شئتَ أنبأتُكَ بصومِ النبيِّ العَرَبيِّ الأُمِّيِّ محمدٍ ﷺ؛ فإنَّه كان يَصومُ من كلِّ شهرٍ ثلاثةَ أيامٍ ويقولُ: «إنَّ ذلك صومُ الدَّهرِ». (1)

وقد رَوَى [نَحْوَهُ] (3) الإمامُ أحمدُ (4)، عن أبى النَّضْرِ، عن فَرَجِ بنِ فَضَالَةَ، عن أبى هَرِمٍ (5)، عن صَدَقَةَ، عن ابنِ عباسٍ مرفوعًا فى صومِ داودَ (1).

(1 - 1) سقط من: الأصل، ص.
(2 - 2) فى الأصل، ص: «صفق بيديه». وصفن الرجل: صفَّ قدميه، وكل صاف قدميه قائمًا فهو صافن. «اللسان» (ص ف ن).
(3) زيادة ليستقيم المعنى. وفى م بياض.
(4) المسند 1/ 314. (ضعيف).
(5) كذا فى النسخ، وفى المطبوع من المسند. والصواب أبو هريرة الحمصى، كما نص على ذلك الحافظ ابن عساكر فى تاريخ دمشق 24/ 46. والحافظ ابن حجر فى تعجيل المنفعة 186، 187، 524، 525. وانظر كلام الشيخ أحمد شاكر فى تعليقه على الحديث فى المسند (2878).

[١/٢٢١ظ] ذِكْرُ(١) كَمِّيَّةِ حياتِه وَكَيْفِيَّةِ وفاتِهِ، عليه السَّلامُ

قد تقدَّم في ذِكْرِ الأحاديثِ الواردةِ في خَلْقِ آدمَ، أنَّ اللَّهَ لَمَّا استخرجَ ذُرِّيَّته من ظَهْرِه، فرأَى فيهمُ الأنبياءَ، عليهم السَّلامُ، ورأى فيهم رَجُلًا يَزْهَرُ، فقال: «أَيْ ربِّ، مَنْ هذا؟ قال: هذا ابنُك داودُ، قال: أيْ ربِّ، كم عُمُرُه؟ قال: ستون عامًا. قال: أيْ رَبِّ، زِدْ في عُمُرِه. قال: لا، إلَّا أن أَزِيدَه مِن عُمُرِكَ. وكان عُمُرُ آدمَ ألفَ عامٍ، فزادَه أربعين عامًا، فلمَّا انْقَضَى عمرُ آدمَ جاءَه مَلَكُ الموتِ، فقال: بَقِيَ مِن عُمُرِي أربعون سنةً. ونَسِيَ آدمُ ما كان وَهَبَه لولدِه داودَ، فأَتَمَّها اللَّهُ لآدمَ ألفَ سنةٍ، ولداودَ مائةَ سنةٍ». رواه أحمدُ عن ابنِ عباسٍ(٢)، والتِّرْمِذِيُّ وصحَّحه عن أبي هريرةَ، وابنُ خُزَيمة، وابنُ حِبَّانَ، وقال الحاكمُ: على شَرْطِ مسلمٍ. وقد تقدَّم ذِكْرُ طرقِه وألفاظِه في قصةِ آدمَ(٣). قال ابنُ جريرٍ(٤): وقد زَعَمَ بعضُ(٥) أهلِ الكتابِ أن عُمُرَ داودَ كان سبعًا وسبعين سنةً. قُلْتُ: هذا غَلَطٌ مردودٌ عليهم. قالوا: وكان مدةُ مُلْكِه أربعين سنةً. وهذا قد يُقْبلُ نَقْلُه؛ لأنه ليس عندَنا ما يُنافِيه ولا ما يَقْتضِيه.

---

(١) سقط من: م.
(٢) تقدم تخريجه في ١/٢٠٧ بنحوه.
(٣) تقدم تخريجه في ١/٢٠٥ - ٢٠٨.
(٤) في تاريخه ١/ ٤٨٥.
(٥) سقط من: الأصل.

وأمَّا وفاتُه، عليه السلامُ، فقال الإمامُ أحمدُ فى «مسندِه»[(1)]: حدَّثَنا قُتَيبةُ[(2)]، حدَّثنا يعقوبُ بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ محمدٍ، عن[(3)] عمرِو بنِ أبى عمرٍو، عن المُطَّلِبِ، عن أبى هُريرةَ، أن رسولَ اللَّهِ ﷺ، قال: «كَانَ دَاوُدُ النَّبِيُّ فيه غَيْرَةٌ شَدِيدَةٌ، وكان إِذَا خَرَجَ أُغْلِقَتِ الأَبْوَابُ، فَلَمْ يَدْخُلْ عَلَى أَهْلِهِ أَحَدٌ حَتَّى يَرْجِعَ»، قال: «فَخَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ وَغُلِّقَتِ الدّارُ، فأَقْبَلَتِ امْرَأَتُه تَطَّلِعُ إِلَى الدّارِ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ وَسَطَ الدّارِ، فَقَالَتْ لِمَنْ فِى البَيْتِ: مِنْ أَيْنَ دَخَلَ هَذَا الرَّجُلُ وَالدّارُ مُغْلَقَةٌ؟ واللَّهِ لَتُفْتَضَحُنَّ[(4)] بِدَاوُدَ. فجاءَ دَاوُدُ، فإِذَا الرَّجُلُ قَائِمٌ وَسطَ الدّارِ، فقالَ لَهُ دَاوُدُ: مَنْ أَنْتَ؟ قال: أَنَا الَّذِى لَا أَهَابُ المُلُوكَ وَلَا يَمْتَنِعُ مِنِّى شىءٌ. فَقَالَ دَاوُدُ: أَنْتَ وَاللَّهِ[(5)] مَلَكُ المَوْتِ، فمَرْحَبًا بِأَمْرِ اللَّهِ. فَرَمَلَ دَاوُدُ مَكَانَهُ حيثُ قُبِضَتْ رُوحُه، حتَّى فُرِغَ مِنْ شَأْنِه، وطَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ، فقَالَ سُلَيْمَانُ للطَّيْرِ: أَظِلِّى عَلَى دَاوُدَ. [(6)]فَأَظَلَّتْ عليه[(6)] الطَّيْرُ حَتَّى أَظْلَمَتْ عَلَيْهِما الأَرْضُ، فقالَ لها سُلَيمانُ: اقْبِضِى جَنَاحًا جَنَاحًا[(7)]». قَالَ أبو هريرةَ: يُرِينا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كيف فَعَلَتِ الطيرُ. وقَبَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بيده[(8)]، «وغَلَبَتْ عليه [1/ 222و] [(9)]يومَئِذٍ المَضْرَحِيَّةُ[(9)]». انْفَرَدَ بإخراجِه الإمامُ أحمدُ، وإسنادُه جَيِّدٌ

---

(1) أحمد فى المسند 2/ 419.
(2) فى م: «قبيصة».
(3) فى الأصل، م: «بن».
(4) فى النسخ: «لتفتضحن».
(5) فى النسخ: «والله إذن».
(6 - 6) فى الأصل، ح: «فأظلت عليهم». وفى م: «فأظلته».
(7) سقط من: م.
(8) فى ص: «بيديه».
(9 - 9) فى ص: «المضرحية يومئذ». وفى المسند: «يومئذ المصرحية»؛ بالصاد بدل الضاد، وقد أثبتنا ما فى النسخ «المضرحية»؛ لأنه الموافق لما ذكره ابن كثير بعد ذلك.

قَوِىٌّ ؛ رجالُه ثِقاتٌ . ومعنى قولِهِ : « وغلبتْ عليه يومئذٍ المَضْرَحِيَّةُ » ؛ أىْ : وغَلَبَتْ على التَّظْلِيلِ عليه [1]المضرحيَّةُ ، وهى[1] الصُّقُورُ الطِّوالُ الأَجْنِحَةِ ، واحِدُها مَضْرَحِىٌّ ، قال الجَوْهَرِىُّ : وهو الصَّقْرُ الطَّوِيلُ الجَنَاحِ . وقال السُّدِّىُّ عن أبى مالكٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، قال : ماتَ دَاوُدُ ، عليه السلامُ ، فجأةً ، وكان يُسْبِتُ ، وكانتِ الطيرُ تُظِلُّه . وقال السُّدِّىُّ أيضًا عن أبى مالكٍ ، وعن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ ، قال : ماتَ داودُ ، عليه السلامُ ، يومَ السَّبْتِ فجأةً . وقال إسحاقُ بنُ بِشْرٍ ، عن سعيدِ بنِ أبى عَرُوبَةَ ، عن قتادةَ ، عن الحسنِ ، قال : مات داودُ ، عليه السَّلامُ ، وهو ابنُ مائةِ سنةٍ ، وماتَ يومَ الأَرْبعاءِ فجأةً . وقال أبو السَّكَنِ الهَجَرِىُّ : مات إبراهيمُ الخليلُ فَجْأَةً ، وداودُ فَجْأَةً ، وابْنُه سُليمانُ فجأةً ، صَلَواتُ اللَّهِ وسلامُه عليهم أجمعين . رواهُ ابنُ عساكرَ[2] . ورَوى عن بعضِهم : أن مَلَكَ الموتِ جاءه وهو نازلٌ من مِحْرابِه ، فقال له : دَعْنِى أَنْزِلُ أو أَصْعَدُ . فقال : يا نَبِىَّ اللَّهِ ، قد نَفِدَتِ السِّنونَ والشهورُ والآثارُ والأَرْزاقُ . قال : فخرَّ سَاجِدًا على مَرْقاةٍ من تلك المَرَاقِى ، فَقَبَضَه وهو ساجدٌ . وقال إسحاقُ بنُ بشرٍ : أنبأنا وافرُ بنُ سليمانَ ، عن أبى سليمانَ الفِلَسْطِينِىِّ ، عن وَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ قال : إن الناسَ حَضَرُوا جِنازةَ داودَ ، عليه السلامُ ، فجلسوا فى الشمسِ فى يومٍ صائفٍ . قال : وكان قد شَيَّعَ جِنازَتَه يومئذٍ أربعون ألفَ راهبٍ ، عليهم البَرَانِسُ ، سِوَى غيرِهم من الناسِ ، ولم يَمُتْ فى بنى إسرائيلَ - بعدَ موسى وهارونَ - أحدٌ كانت بنو إسرائيلَ أشدَّ جَزَعًا عليه منهم على داودَ . قال :

(١- ١) سقط من : م .

(٢) لم نجده فى تاريخ دمشق ، ولعله فى الجزء الساقط منه . وهو فى مختصره ٨/ ١٤٠ .

فآذاهم الحرُّ فنادَوْا سليمانَ ، عليه السلامُ ، أن (١ يَعْجَلَ عليهم ١) ؛ لما أصابَهم من الحَرِّ ، فخرجَ سليمانُ فنادَى الطيرَ فأجابتْ ، فأمَرَها فأظَلَّتِ الناسَ . قال : فتراصَّ بعضُها إلى بعضٍ من كلِّ وَجْهٍ ، حتى استَمْسَكَتِ الريحُ ، فكاد الناسُ أن يَهْلِكُوا غَمًّا ، فصاحُوا إلى سليمانَ ، عليه السَّلامُ ، من الغَمِّ ، فخرجَ سليمانُ فنادَى الطَّيْرَ ؛ أن أَظِلِّى الناسَ من ناحيةِ الشمسِ ، وتَنَحَّىْ عن ناحيةِ الرِّيحِ . ففعلتْ ، فكان الناسُ فى ظِلٍّ وتَهُبُّ عليهم الريحُ ، فكان ذلك مِنْ أولِ ما رَأَوْا من مُلْكِ سليمانَ[٢] .

وقال الحافظُ أبو يَعْلَى[٣] : حَدَّثنا أبو هَمَّامٍ الوليدُ بنُ شُجَاعٍ ، حدَّثنى الوليدُ ابنُ مسلمٍ ، عن الهَيْثَمِ بنِ[٤] حُمَيْدٍ ، عن الوَضِينِ[٥] بنِ عَطاءٍ ، عن نصرِ بنِ عَلْقَمَةَ ، عن جُبَيْرِ بنِ نُفَيْرٍ[٦] ، عن أبى الدَّرْدَاءِ قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « لقد قَبَضَ اللَّهُ دَاودَ مِن بينِ أصحابِه ما فُتِنُوا ولا بَدَّلوا ، ولقد مَكَثَ أصحابُ المسيحِ على سُنَّتِهِ وهَدْيِهِ مائَتَىْ سنةٍ » . هذا حديثٌ غريبٌ ، وفى [١/٢٢٢ظ] رَفْعِه نَظَرٌ ، والوضينُ بنُ عطاءٍ كان ضعيفًا فى الحديثِ . واللَّهُ أعلمُ .

(١ - ١) فى م : « يعمل لهم وقاية » .
(٢) مختصر تاريخ دمشق ٨/ ١٤٠ - ١٤١ .
(٣) رواه ابن حبان (الإحسان ٦٢٣٦) من طريق أبى يعلى . وإسناده ضعيف .
(٤) فى ص : « عن » .
(٥) فى الأصل : « الوصبر » .
(٦) فى الأصل : « لقنن » .

قصَّةُ سليمـــانَ بنِ داودَ ، عليهمـــا السَّــلامُ

قال الحافظُ ابنُ عساكرَ[1] : هو سليمانُ بنُ داودَ بنِ إيشا بنِ عُوَيدَ بنِ باعزَ[2] بنِ سلمونَ بنِ نحشونَ[3] بنِ عميناذب بنِ إرمَ بنِ حصرون[4] ، بنِ فارصَ بنِ يهودا بنِ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ ، أبو الرَّبيعِ ، نبيُّ اللَّهِ ، ابنُ نبيِّ اللَّهِ .

جاء في بعضِ الآثارِ أنه دَخَلَ دِمَشْقَ . قال ابن مَاكُولَا[5] : فارصُ ؛ بالصادِ المهملةِ . وذَكَرَ نَسَبَهُ قريبًا ممَّا ذَكَرَه ابنُ عساكرَ . قال اللَّهُ تعالى[6] : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النمل: ١٦] . أى : وَرِثَه فى النُّبُوَّةِ والمُلْكِ . وليس المرادُ : وِرَاثَةَ[7] المالِ ؛ لأنه قد كان له بَنُونَ غيرُه ، فما كان لِيُخَصَّ بالمالِ دونَهم . ولأنه قد ثَبَت فى « الصِّحَاحِ »[8] من غيرِ وَجْهٍ ، عن جماعةٍ من الصَّحابةِ ، أن

---

(١) فى تاريخ دمشق ٢٢/ ٢٣٠.

(٢) فى م : « عابر » . وفى تاريخ دمشق : « ناعر » .

(٣) فى ح : « تحشون » . وفى تاريخ دمشق : « يخشون » .

(٤) فى تاريخ دمشق : « خضرون » .

(٥) فى الإكمال ٧/ ٥٢.

(٦) التفسير ٦/ ١٩٢، ١٩٣.

(٧) فى م : « ورثه فى » .

(٨) البخارى (٣٠٩٣، ٣٧١٢، ٤٠٣٦، ٤٢٤٠، ٤٢٤١) ، ومسلم (١٧٥٩) من حديث أبى بكر الصديق . ورواه البخارى (٣٠٩٤، ٤٤٠٣) ، ومسلم (١٧٥٧) من حديث عمر بن الخطاب . =

رسولَ اللَّهِ ﷺ، قال: «لَا نُورَثُ، ما تَرَكْنَا فهو صَدَقَةٌ». وفى لفظٍ[1]: «إنَّا[2] مَعَاشِرَ الأنبياءِ لا نُورَثُ». فأخبرَ الصادقُ المصدوقُ أن الأنبياءَ لا تُورَثُ أموالُهم عنهم كما يُورَثُ غيرُهم، بل تكونُ أموالُهم صدقةً من بعدِهم على الفقراءِ والمَحَاوِيجِ، لا يَخُصُّونَ بها أَقْرِباءَهم؛ لأن الدنيا كانتْ أَهْوَنَ عليهم وأحقرَ عندَهم من ذلك، كما هى عندَ الذى أَرْسَلَهُمْ واصْطَفَاهم وفضَّلَهم. وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ ﴾؛ يَعْنِى أنه، عليه السلامُ، كان يعرِفُ ما تَتَخَاطَبُ به الطُّيورُ بِلُغَاتِها، ويُعَبِّرُ للناسِ عن مقاصِدِها وإراداتِها.

وقد قال الحافظُ أبو بكرٍ البَيْهَقِيُّ: أنبأنا أبو عبدِ اللَّهِ الحافظُ، أنبأنا علىُّ بن حَمْشَاذَ[3]، حَدَّثَنا إسماعيلُ بنُ قُتَيْبَةَ، حدَّثنا علىُّ بنُ قُدَامةَ، حدَّثنا أبو جعفرٍ الأُسْوَانِىُّ - يَعْنِى محمدَ بنَ عبدِ الرحمنِ - عن[4] يعقوبَ القُمِّىِّ[5]، حَدَّثنى أبو مالكٍ، قال: مرَّ سُليمانُ بنُ دَاودَ بعُصْفُورٍ يدورُ حولَ عصفورةٍ، فقال لأصحابِه: أَتَدْرُون ما يقولُ؟ قالوا: وما يقولُ يا نبىَّ اللَّهِ؟ قال: يخطُبُها إلى نفسِه، ويقولُ: زَوِّجِينِى أُسْكِنْكِ أَىَّ غُرَفِ دِمَشْقَ شِئْتِ. قال سليمانُ، عليه السلامُ: لأن غُرَفَ دِمَشْقَ مَبْنِيَّةٌ بالصَّخْرِ لا يَقْدِرُ أن يَسْكُنَها أحدٌ، ولكنْ كلُّ

= ورواه مسلم (١٧٦١) من حديث أبى هريرة.

(١) أخرجه أحمد فى المسند ٢/ ٤٦٣، وابن عبد البر فى التمهيد ٨/ ١٧٥. من حديث أبى هريرة.

(٢) فى النسخ: «نحن». والمثبت من المسند والتمهيد.

(٣) فى ح، م، ص: «حشاد». وفى تاريخ دمشق: «حمشاد». والمثبت من مصادر ترجمته: السير ١٥/ ٣٩٨. ومرآة الجنان ٢/ ٣٢٧. وانظر الأنساب ٢/ ٢٦٢.

(٤) بعد هذا فى م، ص: «أبى».

(٥) فى م، ص: «العمى».

خاطبٍ كذَّابٌ. (١) رواه ابنُ عساكرَ(٢) عن أبى القاسمِ زاهرِ بنِ طاهرٍ، عن البَيْهَقِيِّ به(١). وكذلك ما عداها من الحيواناتِ وسائرِ صُنُوفِ المخلوقاتِ؛ والدليلُ على هذا قولُه بعدَ هذا من الآياتِ: ﴿ وَأُوتِينَا [٢٢٣/١و] مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أىْ؛ مِن كلِّ ما يَحتاجُ المَلِكُ إليه؛ من العُدَدِ، والآلاتِ، والجُنُودِ، والجُيوشِ، والجماعاتِ، من الجنِّ، والإنسِ، والطيورِ، والوحوشِ، والشياطينِ السّارِحاتِ، والعلومِ والفُهومِ، والتعبيرِ عن ضمائرِ المخلوقاتِ من النّاطقاتِ والصّامتاتِ. ثم قال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾، أى؛ مِن بارئِ البَرِيّاتِ وخالقِ الأرضِ والسمواتِ، كما قال تعالى(٣): ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل: ١٧- ١٩]. يُخْبِرُ تعالى عن عبدِه ونبيِّه وابنِ نبيِّه سُلَيْمانَ ابنِ داودَ، عليهما الصلاةُ والسلامُ، أنَّه رَكِبَ يومًا فى جَيْشِه جميعِه من الجنِّ والإنسِ والطَّيرِ؛ (٤) فالجنُّ والإنسُ(٤) يَسِيرون معه، والطَّيرُ سائرةٌ معه تُظِلُّه بأجنحتِها من الحرِّ وغيرِه، وعلى كلٍّ من هذه الجيوشِ الثلاثةِ وَزَعَةٌ(٥)؛ أىْ

(١- ١) سقط من: ص.

(٢) تاريخ دمشق ٢٢/ ٢٣٢.

(٣) التفسير ٦/ ١٩٣، ١٩٤.

(٤- ٤) سقط من: الأصل.

(٥) فى ح: «ورعة». والوَزَعَة: جمع وازِعٍ، وهو الحابس العَسْكر الموكَّل بالصفوف، يتقدَّم الصفَّ فيُصلحه، ويقدِّم ويؤخِّر. اللسان (و ز ع).

نُقَباءُ يَرُدُّون أَوَّلَه على آخِرِه ، فلا يتقدَّمُ أحدٌ عن موضعِه الذى يَسِيرُ فيه ولا يتأخَّرُ عنه ، قال اللَّهُ تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ فأَمَرَتْ ، وَحَذَّرَتْ ، واعْتَذَرَتْ عن سليمانَ وجنودِه بعَدَمِ الشُّعورِ . وقد ذَكَرَ وَهْبٌ أنَّه مرَّ وهو على البِسَاطِ بوادٍ بالطائفِ ، وأن هذه النملةَ كان اسمُها « جرسَ » ، وكانت مِن قبيلةٍ يُقالُ لهم : بنو الشَّيْصَبانِ ، وكانت عَرْجَاءَ ، وكانتْ بقَدْرِ الذِّئْبِ . وفى هذا كلِّه نظرٌ ، بل فى هذا السِّياقِ دليلٌ على أنَّه كان فى مَوْكِبِه راكبًا فى خُيولِه وفرسانِه ، لا كما زَعَمَ بعضُهم من أنَّه كان إذ ذاك على البِسَاطِ ؛ لأنه لو كان كذلك لم يَنَلِ النملَ منه شَىْءٌ ولا وَطْءٌ ؛ لأنَّ البِسَاطَ كان عليه جميعُ ما يَحتاجُون إليه مِن الجُيوشِ والخُيولِ والجِمالِ والأَثْقالِ والخيامِ والأنْعامِ ، والطَّيْرُ مِن فوقِ ذلك كلِّه ، كما سنُبيِّنُه بعدَ ذلك ، إن شاء اللَّهُ تعالى .

والمقصودُ أن سليمانَ ، عليه السَّلامُ ، فَهِمَ ما خاطبَتْ به تلك النملةُ لِأُمَّتِها من الرَّأْيِ السَّدِيدِ والأمرِ الحميدِ ، وتبسَّمَ من ذلك على وَجْهِ الاستبشارِ والفَرَحِ والسُّرورِ بما أَطْلَعَه اللَّهُ عليه دونَ غيرِه ، وليس كما يقولُه بعضُ الجَهَلَةِ ، من أن الدَّوَابَّ كانت تَنْطِقُ قبلَ سليمانَ ، وتُخاطِبُ [١/٢٢٣ظ] الناسَ ، حتى أَخَذَ عليهم سليمانُ بنُ داودَ العهدَ وأَلْجَمَها ، فلم تَتَكَلَّمْ مع الناسِ بعدَ ذلك ، فإن هذا لا يقولُه إلَّا الذين لا يعلمون ، ولو كان هذا هكذا لم يَكُنْ لسليمانَ فى فَهْمِ لُغاتِها مَزِيَّةٌ على غيرِه ؛ إذ كان الناسُ كلُّهم يَفْهَمُون ذلك ، ولو كان قد أَخَذَ عليها العهدَ أن لا تتكلَّمَ مع غيرِه ، وكان هو يَفْهَمُها ، لم يكنْ فى هذا

أيضًا فائدةٌ يُعَوَّلُ عليها، ولهذا قال: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ ﴾ أي؛ أَلْهِمْنى وأَرْشِدْنى، ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾، فطَلَبَ من اللَّهِ أن يُقَيِّضَه للشكرِ على ما أنعمَ به عليه، وعلى ما خصَّه به من المَزِيَّةِ على غيرِه، وأن يُيَسِّرَ عليه العملَ الصَّالحَ، وأن يَحْشُرَه إذا تَوَفَّاه مع عبادِه الصالحين، وقد استجابَ اللَّهُ تعالى له. والمرادُ بوالدَيْه داودُ، عليه السَّلامُ، وأمُّه، وكانت من العابداتِ الصالحاتِ كما قال سُنَيْدُ بنُ داودَ، عن يوسفَ بنِ محمدِ بنِ المُنْكَدِرِ، عن أبيه، عن جابرٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «قَالَتْ أُمُّ سُلَيْمانَ بنِ دَاوُدَ: يا بُنَيَّ لَا تُكْثِرِ النَّوْمَ باللَّيْلِ؛ فإِنَّ كَثْرَةَ النَّوْمِ باللَّيْلِ تَدَعُ العَبْدَ فَقِيرًا يَوْمَ القِيامَةِ». رواه ابنُ ماجَهْ[1] عن أربعةٍ من مشايخِه، عنه به نحوَه. [2]وقال عبدُ الرَّزَّاقِ[3]، عن مَعْمَرٍ، عن الزُّهْرِيِّ: إنَّ سُليمانَ بنَ داودَ، عليه السَّلامُ، خَرَج هو وأصحابُه يَسْتَسْقُون، فرأَى نملةً قائمةً رافعةً إحدى قوائِمِها تَسْتَسْقِى، فقال لأصحابه: ارْجِعُوا فقد سُقِيتُمْ، إنَّ هذه النَّملةَ اسْتَسْقَتْ فاستُجِيبَ لها. قال ابنُ عساكرَ[4]: وقد رُوِى مرفوعًا ولم يُذْكَرْ فيه سليمانُ. ثم ساقَه[5] من طريقِ محمدِ بن عُزَيْزٍ، عن سَلَامَةَ بنِ رَوْحِ بنِ خالدٍ، عن عُقَيْلٍ، عن ابنِ شِهَابٍ، حدَّثنى أبو سَلَمَةَ، عن أبى هُريرةَ، أنَّه سَمِعَ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: «خَرَجَ نَبِيٌّ من الأَنْبِياءِ بِالنَّاسِ يَسْتَسْقُونَ اللَّهَ، فإذا هُمْ بِنَمْلَةٍ رَافِعَةٍ بَعْضَ قَوائِمِها إلى[2]

---

(١) ابن ماجه (١٣٣٢). (ضعيف ابن ماجه ٢٧٩).

(٢ - ٢) سقط من: الأصل، ص.

(٣) تاريخ دمشق ٢٢/ ٢٨٨.

(٤) تاريخ دمشق ٢٢/ ٢٨٨.

(٥) تاريخ دمشق ٢٢/ ٢٨٨. والحاكم ١/ ٣٢٥، ٣٢٦.

(1) السَّماءِ فَقالَ النَّبِيُّ : ارْجِعُوا فَقَدِ اسْتُجِيبَ لَكُمْ مِنْ أَجْلِ هَذِهِ النَّمْلَةِ » . وقال السُّدِّيُّ : أصابَ الناسَ قَحْطٌ على عهدِ سُليمانَ ، عليه السلامُ ، فأمَرَ الناسَ فَخَرَجُوا ، فإذا بنملةٍ قائمةٍ على رِجْلَيْها ، باسطةٍ يَدَيْها وهى تقولُ : اللَّهُمَّ إنّا خَلْقٌ مِن خَلْقِك ، ولا غَناءَ بنا عن فَضْلِك . قال : فصبَّ اللَّهُ عليهم المطرَ (1) .

قال تعالى[2] : ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ

(1- 1) سقط من : الأصل ، ص .

(2) التفسير 6/ 195- 200.

﴿ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا [٢٢٤/١و] جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَـٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَـٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ [النمل: ٢٠- ٣٧]. يَذْكُرُ تعالى ما كان من أمرِ سُليمانَ والهُدْهُدِ ؛ وذلك أنَّ الطيورَ كان على كلِّ صِنْفٍ منها مُقَدَّمون يَقُومُون بما يُطْلَبُ منهم ، ويَحضُرُون عندَه بالنَّوْبَةِ ، كما هى عادةُ الجنودِ مع الملُوكِ ، وكانت وظيفةُ الهدهدِ على ما ذَكَرَه ابنُ عباسٍ وغيرُه[1] ، أنهم كانوا إذا أعْوَزُوا الماءَ فى القِفَارِ ، فى حالِ الأسْفارِ ، يَجِيءُ فيَنْظُرُ لهم هل بهذه البِقاعِ مِن ماءٍ ، وفيه من القُوَّةِ التى أودَعَها اللَّهُ تعالى فيه ، أن يَنظُرَ إلى الماءِ تحتَ تُخُومِ الأرضِ ، فإذا دَلَّهم عليه ، حَفَرُوا عنه واستَنْبَطُوه وأَخْرَجُوه ، واسْتَعْمَلُوه لحاجَتِهم ، فلمَّا تَطَلَّبه سُليمانُ ، عليه السَّلامُ ، ذاتَ يومٍ ، فَقَدَه ولم يَجِدْه فى مَوْضِعِه من مَحَلِّ خِدْمَتِه ﴿ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾ أى ؛ ما لَه ، أمفقودٌ[2] مِن ههنا ، أوْ قد غابَ عن بَصَرِى ، فلا أراه بحَضْرَتى ؟ ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ ، تَوَعَّدَه بنَوْعٍ من العذابِ اخْتَلَفَ المُفسِّرون فيه ، والمقصودُ حاصِلٌ على كلِّ تَقْدِيرٍ . ﴿ أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ أىْ ؛ بحُجَّةٍ تُنْجِيه مِن هذه الوَرْطَةِ . قال اللَّهُ تعالى : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أىْ ؛ فغابَ الهُدْهُدُ غَيْبَةً ليست بطويلةٍ ، ثم قَدِمَ منها ﴿ فَقَالَ ﴾ لسليمانَ : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾ أى ؛ اطَّلَعْتُ على ما لم تَطَّلِعْ عليه . ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ أى ؛ بخبرٍ صادقٍ . ﴿ إِنِّى

---

(١) انظر تفسير الطبرى ١٤٣/١٩، بسياقات مختلفة.

(٢) فى م: « مفقود ».

﴿وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾. يذكُرُ ما كان عليه مُلوكُ سبأٍ فى بلادِ اليمنِ مِنَ المملكةِ العظيمةِ والتَّبابِعَةِ[(١)] المتوَّجِين، وكان المُلْكُ قد آلَ فى ذلك الزمانِ إلى امرأةٍ منهم ابنةِ مَلِكِهم، لم يُخْلِفْ غيرَها، فمَلَّكُوها عليهم.

وذَكَرَ الثَّعْلَبِيُّ وغيرُه[(٢)]، أن قومَها ملَّكُوا عليهم بعدَ أبيها رجُلًا، فعمَّ به الفسادُ، فأَرسلَتْ إليه تَخْطُبُه فتَزَوَّجَها، فلمَّا دَخلَتْ عليه سَقَتْه خمرًا، ثُمَّ حَزَّتْ رأسَه ونَصَبَتْه على بابِها، فأَقبلَ الناسُ عليها ومَلَّكُوها عليهم. وهى بَلْقِيسُ بنتُ البشرخِ[(٣)]، وهو الْهَدْهَاذُ. وقيل: شَراحِيلُ بنُ ذِى جَدَنٍ بنِ البشرخِ بنِ الحارثِ بنِ قَيْسِ بنِ صَيْفِيِّ بنِ سَبَأِ بنِ يَشْجُبَ بنِ يَعْرُبَ بنِ قَحْطانَ. وكان أبوها من أكابرِ الملوكِ، وكان (٤)قد تَأَبَّى(٤) أن يَتزوَّجَ مِن أهلِ اليمنِ، فيُقالُ: إنَّه تَزَوَّجَ بامرأةٍ مِن الجِنِّ، اسمُها رَيْحانةُ بنتُ الشَّكرِ، فولَدَتْ له هذه المرأةَ واسمُها بَلْعَمَةُ[(٥)]، ويُقالُ لها: بَلْقِيسُ.

وقد رَوَى الثَّعْلَبِيُّ[(٦)] مِن طريقِ سعيدِ بنِ بَشِيرٍ[(٧)]، عن قتادةَ، عن [١/ ٢٢٤ظ] النَّضْرِ بنِ أنسٍ، عن بَشِيرِ بنِ نَهِيكٍ، عن أبى هُريرةَ عن النبىِّ ﷺ، أنَّه

---

(١) فى ص: «والتابعة».
(٢) فى عرائس المجالس ٢٧٨، ٢٧٩ مطولًا. وانظر الكامل لابن الأثير ١/ ٢٣٠- ٢٣٣.
(٣) فى الأصل، ص: «الشيرح». وفى ح، م: «السيرح». والمثبت هنا من عرائس المجالس، وكذا بقية الأسماء التالية.
(٤ - ٤) فى م: «يأبى».
(٥) فى النسخ: «تلقمة».
(٦) فى عرائس المجالس ٢٧٨ مختصر الإسناد.
(٧) فى ص: «بشر».

قال: «كَانَ أَحَدُ أَبَوَىْ بَلْقِيس جِنِّيًا». وهذا حديثٌ غريبٌ، وفى سندِهِ ضَعْفٌ.

وقال الثَّعْلَبِيُّ[1]: أخبرنى أبو عبدِ اللَّهِ بنُ قبحونةَ، حَدَّثنا أبو بكرِ بنُ جُرْجَةَ، حدَّثنا ابنُ أبى اللَّيْثِ، حدَّثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا أبو مُعاوِيَةَ، عن إسماعيلَ بنِ مسلمٍ، عن الحسنِ، عن أبى بَكْرَةَ، قال: ذُكِرَتْ بَلْقِيسُ عندَ رسولِ اللَّهِ ﷺ، فقال: «لَا يُفْلِحُ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً». إسماعيلُ بنُ مُسْلِمٍ هذا هو المكِّيُّ، ضَعِيفٌ.

وقد ثَبَتَ فى «صحيحِ البخاريِّ»[2]، من حديثِ عَوْفٍ، عن الحَسَنِ، عن أبى بَكْرَةَ، أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ لمَّا بلغَه أنَّ أهلَ فارسَ ملَّكُوا عليهم ابنةَ كِسْرَى، قال: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً». ورَواه التِّرْمِذِيُّ والنَّسائِيُّ[3] مِن حديثِ حُمَيْدٍ، عن الحَسَنِ، عن أبى بَكْرَةَ، عن النبيِّ ﷺ، وقال التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صحيحٌ. وقولُه: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أَىْ؛ ممَّا مِن شَأْنِهِ أن تُؤْتاهُ الملوكُ ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ يَعْنى: سريرَ مَمْلَكَتِها، كان مُزَخْرَفًا بأنواعِ الجواهرِ واللآلئِ والذهبِ والحُلِيِّ الباهِرِ. ثم ذَكَرَ كُفْرَهم باللَّهِ وعِبادَتَهم الشمسَ من دونِ اللَّهِ، وإضلالَ الشيطانِ لهم وصَدَّه إيَّاهم عن عبادةِ اللَّهِ وحدَه لا شريكَ له ﴿الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أى: يَعْلَمُ السَّرائرَ والظَّواهِرَ من المحسوساتِ والمَعْنويَّاتِ ﴿اللَّهُ لَآ

---

(١) فى عرائس المجالس ٢٧٩ مختصر الإسناد، وفيه: «عن أبى بكر». وليس «بكرة».
(٢) البخارى (٤٤٢٥، ٧٠٩٩).
(٣) الترمذى (٢٢٦٢)، وقال: حسن صحيح. النسائى فى الكبرى (٥٩٣٧).

﴿ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أى ؛ له العرشُ العظيمُ ، الذى لا أعْظَمَ منه فى المخلوقاتِ . فعندَ ذلك بَعَثَ معه سليمانُ ، عليه السَّلامُ ، كتابَهُ ، يَتَضَمَّنُ دعوتَه لهم إلى طاعةِ اللَّهِ وطاعةِ رسولِه ، والإنابةِ والإذْعانِ إلى الدُّخولِ فى الخُضوعِ لمُلْكِهِ وسُلطانِه ؛ ولهذا قال لهم : ﴿ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ ﴾ أى ؛ لا تستكْبِرُوا عن طاعتى وامتثالِ أَوامِرِى . ﴿ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ أى ؛ واقْدَمُوا علىَّ سامِعِينَ مُطِيعِينَ بلا مُعاوَدَةٍ ولا مُراوَدَةٍ ، فلمَّا جاءَها الكتابُ مع الطيرِ ، ومِن ثَمَّ اتَّخَذَ الناسُ البَطائِقَ ، ولكنْ أينَ الثُّرَيَّا من الثَّرى ؟! تلك البطاقةُ كانت مع طائرٍ سامعٍ مُطيعٍ فاهمٍ ، عالمٍ بما يقولُ ويُقالُ له ؛ فذَكَرَ غيرُ واحدٍ من المفسِّرين وغيرِهم[1] ، أنَّ الهدهدَ حملَ الكتابَ وجاء إلى قَصْرِها ، فألقاه إليها وهى فى خَلْوَةٍ لها ، ثم وَقَفَ ناحيةً ينتظرُ ما يكونُ من جوابِها عن كتابِها ، فجمعتْ أُمَراءَها ووُزَراءَها وأَكابرَ دولتِها وأُولى[2] مَشُورَتِها ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴾ ثُمَّ قرأَتْ عليهم عُنْوانَه أوَّلًا : ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ ﴾ . ثم قرأَتْه : ﴿ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [١/٢٢٥و] ثم شاوَرَتْهم فى أمرِها وما قد حَلَّ بها وتَأَدَّبَتْ معهم ، وخاطَبَتْهم وهم يَسْمَعُون : ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ تَعْنى : ما كنتُ لِأَبُتَّ أمرًا إلَّا وأنتم حاضِرُون : ﴿ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ يَعْنُونَ : لنا قُوَّةٌ وقُدرةٌ على الجِلَادِ والقتالِ ومُقاومةِ الأبطالِ ، فإن أرَدْتِ منَّا ذلك ، فإنَّا عليه مِن القادِرِينَ ﴿ و ﴾ مع هذا ﴿ ٱلْأَمْرُ

---

(١) تفسير الطبرى ١٥٢/١٩، تاريخه ١/ ٤٩٠، ٤٩١. وعرائس المجالس ٢٨٠.

(٢) فى ح ، م : «إلى».

إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ . فبَذَلُوا لها السَّمْعَ والطاعةَ ، وأخبرُوها بما عندَهم من الاستطاعةِ ، وفوَّضُوا إليها في ذلك الأمرَ ؛ لترَى فيه ما هو الأرْشَدُ لها ولهم ، فكان رَأْيُها أتمَّ وأسَدَّ مِن رَأْيِهم ، وعَلِمَتْ أنَّ صاحِبَ هذا الكتابِ ، لا يُغالَبُ ولا يُمانَعُ ولا يُخالَفُ ولا يُخادَعُ . ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ تقولُ برأْيِها السَّديدِ : إنَّ هذا المَلِكَ ، لو قد غَلَبَ على هذه المملكةِ ، لم يَخْلُصِ الأمرُ مِن بَيْنِكم إلَّا إلَيَّ ، ولم تَكُنِ الحِدَّةُ الشَّدِيدةُ والسَّطْوَةُ البليغةُ إلَّا عَلَيَّ . ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ أرادتْ أن تُصانِعَ عن نفسِها وأهلِ مملكتِها بهَدِيَّةٍ تُرْسِلُها ، وَتُحَفٍ تَبْعَثُها ، ولم تَعْلَمْ أنَّ سليمانَ ، عليه السَّلامُ ، لا يَقْبَلُ منهم - والحالةُ هذه - صَرْفًا ولا عَدْلًا ؛ لأنَّهم كافرون ، وهو وجنودُه عليهم قادِرُونَ ، ولهذا ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ ، هذا وقد كانت تلك الهدايا مُشْتَمِلَةً على أُمُورٍ عَظِيمةٍ ، كما ذَكَره المُفسِّرونَ . ثم قال لِرَسُولِها إليه ووافِدِها الذى قَدِمَ عليه ، والناسُ حاضرون يَسْمَعُون . ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ ، يقولُ : ارجِعْ بِهَدِيَّتِكَ التى قَدِمْتَ بها ، إلى مَنْ قَدْ مَنَّ بها ، فإنَّ عِندِى مِمَّا قد أنْعَمَ اللَّهُ عليَّ وأسْداهُ إلَيَّ ؛ مِن الأموالِ والتُّحَفِ والرِّجالِ ، ما هو أضعافُ هذا وخيرٌ مِن هذا الذى أنتم تَفْرَحُون به ، وتَفْخَرُون على أبناءِ جِنْسِكم بسَبَبِه . ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾ أى ؛ فَلَأَبْعَثَنَّ إليهم بجنودٍ لا يَسْتَطِيعُون دِفَاعَهم ولا نِزَالَهم ولا مُمانَعَتَهم ولا قِتالَهم ، ولَأُخْرِجَنَّهم مِن بلَدِهم وحَوْزَتِهم ومُعامَلَتِهم ودَوْلَتِهم أَذِلَّةً ﴿ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ ، عليهم الصَّغارُ والعارُ والدَّمارُ . فلمَّا بَلَغَهم ذلك عن نبيِّ اللَّهِ ، لم يَكُنْ لهم بُدٌّ

من السَّمعِ والطاعةِ ، فبادَرُوا إلى إجابتِه فى تلك الساعةِ ، وأقْبَلُوا صُحْبَةَ المَلِكَةِ أجمعين ، سامِعِين مُطِيعِين خاضِعِين [١/٢٢٥ظ] ، فلمَّا سَمِعَ بقُدُومِهم عليه (١ووُفُودِهم إليه١) ، قال لمَنْ بينَ يَدَيْه مِمَّنْ هو مُسَخَّرٌ له مِن الجانِّ ، ما قصَّه اللَّهُ عنه فى القرآنِ(٢) : ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل: ٣٨- ٤٤] . لمَّا طَلَبَ سُليمانُ مِن الجانِّ أن يُحْضِرُوا له عَرْشَ بَلْقِيسَ ، وهو سَرِيرُ مملكتِها الذى تجْلِسُ عليه وقتَ حُكْمِها ، قبلَ قُدُومِها عليه ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ ، يَعْنى : قبلَ أن يَنْقَضِىَ مَجْلِسُ حُكْمِك ، وكان - فيما يُقالُ - مِن أوَّلِ النهارِ إلى قُرَيْبِ الزَّوالِ يَتَصدَّى لمُهمَّاتِ بنى إسرائيلَ وما لهم مِن الأشْغالِ : ﴿ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾ أى ؛ وإنِّى لَذُو قُوَّةٍ على إحضارِه(٣)

(١ - ١) سقط من : ص .

(٢) التفسير ٦/ ٢٠١- ٢٠٦.

(٣) فى م ، ص : « إحضارى » .

إليك ، وأمانةِ على ما فيه من الجواهرِ النفيسةِ لديكَ . ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ، المشهورُ أنَّه آصفُ بنُ برخيا ، وهو ابنُ خالةِ سليمانَ . وقيل : هو رجلٌ من مُؤْمِنِي الجانِّ ، كان فيما يُقالُ يَحْفَظُ الاسمَ الأَعْظَمَ . وقيل : رجلٌ من بنى إسرائيلَ ، من عُلَمائِهم . وقيل : إنه سليمانُ . وهذا غريبٌ جدًّا . وضَعَّفَه السُّهَيْلِيُّ بأنَّه لا يَصِحُّ فى سِياقِ الكلامِ . قال : وقد قِيلَ فيه قولٌ رابعٌ ، أنَّه جبريلُ[(١)] . ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ ، قيل : معناه ، قبلَ أن تَبعَثَ رسولًا إلى أقصَى ما يَنْتَهِى إليه طَرْفُك من الأرضِ ، ثم يَعُودَ إليك . وقيل : قبلَ أن يَصِلَ إليك أبعدُ مَنْ تَراهُ مِنَ النَّاسِ . وقِيلَ : قَبْلَ أن يَكِلَّ طَرْفُكَ إذا أَدَمْتَ النَّظَرَ به قبلَ أن تُطْبِقَ جَفْنَكَ . وقيل : قبلَ أن يَرْجِعَ إليك طَرْفُكَ إذا نظرْتَ به إلى أبْعَدِ غايةٍ منكَ ثُمَّ أَغْمَضْتَه[(٢)] . وهذا أَقْرَبُ ما قِيلَ . ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ ﴾ أى ؛ فلمَّا رَأَى عرشَ بَلْقيسَ مُسْتَقِرًّا عنده فى هذه المُدَّةِ القريبةِ ، من بلادِ اليمنِ إلى بيتِ المقدسِ ، فى طَرْفَةِ عَيْنٍ ﴿ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [٢٢٦/١و] أى ؛ هذا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ علىَّ وفضلِه على عَبِيدِه ؛ ليَخْتَبِرَهم على الشُّكرِ أو خلافِه . ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ أى ؛ إنَّما يَعُودُ نَفْعُ ذلك عليه . ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ أى ؛ غَنِىٌّ عن شُكرِ الشَّاكِرِين ، ولا يَتَضَرَّرُ بكُفْرِ الكافرينَ . ثُمَّ أَمَر سُليمانُ عليه السَّلامُ أن يُغَيِّرَ حَلْىَ هذا العرشِ ويُنَكَّرَ لها ؛ ليَخْتَبِرَ فَهْمَها وعَقْلَها ، ولهذا قال : ﴿ نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ

---

(١) التعريف والإعلام ٢٣٧.

(٢) انظر جميع هذه الأقوال المتقدمة فى تفسير الطبرى ١٩/١٦٣، ١٦٤.

قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ﴾، وهذا مِن فِطْنَتِها وغَزارَةِ فَهْمِها؛ لأنَّها اسْتَبْعَدَتْ أن يكونَ عَرْشَها؛ لأنَّها خَلَّفَتْه وراءَها بأرضِ اليمنِ، ولم تَكُنْ تعلمُ أنَّ أحدًا يَقْدِرُ على هذا الصُّنعِ العجيبِ الغريبِ. قال اللَّه تعالى إخْبارًا عن سليمانَ وقومِه: ﴿ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ أى؛ ومنَعَها عبادةُ الشمسِ التى كانت تَسْجُدُ لها هى وقومُها من دونِ اللَّهِ، اتِّباعًا لدِينِ آبائِهم وأسْلافِهم، لا لِدَليلٍ قادَهُم إلى ذلك ولا حَداهُم على ذلك، وكان سليمانُ قد أَمَرَ ببناءِ صَرْحٍ مِن زُجاجٍ، وعَمِلَ فى مَمَرِّهِ ماءً، وجعلَ عليه سَقْفًا من زجاجٍ، وجَعَلَ فيه من السَّمَكِ وغيرِها من دَوابِّ الماءِ، وأُمِرَتْ بدُخولِ الصَّرْحِ، وسليمانُ جالِسٌ على سَريرِه فيه ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. وقد قيل: إن الجِنَّ أرادُوا أن يُبَشِّعُوا مَنْظَرَها عندَ سليمانَ، وأن تُبْدِىَ عن ساقَيْها لِيَرَى ما عليها من الشَّعْرِ فيُنَفِّرَه ذلك منها، وخَشُوا أن يَتَزَوَّجَها؛ لأن أُمَّها من الجانِّ فَتَتَسَلَّطَ عليهم معه. وذكَر بعضُهم أنَّ حافرَها كان كحافِرِ الدَّابَّةِ[1]. وهذا ضعيفٌ. وفى الأوَّلِ أيضًا نظرٌ، واللَّهُ أعلمُ. إلَّا أنَّ سليمانَ قِيلَ: إنَّه لمَّا أرادَ إزالَتَه حين عَزَمَ على تَزَوُّجِها، سأَلَ الإنْسَ عن زَوالِه، فذَكَرُوا له المُوسَى، فامْتَنَعَتْ مِن ذلك، فسأل الجانَّ فصَنَعُوا له النُّورَةَ، ووَضَعُوا له الحَمَّامَ، فكان أوَّلَ مَن دَخَلَ الحَمَّامَ، فلمَّا وَجَدَ مَسَّهُ قال: أَوْهِ مِن عذابِ اللَّهِ[2]، أَوْهِ أَوْهِ قَبْلَ

---

(١) تفسير الطبرى ١٩/١٦٨، ١٦٩.

(٢) سقط من ح، م، ص.

أن لا يَنْفَعَ أَوْهِ. رواه الطَّبَرَانِيُّ مرفوعًا[1] . وفيه نظرٌ.

وقد ذَكَر الثَّعْلَبِيُّ وغيرُه[2] ، أَنَّ سليمانَ لَمَّا تَزَوَّجها، أَقَرَّها على مَمْلَكَةِ اليمنِ، وردَّها إليه، وكان يَزُورُها في كلِّ شهرٍ مرَّةً، فيُقِيمُ عِندَها ثلاثةَ أيامٍ ثم يَعُودُ على البِساطِ، وأمَرَ الجانَّ فبَنَوْا لها ثلاثةَ قُصورٍ باليمنِ: غُمْدَانَ، وسَالِحِينَ، وبنيونَ[3] ، فاللَّهُ أعلمُ. [١/٢٢٦ظ] وقد رَوى ابنُ إسحاقَ[4] ، عن بعضِ أهلِ العلمِ، عن وَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ، أنَّ سليمانَ لم يَتَزَوَّجها، بل زَوَّجها بمَلِكِ هَمْدَانَ، وأَقَرَّها على مُلْكِ اليمنِ، وسَخَّرَ زَوْبَعَةَ مَلِكَ[5] جِنِّ اليمنِ، فبَنَى لها القصورَ الثلاثةَ التي ذَكَرْناها باليمنِ، والأَوَّلُ أشْهَرُ وأظْهَرُ، واللَّهُ أعلمُ.

وقال تعالى في سورةِ «ص»[6] : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٢٧٩، ٨/ ٢٠٧. وعزاه للطبراني في الكبير والأوسط من حديث أبي موسى مرفوعًا، وقال: وفيه إسماعيل بن عبد الرحمن الأودى، وهو ضعيف. وأخرجه البخاري في تاريخه الكبير (١١٤٧). وقال: فيه نظر - إسماعيل بن عبد الرحمن - لا يُتابع فيه.

(٢) في عرائس المجالس ٢٨٦، وانظر الكامل لابن الأثير ١/ ٢٣٧.

(٣) في النسخ: «بيتون». والمثبت من عرائس المجالس.

(٤) عرائس المجالس ٢٨٦، وتاريخ الطبري ١/ ٤٩٤، ٤٩٥، والكامل ١/ ٢٣٧، ٢٣٨.

(٥) في عرائس المجالس: «أمير».

(٦) التفسير ٧/ ٥٥- ٦٤.

لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [ص: ٣٠- ٤٠] . يَذْكُرُ تعالى أنَّه وَهَبَ لداودَ سليمانَ[١] ، عليهما السَّلامُ ، ثم أَثْنَى اللَّهُ عليه تعالى فقال: ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ أي ؛ رَجَّاعٌ مُطِيعٌ للَّهِ . ثم ذَكَرَ تعالى ما كان مِن أمرِه فى الخَيْلِ الصَّافِنَاتِ - وهى التى تَقِفُ على ثَلاثٍ وطَرَفِ حافِرِ الرابعةِ - الجِيَادِ ؛ وهى الْمُضَمَّرَةُ السِّرَاعُ : ﴿ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ يَعْنِى الشمسَ . وقيل: الخَيْلُ، على ما سَنَذْكُرُه من القَوْلَيْنِ . ﴿ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ قيل: مَسَحَ عَراقِيبَها وأَعْناقَها بالسُّيوفِ . وقيل: مَسَحَ عَنْها العَرَقَ لمَّا أَجْراها وسابَقَ بينَها وبينَ يَدَيْهِ ، على القولِ الآخرِ . والذى عليه أَكْثَرُ السَّلَفِ الأَوَّلُ ؛ فقالُوا : اشْتَغَلَ بعَرْضِ تلك الخُيولِ حتى خَرَجَ وقتُ العصرِ وَغَرَبَتِ الشمسُ . رُوِىَ هذا عن علىِّ بنِ أبى طالِبٍ وغيرِه[٢] . والذى يُقْطَعُ به ، أنَّه لم يَتْرُكِ الصلاةَ عَمْدًا مِن غيرِ عُذْرٍ ، اللَّهمَّ إلَّا أن يُقالَ : إنه كان سائغًا فى شريعتِهم تَأْخِيرُ الصلاةِ لأجْلِ أسبابِ الجِهادِ ، وعَرْضُ الخيلِ مِن ذلك . وقد ادَّعى طائفةٌ من العلماءِ فى تأخيرِ النبىِّ ﷺ ، صلاةَ العصرِ يومَ الخَنْدَقِ ، أنَّ هذا كان مشروعًا إذ ذاك ، حتى نُسِخَ بصلاةِ الخَوْفِ . قاله الشافعىُّ وغيرُه . وقال مَكْحُولٌ والأَوْزاعِىُّ : بل هو حُكْمٌ مُحْكَمٌ إلى اليومِ ، أنَّه يَجوزُ تأخيرُها لعُذْرِ القتالِ الشديدِ . كما ذَكَرْنا تقريرَ ذلك فى سُورةِ «النساءِ» عندَ صلاةِ الخَوْفِ[٣] . وقال آخَرون : بل كان تأخيرُ النبىِّ ﷺ صلاةَ العصرِ يومَ الخَنْدَقِ نِسْيانًا . وعلى هذا فيُحْمَلُ فِعلُ سليمانَ ، عليه السَّلامُ ، على هذا .

---

(١) سقط من: ح.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٢٣/ ١٥٥، والدر المنثور ٥/ ٣٠٩. وتفسير القرطبى ١٦/ ١٩٦.

(٣) التفسير ٢/ ٣٥٣.

واللَّهُ أعلمُ. وأمّا مَن قال: الضميرُ في قولِه: ﴿ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ [٢٢٧/١و] تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴾ عائدٌ على الخيلِ، وإنَّه لم يَفُتْه وَقْتُ صلاةٍ، وإنَّ المرادَ بقولِه: ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ﴾ يعنى: مَسَحَ العَرَقَ عن عَراقِيبِها وأعناقِها. فهذا القولُ اختارَه ابنُ جريرٍ[1]، ورَواهُ الوالِبِيُّ عن ابنِ عباسٍ في مَسْحِ العَرَقِ[2]. ووَجَّه هذا القَوْلَ ابنُ جريرٍ؛ بأنه ما كان لِيُعَذِّبَ الحيوانَ بالعَرْقَبَةِ، ويُهْلِكَ مالًا بلا سببٍ ولا ذَنْبٍ لها. وهذا الذى قالَه فيه نظرٌ؛ لأنَّه قد يكونُ هذا سائغًا في مِلَّتِهم. وقد ذهبَ بعضُ عُلَمائِنا إلى أنَّه إذا خاف المسلمون أن يَظْفَرَ الكُفّارُ على شَيْءٍ مِن الحيواناتِ، مِن أغنامٍ ونَحْوِها[3]؛ جاز ذَبْحُها وإهْلاكُها؛ لِئَلَّا يَتقَوَّوْا بها، وعليه حُمِلَ صَنِيعُ جعفرِ بنِ أبى طالبٍ يومَ عَقَرَ فَرَسَه بموتِه. وقد قيل: إنَّها كانت خَيْلًا عَظِيمَةً؛ قيل: كانت عشرَةَ آلافِ فَرَسٍ. وقيل: كانت عشرين ألفَ فرسٍ[4]. وقيل: كان فيها عشرونَ فرسًا مِن ذَواتِ الأَجْنِحَةِ[5].

وقد رَوَى أبو داودَ في «سُنَنِه»[6]: حدَّثَنا محمدُ بنُ عوفٍ[7]، حدَّثنا سعيدُ بنُ أبى مريمَ، أنبأنا يَحْيَى بنُ أَيُّوبَ، حدَّثنى عُمارَةُ بنُ غَزِيَّةَ[8]، أنَّ

(١) تفسير الطبرى ٢٣/ ١٥٥، ١٥٦.
(٢) تفسير الطبرى ٢٣/ ١٥٦، والتفسير ٧/ ٥٧.
(٣) فى ص: «ذبحوها».
(٤) عزاه فى الدر المنثور ٥/ ٣٠٩ للفريابى وعبد بن حميد وابن أبى حاتم. وانظر التفسير ٧/ ٥٦.
(٥) انظر تفسير الطبرى ٢٣/ ١٥٤.
(٦) أبو داود (٤٩٣٢). (صحيح أبى داود ٤٢١٣).
(٧) فى ح: «عرف».
(٨) فى ح، م: «عزية».

محمدَ بنَ إبراهيمَ حَدَّثَه عن[1] أبى سَلَمَةَ بنِ عبدِ الرحمنِ ، عن عائشةَ قالتْ : قَدِمَ رسولُ اللَّهِ ﷺ ، مِن غَزْوَةِ تبوكَ - أو خَيْبَرَ - وفى سَهْوَتِها سِتْرٌ ، فهبَّتِ الريحُ فكَشَفَتْ ناحِيَةَ السِّتْرِ ، عن بَنَاتٍ لعائشةَ لُعَبٍ[2] ، فقال : « مَا هَذَا يا عَائِشَةُ ! » فَقَالَتْ : بَنَاتِى . ورَأَى بَيْنَهُنَّ فَرَسًا له جَناحانِ مِنْ رِقَاعٍ ، فقال : « مَا هَذَا الَّذِى أَرَى وَسْطَهُنَّ ؟ » قالت : فَرَسٌ . قال : « وَمَا الَّذِى عَلَيْهِ هَذَا ؟ » . قالت : جَناحانِ . قال : « فَرَسٌ له جَنَاحَانِ ؟ » قالت : أَمَا سَمِعْتَ أَنَّ لِسُليمانَ خَيْلًا لها أَجْنِحَةٌ ! قالتْ : فضَحِكَ حتى رَأَيْتُ نَواجِذَه ﷺ .

وقال بعضُ العُلماءِ : لَمَّا تَرَكَ الخيلَ للَّهِ ، عَوَّضَه اللَّهُ عنها بما هو خَيْرٌ له منها ، وهو الرِّيحُ التى كان غُدُوُّها شهرًا ورَواحُها شهرًا ، كما سيأتى الكلامُ عليها ، كما قال الإمامُ أحمدُ[3] : حَدَّثنا إسماعيلُ ، حدَّثنا سليمانُ بنُ المُغِيرَةِ ، عن حُمَيْدِ بنِ هِلالٍ ، عن أبى قَتَادَةَ وأبى الدَّهْماءِ ، وكانا يُكْثِرانِ السَّفَرَ نحوَ البيتِ ، قالا : أَتَيْنا على رجُلٍ مِن أهلِ البادِيَةِ ، فقال البَدَوِىُّ : أَخَذ بيدِى رسولُ اللَّهِ ﷺ ، فجعلَ يُعَلِّمُنى مِمَّا عَلَّمَه اللَّهُ ، عَزَّ وجَلَّ ، وقال : « إِنَّكَ لَا تَدَعُ شَيْئًا اتِّقاءَ اللَّهِ ، عَزَّ وجَلَّ ، إِلَّا أَعْطَاكَ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ » .

وقولُه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ . ذَكَرَ ابنُ جريرٍ ، وابنُ أبى حاتمٍ ، وغيرُهما من المفسِّرين ، ههنا ، آثارًا كثيرةً عن جماعةٍ مِن السَّلفِ ، وأَكْثَرُها أو [١/ ٢٢٧ظ] كلُّها مُتَلَقَّاةٌ مِن الإسرائيليَّاتِ ، وفى كثيرٍ منها نَكَارَةٌ شديدةٌ ، وقد

---

(١) بعد هذا فى م ، ص : « محمد بن » .
(٢) فى م : « تلعب » .
(٣) فى المسند ٥/ ٧٨، ٧٩.

نَبّهْنا على ذلك فى كتابِنا «التفسيرِ»[1] ، واقْتَصَرْنا هٰهُنا على مجرّدِ التّلاوةِ .

ومضمونُ ما ذَكروه ، أنَّ سليمانَ ، عليه السَّلامُ ، غابَ عن سَرِيرِه أربعينَ يومًا ، ثم عاد إليه ، ولمَّا عاد أُمِرَ ببناءِ بيْتِ المقدسِ ، فبناه بِناءً مُحْكَمًا ، وقد قَدَّمْنا أنَّه جُدِّدَ ، وأنَّ أوَّلَ مَنْ جَعَلَه مَسْجِدًا ، إسرائيلُ ، عليه السَّلامُ[2] ، كما ذَكَرْنا ذلك عندَ قولِ أبى ذَرٍّ : قلتُ : يارسولَ اللّهِ ، أىُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ أَوَّلَ ؟ قال : «المَسْجِدُ الحَرَامُ» . قلتُ : ثُم أَىٌّ ؟ قال : «مَسْجِدُ بَيْتِ المَقْدِسِ» . قلتُ : كم بينَهما ؟ قال : «أَرْبَعُونَ سَنَةً»[3] .

ومعلومٌ أنَّ بينَ إبراهيمَ الـذى بَنَى المسجدَ الحرامَ ، وبينَ (4)سُليمانَ بنِ(4) داودَ ، عليهما السَّلامُ ، أَزْيَدَ من ألفِ سنةٍ ، دَعْ أربعينَ سنةً ، وكان سؤالُه المُلْكَ الذى لا يَنْبَغِى لأحدٍ من بعدِه ، بعدَ إكمالِه بِناءَ البيتِ المقدَّسِ ، كما قال الإمامُ أحمدُ ، والنَّسائىُّ ، وابنُ ماجَهْ ، وابنُ خُزَيْمَةَ ، وابنُ حِبّانَ ، والحاكمُ[5] ، بأسانيدِهم عن عبدِ اللّهِ بنِ فَيْرُوزَ الدَّيْلَمِىِّ ، عن عبدِ اللّهِ ابنِ عَمْرٍو[6] بنِ العاصِ قال : قال رسولُ اللّهِ ﷺ : «إنَّ سُلَيْمانَ لَمَّا بَنَى بَيْتَ المَقْدِسِ سَأَلَ رَبَّهُ ، عَزَّ وَجَلَّ ، خِلالًا ثَلاثًا ، فأَعْطَاهُ اثْنَتَيْنِ ، وَنَحْنُ نَرْجُو أَنْ تَكُونَ لَنَا الثَّالِثَةُ ؛ سأَلَهُ حُكْمًا يُصَادِفُ حُكْمَهُ ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ ، وَسَأَلَهُ مُلْكًا لَا يَنْبَغِى لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ ، وَسَــأَلَــهُ أَيُّما رَجُلٍ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ لَا يُرِيدُ إِلَّا

---

(1) التفسير ٧/٥٧- ٦١.

(2) تقدم فى ١/٤٥٣، ٤٥٤.

(3) البخارى (٣٣٦٦، ٣٤٢٥). مسلم (٥٢٠).

(٤- ٤) سقط من: الأصل.

(5) المسند ٢/١٧٦. النسائى (٦٩٢) وفى الكبرى (٧٧٢). ابن ماجه (١٤٠٨). ابن خزيمة (١٣٣٤). الإحسان (١٦٣٣). الحاكم ١/ ٣٠. وقال: هذا حديث صحيح قد تداوله الأئمة، وقد احتجا بجميع رواته ثم لم يخرجاه، ولا أعلم له علة.

(6) فى الأصل: «عمر».

الصَّلاةَ فِي هَذَا المَسْجِدِ خَرَجَ مِنْ خَطِيئَتِهِ مِثْلَ يومَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ ، فَنَحْنُ نَرْجُو أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ أَعْطانا إِيَّاهَا » . فأمَّا الحُكْمُ الذى يُوافِقُ حُكْمَ اللَّهِ تعالَى ، فقد أثْنَى اللَّهُ تعالى عليه وعلى أبيه ، فى قولِه : ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ۝٧٨ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ ﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩] . وقد ذَكَر شُرَيْحٌ القاضِى ، وغيرُ واحدٍ مِن السَّلفِ[(١)] ، أنَّ هؤلاءِ القومَ كان لهم كَرْمٌ ، فَنَفَشَتْ فيه غَنَمُ قومٍ آخَرِين أَىْ رَعَتْه بالليلِ فأكَلَتْ شَجَرَهُ بالكُلِّيَّةِ ، فتحاكَمُوا[(٢)] إلى داودَ ، عليه السَّلامُ ، فحَكَمَ لِأَصحابِ الكَرْمِ بِقِيمَتِهِ ، فلمَّا خَرَجُوا على سليمانَ قال : بِمَ حَكَمَ لكُمْ نَبِيُّ اللَّهِ ؟ فقالُوا : بكَذَا وكَذَا . فقال : أمَا لو كنتُ أنا لَمَا حكمتُ إلَّا بتسليمِ الغَنَمِ إلى أصحابِ الكَرْمِ ، فيَسْتَغِلُّونَها نِتَاجًا وَدَرًّا حتى يُصْلِحَ أصحابُ الغنمِ كَرْمَ أولئك ويَرُدُّوه إلى ما كان عليه ، ثم يَتَسَلَّمُوا غَنَمَهم . فبَلَغَ داودَ ، عليه السَّلامُ ، ذلك فحَكَمَ به .

(٣)وقريبٌ(٣) مِن هذا ما ثَبَتَ فى « الصحيحَيْن »[(٤)] من حديثِ أبى الزِّنادِ ، عن الأعْرَجِ ، عن أبى هُريرةَ قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « بَيْنما امْرأَتانِ مَعَهُما ابْناهُما ، إذْ عَدَا الذِّئْبُ فَأَخَذَ ابْنَ إِحْدَاهُمَا فَتَنَازَعَتَا فى الآخَرِ ، فَقَالَتِ [١/ ٢٢٨و] الْكُبْرَى : إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ . وَقَالَتِ الصُّغْرَى : إِنَّمَا ذَهَبَ بابْنِكِ . فَتَحَاكَمَتَا إلى دَاوُدَ فَحَكَمَ بِهِ لِلْكُبْرَى ، فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ ، فَقَالَ : ائْتُونِى

---

(١) التفسير ٥/ ٣٤٩، ٣٥٠. وانظر تفسير الطبرى ١٧/ ٥٠- ٥٤.

(٢) فى ح : « فتحاملوا » .

(٣- ٣) فى ح : « وقد ثبت » .

(٤) البخارى (٣٤٢٧، ٦٧٦٩) وفيه زيادة : قال أبو هريرة : واللَّه إن سمعت بالسكين إلا يومئذ ، وما كنا نقول إلا المدية . مسلم (١٧٢٠) .

بالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ نِصْفَيْنِ ، لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا نِصْفُهُ . فَقَالَتِ الصُّغْرَى : لَا تَفْعَلْ ، يَرْحَمُكَ اللَّهُ ، هُوَ ابْنُهَا . فقضَى به لَهَا » . ولعلَّ كُلًّا من الحُكْمَيْنِ كان سائغًا في شريعَتِهم ، ولكنَّ ما قاله سليمانُ أرجَحُ ، ولهذا أثنى اللَّهُ عليه بما أَلْهَمَه إيَّاه ، (١ وَمَدَحَ بعدَ ذلك أباه ١) فقال : ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ ، ثم قال : ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ أي ؛ وسَخَّرْنا لسليمانَ الريحَ عاصِفةً ﴿ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٠- ٨٢] . وقال تعالى في سورةِ « ص » : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ . لمَّا تَرَكَ الخيلَ ابتغاءَ وَجْهِ اللَّهِ ، عَوَّضَه اللَّهُ منها الرِّيحَ ، التي هي أسرعُ سَيْرًا ، وأقوى وأعظمُ ، ولا كُلْفَةَ عليه لها . ﴿ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أي ؛ حيثُ أرادَ مِن أيِّ البلادِ . كان له بِساطٌ مُرَكَّبٌ مِن أخْشابٍ ، بحيثُ إنه يَسَعُ جميعَ ما يحتاجُ إليه ؛ من الدُّورِ المبنيَّةِ ، والقُصُورِ ، والخيامِ ، والأمتعةِ ، والخيولِ ، والجِمالِ ، والأثْقالِ ، والرِّجالِ من الإنسِ والجانِّ ، وغيرِ ذلك من الحيواناتِ والطيورِ ، فإذا أراد سَفَرًا أو مُسْتَنْزَهًا ، أو قِتالَ مَلِكٍ أو أعداءٍ من أيِّ بلادِ اللَّهِ شاءَ ، فإذا حَمَلَ هذه الأمورَ المذكورةَ على البِساطِ ، أَمَرَ الريحَ فدَخَلَتْ تحتَه فرفَعَتْه ، فإذا اسْتَقَلَّ

(١- ١) سقط من : ح .

بينَ السماءِ والأرْضِ أَمَرَ الرُّخاءَ فسارتْ به ، فإن أراد أسْرَعَ مِن ذلك أَمَر العاصِفَةَ فحَمَلَتْه أسْرَعَ ما يكونُ ، فوَضَعَتْه فى أىِّ مكانٍ شاءَ ، بحيثُ إنَّه كان يَرْتَحِلُ فى أوَّلِ النهارِ مِن بيتِ المَقْدِسِ ، فتَغْدُو به الرِّيحُ فتَضَعُه بإصْطَخْرَ ، مسيرةَ شهرٍ فيُقيمُ هناك إلى آخرِ النهارِ ، ثم يَرُوحُ مِن آخرِه ، فتَرُدُّه إلى بيتِ المقدسِ ، كما قال تعالى[1] : ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٢ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٢، ١٣]. قال الحسنُ البَصْرِىُّ[2] : [١/٢٢٨ظ] كان يَغْدُو مِن دِمَشْقَ فيَنْزِلُ بإصْطَخْرَ فيَتَغَدَّى بها ، ويَذهبُ رائحًا منها فيَبِيتُ بكابُلَ ، وبينَ دِمَشْقَ وبينَ إصْطَخْرَ مسيرةُ شهرٍ ، وبينَ إصْطَخْرَ وكابُلَ مسيرةُ شهرٍ . قلتُ : قد ذَكَرَ المُتَكَلِّمُون على العُمْرانِ والبُلْدانِ ، أنَّ إصْطَخْرَ بَنَتْها الجانُّ لسليمانَ ، وكان فيها قَرارُ مَمْلَكَةِ التُّرْكِ قديمًا ، وكذلك غيرُها من بُلدانٍ شَتَّى ؛ كتَدْمُرَ ، وبيتِ المقدسِ ، وبابِ جَيْرُونَ[3] ، وبابِ البَرِيدِ ، اللَّذَيْن بدِمَشْقَ ، على أحدِ الأقوالِ . وأمَّا القِطْرُ ، فقال ابنُ عباسٍ ، ومجاهدٌ ، وعِكْرِمَةُ ، وقَتادَةُ ، وغيرُ واحدٍ : هو النُّحاسُ . قال قَتادَةُ : وكانتْ باليمنِ ؛ أَنْبَعَها اللَّهُ له . قال السُّدِّىُّ : ثلاثةُ أيامٍ فَقَطْ ، أَخَذ منها جميعَ ما يحتاجُ إليه للبِناياتِ وغيرِها[4] .

---

(١) التفسير ٦/ ٤٨٦- ٤٨٩.

(٢) تفسير الطبرى ٢٢/ ٦٩ مختصرًا.

(٣) فى ح ، م ، ص : « جبرون » .

(٤) انظر الأقوال المتقدمة فى تفسير الطبرى ٢٢/ ٦٩، الدر المنثور ٥/ ٢٢٧، ٢٢٨.

وقولُه: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ أى؛ وسَخَّرَ اللَّهُ له مِنَ الجنِّ عُمّالًا يَعْمَلون له ما يشاءُ، لا يَفْتُرُون ولا يَخْرُجون عن طاعتِه، ومَن خَرَجَ منهم عن الأمرِ عَذَّبه وَنَكَّلَ به. ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ ﴾ وهى الأماكنُ الحَسَنَةُ وصُدُورُ المجالسِ. ﴿ وَتَمَٰثِيلَ ﴾ وهى الصُّوَرُ فى الجُدْرانِ، وكان هذا سائغًا فى شريعتِهم ومِلَّتِهم. ﴿ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ ﴾، قال ابنُ عباسٍ: الجَفْنَةُ كالجَوْبَةِ مِن الأرضِ. وعنه: كالحياضِ. وكذا قال مجاهدٌ، والحسنُ، وقتادةُ، والضَّحّاكُ، وغيرُهم[1]. وعلى هذه الرِّوايةِ يكونُ الجَوابُ: جمعَ جَابيةٍ؛ وهى الحَوْضُ الذى يُجْبَى فيه الماءُ، كما قال الأَعْشَى[2]:

[3]نَفَى الذَّمَّ عن[3] آلِ المُحَلِّقِ جَفْنَةٌ ... كجابِيَةِ السَّيْحِ[4] العِرَاقِىِّ تَفْهَقُ[5]

وأمَّا القُدُورُ الرّاسِياتُ، فقال عِكْرِمَةُ: أَثَافِيُّها منها. يَعْنى أنَّهُنَّ ثَوابتُ لَا يَزُلْنَ عن أماكِنِهِنَّ. وهكذا قال مجاهدٌ وغيرُ واحدٍ. ولمَّا كان هذا بصَدَدِ إطعامِ الطَّعامِ، والإحسانِ إلى الخَلْقِ من إنسٍ وجانٍّ، قال تعالى: ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾. وقال تعالى: ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ [ص: ٣٧، ٣٨]. يَعْنى أنَّ منهم مَن قد سَخَّرَه فى البناءِ، ومنهم مَن يَأْمُرُه بالغَوْصِ فى الماءِ؛ لاستخراجِ ما هُنالِكَ مِن

---

(١) تفسير الطبرى ٢٢/ ٧١، ٧٢.

(٢) سقط من: الأصل. وانظر ديوانه ٢٢٥.

(٣ - ٣) فى ح، م، ص: «تروح على آل». والمثبت من الديوان.

(٤) فى النسخ: «الشيخ». والمثبت من الديوان.

(٥) فى ح: «مفهق». وفى م، ص: «يفهق».

الجَواهِرِ واللآلِئِ، وغيرِ ذلك ممَّا لا يُوجَدُ إلَّا هُنالِكَ . وقولُه : ﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ أى ؛ قد عَصَوْا ؛ فَقُيِّدُوا مُقَرَّنِينَ اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ فى الأصْفادِ ، وهى القُيودُ . هذا كلُّه من جملةِ ما هَيَّأَ اللَّهُ وسخَّر له من الأشياءِ التى هى من تَمامِ المُلْكِ الذى لا يَنْبَغِى لأحَدٍ مِن بعدِه ، ولم يكنْ أيضًا لمَن كان قبلَه .

وقد قال البخارىُّ[1] : حَدَّثَنا محمدُ بنُ بَشَّارٍ ، حَدَّثَنا محمدُ بنُ جَعْفَرٍ ، حَدَّثَنا شُعْبَةُ ، [٢٢٩/١و] عن محمدِ بنِ زيادٍ ، عن أبى هُريرةَ ، عن النبىِّ ﷺ ، قال : « إنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتَ[2] الْبَارِحَةَ ؛ لِيَقْطَعَ عَلَىَّ صَلَاتِى ؛ فَأَمْكَنَنِى اللَّهُ مِنْهُ ، فَأَخَذْتُهُ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبُطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِى الْمَسْجِدِ ؛ حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ ، فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِى سُلَيْمَانَ : ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾ [ص: ٣٥]. فَرَدَدْتُهُ خَاسِئًا » . وكذا رواه مسلمٌ ، والنَّسائىُّ ، من حديثِ شُعْبَةَ[3] .

وقال مسلمٌ[4] : حَدَّثَنا محمدُ بنُ سَلَمَةَ المُرادِىُّ ، حدَّثنا عبدُ اللَّهِ بنُ وَهْبٍ ، عن معاويةَ بنِ صالحٍ ، حدَّثنى رَبيعَةُ بنُ يَزيدَ ، عن أبى إدْرِيسَ الخَوْلانىِّ ، عن أبى الدَّرْداءِ قال : قامَ رسولُ اللَّهِ ﷺ ، يُصَلِّى ، فسَمِعْناه يقولُ : « أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ ، أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللَّهِ » ثلاثًا ، وبَسَطَ يَدَه كأنَّه يَتناوَلُ شيئًا ، فلمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلاةِ قُلْنا : يا رَسُولَ اللَّهِ ، سَمِعْناك تقولُ فى الصَّلاةِ شيئًا لم نَسْمَعْك تقولُه قَبلَ ذلك ، ورَأَيْناكَ بَسَطْتَ يَدَكَ . قال : « إِنَّ عَدُوَّ اللَّهِ ، إِبْلِيسَ ، جَاءَ بِشِهَابٍ

---

(١) البخارى (٣٤٢٣) .
(٢) بعد هذا فى ح ، م ، ص : « على » .
(٣) مسلم (٥٤١) . والنسائى فى الكبرى (١١٤٤٠) .
(٤) مسلم (٥٤٢) .

مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِى وَجْهِى ، فَقُلْتُ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ - ثَلَاثَ مَرَّاتٍ - ثُمَّ قُلْتُ : أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللَّهِ التَّامَّةِ . فَلَمْ يَسْتَأْخِرْ - ثَلَاثَ مَرَّاتٍ - ثُمَّ أَرَدْتُ أَخْذَهُ ، وَاللَّهِ ، لَوْلَا دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ لَأَصْبَحَ مُوثَقًا يَلْعَبُ بِهِ وِلْدَانُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ » . وكذا رواه النَّسائيُّ عن محمدِ بنِ سَلَمَةَ به[1] .

وقال أحمدُ[2] : حَدَّثنا أبو أحمدَ ، حدَّثنا مَسَرَّةُ[3] بنُ مَعْبَدٍ ، ثَنَا أبو عُبَيْدٍ صاحِبُ[4] سُليمانَ قال : رَأَيْتُ عطاءَ بنَ يَزِيدَ اللَّيْثِيَّ قائمًا يُصلِّى[5] ، فذَهَبْتُ أَمُرُّ بينَ يَدَيْهِ فرَدَّنى ، ثم قال : حَدَّثَنى أبو سعيدٍ الخُدْرِيُّ ، أنّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قام فصَلَّى صَلاةَ الصُّبْحِ وهو خَلْفَه ، فقَرَأَ فالْتَبَسَتْ عليه القراءةُ ، فلمّا فَرَغَ مِن صَلاتِهِ قال : « لَوْ رَأَيْتُمونى وَإِبْلِيسَ ، فَأَهْوَيْتُ بِيَدِى ، فَمازِلْتُ أَخْنُقُهُ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ لُعَابِهِ بَيْنَ أُصْبُعَىَّ هَاتَيْنِ - الْإِبْهَامِ وَالَّتى تَلِيهَا - وَلَوْلَا دَعْوَةُ أَخِى سُلَيْمَانَ ، لَأَصْبَحَ مَرْبُوطًا بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِى الْمَسْجِدِ ، يَتَلَاعَبُ بِهِ صِبْيَانُ الْمَدِينَةِ ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ لَا يَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ أَحَدٌ فَلْيَفْعَلْ » . رَوَى أبو داودَ منه : « فَمَنِ اسْتَطَاعَ » إلى آخِرِه ، عن أحمدَ بنِ أبى[6] سُرَيْجٍ ، عن أبى[7] أحمدَ الزُّبَيْرِىِّ[8] به .

---

(١) النسائى (١٢١٤) .

(٢) فى المسند ٣/ ٨٢.

(٣) فى م : « مرة » . وفى ص : « ميسرة » .

(٤) فى ح ، م ، ص : « حاجب » . والمثبت من المسند . وفى أبى داود : « صاحب » . وانظر ١/ ١٤٩ حاشية ٩.

(٥) بعد هذه اللفظة فى المسند « معتمًّا بعمامةٍ سوداء مرخ طرفها من خلف مصفر اللحية » .

(٦) سقط من : ح ، م ، ص .

(٧) سقط من : ح ، م ، ص . والحديث عند أبى داود ، الجزء الأخير منه (٦٩٩) .

(٨) فى الأصل : « الدينورى » .

وقد ذَكَرَ غيرُ واحدٍ من السَّلَفِ، أنَّه كانتْ لسليمانَ من النساءِ ألفُ امرأةٍ؛ سَبْعُمائةٍ بمُهُورٍ، وثلثُمائةٍ سَرَارِىُّ. وقِيلَ بالعَكْسِ: ثَلثُمائةٍ حَرَائِرُ وسَبْعُمائةٍ مِن الإِماءِ[1].

وقد كان يُطِيقُ من التَّمتُّعِ بالنِّساءِ أمرًا عظيمًا جدًّا.

قال البخاريُّ[2]: حَدَّثَنا خالدُ بنُ مَخْلَدٍ، حدَّثنا مُغِيرَةُ بنُ عبدِ الرحمنِ، عن أبى الزِّنادِ، عنِ الأَعْرَجِ، عنْ أبى هُريرةَ، [١/٢٢٩ظ] عن النبىِّ ﷺ، قال: «قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً، تَحْمِلُ كُلُّ امْرَأَةٍ فَارِسًا يُجَاهِدُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ. فَقَالَ لَهُ صَاحِبُه: إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَلَمْ يَقُلْ، فَلَمْ تَحْمِلْ شَيْئًا، إِلَّا وَاحِدًا سَاقِطًا أَحَدُ شِقَّيْهِ». فقَالَ النَّبِىُّ ﷺ: «لَوْ قَالَهَا لَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ». وقال شُعَيْبٌ وابنُ أبى الزِّنادِ: «تِسْعِينَ». وهو أَصَحُّ. تفرَّدَ به البخاريُّ مِن هذا الوَجْهِ.

وقال أبو يَعْلَى[3]: حَدَّثَنا زُهَيْرٌ، حَدَّثَنا يَزِيدُ، أنبأنا هشامُ بنُ حَسَّانَ، عن محمدٍ، عن أبى هُريرةَ قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ سُلَيْمَانُ بنُ دَاوُدَ: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى مِائَةِ امْرَأَةٍ، كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ تَلِدُ غُلَامًا يَضْرِبُ بِالسَّيْفِ فِى سَبِيلِ اللَّهِ. وَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَطَافَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ عَلَى مِائَةِ امْرَأَةٍ، فَلَمْ تَلِدْ مِنْهُنَّ امْرَأَةٌ، إِلَّا امْرَأَةٌ وَلَدَتْ نِصْفَ إِنْسَانٍ». فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ قَالَ:

---

(١) تاريخ الطبرى ٤٨٧/١ بإسناده إلى محمد بن كعب القرظى. وعرائس المجالس ٢٦١. والكامل لابن الأثير ١/ ٢٣٠.

(٢) البخارى (٣٤٢٤).

(٣) لم نجده فى مسند أبى يعلى.

إِنْ شَاءَ اللَّهُ . لَوَلَدَتْ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ غُلَامًا يَضْرِبُ بِالسَّيْفِ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ، عَزَّ وَجَلَّ » . إسنادُه على شرطِ « الصحيحِ »، ولم يُخْرِجُوه مِن هذا الوجهِ .

وقال الإمامُ أحمدُ[1] : حَدَّثَنا هُشَيْمٌ ، ثنا هشامٌ ، عن ابنِ سِيرِينَ ، عن أبى هُريرةَ قال : قال سليمانُ بنُ داودَ : لَأَطُوفَنَّ الليلةَ على مائةِ امرأةٍ ، تَلِدُ كُلُّ واحدةٍ مِنْهُنَّ غُلامًا يُقاتِلُ فى سبيلِ اللَّهِ . ولم يَسْتَثْنِ ؛ فما وَلَدَتْ إلَّا واحدةٌ مِنْهُنَّ بِشِقِّ إنسانٍ . قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « لَوِ اسْتَثْنَى لَوُلِدَ لَهُ مِائَةُ غُلَامٍ ، كُلُّهُمْ يُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ، عَزَّ وَجَلَّ » . تفرَّد به أحمدُ أيضًا .

وقال الإمامُ أحمدُ[2] : حَدَّثنا عبدُ الرَّزَّاقِ ، ثَنَا مَعْمَرٌ ، عن ابنِ طَاوُسٍ ، عن أبيه ، عن أبى هُريرةَ قال : قال رَسولُ اللَّهِ ﷺ : « قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ : لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ بِمِائَةِ امْرَأَةٍ ، تَلِدُ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ غُلَامًا يُقَاتِلُ فى سَبِيلِ اللَّهِ » . قال : « وَنَسِىَ أَنْ يَقُولَ : إِنْ شَاءَ اللَّهُ . فَأَطَافَ بِهِنَّ » . قال : « فَلَمْ تَلِدْ مِنْهُنَّ امْرَأَةٌ ، إِلَّا واحدةٌ نِصْفَ إِنْسَانٍ » . فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « لَوْ قَالَ : إِنْ شَاءَ اللَّهُ . لم يَحْنَثْ ، وَكَانَ دَرَكًا لِحَاجَتِهِ » . وهكذا أخرجاه فى « الصحيحَيْنِ » مِن حديثِ عبدِ الرَّزَّاقِ به مِثْلَه[3] .

وقال إسحاقُ بنُ بِشْرٍ[4] : أنبأَنا مُقاتِلٌ ، عن أبى الزِّنادِ ، وابنُ أبى الزِّنادِ عن أبيه ، عن عبدِ الرحمنِ ، عن أبى هُريرةَ : أَنَّ سليمانَ بنَ داودَ كان له أَرْبَعُمِائَةِ امرأةٍ وَسِتُّمائَةِ سُرِّيَّةٍ ، فَقَالَ يَوْمًا : لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى أَلْفِ امرأةٍ ، فتحمِلُ كلُّ

---

(١) فى المسند ٢/ ٢٢٩. (إسناده صحيح).

(٢) المسند ٢/ ٢٧٥. (إسناده صحيح).

(٣) البخارى (٥٢٤٢). مسلم (١٦٥٤).

(٤) ومن طريق إسحاق بن بشر، أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق ٥/ ٢٥٨.

واحدةٍ مِنْهُنَّ بفارِسٍ يُجَاهِدُ فى سبيلِ اللَّهِ. ولم يَسْتَثْنِ، فطافَ عَلَيْهِنَّ فلم تَحْمِلْ واحدةٌ مِنْهُنَّ إلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ جاءَتْ [١/٢٣٠و] بِشِقِّ إنْسَانٍ. فقال النبيُّ ﷺ: «وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ، لَوِ اسْتَثْنَى فَقَالَ: إنْ شَاءَ اللَّهُ. لَوُلِدَ لَهُ مَا قَالَ، فُرْسَانٌ، وَلَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ». وهذا إسنادٌ ضعيفٌ؛ لحالِ إسحاقَ بنِ بِشْرٍ، فإنه مُنْكَرُ الحديثِ، ولاسِيَّما وقد خالفَ الرِّواياتِ الصِّحاحَ.
وقد كان له، عليه السَّلامُ، مِن أُمُورِ المُلْكِ، واتِّساعِ الدَّوْلَةِ، وكثْرةِ الجُنُودِ وتَنَوُّعِها، ما لم يَكُنْ لأحدٍ قَبْلَه، ولا يُعطِيه اللَّهُ أحدًا بعدَه، كما قال: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦]. وقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾. وقد أعطاه اللَّهُ ذلك بنصِّ الصَّادِقِ المَصْدُوقِ. ولما ذَكَر تعالى ما أَنْعَمَ به عليه، وأَسْدَاه من النِّعَمِ الكاملةِ العظيمةِ إليه، قال: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. أى؛ أَعْطِ مَن شِئْتَ واحْرِمْ مَن شِئْتَ، فلا حسابَ عليكَ، أىْ تَصَرَّفْ فى المالِ كيف شِئْتَ؛ فإنَّ اللَّهَ قد سَوَّغَ لك كلَّ ما تَفْعَلُه مِن ذلك، ولا يُحاسِبُك على ذلك، وهذا شأْنُ النبيِّ المَلِكِ، بخلافِ العبدِ الرَّسولِ؛ فإنَّ مِن شأنِهِ أنْ لا يُعْطِيَ أحدًا، ولا يَمْنَعَ أحدًا، إلَّا بإذنِ اللَّهِ له فى ذلك.

وقد خُيِّرَ نبيُّنا محمدٌ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وسَلامُه عليه، بينَ هذيْنِ المَقَامَيْنِ؛ فاخْتارَ أن يكونَ عبدًا رسولًا[1]. وفى بعضِ الرِّواياتِ[2]: أنَّه اسْتَشارَ جِبْرِيلَ فى ذلك، فأشارَ إليه أنْ تَوَاضَعْ. فاختارَ أن يكونَ عبدًا رسولًا، صَلَوَاتُ اللَّهِ

---

(١) فى المسند ٢/ ٢٣١. (إسناده صحيح).
(٢) الطبرانى فى المعجم الكبير (١٣٣٠٩).

وسلامُه عليه . وقد جَعَلَ اللَّهُ الخِلافةَ والمُلْكَ مِن بَعْدِه فى أُمَّتِه إلى يومِ القيامةِ ، فلا تَزالُ طائفةٌ من أُمَّتِهِ ظاهرِينَ حتى تَقُومَ الساعةُ[1] . فللهِ الحمدُ والمِنَّةُ .

ولَمَّا ذَكَر تعالى ما وَهَبَه لنبيِّه سليمانَ ، عليه السَّلامُ ، مِن خَيْرِ الدنيا ، نَبَّهَ على ما أعَدَّهُ له فى الآخِرةِ مِن الثَّوابِ الجَزِيلِ والأَجْرِ الجميلِ ، والقُرْبَةِ التى تُقَرِّبُه إليه ، والفوزِ العظيمِ والإِكْرامِ بينَ يَدَيْه ، وذلك يومَ المَعادِ والحسابِ ، حيثُ قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ .

---

(١) البخارى (٣١١٦، ٧٣١١، ٣٦٤٠، ٣٦٤١، ٧٤٥٩، ٧٤٦٠). مسلم (١٠٣٧، ١٩٢٠، ١٩٢١).

ذِكْرُ[1] وَفاتِهِ وَمُدَّةِ مُلْكِه وحَياتِه

قال اللَّهُ تبارك وتعالى[2]: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ [سبأ: ١٤]. رَوَى ابنُ جريرٍ، وابنُ أبي حاتمٍ، وغيرُهما[3]، مِن حديثِ إبراهيمَ بنِ طَهْمَانَ، عن عطاءِ بنِ السَّائِبِ، عن سَعيدِ بنِ جُبَيْرٍ، عن ابنِ عباسٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «كَانَ سُلَيْمَانُ نَبِيُّ اللَّهِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، إذا صَلَّى رَأَى شَجَرَةً نَابِتَةً بَيْنَ يَدَيْهِ فَيَقُولُ لَهَا: مَا اسْمُكِ؟ فَتَقُولُ: كَذَا. فَيَقُولُ [١/٢٣٠ظ]: لِأَيِّ شَيْءٍ أَنْتِ؟ فَإِنْ كَانَتْ لِغَرْسٍ، غُرِسَتْ، وَإِنْ كَانَتْ لِدَوَاءٍ، كُتِبتْ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُصَلِّي ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ رَأَى شَجَرَةً بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لَهَا: مَا اسْمُكِ؟ قَالَتِ: الْخَرُّوبُ. قَالَ: لِأَيِّ شَيْءٍ أَنْتِ؟ قَالَتْ: لِخَرَابِ هَذَا الْبَيْتِ. فَقَالَ سُلَيْمَانُ: اللَّهُمَّ عَمِّ عَلَى الْجِنِّ مَوْتِي؛ حَتَّى تَعْلَمَ الإِنْسُ أَنَّ الْجِنَّ لَا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ. فَنَحَتَهَا عَصًا، فَتَوَكَّأَ عليها حَوْلًا والجِنُّ تَعْمَلُ، فَأَكَلَتْها الأَرَضَةُ، فَتَبَيَّنَتِ الْإِنسُ أَنَّ الجِنَّ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا حَوْلًا فى الْعَذَابِ الْمُهِينِ». قال: وكان ابنُ عباسٍ يَقْرَؤُها كذلك. قال: فَشَكَرَتِ الجِنُّ للأَرَضَةِ، فكانتْ تأتيها بالماءِ. لَفْظُ ابنِ جريرٍ. وعطاءٌ الخُراسَانيُّ في حديثِه نَكارَةٌ. وقد رَواه الحافظُ ابنُ عساكرَ، مِن طريقِ سَلَمَةَ بنِ كُهَيْلٍ،

---

(١) سقط من: م، ص.

(٢) التفسير ٦/٤٨٩- ٤٩١.

(٣) تفسير الطبرى ٢٢/ ٧٤. عزاه السيوطى فى الدر المنثور ٥/٢٣٠ لابن أبى حاتم وابن المنذر وابن مردويه.

عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ، عن ابنِ عباسٍ موقوفًا[1]، وهو أَشْبَهُ بالصَّوابِ. واللَّهُ أعلمُ. وقال السُّدِّيُّ فى خبرٍ ذَكَرَه[2] عن أبى مالكٍ وعن أبى صالحٍ، عن ابنِ عباسٍ، وعن مُرَّةَ، عن ابنِ مسعودٍ، وعن أُناسٍ من الصحابةِ: كانَ سليمانُ، عليه السلامُ، يَتَجَرَّدُ[3] فى بيتِ المَقْدِسِ السَّنَةَ والسَّنَتَيْنِ، والشهرَ والشهرَيْنِ، وأَقَلَّ مِن ذلك وأَكْثَرَ، يُدْخِلُ طَعامَه وشرابَه، فأَدْخَلَه فى المرَّةِ[4] التى تُوُفِّىَ فيها، فكان بَدْءَ ذلك أنَّه لم يَكُنْ يومٌ يُصْبِحُ فيه إلَّا نَبَتَتْ فى بيتِ المقدسِ شجرةٌ، فيأتيها فيسألُها: ما اسْمُكِ؟ فتقولُ الشَّجرةُ: اسْمِى كَذَا وَكَذَا. فإنْ كانتْ لِغَرْسٍ غَرَسَها، وإن كانتْ نَبَتَتْ دواءً، قالتْ: نَبَتُّ دواءً لِكَذَا وَكَذَا. فَيَجْعَلُها كذلك، حتى نَبَتَتْ شجرةٌ يُقالُ لها: الخَرُّوبَةُ. فسأَلَهَا: ما اسْمُكِ؟ فقالت: أنا الخَرُّوبَةُ. فقال: ولأىِّ شىءٍ نَبَتِّ؟ فقالت: نَبَتُّ لِخَرابِ هذا المسجدِ. قال سليمانُ: ما كان اللَّهُ لِيُخْرِبَه وأنا حىٌّ، أنتِ التى على وَجْهِكِ هَلاكِى وخرابُ بيتِ المَقْدِسِ. فنَزَعَها وغَرَسَها فى حائِطٍ له، ثم دَخَل المحرابَ، فقام يُصَلِّى مُتَّكِئًا على عصاه، فماتَ ولم تَعْلَمْ به الشياطينُ، وهم فى ذلك يَعملُون له، يَخافُون أن يَخْرُجَ فيُعاقِبَهم، وكانتِ الشياطينُ تَجْتَمِعُ حَوْلَ المِحْرابِ، وكان المحرابُ له كُوًى بين يَدَيْه وخَلْفَه، فكان الشيطانُ الذى يُريدُ أن يَخْلَعَ، يقول: أَلستُ جَلِيدًا[5] إنْ دخلْتُ فخرجْتُ من ذلك الجانبِ؟ فيَدْخُلُ حتى يَخْرُجَ مِن الجانبِ الآخَرِ، فدَخَلَ شيطانٌ من أُولئك فَمَرَّ - ولم يكنْ

---

(١) تاريخ دمشق ٢٢/ ٢٩٦، ٢٩٧.

(٢) تفسير الطبرى ٢٢/ ٧٥. وتاريخه ١/ ٥٠٢، ٥٠٣.

(٣) فى الأصل: «يتحرر». وفى ح: «يتحرز».

(٤) فى الأصل: «المدة».

(٥) الجَلْد والجَلِيد: القوىّ.

شيطانٌ يَنظُرُ إلى سُليمانَ، عليه السَّلامُ، وهو فى المحرابِ إلَّا احْتَرَقَ - ولم يَسْمَعْ صوتَ سليمانَ، ثم رَجَعَ فلم يَسْمَعْ، ثم رَجَعَ فوَقَع فى البيتِ ولم يَحْتَرِقْ، ونَظَرَ إلى سليمانَ، عليه السَّلامُ، قد سَقَطَ ميِّتًا، فخَرَجَ فأَخْبَرَ الناسَ أنَّ سليمانَ قد مات، ففَتَحُوا عَنْه فأَخْرَجُوه، ووَجَدُوا مِنْسَأَتَه - وهى العَصَا بلسانِ الحَبَشَةِ [٢٣١/١و] - قَدْ أَكَلَتْها الأَرَضَةُ، ولم يَعْلَمُوا مُنْذُ كَمْ ماتَ، فوَضَعُوا الأَرَضَةَ على العَصَا، فأَكَلَتْ منها يومًا وليلةً. ثم حَسَبُوا على ذلك النَّحْوِ، فوَجَدُوه قد ماتَ منذُ سنةٍ، وهى قراءةُ ابنِ مسعودٍ: (فَمَكَثُوا يَدْأَبونَ له مِن بعدِ موتِه حولًا كامِلًا). فأَيْقَنَ الناسُ عندَ ذلك أنَّ الجِنَّ كانوا يَكْذِبُون، ولو أنَّهم عَلِمُوا الغَيْبَ لَعَلِمُوا بمَوْتِ سليمانَ، ولم يَلْبَثُوا فى العذابِ سنةً يعملُون له، وذلك قولُ اللهِ، عَزَّ وجَلَّ: ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ يقولُ: تَبَيَّنَ أمْرُهم للناسِ، أنَّهم كانوا يَكْذِبُونَهم. ثم إنَّ الشياطينَ قالُوا للأَرَضَةِ: لو كُنْتِ تَأْكُلِينَ الطَّعامَ لأَتَيْناكِ بأَطْيَبِ الطعامِ، ولو كُنْتِ تَشْرَبِينَ الشرابَ سَقَيْناكِ أَطيبَ الشَّرابِ، ولكنَّا سننْقُلُ إليكِ الماءَ والطِّينَ. قال: فهم يَنْقُلُون إليها ذلك حيثُ كانتْ، قال: أَلمْ تَرَ إلى الطِّينِ الذى يكونُ فى جَوْفِ الخشبِ، فهو ما تَأْتِيها به الشَّياطِينُ شُكْرًا لها. وهذا فيه من الإِسْرائِيلِيَّاتِ التى لا تُصَدَّقُ ولا تُكَذَّبُ.

وقال أبو داودَ فى كتابِ «القَدَرِ»[1]: حَدَّثنا عثمانُ بنُ أبى شَيْبَةَ، حدّثنا قَبِيصَةُ حَدَّثنا سفيانُ، عن الأَعْمَشِ، عن خَيْثَمَةَ، قال: قال سليمانُ بنُ داودَ،

---

(١) ومن طريقه رواه ابن عساكر فى تاريخ دمشق ٢٢/ ٩٥.

عليهما السَّلامُ ، لمَلَكِ الموتِ : إذا أردْتَ أن تَقْبِضَ رُوحِى فأَعْلِمْنى . قال: ما أنا بأَعْلَمَ بذلك مِنك ؛ إنما هى كُتُبٌ تُلْقَى إلىَّ ، فيها تَسْمِيَةُ مَن يَمُوتُ .

وقال أَصْبَغُ بنُ الفَرَجِ ، وعبدُ اللَّهِ بنُ وَهْبٍ[1] ، عن عبدِ الرحمنِ بنِ زيدِ بنِ أسْلَمَ ، قال : قال سليمانُ لمَلَكِ الموتِ : إذا أُمِرْتَ بى فأَعْلِمْنى . فأتاه فقال : يا سليمانُ ، قد أُمِرْتُ بك ، قد بَقِيَتْ لك سُوَيْعَةٌ . فدعا الشياطينَ فبَنَوْا عليه صَرْحًا من قَوارِيرَ ، ليس له بابٌ ، فقام يُصَلِّى فاتَّكَأَ على عصاه . قال : فدَخَلَ عليه مَلَكُ الموتِ ، فقَبَضَ رُوحَه وهو مُتَوَكِّئٌ على عصاه . ولم يصنعْ ذلك فِرارًا من مَلَكِ الموتِ . قال : والجِنُّ تَعْمَلُ بينَ يَدَيْه ويَنْظُرُون إليه ، يَحْسَبُون أنَّه حىٌّ . قال : فبعثَ اللَّهُ دابَّةَ الأَرْضِ ، يَعْنى إلى مِنْسَأَتِه ، فأَكَلَتْها حتى إذا أكَلَتْ جوفَ العَصَا ضَعُفَتْ وثَقُلَ عليها فخرَّ ، فلمَّا رَأَتِ الجنُّ ذلك ، انْفَضُّوا وذَهَبُوا . قال : فذلك قولُه : ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ . قال أَصْبَغُ : وبَلَغَنى عن غيرِه ، أنَّها مَكَثَتْ سنةً تأكلُ فى مِنْسَأَتِه حتى خرَّ . وقد رُوِىَ نَحْوُ هذا عن جماعةٍ مِن السلفِ وغيرِهم[2] . واللَّهُ أعلمُ .

قال إسحاقُ بنُ بِشْرٍ[3] ، عن محمدِ بنِ إسحاقَ ، عن الزُّهْرِىِّ وغيرِه : إنَّ سليمانَ ، عليه السَّلامُ ، عاش [١/٢٣١ظ] ثِنْتَيْنِ وخَمْسِين سنةً ، وكان مُلْكُه أربعين سنةً . وقال إسحاقُ[3] : أَنبأَنا أبو رَوْقٍ ، عن عكْرِمَةَ ، عن ابنِ عباسٍ ، أنَّ

---

(١) تفسير الطبرى ٢٢/ ٧٥، ٧٦ من طريق ابن وهب عن ابن زيد بنحوه . وعزاه فى الدر المنثور ٥/ ٢٣٠ لابن أبى حاتم عن ابن زيد بنحوه .

(٢) منهم عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، انظر الدر المنثور ٥/ ٢٣١.

(٣) تاريخ دمشق ٢٢/ ٢٩٩.

مُلْكَه كان عشرين سنةً . فاللَّهُ أعلمُ . وقال ابنُ جريرٍ : فكان جميعُ عُمرِ سليمانَ ابنِ داودَ ، عليهما السَّلامُ ، نَيِّفًا وخمسينَ سنةً . وفى سنةِ أربعٍ من مُلْكِه ، ابْتَدَأَ ببناءِ بيتِ المَقْدِسِ فيما ذُكِرَ[1] . ثم مَلَكَ بعدَه ابنُه رُحُبْعُمُ[2] ، مُدَّةَ سبعَ عَشْرَةَ سنةً فيما ذَكَرَه ابنُ جريرٍ . قال : ثُمَّ تَفَرَّقَتْ بعدَه مملكةُ بنى إِسْرائيلَ[3] .

(١) تاريخ الطبرى ١/٥٠٣.
(٢) فى الأصل: «زخمتم». وفى ح، ص: «رخعيم». وفى م: «رحبعام». والمثبت من تاريخ الطبرى.
(٣) تاريخ الطبرى ١/٥١٧.

(1) باب ذكر (1) جماعة من أنبياء بني إسرائيل بعد داود وسليمان وقبل زكريا ويحيى، عليهم السلام

فمنهم شعيا[2] بنُ أمصيا. قال محمدُ بنُ إسحاقَ[3]: وكان قَبْلَ زَكَرِيَّا ويَحْيَى، وهو ممَّن بَشَّرَ بعيسَى ومحمدٍ، عليهما السَّلامُ، وكان في زمانِه مَلِكٌ اسْمُه صديقةُ[4] على بني إسرائيلَ ببلادِ بيتِ المقدسِ، وكان سامعًا مُطِيعًا لشعيا فيما يَأْمُرُه به ويَنْهاه عنه من المصالحِ، وكانتِ الأحْداثُ قد عَظُمَتْ في بني إسْرائيلَ، فَمَرِضَ المِلِكُ وخَرَجَتْ في رِجْلِه قُرْحَةٌ، وقَصَدَ بيتَ المقدسِ ملكُ بابِلَ في ذلك الزمانِ، وهو سنحاريبُ، قال ابنُ إسحاقَ: في سِتِّمائةِ ألفِ رايةٍ. وفَزِعَ الناسُ فَزَعًا عظيمًا شديدًا، وقال المَلِكُ للنبيِّ شعيا: ماذا أَوْحَى اللَّهُ إليك في أَمْرِ سنحاريبَ وجُنُودِه؟ فقال: لم يُوحِ إليَّ فيهم شيئًا بَعْدُ. ثم نَزَلَ عليه الوَحْيُ بالأمرِ للمَلِك صديقةَ، بأن يُوصِيَ ويَسْتَخْلِفَ على مُلْكِه مَن يشاءُ؛ فإنَّه قد اقْتَرَبَ أجلُه، فلمَّا أخْبَرَه بذلك أقْبَلَ المِلِكُ على القِبْلَةِ، فصَلَّى وسبَّح

(1 - 1) سقط من: م.

(2) في ص: «شعيب».

(3) تاريخ الطبري 1/ 532- 535.

(4) في م: «حزقيا».

ودَعا وبَكَى ، فقال وهو يَبْكِي ويَتَضَرَّعُ إلى اللّهِ ، عزَّ وجلَّ ، بقَلْبٍ مُخْلِصٍ وتوَكُّلٍ وصَبْرٍ : اللّهُمّ ربَّ الأربابِ وإلَهَ الآلهةِ ، يا رحمنُ يا رحيمُ ، يا مَن لا تأْخُذُه سِنَةٌ ولا نَوْمٌ ، اذْكُرْنِى بعِلْمِى ، وفِعْلِى ، وحُسْنِ قَضائِى على بنى إسرائيلَ ، وذلك كلُّه كان منكَ ، فأنتَ أعْلَمُ به مِن نَفْسِى ، سِرِّى وإعلانى لك . قال : فاستجابَ اللّهُ له ورَحِمَه ، وأَوْحَى اللّهُ إلى شعيا أن يُبَشِّرَه بأنَّه قد رَحِمَ بُكاءَه ، وقد أَخَّرَ فى أجَلِه خَمْسَ عَشْرَةَ سنةً ، وأنْجاه من عَدُوِّه سنحاريبَ . فلمّا قال له ذلك ذَهَبَ عنه الوَجَعُ ، وانقطعَ عنه الشَّرُّ والحُزْنُ ، وخرَّ ساجدًا ، وقال فى سُجُودِه : اللّهُمّ أنتَ الذى تُعْطِى المُلْكَ مَن تشاءُ ، وتَنْزِعُه ممَّن تشاءُ ، وتُعِزُّ مَن تشاءُ ، وتُذِلُّ مَن تشاءُ ، عالمُ الغيبِ والشَّهادةِ ، أنت الأوَّلُ والآخِرُ والظَّاهِرُ والبَاطِنُ ، وأنتَ تَرْحَمُ وتَسْتَجِيبُ دَعْوَةَ المُضطَرِّينَ . فلمّا رَفَع رأسَه ، أَوْحَى اللّهُ إلى شعيا أن يَأْمُرَه أن يَأْخُذَ ماءَ التِّينِ ، فيَجْعَلَه [١/ ٢٣٢و] على قُرْحَتِه ، فَيَشْفَى ويُصْبِحَ قد بَرِئَ . ففعَلَ ذلك فَشُفِيَ ، وأَرْسَلَ اللّهُ على جيشِ سنحاريبَ الموتَ ، فأَصْبَحُوا وقد هَلَكُوا كلُّهم سِوَى سنحاريبَ وخمسةٍ من أصحابِه ، منهم بُخْتُ نَصَّرَ ، فأَرْسَلَ مَلِكُ بنى إسرائيلَ فجاءَ بهم ، فجعلَهم فى الأغلالِ ، وطافَ بهم فى البلادِ على وجهِ التَّنْكِيلِ بهم والإِهانةِ لهم سبعين يومًا ، ويُطْعَمُ كلُّ واحدٍ منهم كلَّ يومٍ رغيفَيْنِ من شَعِيرٍ ، ثم أَوْدَعَهم السِّجْنَ ، وأَوْحَى اللّهُ تعالى إلى شعيا أن يَأْمُرَ الملِكَ بإرسالِهم إلى بلادِهم ، ليُنْذِرُوا قومَهم ما قد حَلَّ بهم ، فلمّا رَجَعُوا جَمَعَ سنحاريبُ قومَه

وأخبرَهم بما قد كان مِن أمْرِهم ، فقال له السَّحَرَةُ والكَهَنَةُ : إنَّا أَخْبَرْناك عن شأنِ ربِّهم وأنبيائِهم فلم تُطِعْنا ، وهى أُمَّةٌ لا يَستطِيعُها أحدٌ مِن ربِّهم . فكان أمرُ سنحاريبَ ممَّا خوَّفَهم اللَّهُ به . ثم مات سنحاريبُ بعدَ سبعِ سِنينَ . قال ابنُ إسحاقَ[1] : ثُمَّ لمَّا ماتَ صديقةُ مَلِكُ بنى إسرائيلَ ، مَرِجَ أمرُهم واخْتَلَطَتْ أحداثُهم ، وكَثُر شَرُّهم ، فأَوْحَى اللَّهُ تعالى إلى شعيا ، فقام فيهم فوَعَظَهم وذَكَّرَهم ، وأخبرَهم عن اللَّهِ بما هو أهلُه ، وأَنْذَرَهم بَأْسَه وعِقابَه إن خالَفُوه وكذَّبُوه ، فلمَّا فَرَغَ مِن مقالتِه عَدَوْا عليه وطلبُوه ليَقْتُلُوه ، فهَرَبَ منهم ، فمرَّ بشجرةٍ فانْفَلَقَتْ له ، فدَخَلَ فيها ، وأَدْرَكَه الشيطانُ فأخذَ بِهُدْبَةِ ثَوْبِهِ فأَبْرَزَهَا ، فلمَّا رَأَوْا ذلك جَاءُوا بالْمِنْشَارِ فوَضَعُوه على الشجرةِ ، فنَشَرُوها ونَشَرُوه معها ، فإنَّا للَّهِ وإنَّا إليه راجِعُون .

---

(١) تاريخ الطبرى ١/ ٥٣٦، ٥٣٧.

ومنهم أرْميَا بنُ حَلْقِيا

مِن سِبْطِ لَاوِى بنِ يعقوبَ

وقد قِيل : إنَّه الخَضِرُ . رَواه الضَّحَّاكُ عن ابنِ عباسٍ[1] . وهو غريبٌ وليس بصحيحٍ . قال ابنُ عساكرَ[2] : جاء فى بعضِ الآثارِ ، أنَّه وَقَفَ على دَمِ يَحْيَى ابنِ زكريَّا وهو يَفُورُ بدِمَشْقَ ، فقال : أيُّها الدَّمُ ، فَتَنْتَ الناسَ فاسْكُنْ . فسَكَن ورَسَبَ حتى غابَ . وقال أبو بكرِ ابنُ أبى الدُّنيا : حَدَّثَنى علىُّ بنُ أبى مريمَ ، عن أحمدَ بنِ حَبَّابٍ ، عن عبدِ اللَّهِ بنِ عبدِ الرحمنِ . قال : قال أَرْميا : أَىْ ربِّ ، أَىُّ عبادِكَ أحبُّ إليكَ ؟ قال : أَكْثَرُهم لى ذِكْرًا الَّذين يَشْتَغِلُون بذِكْرِى عن ذِكْرِ الخَلائِقِ ، الذين لا تَعْرِضُ لهم وساوِسُ الغَنَاءِ[3] ، ولا يُحَدِّثُون أنْفُسَهم بالبقاءِ ، الذين إذا عَرَضَ لهم عَيْشُ الدُّنيا قَلَوْه ، وإذا زُوِىَ عنهم سُرُّوا بذلك . أُولئك أَنْحَلُهم مَحَبَّتِى وأُعْطِيهم فوقَ غاياتِهم .

---

(١) أخرجه الطبرى فى تاريخه ١/٣٦٥ ، ٣٦٦ ، عن وهب بن منبه .

(٢) تاريخ دمشق ٨/ ٢٨.

(٣) فى الأصل : « المعا » . وفى م : « الفناء » . والمثبت موافق لما فى تاريخ دمشق.

ذِكْرُ[1] خرابِ بَيْتِ المَقْدِسِ

وقولُه تعالى[2] : ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ [١/٢٣٢ظ] ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢- ٨]. وقال وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ: أَوْحَى اللَّهُ إلى نبيٍّ مِن أنبياءِ بنى إسْرائيلَ، يُقالُ له: أرْميا، حين ظَهَرَتْ فيهمُ المعاصى، أن قُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَىْ قومِك، فأخْبِرْهم أنَّ لهم قلوبًا ولا يَفْقَهُون، وأَعْيُنًا ولا يُبْصِرُونَ، وآذانًا ولا يَسْمَعُون، وإنِّى تَذَكَّرْتُ صَلاحَ آبائِهِم، فعَطَفَنى ذلك على أبنائِهم، فَسَلْهُم: كيف وَجَدُوا غِبَّ طاعتى؟ وهل سَعِد أحدٌ ممَّن عَصانى بمعصيتى؟ وهل شَقِىَ أحدٌ ممَّن أطاعنى بطاعتى؟ إنَّ الدَّوابَّ تَذْكُرُ أَوْطانَها فَتَنْزِعُ إليها، وإنَّ هؤلاءِ القومَ تَرَكُوا الأمرَ الذى أَكْرَمْتُ عليه آباءَهم، والْتَمَسُوا الكرامةَ مِن غيرِ

---

(١) سقط من: م.

(٢) التفسير ٥/ ٤٢- ٤٥.

وجهِها ، أمَّا أحْبارُهم فأنْكَرُوا حقِّى ، وأمَّا قُرَّاؤُهم فعَبَدُوا غيرِى ، وأمَّا نُسّاكُهم فلم يَنْتَفِعُوا بما عَلِمُوا ، وأمَّا وُلاتُهم فكَذَبُوا علىَّ وعَلَى رُسُلِى ، خَزَنُوا المكرَ فى قلوبهم ، وَعَوَّدُوا الكَذِبَ ألسنتَهم . (١ وإنِّى أُقْسِمُ بِجَلالى وعِزَّتى ، لأُهَيِّجَنَّ عليهم جيولًا لا يَفْقَهُون ألسنتَهم (١) ، ولا يَعْرِفُون وُجُوهَهم ، ولا يَرْحَمُون بُكاءَهم ، ولأَبْعَثَنَّ فيهم مَلِكًا جَبّارًا قاسِيًا ، له عَساكرُ كقِطَعِ السَّحابِ ، ومواكبُ كأمثالِ العَجَاجِ (٢) ، كأنَّ خَفَقَانَ راياتِهِ طَيَرانُ النُّسُورِ ، وكأنَّ حَمْلَ فرسانِهِ كرُّ العِقْبانِ ، يُعِيدُون العُمْرانَ خَرَابًا ، ويَتْرُكُون القُرَى وَحْشَةً ، فيا وَيْلَ إيلِيَاءَ وسُكّانِها ، كيف أُذَلِّلُهم للقتلِ ، وأُسَلِّطُ عليهم السِّبَاءَ (٣) ، وأُعِيدُ بَعْدَ لَجَبِ (٤) الأعْراسِ صُرَاخًا ، وبعدَ صَهِيلِ الخيْلِ عُوَاءَ الذِّئابِ ، وبعدَ شُرَافَاتِ القُصُورِ مَساكِنَ السِّباعِ ، وبعدَ ضَوْءِ السُّرُجِ وَهَجَ العَجَاجِ ، وبالعِزِّ الذُّلَّ ، وبالنِّعْمَةِ العُبُودِيَّةَ ، وأُبَدِّلَنَّ نساءَهم بعدَ الطِّيبِ التُّرابَ ، وبالمَشْيِ على الزَّرَابِيِّ (٥) الخَبَبَ (٦) . ولأَجْعَلَنَّ أجسادَهم زِبْلًا للأرضِ ، وعِظامَهم (٧) ضاحِيَةً للشمسِ ، ولأَدُوسَنَّهم بألْوانِ العَذابِ ، ثُمَّ لآمُرَنَّ السماءَ فَلَتَكُونَنَّ طَبَقًا من حديدٍ ، والأرضَ سَبِيكَةً مِن نُحاسٍ ، فإن أمْطَرَتْ ، لم تُنْبِتِ الأرضُ ، وإن أنبتتْ شيئًا فى خِلالِ ذلك ، فبرَحْمَتِى للبهائمِ ، ثُمَّ أَحْبِسُه فى زمانِ الزَّرْعِ ، وأُرْسِلُه فى زمانِ الحَصَادِ [١/٢٣٣و] ، فإن زَرَعُوا فى خلالِ ذلك شيئًا ، سلَّطْتُ عليه الآفَةَ ،

(١ - ١) سقط من : ص .

(٢) فى ح ، م : « الفجاج » .

(٣) السِّباء : الأسْر .

(٤) فى الأصل : « صخب » . وفى ح : « لحب » . واللجب : ارتفاع الأصوات .

(٥) والزرابى : كلُّ ما بُسط واتُّكِئ عليه .

(٦) الخبب : العَدْو .

(٧) فى ح ، م : « عظامهن » .

فإن خَلَصَ منه شَىْءٌ نَزَعْتُ منه البَرَكَةَ ، فإن دَعَوْنِى لم أُجِبْهم ، وإن سَأَلُوا لم أُعْطِهم ، وإن بَكَوْا لم أَرْحَمْهم ، وإن تَضَرَّعُوا صَرَفْتُ وَجْهِى عنهم . رَواه ابنُ عساكرَ بهـذا اللفظِ[1] .

وقال إسحاقُ بنُ بِشْرٍ[2] : أنبأنا إدريسُ ، عن وَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ قال : إنّ اللَّهَ تعالى لَمَّا بَعَثَ أرْمِيَا إلى بنى إسرائيلَ ، وذلك حينَ عَظُمَتِ الأَحْداثُ فيهم ؛ فعَمِلُوا بالمعاصِى وقَتَلُوا الأنبياءَ ، طَمِعَ بُخْتُ نَصَّرَ فيهم ، وقَذَفَ اللَّهُ فى قلبِه ، وحَدَّثَ نَفْسَه بالمَسِيرِ إليهم ؛ لَمَّا أرادَ اللَّهُ أن يَنْتَقِمَ به منهم ، فأَوْحَى اللَّهُ إلى أرْميا ؛ أنّى مُهْلِكٌ بنى إسْرائيلَ ، ومُنْتَقِمٌ منهم ، فَقُمْ على صَخْرَةِ بيتِ المقدسِ ؛ يأتيكَ أمرِى ووَحْيِى . فقام أرْمِيَا فشَقَّ ثِيابَه ، وجَعَلَ الرَّمادَ على رأسِه ، وخَرَّ ساجِدًا ، وقال : ياربِّ ، وَدِدْتُ أُمِّى لم تَلِدْنِى حين جَعَلْتَنِى آخِرَ أنبياءِ بنى إسْرائيلَ ، فيَكونُ خَرابُ بيتِ المقدسِ ، وبَوارُ بنى إسرائيلَ من أجلِى . فقيل له : ارْفَعْ رَأْسَكَ . فرَفَع رأسَه فبَكَى ، ثم قال : يا رَبِّ ، مَنْ تُسَلِّطُ عليهم؟ قال : عَبَدَةَ النِّيرانِ ؛ لا يَخافُون عِقابِى ، ولا يَرْجُون ثوابِى ، قُمْ يا أرْميا فاسْتَمِعْ وَحْيِى ، أُخْبِرْكَ خَبَرَك وخبرَ بنى إسْرائيلَ ؛ مِن قَبْلِ أن أَخْلُقَكَ اخْتَرْتُكَ ، ومِن قبلِ أن أُصَوِّرَكَ فى رَحِمِ أُمِّك ، قَدَّسْتُك ، ومِن قبلِ أن أُخْرِجَك من بطنِ أُمِّك طَهَّرْتُك ، ومِن قبلِ أن تَبْلُغَ نَبَّأْتُكَ ، ومِن قبلِ أن تَبْلُغَ[3] الأَشُدَّ اخْتَرْتُك ، ولأمرٍ عظيمٍ اجْتَبَيْتُكَ ، فقُمْ مع الملِكِ ، تُسَدِّدُه وتُرْشِدُه . فكان مع الملِكِ يُرْشِدُه ويَأْتِيه

(١) فى تاريخ دمشق ٨/ ٢٩، ٣٠.
(٢) أخرجه من طريقه ابن عساكر فى تاريخ دمشق ٨/ ٣٤- ٤١. ومن طريقه أيضًا ابن الجوزى فى المنتظم ١/ ٤٠١- ٤٠٦ مختصرًا عن هذا.
(٣) بعده فى الأصل: «الحلم».

الوَحْىُ من اللَّهِ، حتى عَظُمَتِ الأحْداثُ، ونَسُوا ما نَجَّاهُمُ اللَّهُ مِن عَدُوِّهم سنحاريبَ وجُنُودِه، فأَوْحَى اللَّهُ إلى أرْمِيَا؛ قُمْ فاقْصُصْ عليهم ما آمُرُكَ به، وذَكِّرْهم نِعْمَتِى عليهم، وعَرِّفْهم أحْداثَهم. فقال أرْمِيا: يا ربِّ، إنِّى ضعيفٌ إن لم تُقَوِّنى، عاجِزٌ إن لم تُبَلِّغْنى، مُخْطِئٌ إن لم تُسَدِّدْنى، مَخْذُولٌ إن لم تَنْصُرْنى، ذَلِيلٌ إن لم تُعِزَّنى. فقال اللَّهُ تعالى له: أَوَ لَمْ تَعْلَمْ أنَّ الأُمُورَ كلَّها تَصْدُرُ عن مَشِيئَتِى، وأنَّ (١الخَلْقَ و١) الأمرَ كلَّه لى، وأنَّ القُلوبَ والألْسِنَةَ كلَّها بيدِى، فأُقَلِّبُها كيف شِئْتُ فتُطِيعُنى(٢)، فأنا اللَّهُ الذى ليس شَىْءٌ مِثْلِى، قامتِ السمواتُ والأرضُ وما فيهنَّ بكَلِمَتى، وأنَّه لا يَخْلُصُ التوحيدُ ولم تَتِمَّ القُدرةُ إلَّا لى، ولا يَعلمُ ما عندِى غيرِى، وأنا الذى كَلَّمْتُ البحارَ ففَهِمَتْ قَوْلى، وأَمَرْتُها ففَعَلَتْ أمرِى، وحَدَدْتُ عليها حُدُودًا، فلا تَعْدُو حَدِّى، وتأتى بأمْواجٍ كالجبالِ، فإذا بَلَغَتْ حَدِّى أَلْبَسْتُها مَذَلَّةً لطاعتى، وخوفًا، واعْتِرافًا لأَمْرِى، وإنِّى معكَ، ولن يَصِلَ إليكَ شىءٌ معى، وإنِّى بَعَثْتُكَ إلى خَلْقٍ [١/٢٣٣ظ] عظيمٍ مِن خَلْقِى؛ لِتُبَلِّغَهم رسالاتى، فتَسْتَوْجِبَ لذَلك(٣) أجرَ (٤مَنِ اتَّبَعَكَ٤)، ولا يَنْقُصُ ذلك مِن أُجورِهم شيئًا (٥وإن تُقَصِّرْ عنها، تَسْتَحِقَّ بذلك وِزْرَ مَن تَرَكْتَه فى عمايَةٍ، ولا يَنْقُصُ ذلك من أوْزارِهم شيئًا٥)، انْطَلِقْ إلى قومِك، فَقُمْ فيهم، وقُلْ لهم: إنَّ اللَّهَ قد ذكَرَكُم بصلاحِ آبائِكم؛ فلذلك استبقاكم يا معشرَ

(١ - ١) سقط من: الأصل.
(٢) سقط من: ص.
(٣) فى ح: «كذلك».
(٤ - ٤) فى ح: «منى أنفعك».
(٥ - ٥) سقط من: م، ص.

أبناءِ الأنبياءِ ، كيف وَجَدَ آباؤُكم مَغَبَّةَ طاعتى ، وكيف وجدتُم مَغَبَّةَ معصيتى ؟ وهل وجدُوا أحدًا عصانى فَسَعِدَ بمعصيتى ؟ وهل عَلِمُوا أحدًا أطاعنى فشَقِىَ بطاعتى ؟ إنَّ الدَّوابَّ إذا ذَكَرَتْ أوطانَها الصالحةَ نَزَعَتْ إليها ، وإنَّ هؤلاءِ القومَ رَتَعُوا فى مُرُوجِ الهَلَكَةِ ، وتَرَكُوا الأمرَ الذى به أكرمْتُ آباءَهم ، وابْتَغَوُا الكرامةَ مِن غيرِ وجهِها . أمَّا أَحْبارُهم ورُهْبانُهم ، فاتَّخَذُوا عبادِى[(١)] خَوَلًا يَتَعَبَّدُونهم ، ويَحْكُمُون فيهم بغيرِ كتابِى ، حتى أَجْهَلُوهم أمْرِى وأَنْسَوْهم ذِكْرِى وسُنَّتِى ، وَغَرُّوهم[(٢)] عنِّى ، فدانَ لهم عبادِى بالطاعةِ ، التى لا تَنْبَغِى [(٣)]إلَّا لى[(٣)] ، فهم يُطيعُونهم فى معصيتى . وأمَّا ملوكُهم وأُمراؤُهم ، فَبَطِرُوا نعمتى ، وأَمِنُوا مَكْرِى ، وغَرَّتْهُم الدُّنيا ، حتى نَبَذُوا كتابِى ، وَنَسُوا عهدِى ، فهم يُحَرِّفُون كتابِى ، ويَفْتَرُون على رُسُلِى ؛ جُرْأَةً منهم علىَّ وَغِرَّةً بى . فسبحانَ جَلالِى وعُلُوِّ مكانِى ، وعظمةِ شأنِى ، هل يَنبغِى أن يكونَ لى شَرِيكٌ فى مُلْكِى ! وهل يَنبغِى لبَشَرٍ أن يُطاعَ فى معصيتى ! وهل يَنبغِى لى أن أَخْلُقَ عبادًا أَجْعَلُهم أربابًا مِن دونى ! أو آذَنَ لأحَدٍ بالطاعةِ لأحدٍ ! وهى لا تَنْبَغِى إلَّا لى ! وأمَّا قُرَّاؤُهم وفقهاؤُهم ، فَيَدْرُسُون ما يَتَخَيَّرُونَ ، فيَنْقادُون للملوكِ ، فيُتابِعُونهم[(٤)] على البِدَعِ التى يَبْتَدِعُون فى دِينِى ، ويُطيعُونهم فى معصيتى ، ويُوفُون لهم بالعُهُودِ النّاقِضَةِ لعَهْدِى ، فهم جَهَلَةٌ بما يَعْلَمُون ، لا يَنْتَفِعُون بشَىْءٍ ممَّا عَلِمُوا من كتابِى . وأمَّا

---

(١) فى الأصل : « عبادتى » .
(٢) فى الأصل : « وغزوهم » . وفى ح ، م : « وعزوهم » .
(٣ - ٣) سقط من : ح .
(٤) فى ص : « يبايعونهم » .

أولادُ النَّبِيِّين ، فَمَقْهورون ومَفتُونون ؛ يَخُوضُون مع الخائِضِين ، يَتَمَنَّوْن مِثْلَ نَصْرِى آباءَهم ، والكرامةَ التى أكْرَمْتُهم بها ، ويَزْعُمون أنَّه لا أحدَ أَوْلَى بذلك مِنْهم ، بغيرِ صِدْقٍ منهم ، ولا تَفَكُّرٍ ، ولا يَذْكُرون كيف كان صبرُ آبائِهم ، وكيف كان جُهْدُهم فى أمرِى ، حتى[1] اغْتَرَّ المُغْتَرُّون ، وكيف بَذَلُوا أنفسَهم ودماءَهم ، فصَبَرُوا وصَدَقُوا ، حتى عَزَّ أمرِى ، وظَهَرَ دِينى ، فتَأَنَّيْتُ هؤلاءِ القومَ ، [2]لعلَّهم يَسْتَحْيُونَ[2] مِنِّى ويَرْجِعُون ، فَتَطَوَّلْتُ عليهم وصَفَحْتُ عنهم ، فأَكْثَرْتُ ومَدَدْتُ لهم فى العُمُرِ ، وأَعْذَرْتُ لهم[3] لعلَّهم يَتَذَكَّرُون ، وكُلُّ ذلك أُمْطِرُ عليهم السماءَ ، وأُنْبِتُ لهمُ الأَرضَ ، وأُلْبِسُهم العافِيَةَ ، وأُظْهِرُهم على العَدُوِّ ، ولا يَزْدادُون إلَّا طُغْيانًا وبُعْدًا منِّى ، فحتى متى هذا ! أَبِى يَسْخَرُون ! أم بى يَتَمَرَّسُون[4] ! أم إيّاىَ يُخادِعُون ! أم عَلَىَّ [٢٣٤/١و] يَجْتَرِئُونَ ! فإنِّى أُقْسِمُ بِعِزَّتِى ، لَأُتِيحَنَّ لهم[5] فتنةً يَتَحَيَّرُ فيها الحليمُ[6] ، ويَضِلُّ فيها رَأْىُ ذَوِى الرَّأْيِ ، وحكمةُ الحكيمِ ، ثُمَّ لَأُسَلِّطَنَّ عليهم جَبَّارًا قاسِيًا عاتِيًا ، أُلْبِسُه الهَيْبَةَ ، وأَنْزِعُ من قَلْبِه الرَّأْفَةَ والرحمةَ ، وآلَيْتُ أن يَتْبَعَه عددٌ وسَوادٌ مثلُ اللَّيْلِ المُظْلِمِ ، له فيه عساكرُ مِثْلُ قِطَعِ السَّحابِ ، ومواكبُ مِثْلُ العَجاجِ ، وكأنَّ حَفِيفَ راياتِه طَيَرانُ النُّسورِ ، وحَمْلَ فُرْسانِه كسِرْبِ العِقْبان ، يُعِيدُون العُمْرانَ خَرابًا ، والقُرَى وَحْشًا ، ويَعِيثُون فى الأرضِ فسادًا ، ويُتَبِّرُون ما عَلَوْا تَتْبِيرًا ، قاسيةٌ قلوبُهم ؛ لا

---

(١) فى ح ، م : « حين » .
(٢ - ٢) فى ص : « يستخفون » .
(٣) سقط من : الأصل .
(٤) فى م : « يتحرشون » . وفى ص : « يتمرشون » .
(٥) فى م : « عليهم » .
(٦) فى م : « الحكيم » .

يَكْتَرِثُون ، ولا يَرِقُّون[1] ، ولا يَرْحَمُون ، ولا يُبْصِرُون ، ولا يَسْمَعُون ، يَجُولُون فى الأسواقِ بأصواتٍ مُرتفعةٍ مِثْلِ زَئِيرِ الأُسْدِ ، تَقْشَعِرُّ من هَيْبَتِها الجُلُودُ ، وتَطِيشُ مِن سَمْعِها الأحلامُ ، بأَلْسِنَةٍ لا يَفْقَهُونَها ، ووُجُوهٍ ظاهِرٍ عليها المُنْكَرُ لا يَعْرِفُونها . فَوَعِزَّتِى لأُعَطِّلَنَّ بُيُوتَهم مِن كُتُبِى[2] وقُدْسِى ، ولأُخْلِيَنَّ مَجالِسَهم مِن حَدِيثِها ودُرُوسِها ، ولأُوحِشَنَّ مساجدَهم من عُمَّارِها وزُوَّارِها ، الذين كانوا يَتَزَيَّنُون بعمارتِها لغَيْرِى ، ويَتَهَجَّدُون فيها ويَتَعَبَّدُون لكَسْبِ الدُّنيا بالدِّينِ ، ويَتَفَقَّهُون فيها لغيرِ الدِّينِ ، ويَتعلَّمُون فيها لغيرِ العملِ . لَأُبَدِّلَنَّ ملوكَها بالعزِّ الذُّلَّ ، وبالأَمْنِ الخَوْفَ ، وبالغِنى الفقرَ ، وبالنِّعْمَةِ الجُوعَ ، وبطُولِ العافِيَةِ والرَّخاءِ أَلْوانَ البَلاءِ ، وبِلِباسِ الدِّيباجِ والحريرِ مَدارِعَ الوَبَرِ والعَبَاءَ ، وبالأَرْواحِ الطَّيِّبَةِ والأَدْهانِ جِيَفَ القَتْلَى ، وبلباسِ التِّيجانِ أطواقَ الحديدِ والسلاسلَ والأغلالَ . ثُمَّ لَأُعِيدَنَّ فيهم بعدَ القُصُورِ الواسعةِ والحُصُونِ الحَصِينةِ الخرابَ ، وبعدَ البُرُوجِ المُشَيَّدَةِ مَساكِنَ السِّباعِ ، وبعدَ صَهِيلِ الخَيْلِ عُواءَ الذِّئابِ ، وبعدَ ضَوْءِ السِّراجِ دُخانَ الحريقِ ، وبعدَ الأُنْسِ الوَحْشةَ والقِفَارَ . ثُمَّ لَأُبَدِّلَنَّ نساءَها بالأَسْوِرَةِ الأغلالَ ، وبقَلائِدِ الدُّرِّ والياقُوتِ سلاسلَ الحديدِ ، وبألوانِ الطِّيبِ والأَدْهانِ النَّقْعَ والغُبارَ ، وبالمَشْيِ على الزَّرَابِيِّ عُبُورَ الأسواقِ والأنهارِ والخَبَبَ إلى الليلِ فى بطونِ الأسواقِ ، وبالخُدُورِ والسُّتُورِ الحُسُورَ عن الوُجُوهِ والسُّوقِ والإِسْفارَ ، وَالأرواحِ السَّمُومَ ، ثُمَّ لَأَدُوسَنَّهم بأَنْواعِ العَذابِ ، حتى لو كان الكائِنُ منهم فى حالِقٍ ، لَوَصَلَ ذلك إليه . إنِّى إنَّما أُكْرِمُ مَن أَكْرَمَنِى ، وإنَّما أُهِينُ مَن هَانَ عليه أَمْرِى . ثُمَّ لَآمُرَنَّ السماءَ خِلالَ ذلك ؛ فَلَتَكُونَنَّ عليهم طَبَقًا مِن حديدٍ ، ولَآمُرَنَّ

---

(١) فى الأصل : « يرمون » . وفى م : « يرقبون » .
(٢) فى الأصل : « كنفى » .

الأرضَ ، فَلَتَكُونَنَّ سَبِيكَةً مِن نُحاسٍ ، فلا سماءَ تُمطِرُ ولا أرضَ تُنبِتُ ، فإن أمطرَتْ [١/٢٣٤ظ] خلالَ ذلك شيئًا ، سَلَّطْتُ عليه[1] الآفةَ ، فإن خَلُصَ منه شَئْءٌ نَزَعْتُ منه البركةَ ، وإن دَعَوْنى لم أُجِبْهُم ، وإن سألُونى لم أُعْطِهم ، وإن بَكَوْا لم أَرْحَمْهم ، وإن تَضَرَّعُوا إلىَّ ، صَرَفْتُ وَجْهِى عنهم . وإن قالوا : اللَّهُمَّ أنتَ الذى ابْتَدَأْتَنا وآباءَنا مِن قَبْلِنا برحمتِك وكرامتِك ، وذلك بأنَّك اخْتَرْتَنا لنَفْسِكَ ، وجَعَلْتَ فينا نُبُوَّتَك وكِتابَك ومساجدَك ، ثم مَكَّنْتَ لنا فى البلادِ ، واسْتَخْلَفْتَنا فيها ، وَرَبَّيْتَنا[2] وآباءَنا مِن قَبْلِنا بنعمتِك صِغارًا ، وَحَفِظْتَنا وإيَّاهم بِرَحْمَتِك كبارًا ، فأنْتَ أَوْفَى المُنْعِمِين ، (3)فلا تُغَيِّرْ(3) وإنْ غَيَّرْنا ، ولا تُبَدِّلْ وإنْ بَدَّلْنا ، (4)وأنْ تُتِمَّ فَضْلَكَ وَمَنَّكَ وَطَوْلَك وإحسانَكَ(4) . فإن قالُوا ذلك ، قلتُ لهم : إنى أَبْتَدِئُ عبادِى بِرَحْمَتِى ونِعْمَتِى ، فإن قَبِلُوا أَتْمَمْتُ ، وإن استَزادُوا زِدْتُ ، وإنْ شَكَرُوا ضاعَفْتُ ، وإن بَدَّلُوا[5] غَيَّرْتُ ، وإذا غَيَّرُوا غَضِبْتُ ، وإذا غَضِبْتُ عَذَّبْتُ ، وليس يَقومُ شئْءٌ لغَضَبِى . قال كَعْبٌ : فقال أرميا : بِرَحْمَتِك أصْبَحْتُ أتكلَّمُ[6] بينَ يَدَيْكَ ، وهل يَنْبَغِى ذلك لى ، وأنا أَذَلُّ وأَضْعَفُ مِن أن يَنبغِيَ لى أن أتكلَّمَ بينَ يَدَيْك ، ولكنْ بِرَحْمَتِك أبقَيْتَنِى لهذا اليومِ ، وليس أحدٌ أحقَّ أن يَخافَ هذا العذابَ وهذا الوعيدَ منِّى ، بما رَضِيتَ به مِنِّى طَوْلًا ، والإقامةِ فى دارِ الخاطِئِين وهم يَعْصُونَكَ حَوْلِى بغيرِ نَكِيرٍ[7] ولا تغييرٍ منِّى ، فإنْ

---

(١) فى ح ، م : « عليهم » .

(٢) فى الأصل : « وزينتنا » .

(٣ - ٣) سقط من : ح ، م ، ص .

(٤ - ٤) فى الأصل ، ح ، والتاريخ : « وأن تتم نعمته وفضله ومَنُّه وطَوله وإحسانه » . وفى ص : « وأن يتم نعمته وفضله وطَوله وإحسانه » .

(٥) فى ح : « غيرلوا » . وفى م ، ص : « غيروا » .

(٦) فى النسخ : « أتعلم » . والمثبت من مختصر تاريخ دمشق ٢٤٣/٤ .

(٧) فى ح ، م : « نكر » .

تُعَذِّبْنى فبِذَنْبِى ، وإنْ تَرْحَمْنى فذلك ظَنِّى بك . ثُمَّ قال: يا ربِّ ، سُبحانَك وبحمدِك ، وتبارَكْتَ رَبَّنا وتعالَيْتَ ، أَتُهْلِكُ هذه القريةَ وما حَوْلَها ، وهى مساكنُ أنبيائِك ، ومَنْزِلُ وَحْيِكَ ؟ يا ربِّ ، سُبحانَك وبحمدِك ، وتبارَكْتَ ربَّنا وتعالَيْتَ لِخَرَبِ هذا المسجدِ وما حولَه من المساجدِ ، ومِن البُيُوتِ التى رُفِعَتْ لِذِكْرِكَ ؟ يا ربِّ ، سُبحانَك وبحمدِك ، وتبارَكْتَ وتعالَيْتَ لِمَقْتِكَ[1] هذه الأُمَّةَ وعذابِكَ إيَّاهم وهم مِن وَلَدِ إبراهيمَ خَليلِك ، وأُمَّةِ موسى نَجِيِّك ، وقومِ داودَ صَفِيِّكَ ، يا ربِّ ، أىُّ القُرَى تَأْمَنُ عُقُوبتَك [2]بَعْدَ أورشليمَ ؟[2] وأىُّ العبادِ يأمنُون سَطْوَتَكَ بعدَ ولدِ خليلِك إبراهيمَ ، وأُمَّةِ نَجِيِّك موسَى ، وقومِ خَليفَتِك داودَ ؟ تُسَلِّطُ عليهم عَبَدَةَ النيرانِ ! قال اللَّهُ تعالى : يا أرْمِيَا ، مَن عَصَانى فلا يَسْتَنْكِرْ نِقْمَتى[3] ؛ فإنِّى أكْرَمْتُ هؤلاءِ القومَ على طاعتى ، ولو أنَّهم عَصَوْنى لأَنْزَلْتُهم دارَ العاصِينَ ، إلَّا أن أتَدارَكَهُم بِرَحْمَتى . قال أرْمِيَا : يا ربِّ ، اتَّخَذْتَ إبراهيمَ خَليلًا ، وحَفِظْتَنا به ، وموسى قَرَّبْتَه نَجِيًّا ، فنسأَلُكَ أن تَحْفَظَنا ولا تَتَخَطَّفَنا ، ولا تُسَلِّطَ عَلَينا عَدُوَّنا . فأَوْحى اللَّهُ إليه : يا أرْمِيَا ، إنِّى قَدَّسْتُكَ فى بَطْنِ أُمِّكَ ، وأَخَّرْتُكَ إلى هذا اليومِ ، فلو أَنَّ قومَكَ حَفِظُوا اليتامَى والأَرامِلَ والمساكينَ وابنَ السَّبيلِ ، لَكُنْتُ[4] الدّاعمَ لهم ، وكانوا [١/٢٣٥و] عِنْدِى بمنزلةِ جَنَّةٍ ناعمٍ شَجَرُها ، طاهرٍ ماؤُها ، ولا يَغُورُ ماؤُها ، ولا تَبُورُ ثِمارُها ولا تَنْقَطِعُ ،

---

(١) فى ح ، م ، ص : « لمقتل » .
(٢ - ٢) سقط من : م . وفى الأصل : « بعذرٍ وسالم » . وفى ح : « بعد روشلم » . وفى ص : « وسلم » . والتصحيح من تاريخ دمشق .
(٣) فى ص : « نعمتى » .
(٤) فى م : « لمكنت » .

ولكنْ سأَشْكُوا إليكَ بنى إسرائيلَ؛ إنّى كنتُ لهم بمنزلةِ الرَّاعى[1] الشفيقِ، أُجَنِّبُهُمْ كُلَّ قَحْطٍ وكُلَّ عسرةٍ[2]، وأُتْبِعُ بهم الخصْبَ، حتى صاروا كِبَاشًا يَنْطَحُ بعضُها بعْضًا، فيا وَيْلَهُم ثُمَّ يا وَيْلَهم، إنَّما أُكْرِمُ مَنْ أَكْرَمَنى، وأُهِينُ مَنْ هان عليْهِ أَمْرِى، إنَّ مَنْ كان قَبْلَ هؤلاءِ القومِ مِن القُرُونِ يَسْتَخْفُون بمعصيتى، وإنَّ هؤلاءِ القومَ يَتَبَرَّعُون بمعصيتى تَبَرُّعًا؛ فيُظْهِرُونها فى المساجدِ والأسْواقِ، وعلى رُؤُوسِ الجبالِ، وظِلالِ الأَشْجارِ، حتى عَجَّتِ السَّماءُ إلىَّ منهم، وَعَجَّتِ الأرضُ والجبالُ، ونَفَرَتْ منها الوُحُوشُ بأَطْرافِ الأَرضِ وأقاصِيها، وفى كُلِّ ذلك لا يَنْتَهُون ولا يَنْتَفِعُون بما عَلِمُوا مِنَ الكِتابِ. قال: فلَمَّا بَلَّغَهم أَرْمِيَا رسالةَ رَبِّهِمْ، وسَمِعُوا ما فيها مِن الوعيدِ والعَذابِ، عَصَوْه وكَذَّبُوه واتَّهَمُوه، وقالوا: كَذَبْتَ وعَظَّمْتَ على اللَّهِ الفِرْيَةَ، فتَزْعُمُ أنَّ اللَّهَ مُعَطِّلٌ أَرْضَه ومساجِدَه مِن كتابِه وعبادَتِه[3] وتوحيدِهِ، فَمَنْ يعبُدُهُ حينَ لا يَبْقَى له فى الأَرضِ عابدٌ ولا مَسْجِدٌ ولا كِتابٌ؟ لقد أَعْظَمْتَ الفِرْيَةَ على اللَّهِ، واعْتَرَاكَ الجنونُ. فَأَخَذُوه وَقَيَّدُوه وسَجَنُوه، فعِنْدَ ذلك بَعَثَ اللَّهُ عليهم بُخْتُ نَصَّرَ، فأَقْبَلَ يَسِيرُ بجُنُودِهِ حتى نَزَلَ بساحَتِهم، ثُمَّ حاصَرَهُم، فكان كما قال تعالى[4]: ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ [الإسراء: ٥]. قال: فلَمَّا طالَ بهمُ الحَصْرُ، نزلُوا على حُكْمِه، ففَتَحُوا الأَبْوابَ، وتخلَّلُوا الأَزِقَّةَ، وذلك قولُه تعالى: ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾. وحَكَمَ فيهم حُكْمَ الجاهليَّةِ وبَطْشَ

---

(١) فى م، ص: «الداعى».
(٢) فى الأصل، والتاريخ: «غرة».
(٣) فى الأصل: «وعباده».
(٤) التفسير ٥/ ٤٤.

الجبَّارِين ، فقَتَلَ منهم الثُّلُثَ ، وَسَبَى الثُّلُثَ ، وتَرَك الزَّمْنَى والشُّيوخَ والعَجائِزَ ، ثم وَطِئَهم بالخيلِ ، وهَدَم بيْتَ المَقْدِسِ ، وساق الصِّبْيانَ ، وأَوْقَفَ النِّساءَ فى الأَسواقِ مُحْسَرَاتٍ ، وقَتَلَ المُقَاتِلَةَ ، وخَرَّبَ الحُصُونَ ، وَهَدَّم المساجِدَ ، وَحَرَّقَ التَّوْراةَ ، وسأَلَ عن دانيالَ ، الذى كان كتبَ له الكتابَ ، فوَجَدَه قد مات ، وأَخْرَجَ أهلُ بَيْتِهِ الكتابَ إليه ، وكان فيهم دانيالُ بنُ حِزْقِيلَ الأَصْغَرُ ، ومِيشائِيلُ ، وعزْرائِيلُ ، ومِيخائِيلُ ، فأَمْضَى لهم ذلك الكتابَ ، وكان دانيالُ بنُ حِزْقِيلَ خَلَفًا مِن دانيالَ الأَكبرِ ، ودَخَلَ بُخْتُ نَصَّر بجنودِه بيْتَ المقدسِ ، وَوَطِئَ الشَّامَ كلَّها ، وقَتَلَ بنى إسرائيلَ حتى أَفْناهم ، فلمَّا فَرَغَ منها ، انصرفَ راجِعًا ، وحَمَلَ الأموالَ التى كانتْ بها ، وساق السَّبايا ، فبَلَغ معه عِدَّةُ صِبْيانِهم من أَبْناءِ الأَحْبَارِ والملوكِ ، تسعينَ[1] ألفَ غُلامٍ ، وقذَفَ الكُناساتِ فى بيتِ المَقْدِسِ [١/٢٣٥ظ] ، وذَبَحَ فيهِ الخنازيرَ ، وكان الغلمانُ سبعةَ آلافِ غُلامٍ مِن بيْتِ داودَ ، وأَحَدَ عَشَرَ ألفًا مِن سِبْطِ يوسفَ بنِ يعقوبَ وأخيه بِنْيامينَ ، وثمانيةَ آلافٍ مِن سِبْطِ إيشا بنِ يعقوبَ ، وأربعةَ عَشَرَ ألفًا مِن سِبْطِ زبالونَ ونفتالى ابنَىْ يعقوبَ ، وأربَعَةَ عَشَرَ أَلفًا مِن سِبْطِ دانِ بنِ يعقوبَ ، (٢وثمانيَةَ آلافٍ مِن سِبْطِ يستاخرَ بنِ يعقوبَ٢) ، وأَلفَيْنِ مِن سِبْطِ رايلونَ[3] بنِ يعقوبَ ، وأربعَةَ آلافٍ مِن سِبْطِ روبيلَ ولاوِى ، واثْنَىْ عَشَرَ أَلفًا مِن سائرِ بنى إسرائيلَ ، وانْطلَقَ حتى قَدِمَ أرضَ بابِلَ .

---

(١) كذا فى النسخ ، وفى تاريخ الطبرى ١/ ٥٥٣ : « سبعين ألف » . ومجموع الغلمان المذكورين فى أثر كعب : « ثمانون ألفًا » .

(٢ - ٢) سقط من : ح .

(٣) فى م : « زبالون » . وفى التاريخ : « رالون » .

قال إسحاقُ بنُ بِشْرٍ : قال وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ : فلمَّا فَعَلَ ما فَعَلَ ، قيلَ له : كان لهم صاحبٌ يُحَذِّرُهم ما أَصَابَهُم ، وَيَصِفُكَ وخَبَرَكَ لهمْ ، ويُخْبِرُهُم أَنَّكَ تقتُلُ مُقاتِلَتَهُم ، وتَسْبِى ذَرارِيَّهم ، وتَهْدِمُ مساجِدَهم ، وتُحرِقُ كنائِسَهم ، فكَذَّبُوه ، واتَّهَمُوه ، وضربُوه ، وقيَّدُوه وحَبَسُوه . فأَمَرَ بُخْتُ نَصَّرَ ، فأُخْرِجَ أَرْمِيَا مِن السِّجْنِ ، فقال له : أَكُنْتَ تُحَذِّرُ هؤلاءِ القومَ ما أصابَهُم ؟ قال : نَعَمْ . قال : فإنِّى عَلِمْتُ ذلك . قال : أَرْسَلَنِى اللَّهُ إليهم فكذَّبُونى . قال : كَذَّبُوك وضربُوكَ وسجنُوك ؟ قال : نعم . قال : بِئسَ القومُ قومٌ كذَّبُوا نبيَّهم ، وكَذَّبوا رسالةَ ربِّهم ، فهلْ لَكَ أَنْ تَلْحَقَ بِى ، فأُكْرِمَكَ وأُواسِيَكَ ، وإِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ تُقِيمَ فى بلادِك ، فَقَد أَمَّنْتُكَ . قال له أرْمِيَا : إنِّى لم أَزَلْ فى أمانِ اللَّهِ منذُ كنتُ ، لم أخْرُجْ مِنه ساعةً قَطُّ ، ولو أنَّ بنى إسرائيلَ لم يَخْرُجُوا منه ، لم يخافُوكَ ولا غيرَكَ ، ولم يَكُنْ لكَ عليهم سُلْطانٌ . فلمَّا سَمِعَ بُخْتُ نَصَّرَ هذا القولَ منه ، تَرَكَه ، فَأَقَامَ أَرْمِيَا مكانَه بأَرْضِ إِيلِيَاءَ . وهذا سياقٌ غريبٌ ، وفيه حِكَمٌ ومَواعِظُ وأشياءُ مَلِيحَةٌ ، وفيه مِن جِهَةِ التَّعْرِيبِ غَرابةٌ .

وقال هشامُ بنُ محمدِ بنِ السَّائبِ الكَلْبِيُّ[١] : كان بُخْتُ نَصَّرَ أَصْفَهْبَذًا[٢] لِمَا بينَ الأَهوازِ إلى الرُّومِ ؛ لِلْمَلِكِ على[٣] الفُرْسِ وهو لهراسبُ ، وكان قد بَنَى مدينةَ بَلْخَ التى تُلَقَّبُ بـ « الحَنْسَاءِ »[٤] ، وقاتَلَ التُّرْكَ ، وأَلْجَأَهُم إلى أَضْيَقِ الأَماكِنِ ،

---

(١) تاريخ الطبرى ١/ ٥٣٨، ٥٣٩ .

(٢) الأَصْفَهْبَذ : الأمير . وهى فارسية . وهى فى تاريخ الطبرى - كما جاءت بالمعاجم - : « أصبهبذ » ، بالباء .

(٣) فى ح : « جاء » .

(٤) كذا فى النسخ . وفى تاريخ الطبرى : « الحسناء » .

وبَعَثَ بُخْتُ نَصَّرَ لِقِتَالِ بنى إسرائيلَ بالشامِ، فلَمَّا قَدِمَ الشَّامَ صالحَهُ أهلُ دِمَشْقَ، وقد قِيلَ: إنَّ الذى بَعَثَ بُخْتُ نَصَّرَ، إنَّما هو بهمنُ مَلكُ الفرسِ بعدَ بشتاسبَ بنِ لهراسبَ؛ وذلك لتَعَدِّى بنى إسْرائِيلَ على رُسُلِه إليهم. وقد رَوَى ابنُ جريرٍ[1]، عن يونسَ بنِ عبدِ الأَعْلَى، عن ابنِ وَهْبٍ، عن سليمانَ بنِ بلالٍ، عن يَحْيَى بنِ سعيدٍ الأَنصاريِّ، عن سعيدِ بنِ المُسَيَّبِ، أنَّ بُخْتُ نَصَّرَ لَمَّا قَدِمَ دِمَشْقَ، وَجَدَ بها دَمًا يَغْلِى على كِبًا - يَعْنِى القمامةَ - فسأَلَهم: ما هذا الدَّمُ؟ فقالوا: أَدْرَكْنَا آباءَنا على هذا، وكُلَّما ظَهَرَ عَلَيْهِ الْكِبَا ظَهَرَ. قال: فقَتَلَ على ذلكَ سبعين [١/٢٣٦و] ألفًا من المسلمين وغيرِهم، فَسَكَنَ. وهذا إسْنَادٌ صحيحٌ إلى سعيدِ بنِ المُسَيَّبِ، وقد تَقَدَّمَ مِن كلامِ الحافظِ ابنِ عَساكرَ[2] ما يدلُّ على أنَّ هذا دَمُ يَحْيَى بنِ زكريّا، وهذا لا يَصِحُّ؛ لأَنَّ يَحْيَى بنَ زَكَرِيَّا بعدَ بُخْتُ نَصَّرَ بمُدَّةٍ، والظَّاهِرُ أَنَّ هذا دَمُ نبيٍّ مُتقدِّمٍ، أو دَمٌ لبعضِ الصَّالحينَ، أَوْ لمن شَاءَ اللَّهُ ممَّنِ اللَّهُ أعلمُ به. قال هشامٌ ابنُ الكَلْبِيِّ: ثُمَّ قَدِمَ بُخْتُ نَصَّرَ بيتَ المقدسِ، فصالحَه مَلِكُها، وكان مِن آلِ داودَ، وصانَعَه عن بنى إسرائيلَ، وأَخَذَ منه بُخْتُ نَصَّرَ رَهائِنَ ورَجَعَ، فلمَّا بَلَغَ طَبَرِيَّةَ بَلَغَه أنَّ بنى إسرائيلَ ثارُوا على مَلِكِهم فقَتَلُوه لأَجْلِ أنَّه صالحَه، فَضَرَبَ رِقابَ مَنْ معه من الرَّهائنِ ورَجَعَ إليهم، فأَخَذَ المدينةَ عَنْوَةً، وَقَتَلَ المُقَاتِلَةَ وَسَبَى الذُّرِّيَّةَ. قال: وَبَلَغَنا أنَّه وَجَدَ فى السِّجْنِ أَرْمِيا النبيَّ، فأَخْرَجَه، وقَصَّ عليه ما كانَ مِن أمْرِه إيَّاهم، وتَحْذيرِه لهم عن ذلك، فَكَذَّبُوه وسَجَنُوه، فقال بُخْتُ نَصَّرَ: بِئْسَ القومُ قومٌ عَصَوْا رَسُولَ

---

(١) فى تفسيره ١٥/ ٢٩، ٣٠.

(٢) تقدم ص ٣٦٠ .

اللَّهِ . وخَلَّى سبيلَه وأحْسَنَ إليهِ . واجْتَمَعَ إلَيْه مَن بَقِيَ مِن ضُعَفَاءِ بنى إسرائيلَ ، فقالوا : إنَّا قد أَسَأْنا وظَلَمْنا ، ونحنُ نَتُوبُ إلى اللَّهِ ، عَزَّ وَجَلَّ ، مِمَّا صَنَعْنا ، فادْعُ اللَّهَ أَن يَقْبَلَ تَوْبَتَنا . فدعا رَبَّه ، فأَوْحَى اللَّهُ إلَيْهِ أَنَّه غيرُ فاعلٍ ، فإن كانوا صادِقِينَ فلْيُقِيمُوا معك بهذه البَلْدَةِ . فأَخْبَرَهم ما أَمَرَه اللَّهُ تعالى به ، فقالوا : كيف نُقِيمُ بهذه البَلْدَةِ وقد خَرِبَتْ ، وَغَضِبَ اللَّهُ على أهلِها ! فَأَبَوْا أن يُقِيمُوا . قال ابنُ الكَلْبِيِّ : ومِن ذلك الزَّمانِ تَفَرَّقَتْ بنو إسرائيلَ فى البلادِ ، فنَزَلَتْ طائفةٌ منهم الحِجازَ ، وطائفةٌ يَثْرِبَ ، وطائفةٌ وادِىَ القُرَى ، وَذَهَبَتْ شِرْذِمَةٌ منهم إلى مِصْرَ ، فكَتَبَ بُخْتُ نَصَّرَ إلى مَلِكِها ، يطلبُ منه مَنْ شَرَدَ منهم إليه ، فَأَبَى عليه ، فَرَكِبَ فى جيشِه ، فقاتَلَه وقَهَرَه وغَلَبَه ، وَسَبَى ذَرَارِيَّهم ، ثُمَّ رَكِبَ إلى بلادِ المَغْرِبِ ، حتى بَلَغَ أَقْصَى تلكَ النَّاحِيَةِ . قال : ثم انْصَرَفَ بِسَبْيٍ كثيرٍ مِن أرضِ المَغْرِبِ ، ومصرَ ، وأهلِ بيتِ المَقْدِسِ ، وأرضِ فِلَسْطِينَ ، والأُرْدُنِّ ، وفى السَّبْيِ دانيالُ . قلتُ : والظَّاهِرُ أَنَّه دانيالُ بنُ حِزْقِيلَ الأَصغرُ لا الأَكبرُ ، على ما ذَكَرَه وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ[1] ، واللَّهُ أعلمُ .

---

(١) تقدم ص ٣٦٣ حاشية (٢) .

ذِكْـــرُ[1] شـىءٍ مِـن خَـبَرِ

دَانيالَ، عليه السَّلامُ

قال ابنُ أبى الدُّنْيا : حَدَّثنى أحمدُ بنُ عبدِ الأَعْلَى الشَّيْبانِىُّ ، قال : إِنْ لم أَكُنْ سَمِعْتُه مِن شُعَيْبِ بنِ صَفْوانَ ، فحدَّثِنى بعضُ أصْحابِنا عنه ، عن الأَجْلَحِ الكِنْدِىِّ ، عن عبدِ اللَّهِ بْنِ أَبى الهُذَيْلِ قال : ضَرَّى[2] بُخْتُ نَصَّرَ أَسَدَيْن ، فأَلْقاهُما فى جُبٍّ وجَاءَ بدانيالَ فَأَلْقاه [١/٢٣٦ظ] عليهما ، فَلَمْ يَهِيجَاهُ[3] فَمَكَثَ ما شاءَ اللَّهُ ، ثمَّ اشْتَهى ما يَشْتَهِى الآدَمِيُّون مِن الطَّعامِ والشَّرابِ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إلى أَرْمِيَا وهو بالشَّامِ : أَن أَعْدِدْ طَعَامًا وَشَرابًا لدانيالَ . فقال : يا ربِّ ، أنا بالأَرضِ المقَدَّسةِ ، ودانيالُ بِأَرْضِ بابِلَ مِن أَرضِ العِراقِ . فأَوْحَى اللَّهُ إليْهِ : أَن أَعْدِدْ ما أَمَرْناك بِهِ ، فإنَّا سنُرْسِلُ مَن يَحْمِلُك وَيَحْمِلُ ما أَعْدَدْتَ . ففَعَلَ ، وأرسلَ اللَّهُ إليه مَن حَمَلَه وحَمَلَ ما أعدَّ ، حتى وَقَفَ على رأسِ الجُبِّ فقال : دانيالُ ، دانيالُ . فقال : مَنْ هذا ؟ (٤قال : أنا أرمِيَا . فقال : ما جاءَ بكَ ؟ فقال : أَرْسَلَنى إليك رَبُّك . قال : وقد ذَكَرَنى رَبِّى ؟٤) قال : نعم . فقال دانيالُ : الحمدُ للَّهِ الذى لا يَنْسَى مَن ذَكَره ، والحمدُ للَّهِ الذى (٥لا يُخَيِّبُ٥) مَنْ رَجَاه ،

---

(١) سقط من : م .
(٢) أى جعلهما مولعَيْن بأكل اللحم ، فلا يكادان يصبران عنه .
(٣) فى الأصل : « يصحباه » .
(٤ - ٤) سقط من : ح .
(٥ - ٥) فى م : « يجيب » .

والحمدُ للَّهِ الذى مَن وَثِقَ به لم يَكِلْهُ إلى غَيْرِه ، والحمدُ للَّهِ الذى يَجْزِى بالإحسانِ إحسانًا ، والحمدُ للَّهِ الذى يَجْزِى بالصَّبْرِ نَجاةً ، والحمدُ للَّهِ الذى هو يَكْشِفُ ضُرَّنا بعدَ كَرْبِنا ، والحمدُ للَّهِ الذى هو ثِقَتُنا حينَ تَسُوءُ ظُنُونُنا بأعمالِنا ، والحمدُ للَّهِ الذى هو رَجاؤُنا حين تَنْقَطِعُ الحِيَلُ عنَّا .

وقال يونُسُ بنُ بُكَيْرٍ ، عن[1] محمدِ بنِ إسحاقَ عن أبى خَلْدَةَ خالِدِ بنِ دينارٍ ، حدَّثنا أبو العالِيَةِ قال : لمَّا افْتَتَحْنا تُسْتَرَ وَجَدْنا فى مالِ بَيْتِ الهُرْمُزانِ سريرًا ، عليه رجلٌ مَيِّتٌ ، عندَ رَأْسِهِ مُصْحَفٌ ، فأَخَذْنا المصحفَ ، فحَمَلْناه إلى عمرَ بنِ الخطَّاب ، فدعا له كَعْبًا فنَسَخَه بالعَرَبِيَّةِ ، فأَنا أولُ رَجُلٍ مِن العَرَبِ قَرَأَه ، قَرَأْتُه مِثْلَ ما أَقْرَأُ القرآنَ هذا . فقلتُ لأَبِى العاليةِ : ما كانَ فيه ؟ قال : سِيَرُكُم وأمورُكم ولُحُونُ كَلامِكُم ، وما هو كائِنٌ بعدُ . قلتُ : فما صَنَعْتُم بالرَّجُلِ ؟ قال : حَفَرْنَا بالنَّهارِ ثلاثةَ عشرَ قَبْرًا مُتَفَرِّقَةً ، فلمَّا كانَ باللَّيْلِ دفَنَّاه ، وسوَّيْنَا القُبُورَ كُلَّها ؛ لنُعَمِّيَه على النّاسِ فلا يَنْبُشُونَه . قلتُ : فما يَرْجُونَ مِنْه ؟ قال : كانتِ السَّماءُ إذا حُبِسَتْ عنهم ، بَرَزُوا بسَرِيرِه ، فيُمْطَرُون . قلتُ : مَنْ كنتم تَظُنُّونَ الرَّجُلَ ؟ قال : رجلٌ يُقالُ له : دانيالُ . قلتُ : مُنْذُ كَمْ وَجَدْتُمُوه قد مات ؟ قال : منذُ ثلثِمائةِ سَنَةٍ . قلتُ : ما تَغَيَّرَ منه شَىْءٌ ؟ قال : لا ، إلَّا شَعَرَاتٌ مِن قَفَاهُ ؛ إنَّ لحومَ الأنبياءِ لا تُبْلِيها الأَرضُ ولا تَأْكُلُها السِّباعُ . وهذا إسنادٌ صحيحٌ إلى أبى العاليةِ ، ولكن إن كانَ تاريخُ وفاتِهِ محفوظًا مِن ثَلثِمائة سنةٍ ، فليس بنبىٍّ ، بل هو رجلٌ صالحٌ ؛ لأَنَّ عيسى ابنَ مريمَ ليس بينه وبينَ رسولِ اللَّهِ

---

(١) فى ص : « ابن » .

ﷺ نبيٌّ، بنصِّ الحديثِ الذي في البخاريِّ[1]، والفَتْرَةُ التي كانت بينَهما أَربعُمائةِ سنةٍ، [2]وقيل: ستُّمائةٍ[2]. وقيل: ستُّمائةٍ وعشرون سنةً. وقد يكونُ تاريخُ وفاتِه مِن ثَمانِمائةِ سنةٍ، وهو قريبٌ من وقتِ دانيالَ، إن كان [١/٢٣٧و] كونُه دانيالَ هو المطابقَ لِمَا في نَفْسِ الأَمْرِ؛ فإنَّه قد يكونُ رجُلًا آخَرَ؛ إمَّا مِن الأَنبياءِ أو الصّالحين، ولكنْ قَرَّبَتِ الظُّنونُ أنَّه دانيالُ؛ لأَنَّ دانيالَ كان قد أَخذَه مَلِكُ الفُرْسِ، فأَقامَ عندَه مسجونًا، كما تقدَّمَ. وقد رُوِىَ بإسنادٍ صحيحٍ إلى أبي العاليةِ، أَنَّ طُولَ أَنْفِهِ شِبْرٌ. وعن أَنَسِ بنِ مالِكٍ، بإسنادٍ جَيِّدٍ، أَنَّ طُولَ أَنْفِه ذِراعٌ. فَيَحْتَمِلُ على هذا أنْ يكونَ رَجُلًا من الأنبياءِ الأَقْدَمِين قَبْلَ هذه المُدَدِ. واللَّهُ أعلمُ.

وقد قال أبو بكرٍ ابنُ أبي الدُّنيا في كتابِ «أحكامِ القُبورِ[3]»: حدَّثنا أبو بلالٍ محمدُ بنُ الحارثِ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ أبي بُرْدَةَ بنِ[4] أبي موسى الأَشْعَرِيِّ، حَدَّثنا أبو محمدٍ القاسمُ بنُ عبدِ اللَّهِ، عن أبي الأَشْعَثِ الأَحْمَرِيِّ قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «إنَّ دَانيَالَ دَعَا رَبَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، أَنْ تَدْفِنَهُ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ». فلمَّا افْتَتَح أبو موسى الأَشْعَرِيُّ تُسْتَرَ، وَجَدَه في تابُوتٍ، تَضْرِبُ[5] عُرُوقُه ووَرِيدُه، وقد كان رسولُ اللَّهِ ﷺ قال: «مَنْ دَلَّ عَلَى دَانيَالَ، فَبَشِّرُوهُ بِالْجَنَّةِ». فكان الذي دَلَّ عليه رجلٌ يُقالُ له: حُرْقُوصٌ، فكَتَبَ أبو موسى إلى عمرَ بخَبَرِه،

---

(١) البخاري (٣٤٤٢).
(٢ - ٢) سقط من: الأصل، ص.
(٣) في الأصل: «الفتور».
(٤) في الأصل: «عن».
(٥) في الأصل، ص: «فضرب». وتضرب: تنبض.

فكتبَ إليهِ عُمَرُ ، أَنِ ادْفِنْه ، وابعثْ إلى حُرْقُوصٍ ؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ بَشَّرَه بالجنَّةِ . وهذا مُرْسَلٌ من هذا الوجْهِ ، وفى كَوْنِه محفُوظًا نَظَرٌ . واللَّهُ أعلمُ .

ثم قال ابنُ أبى الدُّنيا : حَدَّثنا أبو بلالٍ ، حَدَّثنا قاسمُ بنُ عبدِ اللَّهِ ، عن عَنْبَسَةَ بنِ سعيدٍ - وكان عَالِمًا - قال : وَجَدَ أبو موسى مع دانيالَ مُصْحَفًا ، وجَرَّةً فيها وَدَكٌ[1] ودَراهِمَ ، وخاتَمَه ، فكتب أبو موسى بذلك إلى عمرَ ، فكتبَ إليه عمرُ : أَمَّا المصحفُ فابْعَثْ به إلينَا ، وأَمَّا الوَدَكُ فابْعَثْ إلَيْنا منه ، ومُرْ مَن قِبَلَكَ مِن المسلمين يَسْتَشْفُون[2] به ، واقْسِم الدَّراهمَ بينَهم ، وأمَّا الخاتَمُ فقد نَفَلْنَاكَهُ . ورَوَى ابنُ أبى الدُّنْيا مِن غيرِ وجهٍ ، أنَّ أبا موسى لَمَّا وَجَدَه ، وذَكَرُوا له أنّه دانيالُ ، الْتَزَمَه وعانَقَه وقَبَّلَه ، وكَتَبَ إلى عُمَرَ يَذْكُرُ له أَمْرَه ، وأنَّه وَجَدَ عندَه مالًا موضوعًا ، قريبًا مِن عَشَرَةِ آلافِ دِرْهَمٍ ، وكان مَنْ جاءَ اقْتَرَضَ منها ، فإنْ رَدَّها ، وإلَّا مَرِضَ[3] ، وأنَّ عندَه رَبْعَةً[4] ، فأَمَرَ عمرُ بأَنْ يُغَسَّلَ بماءٍ وسِدْرٍ ، ويُكَفَّنَ ويُدْفَنَ ، ويُخْفَى قَبْرُه ، فلا يَعْلَمَ به أَحَدٌ ، وأَمَرَ بالمالِ أن يُرَدَّ إلى بيْتِ المالِ ، وبالرَّبْعَةِ فتُحْمَلُ إليه ، ونَفَلَه خاتَمَه . ورُوِىَ عن أبى موسى ، أنَّه أمَرَ أَربعةً مِن الأُسَراءِ فسَكَرُوا[5] نهرًا ، وحَفَرُوا فى وَسَطِهِ قَبْرًا ، فدَفَنَه فيهِ ، ثمَّ قَدَّمَ الأربعَةَ الأُسَراءِ فضَرَبَ أَعناقَهم ، فلم يَعْلمْ مَوْضِعَ قَبْرِهِ غيرُ أبى موسى الأَشْعَرِىِّ ، رَضِىَ اللَّهُ عنه [١/٢٣٧ظ] .

---

(١) الوَدَك : الدَّسَم .

(٢) فى ص : « يستسقون » .

(٣) فى الأصل ، ص : « برص » .

(٤) الربعة : جؤنة العطار ، والجونة : سُلَيْلَة مستديرة مغشاة أدما تكون مع العطارين .

(٥) فى الأصل : « سكرا » . وسكروا النهر : سدُّوه .

وقال ابنُ أبى الدُّنْيا : حدَّثنى إبراهيمُ بنُ عبدِ اللَّهِ ، حَدَّثَنا أَحمدُ بنُ عمرٍو ابنِ السَّرْحِ ، حدَّثنا ابنُ وَهْبٍ ، عن عبدِ الرحمنِ بنِ أبى الزِّنادِ ، عن أبيهِ قال : رأيتُ فى يَدِ أبى[1] بُرْدَةَ بنِ أبى موسى الأَشْعَرِىِّ خاتَمًا ، نَقْشُ فَصِّهِ أَسَدَانِ بَيْنَهُما رَجُلٌ ، يَلْحَسَانِ ذلكَ الرَّجُلَ ، قال أبو بُرْدَةَ : هذا خاتَمُ ذلكَ الرَّجُلِ المَيِّتِ ، الذى زَعَمَ أَهْلُ هذه البَلْدَةِ أَنَّه دانيالُ ، أَخَذَه أبو موسى يومَ دَفَنَه . قال أبو بُرْدَةَ : فسأل أبو موسى علماءَ تلكَ القريةِ عنْ نَقْشِ ذلك الخاتَمِ ، فقالوا : إنَّ المَلِكَ الذى كان دانيالُ فى سُلطانِه ، جاءَه المُنَجِّمُون وأَصْحابُ العِلْمِ ، فقالوا له : إنَّه يُولَدُ ليلةَ كذا وكذا غلامٌ يَعُورُ[2] مُلْكَكَ ويُفْسِدُه . فقال المَلِكُ : واللَّهِ لا يَبْقَى تلكَ الليلةَ غلامٌ إلَّا قَتَلْتُه . إلَّا أنَّهم أَخَذُوا دانيالَ ، فأَلْقَوْه فى أَجَمَةِ الأَسَدِ ، فباتَ الأَسَدُ ولَبْوَتُه يَلْحسانِهِ ، ولم يَضُرَّاه ، فجاءتْ أُمُّه فوَجَدَتْهُما يَلْحَسانِه ، فَنَجَّاه اللَّهُ بذلك ، حتى بَلَغَ ما بَلَغَ . قال أبو بُرْدَةَ : قال أبو موسى : قال علماءُ تلك القريةِ : فَنَقَشَ دانيالُ صُورَتَه وصورةَ الأَسَدَيْنِ يَلْحَسانِه فى فَصِّ خَاتَمِهِ ؛ لِئَلَّا يَنْسَى نِعْمَةَ اللَّهِ عليه فى ذلك . إسنادٌ حَسَنٌ .

---

(١) فى ح ، م : « ابن » .

(٢) فى ص : « يغور » . وعار يَعُور : أَتْلَفَ .

(1)وهذا ذِكْرُ(1) عمارةِ بَيْتِ المَقْدِسِ بَعْدَ خَرابِها ، واجتماعِ بنى إسرائيلَ بعدَ تَفرُّقِهم فى بِقاعِ الأرضِ

قال اللَّهُ تعالى فى كتابِه المُبِينِ ، وهو أَصْدَقُ القائلين[2] : ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٩] . قال هشامٌ ابنُ الكَلْبِيِّ : ثُمَّ أَوْحَى اللَّهُ تعالى إلى أَرْمِيا ، عليه السلامُ - فيما بَلَغَنى - أنّى عامِرٌ بيتَ المَقْدِسِ ، فاخْرُجْ إليها ، فانْزِلْها . فَخَرَجَ حتى قَدِمَها وهى خَرابٌ ، فقال فى نَفْسِه : سُبْحانَ اللَّهِ ، أَمَرَنى اللَّهُ أنْ أَنْزِلَ هذِهِ البَلْدَةَ ، وأَخْبَرَنى أنَّه عامِرُها ، فمتَى يَعْمُرُها ، ومتى يُحْيِيها اللَّهُ بعدَ مَوْتِها ؟ ثُمَّ وَضَعَ رأسَهُ فنامَ ومعه حمارُه وَسَلَّةٌ من طعامٍ ، فَمَكَثَ فى نَوْمِهِ سبعين سنةً

(١ - ١) سقط من : م.

(٢) التفسير ١/ ٤٦٤، ٤٦٥.

حتى هَلَكَ بُخْتُ نَصَّرَ ، والمَلِكُ الذى فوقَه وهو لهراسبُ ، وكان مُلْكُهُ مائةً وعشرين سنةً ، وقامَ بعدَه وَلَدُه بشتاسبُ بنُ لهراسبَ ، وكان موتُ بُخْتُ نَصَّرَ فى دولتِه ، فَبَلَغَهُ عن بلادِ الشَّامِ أَنَّهَا خَرابٌ ، وأَنَّ السِّباعَ قد كَثُرَتْ فى أَرضِ فِلَسْطِينَ ، فلم يَبْقَ بها من الإِنْسِ أَحدٌ ، فنادَى فى أَرْضِ بابِلَ ، فى بنى إسرائيلَ [٢٣٨/١و] ، أَنَّ مَن شَاءَ أَنْ يَرْجِعَ إلى الشَّامِ ، فَلْيَرْجِعْ ، وملَّكَ عليهم رَجُلًا مِن آلِ داودَ ، وأَمَرَه أَن يَعْمُرَ بيتَ المَقْدِسِ ، ويَبْنِىَ مَسْجِدَها ، فَرَجَعُوا فَعَمَرُوها ، وفَتَحَ اللَّهُ لأَرْميا عَيْنَيْه ، فنَظَرَ إلى المدينةِ ، كيف تُبْنَى وكيفَ تُعَمَّرُ ، ومَكَثَ فى نومِهِ ذَلك حتى تَمَّتْ له مِائةُ سنةٍ ، ثم بَعَثَه اللَّهُ ، وهو لا يَظُنُّ أَنَّه نامَ أَكْثَرَ مِن ساعةٍ ، وقد عَهِدَ المدينةَ خَرابًا ، فلمَّا نَظَرَ إليها عامِرَةً آهِلَةً قال : أعلمُ أَنَّ اللَّهَ على كلِّ شئٍ قديرٌ . قالَ : فَأَقَامَ بنو إسرائيلَ بها ، ورَدَّ اللَّهُ عليهم أَمْرَهم[(1)] ، فمَكَثُوا كذلك حتى غَلَبَتْ عليهم الرومُ فى زَمَنِ ملوكِ الطَّوائِفِ ، ثُمَّ لم يَكُنْ لهم جماعةٌ ولا سلطانٌ ، يَعْنِى بعدَ ظُهُورِ النَّصارَى عليهم . هكذا حكاهُ ابنُ جريرٍ فى « تاريخِه » عنه[(2)] . [(3)]وذكر ابنُ جريرٍ[(4)] ، أَنَّ لهراسبَ كان مَلِكًا عادلًا سائِسًا لِمَمْلَكَتِه ، قد دانَتْ له العبادُ والبلادُ ، والملوكُ والقُوَّادُ[(3)] وأَنَّه كان ذا رَأْيٍ جَيِّدٍ فى عِمارةِ الأَمْصَارِ والأَنْهارِ والمعاقلِ ، ثُمَّ لَمَّا ضَعُفَ عن تدبيرِ المملكةِ ، بعدَ

---

(١) فى ح : « أمره » .
(٢) فى تاريخه ١/ ٥٣٩، ٥٤٠.
(٣ - ٣) سقط من : ح .
(٤) فى تاريخه ١/ ٥٤٠، ٥٤١.

مائةِ سنةٍ ونَيِّفٍ ، نَزَلَ عن المُلْكِ لوَلَدِه بشتاسبَ ، فكان فى زمانِه ظهورُ دِينِ المجُوسِيَّةِ ؛ وذلك أنّ رجلًا كان اسمُه زَرَادُشْتَ ، كان قد صَحِبَ أَرْميا ، عليه السَّلامُ ، فأَغْضَبَه ، فدَعا عليه أَرْميا ، فبَرِصَ زَرَادُشتُ ، فذَهَبَ فلَحِقَ بأرضِ أَذْرَبِيجانَ ، وصَحِبَ بشتاسبَ فلَقَّنَه دِينَ المجُوسِيَّةِ الذى اخْتَرَعَه من تِلْقاءِ نَفْسِه ، لَعَنَه اللَّهُ ، فقَبِلَه منه بشتاسبُ ، وحَمَلَ النَّاسَ عليه ، وقَهَرَهم ، وقَتَلَ منهم خَلْقًا كثيرًا مِمَّن أَباه منهم . ثم كان بعدَ بشتاسبَ ، يهمنُ بنُ بشتاسبَ ، وهو مِن مُلوكِ الفُرْسِ المَشْهورِينَ والأَبطالِ المَذْكُورِينَ ، وقَدْ نابَ بُخْتُ نَصَّرَ لكُلِّ واحدٍ مِن هؤلاءِ الثلاثةِ ، وعُمِّرَ دَهْرًا طويلًا ، قَبَّحَه اللَّهُ .

والمقصودُ أنَّ هذا الذى ذَكَرَه ابنُ جريرٍ ، مِن أنَّ هذا المارَّ على هذه القريةِ ، هو أَرْميا ، عليه السَّلامُ ، قاله[1] وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ ، وعبدُ اللَّهِ بنُ عُبَيْدِ بنِ عُمَيْرٍ ، وغيرُهما[2] ، وهو قويٌّ مِن حيثُ السِّياقُ المتقدِّمُ . وقد رُوِىَ عن عليٍّ ، وعبدِ اللَّهِ بنِ سَلَامٍ ، وابنِ عَبّاسٍ ، والحسنِ ، وقتادةَ ، والسُّدِّىِّ ، وسليمانَ بنِ بُرَيْدَةَ ، وغيرِهم[3] أنَّه عُزَيْرٌ . وهذا أَشْهَرُ عندَ كثيرٍ من السَّلَفِ والخَلَفِ . واللَّهُ أعلمُ .

---

(١) فى م : « قال » .
(٢) تفسير الطبرى ٣/ ٢٩. وعزاه السيوطى فى الدر المنثور ١/ ٣٣٣ لابن المنذر وابن أبى حاتم وغيرهما .
(٣) تفسير الطبرى ٣/ ٢٨. والدر المنثور ١/ ٣٣١، ٣٣٢.

وَهذه قِصَّةُ العُزَيْرِ

قال الحافظُ أبو القاسمِ ابنُ عَساكِرَ[1] : هو عُزَيْرُ بنُ حَيْوَةَ[2] ، ويُقَال : ابنُ سوريقَ بنِ عرنا[3] بنِ أيوبَ بنِ درثنا[4] بنِ عرى بنِ تقى بنِ السبوعِ[5] بنِ فنحاصَ بنِ العازِرِ بنِ هارونَ بنِ عِمْرانَ . ويُقالُ : عُزيرُ بنُ شروخا[6] . جاء في بعضِ الآثارِ[7] ، أنَّ قَبْرَه بدِمَشْقَ . ثُمَّ ساق [٢٣٨/١ظ] من طريقِ أبي القاسمِ البَغَوِيِّ ، عن داودَ بنِ عمرٍو ، عن حِبَّانَ[8] بنِ عليٍّ ، عن محمّدِ بنِ كُرَيْبٍ ، عن أبيه[9] ، عن ابنِ عباسٍ مرفوعًا : « لَا أَدْرِى أَلُعِنَ تُبَّعٌ أَمْ لَا ، وَلَا أَدْرِى أَكَانَ عُزَيْرٌ نَبِيًّا أَمْ لَا ؟ » . ثُمَّ رَواه من حَديثِ مُؤَمَّلِ بنِ الحَسَنِ[10] ، عن محمدِ بنِ إسحاقَ السِّجْزِيِّ ، عن عبدِ الرَّزّاقِ ، عن مَعْمَرٍ ، عن ابنِ أبى ذِئْبٍ[11] ، عن سَعِيدٍ المَقْبُرِيِّ ، عن أبى هُريرةَ مرفوعًا نحوَه . ثم رَوَى من طريقِ إسحاقَ بنِ

---

(١) تاريخ دمشق ١١/ ٦٠١، ٦٠٢ مخطوط .

(٢) في النسخ : « جروة » . والمثبت من تاريخ دمشق .

(٣) في ص ، م : « عديا » .

(٤) في ح ، م : « درزنا » .

(٥) في النسخ : « أسبوع » . والمثبت من تاريخ دمشق .

(٦) في الأصل : « سردخا » . وفي ح ، م ، ص : « سروخا » . والمثبت من تاريخ دمشق .

(٧) أخرجه ابن عساكر بسنده في تاريخ دمشق ٢/ ٣٢٣- ٣٢٥ .

(٨) كذا بالنسخ وهو الصواب ، وفي تاريخ دمشق المخطوط : « جبار » . وانظر تهذيب الكمال ٥/ ٣٣٩- ٣٤١ .

(٩) كذا بالنسخ ، وهو الصواب . وفي تاريخ دمشق المخطوط : « ابنه » . وانظر تهذيب الكمال ٢٦/ ٣٣٦، ٣٣٧ .

(١٠) في تاريخ دمشق : « الحسين » . وهو خطأ . وانظر سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢١ .

(١١) في م : « ذؤيب » .

بِشْرٍ، وهو متروكٌ، عن جُوَيْبِرٍ ومُقاتِلٍ، عن الضَّحّاكِ، عن ابْنِ عباسٍ، أنَّ عُزَيْرًا كان مِمَّنْ سَبَاه بُخْتُ نَصَّر وهو غلامٌ حَدَثٌ، فلما بلغَ أربعين سَنَةً أعطاه اللَّهُ الحِكْمَةَ، قال: ولم يَكُنْ أَحَدٌ أحْفَظَ ولا أعْلَمَ بالتوراةِ منه. قال: وكان يُذْكَرُ مع الأنبياءِ، حتى مَحَا اللَّهُ اسْمَه مِن ذلك، حينَ سألَ رَبَّه عن القَدَرِ. وهذا ضعيفٌ وَمُنْقَطِعٌ وَمُنْكَرٌ. واللَّهُ أعلمُ.

وقال إسحاقُ بنُ بِشْرٍ[1]، عن سعيدِ بنِ[2] أبى عَرُوبَةَ، عن قَتادَةَ، عن الحسنِ، عن عبدِ اللَّهِ بنِ سَلَامٍ: إنَّ عُزَيْرًا هو العبدُ الذى أماتَه اللَّهُ مائَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَه.

وقال إسحاقُ بنُ بِشْرٍ[3]: أنبأَنا سعيدُ بنُ بَشِيرٍ، عن قَتادَةَ، عن كعبٍ، وسعيدُ بنُ أبى عَرُوبةَ، عن قَتادةَ، عن الحسنِ، ومُقاتِلٌ، وجُوَيْبِرٌ، عن الضَّحّاكِ، عن ابنِ عباسٍ، وعبدُ اللَّه بنُ إسماعيلَ السُّدِّىُّ، عن أبيه، عن مُجاهِدٍ، عن ابنِ عباسٍ، وإدْرِيسُ، عن جَدِّه وَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ. قال إسحاقُ بنُ بِشْرٍ: كلُّ هؤلاءِ حَدَّثونى عن حديثِ عُزَيْرٍ، وزاد بعضُهم على بَعْضٍ، قالوا بإسنادِهم: إنَّ عُزَيْرًا كان عبدًا صالحًا حكيمًا، خَرَجَ ذاتَ يومٍ إلى ضَيْعَةٍ له يَتَعاهَدُها، فلمَّا انْصَرَفَ انْتَهَى إلى خَرِبَةٍ حينَ قامتِ الظَّهِيرَةُ وأصابه الحَرُّ، ودَخَلَ الخَرِبَةَ وهو على حِمارِه، فنزل عن حِمارِه ومعه سَلَّةٌ فيها تِينٌ، وسَلَّةٌ فِيها عِنَبٌ، فنَزَلَ فى ظِلِّ تلك الخَرِبَةِ وأَخْرَجَ قَصْعَةً معه، فاعْتَصَرَ مِنَ العنبِ الذى

---

(١) تاريخ دمشق ١١/٦٠٣ مخطوط.

(٢) فى م: «عن».

(٣) تاريخ دمشق ١١/٦٠٣- ٦٠٥ مخطوط.

كان معه فى القَصْعَةِ، ثم أَخْرَجَ خُبْزًا يابِسًا معه، فألقاه فى تلك القَصْعَةِ فى العَصِيرِ؛ ليَبْتَلَّ ليأْكُلَه، ثم اسْتَلْقَى على قَفاه وأَسْنَدَ رِجْلَيْه إلى الحائطِ، فنَظَرَ سَقْفَ تلكَ البُيُوتِ، وَرَأَى ما فيها وهى قائمةٌ على عُرُوشِها وقد باد أَهْلُها، ورأى عِظَامًا باليَةً فقال: ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾، فَلَمْ يَشُكَّ أنَّ اللَّهَ يُحْيِيها، ولكنْ قالها تَعَجُّبًا، فبَعَثَ اللَّهُ مَلَكَ الموتِ فَقَبَضَ رُوحَه فأَماتَه اللَّهُ مِائةَ عامٍ، فلمَّا أَتَتْ عليه مِائةُ عامٍ، وكانت فيما بينَ ذلك فى بنى إسرائيلَ أُمُورٌ وأحداثٌ. قال: فبَعَثَ اللَّهُ إلى عُزَيْرٍ مَلَكًا، فَخَلَقَ قَلْبَه ليَعْقِلَ به[1]، وعَيْنَيْهِ ليَنْظُرَ بهما؛ فيَعْقِلَ كيف يُحْيِى اللَّهُ الموتَى، ثُمَّ رَكَّبَ خَلْقَه وهو يَنْظُرُ، ثم كَسَا عِظامَه [٢٣٩/١و] اللَّحْمَ والشَّعْرَ والجِلْدَ، ثم نَفَخَ فيه الرُّوحَ، كلُّ ذلك وهو يَرَى ويَعْقِلُ، فاسْتَوَى جَالِسًا، فقال له المَلَكُ: ﴿ كَمْ لَبِثْتَ ﴾، قال: ﴿ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾. وذلك أنَّه كان [2]نامَ فى[2] صَدْرِ النَّهارِ عندَ الظَّهِيرَةِ، وبُعِثَ فى آخِرِ النهارِ والشَّمْسُ لم تَغِبْ، فقال: أو بعضَ يومٍ، ولم يَتِمَّ لى يومٌ. فقال له المَلَكُ: ﴿ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ ﴾. يَعْنى الطَّعامَ؛ الخُبْزَ اليابسَ، وشرابَه؛ العصيرَ الذى كان اعْتَصَرَ فى القَصْعةِ[3]، فإذا هُما على حالِهما لم يَتَغَيَّرِ العصيرُ، والخبزُ يابسٌ، فذلك قولُه: ﴿ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾. يَعْنى لم يَتَغَيَّرْ، وكذلك التِّينُ والعنبُ غَضٌّ لم يَتَغَيَّرْ

---

(١) فى ح، م: «قلبه».
(٢ - ٢) فى ح، م: «لبث».
(٣) وفى التاريخ: «القصيعة».

عن شيءٍ مِن حالِهما ، فكأنَّه أنكرَ فى قلبِه ، فقال له الملَكُ : أنكَرتَ ما قلتُ لكَ ؟ انظُرْ إلى حِمارِكَ . فنظَرَ ، فإذا[1] حمارُه قدْ بَلِيَتْ عِظامُه وصارت نَخِرَةً ، فنادَى الملَكُ عِظَامَ الحِمارِ فأجابتْ ، وأقبلتْ مِن كلِّ ناحِيَةٍ ، حتى رَكَّبه الملَكُ وعُزَيْرٌ يَنْظُرُ إليه ، ثُمَّ أَلْبَسَهَا العُرُوقَ والعَصَبَ ، ثُمَّ كَسَاهَا اللَّحْمَ ، ثُمَّ أنْبَتَ عليها الجِلْدَ والشَّعْرَ ، ثم نَفَخَ فيه الملَكُ ، فقام الحمارُ رافعًا رَأْسَه وأُذُنَيْهِ إلى السَّماءِ ، ناهقًا يَظُنُّ القيامةَ قد قامتْ ، فذلك قولُه : ﴿ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ [البقرة: ٢٥٩] . يَعْنى ، انظرْ إلى عِظَامِ حمارِك ، كيف نُرَكِّبُ بعضَها بعضًا فى أوْصَالِها ، حتى إذا صارتْ عِظَامًا مُصَوَّرًا حمارًا بلا لَحْمٍ ، ثم انظرْ كيف نَكْسُوها لَحْمًا ، ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ مِنْ إحياءِ الموتَى وغيرِه . قال : فرَكِبَ حمارَه حتى أتى مَحِلَّتَه ، فأنكَرَه النَّاسُ ، وأنْكَرَ [2]الناسَ ، وأنكر منازِلَهم[2] ، فانطلقَ على وَهْمٍ منه ، حتى أَتَى مَنْزِلَه ، فإذا هو بعجوزٍ عَمْيَاءَ مُقْعَدَةٍ ، قد أَتَى عليها مِائةٌ وعشرون سنةً ، كانت أَمَةً لهم ، فخرَجَ عنهم عُزَيْرٌ وهى بنتُ عشرين سنةً ، كانت عرَفَتْه وعَقَلَتْه ، فلمَّا أصابَها الكِبَرُ ، أصابَها الزَّمَانَةُ ، فقال لها عُزَيْرٌ : يا هذه ، أَهذا مَنْزِلُ عُزَيْرٍ ؟ قالت : نعم ، هذا منزلُ عُزَيْرٍ فبَكَتْ وقالت : ما رأيتُ أَحدًا مِن كَذَا وكَذَا سَنةً يَذْكُرُ عُزَيْرًا ، وقَدْ نَسِيَهُ

---

(١) فى ح ، م : « إلى » .

(٢ - ٢) فى ح ، م : « الناس وأنكر منزله » . وفى ص : « منازله » . وفى تاريخ دمشق : « الناس منازله » .

النَّاسُ. قال: فإنِّى أنا عُزَيْرٌ، كان اللَّهُ أَماتَنِى مِائةَ سَنةٍ ثُمَّ بَعَثَنى. قالتْ: سبحانَ اللَّهِ! فإنَّ عُزَيْرًا قد فَقَدْناه منذُ مِائَةِ سَنةٍ، فلم نَسْمَعْ له بِذِكْرٍ. قال: فإنِّى أنا عُزَيْرٌ. قالت: فإنَّ عُزَيْرًا رجُلٌ مستجابُ الدَّعْوَةِ، يَدْعُو للمريضِ ولصاحبِ البَلاءِ بالعافيَةِ والشِّفاءِ، فادْعُ اللَّهَ أن يَرُدَّ علىَّ بَصَرِى حتى أَراكَ، فإنْ كُنتَ عُزَيْرًا عَرَفْتُك. قال: فدعا رَبَّهُ ومَسَحَ بيدِه على عَيْنَيْها فصَحَّتا [١/٢٣٩ظ]، وأَخَذَ بيدِها وقال: قُومِى بإذنِ اللَّهِ. فأَطْلَقَ اللَّهُ رِجْلَيْها، فقامت صحيحةً كأنَّما نَشِطَتْ مِن عِقَالٍ، فنَظَرَتْ فقالتْ: أَشْهَدُ أنَّك عُزَيْرٌ، وانطلقتْ إلى مَحِلَّةِ بنى إسرائيلَ، وهم فى أَنْدِيَتِهم ومجالِسِهم، وابنٌ لِعُزَيْرٍ شيخٌ ابنُ مِائةِ سنةٍ وثمانى عَشْرَةَ سنةً، وبنو بَنِيهِ شُيوخٌ فى المجْلِسِ، فنادَتْهُم فقالت: هذا عُزَيْرٌ قد جاءكم. فكَذَّبُوها، فقالت: أنا فلانةُ مولاتُكم، دَعَا لى رَبَّه، فرَدَّ علىَّ بَصَرِى، وأَطْلَقَ رِجْلَىَّ، وزَعَمَ أنَّ اللَّهَ أماته مِائَةَ سنةٍ، ثُمَّ بَعَثَه. قال: فنَهَضَ النَّاسُ فأَقْبَلُوا إليه، فنَظَرُوا إليه، فقال ابنُه: كانت لأَبى شامَةٌ سَوْداءُ بينَ كَتِفَيْه. فكَشَفَ عن كَتِفَيْه فإذا هو عُزَيْرٌ، فقالت بنو إسرائيلَ: فإنه لم يَكُن فينا أحدٌ حَفِظَ التَّوْراةَ فيما حُدِّثْنا، غيرَ عُزَيْرٍ، وقد حَرَقَ بُخْتُ نَصَّرَ التَّوراةَ، ولم يَبْقَ منها شَىْءٌ، إلَّا ما حَفِظَتِ الرِّجالُ، فاكْتُبْها لنا. وكان أبُوهُ سروخا قد دَفَنَ التَّوراةَ أيامَ بُخْتُ نَصَّرَ، فى موضعٍ لم يَعْرِفْه أَحدٌ غيرُ عُزَيْرٍ، فانْطَلَقَ بهم إلى ذلكَ الموضِعِ، فَحَفَرَه فاسْتَخْرَجَ التَّوراةَ، وكان قد عَفِنَ الوَرَقُ، وَدَرَسَ الكِتَابُ. قال: وجَلَس فى ظِلِّ شجرةٍ وبنو إسرائيلَ حَوْلَه، فجَدَّدَ لهم التوراةَ،

ونَزَلَ من السَّماءِ شِهابانِ ، حتى دَخَلا جَوْفَه ، فتَذَكَّرَ التَّوراةَ ، فجَدَّدَها لبنى إسرائيلَ . فَمِنْ ثَمَّ قالتِ اليهودُ : عُزَيرٌ ابنُ اللَّهِ - جَلَّ اللَّهُ وعَزَّ - لِلَّذى كانَ مِن أمْرِ الشِّهابَيْنِ وتجديدِهِ التَّوْراةَ ، وقيامِه بأَمرِ بنى إسرائيلَ ، وكان جَدَّدَ لهم التَّوراةَ بأرضِ السَّوادِ بدَيْرِ حِزْقيلَ . والقريةُ التى ماتَ فيها يُقالُ لها : سايراباذُ . قال ابنُ عباسٍ : فكان كما قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ . يَعْنى لبنى إسرائيلَ . وذلك أنَّه كان يَجْلِسُ مع بَنِيه وهم شيوخٌ وهو شابٌّ ؛ لأنَّه ماتَ وهو ابنُ أَربعين سنةً ، فبَعَثَه اللَّهُ شابًّا ، كهَيْئَتِهِ يومَ مات . قال ابنُ عباسٍ : بُعِثَ بعدَ بُخْتُ نَصَّرَ . وكذلك قال الحَسَنُ .

وقد أَنْشَدَ أبو حاتمٍ السِّجِسْتانِيُّ[1] فى معنى ما قاله ابنُ عباسٍ :

وأَسْوَدُ رَأْسٍ شابَ مِنْ قَبْلِهِ ابْنُهُ	وَمِنْ قَبْلِهِ ابْنُ ابْنِهِ فَهْوَ أَكْبَرُ
يَرَى ابنَ[2] ابنِه شَيْخًا يَدِبُّ على عَصًا	ولِحْيَتُهُ سَوْدَاءُ والرَّأْسُ أَشْقَرُ
وما لابْنِهِ حَيْلٌ ولا فَضْلُ قُوَّةٍ	يَقُومُ كما يَمْشِى الصَّبِىُّ فيَعْثِرُ
يُعَدُّ ابنُه فى الناسِ تِسْعِينَ حِجَّةً	وعشرين لا يَجْرِى ولا يَتَبَخْتَرُ
وعُمْرُ أبيهِ أَرْبَعُون أَمَرَّها	ولابْنِ ابْنِهِ تِسْعونَ فى النَّاسِ غُبَّرُ
[٢٤٠/١و] فما هُوَ فى المَعْقولِ إنْ كُنتَ دارِيًا	وإن كنتَ لا تَدْرِى فبالجَهْلِ تُعْذَرُ

(١) أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق ١١/ ٦٠٥، ٦٠٦. مخطوط ، من قول أبى حاتم .
(٢) سقط من : النسخ . والمثبت من تاريخ دمشق .

فَصْــلٌ

المشْهورُ أنَّ عُزَيْرًا نبيٌّ مِن أنْبياءِ بنى إسرائيلَ، وأنَّه كان فيما بينَ داودَ وسليمانَ، وبينَ زكريا ويَحْيَى، وأنَّه لمَّا لم يَبْقَ فى بنى إسرائيلَ مَن يَحْفَظُ التَّوراةَ، ألْهَمَه اللَّهُ حِفْظَها، فسَرَدَها على بنى إسرائيلَ، كما قال وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ[1]: أمَرَ اللَّهُ مَلَكًا فنزَلَ بِمَغْرَفَةٍ مِن نورٍ، فقَذَفَها فى فِى[2] عُزَيْرٍ، فنَسَخَ التَّوراةَ حَرْفًا بحَرْفٍ، حتى فَرَغَ منها.

وروَى ابنُ عساكرَ[3]، عن ابنِ عباسٍ، أنَّه سأل عبدَ اللَّهِ بنَ سَلَامٍ عن قولِ اللَّهِ تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]. لِمَ قالوا ذلك؟ فذَكَرَ له ابنُ سَلَامٍ ما كان مِن كَتْبِهِ لبنى إسرائيلَ التَّوراةَ مِن حِفْظِهِ، وقَوْلِ بنى إسرائيلَ: لم يستطعْ موسى أن يَأْتِيَنا بالتَّوراةِ إلَّا فى كتابٍ، وإنَّ عُزَيْرًا قد جاءَنَا بها مِن غيرِ كتابٍ. فرَماه طَوائِفُ منهم، وقالوا: عُزَيْرٌ ابنُ اللَّهِ.

ولهذا يقولُ كثيرٌ مِنَ العلماءِ: إنَّ تَواتُرَ التَّوراةِ انْقَطَعَ فى زَمَنِ العُزَيْرِ. وهذا مُتَّجِهٌ جِدًّا إذا كان العُزَيْرُ غيرَ نَبِىٍّ، كما قاله عَطَاءُ بنُ أبى رَبَاحٍ، والحسنُ البَصْرِيُّ فيما رَواه إسحاقُ بنُ بِشْرٍ[4]، عن مُقاتِلِ بنِ سليمانَ، عن عطاءٍ، وعن

---

(١) تاريخ دمشق ١١/٦٠٦ مخطوط.

(٢) سقط من: م. و «فى» هنا بمعنى: «فم».

(٣) تاريخ دمشق ١١/٦٠٦- ٦٠٨ مخطوط. مطوّلًا، وأورد ابن كثير هنا قطعة منه مختصرة جدًّا بالمعنى.

(٤) تاريخ دمشق ٦/٦١٤ مخطوط.

عثمانَ بنِ عطاءِ الخُراسَانِيِّ ، عن أبيه ، ومقاتلٌ ، عن عطاءِ بنِ أبى رَبَاحٍ[1] قال : كان فى الفَتْرَةِ تسعةُ أشياءَ : بُخْتُ نَصَّرَ ، وجَنَّةُ صَنْعاءَ ، وجَنَّةُ سَبَأٍ ، وأصحابُ الأُخْدُودِ ، وأَمْرُ حاصورا ، وأصحابُ الكَهْفِ ، وأصحابُ الفيلِ ، ومدينةُ أَنْطاكِيَةَ ، وأمرُ تُبَّعٍ .

وقال إسحاقُ بنُ بِشْرٍ[2] : أنبأنا سعيدٌ ، عن قَتادةَ ، عنِ الحسنِ قال : كان أمرُ عُزَيْرٍ وبُخْتُ نَصَّرَ فى الفَتْرةِ . وقد ثَبَتَ فى « الصَّحيحِ »[3] أَنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ ، قال : « إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بابْنِ مَرْيَمَ لأَنَا ، إِنَّه لَيسَ بَيْنى وَبَيْنَه نَبِيٌّ » . وقال وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ[4] : كان فيما بينَ سليمانَ وعيسى ، عليهما السَّلامُ .

وقد رَوَى ابنُ عساكرَ[5] ، عن أنسِ بنِ مالكٍ ، وَعَطَاءِ بنِ السَّائبِ ، أَنَّ عُزَيْرًا كان فى زَمَنِ موسى بنِ عِمْرانَ ، وأنَّه اسْتَأْذَنَ عليه ، فلم يَأْذَنْ له - يَعْنى لِمَا كان مِن سُؤَالِه عنِ القَدَرِ - وأنَّه انْصَرَفَ وهو يقولُ : مِائَةُ مَوْتَةٍ أَهْوَنُ مِن ذُلِّ ساعةٍ . [6]وفى معنى قولِ عُزَيْرٍ : مِائةُ مَوْتَةٍ أَهْوَنُ مِن ذُلِّ ساعةٍ . قولُ بعضِ الشُّعَرَاءِ :

قد يَصْبِرُ الحُرُّ على السَّيْفِ ... ويَأْنَفُ الصَّبْرَ على الحَيْفِ

ويُؤْثِرُ المَوْتَ على حَالَةٍ ... يَعجِزُ فيها عَنْ قِرَى الضَّيْفِ[6]

---

(١) فى الأصل : « رواح » .

(٢) تاريخ دمشق ١١/ ٦١٤، ٦١٥ مخطوط .

(٣) تقدم ص ٣٧٧ بمعناه .

(٤) تاريخ دمشق ١١/٦١٥ مخطوط .

(٥) المصدر السابق ١١/ ٦١٤.

(٦ - ٦) سقط من : الأصل .

فأمَّا ما روَى ابنُ عساكرَ وغيرُه[1]، عن ابنِ عباسٍ، ونَوْفٍ البِكَاليِّ، وسُفيانَ الثَّوْرِيِّ، وغيرِهم، مِن أنَّه سَأَلَ عن القَدَرِ، فمُحِيَ اسمُه مِن ذِكْرِ الأَنبياءِ. فهو مُنْكَرٌ، وفي صحَّتِهِ نظَرٌ، وكأنَّه مأخوذٌ عنِ الإسْرائيليّاتِ. وقد رَوَى عبدُ الرَّزَّاقِ[2] وقُتَيْبَةُ بنُ سعيدٍ[3]، عن جَعْفَرِ بنِ سليمانَ، عن أبى عِمْرانَ الجَوْنيِّ[4]، عن نَوْفٍ [١/٢٤٠ظ] البِكَاليِّ قال: قال عُزَيْرٌ فيما يُناجِى ربَّه: يا ربِّ، تَخْلُقُ خَلْقًا، فتُضِلُّ مَن تَشاءُ، وتَهْدِى مَن تَشاءُ. فقِيلَ له: أعْرِضْ عن هذا. فعادَ، فقيلَ له: لَتُعْرِضَنَّ عن هذا، أَوْ لأَمْحُونَّ اسْمَكَ مِنَ الأنبياءِ، إنِّى لا أُسْأَلُ عمَّا أَفْعَلُ، وهم يُسْأَلُون. وهذا[5] يَقْتَضِى وُقوعَ ما تُوُعِّدَ عليه لو عَادَ، [6]فما عادَ[6]، فما مُحِيَ اسمُه. واللَّهُ أعْلَم.

وقد رَوَى الجماعةُ سِوى التِّرْمِذِيِّ[7]، مِن حديثِ يُونُسَ بنِ يزيدَ، عن الزُّهْرِيِّ، عن سعيدٍ وأبى سَلَمَةَ، عن أبى هريرةَ، وكذلكَ رَواه شُعَيْبٌ[8]، عن أَبِي الزِّنَادِ، عن الأَعْرَجِ، عن أبى هُرَيْرَةَ، قال: قال رَسولُ اللَّهِ ﷺ: «نَزَلَ نَبِيٌّ

---

(١) المصدر السابق ١١/٦١١ - ٦١٣.
(٢) ومن طريقه رواه ابن عساكر، فى تاريخ دمشق ١١/٦١٢ مخطوط.
(٣) فى الأصل: «سعد».
(٤) فى الأصل: «الجوى».
(٥) بعده فى الأصل، ح، م: «لا».
(٦ - ٦) سقط من: م.
(٧) البخارى (٣٣٠٩). مسلم (٢٢٤١). أبو داود (٥٢٦٦). النسائى (٤٣٦٩). ابن ماجه (٣٢٢٥).
(٨) تاريخ دمشق ١١/٦١٣ مخطوط.

مِنَ الأَنْبِيَاءِ تَحْتَ شَجَرَةٍ ، فَلَدَغَتْهُ نَمْلَةٌ فأَمَرَ بِجَهَازِهِ ، فَأُخْرِجَ مِنْ تَحْتِهَا[1] ، ثمَّ أَمَرَ بِها ، فأُحْرِقَتْ بِالنَّارِ ، فأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ : فَهَلَّا نَمْلَةً واحِدَةً » . فروَى إسحاقُ بنُ بِشْرٍ[2] ، عن ابنِ جُرَيْجٍ ، عن عبدِ الوهَّابِ بنِ[3] مجاهدٍ ، عن أبيه ، أنَّه عُزَيْرٌ . وكذا رُوِيَ عن ابنِ عَبَّاسٍ ، والحَسَنِ البَصْرِيِّ[4] ، أنَّه عُزَيْرٌ . فاللَّهُ أعلمُ .

---

(١) في الأصل : « لحمها » .
(٢) المصدر السابق .
(٣) في الأصل : « عن » .
(٤) المصدر السابق ١١/٦٠٩- ٦١١ مطوّلًا .

قِصَّةُ زَكَرِيَّا ويَحْيَى،

عليهما السَّلامُ

قال اللَّهُ تعالى فى كتابِه العزيزِ[1] : ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ١- ١٥].

وقال تعالى[2] : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ

---

(١) التفسير ٥/ ٢٠٥- ٢١٣.

(٢) التفسير ٢/ ٢٨- ٣١.

عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ [١/٢٤١و] مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ [آل عمران: ٣٧- ٤١].

وقال تعالى فى سورةِ «الأنبياءِ»[1]: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٩، ٩٠]. وقال تعالى[2]: ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٥]. قال الحافظُ أبو القاسمِ ابنُ عساكرَ فى كتابِه «التاريخِ»[3] المشهورِ الحافلِ: زَكَرِيَّا بنُ حَنَّا[4]، ويُقالُ: زكريّا بنُ دانٍ، ويقال: زكريّا بنُ أدنٍ[5] بنِ مُسْلمِ بنِ صدوقٍ

---

(١) التفسير ٥/ ٣٦٤، ٣٦٥.

(٢) التفسير ٣/ ٢٩٠.

(٣) تاريخ دمشق ١٩/ ٤٨.

(٤) فى النسخ: «برخيا». والمثبت من تاريخ دمشق.

(٥) فى النسخ: «لدن». والمثبت من تاريخ دمشق.

ابنِ محمانَ[1] بنِ داودَ بنِ سليمانَ بنِ [2]مسلمِ بنِ[2] صديقةَ بنِ برحيةَ[3] بنِ[4] ملقاطيةَ[5] بنِ ناحورَ[6] بنِ سلومِ[7] بنِ بهفانيا[8] بنِ [9]حاشِ بنِ[9] أني[10] بنِ خَثْعَمَ[11] بنِ سليمانَ بنِ داودَ، أبو يَحْيَى النَّبِيُّ، عليهِ السَّلامُ، مِن بَنِى إسرائيلَ، دَخَلَ البَثَنِيَّةَ من أَعْمالِ دِمَشْقَ فى طَلَبِ ابْنِه يَحْيَى. وقيلَ: إنَّهُ كان بدِمَشْقَ حينَ قُتِلَ ابنُه يَحْيَى. واللَّهُ أعلمُ. وقد قِيلَ غيرُ ذلك فى نَسَبِه. ويُقالُ فيه: زَكَرِيّاءُ؛ بالمدِّ وبالقَصْرِ. ويُقالُ: زَكَرِيٌّ، أَيْضًا.

والمقصودُ أنَّ اللَّهَ تعالى أَمَرَ رسولَه ﷺ أَنْ يَقُصَّ على النَّاسِ خَبَرَ زكريّا، عليه السَّلامُ، وما كان مِن أمْرِهِ حينَ وَهَبَهُ اللَّهُ وَلَدًا على الكِبَرِ، وكانَتِ امرأَتُه عَاقِرًا فى حالِ شَبِيبَتِها، وقد أَسَنَّتْ أَيْضًا؛ حتى لا يَيْأَسَ أحدٌ مِن فَضْلِ اللَّهِ ورحمَتِه، ولا يَقْنَطَ مِن فَضْلِهِ، تعالى وتَقَدَّسَ، فقال تعالى: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾. قال قتادةُ عندَ تفسيرِها[12]: إنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ القلْبَ النَّقِيَّ، ويَسْمَعُ الصَّوْتَ الخَفِيَّ. وقال بعضُ

(١) فى الأصل: «خشبان». وفى ح، م: «حشبان». وفى ص: «حنشبان». والمثبت من تاريخ دمشق.
(٢ - ٢) سقط من: الأصل، ص.
(٣) فى الأصل: «مرحية». وفى م: «برخيا». وفى ص: «برخية».
(٤) فى تاريخ دمشق: «من».
(٥) فى الأصل: «تلفاطية». وفى ح، م: «بلعاطة». وفى ص: «بلفاطة». والمثبت من تاريخ دمشق.
(٦) وفى ح: «ياحور». وفى تاريخ دمشق: «ماجور». وانظر تاريخ الطبرى ٢/ ٥٩٠.
(٧) فى النسخ: «شلوم». والمثبت من تاريخ دمشق.
(٨) فى النسخ: «بهفاشاط». والمثبت من تاريخ دمشق.
(٩ - ٩) سقط من النسخ، وأثبتناه من تاريخ دمشق.
(١٠) فى ح، م: «أينا من». وفى ص: «أيتا».
(١١) فى الأصل، ح، ص: «رخيعم». وفى م: «رحبعام». والمثبت من تاريخ دمشق.
(١٢) تفسير الطبرى ١٦/ ٤٥. الدر المنثور ٤/ ٢٥٩.

السَّلَفِ[1] : قام منَ اللَّيلِ فنادى رَبَّه مُناداةً أسَرَّها عمَّن كان حاضِرًا عندَه ؛ مُخافَتَةً ، فقال : يا ربِّ ، يا ربِّ ، يا ربِّ . فقال اللَّهُ : لَبَّيْكَ ، لَبَّيْكَ ، لَبَّيْكَ .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾ أي ؛ ضَعُفَ وخارَ مِنَ الكِبَرِ . ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ استعارةٌ مِن اشتعالِ النَّارِ فى الحَطَبِ ، أىْ غَلَبَ عَلَى سَوَادِ الشَّعْرِ شَيْبُهُ[2] ، كما قال ابنُ دُرَيْدٍ فى مَقْصُورَتِه[3] :

إمَّا تَرَىْ رَأْسِىَ حَاكَى لَوْنُهُ[4] طُرَّةَ صُبْحٍ تَحْتَ أَذْيالِ الدُّجَى

واشْتَعَلَ المُبْيَضُّ فِى مُسْوَدِّهِ مِثْلَ اشْتِعالِ النَّارِ فى جَزْلِ[5] الغَضَا

[١/٢٤١ظ]

وآضَ رَوْضُ[6] اللَّهْوِ[7] يَبْسًا ذاوِيًا مِن بَعْدِ ما قَدْ كان مَجَّاجَ الثَّرَى

يَذْكُرُ أَنَّ الضَّعْفَ قد استحْوَذَ عليه باطِنًا وظاهِرًا ، وهكذا قال زكريَّا عليه السَّلامُ : ﴿ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ . وقولُه : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ أىْ ؛ ما عَوَّدْتَنى فيما أَسْأَلُكَ فيه إلَّا الإجابةَ . وكان الباعِثُ له على هذه المسألةِ ، أنَّه لَمَّا كَفَلَ مَرْيَمَ بنتَ عِمْرَانَ بنِ ماثانَ ،

---

(١) التفسير ٥/ ٢٠٦، بمعناه .

(٢) فى ص : « بما فيه » .

(٣) تخميس مقصورة ابن دريد ٣١ - ٣٣، ٣٧. والمقصورة من الشعر : ما كانت قافيته مختومة بألف مقصورة .

(٤) فى الأصل : « كونه » .

(٥) فى الأصل ، ح ، م : « جمر » . وفى ص : « جدد » . والمثبت من تخميس المقصورة .

(٦) فى الأصل ، ح ، م : « عود » .

(٧) فى ص : « اللبس » .

وكان كُلَّمَا دَخَلَ علَيْها مِحْرابَها ، وَجَدَ عِنْدَها فاكهةً فى غيرِ أوَانِها ولا فى أوانِها ، وهذه مِن كراماتِ الأوْلياءِ ، فَعَلِمَ أَنَّ الرَّازِقَ للشىءِ فى غيرِ أوَانِه ، قادرٌ عَلَى أن يَرْزُقَه وَلَدًا ، وإن كان قَدْ طَعَنَ فى سِنِّه ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ . وقولُه : ﴿ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا ﴾ . قيلَ : المرادُ بالمَوَالى العَصَبَةُ ، وكأنَّه خافَ مِن تَصَرُّفِهِمْ بعدَه فى بنى إسرائيلَ بما لا يُوافِقُ شَرْعَ اللّهِ وطاعَتَه ، فسألَ وُجودَ وَلَدٍ مِن صُلْبِه ، يكونُ بَرًّا تَقِيًّا مَرْضِيًّا ، ولهذا قال : ﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ﴾ أى ؛ مِن عِنْدِك بِحَوْلِكَ وقُوَّتِكَ ﴿ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِى ﴾ أى ؛ فى النُّبُوَّةِ والحُكْمِ فى بنى إسرائيلَ . ﴿ وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ يَعْنى كما كان آباؤُه وأَسْلافُه من ذُرِّيَّةِ يعقوبَ أَنبياءَ[1] ، فاجْعَلْه مِثْلَهُم فى الكرامةِ التى أَكْرَمْتَهم بها مِن النُّبُوَّةِ والوَحْيِ . وليس المرادُ هلهنا وِراثَةَ المالِ ، كما زَعَمَ ذلك مَن زَعَمَه مِنَ الشِّيعَةِ ، ووافَقَهم ابنُ جريرٍ هلهنا ، وحَكاه[2] عن أبى[3] صالحٍ مِن[4] السَّلَفِ ؛ لوُجُوهٍ : أَحدُها ، ما قدَّمْنا[5] عندَ قولِه تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ [النمل : ١٦] أى ؛ فى النُّبُوَّةِ والمُلْكِ ، كما ذَكَرْنا فى الحديثِ المُتَّفَقِ عليه بينَ العلماءِ[6] ، المَرْوِىِّ فى

---

(١) فى الأصل : « أبينا » .
(٢) فى تفسيره ١٦/٤٧، ٤٨.
(٣) فى ح : « ابن » .
(٤) فى الأصل : « بن » .
(٥) تقدم تخريجه ص ٣٢٤ .
(٦) تقدم تخريجه ص ٣٢٤ . وهو كذلك فى مسند أحمد ١/٤، ٦، ٩، ١٠، ٤٧، ٤٩، ٦٠، ٢٠٨. الترمذى (١٦١٠). أبى داود (٢٩٧٦، ٢٩٧٧). النسائى (٤١٥٩).

« الصِّحَاحِ » و « المسانيدِ » و « السُّنَنِ » وغيرِها ، مِن طُرُقٍ عن جماعةٍ من الصَّحَابَةِ ، أَنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال : « لَا نُورَثُ ، مَا تَرَكْنَا فَهُو صَدَقَةٌ » . فهذا نَصٌّ على أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ لا يُورَثُ ، ولهذا مَنَعَ الصِّدِّيقُ أَنْ يُصْرَفَ ما كان يختصُّ به فى حياتِهِ إلى أَحَدٍ مِن وُرَّاثِهِ ، الذين لولا هذا النصُّ لَصُرِفَ إليهم[1] ، وهم : ابنتُه فاطمةُ ، وأزواجُه التِّسْعُ ، وعَمُّه العبَّاسُ ، رَضِىَ اللَّهُ عنهم ، واحْتَجَّ عليهم الصِّدِّيقُ فى مَنْعِه إيَّاهم بهذا الحديثِ ، وقد وافَقَه على رِوايَتِه عن رسولِ اللَّهِ ﷺ ؛ عمرُ بنُ الخَطَّابِ ، وعثمانُ بنُ عفَّانَ ، وعلىُّ بنُ أبى طالبٍ ، والعبَّاسُ بنُ عبدِ المُطَّلِبِ ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ عوفٍ ، وطَلْحَةُ ، والزُّبَيْرُ ، وأبو هريرةَ ، وآخَــرون ، رَضِىَ اللَّهُ عنهم . الثانى ، [٢٤٢/١و] أنَّ التِّرْمِذِىَّ رواه بِلَفْظٍ يَعُمُّ سَائِرَ الأنبياءِ : « نَحنُ مَعَاشِرَ الأَنبياءِ [2]لَا نُورَثُ[2] » وَصَحَّحه . الثالثُ ، أنَّ الدُّنيا كانت أحْقَرَ عندَ الأَنْبياءِ مِن أَن يَكْنِزُوا لها ، أَوْ يَلْتَفِتُوا إليها ، أو يُهِمَّهم أَمرُها ، حتى يَسْأَلُوا الأَوْلادَ لِيَحُوزُوها بَعْدَهم ؛ فإنَّ مَنْ لا يَصِلُ إلى قَرِيبٍ مِن مَنَازِلِهم فى الزَّهَادَةِ ، لا يَهْتَمُّ بهذا المقدارِ أَنْ يَسْأَلَ ولدًا يكونُ وارِثًا له فيها . الرابعُ ، أَنَّ زكريَّا ، عليه السَّلامُ ، كان نَجَّارًا يَعْمَلُ بيدِه ، ويَأْكُلُ مِن كَسْبِها ، كما كان داودُ ، عليه السَّلامُ ، يأْكُلُ[3] مِن كَسْبِ يدِه ، والغالبُ - ولاسِيَّما مَنْ مِثْلُ حالِ الأَنبياءِ - أنَّه لا يُجْهِدُ نَفْسَهُ فى العملِ إجْهادًا يَسْتَفْضِلُ منه مالًا يكونُ ذَخِيرَةً له يَخْلُفُه مِنْ بَعْدِه ، وهذا أمرٌ بَيِّنٌ واضِحٌ لِكُلِّ مَنْ تَأَمَّلَهُ بتَدَبُّرٍ وَتفَهُّمٍ ، إنْ شاءَ اللَّهُ .

---

(١) فى ص : « عليهم » .
(٢ - ٢) سقط من : ح .
(٣) فى الأصل ، ص : « يعمل » .

قال الإمامُ أحمدُ[1] : حَدَّثَنا يزيدُ - يعنى ابنَ هارونَ - أَنْبأَنا حَمَّادُ بنُ سَلَمَةَ ، عن ثابتٍ ، عن أبى رافعٍ ، عن أبى هُريرةَ أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال : « كان زَكَرِيَّا نَجَّارًا » . وهكذا رواه مسلمٌ ، وابنُ ماجَه مِن غيرِ وَجْهٍ عن حَمَّادِ ابنِ سَلَمَةَ به[2] . قولُه : ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ . وَهذا مُفَسَّرٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ ، فَلَمَّا بُشِّرَ بالوَلَدِ وتحقَّقَ البِشارَةَ ، شَرَعَ يَسْتَعْلِمُ - على وَجْهِ التَّعَجُّبِ - وُجُودَ الوَلَدِ ، والحالةُ هذه ، له : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ أى ؛ كيف يُوجَدُ ولدٌ مِنْ شيخٍ كبيرٍ ، قِيلَ : كان عُمْرُه إذ ذاك سَبْعًا وسبعينَ سنةً . والأَشْبَهُ ، واللَّهُ أعلمُ ، أنَّهُ كان أَسَنَّ مِن ذلكَ . ﴿ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا ﴾ يَعْنِى ، وكانت امْرأَتى فى حَالِ شَبِيبَتِها عاقِرًا لا تَلِدُ . واللَّهُ أعلمُ . كما قالَ الخَلِيلُ : ﴿ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر : ٥٤] ، وقالت سارَّةُ : ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود : ٧٢، ٧٣] . وهكذا أُجِيبَ زكرِيَّا ، عليه السلام ؛ قال له المَلَكُ الذى يُوحِى إليه بأَمْرِ رَبِّهِ : ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ﴾ أى ؛ هذا سهلٌ يَسِيرٌ عليه . ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ أى ؛ قُدْرَتُه أَوْجَدَتْكَ بعدَ أن لم تَكُنْ شيئًا مَذْكُورًا ، أفلا يُوجِدُ مِنك

---

(١) المسند ٢/ ٢٩٦. (إسناده صحيح).

(٢) مسلم (٢٣٧٩). وابن ماجه (٢١٥٠).

وَلدًا وإنْ كُنتَ شَيْخًا كبيرًا ؟! وقال تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ [١/ ٢٤٢ظ] يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠] ومعنى إِصْلاحِ زَوْجَتِه ، أَنَّها كانَتْ لا تَحِيضُ فحاضَتْ . وقيلَ : كَانَ فى لِسَانِها شىءٌ ؛ أىْ بَذَاءَةٌ[(١)] . ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ﴾ أى ؛ عَلامةً على وَقْتِ تَعْلَقُ مِنِّى المرأةُ بهذا الوَلَدِ المُبَشَّرِ به . ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ يقولُ : علامةُ ذلك أن يَعْتَرِيَك سَكْتٌ ، لا تَنْطِقُ معه ثلاثةَ أيامٍ إِلَّا رَمْزًا ، وأَنْتَ فى ذلك سَوِىُّ الخَلْقِ ، صحيحُ المزاجِ ، مُعْتَدِلُ البِنْيَةِ . وأُمِرَ بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ فى هذهِ الحالِ بالقَلْبِ ، واسْتِحْضارِ ذلك بِفُؤَادِه بالعَشِىِّ والإِبْكَارِ ، فَلَمَّا بُشِّرَ بهذه البِشَارَةِ ، خَرَجَ مسرورًا بها على قَوْمِه مِنْ محرابِه . ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ ، والوَحْىُ هٰهنا هو الأَمرُ الخَفِىُّ ؛ إِمَّا بِكِتَابَةٍ ، كما قاله مُجاهِدٌ ، والسُّدِّىُّ ، أو إشارةٍ ، كما قاله مجاهدٌ - أيضًا - ووَهْبٌ ، وقَتَادَةُ[(٢)] . قال مجاهدٌ ، وعِكْرِمَةُ ، وَوَهْبٌ ، والسُّدِّىُّ ، وَقَتادَةُ : اعْتُقِلَ لسانُهُ مِن غَيْرِ مَرَضٍ[(٣)] . وقال ابنُ زَيْدٍ[(٤)] : كان يَقرأُ ويُسبِّحُ ، ولكنْ لا يستطيعُ كلامَ أحدٍ . وقولُه : ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ ، يُخْبِرُ تعالى عن (٥)وُجودِ الوَلَدِ(٥) وَفْقَ البِشارةِ الإِلهيَّةِ لأَبِيهِ زِكريَّا ، عليه السَّلامُ ، وأنّ

---

(١) فى الأصل ، ص : « بذاء » . وفى ح : « بذاذة » . والبذاء والبذاءة : الفُحش . والبذاذة : سُوء الحال ورثاثة الهيئة .

(٢) تفسير الطبرى ١٦/ ٥٣، ٥٤.

(٣) التفسير ٥/ ٢١٠.

(٤) تفسير الطبرى ١٦/ ٥٤. التفسير ٥/ ٢١٠.

(٥ - ٥) سقط من : ح .

اللَّهَ عَلَّمَه الكِتَابَ والحِكْمَةَ وهو صغيرٌ فى حالِ صِبَاه. قال عبدُ اللَّهِ بنُ المُبَارَكِ[1] : قال مَعْمَرٌ: قال الصِّبْيانُ ليَحْيَى بنِ زكريّا : اذهبْ بِنا نلعبُ. فقال : ما لِلَّعبِ خُلِقْنَا. قال : وذلك قولُه : ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾. وأمَّا قولُه : ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ فروَى ابنُ جريرٍ[2] ، عن عَمْرِو بنِ دِينارٍ ، عن عِكْرِمَةَ ، عن ابنِ عباسٍ ، أنَّه قال : لا أَدْرِى ما الحنانُ. وعن ابنِ عباسٍ ، ومجاهدٍ ، وعِكْرِمَةَ ، وقتادةَ ، والضَّحّاكِ[3] : ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ أى ؛ رَحْمَةً مِن عِنْدِنا رَحِمْنا بها زكريّا ، فوَهَبْنا له هذا الولدَ. وعن عِكْرِمَةَ : ﴿ وَحَنَانًا ﴾ أى ؛ محبَّةً عليه. ويَحْتَمِلُ أَنْ يكونَ ذلك صفةً لتَحَنُّنِ يَحْيَى على النّاسِ ، ولاسِيَّما على أَبَوَيْه ، وهو محبَّتُهُما والشَّفَقَةُ عليهما ، وبِرُّه بهما. وأَمَّا الزَّكاةُ فهو طهارةُ القلبِ[4] وسلامَتُه من النَّقائِصِ[5] والرَّذائِلِ. والتَّقْوَى طاعةُ اللَّهِ ؛ بامتثالِ أوامرِهِ ، وتَرْكِ زواجرِهِ. ثم ذَكَرَ بِرَّهُ بوالِدَيْهِ وطاعَتَه لهما أَمْرًا ونَهْيًا ، وتَرْكَ عُقُوقِهِمَا قولًا وفِعْلًا ، فقال : ﴿ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾. ثم قال : ﴿ وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ ، هذه الأوقاتُ الثلاثةُ أشدُّ ما تكونُ على الإنسانِ ؛ فإنَّه يَنْتَقِلُ فى كلٍّ منها ، مِن عالَمٍ إلى عالَمٍ آخَرَ [٢٤٣/١و] ، فيَفْقِدُ الأَوَّلَ بعدَ ما كان أَلِفَه وعَرَفَه ، ويصيرُ إلى الآخَرِ ، ولا يَدْرِى ما بينَ يَدَيْه ؛ ولهذا يَسْتَهِلُّ صارِخًا إذا خَرَجَ مِن بَيْنِ الأَحْشاءِ وفارَقَ لِينَها وضَمَّها ، ويَنْتَقِلُ إلى هذه الدّارِ ، ليُكابِدَ هُمُومَها وغُمُومَها ، وكذلك إذا فارَقَ

---

(١) تفسير الطبرى ١٦/ ٥٥. التفسير ٥/ ٢١٠.
(٢) تفسير الطبرى ١٦/ ٥٠٦. التفسير ٥/ ٢١١.
(٣) تفسير الطبرى ١٦/ ٥٥، ٥٦. التفسير ٥/ ٢١١.
(٤) فى ح، م، ص: «الخلق».
(٥) فى ح: «القابض».

هذه الدّارَ، وانْتَقَل إلى عالَمِ البَرْزَخِ بينَها وبينَ دارِ القَرارِ، وصار بَعْدَ الدُّورِ والقُصُورِ، إلى عَرْصَةِ الأَمْواتِ سُكَّانِ القُبورِ، وانتظرَ هُناكَ النَّفْخَةَ فى الصُّورِ ليومِ البَعْثِ والنُّشُورِ، فمِن مَسْرُورٍ ومَحْبُورٍ، ومِنْ مَحْزُونٍ ومَثْبُورٍ، وما بينَ مَجْبُورٍ ومَكْسُورٍ، وفريقٍ فى الجنَّةِ وفريقٍ فى السَّعِيرِ. ولقد أَحْسَنَ بعضُ الشعراءِ حيثُ قال:

وَلَدَتْكَ أُمُّكَ باكِيًا مُسْتَصْرِخًا ... والنَّاسُ حَوْلَكَ يَضْحَكُونَ سُرُورًا

فاحْرِصْ لِنَفْسِكَ أن تَكُونَ إذا بَكَوْا ... فى يومِ مَوْتِكَ ضاحِكًا مَسْرُورًا

ولمَّا كانت هذه المواطِنُ الثلاثةُ أَشَقَّ ما تكونُ على ابنِ آدمَ، سَلَّمَ اللَّهُ[1] على يَحْيَى فى كُلِّ مَوْطِنٍ منها، فقال: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾. وقال سعيدُ بنُ أبى عَرُوبَةَ، عن قتادةَ، أنَّ الحسنَ قال[2]: إنَّ يَحْيَى، وعيسى الْتَقَيا فقال له عيسى: اسْتَغْفِرْ لى، أنتَ خيرٌ مِنِّى. فقال له الآخَرُ: استغفِرْ لى، أنتَ خيرٌ مِنِّى. فقال له عيسى: أنتَ خيرٌ منِّى؛ سَلَّمْتُ على نَفْسِى، وسلَّمَ اللَّهُ عليك. فعَرَفَ واللَّهِ فَضْلَها[3]. وأمَّا قولُه فى الآيةِ الأُخْرَى: ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾، فقيل: المرادُ بالحَصُورِ، الذى لا يأْتِى النِّساءَ. وقِيلَ غيرُ ذلك. وهو أَشْبَهُ؛ لقولِه: ﴿ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾.

---

(١) سقط من: الأصل.

(٢) تفسير الطبرى ١٦/٥٩. والتفسير ٥/٢١٣.

(٣) فى م: «فضلهما».

وقد قال الإمامُ أحمدُ[(١)] : حدَّثنا عفَّانُ ، حدَّثنا حمَّادٌ ، أنبأنا عليُّ بنُ زَيْدٍ ، عن يوسُفَ بنِ مِهْرانَ ، عن ابنِ عبَّاسٍ ، أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال : « مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ وَلَدِ آدَمَ إِلَّا وَقَدْ أَخْطَأَ ، أَوْ هَمَّ بخَطِيئَةٍ ، لَيْسَ يَحْيَى بنَ زَكَرِيَّا ، وَمَا يَنْبَغِي لأَحَدٍ أَنْ[(٢)] يَقُولَ : أَنَا خَيْرٌ مِن يُونُسَ بنِ مَتَّى » . عليُّ بنُ زيدِ بنِ جُدْعانَ تَكَلَّمَ فيه غيرُ واحدٍ من الأَئِمَّةِ ، وهو مُنْكَرُ الحديثِ ، وقد رواه ابنُ خُزَيْمَةَ[(٣)] ، والدَّارَقُطْنِيُّ[(٤)] ، مِن طريقِ أبي عاصمٍ العَبَّادانيِّ ، عن عليِّ بنِ زيدِ بنِ جُدْعانَ ، [(٥)]به مُطَوَّلًا ثم[(٥)] قال ابنُ خُزَيْمَةَ : وليس على شَرْطِنا .

وقال ابنُ وَهْبٍ[(٦)] : حدَّثني ابنُ لَهِيعَةَ ، عن عُقَيْلٍ ، عن ابنِ شِهابٍ ، قال : خرجَ رسولُ اللَّهِ ﷺ على أصحابِه يومًا وهم يَتَذاكَرُون فَضْلَ الأَنبياءِ ، فقال قائلٌ : موسى كليمُ اللَّهِ . وقال قائلٌ : عيسى رُوحُ اللَّهِ وكَلِمَتُه[(٧)] . وقائلٌ يقولُ : إبراهيمُ خليلُ اللَّهِ . [(٩)]فَخَرَج النبيُّ ﷺ[(٩)] [(١٠)]وهم يَذْكُرُون[(١٠)] [١/٢٤٣ظ] ذلك ، فقال : « أَيْنَ الشَّهِيدُ ، أَيْنَ[(١١)] الشهيدُ يَلْبَسُ الوَبَرَ ، ويأْكُلُ الشَّجَرَ ، مخافةَ

---

(١) أحمد في المسند ١/ ٢٥٤. (إسناده صحيح).
(٢) سقط من : الأصل، ح، م.
(٣) في ص : « جرير ».
(٤) أخرجهما ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٨/ ٩٠، ٩١ مخطوط. من طريق ابن خزيمة والدارقطني به.
(٥ - ٥) سقط من : ص.
(٦) المصدر السابق ١٨/ ٩١.
(٧) في الأصل : « وكليمه ».
(٩ - ٩) تكملة من تاريخ دمشق ليتضح المعنى.
(١٠ - ١٠) سقط من : ح، م.
(١١) في ح : « ابن ».

الذَّنْبِ[(١)] » قال ابنُ وَهْبٍ : يُرِيدُ يَحْيَى بنَ زكريَّا .

وقد رواهُ محمدُ بنُ إسحاقَ[(٢)] ، وهو مُدَلِّسٌ ، عن يَحْيَى بنِ سعيدٍ الأنْصَارِيِّ ، عن سعيدِ بنِ المسيَّبِ ، حدَّثني ابنُ العاصِ : أنه سَمِعَ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول : « كُلُّ بَنِي آدَمَ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَهُ ذَنْبٌ ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا » . فهذا مِن روايةِ ابنِ إسْحاقَ ، وهو مِنَ المدلِّسِين ، وقد عَنْعَنَ هـهنا . ثم [(٣)]قد رَواه[(٣)] عبدُ الرَّزَّاقِ[(٤)] ، عَنْ مَعْمَرٍ ، عن قتادةَ عن سعيدِ بنِ المُسَيَّبِ مُرْسَلًا . ثم رأيتُ ابنَ عَسَاكرَ ساقَه مِن طريقِ أبي أُسامةَ[(٥)] ، عن يَحْيَى بنِ سعيدٍ الأنصارِيِّ به .

ثُمَّ قد رواهُ ابنُ عساكرَ[(٦)] مِن طريقِ إبراهيمَ بنِ يَعْقُوبَ الجُوزْجَانِيِّ ، خطيبِ دِمَشْقَ ، حَدَّثَنَا محمدُ بنُ الأصْبَهَانيِّ ، حدَّثنا أبو خالدٍ الأَحْمَرُ ، عن يَحْيَى بنِ سعيدٍ ، عن سعيدِ بنِ المسيَّبِ ، عن عبدِ اللَّهِ بنِ عَمْرٍو ، قال : ما أَحَدٌ إلَّا يَلْقَى اللَّهَ بذَنْبٍ ، إلَّا يَحْيَى بنَ زكريَّا . ثُمَّ تلا . ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا ﴾ ، ثم رَفَع شيئًا مِن الأرضِ فقال : ما كان معه إلَّا مِثْلُ هذا ، ثم ذُبِحَ ذَبْحًا . وهذا موقوفٌ مِنْ هذه الطريقِ[(٧)] ، وكَوْنُه مَوْقُوفًا أَصَحُّ مِن رَفْعِه . واللَّهُ أعلمُ . وأَوْرَدَهُ ابنُ عساكرَ مِن طُرُقٍ ، [(٨)]عن مَعْمَرٍ[(٨)] ، من ذلكَ ما أَوْرَدَهُ من حديثِ إسحاقَ بنِ

---

(١) فى الأصل : « الذيب » .
(٢) تاريخ دمشق مخطوط ١٨/ ٨٢.
(٣ - ٣) فى ح ، م : « قال » .
(٤) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٦.
(٥) فى ح : « أمامة » . والحديث أخرجه ابن عساكر ، فى تاريخ دمشق ٩٤/١٨ مخطوط .
(٦) المصدر السابق .
(٧) سقط من : ح .
(٨ - ٨) سقط من : الأصل ، ح .

بِشْرٍ[1]، وهو ضعيفٌ، عن عثمانَ بنِ ساجٍ[2]، عن ثَوْرِ بنِ يزيدَ، عن خالدِ بنِ مَعْدانَ، عن مُعَاذٍ، عن النبيِّ ﷺ بِنَحْوِهِ.

وَرُوِىَ مِن طريقِ أبى دَاوُدَ الطَّيَالِسِىِّ[3]، وغَيْرِه، عن الحَكَمِ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ أبى نُعْمٍ[4]، عن أبيه، عن أبى سعيدٍ قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «الحَسَنُ والحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الجَنَّةِ إِلَّا ابْنَيِ الخَالَةِ يَحْيَى، وعيسى، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ».

وقال أبو نُعَيْمٍ الحافظُ الأَصْبَهَانِىُّ[5]: حدَّثنا إسحاقُ بنُ أحمدَ، حدَّثنا إبراهيمُ بنُ يوسُفَ، حدَّثنا أحمدُ بنُ أبى الحَوَارِىِّ سَمِعْتُ أبا سليمانَ يقولُ: خَرَج عيسى ابنُ مريمَ، ويَحْيَى بنُ زكرِيَّا يَتَمَاشَيَانِ، فَصَدَمَ يَحْيَى امرأةً، فقال له عيسى: يا بنَ خَالَةٍ، لقد أَصَبْتَ اليومَ خَطِيئَةً، ما أَظُنُّ أَنْ يُغْفَرَ لك أبدًا. قال: وما هى يا بنَ خَالَةٍ؟ قال: امرأةٌ صَدَمْتَها. قال: واللَّهِ ما شَعَرْتُ بها. قال: سبحانَ اللَّهِ! بَدَنُكَ[6] معى، فأَيْنَ رُوحُك؟ قال: مُعَلَّقٌ بالعرشِ، ولو أنَّ قلبِيَ اطْمَأَنَّ إلى جِبْرِيلَ، لَظَنَنْتُ أَنِّى ما عَرَفْتُ اللَّهَ طَرْفَةَ عَيْنٍ. فيه غرابةٌ، وهو مِن الإسرائيليَّاتِ. وقال إسرائيلُ[7] عن أَبى حُصَيْنٍ، عن خَيْثَمَةَ قال: كان عيسى ابنُ مَرْيَمَ ويَحْيَى بنُ زكريَّا ابْنَىْ خَالَةٍ، وكان عيسى يَلْبَسُ الصُّوفَ،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) فى الأصل، ص: «ساح». وفى م: «سباح». وانظر تهذيب الكمال ١٩/٤٦٧.

(٣) تاريخ دمشق ١٨/٩٢ مخطوط. (صحيح الجامع الصغير ٣١٧٦).

(٤) فى م: «نعيم».

(٥) حلية الأولياء ٩/٢٦٨، ٢٦٩.

(٦) فى ح: «قدمك».

(٧) تاريخ دمشق ١٨/٩٦ مخطوط.

وكان يَحْيَى يَلْبَسُ الوَبَرَ ، ولم يَكُنْ لواحدٍ منهما دِينارٌ ولا دِرْهمٌ ، ولا عَبْدٌ ولا أَمَةٌ ، ولا ما يَأْوِيَانِ إليه ، أيْنَما جَنَّهُما [١/٢٤٤و] اللّيلُ أَوَيَا ، فلَمَّا أرادا أن يَتَفَرَّقا ، قال له يَحْيَى : أَوْصِنِى . قال : لا تَغْضَبْ . قال : لا أَستطيعُ إلَّا أن أَغْضَبَ . قال : فلا تَقْتَنِ مالًا . قال : أَمَّا هذه فعَسَى .

وقد اخْتَلَفَتِ الرِّوايةُ عن وَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ ، هل ماتَ زكريّا عليه السَّلامُ موتًا ، أو قُتِلَ قَتْلًا ؟ عَلَى روايتَيْنِ ؛ فرَوَى عبدُ المنعمِ بنُ إدريسَ بنِ سِنانٍ ، عن أبيه ، عن وَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ ، أنه قال : هَرَبَ مِن قومِه ، فدَخَلَ شجرةً فجاءُوا فوَضَعُوا المِنْشَارَ عليها[١] ، فلمَّا وَصَلَ المِنْشَارُ إلى أَضْلَاعِه أَنَّ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إليهِ : لَئِن لمْ يَسْكُنْ أَنِينُكَ ، لأَقْلِبَنَّ الأرضَ ومَن عليها . فَسَكَنَ أنِينُه حتى قُطِعَ باثنتَيْنِ[٢] . وقَدْ رُوِىَ هذا فى حديثٍ مَرْفُوعٍ ، سنُورِدُه بَعْدُ إن شَاءَ اللَّهُ . وَرَوَى إسحاقُ بنُ بِشْرٍ[٣] ، عَن إدريسَ بنِ سِنَانٍ ، عَنْ وَهْبٍ أَنَّه قال : الذى انْصَدَعَتْ له الشجرةُ هو أَشْعِيا ، فَأَمَّا زكريّا فماتَ مَوْتًا . فاللَّهُ أعلمُ .

وقال الإمامُ أحمدُ[٤] : حَدَّثنا عَفَّانُ ، ثنا أبو خَلَفٍ موسى بنُ خَلَفٍ ، وكان يُعَدُّ مِنَ البُدَلَاءِ ، حَدَّثنا يَحْيَى بنُ أبى كَثِيرٍ ، عن زَيْدِ بنِ سَلَّام ، عن جَدِّهِ مَمْطُورٍ ، عن الحارثِ الأَشْعَرِىِّ ، أَنَّ النبىَّ ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ ، أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ ، وأَنْ يَأْمُرَ بَنِى إِسْرَائِيلَ أن يَعْمَلُوا بِهِنَّ ،

---

(١) فى م : « عليهما » .
(٢) تاريخ دمشق ١٩/ ٥٤، ٥٥.
(٣) تاريخ دمشق ١٩/ ٥٦.
(٤) أحمد فى المسند ٤/ ١٣٠. كما أخرجه ابن حبان من طريق يحيى بن أبى كثير به. الإحسان (٦٢٣٣) . (إسناده صحيح) .

وَكَادَ أَنْ يُبْطِئَ ، فَقَالَ له عِيسَى ، عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّكَ قَدْ أُمِرْتَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ ، أَنْ تَعْمَلَ بِهِنَّ وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ ؛ فَإِمَّا أَنْ تُبَلِّغَهُنَّ ، وإِمَّا أَنْ أُبَلِّغَهُنَّ . فَقَالَ : يَا أَخِي ، إِنِّي أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي أَنْ أُعَذَّبَ أَوْ يُخْسَفَ بِي . قال : فَجَمَعَ يَحْيَى بَنِي إِسْرَائِيلَ في بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، حتّى امْتَلأَ الْمَسْجِدُ ، فقَعَدَ على الشَّرَفِ ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّ اللَّهَ ، عَزَّ وَجَلَّ ، أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ ، أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَآمُرَكُم أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ ؛ أَوَّلُهُنَّ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، فَإِنَّ مَثَلَ ذلك مَثَلُ مَنِ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مالِهِ بِوَرِقٍ أَوْ ذَهَبٍ ، فَجَعَلَ يَعْمَلُ ويُؤَدِّي غَلَّتَهُ إِلى غَيْرِ سَيِّدِهِ ، فَأَيُّكُمْ يَسُرُّهُ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ ، وَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ ، فَاعْبُدُوه ولا تُشْرِكُوا به شَيْئًا ، وَآمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ قِبَلَ عَبْدِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا . وآمُرُكُمْ بالصِّيَامِ ، فإِنَّ مَثَلَ ذلك كَمَثَلِ رَجُلٍ مَعَهُ صُرَّةٌ مِنْ مِسْكٍ في عِصَابَةٍ ، كُلُّهُمْ يَجِدُ رِيحَ الْمِسْكِ ، (١وَإِنَّ خُلُوفَ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ١) . وآمُرُكُمْ بالصَّدَقَةِ ، فإِنَّ مَثَلَ ذلكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ العَدُوُّ ، فَشَدُّوا يَدَهُ إِلى عُنُقِهِ ، وَقَدَّمُوه لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ ، فقال : هَلْ لَكُمْ أَنْ أَفْتَدِيَ نَفْسِي مِنْكُمْ ؟ فَجَعَلَ يَفْتَدِي نَفْسَهُ مِنْهُمْ بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ حَتَّى فَكَّ نَفْسَهُ . وآمُرُكُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ، عَزَّ وَجَلَّ [٢٤٤/١ظ] ، كَثِيرًا ، فإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ العَدُوُّ سِرَاعًا في إِثْرِه ، فأَتَى حِصْنًا حَصِينًا ، فَتَحَصَّنَ فِيهِ ، وَإِنَّ الْعَبْدَ أَحْصَنُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ ، إذا كَانَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ ، عَزَّ وَجَلَّ » . قال : وقال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ ، اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ ؛ بالجماعةِ ، والسَّمْعِ ، وَالطَّاعةِ ،

(١ - ١) سقط من : ح .

وَالْهِجْرَةِ ، وَالْجِهَادِ فى سَبِيلِ اللَّهِ ، فَإِنَّ مَنْ خَرَجَ عَنِ الْجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ ، فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ ، إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ ، وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ ، فَهُوَ مِنْ جُثَاءِ جَهَنَّمَ » . قالُوا : يا رسولَ اللَّهِ ، وإن صامَ وصَلَّى ؟ قال : « وإِنْ صَامَ وَصَلَّى ، وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ ، ادْعُوا الْمُسْلِمِينَ بِأَسْمائِهِمْ ، بِمَا سَمَّاهُمُ اللَّهُ ، عَزَّ وَجَلَّ ، الْمُسْلِمِينَ[(١)] الْمُؤْمِنِينَ عِبادَ اللَّهِ ، عَزَّ وَجَلَّ » .

وهكذا رَواهُ أبو يَعْلَى[(٢)] عَنْ هُدْبَةَ[(٣)] بنِ خالدٍ ، عن أَبَانَ بنِ يزيدَ ، عن يَحْيَى بنِ أبى[(٤)] كَثِيرٍ به .

وكذلك رَواه التِّرْمِذِيُّ[(٥)] مِن حديثِ أبى داودَ الطَّيالِسِيِّ ، وموسى بنِ إسماعيلَ ، كلاهما عن أَبَانَ بنِ يزيدَ العطَّارِ به . ورواه ابنُ ماجَهْ[(٦)] عن هشامِ ابنِ عَمَّارٍ ، عن محمدِ بنِ شُعَيْبِ بنِ[(٧)] سابُورَ ، عن معاويةَ بنِ سَلَّامٍ ، عن أَخِيه زيدِ بنِ سَلَّامٍ ، عن أبى[(٨)] سَلَّامٍ ، عن الحارثِ الأَشْعَرِىِّ به . ورواه الحاكمُ[(٩)] من طريقِ مَرْوانَ بنِ محمدٍ الطَّاطَرِىِّ ، عن مُعاويةَ بنِ سَلَّامٍ ، عن أخيه به . [(١٠)] ثم قال : تَفَرَّدَ به[(١٠)] مَرْوانُ الطَّاطَرِىُّ ، عن معاويةَ بنِ سَلَّامٍ . قلتُ[(١١)] : وليسَ كما

---

(١) سقط من : ص .
(٢) مسند أبى يعلى (١٥٧١) . (إسناده صحيح) .
(٣) فى الأصل : « هريمه » .
(٤) سقط من : الأصل .
(٥) الترمذى (٢٨٦٣، ٢٨٦٤) . (صحيح الترمذى ٢٢٩٨) .
(٦) لم يعزه فى التحفة (٣٢٧٤) إلى ابن ماجه .
(٧) فى الأصل : « عن » .
(٨) فى ص : « زيد بن » .
(٩) فى المستدرك ١١٨/١ مختصرًا .
(١٠ - ١٠) سقط من : ص .
(١١) القائل ابن كثير .

قال . ورَواه الطَّبَرَانِيُّ[1] ، عن محمدِ بنِ عَبْدَةَ ، عن أبي تَوْبَةَ الرَّبِيعِ بنِ نافِعٍ[2] ، عن معاويةَ بنِ سَلَّامٍ ، عن أبي سَلَّامٍ ، عن الحارثِ الأَشْعَرِيِّ ، فذَكَرَ نَحْوَهُ ، فَسَقَطَ ذِكْرُ زيدِ بنِ سَلَّامٍ مِن هذه الرِّوايةِ . ثم رَوَى الحافظُ ابنُ عساكرَ[3] ، مِن طريقِ عبدِ اللَّهِ بنِ أبي جعفرٍ الرَّازِيِّ ، عن أبيه ، عن الرَّبِيعِ بنِ أنسٍ ، قال : ذُكِرَ لنا عن أصْحَابِ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، فيما سَمِعُوا مِن عُلَمَاءِ بني إسرائيلَ ، أنَّ يَحْيَى بنَ زكريَّا أُرْسِلَ بِخَمْسِ كلماتٍ . وَذَكَرَ نحوَ ما تَقَدَّم . وقد ذَكَرُوا[4] أنَّ يَحْيَى ، عليه السَّلامُ ، كان كثيرَ الانفرادِ مِن النَّاسِ ، إنَّما كان يَأْنَسُ إلى البَرَارِيِّ ، ويَأْكُلُ مِن وَرَقِ الأَشْجارِ ، وَيَرِدُ ماءَ الأَنْهَارِ ، ويَتَغَذَّى بالجَرَادِ في بعضِ الأَحْيانِ ، ويقولُ : مَنْ أَنْعَمُ منكَ يا يَحْيَى . وَرَوَى ابنُ عساكرَ[5] ، أنَّ أَبَوَيْه خَرَجَا في تَطَلُّبِهِ ، فوَجَدَاه عندَ بُحَيْرَةِ الأُرْدُنِّ ، فلمَّا اجْتَمَعَا به ، أبْكَاهُما بُكَاءً شديدًا ؛ لِمَا هو فيه مِن العِبَادةِ والخَوْفِ مِن اللَّهِ ، عزَّ وجلَّ . وقال ابنُ وَهْبٍ[6] ، عن مالكٍ ، عن حُمَيْدِ بنِ قَيْسٍ ، عن مجاهدٍ ، قال : كان طَعَامُ يَحْيَى بنِ زكريَّا العُشْبَ ، وإنْ كان لَيَبْكِي مِن خَشْيَةِ اللَّهِ ، حتى لو كان القَارُ على عَيْنَيْهِ لحَرَقَه[7] . وقال محمدُ بنُ يَحْيَى الذُّهْلِيُّ[8] : حَدَّثَنَا أبو صالحٍ ، حدَّثنا

---

(١) المعجم الكبير (٣٤٣٠) .
(٢) في ح : « بافع » . وفي م : « يافع » .
(٣) تاريخ دمشق ١٨/ ٨٩، ٩٠ . مخطوط .
(٤) المصدر السابق ١٨/ ٩٥.
(٥) تاريخ دمشق ٥٤/١٩ مطوّلًا .
(٦) تاريخ دمشق ٩٦/١٨ مخطوط .
(٧) في الأصل : « لخزقه » . وفي ح ، م ، ص : « لخرقه » . والمثبت من التاريخ .
(٨) المصدر السابق ١٨/ ٩٥، ٩٦ .

اللَّيْثُ ، حدَّثنى عُقَيْلٌ ، عن ابنِ شِهَابٍ ، قال [١/٢٤٥و] : جَلَسْتُ يومًا إلى أبى إدْرِيسَ الخَوْلَانِيِّ وهو يَقُصُّ ، فقال : أَلَا أُخْبِرُكُم بِمَنْ كان أَطْيَبَ النَّاسِ طعامًا ؟ فلمَّا رأى النَّاسَ قد نَظَرُوا إليه قال : إنَّ يَحْيَى بنَ زكريَّا ، كان أَطْيَبَ النَّاسِ طَعَامًا ؛ إنَّما كان يأْكُلُ مع الوَحْشِ ؛ كَراهَةَ أن يُخَالِطَ النَّاسَ فى معايِشِهم.

وقال ابنُ المَبَارَكِ[(١)] ، عن وُهَيْبِ بنِ الوَرْدِ ، قال : فَقَدَ زكريَّا ابْنَهُ يَحْيَى ثلاثةَ أيامٍ ، فَخَرَجَ يَلْتَمِسُهُ في البَرِّيَّةِ ، فإذا هو قد احْتَفَرَ قَبْرًا ، وأقامَ فيه يَبْكِى على نَفْسِهِ ، فقال : يا بُنَيَّ ، أنا أَطْلُبُكَ مِنْ ثَلاثَةِ أيامٍ ، وأَنْتَ فى قَبْرٍ قَدْ احْتَفَرْتَه ، قائمٌ تَبْكِى فيه ؟! فقال : يا أَبَتِ ، أَلَسْتَ أَنْتَ أَخْبَرْتَنى أَنَّ بَيْنَ الجَنَّةِ والنَّارِ مَفَازَةً[(٢)] ، لا تُقْطَعُ إلَّا بِدُمُوعِ البَكَّائِينَ ؟ فقال له : ابْكِ يا بُنَيَّ . فَبَكَيَا جَمِيعًا . وهكذا حَكاهُ وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ ، ومجاهدٌ بنَحْوِهِ[(٣)] . ورَوَى ابنُ عساكرَ[(٤)] عنه ، أنَّه قال : إنّ أَهْلَ الجَنَّةِ لا يَنامُون لِلَذَّةِ ما همْ فيه مِن النَّعيمِ ، فكذا يَنْبَغِى للصِّدِّيقِينَ أن لا ينامُوا ؛ لِمَا فى قلوبهم مِن نَعِيمِ المَحَبَّةِ للَّهِ ، عزَّ وجلَّ . ثُمَّ قال : كَم بينَ النَّعيمَيْنِ وكم بَيْنَهُما . وذَكَرُوا أَنَّه كان كثيرَ البُكاءِ ، حتى أَثَّرَ البُكاءُ فى خَدَّيْهِ مِن كَثْرَةِ دُمُوعِهِ[(٥)] .

---

(١) المصدر السابق ١٨/ ٩٧.

(٢) فى ح : « مقام » .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق ١٨/ ٩٦.

(٥) أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق المخطوط ١٨/ ٩٧ بمعناه ، بسنده إلى مجاهد .

(١) بيانُ سببِ قتْلِ يَحْيَى ، عليـه السـلامُ (١)

وذَكَرُوا فى قَتْلِهِ أَسْبابًا كثيرةً ؛ مِن أَشْهَرِها أَنَّ بَعْضَ مُلوكِ ذلك الزَّمانِ بِدِمَشْقَ ، كانَ يُرِيدُ أَنْ يَتَزَوَّجَ ببعْضِ محارِمِهِ ، أو مَن لا يَحِلُّ له تَزْوِيجُها ، فَنَهَاه يَحْيَى ، عليه السَّلامُ ، عَنْ ذلك ، فبَقِيَ فى نَفْسِها منه ، فلمَّا كان بَيْنَها وبينَ الملكِ ما يُحِبُّ منها ، اسْتَوْهَبَتْ منه دَمَ يَحْيَى ، فَوَهَبَه لها فَبَعَثَتْ إليه مَن قَتَلَه ، وجاء برأْسِهِ وَدَمِهِ فى طَسْتٍ إلى عِنْدِها ، فيُقالُ : إنَّها هَلَكَتْ مِن فَوْرِها وساعَتِها . وقيل : بل أَحَبَّتْه امرأةُ ذلك المَلِكِ وراسَلَتْه ، فَأَبَى عليها ، فلمَّا يَئِسَتْ منه ، تَحَيَّلَتْ فى أنِ اسْتَوْهَبَتْه مِن المَلِكِ ، فَتَمَنَّعَ عليها المَلِكُ ، ثمَّ أجابها إلى ذلك ، فبَعَثَتْ[٢] مَن قَتَلَه وأَحْضَرَ إليها رَأْسَهَ وَدَمَهُ فى طَسْتٍ .

وقد وَرَدَ مَعْناه فى حديثٍ ، رَواه إسحاقُ بنُ بِشْرٍ فى كتابِه « المُبْتَدَأ »[٣] حيثُ قال : أنبأنا[٤] يعقوبُ الكوفيُّ ، عن عَمْرِو بنِ مَيْمُونٍ ، عن أبيه ، عن ابنِ عباسٍ ، أَنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ ليلةَ أُسْرِىَ بِهِ رَأَى زكريَّا فى السَّماءِ ، فَسَلَّمَ عليه وقال له : « يا أَبَا يَحْيَى ، خَبِّرْنِى عَنْ قَتْلِكَ ؛ كَيْفَ كَانَ ؟ ولِمَ قَتَلَكَ بَنُو

(١ - ١) سقط من : الأصل ، ص .

(٢) فى م : « فبعث » .

(٣) أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق ١٩/ ٥٥، ٥٦، من طريق إسحاق بن بشر به .

(٤) بعده فى الأصل : « أبو » . وبعده فى ص : « ابن » .

إسْرَائِيلَ ؟ » . قال : يا محمدُ ، أُخْبِرُكَ أَنَّ يَحْيَى كان خَيْرَ أَهْلِ زَمَانِه ، وكان أَجْمَلَهُم وأَصْبَحَهُم وَجْهًا ، وكان كما قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا ﴾ وكان لا يَحتاجُ إلى النِّساءِ ، فهَوِيَتْه[1] امْرَأَةُ مَلِكِ بنى إسْرائيلَ ، وكانت بَغِيَّةً ، فأَرْسَلَتْ إليه ، وَعَصَمَهُ اللَّهُ ، وامْتَنَعَ يَحْيَى وَأَبَى عليها ، وأَجْمَعَتْ على قَتْلِ يَحْيَى ، ولهم عِيدٌ يَجْتَمِعُون فى كُلِّ عامٍ ، وكانت سُنَّةُ المَلِكِ أَن [١/٢٤٥ظ] يُوعِدَ ولا يُخْلِفَ ولا يَكْذِبَ . قال : فَخَرَجَ المَلِكُ إلى العيدِ فقامتِ امْرَأَتُهُ فشَيَّعَتْهُ ، وكان بها مُعْجَبًا ، ولم تَكُنْ تَفْعَلُهُ فيما مَضَى ، فَلَمَّا أَنْ شَيَّعَتْهُ قال المَلِكُ : سَلِينى ، فَمَا سَأَلْتِنى شَيْئًا إلَّا أَعْطَيْتُكِ . قالتْ : أُرِيدُ دَمَ يَحْيَى بنِ زَكَرِيَّا . قال لها : سَلِينى غَيْرَهُ . قالت : هو ذاك . قال : هو لَكِ . قال : فبَعَثَتْ جَلَاوِزَتَها[2] إلى يَحْيَى ، وهو فى مِحْرَابِهِ يُصَلِّى ، وأنا إلى جانِبِهِ أُصَلِّى . قال : فَذُبِحَ فى طَسْتٍ وَحُمِلَ رَأْسُه وَدَمُهُ إليها . قال : فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « فَمَا بَلَغَ مِنْ صَبْرِكَ ؟ » . قال : ما انْفَتَلْتُ مِن صَلاتى . قال : فَلَمَّا حُمِلَ رأسُهُ إليها فوُضِعَ بينَ يَدَيْها ، فلمَّا أَمْسَوْا[3] ، خَسَفَ اللَّهُ بالمَلِكِ وأهلِ بيتِهِ وَحَشَمِهِ ، فلمَّا أَصْبَحُوا قالتْ بنو إسرائيلَ : قد غَضِبَ إلهُ زكريَّا لزكريَّا ، فَتَعَالَوْا حتى نَغْضَبَ لمَلِكِنا ، فَنَقْتُلَ زكريَّا . قال : فَخَرَجُوا فى طَلَبِى لِيَقْتُلُونى ، وجاءَنى النَّذِيرُ فَهَرَبْتُ منهم ، وإبليسُ أمامَهم يَدُلُّهم عَلَيَّ ، فلمَّا أَنْ تَخَوَّفْتُ أَن لا أُعْجِزَهُم ، عَرَضَتْ لى شجرةٌ ، فنادَتْنِى وقالتْ : إلَيَّ ، إلَيَّ . وانْصَدَعَتْ لى ، فدخلتُ فيها . قال : وجاء إبليسُ حتى أَخَذَ بِطَرَفِ رِدائى ، والْتَأَمَتِ الشجرةُ ، وبَقِيَ طَرَفُ رِدائى

---

(١) فى م : « فهوته » .
(٢) جلاوزتها : جمع جلواز وهو الشُّرطى .
(٣) فى الأصل : « استوى » .

خارِجًا مِن الشجرةِ ، وجاءت بنو إسرائيلَ ، فقال إبليسُ : أَمَا رَأَيْتُمُوه دَخَلَ هذه الشجرةَ ؟ هذا طَرَفُ رِدَائِهِ ، دَخَلَهَا بِسِحْرِه . فقالوا : نَحْرِقُ هذه الشجرةَ . فقال إبليسُ : شُقُّوهُ بالمِنْشارِ شَقًّا . قال : فَشُقِقْتُ مع الشَّجَرةِ بالمِنْشَارِ . فقال له النَّبِيُّ ﷺ : « هَلْ وَجَدْتَ لَهُ مَسًّا أَوْ وَجَعًا ؟ » . قال : لا ، إِنَّمَا وَجَدَتْ ذلك الشَّجَرَةُ ، جَعَلَ اللَّهُ رُوحِي فيها . هذا سياقٌ[1] غريبٌ[2] ، وحديثٌ عجيبٌ ، ورَفْعُه مُنْكَرٌ ، وفيه ما يُنْكَرُ على كلِّ حَالٍ ، ولم نَرَ فى شىءٍ مِن أحاديثِ الإِسْراءِ ذِكْرًا لزكريَّا ، عليهِ السَّلامُ ، إِلَّا فى هذا الحديثِ ، وإِنَّما المحفوظُ فى بعضِ أَلْفاظِ « الصَّحيحِ » ، فى حديثِ الإسراءِ : « فَمَرَرْتُ بِابْنَيِ الخالةِ ؛ يَحْيَى وعِيسَى » . وهما ابنا الخالةِ على قَوْلِ الجُمهورِ ، كما هو ظاهرُ الحديثِ ؛ فإِنَّ أُمَّ يَحْيَى أَشْيَاعَ بِنْتَ عِمْرانَ ، أُخْتُ مَرْيَمَ بنتِ عِمْرانَ . وقيل : بل أَشْيَاعُ ، وهى امرأةُ زكَريَّا أُمُّ يَحْيَى ، هى أختُ حَنَّةَ امرأةِ عِمْرانَ أُمِّ مَرْيَمَ ، فيكونُ يَحْيَى ابنَ خالةِ مَرْيَمَ . فاللَّهُ أعلمُ .

ثُمَّ اخْتُلِفَ فى مَقْتَلِ يَحْيَى بنِ زكريَّا ، هل كان فى المسْجِدِ الأَقْصَى ، أَمْ بغيرِه ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ ؛ فقال الثَّوْرِيُّ[3] ، عن الأَعْمَشِ ، عن شِمْرِ بنِ عَطِيَّةَ ، قال : قُتِلَ على الصَّخْرةِ التى بِبَيْتِ المَقْدِسِ ، سبعون نبيًّا ، منهم يَحْيَى بنُ زكريًّا ، عليه السلامُ . وقال أبو[4] عبيدٍ القاسمُ بنُ سَلَّامٍ[5] : حَدَّثَنا عبدُ اللَّهِ بنُ صالحٍ ، عن اللَّيْثِ ، عن يَحْيَى بنِ سعيدٍ ، عن سعيدِ بنِ المُسَيَّبِ ، قال : قَدِمَ

---

(١) فى ص : « إسناد » .

(٢) بعده فى م : « جدا » .

(٣) أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق ١٨/١٠٥ مخطوط ، من طريق سفيان به .

(٤) فى ح : « ابن » .

(٥) المصدر السابق من طريق أبى عبيد به .

بُخْتُ [١/٢٤٦و] نَصَّرَ دِمَشْقَ ، فإذا هو بِدَمِ يَحْيَى بنِ زكريَّا يَغْلِى ، فسَأَلَ عَنْه ، فأَخْبَرُوه ، فقَتَلَ على دَمِه سبعين ألفًا ، فسَكَنَ . وهذا إسْنَادٌ صحيحٌ إلى سعيدِ ابنِ المسَيَّبِ ، وهو يَقْتَضِى أنَّه قُتِلَ بدِمَشْقَ ، وأَنَّ قِصَّةَ بُخْتُ نَصَّرَ كانت بعدَ المسيحِ ، كما قاله عَطَاءٌ ، والحَسَنُ البَصْرِىُّ . فاللَّهُ أعلمُ .

ورَوَى الحافظُ ابنُ عساكرَ[(١)] ، من طريقِ الوليدِ بنِ مُسْلِمٍ ، عن زَيْدِ بنِ واقِدٍ قال : رأيتُ رأْسَ يَحْيَى بنِ زَكريَّا حينَ أرادُوا بِنَاءَ مسجِدِ دِمَشْقَ ، أُخْرِجَ مِن تَحْتِ رُكْنٍ مِن أركانِ القِبْلَةِ ، الذى يلى المِحْرابَ ، ممَّا يلى الشَّرْقَ ، فكانتِ البَشَرَةُ والشَّعْرُ على حالِه ، لم يَتَغَيَّرْ . وفى روايةٍ : كأنَّما قُتِلَ السَّاعةَ . وذَكَر فى بِنَاءِ مَسْجِدِ دِمَشْقَ[(٢)] ، أنَّه جُعِلَ تحتَ العَمُودِ المعروفِ بعمودِ السَّكَاسِكَةِ . فاللَّهُ أعلمُ .

[(٣)]وقد رَوَى الحافظُ ابنُ عساكرَ[(٤)] فى « المُسْتَقْصَى فى فَضائِلِ الأَقْصَى »[(٥)] مِن طريقِ العبَّاسِ بنِ صُبْحٍ ، عن مَرْوانَ ، عن سعيدِ بنِ عبدِ العزيزِ ، عن قُسَيْمٍ[(٦)] مولى معاويةَ ، قال : كان مَلِكُ هذه المدينةِ - يَعْنِى دِمَشْقَ - هدادَ[(٣)]

---

(١) تاريخ دمشق ٢/ ٢٤١.

(٢) تاريخ دمشق ٢/ ٢٤٢.

(٣ - ٣) سقط من : الأصل ، ص.

(٤) هو : القاسم بن على بن هبة الله ، أبو محمد ابن عساكر ، بهاء الدين . محدِّث مؤرخ ، ولد فى جمادى الأولى ٥٢٧هـ ، وخلف أباه - أبا القاسم على بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعى ، مصنِّف تاريخ دمشق - فى إسماع الحديث بالجامع الأموى ودار الحديث النورية ، ودخل مصر ، وتوفى بدمشق فى ٨ صفر ٦٠٠هـ . انظر معجم المؤلفين ٨/ ١٠٦. وقد تقدم فى ١/ ٤٤.

(٥) وأخرج هذا الأثر مطولا ، ابن عساكر فى تاريخ دمشق ١٨/ ١٠١- ١٠٣ مخطوط ، من طريق مروان به .

(٦) فى م : « قاسم » . وانظر ترجمته فى تاريخ دمشق ١٤/٤٢١ مخطوط .

(1) ابنَ هدادٍ، وكان قد زوَّجَ[2] ابنه بابنةِ أخِيهِ[3] أريلَ، مَلِكَةِ صَيْدًا. قلتُ[4] :
وقد كان مِن جُمْلةِ أمْلَاكِها سوقُ الملوكِ بدِمَشْقَ، وهو الصَّاغَةُ العَتِيقَةُ. قال :
وكان قد حَلَفَ بِطَلاقِها ثلاثًا، ثُمَّ إنَّه أرادَ مُراجَعَتَها، فاسْتَفْتَى يحيى بنَ
زكريَّا، فقال : لا تَحِلُّ لَكَ حتى تَنْكِحَ زوْجًا غَيْرَك. فحَقَدَتْ عليه، وسألتْ
مِن الملِكِ رَأْسَ يحيى بنِ زكريَّا، وذلك بإشارةِ أُمِّها، فأَبَى عليها، ثُمَّ أجابَها
إلى ذلك، وبَعَثَ إليه، وهو قائمٌ يُصَلِّى بمَسْجِدِ جَيْرُونَ، مَن أتاه برأْسِه فى
صِينِيَّةٍ، فجعل الرَّأْسُ يقول : لا تَحِلُّ له، لا تَحِلُّ له حتى تَنْكِحَ زوجًا غَيْرَه.
فأَخَذَتِ المرأةُ الطَّبَقَ، فحمَلَتْه على رَأْسِها وأَتَتْ به أُمَّها، وهو يقولُ كذلك،
فلمَّا تَمَثَّلَتْ بينَ يَدَىْ أُمِّها، خُسِفَ بها إلى قَدَمَيْها، ثُمَّ إلى حَقْوَيْها، وجَعَلَتْ
أُمُّها تُوَلْوِلُ، والجَوارِى يَصْرُخْنَ وَيَلْطِمْنَ وُجُوهَهُنَّ، ثم خُسِفَ بها إلى
مَنْكِبَيْها، فأَمَرَتْ أُمُّها السَّيَّافَ أن يَضْرِبَ عُنُقَها لتَتَسَلَّى برأْسِها، ففَعَلَ،
فَلَفَظَتِ الأَرْضُ جُثَّتَها عندَ ذلك، ووَقَعُوا فى الذُّلِّ والفَناءِ، ولم يَزَلْ دَمُ يَحْيَى
يَفُورُ، حتى قَدِم بُخْتُ نَصَّرَ فقَتَلَ عليه خمسةً وسبعين أَلْفًا. قال سعيدُ بنُ عبدِ
العزيزِ : وَهى دَمُ كلِّ نبىٍّ. ولم يَزَلْ يَفُورُ، حتى وَقَفَ عِنْدَه أَرْميا، عليه
السّلامُ، فقال : أيُّها الدَّمُ، أَفْنَيْتَ بنى إسرائيلَ، فاسْكُنْ بإذْنِ اللَّهِ. فَسَكَنَ،
فرُفِعَ السَّيْفُ، وَهَرَبَ مَن هَرَبَ مِن أهلِ دِمَشْقَ إلى بيتِ المقدسِ، فتَبِعَهم
إليها، فقَتَلَ خَلْقًا كثيرًا لا يُحْصَوْنَ كَثْرَةً، وسَبا منهم، ثُمَّ رَجَعَ عنهم (1).

(١ - ١) سقط من : الأصل، ص.

(٢) فى م : «زوجه».

(٣) بعده فى تاريخ دمشق : «تحت أخيه».

(٤) سقط من : م.

قِصَّةُ عيسى ابنِ مريمَ ،

عليه مِن اللَّهِ أفضلُ الصّلاةِ والسّلامِ

قال اللَّهُ تعالى فى سورةِ «آل عِمْرانَ» ، التى أُنْزِلَ صَدْرُها ، وهو ثلاثٌ وثمانونَ آيةً مِنْها ، فى الرَّدِّ على النَّصارَى ، عليهم لعائنُ اللَّهِ ، الَّذين زَعَمُوا أنَّ للَّهِ وَلَدًا ، تعالى اللَّهُ عمّا يقولونَ عُلُوًّا كَبيرًا ، وكان قَدْ قَدِم وَفْدُ نَجْرانَ منهم على رسولِ اللَّهِ ﷺ ، فَجَعَلُوا يَذْكُرون ما هم عليه مِن الباطِلِ ، مِن التَّثْليثِ فى الأَقانيمِ ، وَيَدَّعُونَ - بِزَعْمِهم - أنّ اللَّهَ ثالثُ ثلاثةٍ ؛ وهم الذَّاتُ المُقَدَّسَةُ ، وعيسى ، ومريمُ ، على اختلافِ فِرَقِهم ، فأنْزَلَ اللَّهُ ، عَزَّ وجَلَّ ، صَدْرَ هذه السورةِ ، بَيَّن فيها أنَّ عيسى عَبْدٌ مِن عبادِ اللَّهِ ، خَلَقَه وصَوَّرَه فى الرَّحِمِ ، كما صَوَّرَ غَيْرَه مِن المخلوقاتِ ، وأنَّه خَلَقَه مِن غَيْرِ أَبٍ ، (1كما خَلَقَ آدمَ مِن غيرِ أَبٍ ، ولا أمٍّ1) وقال له : كُنْ . فَكَانَ ، وبَيَّنَ تعالى أَصْلَ ميلادِ أُمِّهِ مَرْيَمَ ، وكيف كان مِن أَمْرِها ، وكيفَ حَمَلَتْ بوَلَدِها عيسى ، وكذلك بَسَطَ ذلك فى سورةِ «مريمَ» ، كما سنتكلَّمُ على ذلك كُلِّه بِعَوْنِ اللَّهِ وحُسْنِ توفيقِه وهدايتِه ، فقال تعالى وهو أَصْدَقُ القائلين[2] : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٣٤ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ

(1- 1) سقط من : الأصل .

(2) التفسير 2/26- 29 .

ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٣- ٣٧].

يذكُرُ تعالى أنَّه اصطفى آدمَ، عليه السَّلامُ، والخُلَّصَ من ذُرِّيَّتِه، المُتَّبِعِين [١/٢٤٦ظ] شَرْعَه، المُلازِمِينَ طاعَتَه، ثم خَصَّصَ فقال: ﴿ وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾، فدَخَلَ فيهم بنو إسماعيلَ وبنو إسحاقَ. ثم ذَكَرَ فَضْلَ هذا البيتِ الطَّاهِرِ الطَّيِّبِ، وهم آلُ عِمْرانَ، والمُرادُ بِعِمْرانَ هذا، والدُ مريمَ عليهما السَّلامُ، قال محمدُ بنُ إسحاقَ[١]: وهو عِمْرانُ بنُ باشَمَ[٢] بنِ أمونَ بنِ منشا[٣] بنِ حزقيا بنِ أحزيقَ[٤] بنِ موثَمَ[٥] بنِ عزاريا[٦] بنِ أمصيا بنِ ياوشَ بنِ أحزيهو[٧] بنِ يارمَ[٨] ابنِ يهفاشاطَ[٩] بنِ أيش[١٠] بنِ أبانَ[١١] بنِ رحبعامَ[١٢] بنِ سليمانَ بنِ داودَ.

---

(١) تاريخ الطبرى ١/ ٥٨٥، ٥٨٦.
(٢) فى تاريخ الطبرى: «ياشهم».
(٣) فى ح، م، ص: «ميشا».
(٤) فى الأصل، م، ح: «احريق».
(٥) فى ح: «مرثم». وفى ص: «موشم». وفى تاريخ الطبرى: «يوثام».
(٦) فى م، ص: «عزازيا». وفى تاريخ الطبرى: «عزريا».
(٧) فى الأصل، ح، م: «أحريهو».
(٨) فى ح، م: «يازم». وفى ص: «بازم».
(٩) فى تاريخ الطبرى: «يهشافاط».
(١٠) فى تاريخ الطبرى: «أسا».
(١١) فى م: «أيان». وفى تاريخ الطبرى: «أبيا».
(١٢) فى الأصل، ح، ص: «رخيعم». وفى تاريخ الطبرى: «رحبعم».

وقال أبو القاسم ابنُ عساكرَ[1] : مريمُ بنتُ عِمْرانَ بنِ ماتانَ[2] بنِ اليعازرِ[3] ابنِ اليودِ بنِ أجبنَ[4] بنِ صادوقَ بنِ عيازورَ[5] بنِ الياقيمِ بنِ أيبودَ بنِ زربائيلَ بنِ شالتانَ[6] بنِ يوحنيا بنِ برستيا[7] بنِ آمونَ بنِ ميشا بنِ حزقيلَ[8] بنِ أجازَ بنِ يوثامَ[9] بنِ عزريا بنِ بورامَ بنِ بوسافاطَ[10] بنِ أسا[11] بنِ أبيا[12] بنِ رخيعمَ[13] ابنِ سليمانَ بنِ داودَ ، عليه السلامُ . وفيه مُخالَفَةٌ لما ذَكَرَه محمدُ بنُ إسحاقَ ، ولا خِلَافَ أنَّها مِن سُلالةِ داودَ ، عليه السَّلامُ ، وكان أبوها عمرانُ صاحبَ صَلاةِ بنى إسرائيلَ فى زمانِه ، وكانت أُمُّها ، وهى حَنَّةُ بنتُ فاقودَ بنِ قبيلٍ ، مِن العابداتِ ، وكان زكريًّا نبيُّ ذلك الزَّمانِ ، زوجَ أُخْتِ مريمَ أَشْياعَ ، فى قولِ الجمهورِ ، وقيل : زوجَ خالتِها أَشْياعَ . فاللَّهُ أعلَمُ . وقد ذَكَرَ محمدُ بنُ إسحاقَ وغيرُه[14] ، أنَّ أمَّ مريمَ كانت لا تَحْبَلُ ، فَرَأَتْ يومًا طائرًا يَزُقُّ[15] فَرْخًا له ،

---

(١) تاريخ دمشق ، الجزء المطبوع من تراجم النساء ص ٣٤٣.
(٢) فى النسخ : « ماثان » . والمثبت من تاريخ دمشق .
(٣) فى م ، ص : « العازر » . والمثبت كما فى مختصر تاريخ دمشق ٢٦/ ٦٩ .
(٤) فى الأصل : « أخيز » . وفى ح : « أخير » . وفى م ، ص : « أخنر » . والمثبت من تاريخ دمشق .
(٥) فى الأصل : « عيارزو » . وفى ح : « عيازرو » . وفى م : « عيازوز » . وفى ص : « عيازور » . والمثبت من تاريخ دمشق .
(٦) فى الأصل : « شاليال » . وفى ح : « شالثال » . وفى م ، ص : « شالتال » . والمثبت من تاريخ دمشق .
(٧) فى الأصل ، ح : « برشيا » . وفى م : « برشا » . وفى ص : « يرشا » . والمثبت من تاريخ دمشق .
(٨) فى الأصل ، ص : « حزقيا » . وفى ح ، م : « حزقا » . والمثبت من تاريخ دمشق .
(٩) فى النسخ : « موثام » . والمثبت من تاريخ دمشق .
(١٠) فى الأصل ، م ، ص : « يوشافاط » .
(١١) فى ح : « أشا » . وفى م ، ص : « أيشا » .
(١٢) فى الأصل : « أينا » . وفى ح ، م : « أبيا » . وفى ص : « أسبا » . والمثبت من تاريخ دمشق .
(١٣) فى م : « رحبعام » .
(١٤) انظر تفسير الطبرى ٣/ ٢٣٥.
(١٥) يزق : أى يطعمه فى فيه .

فاشْتَهَتِ الولدَ فنَذَرتْ للَّهِ إنْ حَمَلَتْ لَتَجْعَلَنَّ وَلَدَهَا مُحَرَّرًا ؛ أَىْ حَبِيسًا فى خِدمةِ بَيْتِ المَقْدِسِ. قالوا: فحاضَتْ مِن فَوْرِها، فلمَّا طَهُرَتْ واقَعَها بَعْلُها، فَحَمَلَتْ بمريَمَ، عليها السَّلامُ ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ وقُرِئَ بِضَمِّ التَّاءِ ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ أى ؛ فى خِدْمَةِ بيْتِ المقدسِ، وكانوا فى ذلك الزَّمَانِ يَنْذِرون لبيتِ المَقْدِسِ خُدَّامًا مِن أولادِهم. وقَوْلُها: ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ استُدِلَّ بِهِ على تَسْمِيَةِ المولودِ يومَ يُولدُ، وكما ثَبَتَ فى «الصَّحِيحَيْنِ»[1] عن أنسٍ، فى ذهَابِهِ بِأَخِيه إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ، فَحنَّكَ أَخاه وسَمَّاه عبدَ اللَّهِ. وجاء فى حديثِ الحَسَنِ، عن سَمُرَةَ مَرْفُوعًا: «كُلُّ غُلَامٍ رَهِينَةٌ بِعَقِيقَتِهِ، تُذْبَحُ عَنْهُ يَوْمَ سَابِعِهِ، وَيُسَمَّى وَيُحْلَقُ رَأْسُه». رواه أَحمدُ، وأهلُ السُّنَنِ، وصَحَّحَه التِّرْمِذِيُّ[2]، وجاءَ فى بعضِ ألفاظِه: و «يُدَمَّى» بَدَلَ: «ويُسَمَّى». وصحَّحَهُ بعضُهم. واللَّهُ أعلمُ. وقولُها: ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ قد اسْتُجِيبَ لها فى هذا، كما تُقُبِّلَ مِنها نَذْرُها؛ فقال الإمامُ أحمدُ[3]: حَدَّثَنا عبدُ الرَّزَّاقِ، حَدَّثَنا مَعْمَرٌ، عن الزُّهْرِيِّ، عن ابنِ المُسَيَّبِ، عن أبى هُريرةَ، أَنَّ النبيَّ ﷺ، قال [١/٢٤٧و]: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا الشَّيْطَانُ يَمَسُّهُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُ، إِلَّا مَرْيَمَ وابْنَهَا». ثُمَّ يقولُ أبو هريرةَ: واقْرَءُوا إنْ شِئْتُم: ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ أَخْرَجاه مِن حديثِ عبدِ

---

(١) البخارى (٥٤٧٠). مسلم (٢١٤٤).

(٢) فى المسند ٥/ ١٢، ١٧، ٢٢. أبى داود (٢٨٣٧، ٢٨٣٨). الترمذى (١٥٢٢). النسائى (٤٢٣١). ابن ماجه (٣١٦٥). (صحيح أبى داود ٢٤٦٢، ٢٤٦٣).

(٣) فى المسند ٢/ ٢٧٤. (إسناده صحيح).

الرَّزَّاقِ[1] . ورواه ابنُ جريرٍ[2] عن أحمدَ بنِ الفَرَجِ ، [3]عن بَقِيَّةَ[3] ، عن الزُّبَيْدِيِّ ، عن الزُّهْرِيِّ ، عن أبى سَلَمَةَ ، عن أبى هُرَيْرَةَ ، عن النَّبِيِّ ﷺ ، [4]بنَحْوِه .

وقال أَحمدُ[5] أَيضًا : حَدَّثنا إسماعيلُ بنُ عُمَرَ ، حَدَّثَنَا ابنُ أبى ذِئْبٍ[6] ، عن عَجْلانَ مَوْلَى المُشْمَعِلِّ ، عن أبى هُرَيرةَ ، عن النبيِّ ﷺ[4] ، قال : « كُلُّ مَوْلودٍ مِنْ بَنِى آدَمَ يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ بأُصْبُعِه ، إِلَّا مَرْيَمَ ابنةَ عِمْرَانَ ، وابْنَهَا عِيسَى » . تَفَرَّدَ بِهِ مِن هذا الوجهِ . ورَواه مسلمٌ[7] ، عن أبى الطَّاهِرِ ، عن ابنِ وَهْبٍ ، عن عَمْرِو[8] بنِ الحارِثِ ، عن أبى يُونسَ ، عن أبى هُريرة ، عن النبيِّ ﷺ ، بنحوِهِ .

وقال أَحمدُ[9] : حَدَّثَنا هَيْثَمٌ[10] ، حَدَّثَنا حَفْصُ بنُ[11] مَيْسَرَةَ ، عن العَلاءِ ، عن أبيه ، عن أبى هريرةَ أَنَّ النبيَّ ﷺ ، قال : « كُلُّ إِنْسَانٍ تَلِدُهُ أُمُّهُ يَلْكُزُهُ الشَّيْطانُ بحِضْنَيْهِ ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ مَرْيَمَ وَابْنِهَا ، أَلَمْ تَرَ إِلَى الصَّبِيِّ حينَ يَسْقُطُ كَيْفَ يَصْرُخُ ؟ » . قالوا : بَلَى يا رسولَ اللَّهِ . قال : « فذلك حين يَلْكُزُه الشَّيْطَانُ بِحِضْنَيْه » . وهذا على شرطِ مسلمٍ ، ولم يُخْرِجه مِن هذا الوجهِ .

ورواه قَيْسٌ[12] ، عن الأَعْمَشِ ، عن أبى صالحٍ ، عن أبى هُرَيْرَةَ ، قال : قال

---

(١) البخارى (٤٥٤٨) . مسلم (٢٣٦٦) .
(٢) فى تفسيره ٣/ ٢٤٠.
(٣ - ٣) سقط من : ح . وبعده فى ح ، م : « عبد اللَّه بن » .
(٤ - ٤) سقط من : ص .
(٥) المسند ٢/ ٢٨٨. (إسناده صحيح) .
(٦) فى م : « ذؤيب » .
(٧) مسلم (٢٣٦٦) .
(٨) فى م : « عمر » .
(٩) المسند ٢/ ٣٦٨.
(١٠) فى الأصل ، ح ، م : « هشيم » . وفى ص : « هشام » . وانظر تهذيب الكمال ٧/ ٧٤.
(١١) فى الأصل : « عن » .
(١٢) تفسير الطبرى ٣/ ٢٣٩، ٢٤٠.

رسولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا وَقَدْ عَصَرَهُ الشَّيْطانُ عَصْرَةً أو عَصْرَتَيْنِ؛ إِلَّا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، وَمَرْيَمَ». ثُمَّ قَرَأَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾. وكذا رَواه محمدُ بنُ إسحاقَ[1]، عن يزيدَ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ قُسَيْطٍ، عن أبى هُريرةَ، عن النَّبِيِّ ﷺ، بأَصْلِ الحديثِ.

وقال الإمامُ أَحمدُ[2]: حَدَّثنا عبدُ الملِكِ، حَدَّثَنا المُغيرةُ، هو ابنُ عبدِ الرحمنِ[3] الحِزَامِيُّ، عن أبى الزِّنادِ، عن الأَعْرَجِ، عن أبى هُريرةَ، عن النبيِّ ﷺ، قال: «كُلُّ بَنِى آدَمَ يَطْعَنُ الشَّيْطانُ فى جَنْبِهِ حِينَ يُولَدُ، إِلَّا عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ، ذَهَبَ يَطْعَنُ فَطَعَنَ فى الحِجَابِ». وهذا على شَرْطِ «الصَّحيحَيْنِ»، ولم يُخْرِجاه مِن هذا الوَجْهِ. وقولُه: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ ذَكَرَ كثيرٌ مِن المفسِّرين[4] أَنَّ أُمَّها حينَ وضَعَتْها، لَفَّتْها فى خُروقِها، ثم خَرَجَتْ بِها إلى المسْجِدِ، فَسَلَّمتها إلى العُبَّادِ الذين هُم مُقيمُونَ به، (٥)وكانت ابنةَ إمَامِهم وصاحِبِ صَلَاتِهم(٥)، فتنازَعُوا فيها. والظَّاهِرُ أنَّها إنَّما سَلَّمَتْها إليهم بعدَ رَضَاعِها وكَفَالَةِ مِثْلِها فى صِغَرِها، ثُمَّ لَمَّا دَفَعَتْها إليهم، تَنازَعُوا [١/٢٤٧ظ] فى أَيِّهم يَكْفُلُها، وكانَ زكريَّا نَبِيُّهُم فى ذلكَ الزَّمانِ، قد أرادَ أَنْ يَسْتَبِدَّ بها دُونَهم؛ مِن أَجْلِ أَنَّ زَوْجَتَهُ أُخْتُها أو خالتُها، على القَوْلَيْنِ، فَشَاحُّوه فى ذلك، وطلبُوا أن يَقْتَرِعَ معهم،

(١) تفسير الطبرى ٣/ ٢٣٩.
(٢) المسند ٢/ ٥٢٣.
(٣) فى ح، م: «اللَّه». وانظر تهذيب الكمال ٢٨/ ٣٨٧.
(٤) تفسير الطبرى ٣/ ٢٤٣. تفسير القرطبى ٤/ ٦٧. الدر المنثور ٢/ ١٩.
(٥ - ٥) سقط من: ح.

فَسَاعَدَتْه المَقَادِيرُ، فَخَرَجَتْ قُرْعَتُه غَالِبَةً لهم، وذلك أنَّ الخالةَ بمنزلَةِ الأُمِّ.

قال اللَّهُ تعالى: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ أى؛ بِسَبَبِ غَلَبِهِ لهم فى القُرْعةِ، كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٤٤]، قالوا: وذلك أنَّ كُلًّا مِنْهم أَلْقَى قَلَمَهُ معروفًا به، ثُمَّ حَمَلُوها ووَضَعُوها فى مَوْضِعٍ، وأَمَرُوا غُلامًا لم يَبْلُغِ الحِنْثَ، فأَخْرَجَ واحدًا منها، فَظَهَرَ قَلَمُ زكريَّا، عليه السَّلامُ، فطلبُوا أن يَقْتَرِعُوا مَرَّةً ثانيةً، وأنْ يكونَ ذلك بأَنَ يُلْقُوا أَقْلامَهم فى النَّهْرِ، فأَيُّهم جَرَى قَلَمُه (١على خِلافِ جِرْيَةِ الماءِ فَهو الغالبُ، ففَعَلُوا، فكان قَلَمُ زكريَّا هو الذى جَرَى على خلافِ جِرْيَةِ الماءِ، وسارت أقلامُهم مع الماءِ، ثُمَّ طَلَبُوا منه أن يَقْتَرِعُوا ثالثةً فأَيُّهم جَرَى قلمُه١) مع الماءِ(٢)، وتكونُ بَقِيَّةُ الأَقْلامِ قد انْعَكَسَ سَيْرُها صُعُدًا؛ فهو الغالِبُ، فَفَعَلُوا، فكان زكريَّا هو الغالِبَ لهم، فكَفَّلَها إذ كان أَحَقَّ بها شَرْعًا وقَدَرًا؛ لوجوهٍ عديدةٍ.

قال اللَّهُ تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قال المُفَسِّرُون(٣): اتَّخَذَ لها زكريَّا مَكَانًا شَرِيفًا من المسجدِ، لا يَدْخُلُه سِوَاها(٤)، فكانت تعبدُ اللَّهَ فيهِ، وتَقُومُ بما يَجِبُ عليها مِن سِدَانَةِ البيْتِ إذا جاءت نَوْبَتُها، وتقومُ بالعبادةِ ليلَها ونهارَها، حتى صارت يُضْرَبُ المَثَلُ بعبادتِها فى بنى

(١ - ١) سقط من: ص.

(٢) سقط من: ح.

(٣) تفسير القرطبى ٤/ ٧١. الدر المنثور ٢/ ١٨.

(٤) فى م: «سواه».

إسْرائيلَ ، وَاشْتَهَرَتْ بما ظَهَرَ عليها مِن الأحوالِ الكريمةِ ، والصِّفاتِ الشَّريفةِ ، حتى إنَّه كان نبيُّ اللَّهِ زكريًّا كُلَّمَا دَخَلَ عليها مَوْضِعَ عبادَتِها ، يَجِدُ عندَها رِزْقًا غريبًا في غيرِ أَوَانِهِ ، فكان يَجِدُ عندَها فاكهةَ الصَّيْفِ في الشِّتاءِ ، وفاكهةَ الشِّتاءِ في الصَّيْفِ ، فيسألُها : ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ فتقولُ : ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ أي ؛ رِزْقٌ رَزَقَنِيهِ اللَّهُ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ . فعِنْدَ ذلك وهُنَالِكَ ، طَمِعَ زكريًّا في وُجودِ وَلَدٍ مِن صُلْبِهِ ، وإن كان قد أَسَنَّ وَكَبِرَ . ﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ ، قال بعضُهم[1] : قال : يا مَنْ يَرْزُقُ مريمَ الثَّمَرَ في غيرِ أوانِه ، هَبْ لي وَلَدًا ، وإنْ كان في غَيْرِ أوانِه . فكان مِن خَبَرِه وقَضِيَّتِه ، ما قَدَّمْنا ذِكْرَهُ في قِصَّتِه .

قال اللَّه تعالى[2] : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ [١/٢٤٨و] إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ

---

(١) تفسير الطبري ٢/ ٢٤٨، القرطبي ٤/ ٧١. الدر المنثور ٢/ ٢٠، ٢١. وعزاه لإسحاق بن بشر.
(٢) التفسير ٢/ ٣٢- ٣٦.

جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٤٢- ٥١].

يذكُرُ تعالى أنَّ الملائكةَ بَشَّرتْ مَرْيَمَ باصطِفاءِ اللَّهِ لها، مِن بينِ سائرِ نِساءِ عالَمى زَمَانِها، بأَنِ اخْتارَها لإيجادِ وَلَدٍ مِنْها، مِن غيْرِ أَبٍ، وبُشِّرَتْ بأَنْ يكونَ نبيًّا شريفًا ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ ﴾ أى؛ فى صِغَرِهِ، يَدْعُوهم إلى عِبادَةِ اللَّهِ وَحْدَه لا شريكَ له، وكذلك فى حالِ كُهولَتِهِ، فدَلَّ على أنَّهُ يَبْلُغُ الكُهُولَةَ، ويَدعُو إلى اللَّهِ فيها، وأُمِرَتْ بكَثْرَةِ العبادَةِ والقُنُوتِ والسُّجودِ والرُّكُوعِ؛ لتَكُونَ أَهْلًا لهذه الكرامةِ، ولتَقُومَ بِشُكْرِ هذهِ النِّعْمَةِ، فيقالُ: إنَّها كانت تَقُومُ فى الصَّلاةِ حتى تَفَطَّرَتْ قَدَماها، رَضِىَ اللَّهُ عنها ورَحِمَها، ورَحِمَ أُمَّها وأَباها. فقَوْلُ الملائِكَةِ: ﴿ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ ﴾ أى؛ اختارَكِ واجْتَبَاكِ. ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ أى؛ مِن الأَخْلاقِ الرَّذِيلَةِ، وأَعْطَاكِ الصِّفاتِ الجميلةَ.

﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، يَحْتَمِلُ أَنْ يكونَ المرادُ عالَمى زَمَانِها، كقولِهِ لموسى: ﴿ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾، وكَقَوْلِه عن بنى إسرائيلَ: ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الدخان: ٣٢]. ومعلومٌ أَنَّ إبراهيمَ، عليه السَّلامُ، أَفْضَلُ مِن موسى، وأَنَّ محمدًا ﷺ، أفضلُ

منهما، وكذلك هذه الأُمَّةُ أفْضَلُ مِن سائرِ الأُممِ قَبلَها، وأكثرُ عَدَدًا، وأفْضَلُ عِلْمًا، وأزْكى عَمَلًا[1]، مِن بنى إسرائيلَ وغَيْرِهم. وَيَحْتَمِلُ أن يكونَ قولُه: ﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ محفوظَ العُمُومِ؛ فتكونَ أَفْضَلَ نِساءِ الدُّنيا، مِمَّن كان قبلَها، ووُجِدَ بعدَها؛ لأَنَّها إن كانت نَبِيَّةً، على قَوْلِ مَن يَقولُ بِنُبُوَّتِها، ونُبُوَّةِ سارَّةَ [١/٢٤٨ظ] أمِّ إسحاقَ، ونُبُوَّةِ أُمِّ[2] موسى، مُحْتَجًّا بكلامِ الملائكةِ، والوَحْيِ إلى أمِّ موسى، كما يَزْعُمُ ذلك ابنُ حَزْمٍ[3] وغيرُه، فلا يَمْتَنِعُ على هذا، أَن تكونَ مريمُ أفضلَ مِن سَارَّةَ وأُمِّ موسى؛ لعمومِ قولِهِ: ﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، إذ لم يُعارِضْه غَيْرُه. واللَّهُ أعلمُ. وأَمَّا على قولِ الجمهورِ، كما قد حَكاه أبو الحسَنِ الأَشْعَرِيُّ وغيرُه عن أَهْلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، مِن أنَّ النُّبُوَّةَ مُخْتَصَّةٌ بالرِّجَالِ، وليس فى النِّساءِ نبيَّةٌ، فيكونُ أَعْلَى مقاماتِ مريمَ، كما قال اللَّهُ تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائدة: ٧٥]، فَعَلَى هذا لا يَمْتَنِعُ أن تكُونَ أَفْضَلَ الصدِّيقاتِ المَشْهُورَاتِ، مِمَّن كان قَبْلَها، ومِمَّن يكونُ بَعْدَها. واللَّهُ أعلمُ. وقد جاء ذِكْرُها مَقْرُونًا مع آسِيةَ بنتِ مُزَاحمٍ، وخديجةَ بنتِ خُوَيْلِدٍ، وفاطمةَ بنتِ محمدٍ، رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُنَّ وَأَرْضَاهُنَّ.

وقد رَوَى الإِمامُ أحمدُ، والبخاريُّ، ومُسْلِمٌ، والتِّرْمِذِيُّ، والنَّسَائِيُّ[4]،

---

(١) فى الأصل، ح: «تحملا».

(٢) سقط من: ص.

(٣) فى الأصل: «جرير». وانظر كلام ابن حزم فى الفصل ٥/١٧- ١٩.

(٤) المسند ١/ ٨٤، ١١٦، ١٣٢. البخارى (٣٤٣٢، ٣٨١٥). مسلم (٢٤٣٠). الترمذى (٣٨٧٧). النسائى فى الكبرى (٨٣٥٤).

مِن طُرُقٍ عديدةٍ ، عن هشامِ بنِ[1] عُرْوَةَ ، عن أبيه ، عن عبدِ اللَّهِ بنِ جَعْفَرٍ ، عن عليِّ بنِ أبى طالبٍ ، رَضِىَ اللَّهُ عنه ، قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وخَيْرُ نِسَائِها خَدِيجَةُ بنتُ خُوَيْلِدٍ » .

وقال الإمامُ أحمدُ[2] : حَدَّثَنَا عبدُ الرَّزَّاقِ ، أنبأَنا مَعْمَرٌ ، عن قتادةَ ، عن أنَسٍ قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ العَالَمِينَ بِأَرْبَعٍ ؛ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرانَ ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ ، وخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ » . ورَواه التِّرْمِذِيُّ ، عن أبى بَكْرِ بنِ زَنْجَوَيْهِ ، عن عبدِ الرَّزَّاقِ به ، وصَحَّحَه[3] .

ورَواه ابنُ مَرْدَوَيْهِ[4] ، مِن طريقِ عبدِ اللَّهِ بنِ أبى جعفرٍ الرَّازِىِّ[5] ، وابنُ عساكرَ[6] ، مِن طريقِ تميمِ بنِ زيادٍ[7] ، كلاهما عن أبى جعفرٍ الرَّازِىِّ ، عن ثابتٍ ، عن أنسٍ قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « خَيْرُ نِسَاءِ العالَمِينَ أَرْبَعٌ : مَرْيَمُ بنتُ عِمْرَانَ ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ ، وَخَدِيجَةُ بنتُ خُوَيْلِدٍ ، وفاطمةُ بنتُ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ » .

وقال الإمامُ أحمدُ[8] : حَدَّثَنَا عبدُ الرَّزَّاقِ ، حدَّثنا مَعْمَرٌ ، عن الزُّهْرِىِّ ، عن ابنِ المُسَيَّبِ ، قال : كان أبو هُريرةَ يُحَدِّثُ أنَّ النبىَّ ﷺ ، قال : « خَيْرُ نساءِ

---

(١) فى الأصل : « عن » .
(٢) المسند ٣/ ١٣٥.
(٣) الترمذى (٣٨٧٨) . (صحيح الترمذى ٣٠٥٣) .
(٤) فى الأصل : « سردق به » . والحديث ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٢/ ٢٣ وعزاه لابن مردويه .
(٥) سقط من : ص .
(٦) تاريخ دمشق ، الجزء المطبوع من تراجم النساء ص ٣٧٨.
(٧) فى الأصل : « زيادة » .
(٨) المسند ٢/ ٢٧٥. (إسناده صحيح) .

رَكِبْنَ الإِبِلَ ، صالِحُ نِساءِ قُرَيْشٍ ، أَحْنَاهُ عَلَى وَلَدٍ فى صِغَرِهِ ، وَأَرْعَاهُ لِزَوْجٍ فى ذَاتِ يَدِهِ » . قال أبو هُريرةَ : ولم تَرْكَبْ مريمُ بَعِيرًا قَطُّ . وقد رواهُ مُسْلِمٌ فى « صحيحِه »[1] ، عن محمدِ بنِ رافِعٍ وعَبْدِ بنِ حُمَيْدٍ ، كلاهما عن عبدِ الرّزّاقِ به[2] .

وقال أحمدُ[3] : حَدَّثَنَا زَيدُ بنُ الحُبَابِ ، حدَّثَنِى موسى بنُ علىٍّ ، سَمِعْتُ أبى يقولُ : سَمِعْتُ أبا هُرَيْرَةَ يقول : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ [٢٤٩/١و] الإِبِلَ نِسَاءُ قُرَيْشٍ ، أَحْنَاهُ على وَلَدٍ فى صِغَرِهِ ، وَأَرْأَفُهُ بِزَوْجٍ عَلَى قِلَّةِ ذَاتِ يَدِهِ » قال أبو هريرةَ : وَقَدْ عَلِمَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ ، أَنَّ [4]ابنةَ عِمْرانَ[4] لم تَرْكَبِ الإِبِلَ . تَفَرَّدَ به ، وهو عَلَى شَرْطِ « الصَّحِيح »[5] . ولهذا الحديثِ طرقٌ أُخَرُ[6] عن أبى هريرةَ .

وقال أبو يَعْلَى المَوْصِلِىُّ[7] : حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ ، حَدَّثَنَا يونسُ بنُ محمدٍ ، حَدَّثنا داودُ بنُ أبى الفُرَاتِ ، عَن عِلْباءَ بنِ أَحْمَرَ ، عن عِكْرِمَةَ ، عن ابنِ عباسٍ قال :

---

(١) مسلم (٢٥٢٧) .
(٢) سقط من : الأصل .
(٣) روى أحمد فى مسنده الجزء الموقوف من الحديث ، وسقط المرفوع من المسند ؛ فقد قال الحافظ الهيثمى فى مجمع الزوائد ٤/ ٢٧١- بعدما أورد الحديث مرفوعه وموقوفه - : رواه أحمد وأبو يعلى ، ورجال أحمد رجال الصحيح . كما عزاه الحافظ ابن حجر إلى أحمد فى الفتح ٦/ ٤٧٤. وقال محقق المسند المعتلى ٧/ ٤٢٤: وهو مذكور على التمام فى جامع المسانيد لابن كثير الورقة ١٥٥/ب .
(٤ - ٤) فى مسند أحمد : « ابنة الخطاب » . وانظر : مجمع الزوائد ٤/ ٢٧١، الفتح ٦/ ٤٧٤.
(٥) فى ص : « الصحيحين » .
(٦) من طريق أبى سلمة عن أبى هريرة : المسند ٢/ ٥٠٢. وابن أبى عاصم فى السنة (١٥٣٣) . ومن طريق الأعرج عن أبى هريرة : البخارى (٥٣٦٥) . مسلم (٢٥٢٧) . المسند ٢/ ٢٩٣، ٤٤٩. ومن طريق ابن طاووس عن أبيه : البخارى (٥٣٦٥) . مسلم (٢٥٢٧) . ومن طريق سعيد بن المسيب عن أبى هريرة : ابن أبى عاصم فى السنة (١٥٣١، ١٥٣٢) .
(٧) مسند أبى يعلى (٢٧٢٢) . (إسناده صحيح) .

خَطَّ رسولُ اللَّهِ ﷺ، فى الأَرْضِ أربعَ خُطُوطٍ، فقال: «أَتَدْرُونَ ما هَذَا؟» قالوا: اللَّهُ ورسُولُه أعلمُ. فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْضَلُ نِساءِ أَهْلِ الجَنَّةِ: خَدِيجَةُ بنتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ بنتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ». ورَواه النَّسائِىُّ[1] مِن طُرُقٍ عن داودَ بنِ[2] أبى الفُراتِ[3].

وقد رَواه ابنُ عساكرَ[4] مِن طريقِ أبى بكرٍ عبدِ اللَّهِ بنِ أبى داودَ سليمانَ بنِ الأَشْعَثِ، حَدَّثَنا يَحْيَى بنُ حاتِمٍ العَسْكَرِىُّ، حَدَّثَنا بشرُ بنُ مِهْرانَ بنِ حَمْدانَ، حَدَّثَنا محمدُ بنُ دِينارٍ، عن داودَ بنِ أَبى هِنْدٍ، عن الشَّعْبِىِّ، عن جابرِ بنِ عبدِ اللَّهِ، قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «حَسْبُكَ مِنْهُنَّ أَرْبَعُ سَيِّداتٍ، نِساءُ العالمينَ؛ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ».

وقال أبو القاسمِ البَغَوِىُّ[5]: حَدَّثَنا وَهْبُ بنُ بَقِيَّةَ[6]، حَدَّثَنا خالدُ بنُ عبدِ اللَّهِ الواسِطِىُّ، عن محمدِ بنِ عَمْرٍو، عن[7] أبى سَلَمَةَ، عن عائشةَ أَنَّها قالت لفاطمةَ: أَرَأَيْتِ حينَ أَكْبَبْتِ على رسولِ اللَّهِ ﷺ، فَبَكَيْتِ، ثُمَّ ضَحِكْتِ؟

---

(١) النسائى فى الكبرى (٨٣٦٤).
(٢) سقط من: م.
(٣) فى النسخ: «هند». وما أثبتناه هو الصواب. انظر مصدر التخريج. وتهذيب الكمال ٨/ ٤٣٧. وتحفة الأشراف ٥/ ١٥٢.
(٤) تاريخ دمشق، الجزء المطبوع من تراجم النساء ص ٣٧٨.
(٥) ومن طريقه ابن عساكر فى تاريخ دمشق، الجزء المطبوع من تراجم النساء ص ٣٧٩.
(٦) فى الأصل، ح، م: «منبه». وانظر تهذيب الكمال ٣١/ ١١٥.
(٧) فى الأصل: «على بن».

قالت : أَخْبَرَنى أَنَّه مَيِّتٌ مِنْ وَجَعِهِ هذا فبكَيْتُ ، ثُمَّ أَكْبَبْتُ عليه ، فَأَخْبَرَنى أَنِّى أَسْرَعُ أَهْلِهِ لُحُوقًا به ، وأَنِّى سَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ ، إِلَّا مريمَ بنتَ عِمْرانَ ، فَضَحِكْتُ . وأَصلُ هذا الحديثِ فى « الصَّحيحِ »[1] . وهذا إِسْنادٌ على شرطِ مسلمٍ ، وفيه أَنَّهما[2] أَفْضَلُ الأَرْبَعِ المذْكُوراتِ .

وهكذا الحديثُ الذى رَواه الإمامُ أحمدُ[3] ، حَدَّثَنا عثمانُ بنُ محمدٍ ، حدَّثنا جريرٌ ، عن يزيدَ ، هو ابنُ أبى زِيادٍ ، عن عبدِ الرحمنِ بنِ أبى نُعْمٍ[4] ، عن أبى سعيدٍ قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « فَاطِمَةُ سَيِّدَةُ نِساءِ أَهْلِ الجَنَّةِ ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ » . إِسْنادٌ حسنٌ ، وصَحَّحه التِّرْمِذِىُّ[5] ، ولم يُخْرِجُوه ، وقد رُوِىَ نَحْوُه مِن حديثِ علىِّ بنِ أبى طالبٍ[6] ، ولكنْ فى إِسنادِه ضَعْفٌ .

والمقصودُ أَنَّ هذا يَدُلُّ على أَنَّ مريمَ وفاطمةَ أفضلُ هذه الأربعِ ، ثُمَّ يَحْتَمِلُ الاستثناءُ [١/٢٤٩ظ] أن تكونَ مريمُ أَفْضَلَ مِن فاطمةَ ، ويَحْتَمِلُ أن يكونا على

---

(١) صحيح مسلم (٢٤٥٠) من طريق عروة بن الزبير ومسروق ، كلاهما عن عائشة .

(٢) فى الأصل ، ص : « أنها » .

(٣) فى المسند ٣/ ٨٠.

(٤) فى الأصل ، ح ، م : « نعيم » . وفى ص : « يعمر » . وانظر تهذيب الكمال ١٧/ ٤٥٧.

(٥) أى إسناد أحمد ، فقد أخرج الترمذى حديثًا فى مناقب الحسن والحسين رقم (٣٧٦٨) من طريق جرير بن عبد اللَّه ، عن يزيد بن أبى زياد به ، وقال عقبه : هذا حديث حسن صحيح .

وقال صاحب تحفة الأحوذى ٤/ ٣٣٩- عقب قول الترمذى : هذا حديث حسن صحيح - : وأخرجه أحمد .

وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٩/ ٢٠١: قلت : رواه الترمذى غير ذِكْر فاطمة ومريم . ثم قال : رواه أحمد وأبو يعلى ، ورجال أحمد رجال الصحيح .

(٦) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٩/ ٢٠١ من حديث على بن أبى طالب ، وقال : رواه الطبرانى ، وفيه جابر الجعفى وهو ضعيف .

السَّواءِ فى الفضيلةِ ؛ لكنْ وَرَدَ حديثٌ ، إنْ صَحَّ عَيَّنَ الاحتمالَ الأوَّلَ ، فقال الحافظُ أبو القاسمِ ابنُ عساكرَ[١] : أخْبَرَنا أبو الحُسينِ[٢] بنُ الفَرَّاءِ ، وأبو غالبٍ ، وأبو عبدِ اللَّهِ ، ابنا[٣] البَنَّا ، قالوا : أَنْبأنا أبو[٤] جعفرِ بنُ المُسْلِمَةِ ، أنبأنا أبو طاهرٍ المُخَلِّصُ ، حَدَّثَنا أحمدُ بنُ سليمانَ ، حَدَّثنا الزُّبَيْرُ ، هو ابنُ بَكَّارٍ ، حدَّثنا محمدُ ابنُ الحَسَنِ[٥] ، عن عبدِ العزيزِ بنِ محمدٍ ، عن موسى بنِ عُقْبَةَ ، عن كُرَيْبٍ ، عن ابنِ عباسٍ قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « سَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، ثُمَّ فَاطِمَةُ ، ثُمَّ خَدِيجَةُ ، ثُمَّ آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ » . فإن كان هذا اللَّفْظُ محفوظًا بـ « ثُمَّ » التى للتَّرْتيبِ ، فهو مُبَيِّنٌ لأَحَدِ الاحْتِمَالَيْنِ اللذينِ دَلَّ عليهما الاستثناءُ ، ويُقَدَّمُ على ما تَقَدَّم مِن الألفاظِ التى وَرَدَتْ بواوِ العَطْفِ ، التى لا تَقْتَضِى الترتيبَ ولا تَنْفِيهِ . واللَّهُ أعلمُ .

وقد رَوَى هذا الحديثَ أبو حاتمٍ الرَّازِىُّ[٦] ، عن داودَ الجَعْفَرِىِّ ، عن عبدِ العزيزِ بنِ محمدٍ ، وهو الدَّرَاوَرْدِىُّ ، عن إبراهيمَ بنِ عُقْبَةَ ، عن كُرَيْبٍ ، عن ابنِ عباسٍ مَرْفُوعًا ، فذَكَرَه بواوِ العَطْفِ لا بـ « ثُمَّ » التَّرْتِيبِيَّةِ ، فخالَفَهُ إسنادًا وَمَتْنًا . فاللَّهُ أعلمُ .

فأمَّا الحديثُ الذي رَواهُ ابنُ مَرْدَوَيْهِ ، مِن حديثِ شُعْبَةَ ، عن مُعَاوِيَةَ بنِ قُرَّةَ ، عن أبيه ، قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ ، وَلَمْ

---

(١) تاريخ دمشق ، الجزء المطبوع من تراجم النساء ص ٣٧٤ .
(٢) فى م : « الحسن » .
(٣) فى الأصل : « أنا » .
(٤) فى الأصل : « ابن » .
(٥) فى الأصل : « الحسين » .
(٦) ومن طريقه رواه ابن عساكر ، فى تاريخ دمشق ، الجزء المطبوع من تراجم النساء ص ٣٧٤ .

يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا ثَلَاثٌ ؛ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ ، كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ » .

وهكذا الحديثُ الذى رَواهُ الجماعةُ ، إلَّا أبا داودَ[1] ، مِن طُرُقٍ ، عن شُعْبَةَ ، عن عَمْرِو بنِ مُرَّةَ ، عن مُرَّةَ الهَمْدَانيِّ ، عن أبى موسى الأشْعَرِيِّ ، قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّساءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ ، كَفَضْلِ الثَّرِيدِ على سَائِرِ الطَّعَامِ » . فإنَّه حديثٌ صحيحٌ كما تَرَى ، اتَّفَقَ الشَّيْخَانِ على إخْراجِهِ ، ولَفْظُه يَقْتَضِى حَصْرَ الْكَمَالِ فى النِّساءِ فى مريمَ وَآسِيَةَ ، ولَعَلَّ المرادَ بذلك ، فى زمانِهِما ، فإنَّ كُلًّا منهما كَفَلَتْ نبيًّا فى حالِ صِغَرِه ، فآسِيَةُ كَفَلَتْ موسى الكَليمَ ، ومريمُ كَفَلَتْ وَلَدَهَا عبدَ اللَّهِ ورسولَه ، فلا يَنْفِى كمالَ غَيْرِهما فى هذه الأُمَّةِ ، كخديجةَ وفاطمةَ ؛ فخديجةُ خَدَمَتْ رسولَ اللَّهِ ﷺ ، قبلَ البَعْثَةِ خمسَ عشْرةَ سنةً ، وبعدَها أَزْيَدَ مِن عشرِ سنينَ ، وكانت [١/٢٥٠و] له وزيرَ صِدْقٍ بنَفْسِها ومالِها ، رَضِى اللَّهُ عنها وأَرْضاها ، وأَمَّا فاطمةُ بنتُ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، فإنَّها خُصَّتْ بمَزيدِ فَضِيلَةٍ على أَخَوَاتِها ؛ لأَنَّها أُصِيبَتْ برسولِ اللَّهِ ﷺ ، وبَقِيَّةُ أَخَوَاتِها مِتْنَ فى حَيَاةِ النبىِّ ﷺ ، وأَمَّا عائشةُ ؛ فإنَّها كانت أَحَبَّ أزواجِ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، إليه ، ولم يَتزَوَّجْ بِكْرًا غَيْرَهَا ، ولا يُعْرَفُ فى سائرِ النِّساءِ فى هذهِ الأُمَّةِ ، بل ولا فى غَيْرِها ، أَعْلَمُ منهَا ولا أَفْهَمُ ، وقد غارَ اللَّهُ لها حِينَ قال لها أَهْلُ الإفْكِ ما قالوا ، فأَنْزَلَ بَراءَتَها مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سماواتٍ ، وقد

---

(١) البخارى (٣٤١١، ٣٤٣٣، ٣٧٦٩، ٥٤١٨) . مسلم (٢٤٣١) . الترمذى (١٨٣٤) . النسائى فى الكبرى (٨٣٥٣، ٨٣٥٦) . ابن ماجه (٣٢٨٠) . المسند ٤/٣٩٤، ٤٠٩ .

عُمِّرَتْ بعدَ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، قريبًا مِن خمسين سنةً ، تُبَلِّغُ عنه القرْآنَ والسُّنَّةَ ، وتُفْتِى المسلمين ، وتُصْلِحُ بينَ المخْتَلِفِين ، وهى أَشْرفُ أُمَّهاتِ المؤْمنِين ، حتى خديجةَ بنتِ خُوَيْلِدٍ أُمِّ البَنَاتِ والبنِينَ ، فى قولِ طائفةٍ من العلماءِ السَّابِقِين ، واللَّاحِقِين ، والأَحْسَنُ الوَقْفُ فيهما ، رَضِىَ اللَّهُ عنهما ، وما ذاك إلَّا لأَنَّ قولَه ﷺ : « وَفَضْلُ عائِشَةَ على النِّسَاءِ ، كَفَضْلِ الثَّرِيدِ على سائرِ الطَّعامِ » يَحْتَمِلُ أن يَكُونَ عَامًّا بالنسبةِ إلى المذْكوراتِ وغيْرِهِنَّ ، ويَحْتَمِلُ أن يكونَ عَامًّا بالنسبةِ إلى ما عدا المذكوراتِ . واللَّهُ أعلمُ .

والمقصودُ هاهنا ، ذِكْرُ ما يَتَعَلَّقُ بمريَمَ بنتِ عِمْرانَ ، عليها السَّلامُ ، فإنَّ اللَّهَ طَهَّرَها واصْطَفَاها على نِساءِ[1] عالَمِى زَمَانِها ، ويجوزُ أَنْ يكونَ تَفْضِيلُها على النِّساءِ مُطْلقًا ، كما قَدَّمْنا . وقد وَرَدَ فى حديثٍ[2] أَنَّها تَكُونُ مِن أزواجِ النبىِّ ﷺ ، فى الجَنَّةِ ، هى وآسِيَةُ بنتُ مُزَاحِمٍ . وقد ذَكَرْنا فى « التفسيرِ »[3] عن بعضِ السَّلَفِ ، أنَّه قال ذلك ، واستأْنَسَ بقولِه : ﴿ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ [التحريم : ٥] قال : فالثَّيِّبُ آسِيَةُ ، ومِن الأَبْكارِ مَرْيَمُ بنتُ عِمْرانَ . وقد ذَكَرْناه فى آخرِ سورةِ « التَّحْرِيمِ »[4] . فاللَّهُ أعلمُ .

قال الطَّبَرَانِىُّ[5] : حَدَّثنا عبدُ اللَّهِ بنُ ناجِيَةَ ، حَدَّثنا محمدُ بنُ سَعْدٍ العَوْفِىُّ[6] ، حَدَّثنا أبى ، حَدَّثنا عمِّى الحُسَيْنُ ، حَدَّثنا يونسُ بنُ نُفَيْعٍ عن سعدِ بنِ

---

(١) سقط من : الأصل .
(٢) وهو الحديث الآتى من رواية الطبرانى وغيره .
(٣) التفسير ٨/ ١٩٣.
(٤) التفسير ٨/ ٢٠٠.
(٥) فى المعجم الكبير (٥٤٨٥/٢) .
(٦) فى الأصل : « الصوفى » .

جُنادَةَ[1] هو العَوْفِيُّ ، قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ زَوَّجَنِي فِي الجَنَّةِ مَرْيَمَ بِنْتَ عِمْرَانَ ، وامْرَأَةَ فِرْعَوْنَ ، وَأُخْتَ مُوسَى » .

وقال الحافظُ أبو يَعْلَى[2] : حَدَّثنا إبراهيمُ بنُ عَرْعَرَةَ ، حَدَّثَنا عبدُ النُّورِ بنُ عبدِ اللَّهِ ، حَدَّثَنا يونُسُ بنُ شُعَيْبٍ ، عن أبى أُمامَةَ قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « أَشَعَرْتِ أَنَّ اللَّهَ زَوَّجَنِي مَرْيَمَ بِنْتَ عِمْرَانَ وَآسِيَةَ بنتَ مُزَاحِمٍ ، وَكَلْثَمَ[4] أُخْتَ مُوسَى » [١/٢٥٠ظ] . رواه أبو[3] جَعْفَرٍ العُقَيْلِيُّ مِن حديثِ عبدِ النُّورِ به[5] ، وزاد : فقلتُ : هَنِيئًا لك يا رسولَ اللَّهِ . ثمَّ قال العُقَيْلِيُّ : وليس بمحفوظٍ .

وقال الزُّبَيْرُ[6] بنُ بَكَّارٍ[7] : حَدَّثَنِي محمدُ بنُ الحَسَنِ ، عَنْ يَعْلَى بنِ المُغِيرَةِ ، عن ابنِ أبى رَوَّادٍ[8] ، قال : دخلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ ، على خَدِيجةَ وهى فى مرضِها الذى تُوُفِّيَت فيه ، فقال لها : « بِالْكُرْهِ مِنِّي ما أَرَى مِنْكِ يا خديجةُ ، وَقَدْ يَجْعَلُ اللَّهُ فى الْكُرْهِ خَيْرًا كَثِيرًا ، أما عَلِمْتِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ زَوَّجَنِي مَعَكِ فى الجَنَّةِ مَرْيَمَ بِنْتَ عِمْرَانَ ، وَكلثمَ أُخْتَ مُوسى ، وَآسِيَةَ امْرَأَةَ فِرْعَونَ ؟ » قالت :

---

(١) فى الأصل : « حبارة » .

(٢) أخرجه ابن عساكر من طريق أبى يعلى به ، فى تاريخ دمشق ، الجزء المطبوع من تراجم النساء ص ٣٨٤. والطبرانى فى الكبير (٨٠٠٦) من طريق عبد النور بن عبد اللَّه به . وفيه عبد النور بن عبد اللَّه ، وهو كذاب . انظر المغنى فى الضعفاء ١/ ٥٨٠. والضعفاء والمتروكين ٢/ ١٥٥. وضعَّفه ابن كثير فى التفسير ٨/ ١٩٣.

(٣) فى ح ، م : « ابن » .

(٤) فى الضعفاء الكبير ٤/ ٤٥٩: « كلثوم » بدل « كلثم » .

(٥) سقط من : الأصل .

(٦) فى الأصل : « اليزيد » .

(٧) ومن طريقه أخرجه ابن عساكر ، فى تاريخ دمشق ، الجزء المطبوع من تراجم النساء ص ٣٨٤، ٣٨٥.

(٨) فى م : « داود » .

وقد فَعَلَ اللَّهُ بِكَ ذلك يا رسولَ اللَّهِ؟ قال: «نَعَمْ». قالت: بالرِّفاءِ والبَنِينَ.

ورَوَى ابنُ عساكرَ[1]، مِن حديثِ محمدِ بنِ زكريَّا الغَلَابِيِّ[2]، حَدَّثَنا العباسُ بنُ بَكَّارٍ، حدَّثنا أبو بكرٍ الهُذَلِيُّ[3]، عن عِكْرِمَةَ، عن ابنِ عباسٍ، أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ، دَخَلَ على خَدِيجَةَ، وهى فى المَوْتِ، فقال: «يَا خَدِيجَةُ، إِذَا لَقِيتِ ضَرَائِرَكِ فَأَقْرِئِيهِنَّ مِنِّى السَّلَامَ». قالت: يا رسولَ اللَّهِ، وهل تَزَوَّجْتَ قَبْلِى؟ قال: «لَا، وَلَكِنَّ اللَّهَ زَوَّجَنِى مَرْيَمَ بِنْتَ عِمْرَانَ، وَآسِيَةَ بِنْتَ مُزَاحِمٍ، وكَلثمَ أُخْتَ مُوسَى».

ورَوَى ابنُ عساكرَ[4]، من طريقِ سُوَيْدِ بنِ سعيدٍ، حَدَّثَنا محمدُ بنُ صالحِ ابنِ عُمَرَ، عن الضَّحَّاكِ ومُجَاهِدٍ، عن ابنِ عمرَ قال: نزل جِبْرِيلُ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ، بما أُرْسِل به، وجلس يُحَدِّثُ رسولَ اللَّهِ ﷺ، إذ مَرَّتْ خديجةُ، فقال جبريلُ: مَنْ هذه يا محمدُ؟ قال: «هَذِهِ صِدِّيقَةُ أُمَّتِى». قال جبريلُ: معى إليها رسالةٌ مِن الرَّبِّ، عزَّ وجلَّ، يُقْرِئُها السَّلامَ، ويُبَشِّرُها ببيْتٍ فى الجَنَّةِ مِن قَصَبٍ، بَعِيدٍ مِن اللَّهَبِ، لا نَصَبَ فيه ولا صَخَبَ. قالت: اللَّهُ السَّلامُ، ومنه السَّلامُ، والسَّلامُ عليكما ورحمةُ اللَّهِ، وبَرَكَاتُهُ على رسولِ اللَّهِ، ما ذلك البيتُ الذى مِن قَصَبٍ؟ قال: «لُؤْلُؤَةٌ جَوْفَاءُ بَيْنَ بَيْتِ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ، وَبَيْتِ آسِيَةَ بِنْتِ مُزَاحِمٍ، وَهُمَا مِنْ أَزْوَاجِى يَوْمَ القِيَامَةِ». وأَصْلُ السَّلامِ على خديجةَ مِن اللَّهِ، وبِشَارَتِها ببيْتٍ فى الجنَّةِ، مِن قَصَبٍ، لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبَ[5]، فى

---

(١) المصدر السابق ص ٣٨٤.
(٢) فى الأصل: «العلائى».
(٣) فى م: «الهزلى».
(٤) المصدر السابق ص ٣٨٣.
(٥) فى ح، م: «وصب».

«الصَّحيحِ»[1]. ولكنَّ هذا السياقَ بهذه الزياداتِ، غريبٌ جِدًّا. وَكُلُّ هذه الأحاديثِ، في أسانيدِها نَظَرٌ.

ورَوَى ابنُ عساكرَ[2]، مِن حديثِ أبي زُرْعَةَ الدِّمَشْقِيِّ، حَدَّثَنا عبدُ اللَّهِ بنُ صالحٍ، حَدَّثَني مُعاويةُ، عَن صَفْوَانَ بنِ عَمْرٍو، عن خالدِ بنِ مَعْدانَ، عن كَعْبِ الأَحْبَارِ، أَنَّ مُعاويةَ سأله عن الصَّخْرَةِ؛ يعني صَخْرَةَ بيْتِ المقدِسِ، فقال: الصَّخرةُ على نَخْلَةٍ، والنَّخْلَةُ على نَهْرٍ مِن أنهارِ الجنَّةِ، وتحتَ النَّخْلَةِ مَرْيَمُ [١/٢٥١و] بنتُ عمرانَ، وآسيةُ بنتُ مُزَاحِمٍ، يَنْظِمانِ[3] سُمُوطَ أَهلِ الجنَّةِ، حتى تَقُومَ السَّاعةُ. ثُمَّ رواهُ مِن طريقِ إسماعيلَ بنِ[4] عَيَّاشٍ[5]، عن ثَعْلَبَةَ ابنِ مُسْلِمٍ، عن مَسْعودِ بنِ[6] عبدِ الرَّحمنِ، عن خالدِ بنِ مَعْدانَ، عن عُبادَةَ بنِ الصَّامِتِ، عن النبيِّ ﷺ، بمثلِه. وهذا مُنْكَرٌ مِن هذا الوَجْهِ، بل هو موضوعٌ.

ثُمَّ[7] قد رواه أبو زُرْعَةَ[8]، عن عبدِ اللَّهِ بنِ صَالِحٍ، عن معاويةَ، عن مَسْعودِ بنِ عبدِ الرحمنِ، عن ابنِ عائِذٍ، أَنَّ معاويةَ سأل كَعْبًا عن صَخْرَةِ بَيْتِ المَقْدِسِ، فذَكَرَه. قال الحافظُ ابنُ عساكرَ[9]: وكَوْنُه مِن كلامِ كَعْبِ الأَحْبَارِ،

---

(١) البخاري (٣٨٢٠، ٧٤٩٧)، مسلم (٢٤٣٢). كلاهما من حديث أبي هريرة.
(٢) تاريخ دمشق، الجزء المطبوع من تراجم النساء ص ٣٨٥، ٣٨٦.
(٣) في ح: «يتنمطان».
(٤) في م: «عن».
(٥) في الأصل: «عباس».
وأخرجه ابن عساكر في المصدر السابق ص ٣٨٥.
(٦) في م: «عن».
(٧) سقط من: م.
(٨) المصدر السابق.
(٩) المصدر السابق.

أَشْبَهُ . قلتُ : وكَلَامُ كَعْبِ الأَحْبَارِ هذا ، إِنَّما تَلَقَّاه مِن الإِسرائيليّاتِ ، التى منها ما هو مكذوبٌ مُفْتَعَلٌ ، وَضَعَه بعضُ زَنادِقَتِهم أو جُهَّالِهِم ، وهذا منه . واللَّهُ أعلمُ .

ذِكْرُ[1] ميلادِ العبدِ الرّسولِ

عيسى ابنِ مَرْيَمَ البَتُولِ

قال اللَّهُ تعالى[2]: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ

---

(١) سقط من: م.

(٢) التفسير ٥/٢١٣- ٢٢٦.

ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ [١/٢٥١ظ] فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم: ١٦- ٣٧].

ذَكَرَ تعالى هذه القِصَّةَ بعدَ قِصَّةِ زكريًّا، التى هى كالمقدِّمةِ لها والتَّوْطِئةِ قبلَها، كما ذَكَرَ فى سورةِ «آلِ عِمْرانَ»، قَرَنَ بينَهما فى سياقٍ واحدٍ، وكما قال فى سورةِ «الأنبياءِ»[1]: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٩- ٩١].

وقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ مَرْيَمَ، لَمَّا جعَلَتْها أُمُّها مُحَرَّرَةً، تَخْدِمُ بَيْتَ المَقْدِسِ، وأَنَّه كَفَّلَهَا زوجُ أُخْتِها أو خالَتِها، نبيُّ ذلكَ الزَّمَانِ، زكريًّا، عليه السّلامُ، وأنَّه اتَّخذ لها مِحْرَابًا، وهو المكانُ الشَّريفُ مِن المسجدِ، لا يَدْخُلُه أَحَدٌ عليها سواه، وأنَّها لَمَّا بَلَغَتِ اجْتَهَدَتْ فى العِبَادَةِ، فلم يَكُنْ فى ذلك الزَّمانِ نظيرُها

(١) التفسير ٥/ ٣٦٤، ٣٦٥.

فى فُنُونِ العباداتِ ، وَظَهَر عليها مِن الأَحْوالِ ما غَبَطَهَا به زكريًّا ، عليه السّلامُ ، وأنَّها خَاطَبَتْها الملائكةُ بالبِشَارَةِ لها باصطِفَاءِ اللَّهِ لها ، وبأنَّه سيَهَبُ لهَا وَلَدًا زكِيًّا ، يَكُونُ نبيًّا كريمًا طاهِرًا مُكَرَّمًا ، مُؤَيَّدًا بالمُعْجِزاتِ ، فتعجَّبَتْ مِن وُجُودِ وَلَدٍ مِن غيرِ والدٍ ؛ لأَنَّها لا زَوْجَ لها ، ولا هى مِمَّن تَتَزَوَّجُ ، فأخبَرَتْها الملائكةُ بأَنَّ اللَّهَ قادِرٌ على ما يشاءُ ، إذا قَضَى أَمْرًا فإنَّما يقولُ له : كُنْ . فيكونُ ؛ فاسْتَكَانَتْ لذلك وأَنابَتْ ، وسَلَّمَتْ لأَمْرِ اللَّهِ ، وعَلِمَتْ أَنَّ هذا فيه مِحْنَةٌ عظيمةٌ لها ؛ فإنَّ النَّاسَ يَتَكَلَّمُون فيها بسَبَبِه ، لأَنَّهم لا يَعْلَمُون حقيقةَ الأَمْرِ ، وإنَّما يَنظُرُون إلى ظاهِرِ الحالِ ، مِن غيرِ تَدَبُّرٍ ولا تَعَقُّلٍ ، وكانتْ إنَّمَا تَخْرُجُ مِن المسجدِ فى زَمَنِ حَيْضِها ، أو لحَاجَةٍ ضروريَّةٍ لابُدَّ منها ؛ مِن اسْتِقَاءِ ماءٍ أو تَحْصِيلِ غِذَاءٍ ، فبينَما هى يومًا قد خَرَجَتْ لبَعْضِ شُئُونِها و ﴿ ٱنتَبَذَتْ ﴾ أى ؛ انْفَرَدَتْ وَحْدَها شَرْقِيَّ المسجدِ الأَقْصَى ، إذ بَعَثَ اللَّهُ إليها الرُّوحَ الأَمينَ ، جِبْرِيلَ ، عليه السَّلامُ ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ ، فلَمَّا رَأَتْه ﴿ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ . قال أبو العاليةِ[1] : عَلِمَتْ أَنَّ التَّقِيَّ ذو نُهْيَةٍ . وهذا يَرُدُّ قولَ مَن زَعَم أنَّه كان فى بنى إسرائيلَ رجلٌ فاسقٌ مشهورٌ بالفِسْقِ ، اسْمُه تَقِيٌّ ، فإنَّ هذا قولٌ باطلٌ بلا دليلٍ ، وهو مِن أسْخَفِ الأَقْوالِ . ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ أى ؛ خَاطَبَها المَلَكُ قائلًا : إنَّما أنا رسولُ رَبِّكِ ، أىْ[2] ؛ لستُ بِبَشَرٍ ، ولكِنِّى مَلَكٌ بَعَثَنِى اللَّهُ إليكِ ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ أى ؛ ولدًا زَكِيًّا . ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ ﴾ أى ؛ كيف يكونُ لى غلامٌ ، أو يُوجَدُ لى ولدٌ ،

---

(١) كذا فى النسخ . وفى التفسير ٥/٢١٤ نسب ابن كثير القول إلى أبى وائل . وكذا القرطبى ١١/ ٩١ نسبه إلى أبى وائل أيضًا . وذكره البخارى معلقا من قول أبى وائل . وانظر الفتح ٦/٤٧٦، ٤٧٩.

﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ أي ؛ ولستُ ذاتَ زَوْجٍ [١/٢٥٢و] ، وما أنا مِمَّن يَفْعَلُ الفاحِشَةَ . ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أي ؛ فأَجابَها المَلَكُ عن تَعَجُّبِها مِن وُجودِ ولدٍ مِنْها ، والحالةُ هذهِ قائلًا : ﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ أي ؛ وَعَدَ أنَّه سَيَخْلُقُ منكِ غُلامًا ولستِ بذاتِ بَعْلٍ ، ولا تَكُونين مِمَّن يَبْغِين . ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أي ؛ وهذا سَهْلٌ عليه ، ويَسِيرٌ لَدَيْه ، فإنَّه على ما يشاءُ قديرٌ . وقولُه : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أي ؛ ولنَجْعَلَ خَلْقَه ، والحالةُ هذه ، دليلًا على كمالِ قُدْرَتِنا على أنواعِ الخَلْقِ ؛ فإنَّه تعالى خَلَقَ آدمَ مِن غيرِ ذَكَرٍ ولا أُنْثَى ، وخَلَقَ حَوَّاءَ مِن ذَكَرٍ بلا أُنْثَى ، وخَلَقَ عيسى مِن أُنْثَى بلا ذَكَرٍ ، وخَلَقَ بَقِيَّةَ الخَلْقِ مِن ذَكَرٍ وأُنْثَى . وقولُه : ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ أي ؛ نَرْحَمُ به العِبادَ ، بِأن يَدْعُوَهم إلى اللَّهِ في صِغَرِه وَكِبَرِه ، في طُفُولَتِه وكُهُولَتِه ، بِأَنْ يُفْرِدُوا اللَّهَ بالعبادَةِ وَحْدَه لا شريكَ له ، ويُنَزِّهُوه عن اتِّخاذِ الصَّاحِبَةِ والأولادِ ، والشُّرَكاءِ والنُّظَراءِ ، والأَضْدَادِ والأَنْدادِ . وقولُه : ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ يَحْتَمِلُ أن يكونَ هذا مِن تَمامِ كلامِ جِبْرِيلَ معها ، يَعْنِى أنَّ هذا أَمْرٌ قد قَضاهُ اللَّهُ وحَتَمَه وقَدَّرَهُ وقَرَّرَه . وهذا معنى قولِ محمدِ بنِ إسحاقَ ، واختاره ابنُ جريرٍ[1] ، ولم يَحْكِ سواه . واللَّهُ أعلمُ . ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُه : ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ كنايةً[2] عن نَفْخِ جبريلَ فيها ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التحريم : ١٢] . فذَكَرَ غيرُ واحدٍ من السَّلَفِ[3] ، أنَّ جبريلَ نَفَخَ في جَيْبِ دِرْعِها ، فنَزَلَتِ النَّفْخَةُ إلى

---

(١) تفسير الطبرى ١٦/ ٦٢.
(٢) سقط من : الأصل .
(٣) تفسير الطبرى ١٦/ ٦٢.

فَرْجِها ، فحَمَلَتْ مِن فَوْرِها ، كما تَحْمِلُ المرأةُ عندَ جِماعِ بَعْلِها . ومَن قال أنَّه نفَخَ فى فَمِها ، أو أنَّ الذى كان يُخَاطِبُها هو الرُّوحُ الذى وَلَجَ فيها مِن فَمِها ، فقولُه خِلافُ ما يُفْهَمُ مِن سِياقَاتِ هذه القصّةِ في مَحالِّها مِن القرآنِ ؛ فإنَّ هذا السِّياقَ يَدُلُّ على أنَّ الذى أُرْسِلَ إليها ، مَلَكٌ مِن الملائكةِ ، وهو جبريلُ ، عليه السَّلامُ ، وأنَّه إنَّما نَفَخَ فيها ، ولم يُواجِهِ المَلَكُ الفَرْجَ ، بل نفَخَ فى جَيْبِها فنزَلَتِ النَّفْخَةُ إلى فرجِها ، فانْسَلكَتْ فيه ، كما قال تعالى : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ ، فدَلَّ عَلَى أنَّ النَّفْخَةَ وَلَجَتْ فيه ، لا فى فَمِها ، كما رُوِىَ عن أُبَىِّ[1] ابنِ كعبٍ ، ولا فى صَدْرِها ، كما رواه السُّدِّىُّ بإسنادِه عن بعضِ الصحابةِ[2] ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾ أى ؛ فَحَمَلَتْ وَلَدَها ، ﴿ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ وذلك لأنَّ مريمَ ، عليها السّلامُ ، لَمَّا حَمَلَتْ ضاقَتْ به ذرْعًا ، وعَلِمَتْ أنَّ كثيرًا مِن النَّاسِ سيكونُ منهم كلامٌ فى حَقِّها ، فذَكَرَ غيرُ واحدٍ مِن السَّلَفِ ، منهم وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ[3] ، أنَّها لَمَّا ظَهَرَتْ [١/٢٥٢ظ] عليها مَخايِلُ الحَمْلِ ، كان أوَّلَ مَن فَطِنَ لذلك رجلٌ مِن عُبَّادِ بنى إسرائيلَ ، يُقَالُ له : يوسفُ ابنُ يعقوبَ النَّجّارُ . وكان ابنَ خَالِهَا ، فجعَلَ يَتَعَجَّبُ مِن ذلك عَجَبًا شديدًا ، وذلك لِمَا يَعلمُ مِن دِيانَتِها ، ونَزَاهَتِها وعِبَادَتِها ، وهو مع ذلك يَراها حُبْلَى وليس لها زوجٌ ، فعَرَّضَ لها ذاتَ يومٍ فى الكلامِ ، فقال : يا مريمُ ، هَلْ يكونُ زَرْعٌ مِن غيرِ بَذْرٍ ؟! قالت : نَعَمْ ، فمَن خَلَقَ الزَّرْعَ الأَوَّلَ ؟! ثُمَّ قال : فهل يكونُ شَجَرٌ

---

(١) فى الأصل : « محمد » . وانظر تفسير الطبرى ٦/ ٣٦، ١٦/ ٦٨ حيث ساقه بإسناده إلى أبيّ . والدر المنثور ٤/ ٢٦٧، والبيهقى فى الأسماء والصفات ص ٣٦٨.

(٢) تاريخ الطبرى ١/ ٥٩٩. والبيهقى في الأسماء والصفات ص ٣٦٣.

(٣) تاريخ الطبرى ١/ ٥٩٤، ٥٩٥ مطوّلًا . وتفسيره ١٦/ ٦٤، ٦٥.

مِن غيرِ مَاءٍ ولا مَطَرٍ ؟! قالت : نَعَمْ ، فمَن خَلَقَ الشَّجَرَ الأوَّلَ ؟! ثُمَّ قال : فهلْ يكونُ ولدٌ من غيرِ ذَكَرٍ ؟! قالتْ : نعم ، إنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِن غَيْرِ ذَكَرٍ ولا أُنْثَى . قال لها : فأخْبِرِينى خَبَرَكِ . فقالت : إنَّ اللَّهَ بَشَّرَنى ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٥، ٤٦] . ويُرْوَى مِثْلُ هذا عن زكريَّا ، عليه السّلامُ[١] ، أنَّه سألها فأجابَتْه بمثْلِ هذا . واللَّهُ أعلمُ .

وَذَكَرَ السُّدِّىُّ بإسنادِه عن الصَّحابَةِ ، أنَّ مَرْيَمَ دخلتْ يومًا على أُخْتِها ، فقالت لها أُخْتُها : أَشَعَرْتِ أَنِّى حُبْلَى ؟ فقالت مريمُ : وشَعَرْتِ أيضًا أَنِّى حُبْلَى ؟ فاعْتَنَقَتْها ، وقالتْ لها أُمُّ يحيى : إنِّى أرى ما فى بَطْنِى يَسْجُدُ لِمَا فى بَطْنِكِ . وذلك قولُه : ﴿ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٣٩] . ومعنى السُّجودِ هٰهنا ، الخُضُوعُ والتَّعْظِيمُ ، كالسُّجُودِ عندَ المواجهةِ للسَّلامِ ، كما كان فى شَرْعِ مَن قَبْلَنا ، وكما أَمَرَ اللَّهُ الملائكةَ بالسُّجُودِ لآدَمَ . وقال ابنُ[٢] القاسمِ : قال مالكٌ : بَلَغَنى أنَّ عيسى ابنَ مريمَ ، ويَحْيَى بنَ زكريَّا ، ابنا خَالَةٍ ، وكان حَمْلُهُما جميعًا معًا ، فبَلَغَنى أنَّ أُمَّ يحيى قالت لمريمَ : إنِّى أَرَى ما فى بَطْنِى يَسْجُدُ لِما فى بَطْنِكِ . قال مالِكٌ : أرى ذلك لتفضيلِ عيسى ، عليه السَّلامُ ؛ لأنَّ اللَّهَ تعالى جَعَلَه يُحْيِى المَوْتَى وَيُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأبْرَصَ . رَواه ابنُ أبى حاتمٍ[٣] . ورَوَى عن مجاهدٍ[٤] ، قال : قالت مريمُ : كنتُ إذا خَلَوْتُ حَدَّثَنى وكَلَّمنى ، وإذا كُنْتُ

---

(١) تاريخ دمشق ، الجزء المطبوع من تراجم النساء ص ٣٥٩.

(٢) فى م : « أبو » .

(٣) التفسير ٥/ ٢١٦.

(٤) التفسير ٥/ ٢١٥. وتاريخ دمشق ١٤/ ٢٩ مخطوط .

بينَ النّاسِ سَبَّحَ فى بَطْنى . ثُمَّ الظَّاهِرُ، أنَّها حَمَلَتْ به تسعةَ أَشْهُرٍ، كما تَحْمِلُ النِّساءُ وَيَضَعْنَ لميقاتِ حَمْلِهِنَّ وَوَضْعِهِنَّ، إذ لو كان خِلافَ ذلك لَذُكِر . وعن ابنِ عباسٍ وعِكرِمَةَ، أنَّها حَمَلَتْ به ثمانيةَ أَشْهُرٍ . وعن ابنِ عَبَّاسٍ : ما هو إلّا أَنْ حَمَلَتْ به فَوَضَعَتْه[1] . قال بعضُهم[2] : حَمَلَتْ به تِسْعَ ساعاتٍ . واسْتَأْنَسُوا لذلك بقولِه : ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ۝٢٢ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ . والصَّحيحُ، أَنَّ تَعْقِيبَ كُلِّ شَيْءٍ بحَسَبِه؛ كقولِه[3] : ﴿ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ [الحج: ٦٣]، وكقولِه : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا [١/ ٢٥٣و] ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤] . ومعلومٌ أَنَّ بَيْنَ كُلِّ حالَيْنِ أَرْبَعينَ يومًا، كما ثَبَتَ فى الحديثِ المُتَّفَقِ عليه[4] .

قال محمدُ بنُ إسحاقَ[5] : ثُمَّ شاعَ أمرُها، واشْتَهَرَ فى بنى إسرائيلَ أَنَّها حامِلٌ، فما دَخَلَ على أَهْلِ بَيْتٍ ما دَخَلَ على آلِ زكريَّا . قال : واتَّهَمَها بعضُ الزَّنادِقَةِ بيوسُفَ، الذى كان يَتَعَبَّدُ معها فى المسجدِ، وتَوارَتْ عنهم مريمُ، واعتَزَلَتْهم وانْتَبَذَتْ مكانًا قَصِيًّا . وقولُه : ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ أى؛ فَأَلْجأها واضطَرَّها الطَّلْقُ إلى جِذْعِ النَّخْلَةِ، وهو - بنَصِّ الحديثِ الذى رَواه النَّسائىُّ بإسنادٍ لا بأسَ به، عن أَنَسٍ مَرْفوعًا[6] ، والبَيْهَقِىُّ

---

(١) انظر هذه الأقوال فى تفسير الطبرى ٤/ ٢٦٦، والتفسير ٥/ ٢١٦.
(٢) هو الحسن، كما ذكره فى الدر المنثور ٤/ ٢٦٦. وعزاه لابن عساكر.
(٣) فى ح، م: «لقوله».
(٤) البخارى (٣٢٠٨، ٦٥٩٤، ٧٤٥٤). مسلم (٢٦٤٣).
(٥) التفسير ٥/ ٢١٧.
(٦) النسائى (٤٤٩). وانظر (ضعيف النسائى ١٤).

بِإسنادٍ صَحَّحَهُ ، عن شَدَّادِ بنِ أَوْسٍ مَرْفوعًا[1] أيضًا - بِبَيْتِ لَحْمٍ ، الذى بَنَى عليه بعضُ ملوكِ الرُّومِ فيما بَعْدُ - على ما سنَذْكُرُه - هذا البِنَاءَ المُشاهَدَ الهائِلَ .

﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ فيه دليلٌ على جَوَازِ تَمَنِّى الموتِ عندَ الفِتَنِ ، وذلك أنَّها عَلِمَتْ أَنَّ النَّاسَ يَتَّهِمُونها[2] ولا يُصَدِّقُونها ، بل يُكَذِّبُونَها حينَ تأْتِيهِم بغُلامٍ على يدِها ، مع أنَّها قد كانتْ عِنْدَهم مِنَ العابداتِ النَّاسِكاتِ ، المُجاوِراتِ فى المسجدِ ، المُنْقَطِعاتِ إليه ، المُعْتَكِفاتِ فيه ، ومِن بَيْتِ النُّبُوَّةِ والدِّيانةِ ، فَحَمَلَتْ بِسَبَبِ ذَلكَ مِن الهمِّ ، ما تَمَنَّتْ أَنْ لو كانتْ ماتتْ قَبْلَ هذا الحالِ ، أو كانت ﴿ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ أى ؛ لم تُخْلَقْ بالكُلِّيَّةِ .

وقولُه : (فَنَادَاهَا مَنْ تحتَها) ، وقُرِئَ: ﴿ مِن تَحْتِهَآ ﴾ على الخفضِ ، وفى المُضْمَرِ قولان ؛ أحدُهما ، أنَّه جِبْريلُ . قاله العَوْفِىُّ عن ابنِ عَبّاسٍ . قال : ولم يَتَكَلَّمْ عيسى إلَّا بِحَضْرَةِ القَوْمِ[3] . وهكذا قال سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ ، وعمرُو بنُ مَيْمُونٍ ، والضَّحَّاكُ ، والسُّدِّىُّ ، وقتادةُ[4] . وقال مجاهدٌ ، والحسنُ ، وابنُ زيدٍ ، وسعيدُ ابنُ جُبَيْرٍ ، فى روايةٍ : هو ابنُها عيسى . واختارَه ابنُ جَريرٍ[5] . وقولُه : ﴿ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ قيل : النَّهْرُ . وإليه ذَهَبَ الجمهورُ[6] . وجاء فيه حديثٌ رواهُ الطَّبَرَانِىُّ[7] ، لكنَّه ضعيفٌ ، واخْتارَه ابنُ جَريرٍ[8] ، وهو

---

(1) فى دلائل النبوة ٢/ ٣٥٥- ٣٥٧.

(2) فى ح : « ينهونها » .

(3) تفسير الطبرى ١٦/ ٦٨. والتفسير ٥/ ٢١٨.

(4) تفسير الطبرى ١٦/ ٦٧، ٦٨. والتفسير ٥/ ٢١٨. ولم يذكر الطبرى قول سعيد بن جبير .

(5) تفسير الطبرى ١٦/ ٦٨. والتفسير ٥/ ٢١٨.

(6) انظر تفسير القرطبى ١١/ ٩٤.

(7) المعجم الكبير (١٣٣٠٣) . ولفظه : « إن السرى الذى قال الله عز وجل : ﴿ قد جعل ربك تحتك سريًّا ﴾ ، نهر أخرجه الله لتشرب منه » . قال فى مجمع الزوائد ٧/ ٥٥ : فيه يحيى بن عبد الله البابلى ، وهو ضعيف .

(8) تفسير الطبرى ١٦/ ٧١.

الصَّحيحُ . وعن الحَسَنِ، والرَّبيعِ بنِ أَنَسٍ، وابنِ أَسْلَمَ، وغيرِهم[(١)]، أنَّه ابنُها. والصَّحيحُ الأوَّلُ؛ لقَوْلِه: ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾، فذَكَرَ الطَّعامَ والشَّرابَ، ولهذا قال: ﴿ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ﴾. ثُمَّ قيل: كان جِذْعُ النَّخْلَةِ يابِسًا. وقيل: كانت نخلةً مُثْمِرَةً. فاللَّهُ أعلمُ. ويَحْتَمِلُ أنَّها كانت نخلةً، لكنَّها لم تَكُنْ مُثْمِرَةً إذ ذاك؛ لأنَّ مِيلادَه كان في زَمَنِ الشِّتاءِ، وليس ذاك وقتَ ثَمَرٍ، وقد يُفْهَمُ ذلك مِن قولِه تعالى، على سبيلِ الامتنانِ [١/٢٥٣ظ]: ﴿ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾. قال عَمْرُو بنُ مَيْمُونٍ[(٢)]: ليس شَيْءٌ خَيْرًا للنُّفَساءِ مِنَ التَّمْرِ[(٣)] والرُّطَبِ. ثُمَّ تلا هذه الآيَةَ.

وقال ابنُ أبى حاتِمٍ[(٤)]: حَدَّثنا عليُّ بنُ الحُسَيْنِ، حَدَّثنا شَيْبانُ، حَدَّثَنا مسرورُ بنُ سعيدٍ التَّميميُّ، حَدَّثَنا عبدُ الرحمنِ بنُ عَمْرٍو الأَوْزاعيُّ[(٥)] عن عُرْوَةَ ابنِ رُوَيْمٍ، عن عليِّ بنِ أبى طالبٍ، قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «أَكْرِمُوا عَمَّتَكُم النَّخْلةَ، فإنَّها خُلِقَتْ مِنَ الطِّينِ الَّذِى خُلِقَ منه آدمُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الشَّجَرِ يُلَقَّحُ غيرَها». وقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «أَطْعِمُوا نِساءَكُم الوُلَّدَ الرُّطَبَ، فَإِنْ لم يَكُنْ رُطَبٌ، فَتَمْرٌ، وَلَيْسَ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةٌ أَكْرَمَ على اللَّهِ مِنْ شَجَرَةٍ نَزَلَتْ تَحْتَهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ». وكذا رَواه أبو يَعْلَى فى «مُسْنَدِه»[(٦)]، عن

---

(١) تفسير الطبرى ١٦/ ٧٠، ٧١. والتفسير ٥/ ٢١٩.
(٢) تفسير الطبرى ١٦/ ٧٢. وتاريخ دمشق، الجزء المطبوع من تراجم النساء ص ٣٦٣. والتفسير ٥/ ٢١٩.
(٣) فى الأصل: «الثمر».
(٤) ومن طريق شيبان، أخرجه ابن عساكر فى المصدر السابق ص ٣٦٠.
(٥) فى ح: «الأفصارى». وفى م: «الأنصارى».
(٦) مسند أبى يعلى (٤٥٥). وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٥/ ٨٩: فيه مسرور بن سعيد التميمى، وهو ضعيف.

شَيْبَانَ بنِ فَرُّوخَ، عن مَسْرُوقِ بنِ سعيدٍ. وفى روايةٍ: مسرورِ بنِ سعيدٍ. والصحيحُ: مسرورُ بنُ سعيدٍ التَّميمىُّ، أَوْرَدَ له ابنُ عَدِىٍّ هذا الحديثَ، عن الأَوْزَاعِىِّ بِهِ، ثُمَّ قال: وهو مُنْكَرُ الحديثِ، (١ولم أَسْمَعْ بذِكْرِه إِلَّا فى هذا الحديثِ١). وقال ابنُ حِبَّانَ[٢]: يَرْوِى عَنِ الأَوْزَاعِىِّ المناكيرَ الكثيرةَ التى لا يجوزُ الاحتجاجُ بِمَنْ يَرْوِيها. وقولُه: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾. وهذا مِن تَمامِ كَلامِ الذى ناداها مِن تَحْتِها. قال: ﴿ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا ﴾ أى؛ فإن رأيتِ أَحَدًا مِن النَّاسِ ﴿ فَقُولِىٓ ﴾ له، أى؛ بِلسانِ الحالِ والإشارةِ: ﴿ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ﴾ أى؛ صَمْتًا. وكان مِن صَوْمِهم فى شريعتِهم، تَرْكُ الكلامِ والطَّعامِ. قالَه قَتادةُ والسُّدِّىُّ، وابنُ أَسْلَمَ[٣]. ويدلُّ على ذلك قولُه: ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ فأَمَّا فى شريعتِنا، فيُكْرَهُ للصَّائِمِ صَمْتُ يومٍ إلى اللَّيْلِ. وقولُه تعالى: ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾، ذَكَرَ كثيرٌ من السَّلفِ، مِمَّنْ يَنْقُلُ عن أهلِ الكِتابِ، أَنَّهم لَمَّا افْتَقَدُوها مِن بينِ أَظْهُرِهم، ذَهَبُوا فى طَلَبِها، فمَرُّوا عَلَى مَحِلَّتِها والأَنوارُ حَوْلَها، فلمَّا واجَهُوها وَجَدُوا معها وَلَدَها، فقالوا لها: ﴿ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾ أى؛ أَمْرًا عظيمًا مُنْكَرًا. وفى هذا الذى قالوه نَظَرٌ، مع أَنَّه كلامٌ يَنْقُضُ أَوَّلَه آخِرَه؛ وذلك لأَنَّ ظاهِرَ سِياقِ القرآنِ العظيمِ، يَدُلُّ على أَنَّها حَمَلَتْ

(١ - ١) سقط من: ص. والحديث أخرجه ابن عدى، فى الكامل ٦/ ٢٤٢٤، ٢٤٢٥.

(٢) فى كتاب المجروحين ٣/ ٤٤.

(٣) تفسير الطبرى ١٦/ ٧٤، ٧٥، ٧٦. والتفسير ٥/ ٢٢٠.

بِنَفْسِها ، وأَتَتْ به قَومَها وَهِىَ تَحْمِلُه ، قال ابنُ عباسٍ[(١)] : وذلكَ بعدَ ما تَعَالَّتْ[(٢)] مِن نِفَاسِها بعدَ أربعينَ يومًا .

والمقصودُ أَنَّهم لَمَّا رَأَوْها تَحْمِلُ معها وَلَدَها ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾ ، والفِرْيَةُ هى الفِعْلَةُ المُنْكَرَةُ العظيمةُ مِن الفَعالِ والمَقَالِ . [١/ ٢٥٤و] ثُمَّ قالوا لها : ﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ ﴾ قِيلَ : شَبَّهُوها بعابدٍ مِن عُبَّادِ زَمَانِهم ، كانت تُسَامِيه فى العِبَادةِ ، وكان اسْمُهُ هارونَ[(٣)] . وقيلَ : شَبَّهُوها برَجُلٍ فاجِرٍ فى زِمانِهم ، اسمُه هارونُ . قاله سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ[(٤)] . وقِيلَ : أرادُوا بهارونَ أَخَا موسى ، شَبَّهُوهَا به فى العِبَادةِ[(٥)] . وأَخْطَأَ محمدُ بنُ كَعْبٍ القُرَظِىُّ فى زَعْمِه أَنَّها أُخْتُ موسى وهارونَ نَسَبًا[(٦)] ؛ فإِنَّ بينَهما مِن الدُّهورِ الطَّويلةِ ، ما لا يَخْفَى على أَدْنَى مَنْ عِنْدَه مِن العِلْمِ ما يَرُدُّه عن هذا القَوْلِ الفَظِيعِ ، وكأَنَّه غَرَّه أَنَّ فى التوراةِ أَنَّ مريمَ أُختَ موسى وهارونَ ، ضَرَبَتْ بالدُّفِّ يومَ نَجَّى اللَّهُ موسى وقومَه ، وأَغْرَقَ فِرْعَونَ وملأَه ، فاعْتَقَدَ أَنَّ هذه هى هذه ، وهذا فى غايةِ البُطْلانِ والمُخَالَفَةِ للحديثِ الصَّحيحِ[(٧)] مع نَصِّ القرآنِ[(٨)] كما قَرَّرْناهُ فى «التَّفْسيرِ»[(٩)] مُطَوَّلًا ، ولِلَّهِ الحمدُ والمِنَّةُ[(٨)] . وقد ورَدَ الحديثُ الصَّحيحُ[(١٠)] الدَّالُّ

---

(١) تاريخ دمشق ، الجزء المطبوع ، من تراجم النساء ص ٣٦٤. والدر المنثور ٤/ ٢٧٠.
(٢) فى م: «تعلت». وفى ص: «يغالب». وتعالَّتْ : خرجتْ من نِفاسها وطهُرتْ .
(٣) تفسير الطبرى ١٦/ ٧٧. والتفسير ٥/ ٢٢١.
(٤) التفسير ٥/ ٢٢١. والدر المنثور ٤/ ٢٧٠. وعزاه كلاهما لابن أبى حاتم .
(٥) تفسير الطبرى ١٦/ ٧٨. والدر المنثور ٤/ ٢٧٠. وعزاه لابن أبى حاتم .
(٦) التفسير ٥/ ٢٢١.
(٧) تقدم ص ١٢١ حاشية (٢).
(٨ - ٨) سقط من : الأصل .
(٩) ٥/ ٢٢١.
(١٠) هو المذكور بعد ، عن أحمد وغيره .

على أَنَّه قد كان لها أَخٌ اسمُه هارونُ، وليسَ فى ذِكْرِ قِصَّةِ وِلادَتِها وتحريرِ أُمِّها لها، ما يَدُلُّ على أَنَّها ليس لها أَخٌ سواها. واللَّهُ أعلمُ.

قال الإمامُ أحمدُ[1]: حَدَّثنا عبدُ اللَّهِ بنُ إِدْرِيسَ سَمِعْتُ أبى يَذْكُرُه عَنْ [2]سِمَاكٍ، عن عَلْقَمَةَ بنِ وائلٍ، عن المُغِيرَةِ[2] بنِ شُعْبَةَ، قال: بَعَثَنى رسولُ اللَّهِ ﷺ، إلى نَجْرانَ، فقالوا: أرأيتَ ما تَقْرَءُون: ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ ﴾ وموسى قَبْلَ عيسى بكذا وكذا. قال: فرَجَعْتُ فذَكَرْتُ ذلكَ لرسولِ اللَّهِ ﷺ، فقال: «أَلَا أَخْبَرْتَهُمْ أَنَّهُمْ كانوا يُسَمُّونَ بالأَنْبياءِ والصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ». وكذا رواه مسلمٌ، والنَّسائِىُّ، والتِّرْمِذِىُّ[3]، مِن حديثِ عبدِ اللَّهِ بنِ إدريسَ، وقال التِّرْمِذِىُّ: حَسَنٌ صحيحٌ غريبٌ، لا نَعْرِفُه إلَّا مِن حديثِه. وفى روايةٍ: «أَلَا أَخْبَرْتَهُمْ أَنَّهُم كَانُوا يُسَمُّونَ بِأَسْماءِ صَالِحِيهِمْ وأَنْبِيَائِهِمْ». وذَكَر قَتادَةُ وغيرُه[4] أَنَّهم كانوا يُكْثِرُون مِن التَّسْمِيَةِ بهارونَ، حتى قِيل: إنَّه حَضَرَ بعضَ جنائِزِهم بَشَرٌ كثيرٌ منهم، مِمَّن يُسَمَّى بهارونَ، أربعون ألفًا. فاللَّهُ أعلمُ.

والمقصودُ أنَّهم قالوا: ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ ﴾. ودَلَّ الحديثُ على أَنَّها قد كان لها أَخٌ نَسَبِىٌّ[5] اسمُهُ هارونُ، وكان مَشْهُورًا بالدِّينِ والصَّلاحِ والخيْرِ؛ ولهذا قالوا: ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴾ أى؛ لستِ مِن بيْتِ هذا شِيمَتُهُم ولا سَجِيَّتُهم؛ لا أَخوكِ ولا أُمُّكِ ولا أَبوكِ، فاتَّهَمُوها

---

(1) المسند ٤/ ٢٥٢.

(٢ - ٢) فى الأصل: «سماك بن علقمة بن المغيرة».

(3) مسلم (٢١٣٥). النسائى (١١٣١٥). الترمذى (٣١٥٥). وانظر ما تقدم ص ١٢١ .

(4) تفسير الطبرى ١٦/ ٧٧. والتفسير ٥/ ٢٢٢.

(5) فى الأصل: «نبى».

بالفاحِشَةِ العُظْمَى ، وَرَمَوْها بالدَّاهيةِ الدَّهْيَاءِ ، فذَكَرَ ابنُ جريرٍ فى « تاريخِهِ »[1] أنَّهم اتَّهَمُوا بها زكريَّا ، وأرادوا قَتْلَه ، فَفَرَّ منهم ، فلَحِقُوهُ وقد انْشَقَّتْ له الشَّجَرَةُ ، فدَخَلَها ، وأَمْسَكَ إبليسُ بطَرَفِ رِدَائِه فنَشَرُوه فيها ، كما قَدَّمْنا[2] .

ومِن المنافِقِين مَن اتَّهَمَهَا بابنِ خَالِها يوسفَ بنِ يعقوبَ النَّجَّارِ ، فلمَّا ضاقَ الحالُ ، وانْحَصَرَ [١/٢٥٤ظ] المجالُ وامْتَنَعَ[3] المقالُ ، عَظُمَ التَّوَكُّلُ على ذِى الجلالِ ، ولم يَبْقَ إلَّا الإخلاصُ والاتِّكالُ ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ أى ؛ خاطِبُوه وكَلِّمُوه ؛ فإنَّ جَوابَكم عليه ، وما تَبْغُونَ مِن الكلامِ لَدَيْهِ . فعندَها قال[4] مَنْ كان منهم جَبَّارًا شَقِيًّا : ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ أى ؛ كيفَ تُحِيلِينَنَا فى الجوابِ على صَبِىٍّ صغيرٍ لا يَعْقِلُ الخِطابَ ، وهو مع ذلك رَضِيعٌ فى مَهْدِهِ ، ولا يُمَيِّزُ بينَ مَحْضٍ[5] وَزَبَدِه ، وما هذا منكِ إلَّا على سبيلِ التَّهَكُّمِ بِنَا والاسْتِهْزاءِ ، والتَّنَقُّصِ لنا والازْدِراءِ ؛ إذ لا تَرُدِّينَ علينا قَوْلًا نُطْقِيًّا ، بل تُحِيلِينَ فى الجوابِ على مَن كان فى المَهْدِ صَبِيًّا ، فعندَها ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ . هذا أَوَّلُ كلامٍ تَفَوَّهَ به عيسى ابنُ مريمَ ، فكان أَوَّلَ ما تكلَّمَ به أن ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ اعْتَرَفَ لربِّه تعالى بالعُبُودِيَّةِ ، وأَنَّ اللَّهَ رَبُّه ، فَنَزَّهَ جَنابَ اللَّهِ عن قَوْلِ الظَّالمين ، فى زَعْمِهم أَنَّه ابنُ اللَّهِ ، بل هو عَبْدُهُ ورسولُهُ وابنُ أَمَتِه ، ثم بَرَّأَ أُمَّه مِمَّا نَسَبَهَا إليهِ الجاهلون ، وقَذَفُوها به ورَمَوْها

---

(١) تاريخ الطبرى ١/ ٦٠٠، ٦٠١.

(٢) انظر ما تقدم ص ٤٠٦.

(٣) فى الأصل: « واتسع ».

(٤) فى م : « قالوا ».

(٥) فى الأصل: « مخض المحض ». والمحض : اللبن الخالص الذى لم يخالطه ماء.

بسَببِه ، بقولِه : ﴿ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴾ . فإنَّ اللَّهَ لا يُعْطِى النُّبوَّةَ مَن هو كما زَعَمُوا ، لَعَنَهُمُ اللَّهُ وقبَّحَهُم ، كما قال تعالى[1] : ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٦] ، وذلك أنَّ طائفةً مِن اليهودِ فى ذلك الزَّمانِ ، قالوا : إنَّها حمَلَتْ به مِن زِنًى فى زَمَنِ الحَيْضِ ، لَعَنَهم اللَّهُ . فبرَّأَها اللَّهُ مِن ذلكَ ، وأخْبرَ عنها أنَّها صِدِّيقةٌ ، واتَّخذَ وَلَدَهَا نَبِيًّا مُرْسَلًا ، أَحَدَ أُولِى العَزْمِ الخمسةِ الكِبارِ ، ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ وذلك أنَّه حيثُ كان ، دعا إلى عبادةِ اللَّهِ وحدَهُ لا شريكَ له ، ونَزَّهَ جَنابَه عن النَّقْصِ والعَيْبِ ؛ مِنَ اتِّخاذِ الصَّاحِبَةِ والوَلَدِ ، تَعالى وَتَقَدَّسَ . ﴿ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ وهذه وظيفةُ العبيدِ فى القيامِ بحقِّ العزيزِ الحميدِ ؛ بالصلاةِ ، والإحسانِ إلى الخليقةِ بالزَّكاةِ ، وهى تَشْتَمِلُ على طهارةِ النُّفُوسِ مِن الأَخْلاقِ الرَّذِيلةِ ، وتَطْهيرِ الأَمْوالِ الجَزيلةِ ، بالعَطِيَّةِ للمَحاوِيجِ ، على اخْتِلافِ الأَصْنافِ ، وقِرَى الأَضْيافِ ، والنفقاتِ على الزَّوْجاتِ ، والأَرِقَّاءِ ، والقَراباتِ ، وسائرِ وُجوهِ الطَّاعاتِ ، وأَنْواعِ القُرُباتِ ، ثُمَّ قال : ﴿ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أى ؛ وجَعَلَنى بَرًّا بوالِدَتى ، وذلِكَ أنَّه تأكَّدَ حَقُّها عليه ، لِتَمَحُّضِ جِهَتِها ، إذْ لا والدَ له سِواها ، فسُبْحانَ مَن خَلَقَ الخليقَةَ وبَرأَها ، وأَعْطَى كلَّ نَفْسٍ هُداها . ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ [١/٢٥٥و] أى ؛ لَسْتُ بِفَظٍّ ولا غَليظٍ ، ولا يَصْدُرُ مِنِّى قولٌ ولا فِعْلٌ يُنافِى أَمْرَ اللَّهِ وطاعَتَه . ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ ، وهذه المَواطِنُ الثلاثةُ التى تَقَدَّمَ الكَلامُ عليها فى قصةِ يَحْيَى بنِ زكريَّا ، عليهما السَّلامُ ، ثم لمَّا ذَكَرَ تعالى قِصَّته على الجَلِيَّةِ ، وبَيَّن أَمْرَه ووَضَّحه وشَرَحه ، قال : ﴿ ذَٰلِكَ

(١) التفسير ٢/ ٣٩٩.

عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ كما قال تعالى بعدَ ذِكْرِ قِصَّتِه ، وما كان مِن أَمْرِه فى آلِ عِمْرانَ : ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٨- ٦٣]. ولهذا لمَّا قَدِمَ وَفْدُ نَجْرانَ ، وكانوا سِتِّينَ راكبًا ، يَرْجِعُ أَمْرُهم إلى أربعةَ عشَرَ منهم ، ويؤُولُ أَمْرُ الجميعِ إلى ثلاثةٍ ، هم أَشْرافُهم وساداتُهم ، وهم : العاقِبُ ، والسَّيِّدُ ، وأبو حارِثَةَ ابنُ عَلْقَمَةَ ، فجعلُوا يُناظِرون فى أمرِ المسيحِ ، فأنزلَ اللَّهُ صَدْرَ سورةِ «آلِ عِمْرانَ» فى ذلك ، وبيَّنَ أمْرَ المسيحِ ، وابتداءَ خَلْقِهِ وخَلْقِ أُمِّه مِن قَبْلِه ، وأَمَرَ رسولَه بأَن يُبَاهِلَهم إنْ لم يَسْتَجِيبُوا له ويَتَّبِعُوه[1] ، فلمَّا رَأَوْا عَيْنَيْها ، وأُذُنَيْها ، نَكَلُوا ونَكَصُوا ، وامتنعوا عن المُباهَلَةِ ، وعَدَلُوا إلى المُسالَمَةِ والمُوادَعَةِ ، وقال قائِلُهم ، وهو العاقبُ عبدُ المسيحِ : يا مَعْشَرَ النَّصارَى ، لقد عَلِمْتم أَنَّ محمّدًا لَنَبِيٌّ مُرْسَلٌ ، ولقد جاءَكم بالفَصْلِ مِن خَبَرِ صاحِبِكم ، ولقد عَلِمْتُمْ أَنَّه ما لَاعَنَ قومٌ نبيًّا قَطُّ ، فبَقِيَ كبيرُهم ، ولا نَبَتَ صغيرُهم ، وإنَّها لَلاِسْتِئْصالُ مِنْكم إنْ فَعَلْتُم ، فإن كُنتُم قد أَبَيْتُم إِلَّا إِلْفَ دِينِكُم ، والإِقامةَ على ما أنتم عليه مِن القَوْلِ

---

(١) فى ح: «ويبيعوه».

فى صاحبِكم، فوادِعُوا الرَّجُلَ وانْصرِفُوا إلى بلادِكم. فطَلَبُوا ذلك مِن رسولِ اللَّهِ ﷺ، وسأَلُوه أن يَضْرِبَ عليهم جِزْيَةً، وأَن يَبْعَثَ معهم رَجُلًا أمينًا، فبَعَثَ معهم أبا عُبَيْدَةَ بنَ الجَرَّاحِ، وقد بَيَّنَّا ذلك فى تفسيرِ «آلِ عِمْرانَ»[(1)]، وسيأتى بَسْطُ هذه القضيَّةِ فى السِّيرةِ النبويَّةِ مِن كتابِنا هذا، إن شاءَ اللَّهُ تعالى، وبه الثِّقةُ.

والمقصودُ، أنَّ اللَّهَ تعالى لمَّا[(2)] بيَّنَ أمْرَ المسيحِ، قالَ لرسولِه: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ يَعْنى مِن أنَّه عبدٌ مخلوقٌ مِن امرأةٍ [١/٢٥٥ظ] مِن عبادِ اللَّهِ، ولهذا قالَ: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أى؛ لا يُعْجِزُه شَىْءٌ، ولا يَكْرِثُه[(3)] ولا يَؤودُهُ، [(4)]بَلْ هو القَديرُ الفعَّالُ لِمَا يَشاءُ. ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[(4)] [يس: ٨٢]. وقولُه: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾. هو مِن تمامِ كلامِ عيسى لهم فى المَهْدِ، أَخْبَرَهم أنَّ اللَّهَ رَبُّه وربُّهم وإلهُه وإلهُهم، وأنَّ هذا هو الصِّراطُ المستقيمُ. قال اللَّهُ تعالى: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أى؛ فاخْتَلَفَ أهْلُ ذلك الزَّمانِ، ومَن بَعْدَهُم فيه، فَمِن قائلٍ مِنَ اليهودِ: إنَّه ولدُ زَنْيَةٍ. واسْتَمَرُّوا على كُفْرِهم وعِنادِهم، وقابَلَهم آخَرُون فى الكُفْرِ، فقالوا: هو اللَّهُ. وقال آخَرُون: هو ابنُ اللَّهِ. وقال المؤمنون:

---

(١) التفسير ٣٨/٢ - ٤٥.

(٢) سقط من: ح، م.

(٣) فى ح، م: «يكترثه».

(٤ - ٤) سقط من: الأصل.

هو عبدُ اللَّهِ ورسولُه ، وابنُ أَمَتِه ، وكَلِمَتُه ألقاها إلى مريمَ ، ورُوحٌ منه . وهؤلاءِ هم النَّاجون المُثابُون ، المُؤَيَّدُون المَنْصورُون ، ومَن خَالفَهم فى شَىْءٍ مِن هذه القُيودِ ، فهم الكافِرُون الظَّالِمُون الضَّالُّون الجاهِلُونَ ، وقد تَوَعَّدَهم العَلىُّ العظيمُ الحكيمُ العليمُ ، بقولِه : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

قال البُخارِىُّ[1] : حَدَّثنا صَدَقَةُ بنُ الفَضْلِ ، أنبأنا الوليدُ ، حَدَّثنا الأَوْزَاعِىُّ ، حدَّثنى عُمَيْرُ بنُ هانئٍ ، حَدَّثَنى جُنادةُ بنُ أبى أُمَيَّةَ ، عن عُبادَةَ بنِ الصَّامتِ ، عن النبىِّ ﷺ ، قال : « مَنْ شَهِدَ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ ورَسُولُهُ ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، والجَنَّةَ حَقٌّ ، والنَّارَ حقٌّ ؛ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ » . قال الوليدُ : فحدَّثنى عبدُ الرحمنِ بنُ يزيدَ بنِ جابرٍ ، عن عُمَيْرٍ ، عن جُنادَةَ ، وزَادَ : « مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ أَيِّهَا شَاءَ »[2] . وقد رواه مسلمٌ[3] عن داودَ بنِ رُشَيْدٍ ، عن الوليدِ ، عن ابنِ[4] جابرٍ[5] به ، ومِن طريقٍ أُخرَى عن الأَوْزَاعِىِّ[3] بِهِ .

---

(١) البخارى (٣٤٣٥) .
(٢) انظر الفتح ٦/ ٤٧٥.
(٣) مسلم (٢٨) .
(٤) سقط من : م .
(٥) سقط من : الأصل.

بابُ بيَانِ أنَّ اللهَ تَعالى مُنـزَّهٌ عَنِ الوَلَدِ

قال تعالى في آخرِ هذه السورةِ[1] : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴾ [مريم: ٨٨، ٨٩] . أى ؛ شيئًا عظيمًا ، ومُنْكرًا مِن القولِ وزُورًا . ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾[2] [مريم: ٩٠- ٩٥] . فبيَّنَ أنَّه تعالى لا يَنْبَغِي له الولدُ ؛ لأنَّه خالقُ كُلِّ شيءٍ ومالِكه ، وكُلُّ شيءٍ فقيرٌ إليه ، خاضِعٌ ذليلٌ لَدَيْه ، وجميعُ سُكَّانِ السَّماواتِ والأرضِ عبيدُه ، وهو رَبُّهم ، لا إلهَ إلَّا هو ، ولا رَبَّ سواهُ ، كما قال تعالى[3] : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ [١/٢٥٦و] وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٠- ١٠٣] . فبيَّنَ أنَّه خالقُ كلِّ

---

(١) التفسير ٥/ ٢٦١.

(٢) التفسير ٥/ ٢٦١، ٢٦٢.

(٣) التفسير ٣/ ٣٠٠- ٣٠٥.

شَئٍ، فكيف يَكُونُ له وَلَدٌ، والولَدُ لا يكونُ إلَّا بَيْنَ شَيْئَيْنِ مُتناسِبَيْنِ ! واللَّهُ تعالى لا نظيرَ له، ولا شبيهَ له، ولا عَدِيلَ له، ولا صاحبةَ له، فلا يكونُ له ولدٌ، كما قال تعالى[1] : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ١- ٤] . فَتَقَرَّرَ أنَّه «الأَحدُ» الذى لا نظيرَ له فى ذاتِه، ولا فى صفاتِه، ولا فى أفْعالِه ﴿ ٱلصَّمَدُ ﴾ وهو السَّيِّدُ الذى كَمُلَ فى عِلْمِه وحِكْمَتِه ورحمتِه، وجميعِ صفاتِه. ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ أى؛ لم يُوجَدْ منه وَلَدٌ. ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ أى؛ ولم يَتَوَلَّدْ عن شَئٍ قَبْلَه. ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ أى؛ وليسَ له عِدْلٌ ولا مُكافِئٌ ولا مُساوٍ، فَقَطَعَ النَّظِيرَ المُدانِىَ والأَعْلَى والمُساوِىَ؛ فانْتَفَى أَن يكونَ له ولدٌ، إذ لا يكونُ الولدُ إلَّا مُتَوَلِّدًا بَيْنَ شيئَيْنِ مُتَعادِلَيْنِ أو مُتَقارِبَيْنِ، وتعالَى اللَّهُ عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا.

وقال تبارَكَ وتعالَى وتقدَّسَ[2] : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝١٧١ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ۝١٧٢ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟

---

(١) التفسير ٨/ ٥٣٨- ٥٤٨.

(٢) التفسير ٢/ ٤٣٠- ٤٣٣.

﴿ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٧١- ١٧٣]. يَنْهَى تعالى أَهْلَ الكِتابِ ومَن شَابَهَهُم، عن الغُلُوِّ والإِطْرَاءِ فى الدِّينِ، وهو مُجاوَزَةُ الحدِّ؛ فالنَّصارَى - لَعَنَهُمُ اللَّهُ - غَلَوْا وأَطْرَوْا المسيحَ حتى جاوَزُوا الحدَّ، فكانَ الواجبُ عليهم أَنْ يَعْتَقِدُوا أَنَّه عبدُ اللَّهِ ورسولُه، وابنُ أَمَتِهِ العَذْراءِ البَتُولِ، التى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا، فبعثَ اللَّهُ المَلَكَ جِبْرِيلَ إليها، فنَفَخَ فيها عن أَمْرِ اللَّهِ نفخةً حَمَلَتْ منها بولدِها عيسى، عليه السَّلامُ، والذى اتَّصَلَ بها مِن المَلَكِ هى الرُّوحُ المضافةُ إلى اللَّهِ إضافَةَ تَشريفٍ وتكريمٍ، وهى مخلوقةٌ مِن مخلوقاتِ اللَّهِ تعالى، كما يُقالُ: بَيْتُ اللَّهِ، وناقةُ اللَّهِ، وعبدُ اللَّهِ. وكذا: رُوحُ اللَّهِ، أُضِيفَتْ إليه تَشْرِيفًا لها وتكريمًا، وسُمِّىَ عيسى بها؛ لأَنَّه كان بها من غيرِ أَبٍ، وهى الكلمةُ أيضًا التى [١/٢٥٦ظ] عنها خُلِقَ، وبسَبَبِها وُجِدَ، كما قال تعالى[1]: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩]. وقال تعالى[2]: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: ١١٦، ١١٧]. وقال تعالى[3]: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠]. فأَخْبَرَ تعالى أَنَّ اليهودَ والنَّصارَى، عليهم لعائنُ اللَّهِ، كلٌّ مِن

---

(١) التفسير ٢/ ٤٠.

(٢) التفسير ١/ ٢٣٠ - ٢٣٢.

(٣) التفسير ٤/ ٧٦، ٧٧.

الفريقَيْنِ ادَّعَوْا على اللَّهِ شَطَطًا ، وزَعَمُوا أَنَّ له ولدًا ، تعالى اللَّهُ عمَّا يقولون عُلوًّا كبيرًا ، وأَخْبَرَ أَنَّهم ليسَ لهم مستنَدٌ فيما زَعَمُوه ، ولا فيما ائْتَفَكُوه ، إلَّا مُجَرَّدُ القَوْلِ ومُشابَهَةُ مَن سَبَقَهُم إلى هذهِ المقالةِ الضَّالَّةِ ، تشابَهَتْ قُلوبُهُم ، وذلك أَنَّ الفلاسفَةَ - عليهم لعنةُ اللَّهِ - زَعمُوا أنَّ العَقْلَ الأَوَّلَ صَدَرَ عن واجبِ الوُجُودِ ، الذى يُعبِّرُونَ عَنْه بعِلَّةِ العِلَلِ ، والمَبْدَأَ الأَوَّلِ ، وأَنَّه صَدَرَ عن العقْلِ الأَوَّلِ عَقْلٌ ثانٍ ، ونَفْسٌ وفَلَكٌ ، ثُمَّ صَدَرَ عن الثانى كذلك ، حتى تَنَاهَتِ العقولُ إلى عَشَرَةٍ ، والنُّفُوسُ إلى تِسْعَةٍ ، والأَفْلاكُ إلى تِسْعَةٍ[1] ، باعْتِبَاراتٍ فاسِدَةٍ ذَكَرُوها ، واختياراتٍ باردةٍ أَوْرَدُوها ، ولِبَسْطِ الكلامِ معهم ، وبَيانِ جَهْلِهِم وَقِلَّةِ عَقْلِهِم ، مَوْضِعٌ آخَرُ . وهكذا طوائفُ مِن مُشْركى العَرَبِ ؛ زَعَمُوا لجَهْلِهِم ، أَنَّ الملائكةَ بَناتُ اللَّهِ ، وأَنَّه صَاهَرَ سَرَواتِ الجِنِّ ، فتَوَلَّدَ منهما الملائكةُ ، تعالى اللَّهُ عمَّا يقولون ، وتَنَزَّهَ عَمَّا يُشْرِكُونَ ، كما قال تعالى[2] : ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف : ١٩] . وقال تعالى[3] : ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الصافات : ١٤٩- ١٦٠] .

---

(١) فى الأصل : « سبعة » .
(٢) التفسير ٧/ ٢١٠.
(٣) التفسير ٧/ ٣٦، ٣٧.

وقال تعالى[1] : ﴿ وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦- ٢٩] . وقال تعالى فى أوَّلِ سُورةِ « الكَهْفِ »[2] ، وهِيَ مَكِّيَّةٌ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ [١/٢٥٧و] يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الكهف: ١- ٥] . وقال تعالى[3] : ﴿ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس: ٦٨- ٧٠] . فهذه الآياتُ المكِّيَّاتُ الكريماتُ تَشْمَلُ الرَّدَّ على سائرِ فِرَقِ الكَفَرَةِ ؛ مِن الفلاسفةِ ومُشْرِكى العَرَبِ واليهودِ والنَّصارَى ، الذين ادَّعَوْا وزَعَمُوا بلا عِلْمٍ ، أَنَّ للَّهِ ولدًا ، سُبْحانَه وتعالى عَمَّا يقولُ الظالمون المُعْتَدُون عُلُوًّا كبيرًا .

ولَمَّا كانتِ النَّصارَى ، عليهم لَعائنُ اللَّهِ المُتَتابِعَةُ إلى يَوْمِ القيامةِ ، مِن أَشْهَرِ

---

(١) التفسير ٥/ ٣٣١.
(٢) التفسير ٥/ ١٣٢، ١٣٣.
(٣) التفسير ٤/ ٢١٧، ٢١٨.

مَن قال بهذهِ المقالةِ ، ذُكِرُوا في القرآنِ كثيرًا ؛ للرَّدِّ عليهم وبيانِ تناقُضِهم ، وقِلَّةِ عِلْمِهم ، وكَثْرَةِ جَهْلِهِم ، وقد تنَوَّعَتْ أقوالُهم في كُفرِهم ؛ وذلك أنَّ الباطلَ كثيرُ التَّشَعُّبِ والاختِلافِ والتَّناقُضِ ، وأمَّا الحقُّ فلا يَخْتَلِفُ ولا يَضطرِبُ ، قال اللَّهُ تعالى[1] : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢] . فدَلَّ على أنَّ الحقَّ يتَّحِدُ ويَتَّفِقُ ، والباطِلَ يَخْتَلِفُ ويَضطربُ . فطائِفَةٌ مِن ضُلَّالِهم وجُهَّالِهم زَعَمُوا أنَّ المسيحَ هو اللَّهُ . تعالى اللَّهُ ، وطائفةٌ قالوا : هو ابنُ اللَّهِ ، عزَّ اللَّهُ . وطائفةٌ قالوا : هو ثالثُ ثلاثةٍ . جَلَّ اللَّهُ . قال اللَّهُ تعالى في أوَّلِ سورةِ «المائدةِ»[2] : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٧] . فأَخْبَرَ تعالى عن كُفرِهم وجَهْلِهم ، وبَيَّنَ أنَّه الخالقُ القادرُ على كلِّ شَيْءٍ ، المُتَصرِّفُ في كلِّ شيءٍ ، وأنَّه ربُّ كلِّ شَيْءٍ ومَلِيكُه وإلَهُه . وقال في أواخِرِها[3] : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا

---

(١) التفسير ٢/ ٣٢٠، ٣٢١.

(٢) التفسير ٣/ ٦٣، ٦٤.

(٣) التفسير ٣/ ١٤٨ - ١٥٠.

يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة: ٧٢- ٧٥]. حكَم تعالى بكُفْرِهم شرْعًا وقَدَرًا، وأخبَرَ [١/٢٥٧ظ] أنَّ هذا صَدَرَ مِنهم، مع أنَّ الرسولَ إليهم، وهو عيسى ابنُ مريمَ، قد بيَّنَ لهم أنَّه عبدٌ مَرْبُوبٌ مخلوقٌ، مُصَوَّرٌ فى الرَّحِمِ، داعٍ إلى عبادةِ اللَّهِ وَحْدَه لا شَرِيكَ له، وتَوَعَّدَهم على خِلافِ ذلكَ بالنَّارِ، وعَدَمِ الفَوْزِ بدارِ القَرارِ، والخِزْيِ فى الدَّارِ الآخرة، والهَوانِ والعارِ، ولهذا قال: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ ثُمَّ قال: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ ﴾. قال ابنُ جريرٍ، وغيرُه[١]: المرادُ [٢]بذلك قَوْلُهم بالأَقانيمِ[٢] الثلاثةِ؛ أُقْنُومُ الأبِ، وأُقْنُومُ الابنِ، وأُقْنُومُ الكَلِمَةِ المُنْبَثِقَةِ مِنَ الأبِ إلى الابنِ، على اختلافِهم فى ذلك ما بينَ المَلَكِيَّةِ[٣] واليَعْقُوبِيَّةِ والنُّسْطُورِيَّةِ، عليهم لعائنُ اللَّهِ، كما سنُبَيِّنُ كيفيَّةَ اخْتِلافِهم فى ذلك، ومجامِعَهم الثلاثةَ فى زَمَنِ قُسْطَنْطِينَ [٤]بنِ[٥] قسطسَ[٤]، وذلك بعدَ المسيحِ بثَلاثِمائةِ سنةٍ، وقبلَ البَعْثَةِ المحمَّديَّةِ بثَلاثِمائةِ سنةٍ، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ أى؛ وما مِن إلهٍ إلَّا اللَّهُ وَحْدَه لا شريكَ له، ولا نظيرَ له، ولا كُفْءَ له، ولا

---

(١) تفسير الطبرى ٦/ ٣١٣. وانظر تفسير القرطبى ٦/ ٢٤٩.

(٢ - ٢) فى ص: «بتلك».

(٣) فى ح: «المليكة».

(٤ - ٤) سقط من: الأصل.

(٥) فى ح: «من».

صاحبةَ له ولا وَلَدَ، ثُمَّ تَوَعَّدَهم وتَهَدَّدَهم، فقال: ﴿ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾. ثم دعاهم برحمتِه ولُطْفِهِ إلى التوبةِ والاستغفارِ، مِن هذهِ الأُمورِ الكِبَارِ والعَظائِمِ التى تُوجِبُ النَّارَ، فقال: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. ثم بَيَّنَ حالَ المسيحِ وأُمِّه، وأنَّه عبدٌ رسولٌ، وَأُمُّه صِدِّيقةٌ؛ أَىْ ليستْ بفاجِرَةٍ، كما يقولُه اليهودُ، لَعَنَهم اللَّهُ. وفيه دليلٌ على أنَّها ليست بِنَبِيَّةٍ، كما زَعَمَه طائفةٌ مِن علمائِنا[1]. وقولُه: ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ كِنايَةٌ عن خُرُوجِه منهما، كما يَخْرُجُ من غَيْرِهما[2]، أَىْ؛ ومَنْ كان بهذه المَثَابَةِ، كيف يكونُ إلهًا؟! تعالى اللَّهُ عن قولِهم وجَهْلِهم عُلُوًّا كبيرًا. وقال السُّدِّىُّ وغيرُه[3]: المرادُ بقولِه: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ زَعْمُهم فى عيسى وأُمِّهِ أنَّهما إلهانِ مع اللَّهِ؛ يَعْنى كما بيَّنَ تعالى كُفْرَهم فى ذلك، بقولِه فى آخرِ هذه السورةِ الكريمةِ[4]: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (117) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن

---

(١) انظر الفصل فى الملل والأهواء والنحل ٣/١٧ - ١٩. وتفسير القرطبى ٤/ ٨٣، ٨٤.

(٢) فى ص: «غيرها».

(٣) تفسير الطبرى ٦/ ٣١٤. والتفسير ٣/ ١٤٩. والدر المنثور ٢/ ٣٠٠ وعزاه لابن أبى حاتم.

(٤) التفسير ٣/٢٢٦ - ٢٣٠.

﴿ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٦- ١١٨] . يُخْبِرُ تعالى أنَّه يَسألُ عيسى ابنَ مريمَ [١/٢٥٨و] يومَ القيامةِ، على سبيلِ الإكرامِ له، والتَّقْريعِ والتَّوْبيخِ لعابِدِيه، مِمَّن كَذَبَ عليه وافْتَرَى، وزَعَمَ أنَّه ابنُ اللَّهِ، أو أنَّه اللَّهُ، أوْ أنَّه شريكُه، تعالى اللَّهُ عَمَّا يقولُون، فيَسْأَلُه وهو يَعْلَمُ أنَّه لم يَقَعْ منه ما يسأَلُه عنه، ولكنْ لتَوْبيخِ مَن كَذَبَ عليه، فيقولُ له: ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ ﴾ أى؛ تعالَيْتَ أن يكونَ معكَ شَريكٌ. ﴿ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾ أى؛ ليس هذا يَسْتَحِقُّه أَحدٌ سِواك. ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ . وهذا تَأَدُّبٌ عظيمٌ فى الخِطَابِ والجوابِ. ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ ﴾ حينَ أرسَلْتَنى إليهم، وأنْزَلْتَ علىَّ الكتابَ الذى كان يُتْلَى عليهم، ثم فَسَّر[(١)] ما قالَ لهم بقولِه: ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ أى؛ خالقى وخالِقَكم، ورازقى ورازقَكم. ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى ﴾ أى؛ رَفَعْتَنى إليكَ حينَ أرادُوا قَتْلى وصَلْبى، فرَحِمْتَنى وخَلَّصْتَنى منهم، وأَلْقَيْتَ شِبْهِى على أحَدِهم، حتى انْتَقَمُوا منه، فلمَّا كان ذلك. ﴿ كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ثُمَّ قال على وجهِ التَّفْويضِ إلى الرَّبِّ، عزَّ وجلَّ، والتَّبَرِّى مِن أهلِ النَّصْرانيَّةِ: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ أى؛ وهم يَسْتحِقُّونَ ذلك[(٢)]. ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾، وهذا التَّفْويضُ والإسنادُ إلى المشيئةِ بالشَّرْطِ، لا يَقْتَضِى وُقُوعَ ذلك، ولهذا قال: ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ

---

(١) فى ح: «قرأ».
(٢) فى ح: «لذلك».

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ ولم يَقُلِ: الغفورُ الرَّحِيمُ.

وقد ذَكَرْنا فى «التفسيرِ»(1)، ما رَواه الإمامُ أحمدُ(2)، عن أبى ذَرٍّ، أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ، قامَ بهذه الآيةِ الكريمةِ (3)ليلةً حتّى أَصْبَحَ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(3). وقال: «إِنِّى سَأَلْتُ رَبِّى عَزَّ وَجَلَّ الشَّفَاعَةَ لأُمَّتِى فأَعْطَانِيهَا، وَهِىَ نَائِلَةٌ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لِمَنْ لَا يُشْرِكُ باللَّهِ شَيْئًا». وقال تعالى(4): ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿16﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿17﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿18﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿19﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: 16- 20]. وقال تعالى(5): ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿4﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى [1/ 258ظ] ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [الزمر: 4، 5]. وقال تعالى(6): ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿81﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف: 81، 82]. وقال

---

(1) التفسير 3/ 229.
(2) فى المسند 5/ 149.
(3 - 3) سقط من: ص.
(4) التفسير 5/328 - 330.
(5) التفسير 7/ 75، 76.
(6) التفسير 7/ 228، 229.

تعالى[1] : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ [الإسراء: ١١١]. وقال تعالى[2] : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾. وَثَبَتَ فى « الصَّحيحِ »[3] عن رسولِ اللَّهِ ﷺ أنه قال: « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: شَتَمَنى ابْنُ آدَمَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ؛ يَزْعُمُ أَنَّ لِى وَلَدًا، وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِى لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِى كُفُوًا أَحَدٌ ». وفى « الصَّحيحِ » أيضًا[4] عن رسولِ اللَّهِ ﷺ، أنَّه قال: « لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَه مِنَ اللَّهِ ؛ إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا، وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ ». ولكنْ ثَبَتَ فى « الصَّحيحِ » أَيْضًا[5]، عن رسولِ اللَّهِ ﷺ، أنَّه قال: « إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِى لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ »، ثُمَّ قرأ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢]. وهكذا قولُه تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الحج: ٤٨]. وقال تعالى: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٤]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠]. وقال تعالى: ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ [الطارق: ١٧].

---

(١) التفسير ٥/١٢٨، ١٢٩.

(٢) التفسير ٨/٥٣٨ - ٥٤٨.

(٣) البخارى (٤٩٧٤، ٤٩٧٥).

(٤) البخارى (٦٠٩٩، ٧٣٧٨). مسلم (٢٨٠٤).

(٥) البخارى (٤٦٨٦) واللفظ له. مسلم (٢٥٨٣).

ذِكْرُ[1] مَنْشَأ عِيسى ابنِ مريمَ، عَلَيْهما السَّلامُ، وَبيانُ بَدْءِ الوَحْيِ إليهِ مِن اللهِ تعالى

قد تقدَّم[2] أنَّه وُلِدَ ببيْتِ لَحْمٍ، قريبًا[3] مِن بَيْتِ المقدسِ، وزعَم وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ أنَّه وُلِدَ بمصرَ، وأنَّ مريمَ سافرتْ هى ويوسفُ بنُ يعقوبَ النَّجّارُ، وهى راكِبةٌ على حمارٍ. ليس بينَها[4] وبينَ الإِكَافِ[5] شىءٌ. وهذا لا يَصِحُّ، والحديثُ الذى تقدَّم ذِكْرُه[6] دليلٌ على أنَّ مَوْلِدَه كان ببيْتِ لَحْمٍ، كما ذَكَرْنا، ومَهْمَا عارضَه فباطِلٌ.

وذَكَرَ وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ[7]، أنَّه لما وُلِدَ خَرَّتِ الأَصْنامُ يَوْمَئِذٍ فى مشارقِ الأَرْضِ ومغارِبِها، وأنَّ الشَّياطِينَ حارَتْ فى سببِ ذلك، حتى كَشَفَ لهم إبليسُ الكَبيرُ أمْرَ عيسى، فوجَدَه فى حِجْرِ أُمِّه، والملائكةُ مُحْدِقَةٌ به، وأنَّه ظَهَرَ نَجْمٌ عظيمٌ فى السَّماءِ، وأنَّ مَلِكَ الفُرْسِ أَشْفَقَ مِن ظهورِه، فسأل الكَهَنَةَ عن

---

(١) سقط من: م.

(٢) تقدم تخريجه ص ٤٤٤.

(٣) سقط من: الأصل.

(٤) فى م: «بينهما».

(٥) الإكاف: برذعة الحمار.

(٦) تقدم ص ٤٤٤ .

(٧) تاريخ الطبرى ١/٥٩٤ - ٥٩٨.

ذلك فقالوا : هذا لمولدٍ[1] عظيمٍ فى الأرْضِ . فبعَث رُسُلَهُ ومعهم ذَهَبٌ ومُرٌّ ولِبانٌ ، هديةً إلى عيسى ، فلمَّا قَدِمُوا الشَّامَ سَأَلَهم مَلِكُها عمّا أَقْدَمَهُم ، فَذَكَروا له ذلك ، فسأَلَ عن ذلك الوقتِ ، فإذا قد وُلِد فيه عيسى ابنُ مريمَ ببَيْتِ [١/ ٢٥٩و] المقْدِسِ ، واشْتَهَرَ أَمْرُهُ بسببِ كَلامِهِ فى المَهْدِ ، فأَرْسَلَهم إليه بما معهم ، وأرْسَلَ معهم مَنْ يَعْرِفُه له ؛ ليتَوَصَّلَ إلى قَتْلِه إذا انْصرفوا عنه ، فلمَّا وصلوا إلى مريمَ بالهدايا ورَجَعوا ، قيلَ لها : إنَّ رُسُلَ مَلِكِ[2] الشّامِ إنَّما جاءوا ليَقْتُلوا وَلَدَكِ . فاحْتَمَلَتْه ، فذهَبت به إلى مِصْرَ ، فأقامت بها حتى بَلَغَ عُمْرُه ثِنْتَىْ عَشْرَةَ سنةً ، وَظَهَرت عليه كراماتٌ ومُعْجِزاتٌ فى حالِ صِغَرِه ، فَذَكَرَ منها ، أَنَّ الدِّهْقانَ الذى نَزَلوا عندَه افتقَدَ مالًا مِن دارِه ، وكانت دارُه [3]لا يسكُنُها إلَّا[3] الفقراءُ والضعفاءُ والمحاويجُ ، فلم يَدْرِ مَنْ أخذه ، وعَزَّ ذلك على مريمَ ، عليها السّلامُ ، وشَقَّ على الناسِ وعلى رَبِّ المنزلِ ، وأَعْياهُمْ أَمْرُها ، فلمَّا رأى عيسى ، عليه السلامُ ، ذلك ، عَمَدَ إلى رَجُلٍ أعْمَى ، وآخَرَ مُقْعَدٍ مِن جملةِ مَنْ هو منقطِعٌ إليه ، فقال للأَعْمَى : احمِلْ هذا المُقْعَدَ وانهضْ به . فقال : إنى لا أستطيعُ ذلك . فقال : بلى ، كما فعلتَ أنت وهو حينَ أخذتُما هذا المالَ مِن تلك الكُوَّةِ من الدّارِ . فلمّا قال ذلك ، صدَّقاه فيما قال ، وأَتَيا بالمالِ ، فَعَظُم عيسى فى أَعْيُنِ النَّاسِ وهو صغيرٌ جِدًّا .

ومِن ذلك ، أنَّ ابنَ الدِّهْقانِ عَمِل ضِيافةً للناسِ ؛ بسببِ طُهورِ أَوْلادِه ، فلمَّا اجتمعَ الناسُ وأَطْعَمَهم ، ثُمَّ أَرادَ أن يَسْقِيَهم شَرابًا ، يَعْنى خمرًا ، كما

---

(١) فى الأصل ، ص : « لموعد » .

(٢) سقط من : ص .

(٣ - ٣) فى ص : « إلى » .

كانوا يَصْنعون فى ذلك الزَّمانِ، لم يَجِدْ فى جِرَارِه شيئًا، فشَقَّ ذلك عليه، فلمّا رأى عيسى ذلك منه قام فجَعَلَ يَمُرُّ على تلكَ الجِرَارِ ويُمِرُّ يدَه على أفْواهِها، فلا يفعلُ بِجَرَّةٍ منها ذلكَ إلا امْتَلأَتْ شرابًا مِن خِيارِ الشَّرابِ، فتعجَّبَ الناسُ مِن ذلك جِدًّا، وعَظَّمُوه وعَرَضُوا عليه وعلى أُمِّه مالًا عَظيمًا جَزِيلًا، فلم يَقْبَلاه، وارْتَحَلا قاصِدَيْنِ بِلادَ بيْتِ المَقْدِسِ. واللَّهُ أعلمُ.

وقال إسحاقُ بنُ بِشْرٍ[١]: أَنْبَأَنا عثمانُ بنُ السَّاجِ وغيرُه، عن موسى بنِ وَرْدَانَ، عن أبى نَضْرَةَ، عن أبى سعيدٍ، وعن مَكْحولٍ، عن أبى هريرةَ قال: إنَّ عيسى ابنَ مريمَ أوَّلَ ما أَطْلَقَ اللَّهُ لِسانَه، بعدَ الكلامِ الذى تكلَّم به وهو طفلٌ، فمَجَّدَ اللَّهَ تَمْجِيدًا لم تَسْمَعِ الآذانُ بمثلِه، لم يَدَعْ شمسًا ولا قمرًا ولا جَبَلًا ولا نَهْرًا ولا عَيْنًا إلَّا ذَكَرَه فى تمجيدِه، فقال: اللهمّ أنت القريبُ فى عُلُوِّك، المُتَعالى فى دُنُوِّكَ، الرفيعُ على كُلِّ شَىْءٍ من خلقِك، أنت الذى خلقْتَ سَبْعًا فى الهواءِ بكلماتِك، مُسْتَوِياتٍ طِباقًا، أَجَبْنَ وهُنَّ دُخانٌ من فَرَقِك، فأَتَيْنَ طائعاتٍ لأَمْرِكَ، فيهِنَّ ملائكتُك يُسبِّحون قُدْسَكَ لتقديسِك، وجعلْتَ فيهنّ نورًا [١/٢٥٩ظ] على سَوَادِ الظَّلامِ، وضياءً من ضَوْءِ الشَّمسِ بالنَّهارِ، وجعلْتَ فيهنَّ الرَّعْدَ المسبِّحَ بالحمْدِ، فبعِزَّتِكَ تَجْلُو ضَوءَ ظُلمَتِك، وجعلْتَ فيهنَّ مصابيحَ يَهْتَدِى بهنَّ فى الظُّلُماتِ الحَيْرانُ، فتباركْتَ اللَّهُمَّ فى مَفْطورِ سماواتِك، وفيما دَحَوْتَ مِن أرضِكَ، دَحَوْتَها على الماءِ، فسَمَكْتَها[٢]

---

(١) أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق ١٤/ ٤٠، ٤١ مخطوط، من طريق إسحاق بن بشر به.
(٢) فى الأصل: «فسمكها».

على تيّارِ الموْجِ المتغامِرِ[1] فأَذْلَلْتَها إِذْلالَ [2]الماءِ المُتَظاهِرِ[2]، فَذَلَّ لطاعتِكَ صَعْبُها، واستحْيَى لأَمْرِكَ أَمْرُها، وخَضَعَتْ لعِزَّتِك أمواجُها، فَفَجَّرْتَ فيها بعدَ البحورِ الأَنهارَ، ومِن بعدِ الأنهارِ الجداولَ الصِّغارَ، ومن بعدِ الجداولِ ينابيعَ العُيونِ الغِزارَ، ثم أخرجْتَ منها الأَنهارَ والأَشْجارَ والثّمارَ، ثم جَعَلْتَ[3] على ظَهْرِها الجبالَ فَوَتَّدْتَهَا أَوْتادًا على ظَهْرِ الماءِ، فأطاعتْ أَطْوَادُها وجُلْمُودُهَا، فتباركْتَ اللهُمَّ، فمَنْ يَبْلُغُ بنَعْتِه نَعْتَكَ؟ أَمَّنْ يَبْلُغُ بِصِفَتِه صِفَتَكَ؟ تَنْشُرُ السَّحابَ، وتَفُكُّ الرِّقابَ، وتَقْضِي الحقَّ، وأنتَ خيرُ الفاصلين، لا إلهَ إلَّا أنتَ سبحانَك، أَمَرْتَ أَن نستغْفِرَكَ مِن كُلِّ ذَنْبٍ، لا إلهَ إلَّا أنتَ سُبْحانَك، [4]سَتَرْتَ السّماواتِ[4] عن النّاسِ، لا إلهَ إلا أنتَ سبحانَك، إنما يَخْشاكَ[5] مِن عبادِك الأَكْياسُ، نَشْهدُ أَنَّكَ لستَ بإلهٍ استحْدَثْناكَ، ولا ربٌّ يَبِيدُ ذِكْرُه، ولا كان معكَ شُرَكاءُ [6]يَقْضُون معك[6] فندْعُوَهم ونَذَرَك[7]، ولا أعانَك على خَلْقِنا أحدٌ فنَشُكَّ فيكَ، نشهدُ أَنَّك أَحدٌ صَمَدٌ، لَم تَلِدْ ولَمْ تُولَدْ، ولم يكنْ لكَ كُفُوًا أحدٌ.

وقال إسحاقُ بنُ بِشْرٍ[8]، عن جُوَيْبِرٍ[9] ومقاتِلٍ، عن الضَّحّاكِ، عن ابنِ عباسٍ: إنَّ عيسى ابنَ مريمَ أَمْسَكَ عن الكلامِ بعدَ إِذْ كَلَّمَهم طِفْلًا، حتى بلَغَ

---

(1) في ح، م: «الغامر».
(2 - 2) في ح، م: «التظاهر».
(3) في ص: «خلقت».
(4 - 4) في ح: «استترت بالسماوات».
(5) في م: «يغشاك».
(6 - 6) سقط من: م، ص.
(7) في م: «نذكرك».
(8) المصدر السابق 14/40، من طريق إسحاق.
(9) سقط من: ص. وفي الأصل: «جرير».

ما يَبْلُغُ الغِلْمَانُ ، ثُمَّ أَنْطَقَه اللَّهُ بعدَ ذلك بالحِكْمَةِ والبَيانِ ، فأَكْثَرَ اليهودُ فيه وفى أمِّه مِن القَوْلِ ، كانوا يُسَمُّونه ابنَ البَغِيَّةِ ، وذلك قولُه تعالى : ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٦] . قال : فَلَمَّا بلَغ سَبْعَ سنينَ أَسْلَمَتْه أُمُّه فى الكُتَّابِ ، فجعَل لا يُعَلِّمُه المُعَلِّمُ شيئًا إلَّا بَدَرَه إليه ، فعلَّمه أبا جادٍ ، فقال عيسى : ما أبو جادٍ ؟ فقال المُعَلِّمُ : لا أَدْرِى . فقال عيسى : كيفَ تُعَلِّمُنى ما لا تَدْرِى ؟ فقال المُعَلِّمُ : إذًا فَعَلِّمْنى . فقالَ له عيسى : فَقُمْ مِن مَجْلِسِكَ . فقامَ فَجَلَس عيسى مَجْلِسَه ، فقال : سَلْنِى . فقال المُعَلِّمُ : فما أبو جادٍ ؟ فقال عيسى : الأَلِفُ آلاءُ اللَّهِ ، الباءُ بهاءُ اللَّهِ ، الجيمُ بَهْجَةُ اللَّهِ وجَمالُه . فَعَجِبَ المُعَلِّمُ مِن ذلك ، فكان أَوَّلَ مَن فَسَّر أبا جادٍ .

ثم ذكَر أنَّ عثمانَ سأل رسولَ اللَّهِ ﷺ ، عن ذلك ، فأَجابَه على كُلِّ كَلِمةٍ كَلِمَه[(١)] ، بحديثٍ طَويلٍ [١/٢٦٠و] موضوعٍ ، لا [(٢)] يُشَكُّ فيه ولا يُتَمارَى[(٢)] .

وهكذا رَوَى ابنُ عَدِيٍّ[(٣)] مِن حديثِ إسماعيلَ بنِ عَيّاشٍ ، عن إسماعيلَ ابنِ يَحْيَى ، عن ابنِ أبى مُلَيْكَةَ ، عَمَّن حَدَّثَه عن ابنِ مَسْعودٍ ، وعن مِسْعَرِ بنِ كِدَامٍ ، عن عَطِيَّةَ ، عن أبى سعيدٍ ، رَفَعَ الحديثَ فى دُخولِ عيسى إلى الكُتَّابِ وتعليمِه المُعَلِّمَ معنى حُروفِ أبى جادٍ ، وهو مُطَوَّلٌ لا يُفْرَحُ به . ثم قال ابنُ عَدِيٍّ : وهذا الحديثُ باطلٌ بهذا الإِسنادِ ، لا يَرْويه غيرُ إسماعيلَ .

ورَوَى ابنُ لَهِيعَةَ ، عن عبدِ اللَّهِ بنِ هُبَيْرَةَ[(٤)] ، قال : كان عبدُ اللَّهِ بنُ

---

(١) زيادة من : ح .
(٢ - ٢) فى ح : « لا يسأل ولا يتمارى » . وفى م : « لا يسأل ولا يتمادى » .
(٣) فى الكامل ١/ ٢٩٩ .
(٤) فى ص : « نمرة » .

عَمْرٍو[1] يقولُ: كان عيسى ابنُ مريمَ وهو غلامٌ يَلعبُ مع الصِّبيانِ، فكان يقولُ لأحَدِهم: تُريدُ أن أُخبِرَكَ ما خَبَّأَتْ لكَ أمُّكَ؟ فيقولُ: نَعَمْ. فيقولُ: خَبَّأَتْ لكَ كذا وكذا. فيذهبُ الغُلامُ منهم إلى أمِّه فيقولُ لها: أطْعِمِينى ما خبَّأتِ لى. فتقولُ: وأىُّ شىءٍ خَبَّأْتُ لك؟ فيقولُ: كذا وكذا. فتقولُ له: مَن أخبَرَكَ؟ فيقولُ: عيسى ابنُ مريمَ. فقالوا: واللَّهِ لَئِن تركْتُم هؤلاءِ الصِّبيانَ مع ابنِ مريمَ لَيُفسِدَنَّهم. فجَمعوهم فى بَيْتٍ وأَغْلَقوا عليهم، فخَرَج عيسى يَلْتَمِسُهم، فلم يجدْهم، فسَمِعَ ضَوْضَاءَهم فى بيتٍ، فسأل عنهم، فقالوا: إنَّما هؤلاءِ قِرَدَةٌ وخنازيرُ. فقال: اللهمَّ كذلك. فكانوا كذلك. رواهُ ابنُ عساكرَ[2].

وقال إسحاقُ بنُ بِشْرٍ[3]، عن جُوَيْبِرٍ ومقاتِلٍ، عن الضَّحّاكِ، عن ابنِ عباسٍ، قال: وكان عيسى يُرى العَجَائبَ فى صِباهُ إلهامًا مِن اللَّهِ، ففشا ذلك فى اليهودِ، وتَرَعْرَعَ عيسى، فهَمَّتْ به بنو إسرائيلَ، فخافَتْ أمُّه عليه، فأَوْحَى اللَّهُ إلى أمِّه أَنْ تَنْطَلِقَ به إلى أَرْضِ مِصْرَ؛ فذلك قولُه تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

وقدِ اختَلَفَ السَّلفُ والمفسِّرون فى المرادِ بهذه الرَّبْوَةِ التى ذَكَرَ اللَّهُ مِن صِفَتِها أنَّها ذاتُ قَرارٍ ومَعِينٍ، وهذه صِفَةٌ غريبةُ الشَّكْلِ؛ وهى أنَّها رَبْوَةٌ، وهو المكانُ المرتفعُ مِن الأرْضِ، الذى أَعْلاهُ مُسْتَوٍ يُقَرُّ عليه، فمع ارتِفَاعِه، مُتَّسِعٌ،

(١) فى م، ص: «عمر».
(٢) فى تاريخ دمشق ٣٩/١٤ المخطوط.
(٣) سبق تخريجه فى ص ٤٦٨ حاشية (٨).

ومع عُلُوِّهِ ، فيه (١)عَيْنٌ مِن(١) الماءِ مَعِينٌ ؛ وهو الجارى السَّارِحُ على وجْهِ الأَرضِ ، فقيل : المرادُ المكانُ الذى وَلَدَت فيه المسيحَ . وهو مَحِلَّةُ بيْتِ المقْدِسِ ، ولهذا ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ . وهو النَّهْرُ الصَّغيرُ ، فى قولِ جُمهورِ السَّلَفِ .

وعن ابنِ عَبَّاسٍ بإسْنادٍ جَيِّدٍ ، أنَّها أنْهارُ دِمَشْقَ[٢] . فلعلَّه أراد تَشْبيهَ ذلك المكانِ بأَنْهارِ دِمَشْقَ . وقيلَ : ذلكَ بمِصْرَ . كما زَعَمَه مَنْ زَعَمَهَ مِنْ أهْلِ الكتابِ وَمَنْ تلقَّاه عنهم . واللَّهُ أعلمُ . (٣)وقيل : هى الرَّمْلَةُ .

و(٣) قال إسحاقُ بنُ بِشْرٍ[٤] : [١/٢٦٠ظ] قال لنا إدريسُ ، عن جَدِّه وَهْبِ ابنِ مُنبِّهٍ ، قال : إنَّ عيسى لمَّا بَلَغ ثلاثَ عَشْرَةَ سَنةً ، أَمَرَه اللَّهُ أَنْ يَرْجِعَ مِن بلادِ مِصْرَ إلى بيْتِ إيلِيَا . (٥)قال : فَقَدِمَ عليه يوسفُ ابنُ خَالِ أُمِّه ، فحمَلَهما على حِمَارٍ ، حتى جاءَ بهما إلى إيلِيَا(٥) ، وأقَامَ بها حتى أَحْدَثَ اللَّهُ له الإِنْجِيلَ ، وعلَّمه التَّوْراةَ ، وأَعْطاه إحْياءَ المَوْتَى ، وإبْرَاءَ الأسْقَامِ ، والعِلْمَ بالغُيوبِ ممَّا يَدَّخِرُون فى بُيُوتِهم ، وتحدَّثَ النَّاسُ بقُدُومِه ، وفَزِعوا لِمَا كان يأتى مِن العجائبِ ، فجعلوا يَعْجَبُون منه ، فدعاهم إلى اللَّهِ ففشا فيهم أَمْرُه .

(١ - ١) فى ح ، م : « عيون » .
(٢) التفسير ٥/ ٤٧٠ .
(٣ - ٣) سقط من : الأصل .
(٤) أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق ٤١/١٤ مخطوط ، من طريق إسحاق بن بشر به .
(٥ - ٥) سقط من : الأصل ، ص .

(١)بَيَانُ نُزُولِ الكُتُبِ الأَرْبَعَةِ ومَواقيتِها(١)

قال أبو زُرْعَةَ الدِّمَشْقِيُّ[٢] : حَدَّثنا عبدُ اللَّهِ بنُ صالحٍ ، حدَّثنى مُعاويةُ بنُ صالحٍ ، عَمَّن حَدَّثَه قال : أُنْزِلَتِ التَّوراةُ على موسى فى ستٍّ ليالٍ خَلَوْنَ مِن شَهْرِ رمضانَ ، ونزَل الزَّبُورُ على داودَ فى اثْنَتَىْ عَشْرَةَ خَلَتْ مِن شهرِ رَمضانَ ، (٣)وذلكَ بعدَ التَّوْراةِ بأَرْبَعِمائَةِ سنةٍ واثنتين وثمانين سنةً ، وأُنْزِلَ الإِنجيلُ على عيسى ابنِ مريمَ فى ثَمانى عَشْرَةَ ليلةً خَلَتْ مِن شَهْرِ رَمضانَ(٣) ، بعدَ الزَّبورِ بأَلْفِ عامٍ وخمسين عامًا ، وأُنْزِلَ الفُرْقانُ على محمدٍ ﷺ ، فى أربعٍ وعشرين مِن شهرِ رمضانَ . وقد ذَكَرْنا فى « التفسيرِ »[٤] عندَ قولِه : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ الأحاديثَ الواردةَ فى ذلك ، وفيها أَنَّ الإِنجيلَ أُنْزِلَ على عيسى ابنِ مريمَ ، عليه السلامُ ، فى ثمانى عَشْرَةَ ليلةً خَلَتْ من شهرِ رمضانَ .

وذَكَر ابنُ جريرٍ فى « تاريخِه »[٥] أَنَّه أُنْزِلَ عليه وهو ابنُ ثلاثين سنةً ، ومَكَثَ حتى رُفِعَ إِلى السَّماءِ ، وهو ابنُ ثلاثٍ وثلاثين سنةً . كما سيأتى بيَانُه ، إن شاء اللَّهُ تعالى .

وقال إسحاقُ بنُ بِشْرٍ[٦] : وأَنْبَأَنا سعيدُ بنُ أبى عَرُوبَةَ ، عن قتادةَ ، ومقاتِلٌ

(١ - ١) ليس فى : الأصل ، ص .
(٢) أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق ٤٢/١٤ مخطوط ، من طريق أبى زرعة به .
(٣ - ٣) سقط من : ح .
(٤) التفسير ٣٠٩/١.
(٥) ٥٩٨/١.
(٦) المصدر السابق ٤٣/١٤، من طريق إسحاق بن بشر به .

عن قتادةَ ، عن عبدِ الرحمنِ بنِ آدمَ ، عن أبى هريرةَ قال : أَوْحَى اللَّهُ عزَّ وجلَّ إلى عيسى ابنِ مريمَ : يا عيسى ، جِدَّ فى أمرِى ولا تَهِنْ ، واسْمَعْ وأَطِعْ يا ابنَ الطّاهِرَةِ البِكْرِ البَتُولِ ، إنّكَ مِن غيرِ فَحْلٍ ، وأنا خلقْتُك آيةً للعالَمين ، إيَّاىَ فاعْبُدْ ، وعَلَىَّ فَتَوَكَّلْ ، خُذِ الكتابَ بقوّةٍ ، فَسِّرْ لأَهْلِ السُّرْيانيّةِ ، بَلِّغْ مَنْ بينَ يَدَيْك أنّى أنا الحىُّ القائمُ الذى لا أَزولُ ، صَدِّقوا النبىَّ الأُمِّىَّ[1] العربىَّ ، صاحبَ الجَمَلِ والتّاجِ - وهى العِمامَةُ - والمِدْرَعَةِ والنَّعْلَيْنِ والهِرَاوَةِ - وهى القَضِيبُ - الأَنْجَلَ العَيْنَيْنِ ، الصَّلْتَ الجَبِينِ ، الواضحَ الخَدَّيْن ، الجَعْدَ الرَّأْسِ ، الكَثَّ اللِّحْيَةِ ، المَقْرونَ الحاجِبَيْنِ ، الأَقْنَى الأنفِ ، المُفَلَّجَ الثَّنايا ، البادىَ العَنْفَقَةِ ، الذى كأنَّ عُنُقَه إبْرِيقُ فِضَّةٍ ، وكأنَّ الذَّهَبَ يَجْرِى فى تَراقِيه ، له شَعَراتٌ من لَبَّتِه إلى سُرَّتِه تَجْرِى كالقَضِيبِ ، ليس على بَطْنِه ولا على صَدْرِه شَعْرٌ غيرُه ، شَثْنَ الكَفِّ والقَدَمِ ، إذا الْتَفَتَ ، الْتَفَتَ جميعًا ، وإذا مَشَى كأنّما [٢٦١/١و] يَتَقَلَّعُ مِن صَخْرٍ ويَنْحَدِرُ من صَبَبٍ ، عَرَقُه فى وجْهِه كاللُّؤْلُؤِ ، وريحُ المِسْكِ يَنْفَحُ منه ، لم يُرَ قبلَه ولا بعدَه مِثْلُه ، الحَسَنَ القامَةِ ، الطَّيِّبَ الرِّيحِ ، نَكّاحَ النِّساءِ ، ذا النَّسْلِ القليلِ ، إنما نَسْلُه مِن مُبارَكَةٍ لها بيتٌ - يعنى فى الجَنَّةِ - مِن قَصَبٍ ، لا نَصَبَ فيه ولا صَخَبَ ، تُكَفِّلُه - يا عيسى - فى آخِرِ الزَّمانِ كما كَفَّلَ زكريّا أُمَّك ، له منها فَرْخان مستشهِدان ، وله عِنْدِى منزلةٌ ليست لأحدٍ مِن البَشَرِ ، كلامُه القرآنُ ، ودِينُه الإسلامُ ، وأنا السّلامُ ، طُوبَى لِمَن أَدْرَكَ زمانَه ، وشَهِدَ أيّامَه ، وسَمِعَ كَلامَه .

---

(١) سقط من : ص.

(1) بيانُ شَجَرَةِ طُوبَى مَا هى (1)

قال عيسى : يا ربِّ ، وما طُوبَى ؟ قال : غَرْسُ شجرةٍ أنا غَرَسْتُها بيدَىَّ فهى للجِنَانِ كلِّها ، أَصْلُها مِن رِضْوانٍ ، وماؤُها مِن تَسْنِيمٍ ، وبَرْدُها بَرْدُ الكافورِ ، وطَعْمُها طَعْمُ الزَّنْجَبِيلِ ، ورِيحُها رِيحُ المِسْكِ ، مَنْ شَرِبَ منه شَرْبَةً لم يَظْمَأْ بعدَها أبدًا . قال عيسى : يارِبِّ ، اسْقِنِى منها . قال : حرامٌ على النَّبِيِّين أَنْ يَشْرَبُوا منها ، حتَّى يَشْرَبَ ذلك النَّبِىُّ ، وحرامٌ على الأُمَمِ أَنْ يَشْرَبُوا منها ، حتَّى (2) تَشْرَبَ منها (2) أُمَّةُ ذلك النَّبِىِّ . قال : يا عيسى ، أَرْفَعُكَ إلىَّ . قال : يا رَبِّ ، ولِمَ تَرْفَعُنى ؟ قال : أَرْفَعُكَ ثُمَّ أُهْبِطُكَ فى آخِرِ الزَّمانِ ؛ لِتَرَى مِن أُمَّةِ ذلك النبىِّ العجائبَ ، ولِتُعِينَهم على قتالِ اللَّعِينِ الدَّجَّالِ ، أُهْبِطُكَ فى وَقْتِ صلاةٍ ، ثُم لا تُصَلِّى بهم ؛ لأَنَّها أُمةٌ مَرْحُومَةٌ ، ولا نَبِىَّ بعدَ نَبِيِّهم .

وقال هشامُ بنُ عَمَّارٍ ، عن الوليدِ بنِ مُسْلِمٍ ، عن عبدِ الرحمنِ بنِ زَيْدٍ ، عن أبيه ، أَنَّ عيسى قال : يا رَبِّ ، أَنْبِئْنى عن هذه الأُمَّةِ المَرْحُومَةِ . قال : أُمَّةُ أَحْمَدَ ، هم علماءُ حكماءُ ، كأَنَّهم أنبياءُ ، يَرْضَوْنَ منِّى بالقليلِ مِن العطاءِ ، وأَرْضَى منهم باليَسيرِ مِن العملِ ، وأُدْخِلُهمُ الجَنَّةَ بلا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، يا عيسى ، هم أَكْثَرُ سُكَّانِ الجَنَّةِ ؛ لأنه لمْ تَذِلَّ أَلْسُنُ قومٍ قَطُّ بلا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كما ذَلَّتْ أَلْسِنَتُهم ، ولمْ تَذِلَّ رِقَابُ قَوْمٍ قَطُّ بالسُّجودِ كما ذَلَّتْ به رقابُهم . رواه ابنُ عساكرَ (3) .

(1 - 1) ليس فى : الأصل ، ص .

(2 - 2) في ص : « تشهد » .

(3) فى تاريخ دمشق ١٤/٤٣ مخطوط .

ورَوَى[1] مِن طريقِ عبدِ بنِ بُدَيْلٍ العُقَيْلِيِّ ، عن عبدِ اللَّهِ بنِ عَوْسَجَةَ ، قال : أَوْحَى اللَّهُ إلى عيسى ابنِ مَرْيَمَ : أَنْزِلْنى مِن نَفْسِك كَهَمِّكَ ، واجْعَلْنى ذُخْرًا لكَ فى مَعادِكَ ، وتَقَرَّبْ إلىَّ بالنَّوافِلِ أُحِبَّكَ ، ولا تَوَلَّ غيرِى فأَخْذُلَكَ ، اصْبِرْ على البلاءِ ، وارْضَ بالقضاءِ ، وكُنْ لمَسَرَّتى فيكَ ، فإنَّ مَسَرَّتى أَنْ أُطاعَ فلا أُعْصَى ، وكُنْ مِنِّى قريبًا ، وأَحْيِ ذِكْرِى بلسانِكَ ، ولْتَكُنْ مَوَدَّتى فى صَدْرِكَ ، تَيَقَّظْ مِنْ ساعاتِ الغَفْلَةِ ، واحْكُمْ لى لَطِيفَ الفِطْنَةِ ، وكُنْ لى راغِبًا راهِبًا ، وأَمِتْ قَلْبَكَ مِن الخَشْيَةِ لى ، ورَاعِ اللَّيْلَ لحَقِّ مَسَرَّتى ، وأَظْمِ نهارَكَ ليومِ الرِّىِّ عندِى ، نافِسْ فى [١/٢٦١ظ] الخيراتِ جَهْدَك ، وأَعْرِفْ[2] بالخيرِ حيثُ تَوَجَّهْتَ ، وقُمْ فى الخلائقِ بنصيحتى ، واحكُمْ فى عبادِى بعَدْلِى ، فقد أَنْزَلْتُ عليكَ شِفاءَ وَساوِسِ الصُّدورِ مِن مرضِ النِّسْيانِ ، وجِلاءَ الأَبصارِ مِن غِشاءِ الكَلالِ ، ولا تَكُنْ حَلِسًا[3] كأنَّك مقبوضٌ وأنتَ حَىٌّ تَنَفَّسُ ، يا عيسى ابنَ مريمَ ، ما آمَنَتْ بِى خَلِيقَةٌ إلَّا خَشَعَتْ ، ولا خَشَعَتْ لى إلَّا رَجَتْ ثَوابِى ، فأُشْهِدُك أنَّها آمِنةٌ مِن عِقابِى ، ما لم تُغَيِّرْ أو تُبَدِّلْ سُنَّتى ، يا عيسى ابنَ مريمَ البِكْرِ البَتُولِ ، ابْكِ على نَفْسِكَ أيامَ الحياةِ بُكاءَ مَنْ وَدَّعَ الأَهْلَ ، وَقَلَا الدُّنْيا ، وتَرَكَ اللَّذَّاتِ لأَهْلِها ، وارْتَفَعَتْ رَغْبَتُه فيما عِنْدَ إلَهِه ، وكُنْ فى ذلكَ تُلِينُ الكلامَ ، وتُفْشِى السَّلامَ ، وكُنْ يَقْظانَ إذا نامتْ عُيونُ الأَبْرارِ ، حَذَارِ ما هو آتٍ مِن أمرِ المَعَادِ ، وزلازِلَ شدائِدِ الأَهْوالِ ، قبلَ أَن لا يَنْفَعَ أهلٌ ولا مالٌ ، واكْحَلْ عينَك بمُلْمُولِ[4] الحُزْنِ

---

(١) المصدر السابق ١٤/ ٤٤.

(٢) فى ح ، م ، ص : « اعترف » ، وقال ابن عساكر في تاريخ دمشق : تفسيره ؛ ولتعرف بالخير .

(٣) رجل حلس ، أى ملازمٌ مكانه لا يبرحه .

(٤) فى الأصل : « بميل » . وح ، م ، ص « بملول » . والمثبت من تاريخ دمشق . والملمول المكحال . اللسان (م ل ل) .

إذا ضَحِكَ البَطَّالون ، وكُنْ في ذلك صابِرًا مُحْتَسِبًا ، فطُوبَى لك إن نالكَ ما وَعَدْتُ الصَّابرين ، رَجِّ مِن الدُّنيا باللَّهِ يومٌ بيوم ، وذُقْ مَذاقَةَ ما قَدْ هَرَبَ[1] مِنْك أين طَعْمُه ، وما لم يَأْتِكَ كيْفَ لذَّتُه ، فَرَجٌ مِن الدنيا بالبُلْغَةِ ، ولْيَكْفِكَ منها الخَشِنُ الجَشِيبُ[2] ، قد رأيتَ إلى مَا تَصِيرُ ، اعملْ على حِسَابٍ فإنَّك مسئولٌ ، لو رَأَتْ عَيْنُك ما أعدَدْتُ لأَوْليائِي الصّالحين ، ذابَ قلبُك ، وزَهَقَتْ نَفْسُكَ .

وقال أبو داودَ في كتابِ « القَدَرِ »[3] : حَدَّثنا محمدُ بنُ يَحْيَى ابنِ فارسٍ ، حدّثنا عبدُ الرَّزّاقِ ، حدّثنا مَعْمَرٌ ، عن الزُّهْرِيِّ ، وعن ابنِ طاوُسٍ ، عن أبيه ، قال : لَقِيَ عيسى ابنُ مريمَ إبليسَ ، فقال : أَمَا عَلِمْتَ أنه لن يُصِيبَكَ إلَّا ما كُتِبَ لك ؟ قال إبليسُ : فارْقَ بِذِرْوَةِ هذا الجبلِ ، فَتَرَدَّ منه ، فانْظُرْ تعيشُ أَمْ لا ؟ فقال ابنُ طاوُسٍ ، عن أبيه : فقال عيسى : أمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ قال : لا يُجَرِّبُنِي عبدِي ، فإنِّي أَفْعَلُ ما شِئْتُ . وقال الزُّهْرِيُّ : إنَّ العبدَ لا يَبْتَلِي رَبَّهُ ، ولكنَّ اللَّهَ يَبْتَلِي عبدَه .

قال أبو داودَ[4] : حدَّثنا أحمدُ بنُ عَبْدَةَ ، أَنبأنا سُفيانُ ، عن عمرٍو[5] ، عن طاوُسٍ قال : أَتَى الشَّيطانُ عيسى ابنَ مريمَ ، فقال : أَلَيْسَ تَزْعُمُ أَنَّكَ صادقٌ ؟ فَأْتِ هذه[6] فَأَلْقِ نَفْسَكَ . قال : وَيْلَكَ ! أَلَيْس قالَ : يا ابنَ آدمَ ، لا تَسْأَلْنِي هَلاكَ نَفْسِكَ ، فإنِّي أَفْعَلُ ما أَشَاءُ .

---

(١) في ح ، م : « حرب » .
(٢) أي الغليظ .
(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٥/١٤ مخطوط ، من طريق محمد بن يحيى به .
(٤) المصدر السابق من طريق أبي داود به .
(٥) في الأصل : « عمر » . وفي ص : « عمرو بن طاوس » . وهو عمرو بن دينار . انظر مصدر التخريج .
(٦) في ح ، م : « هوة » .

وَحَدَّثنا[1] أبو تَوْبَةَ الرَّبِيعُ بنُ نافعٍ، حدّثنا حسينُ بنُ طلحةَ، سمعتُ خالدَ ابنَ يزيدَ، قال: تَعَبَّدَ الشَّيطانُ مع عيسى عَشْرَ سنينَ أو سَنَتَيْنِ، أَقامَ يومًا على شَفِيرِ جبلٍ، فقالَ الشَّيطانُ: أَرَأَيْتَ إنْ أَلقيْتُ نفسى، هل يصيبُنى إلّا ما كُتِبَ لى؟ قال: إنِّى لستُ بالذى أَبْتَلِى ربِّى [١/٢٦٢و] (٢ولكنَّ ربِّى٢) إذا شاءَ ابْتَلانى. وعَرَفَ أنّه الشَّيطانُ، فَفارَقَه.

وقال أبو بكرٍ ابنُ أبِى الدُّنيا[3]: حَدَّثَنا سُرَيجُ[4] بنُ يونُسَ، حَدَّثنا علىُّ بنُ ثابتٍ، عن الخطّابِ بنِ القاسِمِ، عن أبى عثمانَ، قال: كان عيسى، عليه السلامُ، يُصَلِّى على رَأْسِ جبلٍ، فأتاه إبليسُ، فقال: أنتَ الذى تَزْعُمُ أَنَّ كُلَّ شَىْءٍ بقضاءٍ وقَدَرٍ؟ قال: نعم. قال: أَلْقِ نَفْسَكَ مِن هذا الجبلِ وقُلْ: قَدَرٌ عَلَىَّ. فقال: يا لَعِينُ، اللَّهُ يَخْتَبِرُ العِبادَ، وليس العبادُ يَخْتَبِرون اللَّهَ، عزَّ وجلَّ. وقال أيضًا[3]: حَدَّثَنا الفَضْلُ بنُ موسى البَصْرِىُّ، حدّثنا إبراهيمُ بنُ بَشّارٍ[5]، سَمِعْتُ سُفْيانَ بنَ عُيَيْنَةَ يقولُ: لَقِىَ عيسى ابنَ مريمَ إبليسُ، فقال له إبليسُ: يا عيسى ابنَ مريمَ، أنتَ الذى بلَغ مِن عِظَمِ رُبُوبِيَّتِك أنَّكَ تَكَلَّمْتَ فى المَهْدِ صَبِيًّا، ولم يتكلَّمْ فيه أَحَدٌ قَبْلَكَ. قال: بل الرُّبُوبِيَّةُ للإلهِ الذى أَنْطَقَنى، ثم يُمِيتُنى، ثم يُحْيِينى. قال: فأَنتَ الذى بلَغ مِن عِظَمِ رُبُوبِيَّتِك أَنَّكَ تُحْيِي المَوْتَى. قال: بل الرُّبُوبِيَّةُ للَّهِ الذى يُحْيِي ويُمِيتُ مَنْ أَحْيَيْتُ ثُمَّ يُحْيِيه. قال: واللَّهِ إنَّك

---

(١) القائل أبو داود. المصدر السابق من طريق أبي داود به.
(٢ - ٢) سقط من: الأصل.
(٣) المصدر السابق، من طريق ابن أبى الدنيا به.
(٤) فى النسخ: «شريح». والمثبت من مصدر التخريج. وانظر تهذيب الكمال ١٠/ ٢٢١.
(٥) فى ص: «يسار».

لإلهٌ فى السماءِ وإلهٌ فى الأرضِ. قال: فصَكَّه جِبْرِيلُ صَكَّةً بجَناحِه، فمَا تَناهَى دونَ قرونِ[1] الشَّمْسِ، ثم صَكَّه أُخرَى بجَناحِه، فما تَناهَى دونَ العَيْنِ الحامِيَةِ، ثُم صَكَّه أُخرَى، فأَدْخَلَه بحارَ السَّابعةِ، فَأَسَاخَه - وفى رِوايةٍ: فأَسْلَكَه - فيها حتى وجد طَعْمَ الحَمْأَةِ، فخرَج منها وهو يقولُ: ما لَقِيَ أَحَدٌ مِن أَحدٍ ما لَقِيتُ مِنْكَ يا ابنَ مريمَ.

وقد رُوِىَ نحوُ هذا بأَبْسَطَ منه مِن وجهٍ آخرَ؛ فقال الحافظُ أبو بكرٍ الخطيبُ[2]: أخْبَرَنى أبو الحسنِ بنُ رَزْقَوَيْه، أنْبَأَنا أبو بكرٍ أحمدُ بنُ سِنْدِيٍّ[3]، حدَّثنا أبو محمدٍ الحسنُ بنُ عليٍّ القَطّانُ، حَدَّثنا إسماعيلُ بنُ عيسى العطَّارُ، أنْبَأَنا عليُّ بنُ عاصمٍ، حدَّثنى أبو سَلَمَةَ سُوَيْدٌ عن بعضِ أصحابِه، قال: صَلَّى عيسى ببيتِ المَقْدِسِ فانصرفَ، فلمّا كان ببعضِ العقبةِ[4]، عَرَضَ له إبليسُ فاحْتَبَسَه، فجَعَل يَعْرِضُ عليه ويُكَلِّمُه ويقولُ له: إنّه لا ينْبَغِى لك أن تَكُونَ عَبْدًا. فأَكْثَرَ عليه، وجعَل عيسى يَحْرِصُ على أنْ يتَخَلَّصَ منه، فجعلَ لا يَتَخلَّصُ منه، فقال له فيما يقولُ: لا ينْبَغِى لكَ يا عيسى أنْ تكونَ عَبْدًا. قال: فاستغاثَ عيسى بربِّهِ، فأَقْبَلَ جِبْرِيلُ وميكائيلُ، فلمّا رَآهما إبليسُ، كَفَّ، فلَمَّا استقرَّا معه على العقبةِ، اكْتَنَفَا عيسى، وضرَب جِبْرِيلُ إبليسَ بجَناحِه، فقذَفَه فى بَطْنِ الوادِى. قال: فعاد إبليسُ معه، وعَلِمَ أنَّهما لم يُؤْمَرَا بغيرِ ذلك، فقال لعيسى: قد أخْبَرْتُك أنّه لا يَنْبَغِى أنْ تَكونَ عَبْدًا، إنَّ غَضَبَكَ [١/٢٦٢ظ] ليس

---

(١) كذا في النسخ. وفي تاريخ دمشق: «فوق».
(٢) المصدر السابق ١٤/٤٦، من طريق أبي بكر الخطيب به.
(٣) في الأصل: «مسدى». وفى م: «سبدى».
(٤) العقبة: طريق في الجبل وعر. اللسان (ع ق ب).

بِغَضَبِ عَبْدٍ ، وقد رأيتَ ما لَقِيتُ منك حينَ غَضِبْتَ ، ولكنْ أَدْعُوكَ إلى أَمْرٍ هو لكَ ؛ آمُرُ الشياطينَ فَلْيُطِيعُوكَ ، فإذا رَأَى البَشَرُ أنَّ الشياطينَ قد أطاعوكَ ، عَبَدُوكَ ، أَمَا إنّى لا أقولُ أنْ تَكونَ إلهًا ليسَ معه إلهٌ ، ولكنَّ اللَّهَ يكونُ إلهًا فى السَّماءِ ، وتكونُ أنتَ إلهًا فى الأرضِ . فلمّا سَمِعَ عيسى ذلك منه ، استغاثَ بربِّه ، وصَرَخ صَرْخَةً شديدةً ، فإذا إسرافيلُ قد هَبَطَ ، فنَظَرَ إليه جِبْرِيلُ وميكائيلُ ، فَكَفَّ إبليسُ ، فَلَمَّا استقرَّ معهم ، ضرَب إسرافيلُ إبليسَ بجَناحِه ، فَصَكَّ به عَيْنَ الشَّمْسِ ، ثم ضرَبَه ضَرْبَةً أُخْرَى ، فأَقْبَلَ إبليسُ يَهْوِى ، ومَرَّ بعيسى وهو بمكانِه ، فقال : يا عيسى ، لقد لَقِيتُ فيك اليومَ تَعَبًا شديدًا . فرَمَى به فى عَيْنِ الشَّمْسِ ، فوجَد سَبْعَةَ أَمْلاكٍ عندَ العَيْنِ الحاميةِ . قال : فَغَطُّوه ، فجَعَل كُلَّما خرجَ[1] غَطُّوه فى تلك الحَمْأَةِ . قال : واللَّهِ ما عادَ إليه بَعْدُ .

قال[2] : وَحَدَّثنا إسماعيلُ العَطّارُ ، حدَّثنا أبو حُذَيْفَةَ ، قال : واجْتَمَعَ إليهِ شَياطِينُه ، فقالوا : سَيِّدَنا ، قَدْ لَقِيتَ تَعَبًا . قال : إنَّ هذا عبدٌ مَعْصُومٌ ، ليس لى عليه مِن سبيلٍ ، وسَأُضِلُّ به بَشَرًا كثيرًا ، وأَبُثُّ فيهم أَهْوَاءً مختلفةً ، وأَجْعَلُهم شِيَعًا ، ويَجْعَلونَه وأُمَّه إلهَيْنِ مِن دونِ اللَّهِ . قال : وأَنْزَلَ اللَّهُ فيما أَيَّدَ به عيسى وعَصَمَه مِن إبليسَ قرآنًا ناطِقًا بِذِكْرِ نِعْمَتِه على عيسى ، فقال : ﴿ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ ﴾ . [3]يَعْنى : إذْ قَوَّيْتُكَ بُروحِ القُدُسِ ، يَعْنى جِبْرِيلَ[3] ﴿ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ

---

(١) فى ح ، م : « صرخ » .

(٢) المصدر السابق ٤٦/١٠٤ ، ٤٧ .

(٣ - ٣) سقط من : الأصل .

وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾، يعنى، الإنجيلَ والتَّوراةَ والحِكْمَةَ، ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ ﴾ الآية [المائدة: ١١٠]. وإذْ جَعَلْتُ المساكينَ لَكَ بِطَانَةً وصَحَابةً وأعْوانًا تَرْضَى بهم، وصحابةً وأعوانًا يَرْضَوْنَ بك هادِيًا وقائِدًا إلى الجنَّةِ، فذلك، فاعْلَمْ، خُلُقَانِ عظيمان، مَنْ لَقِيَنى بهما، فقد لَقِيَنى بأزْكَى الخلائقِ وأَرْضاها عِنْدِى، وسيقولُ لك بنو إسْرائيلَ: صُمْنا فلم يَتَقَبَّلْ صِيامَنا، وصَلَّيْنا فلم يَقْبَلْ صَلاتَنا، وتَصَدَّقْنا فلم يَقْبَلْ صَدَقَتَنا، وبَكَيْنا بِمِثْلِ حَنِينِ الجِمالِ فلم يَرْحَمْ بكاءَنا. فَقُلْ لهم: وَلِمَ ذلك؟ وما الذى يَمْنَعُنى؟ أَنَّ ذاتَ يدى قَلَّتْ؟! أوَ ليس خزائنُ السماواتِ والأرضِ بِيَدِى أُنْفِقُ مِنْها كيفَ أَشاءُ، أو أنَّ البُخْلَ يَعْتَرِينى[1]؟ أوَ لستُ أَجْوَدَ مَنْ سُئِلَ، وأَوْسَعَ مَنْ أَعْطَى، أَوْ أنَّ رحمتى ضَاقَتْ؟ وإنَّما يتراحمُ المتراحِمون بفَضْلِ رَحْمَتِى، ولولا أَنَّ هؤلاءِ القومَ، يا عيسى ابنَ مريمَ، عَدُّوا[2] أنفسَهم بالحِكْمَةِ التى تُورِثُ فى قلوبِهم ما اسْتأْثَروا به الدُّنْيا أَثَرَةً على الآخِرَةِ، لَعَرَفُوا مِن أَيْنَ أُتُوا، وإذًا لأَيْقَنُوا أَنَّ أَنْفُسَهم هى أَعْدَى الأَعْدَاءِ لهم، وكيف أَقْبَلُ صيامَهم وهم يَتَقَوَّوْنَ عليه بالأَطْعِمَةِ [١/ ٢٦٣و] الحرامِ؟! وكيف أَقْبَلُ صَلاتَهم وقُلوبُهم تَرْكَنُ إلى الذين يُحارِبونى ويَسْتَحِلُّون مَحَارِمى؟! وكيفَ أَقْبَلُ صَدَقاتِهم وهم يَغْصِبُونَ النَّاسَ عليها، فيأْخُذونها مِن غيرِ حِلِّها؟! يا عيسى، إنَّما أَجْزِى عليها أَهْلَها، وكيف أَرْحَمُ بُكَاءَهم وأَيْدِيهم تَقْطُرُ مِن دِماءِ الأنبياءِ، ازْدَدْتُ عليهم غَضَبًا، يا عيسى، وقَضَيْتُ يَوْمَ خَلَقْتُ السَّماواتِ والأَرْضَ، أنَّه مَنْ عَبَدَنى وقال فيكما بِقَوْلى، أَنْ أَجْعَلَهُم جِيرانَكَ فى الدَّارِ، ورُفَقاءَكَ فى المنازِلِ، وشُرَكاءَكَ فى الكرامَةِ،

---

(١) فى ح، م: «لا يعترينى».
(٢) كذا فى النسخ والتاريخ، ولعلها «غروا».

وقَضَيْتُ يومَ خَلَقْتُ السَّماواتِ والأَرضَ، (1) أَنَّه مَنِ اتَّخَذَكَ وأُمَّكَ إِلـهَيْنِ مِن دونِ اللَّهِ أَنْ أَجْعَلَهُم فى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِن النّارِ، وَقَضَيْتُ يومَ خَلَقْتُ السَّماواتِ والأَرْضَ (1)، أَنّى مُثَبِّتٌ (2) هذا الأَمرَ على يَدَىْ عبدِى (3) محمدٍ، وأَخْتِمُ به الأَنبياءَ والرُّسُلَ، ومَوْلِدُه بمكَّةَ، ومُهاجَرُه بطَيْبَةَ، ومُلْكُه بالشّامِ، ليس بفَظٍّ ولا غليظٍ ولا سَخّابٍ فى الأَسواقِ، ولا مُتَزَيِّنٍ (4) بالفُحْشِ، ولا قَوّالٍ بالخَنَا، أُسَدِّدُه لكلِّ أَمْرٍ جميلٍ، وأَهَبُ له كُلَّ خُلُقٍ كريمٍ، أَجْعَلُ التَّقْوَى ضَمِيرَه (5)، والحِكْمَةَ مَعْقُولَه، والوَفاءَ طبيعَتَه، والعَدْلَ سيرَتَه، والحقَّ شريعَتَه، والإِسلامَ مِلَّتَه، واسمُه أحمدُ، أَهْدِى به بعدَ الضَّلالَةِ، وأُعَلِّمُ به بعدَ الجَهالَةِ، وأُغْنِى به بعدَ العائِلةِ، وأَرْفَعُ به بعدَ الضَّعَةِ، أَهْدِى به، وأَفْتَحُ به بينَ آذانٍ صُمٍّ وقلوبٍ وأهواءٍ مختلفةٍ متفرِّقَةٍ، أجعلُ أُمَّتَه خيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنّاسِ، تَأْمُرُ بالمَعْروف وتَنْهَى عن المُنْكَرِ؛ إِخْلاصًا لاسْمِى، وتَصْدِيقًا لما جاءتْ به الرُّسُلُ، أُلْهِمُهم التَّسْبِيحَ والتَّهْليلَ والتَّقْدِيسَ فى مساجدِهم ومجالسِهم وبُيوتِهم ومنقَلَبِهم ومثواهُم، يُصَلُّون لى قِيامًا وقُعُودًا، ورُكَّعًا وسُجَّدًا، ويُقاتِلون فى سبيلى صُفُوفًا وزُحوفًا، قُرْبانُهم دماؤُهم، وأَنَاجيلُهم فى صدورِهم، وقُرْبانُهم فى بطونِهم، رهبانٌ بالليلِ، لُيوثٌ بالنَّهارِ، ذلك فَضْلِى أُوتِيه مَنْ أشاءُ، وأنا ذو الفَضْلِ العظيمِ.

(1 - 1) سقط من الأصل، ص.

(2) فى ص: «شئت»، وفى تاريخ دمشق: «مسبب».

(3) زيادة من: ح، م.

(4) فى ح، م: «يزر».

(5) فى الأصل: «ظهيره».

وسَنَذْكُرُ ما يُصَدِّقُ كثيرًا مِن هذا السِّياقِ ، بمَا سَنُورِدُه مِن سُورَتَيِ « المائدةِ » و « الصَّفِّ » ، إن شاءَ اللَّهُ تَعالَى ، وبه الثِّقَةُ . وقد رَوَى أبو حذيفةَ إسحاقُ بنُ بِشْرٍ[1] بأسانيدِه عن كَعْبِ الأَحْبارِ ، ووَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ ، وابنِ عَبّاسٍ وسَلْمَانَ الفارسِيِّ - دَخَل حديثُ بعضِهم فى بعضٍ - قالوا : لَمَّا بُعِثَ عيسى ابنُ مريمَ وجاءَهم بالبَيِّناتِ ، جعَل الكافرون والمنافقون مِن بنى إسرائيلَ يَعْجَبُون منه ويَسْتَهْزِئون به فيقولون : ما أَكَل فلانٌ البارحةَ ، وما ادَّخر فى بَيْتِه ؟ فيُخْبِرُهم ، فَيَزْدادُ المؤمنون إيمانًا ، والكافرون والمنافقون شَكًّا وكُفْرَانًا ، وكان عيسى ، مع ذلك ، ليس له مَنْزِلٌ يَأْوِى إليه ، إنَّما يَسِيحُ فى الأَرْضِ ، ليس له قَرَارٌ ولا مَوْضِعٌ يُعْرَفُ به ، فكان أَوَّلَ ما أَحْيَا مِن المَوْتَى ، أَنَّه مَرَّ ذاتَ يَوْمٍ على امْرَأَةٍ قاعِدَةٍ عندَ قَبْرٍ وهى تَبْكِى ، [٢٦٣/١ظ] فقال لها : مَا لكِ أَيَّتُها المرأةُ ؟ فقالت : ماتت ابنةٌ لى ، لَم يَكُنْ لى ولدٌ غيْرَها ، وإنِّى عاهَدْتُ رَبِّى أن لا أَبْرَحَ مِنْ مَوْضِعى هذا ، حتَّى أَذُوقَ ما ذاقتْ مِن الموْتِ ، أو يُحْيِيَها[2] اللَّهُ لى فأَنْظُرَ إليها . فقال لها عيسى : أَرَأَيْتِ إنْ نَظَرْتِ إليها أراجِعَةٌ أنتِ ؟ قالت : نعم . قالوا : فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ جاءَ فجلَس عندَ القَبْرِ ، فنادَى : يا فلانةُ ، قُومِى بإذْنِ الرّحمنِ فاخْرُجِى . قال : فتحَرَّكَ القبْرُ ، ثُمَّ نادَى الثانيةَ ، فانْصَدَعَ القَبْرُ بإذنِ اللَّهِ ، ثُمَّ نادى الثالثةَ ، فخَرَجَتْ وهى تَنْفُضُ رَأْسَها مِن التُّرابِ ، فقال لها عيسى : ما بَطَّأَ بكِ عنِّى ؟ فقالت : لَمَّا جاءَتْنى الصَّيْحَةُ الأُولَى بعَث اللَّهُ لى مَلَكًا فرَكَّبَ خَلْقِى ، ثُمَّ جاءَتْنى الصَّيْحَةُ الثانيةُ ، فرَجَعَ إلَىَّ رُوحِى ، ثم جاءَتْنى

(١) المصدر السابق ٤٧/١٤ ، ٤٨ ، من طريق إسحاق بن بشر به .
(٢) فى ح : « يهبها » .

الصَّيْحَةُ الثالثةُ ، فخِفْتُ أَنَّها صَيْحَةُ القيامةِ ، فشابَ رَأْسِى وحاجِبَاىَ وأَشْفَارُ عَيْنِى ؛ مِنْ مَخَافَةِ القِيامَةِ . ثم أَقْبَلَتْ على أُمِّها فقالت : يا أُمَّتَاهُ ، ما حَمَلَكِ على أنْ أَذُوقَ كَرْبَ الموتِ مَرَّتَين ؟ يا أُمَّتَاهُ ، اصْبِرى واحْتَسِبى ، فلا حاجَةَ لى فى الدُّنْيا ، يا رُوحَ اللَّهِ وكلمتَه ، سَلْ رَبِّى أَنْ يَرُدَّنِى إلى الآخرةِ ، وأن يُهَوِّنَ علىَّ كَرْبَ الموتِ . فدَعا رَبَّه فَقَبَضَهَا إليه ، واسْتَوَتْ عليها الأرضُ ، فبلَغ ذلك اليهودَ ، فازْدادوا عليه غَضَبًا .

وَقَدَّمْنَا فى قِصَّةِ نوحٍ ، أَنَّ بنى إسرائيلَ سَأَلُوه أَن يُحْيِىَ لهم سامَ بنَ نوحٍ ، فدعا اللَّهَ ، عزَّ وجلَّ ، وصَلَّى له ، فأَحياه اللَّهُ لهمْ ، فَحَدَّثَهم عن السَّفينةِ وأَمْرِها ، ثم دعا فعادَ تُرابًا[1] .

وقد روَى السُّدِّىُّ ، عن أبى صالحٍ وأبى مالكٍ ، عن ابنِ عَبَّاسٍ ، فى خبرٍ ذَكَرَه ، وفيه أنَّ مَلِكًا مِن مُلوكِ بَنِى إسرائيلَ مات وحُمِلَ على سَرِيرِه ، فجاء عيسى ، عليه السلامُ ، فدعا اللَّهَ ، عزَّ وجلَّ ، [2]فأَحْياهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ[2] ، فرأَى النَّاسُ أَمْرًا هائِلًا ومَنْظَرًا عجيبًا .

قال اللَّهُ تعالى وهو أصدقُ القائلين[3] : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ

---

(1) تقدم ذلك ١/٢٧١ .

(٢ - ٢) سقط من : ح .

(3) التفسير ٣/٢١٨ ، ٢١٩ .

ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة: ١١٠، ١١١]. يُذَكِّرُه تعالى بنِعْمَتِه عليه، وإحْسَانِه إليه في خَلْقِه إياه مِن غيرِ أَبٍ، بل مِن أُمٍّ بلا ذَكَرٍ، وجَعْلِه له آيةً للنّاسِ، ودَلالةً على كمالِ قُدْرَتِه تعالى، ثُمَّ إرسالِه بعدَ هذا كلِّه ﴿ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴾ في اصطفائِها واختيارِها لهذه النِّعْمَةِ العظيمةِ، [٢٦٤/١و] وإقامةِ البُرْهانِ على بَراءَتِها مِمّا نَسَبَها إليه الجاهلون؛ ولهذا قال: ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ وهو جبريلُ، بإلْقاءِ رُوحِه إلى أُمِّه، وقَرْنِه معه في حالِ رِسَالتِه، ومُدَافَعَتِه عَنْه لِمَنْ كفر به ﴿ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ أي؛ تَدْعُو النّاسَ إلى اللّهِ في حالِ صغَرِك في مَهْدِك، وفي كُهولَتِك ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ أي؛ الخَطَّ والفَهْمَ. نَصَّ عليه بعضُ السَّلَفِ ﴿ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ وقولُه: ﴿ وإذ تخلق من الطين كهيئة[٢] ﴾ أي؛ تُصَوِّرُه وتُشَكِّلُه مِن الطِّينِ على هَيْئَتِه، عن أمرِ اللّهِ له بذلك ﴿ فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ﴾ أي؛ بِأَمْرِي. يُؤَكِّدُ تعالى بذِكْرِ الإذْنِ له في ذلك؛ لرَفْعِ التَّوَهُّمِ. وقولُه: ﴿ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ ﴾ قال بعضُ السَّلَفِ: وهو الذي يُولَدُ أَعْمَى، ولا سبيلَ لأَحَدٍ مِن الحُكَماءِ إلى مُداوَاتِه ﴿ وَٱلْأَبْرَصَ ﴾ وهو الذي لا طِبَّ فيه، بَلْ قد مَرِضَ بالبَرَصِ وصارَ داؤُه[١] عُضَالًا ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي؛ مِن قبورِهم أحياءً بإِذْنِي. وقد تَقَدَّم ما فيه دلالةٌ على وقوعِ ذلك مِرارًا مُتَعَدِّدةً

---

(١) في الأصل، ص: «دواؤه».
(٢) وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني.

مما فيه كِفايةٌ. وقولُه: ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ وذلك حينَ أرادُوا صَلْبَه فرَفَعَه اللَّهُ إليه، وأنقَذَه مِن بينِ أظْهُرِهم؛ صِيانةً لجَنابِه الكريمِ عن الأذى، وسلامَةً له مِن الرَّدَى. وقولُه: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ قيل: المرادُ بهذا الوَحْيِ وَحْيُ إلْهامٍ[1]. أي أرْشَدَهم اللَّهُ إليه، ودَلَّهم عليه، كما قال: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ [النحل: ٦٨]. ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ [القصص: ٧]. وقيل: المرادُ وَحْيٌ بواسِطَةِ الرّسولِ، وتَوْفِيقٌ في قلوبِهم لقَبولِ الحقِّ؛ ولهذا استجابُوا قائلين: ﴿ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾.

وهذا مِن جُمْلَةِ نِعَمِ اللَّهِ على عَبْدِه ورسولِه عيسى ابنِ مريمَ؛ أنْ جعَل له أنصارًا وأعْوانًا وحَوارِيين يَنْصُرونه ويَدْعُون معه إلى عبادةِ اللَّهِ وحدَه لا شريكَ له، كما قال تعالى لعَبْدِه محمدٍ ﷺ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣]. وقال تعالى[2]: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٤٨ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ

---

(١) في ص: «المنام».
(٢) التفسير ٢/٣٥ - ٣٧.

وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا [١/٢٦٤ظ] لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٨- ٥٤].

كانت مُعْجِزَةُ كُلِّ نبيٍّ فى زمانِه بما يُناسِبُ أهلَ ذلك الزمانِ؛ فذَكَرُوا أنَّ موسى، عليه السَّلامُ، كانت مُعْجِزَتُه مِمّا يُناسِبُ أهْلَ زمانِه، فكانوا سَحَرَةً أذْكياءَ، فبُعِثَ بآياتٍ بَهَرَتِ الأَبْصارَ، وخَضَعَتْ لها الرِّقابُ، ولمّا كان السَّحَرَةُ خَبيرِين بفُنونِ السِّحْرِ وما يُنْتَهَى إليهِ، وعايَنُوا ما عايَنُوا مِن الأَمْرِ الباهرِ الهائلِ، الذى لا يمكنُ صدورُه إلّا مِمَّن أيَّدَه اللَّهُ وأجْرَى الخارِقَ على يَدَيْه تَصْدِيقًا له، أَسْلَمُوا سِرَاعًا، ولم يَتَلَعْثَمُوا، وهكذا عيسى ابنُ مريمَ بُعِثَ فى زَمَنِ الطَّبائِعيَّةِ الحُكَماءِ، فأُرْسِلَ بمُعْجِزاتٍ لا يَسْتَطيعُونها ولا يَهْتَدُون إليها، وأنَّى لحَكِيمٍ إبراءُ الأَكْمَهِ، الذى هو أَسْوَأُ حالًا مِنَ الأَعْمَى، والأبْرَصِ، والمجْذُومِ، ومَن به مَرَضٌ مُزْمِنٌ، وكيف يَتَوَصَّلُ أحدٌ مِن الخَلْقِ إلى أنْ يُقِيمَ الميِّتَ مِن قَبْرِه، هذا مِمّا يَعْلَمُ كُلُّ أحَدٍ أنَّه[1] معجزةٌ دالَّةٌ على صِدْقِ مَن قامَتْ بِهِ، وعلى قُدْرَةِ مَن أَرْسَلَه، وهكذا محمدٌ، صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه وعليهم أجْمعين، بُعِثَ فى زَمَنِ

(١) سقط من: م.

الفُصَحاءِ البُلَغاءِ، فأنْزَلَ اللَّهُ عليه القرآنَ العظيمَ، الذى لا يَأْتِيهِ الباطلُ مِن بينِ يَدَيْه ولا مِن خَلْفِه، تَنْزِيلٌ مِن حَكِيمٍ حَمِيدٍ، فلَفْظُه مُعْجِزٌ، تَحَدَّى به الإِنْسَ والجِنَّ أَنْ يَأْتُوا بمِثْلِه أو بعَشْرِ سُوَرٍ مِن مِثْلِه أو بسُورَةٍ، وقَطَع عليهم بأنَّهم لا يَقْدِرُون، لا فى الحالِ ولا فى الاستقبالِ، فإن لم يَفعلُوا ولن يَفعلُوا، وما ذاك إلَّا لأنَّه كلامُ الخالقِ، عزَّ وجلَّ، واللَّهُ تعالى لا يُشْبِهُه شَىْءٌ لا فى ذاتِه ولا فى صِفاتِه ولا فى أفعالِه.

والمقصودُ أنَّ عيسى، عليه السلامُ، لَمَّا أَقامَ عليهم الحُجَجَ والبراهينَ، استمرَّ أَكْثَرُهم على كفرِهم وضلالِهم وعِنادِهم وطُغْيانِهم، فانْتَدَبَ له مِن بينِهم طائفةٌ صالحةٌ، (١فَكانوا له١) أَنْصارًا وأَعْوانًا، قاموا بمُتابَعَتِه ونُصْرَتِه ومُناصَحَتِه، وذلك حينَ هَمَّ به بنو إسرائيلَ، ووَشَوْا به إلى بعضِ مُلوكِ ذلك الزَّمانِ، فعَزَمُوا على قَتْلِه وصَلْبِه، فأنْقَذَه اللَّهُ منهم، ورفَعَه إليه مِن بينِ أَظْهُرِهم، وأَلْقَى شِبْهَه على أحدِ أصحابِه، فأخَذُوه فقتلُوه وصَلَبُوه، وهُم يعتقدُونه عيسى، وهم فى ذلك غالِطون، وللحقِّ مكابِرون، وسَلَّمَ لهم كثيرٌ مِن النَّصارَى ما ادَّعَوْه، [١/ ٢٦٥و] وكِلا الفريقَيْن فى ذلك مُخطِئُون، كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾. وقال تعالى[٢]: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝٦ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ

(١ - ١) ليس فى: الأصل، ص.

(٢) التفسير ٨/١٣٥- ١٣٨.

﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٦- ٩]. إلى أن قال بعدَ ذلك[١]: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ۖ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤]. فعيسى، عليه السَّلامُ، هو خَاتَمُ أنبياءِ بنى إسرائيلَ، وقد قام فيهم خطيبًا فبَشَّرَهم بخاتَمِ الأَنبياءِ الآتى بعدَه، ونَوَّهَ باسمِه، وذكَر لهم صِفَتَه ليَعْرِفُوه ويُتَابِعُوه إذا شاهَدُوه؛ إقامةً للحُجَّةِ عليهم، وإحسانًا مِن اللَّهِ إليهم، كما قال تعالى[٢]: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

قال محمدُ بنُ إسحاقَ[٣]: حدَّثنى ثورُ بنُ يزيدَ عن خالدِ بنِ مَعْدَانَ، عن أَصْحابِ رسولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُم قالوا: يارسولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنا عن نَفْسِك. قال:

---

(١) التفسير ٨/ ١٣٩، ١٤٠.

(٢) التفسير ٣/ ٤٨١- ٤٨٨.

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ١٦٦، ومن طريق ابن إسحاق رواه الطبرى فى تفسيره ١/ ٥٥٦، والحاكم في المستدرك ٢/ ٦٠٠، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبى. وانظر السلسلة الصحيحة (١٥٤٥).

« دَعْوَةُ أبى إبراهيمَ ، وبُشْرَى عيسى ، ورَأَتْ أُمِّى حينَ حَمَلَتْ بى كَأَنَّه خرَج منها نُورٌ أَضاءَتْ له قُصُورُ بُصْرَى مِن أَرْضِ الشَّامِ » . وقد رُوِى عن العِرْبَاضِ بنِ سارِيَةَ ، وأبى أمامةَ ، عن النبىِّ ﷺ نحوُ هذا [1] ، وفيه : « دَعْوَةُ أبى إبراهيمَ ، وبُشْرَى عيسى » . وذلك أنَّ إبراهيمَ لمَّا بَنَى الكعبةَ قال : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ الآية [البقرة : ١٢٩] . ولمَّا انتهتِ النُّبُوَّةُ فى بنى إسرائيلَ إلى عيسى ، قام فيهم خَطيبًا ، فَأَخْبَرَهُم أَنَّ النُّبُوَّةَ قد انقطعتْ عنهم ، وأنَّها بعدَه فى النَّبِىِّ العربىِّ الأُمِّىِّ ، خاتَمِ الأَنبياءِ على الإِطْلاقِ ، أحمدَ ، وهوَ محمدُ بنُ عبدِ اللَّهِ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ بنِ هاشمٍ ، الذى هو مِن سُلالَةِ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ ، عليهمُ السّلامُ . قال اللَّهُ تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ . يُحْتَمَلُ عَوْدُ الضَّميرِ إلى عيسى ، عليه السلامُ ، [١/٢٦٥ظ] ويُحْتَمَلُ عَوْدُهُ إلى محمَّدٍ ﷺ ، ثُم حَرَّضَ تعالى عِبادَه المؤمنين على نُصْرَةِ الإِسلامِ وأَهْلِه ، ونُصْرَةِ نَبِيِّه ومؤازَرَتِه ومعاونَتِه على إقامَةِ الدِّينِ ونَشْرِ الدَّعْوَةِ ، فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أى ؛ مَنْ يساعدُنى فى الدَّعوةِ إلى اللَّهِ ﴿ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ وكان ذلك فى قريةٍ يُقالُ لها : النَّاصِرَةُ . فَسُمُّوا النَّصارَى بذلك . قال اللَّهُ تعالى : ﴿ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ﴾ يَعْنى ، لمَّا دَعَا عيسى بنى إسرائيلَ وغيرَهم إلى اللَّهِ تعالى ، منهم مَن آمَن ومِنْهم مَن كَفَرَ ،

---

(١) حديث العرباض رواه ابن جرير فى تفسيره ١/ ٥٥٦. وحديث أبى أمامة رواه أحمد فى المسند ٥/ ٢٦٢، وابن سعد فى الطبقات ١/ ١٠٢، وابن عدى فى الكامل ٦/ ٢٠٥٥، وقال الهيثمى في مجمع الزوائد ٨/ ٢٢٢: رواه أحمد ، وإسناده حسن ، وله شواهد تقويه . قال الألباني فى السلسلة الصحيحة (١٥٤٦): قلت : منها الحديث الذى قبله أى حديث (١٥٤٥) .

فكان مِمَّن آمَن به أهلُ أَنطاكِيَةَ بكَمَالِهم، فيما ذَكَرَه غيرُ واحدٍ مِن أَهْلِ السِّيَرِ والتواريخِ والتَّفْسيرِ، بَعَثَ إليهم رُسُلًا[1] ثلاثةً، أَحَدُهم شَمْعُونُ الصَّفا، فآمنُوا واستجابُوا[2]، وليس هؤلاءِ هم المذكورين فى سورةِ «يس»؛ لِمَا تَقَدَّمَ تقريرُه فى قِصَّةِ أَصْحابِ القَرْيَةِ[3]، وكَفَرَ آخرون مِن بنى إسرائيلَ، وهم جمهورُ اليهودِ، فأيَّدَ اللَّهُ مَن آمَنَ بِه على مَن كفَر فيما بعدُ، وأَصْبَحُوا ظاهِرين عليهم قاهِرين لهم، كما قال اللَّهُ تعالى[4]: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ الآية [آل عمران: ٥٥]. فكُلُّ مَن كان إليه أَقْرَبَ، كان [5]غالبًا لِمَن دُونَه[5]، ولمّا كان قولُ المسلمين فيه هو الحقُّ الذى لا شَكَّ فيه، مِن أنّه عبدُ اللَّهِ ورسولُه، كانوا ظاهرين على النَّصارَى الذين غَلَوْا فيه وأَطْرَوْهُ، وأَنْزَلُوه فوقَ ما أَنْزَلَه اللَّهُ به، ولمّا كان النَّصارَى أَقْرَبَ فى الجُمْلَةِ مِمّا ذهَب إليه اليهودُ فيه[6]، عليهم لعائنُ اللَّهِ، كان النَّصارَى قاهِرين لليهودِ فى أَزْمَانِ الفَتْرَةِ إلى زَمَنِ الإسلامِ وأَهْلِه. واللَّهُ تعالى أعلمُ.

---

(١) سقط من: ح.
(٢) في ص: «استعجلوا».
(٣) تقدم في صفحة ٨- ١٣.
(٤) التفسير ٢/ ٣٧- ٣٩.
(٥ - ٥) في ح، م، ص: «عاليا فمن دونه».
(٦) سقط من: ح، م.

ذِكْرُ خَبرِ المَائدةِ

قال اللَّهُ تعالى[1] : ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة: ١١٢- ١١٥] . قد ذكَرْنا في التفسيرِ الآثارَ الواردةَ في نزولِ المائدةِ ، عن ابنِ عباسٍ ، وسَلْمَانَ الفارسيِّ ، وعَمَّارِ بنِ ياسرٍ ، وغيرِهم مِن السَّلَفِ[2] ، ومضمونُ ذلك ، أنَّ عيسى ، عليه السلامُ ، أَمَرَ الحواريِّينَ [١/٢٦٦و] بصيامِ ثلاثين يومًا ، فلمّا أتمُّوها ، سألُوا مِن عيسى إنزالَ مائدةٍ مِن السَّماءِ عليهم ليأْكُلُوا منها ، وتَطْمَئِنَّ بذلك قلوبُهم ، أنّ اللَّهَ قد تَقَبَّلَ صِيامَهم وأجابَهم إلى طَلِبَتِهم ، وتكونَ لهم عيدًا يُفطِرونَ عليها يومَ فِطْرِهم ، وتكونَ كافيةً لأوَّلِهم وآخِرِهم ، لِغَنِيِّهم وفقيرِهم ، فوَعَظَهم عيسى ، عليه السلامُ ، في ذلك ، وخاف عليهم أن لا يقومُوا بِشُكْرِها ، ولا يُؤَدُّوا حَقَّ شُروطِها ، فأَبَوْا عليهِ إلَّا أن يَسْأَلَ لهم ذلك مِن رَبِّه ، عَزَّ وجلَّ ، فلمَّا لم يُقْلِعُوا عن ذلك ، قامَ إلى مُصَلَّاهُ ولَبِسَ مِسْحًا مِن شَعْرٍ ، وصَفَّ بينَ قَدَمَيْه وأَطْرَقَ رَأْسَه ، وأَسْبَلَ عَيْنَيْه بِالبُكاءِ ، وتَضَرَّعَ

---

(١) التفسير ٢١٩/٣ - ٢٢٦.

(٢) التفسير ٢١٩/٣ - ٢٢٥.

إلى اللَّهِ فى الدُّعاءِ والسُّؤالِ ، أَن يجابُوا إلى ما طَلَبوا ، فأَنْزَلَ اللَّهُ تعالى المائدة من السَّماءِ ، والنَّاسُ ينْظُرُونَ إليها تَنحَدِرُ بينَ غَمَامَتَيْنِ ، وجَعَلَتْ تَدْنُو قليلًا قليلًا ، وكلّما دَنَتْ سأل عيسى ، عليه السلامُ ، رَبَّه ، عزَّ وَجَلَّ ، أن يَجْعَلَها رحمةً لا نِقْمَةً ، وأَنْ يجعلَها بركةً وسلامةً ، فلم تَزَلْ تدْنُو حتى استقرَّتْ بينَ يَدَىْ عيسى ، عليه السلامُ ، وهى مُغَطَّاةٌ بمِنْدِيلٍ ، فقامَ عيسى يَكْشِفُ عَنْها ، وهو يقولُ : بسمِ اللَّهِ خيرِ الرَّازقين . فإذا عليها سبْعةٌ مِن الحيتَانِ ، وسبْعةُ أَرْغِفَةٍ ، ويُقالُ : وَخَلٌّ . ويقالُ : ورُمَّانٌ وثِمارٌ[1] . ولها رائحةٌ عظيمةٌ جدًّا . قال اللَّهُ لها : كونى . فكانت ، ثُمَّ أَمَرهم بالأَكْلِ منها ، فقالوا : لا نأْكُلُ حتى تأْكُلَ . فقال : إنَّكم الذين ابتدأْتُمُ السؤَالَ لها . فأَبَوْا أن يأْكلوا منها ابتداءً ، فأَمَرَ الفقراءَ والمَحاوِيجَ والمَرْضَى والزَّمْنَى ، وكانوا قريبًا من ألفٍ وَثَلَثِمائةٍ[2] فأَكَلُوا منها فَبَرأَ كُلُّ مَن بِه عاهةٌ ، أو آفةٌ ، أو مرضٌ مُزْمِنٌ ، فَنَدِمَ النَّاسُ على تَرْكِ الأَكْلِ منها ؛ لِمَا رَأَوْا مِن إصْلاحِ حَالِ أولئكَ ، ثُمَّ قيلَ : إنَّها كانت تَنْزِلُ كُلَّ يومٍ مَرَّةً[3] ، فيأْكُلُ النَّاسُ منها ، يأْكُلُ آخِرُهم كما يأْكلُ أَوَّلُهم ، حتى قيلَ : إنَّها كان يأْكلُ منها نحوُ سَبْعةِ آلافٍ . ثُم كانت تَنْزِلُ يومًا بعدَ يومٍ ، كما كانتْ ناقةُ صالحٍ يشْرَبُون لَبَنَها يومًا بعدَ يومٍ . ثُم أَمَرَ اللَّهُ عيسى أن يَقْصُرَها على الفقراءِ أو المحاوِيجِ ، دونَ الأَغْنياءِ ، فَشَقَّ ذلكَ على كثيرٍ من النَّاسِ ، وتَكَلَّمَ مُنافِقُوهم فى ذلك ، فَرُفِعَتْ بالكُلِّيَّةِ ، ومُسِخَ الذين تَكَلَّمُوا فى ذلك خَنَازِيرَ .

---

(١) سقط من : الأصل .

(٢) في الأصل : « ستمائة » . وانظر التفسير ٣/ ٢٢٤.

(٣) سقط من : الأصل ، ص .

وقد رَوَى ابنُ أبى حاتمٍ، وابنُ جريرٍ[(١)] جميعًا، حدَّثنا الحسنُ بنُ قَزَعَةَ[(٢)] الباهِلِيُّ، حدّثنا سفيانُ بنُ حبيبٍ، حدّثنا سعيدُ بنُ أبى عَرُوبةَ، عن قَتادةَ عن خِلَاسٍ[(٣)]، عن عمّارِ بنِ ياسرٍ، عن النبىِّ ﷺ قال: «نزلتِ المائدةُ مِن السماءِ، خُبْزٌ ولحمٌ، وأُمِرُوا أَن لَّا يخونُوا، ولا يَدَّخِرُوا، ولَا يَرْفَعُوا لغدٍ، فخانُوا، وادَّخَرُوا، ورَفَعوا، فَمُسِخُوا قِرَدَةً وخَنازيرَ». ثم رواهُ ابنُ جَريرٍ[(٤)] عن بُنْدارٍ، عن ابنِ أبى عدِىٍّ، عن سعيدٍ، عن قَتادةَ [١/٢٦٦ظ] عن خِلَاسٍ، عن عمَّارٍ، مَوْقُوفًا، وهذا أَصحُّ، وكذا رواهُ[(٥)] من طريقِ سِماكٍ عن رَجُلٍ مِنْ بَنى عِجْلٍ[(٦)] عن عمارٍ، موقوفًا، وهو الصوابُ. واللَّهُ أعلمُ. وخِلَاسٌ عن عمارٍ مُنْقَطِعٌ، فلو صَحَّ هذا الحديثُ مَرْفُوعًا، لكان فَيْصَلًا فى هذه القِصَّةِ؛ فإنَّ العلماءَ اختلفوا فى المائدةِ، هل نزلت أَمْ لا؟ فالجمهورُ، أَنَّها نَزَلَتْ، كما دَلَّتْ عليه هذه الآثارُ، وكما هو المفهومُ مِن ظاهرِ سياقِ القرآنِ، ولا سِيَّما قولُه: ﴿ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡ ﴾ كما قرَّرَه ابنُ جريرٍ. واللَّهُ أعلمُ. وقد رَوَى ابنُ جريرٍ[(٧)] بإسنادٍ صحيحٍ إلى مجاهدٍ، وإلى الحَسَنِ بنِ أبى الحسنِ البصرىِّ، أَنَّهما قالا: لمْ تَنْزِلْ وإِنَّهم أَبَوْا نُزُولَها، حينَ قال: ﴿ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ

---

(١) عزاه فى الدر المنثور ٣٤٨/٢ إلى ابن أبى حاتم، ورواه الطبرى فى تفسيره ٧/ ١٣٤. وانظر (ضعيف سنن الترمذى ٥٨٧).

(٢) في الأصل: «نزعة»، وفي ص: «عرفة»، وانظر تهذيب الكمال ٦/ ٣٠٣.

(٣) في الأصل: «جلاس»، وفي «تفسير الطبرى» بتحقيق أحمد شاكر ١١/ ٢٢٨: «خلاس». وهو الصواب انظر تهذيب الكمال ٨/ ٣٦٤.

وقال الشيخ أحمد شاكر: في المطبوعة: «جلاس»، وهو خطأ.

(٤) تفسير الطبري ٧/ ١٣٤.

(٥) تفسير ابن جرير ٧/ ١٣٤.

(٦) فى الأصل: «عجيل». وهو خطأ. انظر تفسير الطبرى بتحقيق أحمد شاكر (١١/ ٢٢٨).

(٧) تفسير الطبرى ٧/ ١٣٥.

﴿ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ . ولهذا قيل : إنَّ النَّصارى لا يعرِفون خَبَرَ المائدةِ ، وليس مَذْكورًا فى كِتابِهم مع أن خَبَرَها مِمّا تَتَوَفَّرُ الدَّواعِى على نَقْلِه . واللَّهُ أعلمُ . وقد تَقَصَّيْنَا الكلامَ على ذلك فى « التفسيرِ » ، فلْيُكْتَبْ مِن هناك ، ومن أرادَ مراجَعَته فلْيَنْظُرْه مِنْ ثَمَّ . ولِلَّهِ الحمدُ والمِنَّةُ .

فصـــل

قال أبو بكرٍ ابنُ أبى الدُّنْيا[1] : حَدَّثنا رَجُلٌ سقطَ اسمُه ، حَدَّثَنَا حَجّاجُ بنُ محمدٍ ، حدَّثنا أبو هلالٍ محمدُ بنُ سليمانَ ، عن بكْرِ بنِ عبدِ اللَّهِ المُزَنيِّ ، قال : فَقَدَ الحواريُّون نَبِيَّهم عيسى ، فقيلَ لهم : تَوَجَّهَ نَحْوَ البَحْرِ . فانْطَلَقوا يَطْلُبونَه ، فلَمَّا انْتَهَوا إلى البَحْرِ ، إذا هو يمشِى على الماءِ ، يَرْفَعُه الموجُ مَرَّةً ويَضَعُه أُخْرَى ، وعليه كِسَاءٌ مُرْتَدٍ بِنِصْفِه ، ومُؤْتَزِرٌ بِنِصفِه حتى انتهى إليهم ، فقال له بعضُهم - قال أبو هلالٍ : ظَنَنْتُ أنَّه من أَفَاضِلِهم - : أَلَا أَجِيءُ إليكَ يا نبيَّ اللَّهِ ؟ قال : بَلَى . قال : فوضعَ إحدَى رِجْلَيْهِ على الماءِ ، ثم ذَهَبَ لِيَضَعَ الأُخْرَى ، فقال : أَوَّهْ ، غَرِقْتُ يا نبيَّ اللَّهِ . فقال : أَرِنى يدَك يا قصيرَ الإيمانِ ، لَوْ أَنَّ لابنِ آدمَ مِن اليقينِ قَدْرَ شَعيرَةٍ ، مشَى على الماءِ . ورواهُ أبو سعيدٍ بنُ الأعرابيِّ[2] ، عن إبراهيمَ بنِ أبى الجَحيم[3] ، عن سليمانَ بنِ حَرْبٍ ، عن أَبِى هِلالٍ ، عن بَكْرٍ ، بنحوِه . ثم قال ابنُ أبى الدُّنْيا[4] : حدَّثنا محمدُ بنُ عليِّ بنِ الحسنِ ابنِ شَقِيقٍ[5] ، حدَّثنا إبراهيمُ بنُ الأَشْعَثِ[6] ، عن الفُضَيْلِ بنِ عِياضٍ قال : قِيل لعيسى ابنِ مريمَ : يا عيسى ، بأَيِّ شيءٍ تمشِى على الماءِ ؟ قال :

---

(١) أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق ١٤/٥٦ مخطوط ، من طريق ابن أبى الدنيا به .

(٢) المصدر السابق من طريق أبى سعيد بن الأعرابى به .

(٣) فى الأصل ، ح : « الحجيم » . وانظر تبصير المنتبه لابن حجر ١/ ٢٤٤.

(٤) تاريخ دمشق ١٤/ ٥٦. مخطوط .

(٥) في م : « سفيان » . وانظر تهذيب الكمال : ٢٦/ ١٣٤.

(٦) فى تاريخ دمشق : « إبراهيم بن أبى الأشعث » . وانظر تهذيب الكمال ١٣٥/٢٦ .

بالإيمانِ واليقينِ. قالوا: فإنَّا آمَنَّا كَمَا آمنتَ وأَيْقَنَّا كما أَيْقَنْتَ. قال: فامْشُوا إذًا. قال: فَمَشَوْا معه فى المَوْجِ فَغَرِقُوا. فقال لهم عيسى: ما لكم؟ فقالوا: خِفْنا المَوْجَ. قال: أَلَا خِفْتم ربَّ الموجِ. قال: فأَخْرَجَهم ثم ضَرَبَ بيدِه إلى الأَرضِ، فَقَبَضَ بها ثُمَّ بَسَطَها، فإذا فى إحدى يَدَيْهِ ذهبٌ، وفى الأُخرَى مَدَرٌ أو حَصًى، فقال: أَيُّهُما أَحْلَى فى قُلُوبِكم؟ قالوا: هذا الذَّهبُ. قال: فإنَّهما عندى سواءٌ. وقد قدَّمْنا فى قصَّةِ يحيى بنِ زكريا[1] عن بعضِ السَّلفِ أنَّ عيسى، عليه السلامُ، كان يَلْبَسُ الشَّعْرَ، ويأكلُ [١/٢٦٧و] من وَرَقِ الشَّجَرِ، ولا يَأْوِى إلى مَنْزِلٍ ولا أهلٍ ولا مالٍ، ولا يدَّخِرُ شيئًا لغدٍ. وقال بعضُهم: كان يأْكُلُ من غَزْلِ أُمِّهِ، صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه.

وروَى ابنُ عساكِرَ[2] عن الشَّعبىِّ، أنَّه قال: كان عيسى، عليه السلامُ، إذا ذُكِرَ عندَه الساعةُ صاحَ، ويقولُ: لا ينْبغِى لابنِ مَرْيَمَ أَنْ تُذْكَرَ عندَه الساعةُ ويَسكُتَ. وعن عبد الملكِ بنِ سعيدِ بنِ أَبْجرَ[3]، أَنَّ عيسى كان إذا سَمِعَ المَوْعِظَةَ صَرَخ صُراخَ الثَّكْلَى.

وقال عبدُ الرَّزَّاقِ[4]: أنبأنا مَعْمَرٌ، حدَّثنا جعفرُ بنُ بُرْقانَ[5]: أَنَّ عيسى كان يقولُ: اللّهمَّ إنى أصْبحتُ لا أستطيعُ دَفْعَ ما أَكْرَهُ، ولا أملِكُ نَفْعَ ما أَرْجُو، وأَصْبَحَ الأَمْرُ بيدِ غَيْرِى، وأَصْبَحْتُ مُرْتَهَنًا بعمَلِى، فلا فقيرَ أفقرُ مِنى،

---

(١) تقدم ص ٤٠٣ - ٤٠٥.
(٢) تاريخ دمشق ٥٧/٤ مخطوط.
(٣) في م، ص: «بحر»، انظر تهذيب الكمال ٣١٣/١٨.
(٤) أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق ٥٨/١٤ مخطوط، من طريق عبد الرزاق به.
(٥) فى ح: «مروان»، وفى م: «بلقان». انظر تهذيب الكمال ١١/٥.

اللهمَّ لا تُشْمِتْ بِي عَدُوِّى، ولا تَسُؤْ بِي صديقى، ولا تَجْعَلْ مُصيبتى فى دينى، ولا تُسَلِّطْ عَلَيَّ مَن لا يرحَمُنى. وقال الفُضَيْلُ بنُ عِياضٍ[1]، عن يُونُسَ ابنِ عُبَيْدٍ: كان عيسى يقولُ: لا [2]يُصِيبُ أَحَدٌ[2] حقيقةَ الإيمانِ حتى لا يُبالِيَ مِنْ أَكْلِ الدُّنيا. قال الفُضَيْلُ: وكان عيسى يقولُ: فكَّرْتُ فى الخلقِ، فوجدتُ مَنْ لم يُخْلَقْ أَغْبَطَ عندِى مِمَّنْ خُلِقَ.

وقال إسحاقُ بنُ بِشْرٍ[3]، عن هشامِ بنِ حسّانَ، عن الحَسَنِ، قال: إنَّ عيسى رَأْسُ الزاهدينَ[4] يومَ القيامةِ. قال: وإنَّ الفَرَّارِينَ بِذُنوبِهم يُحْشَرُونَ يومَ القيامةِ مع عيسى. قال: وبينَما عيسى يومًا نائمٌ على حَجَرٍ قَدْ تَوَسَّدَه، وقد وجدَ لذَّةَ النَّوْمِ، إذْ مَرَّ به إبليسُ، فقال: يا عيسى، أَلَسْتَ تَزْعُمُ أَنَّك لا تريدُ شيئًا من عَرَضِ الدُّنيا؟ فهذا الحجرُ مِن عَرَضِ الدّنيا. [5]فقام عيسى[5] فأخذَ الحجرَ فرَمَى به إليه، وقال: هذا لكَ مع الدُّنيا. وقال مُعتَمِرُ بنُ سُلَيمانَ: خرجَ عيسى على أصحابِهِ، وعليه جُبَّةُ صوفٍ، وكِسَاءٌ وتُبَّانٌ، حافيًا باكيًا شَعِثًا، مُصْفَرَّ اللَّوْنِ مِن الجوعِ، يابسَ الشَّفَتَيْنِ من العطشِ، فقال: السلامُ عليكم يا بنى إسْرائِيلَ، أنا الذى أَنْزَلْتُ الدُّنيا مَنْزِلَتَها بِإذنِ اللَّهِ، ولا عَجَبَ ولا فَخْرَ، أَتَدْرون أين بَيْتى؟ قالوا: أيْنَ بيتُكَ يا رُوحَ اللَّهِ؟ قال: بيتىَ المساجِدُ، وطِيبِىَ الماءُ، وإدَامِىَ الجوعُ، وسِرَاجِىَ القمرُ بالليلِ، وصلاتى فى الشتاءِ مشارقُ

---

(١) المصدر السابق، من طريق الفضيل به.

(٢ - ٢) فى م: «نصيب». وفى ص: «تصيب».

(٣) المصدر السابق ١٤/ ٥٩، من طريق إسحاق بن بشر به.

(٤) بعده في ح: «يوم الزاهدين».

(٥ - ٥) فى م، ح: «فقال». وبعده من التاريخ: «غضبانا».

الشَّمْسِ، ورَيْحَانى بُقُولُ الأَرْضِ، ولِبَاسىَ الصُّوفُ[1]، وشِعارِى خوفُ ربِّ العِزَّةِ، وجُلَسَائِىَ الزَّمْنَى والمساكِينُ، أُصْبِحُ وليس لى شىءٌ، وأُمْسِى وليس لى شىءٌ، وأنا طَيِّبُ النَّفْسِ، [2]غَنِىٌّ مُكْثِرٌ[2]، فَمَنْ أَغْنَى مِنِّى، وأَرْبحُ؟ رواه ابنُ عساكرَ[3].

ورَوَى[4] فى ترجمةِ محمدِ بنِ الوليدِ بنِ أبانَ بنِ حِبَّانَ أبى الحسنِ العقيلىِّ المِصرِىِّ، حدَّثنا هانئُ بنُ المُتَوَكِّلِ الإسكندرانىُّ، عن حَيْوَةَ بنِ شُرَيْحٍ، حدَّثنى الوليدُ بنُ أبى الوليدِ، عن [5]شُفَىِّ بنِ ماتعٍ[5]، عن أبى هريرةَ، عن النبىِّ ﷺ، قال: «أَوْحَى اللَّهُ تعالى إلى عيسى، أَن يا عيسى، انتقِلْ مِن مَكانٍ إلى مكانٍ، لِئَلَّا تُعْرَفَ فَتُؤْذَى، فَوَعِزَّتِى وَجَلالِى، لَأُزَوِّجَنَّكَ أَلْفَ حَوْرَاءَ، ولَأُولِمَنَّ عليك أَرْبَعَمائةِ عامٍ». وهذا حديثٌ غريبٌ رَفْعُه، وقد يكونُ مَوْقُوفًا من روايةِ شُفَىِّ بنِ ماتعٍ عن كعبِ الأَحْبَارِ أو غيرِه من الإِسرائيليِّين. واللَّهُ أعلمُ.

وقال عبدُ اللَّهِ بنُ المُبارَكِ[6]، عن سفيانَ بنِ عُيَيْنَةَ، عن خلفِ بنِ حَوْشَبٍ قال: قال عيسى للحواريِّين: كما تَرَكَ لكم الملوكُ الحِكْمَةَ، فكذلِكَ فاتْرُكوا [١/٢٦٧ظ] لهم الدُّنيا.

---

(١) فى م: «الصون».

(٢ - ٢) فى النسخ: «غير مكترث». والمثبت من تاريخ دمشق.

(٣) تاريخ دمشق ١٤/٦١ مخطوط.

(٤) تاريخ دمشق ١٦/٨٦، ٨٧ مخطوط.

(٥ - ٥) فى م: «سفى بن نافع». انظر تهذيب الكمال ١٢/٥٤٣.

(٦) المصدر السابق ١٤/ ٦١، من طريق عبد اللَّه بن المبارك به.

وقال قَتادةُ[1] : قال عيسى ، عليه السلامُ : سَلُونى فإنِّى لَيِّنُ القَلْبِ ، وإنِّى صغيرٌ عندَ نَفْسِى . وقال إسماعيلُ بنُ عَيَّاشٍ عن عبدِ اللَّهِ بنِ دِينارٍ ، عن ابنِ عمرَ ، قال : قال عيسى ، عليه السلامُ ، للحواريِّين : كُلُوا خُبْزَ الشَّعيرِ ، واشْرَبوا الماءَ القَرَاحَ ، واخرُجُوا من الدُّنيا سالمِينَ آمنينَ ، لَحَقٌّ ما أقولُ لكم : إنَّ حلاوةَ الدُّنيا مرارةُ الآخرةِ ، وإنَّ مرارةَ الدُّنيا حلاوةُ الآخرةِ ، وإنَّ عبادَ اللَّهِ لَيْسُوا بالمُتَنَعِّمينَ ، لَحَقٌّ ما أَقولُ لكم : إنَّ شَرَّكم عالمٌ يُؤْثِرُ هواهُ على عِلْمِه ، يَوَدُّ أَنَّ النَّاسَ كلَّهم مِثْلُه . ورُوِىَ نَحْوُهُ عن أبى هريرةَ[2] .

وقال أبو مُصْعَبٍ[3] ، عن مالكٍ : إنَّه بَلَغَه أَنَّ عيسى كان يقولُ : يا بنى إسرائيلَ ، عليكم بالماءِ القَرَاحِ ، والبَقْلِ البَرِّىِّ ، والخُبْزِ الشَّعيرِ ، وإيَّاكم وخُبْزَ البُرِّ ، فإنَّكم لن تَقومُوا بِشُكْرِه .

وقال ابنُ وَهْبٍ[4] ، عن سليمانَ بنِ بلالٍ ، عن يَحْيَى بنِ سعيدٍ ، قال : كان عيسى يَقُولُ : اعْبُرُوا الدُّنْيا ولا تَعْمُرُوها . وكان يقولُ : حُبُّ الدُّنيا رأسُ كُلِّ خَطيئةٍ ، والنَّظَرُ يَزْرَعُ فى القلْبِ الشَّهْوَةَ . وَحَكَى وُهَيْبُ بنُ الوَرْدِ مِثْلَه ، وزاد : وَرُبَّ شَهْوَةٍ أَوْرَثَتْ أَهْلَها حُزنًا طَوِيلًا[5] . وعن عيسى ، عليه السَّلامُ : يا ابنَ آدمَ الضَّعيفَ ، اتَّقِ اللَّهَ حيثُ ما كُنْتَ ، وكُنْ فى الدّنيا ضَيْفًا[6] ، واتَّخِذِ المساجدَ بَيْتًا ، وعَلِّمْ عينَك البُكاءَ ، وجَسَدَكَ الصَّبْرَ ، وقَلْبَكَ التَّفَكُّرَ ، ولا تَهْتَمَّ

---

(١) تاريخ دمشق ٦٢/١٤ مخطوط .
(٢) تاريخ دمشق ٦٢/١٤ مخطوط .
(٣) المصدر السابق ٦٣/١٤ من طريق أبى مصعب به .
(٤) المصدر السابق ٦٣/١٤ من طريق ابن وهب به .
(٥) تاريخ دمشق ٦٣/١٤ مخطوط .
(٦) في ص : « ضعيفًا » .

برزْقِ غَدٍ ، فإنَّها خَطيئةٌ[1] . وعنه ، عليه السَّلامُ ، أنَّه قال : كما أنَّه لا يستطيعُ أحدُكم أن يتَّخِذَ علَى مَوْجِ البحْرِ دارًا ، فلا يَتَّخِذِ الدُّنْيا قَرَارًا . وفى هذا يقولُ سَابِقٌ البَرْبَرِىُّ :

لكُم بيوتٌ بمُسْتَنِّ[2] السُّيولِ[3] وهَلْ   يَبْقَى[4] على الماءِ بيتٌ أُسُّه مَدَرُ[5]

وقال سفيانُ الثَّوْرِىُّ[6] : قال عيسى ابنُ مريمَ : لا يستقيمُ حُبُّ الدُّنْيا وحُبُّ الآخرةِ فى قلْبِ مُؤْمِنٍ ، كما لا يَسْتَقِيمُ الماءُ والنَّارُ فى إناءٍ . وقال إبراهيمُ الحَرْبِىُّ[7] ، عن داودَ بنِ رُشَيدٍ ، عن أبى عبدِ اللَّهِ الصُّوفىِّ ، قال : قال عيسى : طالبُ الدُّنيا مِثْلُ شَاربِ ماءِ البَحْرِ ، كُلَّمَا ازدادَ شُرْبًا ازدادَ عَطَشًا ، حتى يَقْتُلَهُ . وعن عيسى ، عليه السّلامُ ، أنّ الشَّيْطانَ مع الدُّنيا ، [8]ومَكرَه مع[8] المالِ ، وتَزْيِينَه مَع الهوى ، واسْتِمْكانَه عندَ الشَّهَوَاتِ[9] . وقال الأعْمشُ[10] ، عن خَيْثَمَةَ : كان عيسى يَصْنعُ[11] الطَّعامَ لأَصْحابِه ، ويقومُ عليهم ، ويقولُ : هكذا فاصْنَعُوا بالقِرَى . وبه قالتِ امرأةٌ لعيسى ، عليه السّلامُ : طُوبَى لِحِجْرٍ حَمَلَكَ ، ولِثَدْيٍ

---

(١) تاريخ دمشق ١٤/ ٦٣، ٦٤ مخطوط .
(٢) فى ح، ص : « بمتن » .
(٣) فى م : « السيوف » .
(٤) فى م : « يبنى » .
(٥) المصدر السابق ١٤/ ٦٥.
(٦) المصدر السابق .
(٧) المصدر السابق ، من طريق إبراهيم الحربى به .
(٨ - ٨) فى م : « فكره من » .
(٩) تاريخ دمشق ١٤/٦٥ مخطوط .
(١٠) المصدر السابق ١٤/ ٦٦، من طريق الأعمش به .
(١١) في م : « يضع » .

أَرْضَعَك . فقال: طُوبَى لِمَنْ قَرَأَ كتابَ اللَّهِ واتَّبَعَه[1] . وعنه : طُوبَى لِمَنْ بَكَى مِن ذِكْرِ خطيئَتِه ، [٢٦٨/١و] وحَفِظَ لسانَهُ ، ووَسِعَهُ بَيْتُه[2] . وعنه : طُوبَى لِعَيْنٍ نامتْ ، ولم تُحَدِّثْ نَفْسَها بالمَعْصِيةِ ، وانْتَبَهَتْ إلى غيرِ إثْمٍ[3] . وعن مالكِ بنِ دِينارٍ ، قال : مَرَّ عيسى وأَصْحَابُه بجيفةٍ ، فقالوا : ما أَنْتَنَ رِيحَها . فقال : ما أبيضَ أَسْنَانَها . لِيَنْهاهم عن الغِيبَةِ[4] . وقال أبو بكرِ ابنُ أبى الدُّنيا[5] : حَدَّثَنا الحُسَيْنُ بنُ عبدِ الرحمنِ ، عن زكريّا بنِ عَدِيٍّ ، قال : قال عيسى ابنُ مريمَ : يا مَعْشَرَ الحواريِّين ، ارْضَوْا بِدَنِيِّ الدُّنيا مع سلامةِ الدِّينِ ، كما رَضِيَ أهلُ الدُّنيا بِدَنِيِّ الدِّينِ مع سلامةِ الدُّنيا . قال زَكريّا[6] : وفى ذلك يقولُ الشَّاعرُ[7] :

أَرَى رِجالًا بأدْنى الدينِ قد قَنَعوا ... ولا أَراهُم رَضُوا فى العيشِ بالدُّونِ

فاستغنِ بالدِّينِ[8] عنْ دنيا الملوكِ كما ... اسْتَغْنَى الملوكُ بدُنياهُم عنِ الدِّينِ

وقال أبو مُصْعَبٍ[9] ، عن مالكٍ : قال عيسى ابنُ مريمَ ، عليه السّلامُ : لا تُكْثِروا الحديثَ بغيرِ ذِكْرِ اللَّهِ ، فَتَقْسُوَ قُلوبُكم ، فإنّ القلبَ القاسِيَ بعيدٌ من اللَّهِ ولكنْ لا تعلَمونَ ، ولا تنظُروا فى ذُنوبِ العِبَادِ كأنَّكُم أَرْبابٌ ، وانظُروا فيها

---

(١) تاريخ دمشق ٦٦/١٤ مخطوط .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق ٦٧/١٤.
(٤) المصدر السابق ٦٨/١٤.
(٥) أخرجه ابن أبى الدنيا ، فى كتاب « ذم الدنيا » برقم (٤٤٩) .
(٦) أخرجه ابن أبى الدنيا ، فى كتاب « ذم الدنيا » برقم (٤٥٠) .
(٧) وفى حلية الأولياء ٦/ ٣٧٦: قال زكريا بن عدى : كان الثورى يتمثل . ثم ساق البيتين .
(٨) في ص : « بالله » .
(٩) في تاريخ دمشق : « مصعب » . انظر تهذيب الكمال (١/ ٢٧٨) . والأثر أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق ٧٠/١٤ مخطوط ، من طريق أبى مصعب به .

كَأَنَّكُمْ عبيدٌ ، فإنَّما الناسُ رَجُلانِ مُعَافًى ومُبْتَلًى ، فارحموا أهلَ الْبَلاءِ ، واحْمَدُوا اللَّهَ على العافيةِ .

وقال الثَّوْرِيُّ[1] : سمعتُ أبى يقول ، عن إبراهيمَ التَّيْمِيِّ ، قال : قال عيسى لأصحابه : بِحقٍّ أَقُولُ لكم : مَنْ طَلَبَ الفِرْدَوْسَ ، فَخُبْزُ الشَّعيرِ له ، والنومُ فى المزابلِ مع الكلابِ كثيرٌ .

وقال مالكُ بنُ دينارٍ : قال عيسى : إنَّ أَكْلَ الشَّعيرِ مع الرَّمَادِ ، والنَّوْمَ على المَزابلِ مع الكلابِ لَقَليلٌ فى طَلَبِ الفِرْدَوْسِ[2] .

وقال عبدُ اللَّهِ بنُ المُبَارَكِ[3] : أَنْبأنا سفيانُ ، عن منصورٍ ، عن سالمِ بنِ أبى الجَعْدِ ، قال : قال عيسى : اعْمَلوا للَّهِ ، ولا تَعْمَلوا لبطُونِكم ، انظروا إلى هذه الطَّيْرِ ، تَغْدُو وتَرُوحُ ، لا تَحْرُثُ ولا تَحْصُدُ ، واللَّهُ يَرْزُقُها ، فإن قلتم : نحنُ أعظمُ بُطونًا من الطَّيْرِ . فانُظروا إلى هذه الأَباقِرِ[4] من الوحوشِ والحُمُرِ ، فإنَّها تَغْدُو وتَرُوحُ لا تَحْرُثُ ولا تَحْصُدُ ، واللَّهُ يَرْزُقُها .

وقال صفوانُ بنُ عَمْرٍو[5] ، عن شُرَيْحِ بنِ عُبَيْدٍ[6] ، عن يزيدَ بنِ مَيْسَرَةَ قال : قال الحواريون للمسيحِ : يا مسيحَ اللَّهِ ، انظرْ إلى مسجدِ اللَّهِ ما أحْسَنَه . قال : آمين آمين ، بحقٍّ[7] أَقولُ لكمْ : لا يَتْرُكُ اللَّهُ مِن هذا المسْجِدِ حَجَرًا قائمًا

---

(1) المصدر السابق ، من طريق الثورى به .

(2) تاريخ دمشق ١٤/٧٠ مخطوط .

(3) المصدر السابق ١٤/ ٧١، من طريق عبد الله بن المبارك به .

(4) فى م : « الأباقير » .

(5) المصدر السابق ١٤/ ٧٥، من طريق صفوان بن عمرو به .

(6) في م : «عبد الله» . انظر تهذيب الكمال ١٢/ ٤٤٦.

(7) بعده في م : «ما» .

إلا أَهْلَكَهُ بذُنوبِ أَهْلِه ، إنَّ اللَّهَ لا يصنَعُ بالذَّهبِ ولا بالفضَّةِ ، ولا بهذه الأَحْجَارِ التي تُعْجِبُكم شيئًا ، إنَّ أَحبَّ[1] إلى اللَّهِ منها القلوبُ الصالحةُ ، وبها يُعَمِّرُ اللَّهُ الأرضَ ، وبها يُخَرِّبُ اللَّهُ الأرضَ إذا كانتْ على غيرِ ذلك .

وقال الحافظُ أبو القاسمِ بنُ عساكرَ في « تاريخِه »[2] : أَخْبَرَنا أبو منصورٍ أحمدُ ابنُ محمدٍ الصُّوفيُّ [١/٢٦٨ظ] ، أَخْبَرَتْنا عائشةُ بنتُ الحَسَنِ بنِ إبراهيمَ الوَرْكانيةُ[3] ، قالت : حدَّثنا أبو محمدٍ عبدُ اللَّهِ بنُ عمرَ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ الهَيْثَمِ[4] إملاءً ، حدَّثنا الوليدُ بنُ أبانَ إملاءً ، حدثنا أحمدُ بنُ جعفرٍ[5] الرازيُّ ، حدَّثنا سَهْلُ[6] بنُ إبراهيمَ الحَنْظَلِيُّ[7] ، حدَّثنا عبدُ الوهَّابِ بنُ عبدِ العزيزِ ، عن المعتمرِ ، عَن لَيْثٍ ، عن مجاهدٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، عن النبيِّ ﷺ ، قال : مَرَّ عيسى ، عليه السّلامُ ، علَى مدينةٍ خَرِبَةٍ فأَعْجَبَه البُنْيانُ ، فقال : أَىْ رَبِّ ، مُرْ هذه المدِينةَ أن تُجِيبَنى . فأَوْحَى اللَّهُ إلى المدينةِ : أَيَّتُها المدينةُ الخَرِبَةُ ، جاوِبِى عيسى . قال : فنادتِ المدينةُ[8] عيسى : حَبِيبى ، وما تريدُ منِّى ؟ قال : ما فعلَ أشجارُكِ ، وما فعلَ أنهارُكِ ، وما فعل قصورُكِ ، وأينَ سُكَّانُكِ ؟ قالت : حَبِيبى ، جاءَ وَعْدُ ربِّكَ الحقُّ ، فَيَبِسَتْ أشجارِى ، وَنَشِفَتْ أَنْهارِى ، وخَرِبَتْ قُصُورِى ، وماتَ سُكَّانِى . قال : فأَيْنَ أموالُهم ؟ قالتْ : جَمَعُوها من الحلالِ والحرامِ ، مَوْضُوعةٌ فى بَطْنى ، للَّهِ ميراثُ

---

(١) بعده في الأصل : « ما » .
(٢) تاريخ دمشق ١٤/ ٧٥، ٧٦ مخطوط .
(٣) فى الأصل : « الدركانية » . وفى ص : « الدركلية » .
(٤) في الأصل : « الهيتم » . وفى م : « الهشيم » .
(٥) سقط من : ح .
(٦) في م : « سهيل » .
(٧) فى ح : « الحنطلى » .
(٨) فى تاريخ دمشق : « الملائكة » . وهو خطأ .

السَّماواتِ والأَرضِ. قال: فنادى عيسى، عليه السلامُ: فَعَجِبْتُ من ثلاثِ أُناسٍ؛ طالبِ الدُّنيا والموتُ يطلبُه، وبانى القصورِ والقبرُ منزلُه، ومَن يضْحَكُ مِلْءَ فِيهِ والنارُ أَمامَه، ابنَ آدمَ، لا بالكثيرِ تَشْبَعُ، ولا بالقليلِ تَقْنَعُ، تَجْمَعُ مالَكَ لِمَنْ لا يَحْمَدُكَ، وتُقْدِمُ على رَبٍّ لا يَعْذُرُكَ، إنَّما أنتَ عبدُ بَطْنِكَ وشهوَتِكَ، وإنَّما تَمْلأُ بَطْنَكَ إذا دَخَلْتَ قَبْرَكَ، وأَنْتَ يا ابنَ آدمَ ترى حَشْدَ مالِكَ فى مِيزَانِ غَيْرِك. هذا حديثٌ غريبٌ جدًّا، وفيه موعظةٌ حَسَنَةٌ، فكتبناه لذلك.

وقال سفيانُ الثَّوْرِىُّ[1]، عن أبيهِ، عن إبراهيمَ التَّيْمِىِّ، قال: قال عيسى، عليه السلامُ: يا معشرَ الحوارِيِّين، اجْعلُوا كُنوزَكم فى السَّماءِ، فإنَّ قلبَ الرَّجُلِ حيثُ كَنْزُه. وقال ثَوْرُ بنُ يزيدَ[2]، عن عبدِ العزيزِ بنِ ظبيانَ، قال: قال عيسى ابنُ مَريمَ، عليه السلامُ: مَنْ تعلَّم وعلَّمَ وعَمِلَ، دُعِىَ عظيمًا فى ملكوتِ السَّماءِ. وقال أبو كُرَيْبٍ: رُوِىَ أَنَّ عيسى، عليه السلامُ، قال: لا خَيْرَ فى عِلْمٍ لا يَعْبُرُ معكَ الوادىَ، ولا يَعْمُرُ[3] بكَ النَّادِىَ[4].

ورَوَى ابنُ عساكرَ[5]، بإسنادٍ غريبٍ عن ابنِ عَبَّاسٍ مَرْفوعًا، أنَّ عيسى، عليه السلامُ، قام فى بنى إسرائيلَ فقال: يا معشرَ الحوارِيِّين، لا تُحَدِّثُوا بالحِكْمَةِ[6] غيرَ أَهْلِها، فَتَظْلِمُوها، ولا تَمْنَعُوها أَهْلَها، فَتَظْلِمُوهم، والأُمورُ ثلاثةٌ؛ أمرٌ تبيَّنَ رُشْدُه فاتَّبِعُوه، وأَمْرٌ تَبَيَّنَ غَيُّه فاجْتَنبوه، وأَمْرٌ اخْتُلِفَ عليكم

---

(١) أخرجه فى تاريخ دمشق (٧٦/١٤) مخطوط، من طريق الثورى به.
(٢) المصدر السابق، من طريق ثور بن يزيد به.
(٣) فى ح، م «يعبر»، وفى الأصل، ص: «يعمر». والمثبت من تاريخ دمشق.
(٤) تاريخ دمشق ٧٦/١٤ مخطوط.
(٥) المصدر السابق ٧٧/١٤.
(٦) فى م: «بالحكم».

فيه[1] فرُدُّوا عِلْمَه إلى اللّهِ، عزَّ وجلَّ.

وقال عبدُ الرَّزَّاقِ[2]: أَنْبأَنا مَعْمرٌ، عن رجلٍ، عن عِكْرِمَةَ، قال: قال عيسى: لا تطرَحوا اللُّؤْلُؤَ إلى الخِنْزِيرِ؛ فإنَّ الخِنْزِيرَ لا يصنعُ باللؤْلُؤِ [١/٢٦٩و] شيئًا، ولا تُعْطُوا الحِكْمَةَ مَن لا يُريدُها؛ فإنَّ الحِكْمَةَ خيرٌ من اللُّؤلؤِ، ومَنْ لا يريدُها؛ شَرٌّ من الخِنْزِيرِ. وكذا حَكَى وَهْبٌ وغيرُه عنه[3]. وعنه، أنَّه قال لأصحابِه: أنتم مِلْحُ الأَرْضِ، فإذا فَسَدْتم، فلا دَواءَ لكُم، وإنَّ فيكم خَصْلَتَيْنِ من الجهْلِ؛ الضَّحِكُ من غيرِ عَجَبٍ، والصُّبْحَةُ[4] من غيرِ سَهَرٍ[5]. وعنه، أنَّه قيلَ له: مَنْ أَشَدُّ النَّاسِ فِتْنَةً؟ قال: زَلَّةُ العالِمِ، فإنَّ العَالِمَ إذا زَلَّ زلَّ بِزَلَّتِه عَالَمٌ كثيرٌ[6]. وعنه، أنَّه قال: يا علماءَ السُّوءِ، جعلتم الدُّنْيا عَلَى رُءُوسِكم، والآخرةَ تحتَ أقدامِكم، قولُكم شِفَاءٌ، وعَمَلُكم دَاءٌ، مَثَلُكم مَثَلُ شَجَرَةِ الدِّفْلَى[7]، تُعْجِبُ مَن رآها، وتَقْتُلُ مَنْ أَكَلَهَا[8]. وقال وَهْبٌ: قال عيسى: يا علماءَ السُّوءِ، جَلَسْتم على أبوابِ الجنَّةِ، فلا أنتم[9] تدْخُلُونَها، ولا تَدَعُون المساكينَ يَدْخُلونها، إنَّ شَرَّ النَّاسِ عندَ اللّهِ عالِمٌ يَطْلُبُ الدُّنيا بِعِلْمِهِ[10]. وقال مكْحُولٌ: التقَى يحيى، وعيسى فصافَحه عيسى، وهو يضحكُ، فقال له

---

(١) سقط من: الأصل.
(٢) المصدر السابق، من طريق عبد الرزاق به.
(٣) تاريخ دمشق ١٤/٧٧ مخطوط.
(٤) في الأصل: «الصحة». والصبحة: نومة الغداة.
(٥) المصدر السابق.
(٦) المصدر السابق.
(٧) الدفلى: نبت مر، زهره كالورد الأحمر، يتخذ للزينة.
(٨) المصدر السابق ١٤/٨٧.
(٩) سقطت من: النسخ، وهي مثبتة من تاريخ دمشق.
(١٠) المصدر السابق.

يحيى : يا ابنَ خَالَةٍ ، ما لى أراك ضاحكًا كأنَّكَ قَدْ أَمِنْتَ . فقال له عيسى : ما لى أراك عَابِسًا كأنَّكَ قَدْ يَئِسْتَ . فأوحى اللَّهُ إليهما : إنَّ أَحَبَّكما إلىَّ أَبَشُّكُمَا بِصَاحِبِه[1] . وقال وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ : وقف عيسى هو وأصحابُه على قَبْرٍ ، وصاحِبُه يُدْلَى فيه ، فجعلوا يذكرون القَبْرَ وضِيقَهُ ، فقال : قَدْ كُنْتُم فيما هو أَضْيَقُ منه فى[2] أَرْحَامِ أمَّهاتِكم ، فإذا أَحَبَّ اللَّهُ أَنْ يُوسِّعَ وَسَّعَ[3] . وقال أبو عُمرَ[4] الضريرُ : بلغنى أنَّ عيسى كان إذا ذَكَرَ الموتَ يَقْطُرُ جِلْدُه دَمًا[5] .

والآثارُ فى مثلِ هذا كثيرةٌ جدًّا ، وقد أوردَ الحافظُ ابنُ عساكرَ منها طَرَفًا صالحًا ، اقتصرنا منه على هذا القَدْرِ ، واللَّهُ تعالى الموفِّقُ للصَّوابِ .

---

(١) المصدر السابق ١٤/ ٨٠، ٨١ .
(٢) فى م : « من » .
(٣) المصدر السابق ١٤/ ٨١ .
(٤) فى الأصل : « عمرو » .
(٥) المصدر السابق .

ذِكْرُ[1] رَفْعِ عيسى، عليه السَّلامُ، إلى السَّماءِ في حفظِ الرَّبِّ، وبيانُ كذبِ اليهودِ والنصارى، عليهم لعائنُ اللهِ، في دعوى الصَّلْبِ

قال اللَّهُ تعالى[2] : ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٤، ٥٥]. وقال تعالى[3] : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ [١/٢٦٩ظ] وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ

---

(١) سقط من: م.

(٢) التفسير ٣٧/٢- ٣٩.

(٣) التفسير ٣٩٩/٢- ٤١٩.

بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٥٥- ١٥٩] فَأَخْبَرَ تعالى أَنَّه رَفَعَه إلى السَّمَاءِ بعدَ ما توفَّاه بالنَّومِ على الصَّحيحِ المقْطوعِ به، وخَلَّصَه مِمَّنْ كان أرادَ أَذِيَّتَه من اليهودِ الذين وَشَوْا به إلى بعضِ الملوكِ الكَفَرَةِ في ذلك الزَّمانِ.

قال الحسنُ البَصْريُّ، ومحمدُ بنُ إسحاقَ[(١)]: كان اسمُه داودَ بنَ يورا[(٢)] فأمَرَ بقتْلِه وصَلْبِه، فحصروه في دارٍ ببلدِ[(٣)] بيتِ المَقْدسِ، وذلك عَشيَّةَ الجُمُعةِ لَيْلَةَ السَّبْتِ، فَلَمَّا حانَ وقتُ دخولِهم أُلْقِيَ شَبَهُه على بَعْضِ أَصْحابِه الحاضرينَ عنْدَه، ورُفِعَ عيسى مِن رَوْزَنَةٍ[(٤)] مِن ذلك البَيْتِ إلى السَّماءِ، وأَهْلُ البيْتِ يَنظرون، ودَخَلَ الشُّرَطُ فوجدوا ذلك الشَّابَّ الذى أُلْقِيَ عليه شَبَهُه، فأخذوه ظَانِّينَ أنَّه عيسى، فَصَلبوه ووضعوا الشَّوْكَ على رَأْسِه إهانةً له، وسَلَّم لليهودِ عامةُ النَّصارَى الذينَ لم يُشاهدوا ما كان من أمْرِ عيسى أنَّه صُلِبَ، وضَلُّوا بسببِ ذلك ضلالًا مبينًا كثيرًا فاحشًا بعيدًا، وأخْبَرَ تعالى بقولِه: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦۖ ﴾ أى؛ بعْدَ نزولِه إلى الأَرضِ فى آخرِ الزَّمانِ، قبلَ قيامِ السَّاعةِ، فإنَّه ينْزِلُ ويقْتُلُ الخِنْزيرَ، ويَكْسِرُ الصَّليبَ، ويَضَعُ الجِزْيَةَ، ولا يَقْبَلُ إلا الإِسْلامَ، كما بيَّنا ذلك بما ورد فيه من الأَحاديثِ عندَ تفسيرِ هذه الآيةِ الكريمةِ مِن سورةِ «النِّساءِ»[(٥)]، وكما سَنُورِدُ ذلك مُسْتَقْصًى

---

(١) تفسير الطبرى ٦/ ١٤، وتاريخ دمشق ٨٢/١٤ مخطوط.
(٢) فى الأصل، ح: «نودا». وفى م: «نورا». وفى ص: «فودا». والمثبت من تاريخ دمشق.
(٣) سقط من: م.
(٤) الروزنة: الكوّة.
(٥) التفسير ٢/٤٠١- ٤١٩.

فى كتابِ «الفِتَنِ والمَلاحِمِ» عندَ أَخْبَارِ المَسيحِ الدَّجَّالِ، [(1] فنذكرُ ما وردَ فى نُزولِ المسيحِ المَهْدِىّ، عليه السّلامُ، مِن ذى الجلالِ؛ لقَتْلِ المسيحِ الدَّجَّالِ [1)] الكَذَّابِ الدَّاعى إلى الضَّلالِ. وهذا ذِكْرُ ما وَرَدَ مِن [2] الآثارِ فى صِفَةِ رَفْعِه إلى السَّماءِ.

قال ابنُ أبى حاتمٍ [3]: حَدَّثنا أَحمدُ بنُ سِنانٍ، حدَّثنا أبو مُعاويةَ، عنِ الأَعْمشِ، عن المِنْهالِ بنِ [4] عمرٍو، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ، عن ابنِ عباسٍ، قال: لَمّا أرادَ اللَّهُ أنْ يرفعَ عيسى إلى السماءِ، خرجَ عَلَى أَصْحابِه، وفى البيْتِ اثنا عَشَرَ رجلًا منهم - مِن الحواريِّين يعنى - فخرجَ عليهم مِن عَيْنٍ فى البيتِ، وَرَأْسُهُ يَقْطُرُ ماءً، فقالَ: إنَّ مِنكم منْ يَكْفُرُ بى اثْنَتَىْ عشْرةَ مرَّةً بعدَ أَن آمنَ بى. ثُم قال: أَيُّكم يُلْقَى عليهِ شَبَهى فَيُقْتَلَ مَكانى، ويكونَ [١/٢٧٠و] معى فى دَرَجتى؟ فقام شابٌّ مِن أَحْدَثِهم سِنًّا، فقالَ له: اجْلِسْ. ثم أَعادَ عليهم، فقام الشّابُّ، فقال: اجْلِسْ. ثم أعادَ عليهم، فقامَ الشَّابُّ، فقال: أَنا. فقال: أنتَ هو ذاك. فأُلْقِىَ عليه [5] شَبَهُ عيسى، وَرُفِع عيسى من رَوْزَنَةٍ فى البيتِ إلى السَّماءِ. قال: وجاء الطُّلَّبُ مِن اليهودِ، فأخذوا الشَّبَهَ فقتلوه ثُم صَلَبُوه، فَكَفَرَ به [6] بَعْضُهم اثْنَتَىْ عشْرَةَ مَرَّةً بَعْدَ أن آمنَ به، وافترقوا ثلاثَ فِرَقٍ، فقالت طائِفةٌ: كان اللَّهُ فينا ما شاءَ، ثُم صَعَدَ إلى السَّماءِ. وهؤلاءِ اليَعْقُوبِيَّةُ، وقالت

(١ - ١) سقط من: ح.
(٢) فى م: «فى».
(٣) ذكره فى الدر المنثور ٢/ ٢٣٨. وعزاه لابن أبى حاتم.
(٤) فى الأصل: «عن». انظر تهذيب الكمال ٢٨/ ٥٦٨.
(٥) سقط من: الأصل.
(٦) سقط من: الأصل.

فِرْقَةٌ : كان فِينا ابنُ اللّهِ ما شاءَ، ثُم رَفَعه اللّهُ إليه . وهؤلاءِ النَّسْطُورِيّةُ ، وقالت فِرْقَةٌ : كان فِينا عبدُ اللّه ورسولُه ما شاء اللّهُ[1] ، ثمَّ رفعه اللّهُ إليه ، وهؤلاءِ المسلمون ، فتظاهَرَتِ الكافرتان على المسْلِمَةِ فقتلوها ، فلم يَزَلِ الإسلامُ طامِسًا حتى بعثَ اللّهُ محمدًا ﷺ . قال ابنُ عباسٍ : وذلك قولُه تعالى : ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴾ [الصف : ١٤] . وهذا إسنادٌ صحيحٌ - إلى ابنِ عَبّاسٍ - على شَرْطِ مسلمٍ[2] ، ورواه النَّسَائيُّ[3] ، عن أبى كُرَيْبٍ ، عن أبى مُعَاويةَ به نَحْوَه ، ورواه ابنُ جريرٍ[4] عن سَلْمِ[5] بنِ جُنادَةَ ، عن أبى معاويةَ ، وهكذا ذَكَرَ غُيرُ واحدٍ من السَّلَفِ ، ومِمَّن ذكر ذلك مُطوَّلًا محمدُ بنُ إسحاقَ بنِ يسارٍ[6] ، قال : وجَعَلَ عيسى ، عليه السلامُ ، يدعو اللّهَ ، عزَّ وجلَّ ، أَنْ يُؤَخِّرَ أَجَلَه ، يعنى لِيُبَلِّغَ الرِّسالةَ ، ويُكْمِلَ الدَّعوةَ ، ويُكْثِرَ النَّاسُ الدُّخولَ فى دينِ اللّهِ ، عزَّ وجلَّ . قيل : وكان عندَه من الحوارِيِّين اثْنَا عشرَ رجلًا ؛ بُطْرسُ ، ويَعْقُوبُ بنْ زَبْدِى[7] ، ويُحَنَّسُ أخو يَعْقُوبَ ، وأَنْدَرَاوُسُ ، وفيلِبُّسُ ، وأَبْرَثَلْما ، ومَتَّى ، وتُوماس ، ويَعْقُوبُ بنُ حَلْقيا ، وتُدَّاوُسُ ، وفتاتيا ، يُودُسُ زكريا يُوطا ، وهذا هو الذى دَلَّ اليهودَ على عيسى . قال ابنُ إسحاقَ : وكان فيهم رجلٌ آخرُ اسمُه سرجسُ ، كَتَمَته

(١) سقط من الأصل ، والمثبت من تاريخ دمشق ٨٤/١٤ مخطوط .
(٢) وهو كما قال رحمه اللّه .
(٣) النسائي في الكبرى (١١٥٩١) .
(٤) فى الأصل ، ص : « خزيمة » . ورواه ابن جرير فى تفسيره ٢٨/ ٩٢ .
(٥) فى النسخ : « مسلم » . انظر تهذيب الكمال ١١/ ٢١٨ .
(٦) أخرجه الطبرى فى تفسيره ٦/ ١٤ ، ١٥ من طريق محمد بن إسحاق به .
(٧) فى الأصل : « ربدا » . وفى ح ، ص : « زيدا » . وفى م : « زبدا » . والمثبت من تفسير الطبرى .

النَّصارى ، وهو الذى أُلْقِى شَبَهُ المسيحِ عليه ، فَصُلِبَ عنه[(١)] . قال : وبعضُ النَّصارَى يَزْعُمُ أنَّ الذى صُلِبَ عن[(٢)] المسيحِ ، وأُلْقِى عليه شَبَهُه ، يُودُسَ زكريا يوطا . واللَّهُ أعلمُ .

وقال الضَّحاكُ ، عن ابنِ عباسٍ : اسْتَخْلَفَ عيسى شَمعونَ ، وقتلتِ اليهودُ يُودُسَ زكريا يوطا الذى أُلْقِىَ عليه الشَّبَهُ[(٣)] . وقال أَحمدُ بنُ مروانَ : حدَّثنا محمدُ بنُ الجَهْمِ[(٤)] . قال : سمعتُ الفَرَّاءَ يقولُ فى قولِه : ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ قال : إنَّ عيسى غاب عن خالتِه زَمانًا ، فأتاها فقام رأسُ الجالوتِ اليهوديُّ ، فضَرَبَ على عيسى ، حتى [١/٢٧٠ظ] اجتمعوا على بابِ دارِه ، فكَسَرُوا البابَ ، ودخلَ رأسُ الجالوتِ ليأخُذَ عيسى ، فطَمَسَ اللَّهُ عَيْنَيْه عن عيسى ثم خَرَجَ إلى أصحابِه ، فقال : لم أَرَهُ . ومعه سيفٌ مسلولٌ ، فقالوا : أنتَ عيسى . وأَلْقَى اللَّهُ شَبَهَ عيسى عليه ، فأَخذُوه ، فقتلوه ، وصَلَبوه ، فقالَ جلَّ ذِكْرُه : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾[(٥)] .
وقال ابنُ جريرٍ[(٦)] : حدَّثنا ابنُ حُمَيْدٍ ، حدَّثنا يَعْقُوبُ القُمِّيُّ ، عن هارونَ بنِ عَنْتَرَةَ ، عن وَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ ، قال : أَتَى عيسى ومعه سبعةَ عَشَرَ مِن الحوارِيِّين فى بيتٍ ، فأحاطوا بهم ، فَلَمَّا دخلوا عليهم ، صَوَّرَهُم اللَّهُ كُلَّهُم عَلَى صورةِ عيسى ، فقالوا لهم : سَحَرْتمونا ، لَتُبْرِزُنَّ لنا عيسى ، أَوْ لَنَقْتُلَنَّكُم جميعًا ، فقال

(١) تفسير الطبرى ٦/ ١٥.
(٢) فى الأصل : «هو».
(٣) تاريخ دمشق ١٤/٨٥ مخطوط.
(٤) فى ح : «الحميم». انظر لسان الميزان ٥/ ١١٠.
(٥) تاريخ دمشق ١٤/٨٤ مخطوط ، من طريق أحمد بن مروان به .
(٦) تفسير الطبرى ٦/ ١٢، ١٣.

عيسى لأَصحابِه : مَن يَشْتِرِى مِنكم نَفْسَه اليومَ بالجنَّةِ . فقال رجلٌ : أنا . فخرج إليهم ، فقال : أنا عيسى . وقد صَوَّرَه اللَّهُ على صُورَةِ عيسى ، فأخذوه فقتلوه وصَلَبُوه ، فمِنْ ثَمَّ شُبِّه لهم ، وظَنُّوا أَنَّهم قد قَتَلُوا عيسى ، وظَنَّتِ النَّصارَى مِثْلَ ذلك ، أَنَّه عيسى ، ورَفَعَ اللَّهُ عيسى مِن يومِه ذلك .

قال ابنُ جريرٍ[1] : وحدَّثنا المُثَنَّى ، حدَّثنا إسحاقُ ، حدَّثنا إسماعيلُ بنُ عبدِ الكريمِ ، حدَّثنى عبدُ الصَّمدِ بنُ مَعْقِلٍ أنه سَمِعَ وَهْبًا يقول : إن عيسى ابنَ مريمَ لمَّا أَعْلَمَه اللَّهُ أَنَّه خارجٌ من الدُّنيا جَزِعَ من الموْتِ ، وشَقَّ عليه ، فدعا الحواريِّين وصَنَعَ لهم طَعامًا ، فقال : احْضُرُونى الليلةَ ؛ فإنَّ لى إليكم حاجةً . فلمّا اجتمعوا إليه من الليلِ عَشَّاهم ، وقام يَخْدُمُهم[2] ، فلمَّا فَرَغُوا من الطَّعامِ ، أَخَذَ يُغَسِّلُ أيديَهمْ وَيُوَضِّئُهُم بيدِه ، ويَمْسَحُ أيْدِيَهم بِثِيَابِه ، فتعاظَمُوا ذلك وتَكارَهُوه ، فقال : أَلَا مَنْ رَدَّ عَلَىَّ شَيْئًا الليلةَ مِمّا أَصْنَعُ فليسَ مِنِّى ، ولا أنا منه . فأَقَرُّوه حتى إذا فَرَغَ مِن ذلك قال : أَمَّا ما صَنَعْتُ بكم اللَّيلةَ مِمّا خَدمْتُكُم[3] على الطعام ، وغَسَلْتُ أيْدِيَكم بيدِى ، فلْيكُنْ لكم بى أُسْوَةٌ ، فإنَّكم تَرَوْنَ أَنِّى خَيْرُكم ، فلا يَتَعَظَّمْ بَعْضُكم على بَعْضٍ ، ولْيَبْذُلْ بعضُكم لبعضٍ نَفْسَه ، كما بَذَلْتُ نفْسِى لكم ، وأَمَّا حاجتى التى اسْتَعَنْتُكم عليها ، فتدْعُونَ لىَ[4] اللَّهَ وتجْتَهِدُونَ فى الدُّعاءِ أنْ يُؤَخِّرَ أَجَلِى . فَلَمَّا نَصَبُوا أَنْفُسَهم للدُّعاءِ وأرادُوا أن يَجتَهِدُوا ، أخذَهم النَّوْمُ حتى لم يَسْتَطِيعُوا دُعاءً ، فجعل يُوقِظُهم ، ويقولُ : سبحانَ اللَّهِ ،

---

(١) تفسير الطبرى ٦/ ١٣. تاريخ الطبرى ١/ ٦٠١، ٦٠٢.

(٢) فى الأصل : « يحدثهم » .

(٣) فى الأصل : « حدثتكم » .

(٤) سقط من : م .

أما تَصْبِرون لى ليلةً واحدةً ، تُعِينُونِى فيها ؟ فقالوا : واللَّهِ ما نَدْرى مَا لنا ، واللَّهِ لقد كُنَّا نَسْمُرُ فَنُكْثِرُ السَّمَرَ ، وما نطِيقُ الليلةَ سَمَرًا ، وما نُرِيدُ دُعَاءً إلا حِيلَ بيْنَنا وبيْنَه . فقال : يُذْهَبُ بالراعِى وتَتَفَرَّقُ الغَنَمُ ، وجعلَ يأتى بكلامٍ نحوِ هذا ، يَنْعِى به نَفْسَه . [٢٧١/١و] ثم قال : الحقُّ لَيَكْفُرَنَّ بى أَحَدُكم قبلَ أَنْ يَصيحَ الدِّيكُ ثلاثَ مَرَّاتٍ ، ولَيَبِيعَنِّى أحدُكم بدراهمَ يَسيرةٍ ، ولَيَأْكُلَنَّ ثَمَنِى . فخرجوا وتفرَّقوا ، وكانتِ اليهودُ تَطْلُبُه فأَخذوا شمعونَ - أَحدَ الحوارِيِّين - فقالوا : هذا مِنْ أصحَابِه . فَجَحَدَ ، وقال : مَا أَنَا بصاحِبِه . فتركوه ، ثم أَخَذَه آخرونَ ، فَجَحَد كذلك ، ثُمَّ سَمِعَ صوتَ ديكٍ ، فبكى وأَحزَنَه . فَلَمَّا أَصْبَحَ أتى أَحَدُ الحوارِيِّين إلى اليهودِ ، فقال : ما تجْعَلُون لى إِنْ دَلَلْتُكم على المسيحِ . فجعلوا له ثلاثينَ دِرْهمًا فأخذَها وَدَلَّهُم عليه . وكان شُبِّه عليهم قبلَ ذلك فأخذوه ، واسْتَوْثَقُوا منه ، ورَبَطوه بالحبلِ وجعلوا يقودُونَه ، ويقولون : أنت كُنْتَ تُحْيِى الموتى ، وتَنْتَهِرُ الشَّيطانَ ، وتُبْرِئُ المجْنُونَ ، (1)أَفَلَا تُنَجِّى(1) نفسَك من هذا الحبلِ ؟ ويَبْصُقون عليه ، ويُلْقُون عليه الشَّوْكَ ، حتى أَتَوْا به الخَشَبَةَ التى أرادُوا أَن يَصْلُبوه عليها ، فرفَعه اللَّهُ إليه ، وصَلَبوا ما شُبِّه لهم ، فَمَكَثَ سَبْعًا . ثُم إنَّ أُمَّه والمرأةَ التى كان يداويها عيسى ، فأبرأها اللَّهُ مِن الجنونِ ، جاءَتا تَبْكِيان حيثُ كان المصلوبُ ، فجاءهما عيسى ، فقال : علام تَبْكِيان . قالتا : عليك . فقال : إنِّى قَدْ رَفَعَنى اللَّهُ إليه ، ولم يُصِبْنى إلَّا خيرٌ ، وإنَّ هذا شىءٌ شُبِّهَ لهم ، فَأْمُرَا الحوارِيِّين أَنْ يَلْقَوْنى إلى مكانِ كذا وكذا . فَلَقُوه إلى ذلك المكانِ أَحَدَ عَشَرَ ، وفَقَدَ الذى كان باعَه ودَلَّ عليه اليهودَ ، فسأَلَ عنه أَصحابَه ، فقالوا : إنَّه

(١-١) فى الأصل : «ألا تفك» . وفى ح ، ص : «ألا تفتك» .

نَدِمَ على ما صَنَعَ، فاخْتَنَقَ وقَتَلَ نفسَه. فقال: لو تاب لتابَ اللَّهُ عليه. ثم سَأَلَهم عن غلامٍ يتبعُهم يقال له: يُحَنَّا[1]. فقال: هو معكم. فانطَلِقُوا فإنَّه سَيُصْبِحُ كُلُّ إنسانٍ مِنكم يحدِّثُ بلغةِ قومٍ فلْيُنْذِرْهم ولْيَدْعُهم. وهذا إسنادٌ غريبٌ عجيبٌ، وهو أَصحُّ مِمّا ذَكَرَه النَّصارَى، لَعَنَهم اللَّهُ، مِن أَنَّ المسيحَ جاء إلى مَرْيَمَ، وهى جالسةٌ تَبْكِى عندَ جِذْعِه، فأراها مكانَ المساميرِ من جَسَدِه، وأخبرها أن رُوحَه رُفِعَتْ، وأَنَّ جسدَه صُلِبَ، وهذا بَهْتٌ وكَذِبٌ واختلاقٌ وتَحْريفٌ وتبديلٌ وزيادةٌ باطلةٌ فى الإِنْجيلِ على خِلافِ الحقِّ ومقتضى النَّقْلِ.

وحكى الحافظُ ابنُ عساكرَ[2]، مِن طريقِ يَحْيَى بنِ حبيبٍ، فيما بَلَغَه أَنَّ مريمَ سألتْ مِن بيتِ المَلِكِ - بعدَ ما صُلِبَ المصْلوبُ بسبعةِ أيامٍ، وهى تَحْسَبُ أنَّه ابنُها - أَنْ يُنْزِلَ جَسَدَه، فأجابهم إلى ذلك، ودُفِنَ هنالك، فقالت مريمَ لأُمِّ يحيى: أَلا تَذْهَبين بِنَا نزورُ قَبْرَ المسيحِ. فذَهَبَتَا فلمَّا دَنَتَا مِن القبرِ، قالت مريمُ لأمِّ يَحْيى: أَلَا تَسْتَتِرين. فقالت: ومِمَّنْ أَسْتَتِرُ. فقالت: [١/٢٧١ظ] من هذا الرَّجلِ الذى هو عندَ القبرِ. فقالت أُمُّ يحيى: إنِّى لا أَرَى أَحَدًا. فَرَجَتْ مريمُ أن يكونَ جبريلَ، وكانت قَدْ بَعُدَ عَهْدُها به، فاسْتَوْقَفَتْ أُمَّ يحيى وذهبتْ نحوَ القَبْرِ، فلمَّا دَنَتْ من القبرِ، قال لها جبريلُ، وعَرَفَتْه: يا مريمُ، أين تُريدينَ؟ فقالت: أَزورُ قَبْرَ المسيحِ وأُسَلِّمُ عليه وأُحْدِثُ عهدًا به. فقال: يا مريمُ، إنَّ هذا ليس المسيحَ، إنَّ اللَّهَ قد رفعَ المسيحَ، وطَهَّره مِن الذين كفروا، ولكنَّ هذا الفَتَى الذى أُلْقِيَ شَبَهُه عليه وصُلِبَ وقُتِل مكانَه، وعَلَامةُ ذلك أَنَّ أَهْلَه قد

---

(١) فى الأصل، م، ص: «يحيى». انظر تفسير الطبرى ٩/ ٣٧٠، بتحقيق أحمد شاكر.

(٢) تاريخ دمشق، الجزء المطبوع من تراجم النساء ص ٣٨٦، ٣٨٧.

فقدوه ، فلا يَدْرون ما فُعِلَ به ، فهم يَبْكُونَ عليه ، فإذا كان يومُ كذا وكذا ، فَأْتِى غَيْضَةَ[1] كذا وكذا ، فإنَّك تَلْقِينَ المسيحَ . قال : فَرَجَعَتْ إلى أُخْتِها ، وصَعِدَ جبريلُ ، فأَخْبَرَتْها عن جبريل ، وما قال لها من أَمْرِ الغَيْضَةِ . فلمَّا كان ذلك اليومُ ، ذهبت فوجدَتْ عيسى فى الغَيْضَةِ ، فلمّا رآها أسْرَعَ إليها ، فأَكَبَّ عليها ، فَقَبَّلَ رَأْسَها ، وجعلَ يدْعُو لها كما كان يفعَلُ ، وقال : يا أُمَّه ، إنَّ القومَ لم يقْتُلونى ، ولكنَّ اللَّهَ رَفَعَنى إليه ، وأَذِنَ لى فى لقائكِ ، والموتُ يأتيك قريبًا ، فاصْبرى واذْكُرِى اللَّهَ . ثُمَّ صَعِدَ عيسى فلم تَلْقَه إلَّا تلك المرَّةَ حتى ماتتْ . قال : وبلغنى أَنَّ مريمَ بَقِيَتْ بعدَ عيسى خَمْسَ سنينَ ، وماتَتْ ولها ثلاثٌ وخمسون سَنَةً ، رضى اللَّهُ عنها وأَرْضَاها .

وقال الحَسَنُ البَصْرِيُّ : كان عُمْرُ عيسى ، عليه السَّلامُ ، يومَ رُفِعَ ، أرْبَعًا وثلاثين سَنةً[2] . وفى الحديثِ : « إنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَدْخُلُونها جُرْدًا مُرْدًا مُكَحَّلِينَ ، أبناءَ ثلاثٍ وثلاثين سَنَةً »[3] . وفى الحديثِ الآخَرِ : « على ميلادِ عيسى ، وحُسْنِ يوسفَ »[4] ، وكذا قال حمادُ بنُ سَلَمَةَ ، عَنْ عليِّ بنِ زيدٍ ، عن سعيدِ ابنِ المسيّبِ ، أنَّه قال : رُفِعَ عيسى ، وهو ابنُ ثلاثٍ وثلاثينَ سنةً[5] .

فأَمَّا الحديثُ الذى رواه الحاكمُ فى « مُسْتَدْرَكِه » ، ويعقوبُ بنُ سُفْيانَ الفَسَوِىُّ فى « تاريخِه »[6] ، عن سعيدِ بنِ أبى مريمَ ، عنْ نافِعِ بنِ يزيدَ ، عن

---

(١) الغيضة : الموضع يكثر فيه الشجر ويلتف .

(٢) تاريخ دمشق ٨٢/١٤ مخطوط .

(٣) الترمذى (٢٥٤٥) . حسن (صحيح سنن الترمذى ١٩٨٥) .

(٤) أخرجه الطبرانى في الكبير ٢٥٦/٢٠ بنحوه .

(٥) تاريخ دمشق ٨٨/١٤ مخطوط .

(٦) المعرفة والتاريخ للفسوى ٣١٦/٣ ، وابن عساكر فى تاريخ دمشق ٨٧/١٤ مخطوط ، من طريق الحاكم به .

عُمارَةَ بنِ غَزِيَّةَ ، عن محمدِ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرِو بنِ عثمانَ ، أَنَّ أُمَّه فاطمةَ بنتَ الحُسَيْنِ ، حدَّثَتْه أَنَّ عائشةَ كانت تقولُ : أَخْبَرَتْنى فاطمةُ أَنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ أَخْبَرَهَا أَنَّه « لم يكنْ نبيٌّ كان بعدَه نبيٌّ إِلَّا عاشَ الذى بعدَه نصفَ عُمرِ الذى كان قبلَه ، وأَنَّه أَخْبَرَنى : أَنَّ عيسى ابنَ مريمَ عاش عشرين ومِائَةَ سنةٍ ، فلَا أرانى إلا ذاهبٌ على رأسِ سِتِّين . هذا لفظُ الفَسَوِىِّ ؛ فهو حديثٌ غريبٌ .

قال الحافظُ ابنُ عساكرَ[1] : والصَّحيحُ أَنَّ عيسى لم يبلغْ هذا العُمْرَ ، وإنَّما أرادَ به مُدَّةَ مُقامِه فى أُمَّتِهِ ، كما رَوَى سفيانُ بنُ عُيَيْنَةَ ، عن عَمْرِو بنِ دينارٍ ، عن يَحْيَى بنِ جَعْدَةَ ، قال : قالت فَاطمةُ : قال [٢٧٢/١و] لى رسولُ اللَّهِ ﷺ : « إنَّ عيسى ابنَ مريمَ مكثَ فى بنى إسرائيلَ أربعينَ سَنَةً . وهذا مُنْقَطِعٌ . وقال جريرٌ ، والثَّوْرِىُّ ، عن الأَعْمَشِ عن إبراهيمَ : مَكَثَ عيسى فى قومِه أربعينَ عامًا[2] . ويُرْوَى عن أميرِ المؤمنين عَلِىٍّ ، أَنَّ عيسى ، عليه السلامُ ، رُفِعَ ليلةَ الثانى والعشرين مِن رمضانَ ، وتلك الليلةُ فى مِثْلِها تُوُفِّىَ علىٌّ بعد طَعْنِهِ بِخَمْسَةِ أَيَّامٍ[3] . وقد رَوَى الضَّحَّاكُ ، عن ابنِ عباسٍ أَنَّ عيسى لَمَّا رُفِعَ إلى السماءِ جاءَتْه سَحَابَةٌ فَدَنَتْ منه حتى جلسَ عليها ، وجاءَتْه مريمُ فودَّعَتْه وَبَكَتْ ، ثم رُفِعَ وهى تنظرُ إليه وأَلْقَى إليها عيسى بُرْدًا له ، وقالَ : هذا عَلَامَةُ ما بَيْنِى وبينَكِ يومَ القيامةِ . وأَلْقَى عِمامَتَه إلى[4] شَمْعونَ ، وجعلتْ أُمُّه تُوَدِّعُه بأُصْبُعِها ، تُشيرُ بها إليه حتى غابَ عنها[5] . وكانت تُحِبُّه حُبًّا شديدًا ؛ لأَنَّه توفَّرَ

---

(١) تاريخ دمشق ٨٨/١٤ مخطوط .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق ٨٧/١٤.
(٤) فى م : « على » .
(٥) تاريخ دمشق ٨٥/١٤ مخطوط .

عليها حُبُّه من جِهَتَيِ الوالدَيْنِ، إذْ لَا أَبَ له، وكانت لا تُفارِقُه سَفَرًا ولا حَضَرًا. قال بعضُ الشُّعَرَاءِ[1]:

وكنتُ أَرى كالموتِ من بينِ ساعةٍ   فكيفَ بِبَيْنٍ كانَ مَوعِدَه الحشْرُ

وذكر إسحاقُ بنُ بِشْرٍ، عن مُجاهِدِ بنِ جَبْرٍ[2]، أَنَّ اليهودَ لَمَّا صَلَبُوا ذلك الرَّجُلَ الذى شُبِّهَ لهم، وهم يَحْسَبونَهُ المسيحَ، وَسَلَّم لهم أَكْثَرُ النَّصارَى؛ بجهلِهِمْ ذلك، تَسَلَّطُوا على أصحابِه بالقَتْلِ والضَّرْبِ والحَبْسِ فبلغَ أَمْرُهم إلى صاحبِ الرُّومِ، وهو مَلِكُ دِمَشْقَ فى ذلك الزَّمانِ، فقيل له: إنَّ اليَهُودَ قد تَسَلَّطوا على أَصحابِ رَجُلٍ كان يَذْكُرُ لهم أنَّه رسولُ اللَّهِ، وكان يُحْيِى الموتى، ويُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ، ويفعلُ العجائبَ، فَعَدَوْا عليه فقتلُوهُ، وأهانُوا أَصْحابَه وحبسُوهم. فبعثَ فَجِئَ بهم، وفيهم يحيَى بنُ زكريَّا، وشَمْعُونُ، وجماعةٌ، فسألهم عن أَمْرِ المسيحِ، فأَخْبرُوه عنه، فتابَعَهَم[3] فى دينِهم، وأَعْلَى كلمتَهم، وظَهَرَ الحقُّ على اليهودِ، وَعَلَتْ كلمةُ النَّصارَى عليهم، وبَعَثَ إلى المصْلوبِ فَوُضِعَ عن جِذْعِه، وجِيءَ بالجِذْعِ الذى صُلِبَ عليه ذلكَ الرَّجلُ، فعظَّمَه، فَمِن ثَمَّ عَظَّمَتِ النَّصارَى الصَّليبَ، ومِن ههنا دَخَلَ دينُ النَّصْرانِيَّةِ فى الرُّومِ[4]. وفى هذا نَظَرٌ مِن وجوهٍ؛ أَحَدُها، أنَّ يَحْيَى ابنَ زكريَّا نبيٌّ، لا يُقِرُّ على أَنَّ المصلوبَ عيسى؛ فإنَّه مَعصُومٌ يعلمُ ما وَقَعَ على جِهَةِ الحَقِّ. الثانى، أَنَّ الرُّومَ لم يدخلُوا فى دينِ المسيحِ إلَّا بعدَ ثَلثِمائةِ سنةٍ،

---

(١) هو سلمة بن يزيد الجعفى. شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ٣/ ١٠٨٠.

(٢) فى م: «جبير». انظر تهذيب الكمال ٢٧/ ٢٢٨.

(٣) فى م: «فبايعهم».

(٤) تاريخ دمشق ١٤/ ٨٥ مخطوط.

وذلك فى زمانِ قسطنطينَ بنِ قسطسَ بانى المدينةِ المنسوبةِ إليه على ما سَنَذْكُره . الثالثُ ، أنَّ اليهودَ لَمَّا صَلَبوا ذلك الرَّجُلَ ، ثُم أَلْقَوْه بخَشَبَتِه جعَلُوا مكانَه مَطْرَحًا للقُمَامَةِ والنَّجَاسَةِ وَجِيَفِ [٢٧٢/١ظ] الميّتاتِ والقاذوراتِ ، فلم يَزَلْ كذلكَ حتى كان فى زمانِ قسطنطينَ المذكورِ ، فَعَمَدَتْ أُمُّه هيلانةُ الحرَّانيَّةُ الفندقانيةُ فاستَخْرَجَتْه من هُنالِك معتقدةً أنَّه المسيحُ ، ووجدوا الخشَبةَ التى صُلِبَ عليها المصْلوبُ ، فذكرُوا أنَّه ما مَسَّها ذُو عاهَةٍ إلا عُوفِى . فاللَّهُ أعلمُ أَكَانَ هذا أَمْ لا ؟ وهَلْ كان هذا ؛ لأَنَّ ذلك الرجلَ الذى بذلَ نَفْسَه كان رجلًا صالحًا ، أو كان هذا مِحْنَةً وفِتنةً لِأُمَّةِ النَّصارَى فى ذلك اليومِ ؟ حتى عَظَّموا تلك الخشَبَةَ ، وغَشَّوْها بالذَّهبِ واللآلِئِ ، ومِن ثَمَّ اتخذُوا الصُلْباناتِ ، وتَبَرَّكوا بِشَكْلِها وَقَبّلُوها لَعَنَهم اللَّهُ ، وأَمَرَتْ أُمُّ الملِكِ هيلانةُ فَأُزيلَتْ تلك القُمامةُ ، وبُنِى مكانَها كنيسةٌ هائلةٌ مزخْرَفَةٌ بأَنْواعِ الزِّينةِ . فهى هذِه المشهورةُ اليومَ ببلدِ بَيْتِ المقْدِسِ ، التى يُقَالُ لها : القُمامةُ . باعتبارِ ما كان عِنْدَها ، ويُسَمُّونها القيامةَ ، يعنون التى يقومُ جَسَدُ المسيحِ مِنها . ثم أَمَرَتْ هيلانةُ بِأَنْ تُوضَعَ قُمَامَةُ البَلَدِ ، وكُنَاسَتُه وقاذوراتُه على الصَّخْرةِ التى هى قِبْلةُ اليهودِ ، فلم تَزَلْ كذلك حتى فتحَ عُمَرُ بنُ الخطّابِ ، رَضِىَ اللَّهُ عنه ، بيْتَ المَقْدِسِ ، فكَنَسَ عنها القُمامَةَ بِرِدَائِه ، وطَهَّرها من الأَخْبَاثِ والأَنْجَاسِ ، ولم يضعِ المسجدَ وراءَها ، ولكن أمامَها ، حيثُ صَلَّى رسولُ اللَّهِ ﷺ ، ليلةَ الإِسراءِ بالأَنبياءِ ، وهو الأَقْصَى .

صِفةُ عيسى، عليه السَّلامُ، وشمائلُه وفضائلُه

قال اللَّهُ تعالى[1] : ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ قيل: سُمِّىَ المسيحَ؛ لِمَسْحِهِ الأَرْضَ، وهو سياحَتُه فيها، وفِرَارِه بدينِه من الفِتَنِ فى ذلك الزَّمَانِ؛ لشِدَّةِ تَكْذِيبِ اليهودِ له، وافْترائِهم عليه وعلى أُمِّه، عليهما السّلامُ. وقيل: لأَنَّه كان مَمْسوحَ القَدَمَيْنِ. وقال تعالى[2] : ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾. وقال تعالى[3] : ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [البقرة: ٨٧]. والآياتُ فى ذلك كثيرةٌ جِدًّا. وقد تَقَدَّمَ ما ثَبَتَ فى «الصَّحيحَيْنِ»[4] : «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا والشَّيْطَانُ يَطْعَنُ فى خَاصِرَتِه حِينَ يُولدُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا إِلَّا مَرْيَمَ وابْنَهَا، ذهبَ يَطْعَنُ فَطَعَنَ فى الحِجابِ». وَتَقَدَّمَ حديثُ عُميرِ بنِ هانئٍ، عن جُنادةَ، عن عُبادةَ، عن رسولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّه قال[5] : «من شَهِدَ أن لا إلهَ إلا اللَّهُ وحْدَه لا شريكَ له، وأَنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، وأَنَّ عيسى عبدُ اللَّهِ ورسولُه، وكلمتُه التى أَلْقَاها إلى مريمَ، وروحٌ منه، والجنَّةَ حَقٌّ، والنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَه اللَّهُ الجنَّةَ على

---

(١) التفسير ٣/١٤٨- ١٥٠.

(٢) التفسير ٣/ ١١٨.

(٣) التفسير ١/ ١٧٥، ١٧٦.

(٤) تقدم تخريجه ص ٤٢٠ .

(٥) تقدم تخريجه ص ٤٥٣ .

ما كان من العَمَلِ » رواه البُخارِيُّ [١/٢٧٣و] ، وهذا لفظُه ، ومُسْلمٌ .

ورَوَى البُخارِيُّ ، ومسلمٌ[1] مِن حَدِيثِ الشَّعْبِيِّ ، عن أبى بُرْدَةَ بنِ أبى موسى ، عن أبيه ، قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « إذا أَدَّبَ الرَّجُلُ أَمَتَه ، فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَها ، وعَلَّمَها فأَحْسَنَ تَعْلِيمَها ، ثُم أَعْتَقَهَا ، فتَزَوَّجَها كان له أَجْرانِ ، وإذا آمنَ بعيسى ابنِ مريمَ ثُم آمَنَ بى ، فَلَه أَجْرانِ ، والعبدُ إذا اتَّقى رَبَّه وأَطاعَ مواليَه ، فله أَجْرانِ » . هذا لفظُ البُخارِيِّ .

وقال البخاريُّ[2] : حدَّثنا إبراهيمُ بنُ موسى ، أَنْبَأَنا هشامٌ ، عن مَعْمَرٍ (ح) وحدَّثنى محمودٌ ، حدَّثنا عبدُ الرَّزَّاقِ ، أنبأنا مَعْمَرٌ ، عن الزُّهْرِيِّ ، أَخْبرنى سعيدُ ابنُ المسيَّبِ ، عن أبى هريرةَ ، قال : قال النَّبِيُّ ﷺ ليلةَ أُسْرِىَ به : « لَقِيتُ موسى » . قال : فَنَعَتَه فإذا رجلٌ حسِبْتُه قال : « مُضْطَرِبٌ رَجِلُ الرَّأْسِ ، كأَنَّه مِن رجالِ شَنُوءَةَ » . قال : « ولَقِيتُ عيسى » . فَنَعَتَه النبيُّ ﷺ ، فقال : « رَبْعَةٌ أَحْمَرُ ، كأَنَّما خرجَ مِن دِيماسٍ ، [3]يَعْنى الحَمَّامَ[3] ، ورأيتُ إبراهيمَ وأنا أَشْبَهُ وَلَدِه به » . الحديث . وقد تَقَدَّمَ فى قِصَّتَىْ إبراهيمَ وموسى . ثَمَّ قال[4] : حدَّثنا محمدُ ابنُ كثيرٍ ، أنبأَنا إسرائيلُ ، عن عثمانَ بنِ المُغِيرةِ ، عن مُجاهدٍ ، عن ابنِ عُمَرَ ، قال : قال النبيُّ ﷺ : « رأيتُ عيسى ، وموسى ، وإبراهيمَ ؛ فأَمَّا عيسى فأَحْمرُ جَعْدٌ عريضُ الصَّدْرِ ، وأَمَّا موسى فآدَمُ جَسيمٌ سَبْطٌ كأَنَّهُ من رِجَالِ الزُّطِّ » .

---

(١) البخارى (٣٤٤٦) ، ومسلم (١٥٤) .

(٢) البخارى (٣٤٣٧) . وقد تقدم هذا الحديث فى ١/٣١٦ مخرجًا فى المسند .

(٣ - ٣) قال ابن حجر : هو تفسير عبد الرزاق . فتح البارى ٦/ ٤٨٤ .

(٤) البخارى (٣٤٣٨) . عن ابن عباس وليس ابن عمر ، انظر تحفة الأشراف ، وكلام الحافظ ابن حجر فى النكت الظراف . التحفة ٥/ ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

تَفَرَّدَ به البخاريُّ[1] .

وحدَّثنا إبراهيمُ بنُ المُنْذِرِ، حدَّثنا أبو ضَمْرَةَ[2] ، حَدَّثنا موسى بنُ عُقْبَةَ، عن نافِعٍ، قال: قال عبدُ اللَّهِ بنُ عُمَرَ: ذَكَرَ النبيُّ ﷺ، يومًا بينَ ظَهْرَانَي النَّاسِ المسيحَ الدَّجَّالَ، فقال: «إن اللَّهَ ليس بأَعْوَرَ، ألا إنَّ المسيحَ الدَّجَّالَ أعْورُ العينِ اليُمْنَى، كأَنَّ عَيْنَه عِنَبَةٌ طافيةٌ، وأَرَانِيَ الليلةَ عندَ الكَعْبَةِ فى المنامِ، فإذا رجلٌ آدَمُ كأحسنِ ما يُرَى مِن أُدْمِ الرِّجالِ، تَضْرِبُ لِمَّتُه بينَ مَنْكِبَيْه، رَجِلُ الشَّعْرِ، يَقْطُر رَأْسُه ماءً، واضعًا يَدَيْهِ على مَنْكِبَىْ رَجُلَيْنِ، وهو يَطُوفُ بالبَيْتِ، فقلتُ: مَنْ هذا؟ فقالوا: المسيحُ ابنُ مريمَ. ثم رأيتُ رَجُلًا وراءَه جَعْدًا قَطَطًا أعْورَ عَيْنِ اليُمْنَى كَأَشْبَهِ مَنْ رأيتُ بابنِ قَطَنٍ، واضعًا يدَيه[3] على مَنْكِبَى رَجُلٍ يطوفُ بالبيْتِ، فقلتُ: مَنْ هذا؟ فقالوا: المسيحُ الدَّجَّالُ». ورواه مسلمٌ[4] من حديثِ موسى بنِ عُقْبَةَ. ثم قال البُخاريُّ: تابعه عُبَيْدُ[5] اللَّهِ بنُ نافعٍ. ثُمَّ ساقَهُ من طريقِ الزُّهريِّ، عن سالِمٍ، عن[6] ابنِ عُمَرَ[7] . قال الزُّهريُّ: وابنُ قَطَنٍ رجلٌ من خُزَاعةَ، هَلَكَ فى الجاهليةِ[8] . فَبَيَّنَ، صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه، صِفَةَ المسِيحَيْنِ؛ مَسِيحِ الهُدَى[9] ومسيحِ الضَّلالَةِ [١/٢٧٣ظ]؛ لِيُعْرَفَ

(١) البخارى (٣٤٣٩).
(٢) فى الأصل: «ضميرة».
(٣) فى م: «يده».
(٤) مسلم (١٦٩).
(٥) فى م: «عبد».
(٦) سقط من: م.
(٧) البخارى (٣٤٤١).
(٨) البخارى (٣٤٤١).
(٩) فى م: «المهدى».

هذا إذا نزلَ ، فيؤمِنَ به المؤمنون ، ويُعْرَفَ الآخرُ فيحذَرَه الموحِّدون .

وقال البُخاريُّ[1] : حدَّثنا عبدُ اللَّهِ بنُ محمدٍ ، حدَّثنا عبدُ الرَّزَّاقِ ، أنبأَنا مَعْمَرٌ ، عن هَمَّامِ بنِ مُنَبِّهٍ ، عن أبى هُرَيْرَةَ ، عن النَّبىِّ ﷺ ، قال : « رأى عيسى ابنُ مريمَ رجلًا يَسْرِقُ ، فقال له : أَسَرَقْتَ ؟ قال : كَلَّا ، والذى لَا إلهَ إلَّا هُو . فقال عيسى : آمنتُ باللَّهِ وكذَّبْتُ عَيْنَىَّ » . وكذا رواه [2] مسلمٌ[3] عن[2] محمدِ بنِ رافعٍ ، عن[4] عبدِ الرَّزَّاقِ .

وقال أحمدُ[5] : حَدَّثنا عفَّانُ ، حدَّثنا حمَّادُ بنُ سَلَمَةَ ، عن حُمَيْدٍ الطَّويلِ ، عن الحسنِ وغيرِه ، عن أبى هُرَيْرَةَ ، قال : ولا أعلمُه إلَّا عن النبىِّ ﷺ ، قال : « رأى عيسى رجلًا يَسْرِقُ ، فقال : يا فلانُ ، أَسَرَقْتَ ؟ فقال : لَا ، واللَّهِ ما سَرَقْتُ . قال : آمنتُ باللَّهِ وكذَّبْتُ بَصَرِى » . وهذا يدلُّ على سَجِيَّةٍ[6] طاهرةٍ ؛ حيثُ قَدَّمَ حَلِفَ ذلك الرَّجُلِ - وظَنَّ أَنَّ أحدًا لا يَحْلِفُ بعظمةِ اللَّهِ كاذبًا - على ما شاهدَه مِنه عِيانًا ، فقَبِلَ عُذْرَه ، ورَجَعَ على نفسِهِ ، فقالَ : آمنتُ باللَّهِ . أَىْ ؛ صَدَّقْتُكَ . وَكَذَّبْتُ بَصَرِى ؛ لِأَجْلِ حَلِفِك .

وقال البُخاريُّ[7] : حدَّثَنا محمدُ بنُ يوسفَ ، حَدَّثنا سفيانُ ، عن المُغيرةِ بنِ النُّعْمانِ ، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ ، عن ابنِ عبَّاسٍ ، قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ :

---

(١) البخارى (٣٤٤٤) .
(٢ - ٢) سقط من : م .
(٣) مسلم (٢٣٦٨) .
(٤) فى الأصل : « ابن » .
(٥) المسند ٢/ ٣٨٣.
(٦) السجية : الطبيعة والخلق .
(٧) البخارى (٣٤٤٧) .

«تُحْشَرون حُفاةً عُراةً غُرْلًا». ثم قرأ: «﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ فأوَّلُ الخلْقِ يُكْسَى إبراهيمُ، ثم يُؤْخَذُ بِرجالٍ من أصْحابِي ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمالِ، فأقولُ: أصحابِي. فيُقالُ: إنَّهم لم[1] يَزالُوا مُرْتدِّينَ على أعْقابِهم منذُ فارَقْتَهم. فأقولُ كما قال العبدُ الصالحُ عيسى ابنُ مريمَ: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾». تفرَّدَ به دونَ مسلمٍ مِن هذا الوَجْهِ.

وقال[2] أيضًا: حدَّثنا عبدُ اللَّهِ بنُ الزُّبَيْرِ الحُمَيْدِيُّ، حدَّثنا سُفيانُ، سمعتُ الزُّهْرِيَّ، يقولُ: أخبرني عُبَيْدُ[3] اللَّهِ بنُ عبدِ اللَّه، عن ابنِ عباسٍ، سَمِعَ عُمَرَ يقولُ على المِنْبَرِ: سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «لا تُطْرُونى كما أَطْرَتِ النَّصارَى عيسى ابنَ مريمَ، فإنَّما أنا عبدٌ، فقولوا: عبدُ اللَّهِ ورسولُه».

وقال البُخاريُّ[4]: حدَّثنا [5]مُسْلِمُ بنُ[5] إبراهيمَ، حدَّثنا جريرُ بنُ حازمٍ، عن محمدِ بنِ سيرينَ، عن أبى هُرَيْرَةَ، عن النبيِّ ﷺ، قال: «لم يَتَكلَّمْ فى المَهْدِ إلَّا ثلاثةٌ؛ عيسى، وكان فى بنى إسرائيلَ رجلٌ يُقالُ له: جُرَيْجٌ. يُصَلِّى، إذْ جاءتْه أُمُّه فدَعَتْه، فقال: أُجيبُها أَوْ أُصَلِّى؟ فقالتْ: اللهمَّ [١/٢٧٤و] لا تُمِتْه حتى تُرِيَه وُجُوهَ المُومِسَاتِ. وكان جُرَيْجٌ فى صومعتِه، فتَعَرَّضَتْ له امرأةٌ وكَلَّمَتْه، فأَبَى، فأَتَتْ راعِيًا فأَمْكَنَتْه من نفْسِها، فوَلَدَتْ غُلامًا، فقيلَ لها:

---

(١) فى م: «لن».
(٢) البخارى (٣٤٤٥).
(٣) فى م: «عبد».
(٤) البخارى (٣٤٣٦).
(٥ - ٥) سقط من: م.

مِمَّن؟ فقالتْ: مِن جُرَيجٍ. فَأَتَوْه وكَسَرُوا صَوْمعتَه، فَأَنْزَلُوه وَسَبُّوهُ، فتوضَّأَ وصلَّى، ثُم أتى الغلامَ، فقال: مَن أبوكَ يا غُلامُ؟ قال: فلانٌ الرَّاعى. قالوا: أَنَبْنِى صَوْمَعَتَكَ مِن ذَهَبٍ؟ قال: لا، إلَّا من طِينٍ. وكانت امرأةٌ تُرْضِعُ ابْنًا لها فى بنى إسرائيلَ، فَمَرَّ بها رَجُلٌ راكبٌ ذُو شَارَةٍ، فقالت: اللَّهمَّ اجْعلِ ابنى مِثْلَه. فترَكَ ثَدْيَها وأَقْبَلَ على الرَّاكبِ، فقال: اللهمَّ لا تجعلنى مِثْلَه. ثم أقبلَ على ثَدْيِها يَمَصُّه». قال أبو هريرةَ: كأنِّى أنظرُ إلى النبىِّ ﷺ، يَمَصُّ أُصْبُعَه: «ثُم مُرَّ بأَمَةٍ، فقالَتْ: اللهمَّ لا تجعلِ ابنى مِثْلَ هذه. فتركَ ثَدْيَها، فقالَ: اللَّهمَّ اجْعلْنى مِثْلَها. فقالت: لِمَ ذلك؟ فقال: الرَّاكِبُ جَبّارٌ من الجبابِرَةِ، وهذه الأَمَةُ يقولون: سَرَقْتِ وَزَنَيْتِ. ولم تَفْعلْ».

وقال البُخاريُّ[1]: حَدَّثَنا أبو اليمانِ، حدَّثنا شُعَيْبٌ، عن الزُّهْرِىِّ، أخبرنى أبو سَلَمَةَ، أنَّ أبا هُرَيرةَ قال: سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ، يقولُ: «أنا أَوْلَى النَّاسِ بابنِ مريمَ والأَنبياءُ أولادُ عَلَّاتٍ، ليس بَيْنى وبَيْنَه نبىٌّ». تفرَّدَ به البُخاريُّ مِن هذا الوَجْهِ. ورواهُ ابنُ حِبَّانَ[2] فى «صحيحِه»، مِن حديثِ أبى داودَ الحفَرى، عن الثَّوْرِىِّ عن أبى الزِّنادِ[3] عن الأَعْرجِ[3]، عن أبى سلَمَةَ، عن أبى هريرةَ.

وقال أحمدُ[4]: حدَّثنا وكيعٌ حدَّثنا سفيانُ، هو الثَّوْرِىُّ، عن أبى الزِّنادِ، عن الأَعْرجِ، عن أبى هريرةَ، قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «أنا أَوْلَى النَّاسِ بعيسى، عليه السلامُ، والأَنبياءُ إخوةٌ أولادُ عَلَّاتٍ، وليس بينى وبينَ عيسى

---

(١) البخارى (٣٤٤٢).
(٢) الإحسان (٦١٩٥).
(٣ - ٣) سقط من: النسخ. والمثبت من صحيح ابن حبان.
(٤) المسند ٢/٤٦٣.

نبيٌّ » . وهذا إِسْنادٌ صحيحٌ على شَرْطِهما ، ولم يُخْرِجُوه مِن هذا الوجهِ .

وأَخْرَجَه أحمدُ[1] ، عن عبدِ الرَّزَّاقِ ، عن مَعْمَرٍ ، عن هَمَّامٍ ، عن أبى هريرةَ ، عن النبيِّ ﷺ ، بنحْوِه .

وأخرجه ابنُ حِبَّانَ[2] مِن حديثِ عبدِ الرَّزَّاقِ به بنحوِهِ .

وقالَ أحمدُ[3] : حدَّثنا يَحْيَى ، عن ابنِ أبى عَرُوبَةَ ، حَدَّثنا قَتادةُ ، عن عبدِ الرَّحمنِ بنِ آدمَ ، عن أبى هُرَيْرَةَ ، عن النَّبيِّ ﷺ ، قال : « الأنبياءُ إخوةٌ لِعَلَّاتٍ ، ودينُهم واحدٌ وأمَّهاتُهم شَتَّى ، وأنا أَوْلَى الناسِ بعيسى ابنِ مريمَ ؛ لأنَّه لم يكنْ بَيْنى وبَيْنَه نبيٌّ ، وإنَّه نازلٌ ، فإذا رأَيْتموه فاعْرِفوه ، فإنَّه رجلٌ مَرْبوعٌ إلى الحُمْرَةِ والبياضِ ، سَبْطٌ ، كأنَّ رأسَهُ يَقْطُرُ ، وإنْ لم يُصِبْه بَلَلٌ ، بين مُمَصَّرَتَيْنِ[4] فَيَكْسِرُ الصَّليبَ ، ويَقْتلُ الخِنْزِيرَ ، ويَضَعُ الجِزْيَةَ ، ويُعَطِّلُ المِلَلَ ، حتى تَهْلِكَ فى زمانِه المِلَلُ[5] كلُّها غيرَ الإسلامِ ، ويُهْلِكُ اللَّهُ فى زمانِه المسيحَ الدَّجَّالَ الكذَّابَ ، وتقَعُ الأَمَنَةُ فى الأَرْضِ حتى تَرْتَعَ الإبلُ مع الأُسْدِ [٢٧٤/١ظ] جميعًا ، والنُّمورُ مع البَقَرِ ، والذِّئابُ مع الغَنَمِ ، ويلعبُ الصِّبْيانُ والغِلْمَانُ بالحيَّاتِ ، لا يَضُرُّ بعضُهم بعضًا ،فَيَمْكُثُ ما شاء اللَّهُ أَنْ يمكُثَ ، ثُمَّ يُتَوَفَّى ، فَيُصَلِّى عليه المسلمون ، ويَدْفِنُونَه » . ثم رَوَاهُ أَحْمَدُ[6] عن عَفَّانَ ، عن همَّامٍ ، عن قَتادَةَ ،

---

(١) المسند ٣١٩/٢. (صحيح) .
(٢) الإحسان (٦١٩٤) . قال الشيخ شعيب : إسناده صحيح على شرط مسلم .
(٣) المسند ٤٣٧/٢.
(٤) بياض بالأصل . وفى ح : « مخصرتين » . والممصرة من الثياب : التى فيها صفرة خفيفة . النهاية لابن الأثير (م ص ر) .
(٥) سقط من : م .
(٦) المسند ٤٠٦/٢. (إسناده صحيح) ، انظر السلسلة الصحيحة (٢١٨٢) .

عن عبدِ الرَّحمنِ، [(1)] عن أبى هُرَيْرَةَ، فذكر نَحْوَه. وقالَ: «فيمكُثُ أربعينَ سنةً، ثم يُتَوفَّى ويُصَلِّى عليه المسلمون» [(1)]. ورَواه أبو داودَ [(2)]، عن هُدْبَةَ بنِ خالدٍ، عن همَّامِ بنِ يَحْيَى به نَحْوَه. وروى هشامُ بنُ [(3)] عُروةَ، عن صالحٍ مَوْلى [(4)] أبى هُرَيْرَةَ، عنه [(5)] أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ، قال: «فيمكُثُ فى الأَرضِ أربعين سنةً». وسيأتى بيانُ نزولِه، عليه السَّلامُ، فى آخرِ الزَّمانِ فى كتابِ «الملاحمِ»، كما بَسَطْنا ذلك أيضًا فى «التفسيرِ» عندَ قولِه تعالَى فى سورةِ «النّساءِ» [(6)]: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾. وقولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ الآية [الزخرف: ٦١]. وإنَّه يَنْزِلُ على المَنارةِ البَيضاءِ بدِمَشقَ، وقد أُقيمتْ صلاةُ الصُّبْحِ، فيقولُ له إمامُ المسلمين: تَقَدَّمْ يا رُوحَ اللَّهِ فَصَلِّ. فيقولُ: لا، بعضُكم على بعضٍ أُمَراءُ، تَكْرِمَةُ اللَّهِ هذه الأُمَّةَ. وفى روايةٍ، فيقولُ له عيسى: إنَّما أُقيمتِ الصَّلاةُ لَكَ. فيُصَلِّى خَلْفَه، ثم يَرْكَبُ ومعه المسلمون فى طَلَبِ المسيحِ الدَّجَّالِ، فيلْحَقُه عندَ بابِ لُدٍّ، فيَقْتُلُه بيدِه الكريمةِ. وذَكَرْنا أنَّه قَوِىَ الرَّجاءُ حينَ بُنِيَتْ هذه المنارةُ الشَّرْقيَّةُ بدمَشقَ التى هى مِن حِجارةٍ بيضٍ، وقد بُنِيَتْ أيضًا مِن أَمْوالِ النَّصارَى حينَ حَرَقوا التى هُدِمَتْ وما حَوْلَها، فينْزِلُ عليها عيسى ابنُ مريمَ، عليه السلامُ، فيقْتُلُ الخِنزيرَ، ويَكْسِرُ الصَّليبَ، ولا يَقْبَلُ من

(١ - ١) سقط من: ح.

(٢) أبو داود (٤٣٢٤) صحيح (صحيح سنن أبى داود ٣٦٣٥).

(٣) فى الأصل: «عن».

(٤) فى الأصل: «عن».

(٥) سقط من: الأصل.

(٦) التفسير ٢/٣٩٩- ٤١٩.

أَحَدٍ إلَّا الإِسلامَ ، وأنه يَحُجُّ مِن فَجِّ الرَّوْحَاءِ ، حاجًّا أو مُعْتَمِرًا ، أو لِثِنْتَيْهِمَا ، ويُقيمُ أربعينَ سنةً ثُم يموتُ فَيُدْفَنُ فيما قيلَ فى الحُجْرَةِ النبويّةِ عندَ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، وصاحِبَيْهِ . وقد وَرَدَ فى ذلك حديثٌ ذَكَرَه ابنُ عساكرَ[1] فى آخرِ ترجمةِ المسيحِ ، عليه السلامُ ، فى كتابِه ، عن عائشةَ مَرْفُوعًا ، أنَّه يُدْفَنُ مع رسولِ اللَّهِ ﷺ ، وأبى بكرٍ وعُمَرَ فى الحُجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ ، ولكن لا يصحُّ إسنادُهُ .

وقال أبو عيسى التِّرْمِذِىُّ[2] : حدَّثَنا زيدُ بنُ أَخْزَمَ الطائىُّ حدَّثنا أبو قُتَيْبَةَ سَلْمُ[3] بْنُ قُتَيْبَةَ ، حدَّثنى أبو مَوْدُودٍ المَدَنىُّ ، حدَّثنا عثمانُ بنُ الضَّحَّاكِ ، عن محمدِ بنِ يوسفَ بنِ عبد اللَّهِ بنِ سلامٍ ، عن أبيه ، عن جدِّه ، قال : مكتوبٌ فى التَّوْرَاةِ صِفَةُ محمدٍ ، وعيسى ابنُ مريمَ ، عليهما السَّلامُ ، يُدْفَنُ معه . قال أبو مَوْدُودٍ : وقد بَقِىَ فى البيْتِ موضعُ قبرٍ . ثم قال التِّرْمِذِىُّ : هذا حديثٌ حَسَنٌ . كذا قال . والصَّوابُ[4] الضَّحَّاكُ بنُ عثمانَ المَدَنىُّ . وقال البُخارىُّ[5] : هذا الحديثُ لا يصحُّ عِنْدِى ، ولا يُتَابَعُ عليه .

[٢٧٥/١و] وروى البُخارىُّ[6] عن يَحْيى بنِ حمادٍ ، عن أبى عَوَانَةَ ، عن عاصمٍ الأَحْولِ ، عن أبى عثمانَ النَّهْدِىِّ[7] ، عن سَلْمانَ ، قال : الفترةُ ما بينَ عيسى ومحمّدٍ ﷺ ، سِتُّمائةِ سنةٍ . وعن قَتادةَ : خَمْسُمائةٍ وسِتونَ سنةً[8] .

---

(١) فى الأصل : ماجه . والحديث فى تاريخ دمشق ١٤/١٠٥ مخطوط .

(٢) الترمذى (٣٦١٧) . ضعيف (ضعيف سنن الترمذى ٧٤٣) .

(٣) فى النسخ : « مسلم » . والمثبت من سنن الترمذى . وانظر تهذيب الكمال ١١/ ٢٣٢.

(٤) بعده فى الأصل : « قول » . وفى سنن الترمذى : « والمعروف » .

(٥) التاريخ الكبير (١/ ٢٦٣) .

(٦) البخارى (٣٩٤٨) .

(٧) فى الأصل : « المهدى » . وفى ص : « اليزيدى » . انظر تهذيب الكمال ١٧/ ٤٢٤.

(٨) تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٨٦.

وقيلَ: خَمْسُمائةٍ وأربعونَ سَنةً. وعن الضَّحَّاكِ: أَرْبَعُمائةٍ وبِضْعٌ وثلاثون سنةً[1]. والمشهورُ سِتُّمائةِ سنةٍ. ومنهم من يقولُ: سِتُّمائةٍ وعشرونَ سنةً بالقَمَرِيَّةِ فَتَكونُ سِتَّمائةٍ بالشَّمْسِيَّةِ. واللَّهُ أعلمُ.

وقال ابنُ حِبَّانَ[2] فى «صحيحِه»: ذِكْرُ المدَّةِ التى بقِيتْ فيها أُمَّةُ عيسى على هَدْيِهِ. حَدَّثَنا أبو يَعْلى، حدَّثنا أبو همَّامٍ، حدَّثنا الوليدُ بنُ مسلمٍ، عن الهَيْثَمِ بنِ حُمَيْدٍ، عن الوَضِينِ[3] بنِ عَطَاءٍ، عن نصرِ بنِ عَلْقَمَةَ، عن جُبَيْرِ بنِ نُفَيْرٍ، عن أبى الدَّرْدَاءِ، قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ قبضَ اللَّهُ داودَ مِن بينِ أصحابِه، فَما فُتِنُوا ولا بَدَّلوا، ولقد مَكثَ أصْحابُ المسيحِ على سُنَّتِه وهَدْيِه مِائتَىْ سنةٍ». وهذا حديثٌ غريبٌ جدًّا، وإن صحَّحه ابنُ حِبَّانَ. وذكر ابنُ جريرٍ[4]، عن محمدِ بنِ إسحاقَ، أنَّ عيسى، عليه السلامُ، قبْلَ أن يُرْفَعَ وَصَّى الحوارِيِّين بأن يَدْعُوا النَّاسَ إلى عبادةِ اللَّهِ وحدَه لا شريكَ له، وعَيَّنَ كُلَّ واحدٍ منهم إلى طائفةٍ من النَّاسِ فى إقليمٍ من الأقاليمِ مِن الشَّامِ، والمشْرقِ، وبلادِ المغْرِبِ، فذكَرُوا أنَّه أصبحَ كُلُّ إنسانٍ منهم يَتَكَلَّمُ بلغةِ الذين أرْسَلَه المسيحُ إليهم. وذَكَرَ غيرُ واحدٍ أنَّ الإنجيلَ نقلَه عنه أربعةٌ؛ لُوقَا، ومَتَّى[5]، ومُرْقُسُ، ويُوحَنَّا[6]. وبينَ هذه الأناجيلِ الأربعةِ تفاوُتٌ كثيرٌ بالنسبةِ إلى كُلِّ نسخةٍ ونسخةٍ، وزياداتٌ كثيرةٌ ونقْصٌ بالنسبةِ إلى الأُخْرَى، وهؤلاءِ الأربعةُ

---

(١) تفسير الطبرى ١٦٧/٦.
(٢) الإحسان (٦٢٣٦). قال الشيخ شعيب: إسناده ضعيف.
(٣) فى الأصل: «الوطين».
(٤) تاريخ الطبرى ٦٠٢/١، ٦٠٣.
(٥) فى الأصل: «حنا».
(٦) فى الأصل، ح: «يحنا».

منهم اثنانِ ممَّن أَدْرك المسيحَ ورآهُ ، (١ وهُما مَتَّى ويوحَنَّا١) ومنهم اثْنانِ مِن أَصْحابِ(٢) أصحابِه . واللَّهُ أعلمُ . (٣) وهما مُرْقسُ ولُوقَا . وكانَ مِمَّن آمنَ بالمسيحِ وصَدَّقَه مِن أهْلِ دمَشقَ رجلٌ يقالُ له : ضينا(٤) ، وكان مُخْتَفِيًا فى مَغَارَةٍ داخلَ البابِ الشَّرْقىِّ قريبًا مِن الكنيسةِ المُصَلَّبَةِ ؛ خوفًا مِن بولِصَ اليهودِىِّ ، وكان ظالمًا غاشِمًا مُبْغِضًا للمسيحِ ، ولِمَا جاءَ به . وكان قد حَلَقَ رأْسَ ابنِ أخيه حينَ آمنَ بالمسيحِ ، وطافَ به فى البلدِ ، ثم رَجَمَه حتى ماتَ ، رحمهُ اللَّهُ . ولمَّا سمِعَ بولصُ أنَّ المسيحَ ، عليه السلامُ ، قد توجَّهَ نحوَ دمَشقَ جهَّزَ بِغَالَه وخرجَ ليَقْتُلَه فتلقَّاه عندَ كوكبا ، فلمَّا واجهَ أصحابَ المسيحِ ، جاءَ إليه مَلَكٌ فضربَ وجْهَه بِطَرَفِ جَناحِه فأَعْماهُ ، فلمَّا رأى ذلك وقع فى نفْسِه تَصديقُ المسيحِ ، فجاء إليه واعْتذَرَ مِمَّا صنَع ، وآمن به فَقَبِلَ منه ، وسأَلَهُ أَنْ يَمسحَ عينَيْه ؛ ليَرُدَّ اللَّهُ عليه بصرَه ، فقال : اذْهبْ إلى ضينا عندَك بدمَشقَ فى طَرَفِ السُّوقِ المستطيلِ من

(١ - ١) سقط من : ص .

(٢) سقط من : ح ، ص .

(٣) من هنا إلى قوله : (كتاب أخبار الماضين) سقط من الأصل . وفى ص : وقد أنشد الشيخ شهاب الدين القرافى فى كتابه «الرد على النصارى» لبعضهم يرد عليهم فى قولهم بصلب المسيح ، وتسليمهم ذلك لليهود مع دعواهم أنه ابن اللَّه ، تعالى اللَّه عن قولهم علوًّا كبيرًا :

عجبًا للمسيح بين النصارى ... وإلى والـد نسبـوه

أسلموه إلى اليهود وقالوا ... إنهم بعد قتله صلبوه

فإن كان ما تقولون حقًّا ... وصحيحًا فأين كان أبوه

حين خلى ابنه رهين الأعادى ... أتراهم أرضوه أم أغضبوه

فلئن كان راضيًا بأذاهم ... فاعذروهم لأنهم وافقوه

ولئن كان ساخطًا فاتركوه ... واعبدوهم لأنهم غلبوه

(٤) فى ح : «حنينا» .

المشْرِقِ ، فهو يَدْعُو لك . فجاء إليه فدَعَا ، فرُدَّ عليه بَصَرُه ، وحَسُنَ إيمانُ بولصَ بالمسيحِ ، عليه السلامُ ، أنَّه عبدُ اللَّهِ ورسولُه ، وبُنِيَتْ له كنيسةٌ باسْمِه ، فهى كنيسةُ بولصَ المشهورةُ بدمَشْقَ ، مِن زَمَنِ فَتَحَها الصَّحابةُ ، رَضِىَ اللَّهُ عنهم ، حتى خَرِبَتْ فى الزَّمانِ الذى سَنُورِدُه . إن شاءَ اللَّهُ تعالى .

فَصْــلٌ

اختلف أصحابُ المسيحِ ، عليه السَّلامُ - بَعدَ رَفْعِه إلى السماءِ - فيه على أقوالٍ ، كما قالَه ابنُ عباسٍ وغيرُه من أَئِمَّةِ السَّلَفِ ، كما أَوْرَدْناه عندَ قولِه : ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾ ، قال ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه : قالَ قائلونَ منهم : كانَ فينا عبدُ اللَّهِ ورسولُه ، فَرُفِعَ إلى السماءِ . وقال آخرونَ : (١هو اللَّهُ . وقال آخرون : هو ابنُ اللَّهِ١)(٢) . فالأوَّلُ هو الحقُّ ، والقَوْلان الآخَران كُفْرٌ عظيمٌ ، كما قال : ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم: ٣٧] ، وقد اختلفوا فى نَقْلِ الأناجيلِ على أَرْبَعَةِ أقاويلَ ، ما بينَ زيادةٍ ونُقْصانٍ وتَحْريفٍ وتبديلٍ ، ثم بعدَ المَسيحِ بثَلَثِمائةِ سنةٍ حَدَثَتْ فيه الطَّامَّةُ العُظْمى ، والبَلِيَّةُ الكبرى اخْتلفَ البَطارِقةُ(٣) الأَربعةُ وجميعُ الأساقِفَةِ ، والقساوِسَةِ ، والشَّمامِسَةِ ، والرَّهَابينِ فى المسيحِ على أَقوالٍ مُتعدِّدَةٍ ، لا تَنْحَصِرُ ولا تنضَبِطُ ، واجْتمَعوا وتحاكَموا إلى المَلِكِ قُسْطنطينَ ، بانى القُسْطَنْطِينةِ ، وهم المَجْمَعُ الأوَّلُ ، فصارَ المَلِكُ إلى قَوْلِ أَكْثَرِ فِرْقَةٍ اتَّفقتْ على قولٍ مِن تلك المقالاتِ ، فَسُمُّوا الملائكةَ ، ودَحَضَ مَن عَداهُم ، وأَبْعَدَهُمْ ، وتَفَرَّدَتِ الفِرْقَةُ التَّابعةُ لعبدِ اللَّهِ بنِ أديوسَ ، الذى ثبت على أَنَّ عيسى عبدٌ من عبادِ اللَّهِ ، ورسولٌ مِن رُسلِه ، فسَكَنُوا البَرَارِىَّ والبَوادِىَ ، وبَنَوُا الصَّوامِعَ

(١-١) فى ح : « كان فينا فارتفع إلى السماء » .

(٢) تفسير الطبرى ٢٨/ ٩٢.

(٣) انظر ما تقدم فى صفحة ١١ حاشية (٧) .

والدِّيَاراتِ والقَلَّاياتِ ، وقَنَعُوا بالعَيْشِ الزَّهيدِ ، ولم يُخَالطوا أولئكَ المِلَلَ والنِّحَلَ ، وبَنَتِ الملائكةُ الكنائسَ الهائلةَ ، عمَدوا إلى ما كان من بناءِ اليونانِ ، فحوَّلوا محاريبَها إلى الشَّرقِ ، وقد كانت إلى الشَّمالِ إلى الجَدْيِ .

بيَانُ بناءِ بَيتِ لحمِ والقُمامةِ

وبنى المِلِكُ قُسْطَنْطِينُ بيتَ لحمِ على مَحَلِّ مَوْلِدِ المسيحِ ، وبَنَتْ أُمُّهُ هيلانةُ القُمامَةَ ، يعنى علَى قبرِ المصْلوبِ ، وهم يُسَلِّمونَ لليهودِ أَنَّه المسيحُ ، وقد كَفَرتْ هؤلاءِ وهؤلاءِ ، ووضَعُوا القوانينَ والأحْكامَ ، ومنها مُخالِفٌ للعتيقةِ التى هى التوراةُ ، وأَحَلُّوا أشياءَ هى حرامٌ بنصِّ التوراةِ ، ومِن ذلك الخِنزيرُ ، وصلَّوْا إلى الشرقِ ولم يكنِ المسيحُ صَلَّى إلَّا إلى صَخْرَةِ بيْتِ المقدسِ ، وكذلك جميعُ الأنبياءِ بعدَ موسى ، ومحمدٌ خاتمُ النبيّينَ صَلَّى إليها بعد هِجْرَتِهِ إلى المدينةِ ، ستَّةَ عشَرَ أو سبعةَ عشَرَ شهرًا ، ثم حُوِّلَ إلى الكعبةِ التى بناها إبراهيمُ الخليلُ[1] ، وصوَّروا الكنائسَ ولم تكن مُصوَّرةً قبلَ ذلك ، ووضَعُوا العقيدةَ التى يحفَظُها أطفالُهم ونساؤُهم ورجالُهم التى يسمُّونها بالأَمانةِ ، وهى فى الحقيقةِ أكبرُ الكفرِ والخيانةِ ، وجميعُ الملَكِيَّةِ والنَّسطوريَّةِ أصحابِ نَسْطُورِسَ أهلِ المجمعِ الثانى ، واليعقوبيةِ أصحابِ يعقوبَ البرادعىِّ ، أصحابِ المجمعِ الثالثِ ، يعتقدونَ هذه العقيدةَ ، ويختلفون فى تفسيرِها ، وها أنا أحْكيها ، وحاكى الكفْرِ ليس بكافرٍ ، لأبَيِّنَ ، على ما فيها ، ركةَ الألفاظِ وكثرةَ الكفرِ والخَبَالِ المُفْضِى بصاحبِه إلى النَّارِ ذاتِ الشُّواظِ ؛ فيقولون ، عليهم لعائنُ اللَّهِ المتتابِعةُ إلى يومِ القيامةِ : نؤمنُ بإلهٍ واحدٍ ضَابطِ الكُلِّ خالقِ السَّماواتِ ، والأرضِ ؛ كلِّ ما يُرى ، وكلِّ ما لا يُرى ، وبرَبٍّ واحدٍ يسوعَ المسيحِ ابنِ اللَّهِ ، الوحيدِ المولودِ مِن الأَبِ قبلَ

---

(١) انظر صحيح مسلم (٥٢٥).

الدُّهورِ ، نورٍ مِن نورِ إلهٍ حقٍّ ، مِن إلهٍ حقٍّ ، مولودٍ غيرِ مَخْلُوقٍ ، مساوٍ للأَبِ في الجَوْهرِ الذي كان به كلُّ شيْءٍ مِن أَجْلِنا ، نحن البشرَ ، ومِن أجلِ خَلاصِنا نَزَلَ مِن السَّماءِ ، وتَجَسَّدَ من رُوحِ القُدُسِ ، ومِن مَرْيَمَ العَذْراءِ وتأنسَ ، وصُلِبَ على عهدِ ملاطسَ النبطيِّ ، وتألَّم وقُبِر ، وقام في اليومِ الثالثِ ، كما في الكتبِ ، وصَعَد إلى السَّماءِ ، وجلس عن يمينِ الأَبِ . وأيضًا فسيأتي بجسدِه[1] ؛ ليدبِّرَ الأَحياءَ والأَمواتَ ، الذي لا فناءَ لمُلكِه ، ورُوحُ القُدُسِ الرَّبُّ المحْيِي المُنْبَثِقُ مِن الأَبِ مع الأَبِ ، والابنُ مسجودٌ له ، وبمجدِ الناطقِ في الأنبياءِ ، كَنِسْبَةٍ واحدةٍ جامعةٍ مقدسةٍ يهوليَّةٍ ، واعترفَ بمعموديَّةٍ واحدةٍ لمغفرةِ الخطايا ، وأنه حيٌّ قيامةَ الموتى وحياةَ الدهرِ العتيدِ كَوْنُه . آمين .

(١) في ح : « بمجده » .

كتابُ أخْبَارِ الماضِينَ

مِن بنى إسرائيلَ وغيرِهم إلى آخرِ زَمنِ الفَتْرَةِ سوى أيامِ العربِ وجاهِلِيَّتِهم ، فإنَّا سنُورِدُ ذلك بعدَ فراغِنا مِن هذا الفَصْلِ إن شاءَ اللَّهُ تعالى . قال اللَّهُ تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾ [طه : ٩٩] . وقال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣] .

خبرُ ذِي القَرْنيْنِ

قال اللَّهُ تعالى[1] : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ [١/٢٧٥ظ] وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ [الكهف: ٨٣- ٩٨].

ذكرَ اللَّهُ تعالى ذا القَرْنَيْنِ هذا، وأثْنى عليه بالعَدْلِ، وأنَّه بلغَ المشارقَ والمغاربَ، ومَلَكَ الأقاليمَ وقَهرَ أهْلَها، وسارَ فيهم بالمَعْدَلَةِ التَّامَّةِ، والسُّلْطانِ

(١) التفسير ٥/١٨٥- ١٩٦.

المؤيِّدِ المظفَّرِ المنْصورِ القاهرِ المُقْسِطِ. والصَّحيحُ، أنَّه كان مَلِكًا مِن الملوكِ العادلين، وقيل: كان نبيًّا. وقيل: كان رسولًا. وأغربَ مَن قال: كان ملكًا مِن الملائكةِ. وقد حُكِيَ هذا عن أميرِ المؤمنين عمرَ بنِ الخَطَّابِ، فإنَّه سَمِع رجلًا يقولُ لآخرَ: يا ذا القَرْنَيْنِ، فقال: مَهْ، ما كفاكم أن تَتَسَمَّوْا بأسماءِ الأَنبياءِ حتى تَسَمَّيْتُم بأَسماءِ الملائكةِ[1]. ذكره السُّهَيْلِيُّ[2].

وقد رَوَى وكيعٌ، عن إسرائيلَ، عن جابرٍ، عن مجاهدٍ، عن عبدِ اللَّهِ بنِ عَمْرٍو، قال: كان ذو القَرْنَيْنِ نبيًّا[3]. ورَوَى الحافظُ ابنُ عساكرَ[4]، مِن حديثِ أبي محمدِ بنِ أبي نَصْرٍ، عن أبي إسحاقَ[5] إبراهيمَ بنِ محمدِ[6] بنِ أحمدَ[6] بنِ أبي ثابتٍ[7]، حدَّثنا محمدُ بنُ حمّادٍ، أنبأنا عبدُ الرَّزّاقِ، عن مَعْمَرٍ، عن ابنِ أبي ذئبٍ[8] عن المَقْبُرِيِّ، عن أبي هريرةَ قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «لا أَدْرِي أَتُبَّعٌ كانَ لَعِينًا أَمْ لا، ولا أَدْرِي الحُدُودُ كَفَّاراتٌ لأَهْلِها أَمْ لا، ولا أَدْرِي ذو القَرْنَيْنِ كان نَبِيًّا أَمْ لَا». وهذا غريبٌ مِن هذا الوجهِ. وقال إسحاقُ بنُ بِشْرٍ[9]، عن عثمانَ بنِ السَّاجِ، عن خُصَيْفٍ، عن عِكْرِمَةَ، عن ابنِ عباسٍ قال: كان

---

(١) رواه الطبرى فى تفسيره ١٦/ ١٧. وابن هشام فى السيرة ١/ ٣٠٧. وابن عبد الحكم فى فتوح مصر ص ٣٩. وذكره الحافظ فى الفتح ٦/ ٣٨٣، وقال: حكاه الثعلبى.

(٢) الروض الأنف ٣/ ١٨١.

(٣) أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق ٣٣٧/١٧ من طريق وكيع به.

(٤) تاريخ دمشق ١٧/ ٣٣٧.

(٥) بعده فى الأصل، م، ص: «بن». وهو خطأ. انظر تاريخ دمشق ٧/ ٩٩.

(٦-٦) سقط من النسخ، ومن تاريخ دمشق. والمثبت من ترجمته. انظر تاريخ دمشق ٧/ ٩٩.

(٧) فى م: «ذؤيب». وانظر تاريخ دمشق ٧/ ٩٩.

(٨) فى ح، م: «ذؤيب». وانظر تهذيب التهذيب ٩/ ٣٠٣.

(٩) أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق ٣٣٩/١٧ من طريق إسحاق بن بشر به.

ذو القَرْنَيْنِ مَلِكًا صَالحًا، رَضِيَ[1] اللَّهُ عَمَلَه، وأثْنَى عليه فى كتابِه، وكان مَنْصُورًا، وكان الخَضِرُ وزيرَه. وذكَر أنَّ الخَضِرَ، عليه السّلامُ، كان على مُقَدِّمَةِ جيشِهِ، وكان عندَه بمَنْزِلةِ المُشَاوِرِ، الذى هو مِن المَلِكِ بمَنزلةِ الوزيرِ فى اصْطلاحِ [١/٢٧٦و] النَّاسِ اليومَ[2]. وقد ذَكَرَ الأَزْرَقِيُّ وغيرُه، أنَّ ذَا القرنَيْنِ أَسْلَمَ على يَدَىْ إبراهيمَ الخليلِ، وطاف معه بالكَعْبَةِ المُكَرَّمَةِ هو وإسماعيلُ، عليه السلامُ[3]. [4]ورُوِىَ عن عُبَيْدِ بنِ عُمَيْرٍ، وابنِه عبدِ اللَّهِ وغيرِهما، أنَّ ذا القَرْنَيْنِ حَجَّ ماشيًا، وأنَّ إبراهيمَ لما سَمِع بقُدُومِه، تلقّاه ودَعَا له ورضّاه، وأنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لذى القَرْنَيْنِ السَّحابَ يَحْمِلُه حيثُ أرادَ[5]. واللَّهُ أعلمُ.

واختلفُوا فى السببِ الذى سُمِّىَ به ذا القرنَيْنِ؛ فقيل: لأنَّه كان له فى رأسِه شِبْهُ القَرْنَيْنِ[4]. وقال وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ: كان له قرنان مِن نُحاسٍ فى رأسِه. وهذا ضَعيفٌ. وقال بعضُ أَهْلِ الكتابِ: لأنَّه مَلَكَ فارسَ والرُّومَ[6]. وقيل: لأنَّه بلَغ قَرْنَىِ الشَّمسِ غَرْبًا وشَرْقًا، ومَلَكَ ما بينَهُما مِن الأرضِ. وهذا أَشْبَهُ مِن غيرِه، وهو قولُ الزُّهْرِىِّ[7]. [8]وقال الحَسَنُ البَصْرِىُّ: كانت له غَدِيرتان مِن شَعْرٍ يَطَأُ فيهما؛ فَسُمِّىَ ذا القَرْنَيْنِ[9]. وقال إسحاقُ بنُ بِشْرٍ، عن[8]

---

(١) فى التاريخ: «أرضى».
(٢) انظر تاريخ دمشق ١٧/ ٣٤٥، ٣٤٨.
(٣) أخبار مكة المشرفة للأزرقى ص ٣٩.
(٤ - ٤) سقط من: ص.
(٥) تاريخ دمشق ١٧/ ٣٤٠، ٣٤١.
(٦) تفسير الطبرى ١٦/ ٩. التفسير ٥/ ١٨٦.
(٧) أخرجه عن الزهرى، ابن عساكر فى تاريخ دمشق ١٧/ ٣٣٦.
(٨ - ٨) سقط من: ص.
(٩) أخرجه عن الحسن، ابن عساكر فى تاريخ دمشق (١٧/ ٣٣٦).

(1) عبدِ اللَّهِ بنِ زيادِ بنِ سَمْعانَ ، عن عَمْرِو بنِ شُعَيْبٍ ، عن أبيه ، عن جدِّه ، أنه قال : دعا مَلِكًا جبَّارًا إلى اللَّهِ فضَرَبَه على قَرْنِه فكَسَرَه ورَضَّه ، ثُم دعاه فَدَقَّ قرنَهُ الثانيَ ، فكَسَرَه ، فَسُمِّيَ ذا القَرْنَيْنِ(1)(2) . ورَوَى الثَّوْرِيُّ(3) عن حبيبِ بنِ أبِي ثابتٍ ، عن أبي الطُّفَيْلِ ، عن عليٍّ بنِ أبي طالبٍ ، أنه سُئِلَ عن ذي القَرْنَيْنِ فقال : كان عبدًا ناصَحَ اللَّهَ فَنَاصَحَه ، دعا قَوْمَه إلى اللَّهِ فَضَرَبُوه على قَرْنِه فماتَ ، فَأَحْياه اللَّهُ فدعا قَوْمَه إلى اللَّهِ فضربوه على قَرْنِه الآخرِ فمات ، فَسُمِّيَ ذا القَرْنَيْنِ . وهكذا رواه شعبةُ ، عن(4) القاسمِ بنِ أبي بَزَّةَ(5) ، عن أبي الطُّفَيْلِ ، عن عليٍّ به(6) . وفي بعضِ الرواياتِ ، عن أبي الطُّفَيْلِ عن عليٍّ ، قال : لم يكنْ نَبِيًّا ولا رسولًا ولا مَلَكًا ، ولكن كان عبدًا صالحًا(7) .

وقد اخْتُلِفَ في اسمِه ؛ فرَوَى الزُّبَيْرُ بنُ بَكَّارٍ ، عن ابنِ عبَّاسٍ : كان اسمُه عبدَ اللَّهِ بنَ الضَّحَّاكِ بنِ معدٍ(8) . وقيل : مُصْعَبُ بنُ عبدِ اللَّهِ بنِ قِنانَ بنِ منصورِ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ الأزدِ بنِ غَوْثٍ(9) بنِ نبتِ بنِ مالكِ بنِ زيدِ بنِ كَهْلَانَ ابنِ سبإٍ بنِ قحطانَ .

(1 - 1) سقط من : ص .
(2) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٧/ ٣٣٦، من طريق إسحاق بن بشر به .
(3) أخرجه الطبري في تفسيره ١٦/ ٩، من طريق سفيان الثوري به .
(4) سقط من : ح ، م .
(5) في ص : « مرة » . وانظر التقريب ٢/ ١١٥.
(6) أخرجه الطبري في تفسيره ١٦/ ٩، من طريق شعبة به .
(7) تاريخ دمشق ١٧/ ٣٣٤، ٣٣٥.
(8) تاريخ دمشق ١٧/ ٣٣١. وعزاه الحافظ في الفتح ٦/ ٣٨٤ للزبير بن بكار في « كتاب النسب » ، وقال : وإسناده ضعيف جدًّا .
(9) في الأصل ، م : « عون » . وفي ح : « عوف » وفي ص : « عرب » .

وقد جاءَ فى حديثٍ[1] أنَّه كان مِن حِمْيَرٍ ، وأُمُّه رومِيَّةٌ ، وأنّه كان يُقالُ له : ابنُ الفيْلسوفِ ؛ لِعَقْلِه . وقد أَنْشَدَ بعضُ الحِمْيَرِيِّين[2] فى ذلك شِعْرًا يفْخَرُ بكونِه أَحَدَ أجْدَادِهِ فقال :

قَد كانَ ذُو القَرْنَيْنِ جَدِّىَ[3] مُسْلِمًا ... مَلِكًا تَدِينُ له الملوكُ وتُحشَدُ[4]

بَلَغَ المشارِقَ والمغارِبَ يَبتَغِى ... أَسْبابَ أَمْرٍ مِن حَكيمٍ مُرْشِدِ

فَرَأَى مَغِيبَ الشَّمْسِ عندَ غُرُوبِهَا ... فى عَيْنِ ذِى خُلُبٍ وثَأْطٍ[5] حَرْمَدِ

مِن بَعْدِهِ بَلْقِيسُ كانَتْ عَمَّتِى [٢٧٦/١ظ] ... مَلَكَتْهُمُ حتَّى أتاها الهُدهُدُ[6]

قال السُّهَيْلِىُّ[7] : وقيل : كان اسمُه مَرْزَبَى بنَ مَرْذَبَةَ[8] ، ذَكَرَه ابنُ هشامٍ[9] ، وذكَر فى موضعٍ آخَرَ[10] أَنَّ اسمَهُ الصَّعْبُ بنُ ذِى مَرَاثِدَ[11] . وهو أَوَّلُ التَّبَابِعَةِ ، وهو الذى حَكَم لإِبراهيمَ فى بئرِ السَّبعِ[12] . وقيلَ : إنه أفريدون

---

(١) أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق ١٧/ ٣٣٢.

(٢) هو تبع الحميرى ، كما صرح به ابن عساكر فى تاريخه ١٧/ ٣٣٢. وابن عبدالحكم فى « فتوح مصر » ص ٣٨، والحافظ فى الفتح ٦/ ٣٨٤.

(٣) فى قصص الأنبياء للثعلبي ص ٣٢٦، والتفسير الكبير للفخر الرازى ٢١/ ١٦٤: « قبلى » .

(٤) فى قصص الأنبياء وتفسير القرطبى ١١/ ٤٩: « تسجد » . وفى تاريخ دمشق : « تحسد » . وفى البيت عيب وهو الإقواء.

(٥) خلب أى الطين. ثأط مفردها ثأطة وهى الطين ، حمأة كان أو غير ذلك .

(٦) فى الأصل، ح ، ص :« المزهد » . وهو لفظ رواية ابن عساكر ، وفى البيت عيب وهو الإقواء .

(٧) الروض الأنف ٣/ ١٧٨.

(٨) فى م ، ص : « مرزبان بن مرزبة » . وفى الفتح ٦/ ٣٨٤: « مرزبان بن مردبة » بالدال المهملة .

(٩) السيرة النبوية ١/ ٣٠٧.

(١٠) التيجان فى ملوك حمير ص ١١٠، وفيه : الصعب بن ذى مرثد .

(١١) فى ح : « الصعب بن دنى مزايد » . وفى م، ص: « الصعب بن ذى مرائد » .

(١٢) فى ح : « اليسع » . وانظر الروض الأنف ٣/ ١٧٩. والتعريف والإعلام ص ١٩٩.

ابنُ أَسْفيانَ، الذى قَتَل الضَّحّاكَ[(1)]. وفى خطبةِ قُسٍّ: يا مَعْشَرَ إيادٍ، أين[(2)] الصعبُ ذو القَرْنَيْنِ، مَلَكَ الخافِقَيْنِ، وأَذَلَّ الثَّقَلَيْنِ، وعُمِّرَ أَلْفَيْنِ، ثُمَّ كان كَلَحْظَةِ عَيْنٍ، ثُمَّ أَنْشَدَ ابنُ هشامٍ للأَعْشَى[(3)]:

والصَّعْبُ ذو القَرْنَيْنِ أصبحَ ثاوِيًا ... بالحِنْوِ[(4)] فى جَدَثٍ أُمَيْمَ[(5)] مُقِيم

[(6)] وذَكَرَ الدَّارَقُطْنِيُّ، وابنُ ماكُولَا أَنَّ اسمَه هرمسُ[(7)]. ويقالُ: هرديسُ[(8)] ابنُ فَيْطونَ بنِ رُومى بنِ لِنْطى بنِ كِسلوجينَ بنِ يونانَ بنِ يافثَ بنِ نوحٍ. فاللَّهُ أعلمُ. وقال إسحاقُ بنُ بِشْرٍ، عن سعيدِ بنِ بشيرٍ، عن قَتادةَ قال: إسكندرُ هو ذو القَرْنَيْنِ، وأبوه أَوَّلُ القياصِرَةِ، وكان مِنْ وَلَدِ سامِ بنِ نُوحٍ، عليه السَّلامُ[(9)(6)]. فأمّا ذو القَرْنَيْنِ الثانى فهو إسكندرُ بنُ فيليبسَ بنِ مضريمَ بنِ هِرمسَ[(10)] بنِ هردسَ[(10)] بنِ ميطونَ بنِ رُومى بنِ لِنْطى[(11)] بنِ يونان بنِ يافثَ بنِ نونةَ بنِ سرحونَ بنِ رومةَ بنِ ثرنطَ بْنِ توفيلَ بنِ رومى بنِ الأصفرِ بنِ اليفزِ بنِ

---

(1) انظر تاريخ الطبرى ١/ ٢١١.

(2) فى ح، م، ص: «بن».

(3) لم نجده فى ديوان الأعشى الكبير، ولا فى ديوان أعشى همدان. والبيت في ديوان لبيد ص ١٠٩، وقد نسبه ابن منظور فى اللسان مادة (ص ع ب) إلى لبيد.

(4) فى الأصل: «بالحر». وفى ح: «بالخير». وفى م، ص: «بالجنو». والمثبت من الروض الأنف، وفتح البارى ٦/ ٣٨٤. قال الحافظ: والحنو بكسر المهملة وسكون النون فى ناحية المشرق. وقال السهيلى فى الروض ٣/ ١٨٠: وقوله: بالحنو. يريد حنو قُراقر الذى مات فيه ذو القرنين بالعراق.

(5) فى م، ص: «أشم».

(6 - 6) سقط من الأصل.

(7) انظر تاريخ دمشق ١٧/ ٣٣١. والإكمال ١/ ٥٥٩، ٥٦٠.

(8) فى ح: «هرويس». وفى ص: «هروس». والمثبت من التاريخ والإكمال.

(9) تاريخ دمشق ١٧/ ٣٣٣.

(10) فى الأصل: «بن مردس». وسقط من: م، ص.

(11 - 11) فى تاريخ دمشق: «أنطى».

العيصِ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ. كذا نَسَبَه الحافظُ ابنُ عساكرَ فى «تاريخِه»[1]، المَقْدُونِيُّ اليونانِيُّ المصرىُّ، بانى إسْكَنْدَرِيَّةَ، الذى يُؤَرِّخُ بأيّامِه الرُّومُ، وكان متأخِّرًا عن الأَوَّلِ بدَهْرٍ طويلٍ، كان هذا قبلَ المسيحِ بنحوٍ مِن ثَلاثِمائةِ سنةٍ، وكان أرسطاطاليسُ الفيلسوفُ وزيرَه، وهو الذى قَتَلَ دارا بنَ دارا، وأَذَلَّ ملوكَ الفُرْسِ وأَوْطَأَ أَرْضَهم[2]. وإنَّما نَبَّهْنا عليه؛ لأَنَّ كثيرًا من النَّاسِ يَعْتقدُ، أَنَّهما واحدٌ، وأنَّ المذكورَ فى القرآنِ هو الذى كان أرسطاطاليسُ وزيرَه، فيقعُ بسببِ ذلك خطأٌ كبيرٌ وفسادٌ عريضٌ طويلٌ كثيرٌ، فإنَّ الأَوَّلَ كان عبدًا مُؤْمِنًا صالحًا، ومَلِكًا عادلًا، وكان وزيرُه الخَضِرَ، وقد كان نبيًّا على ما قَرَّرْناه قبلَ هذا. وأَمَّا الثانى، فكان مُشْرِكًا، وكان وزيرُه فَيلَسوفًا، وقد كان بَيْنَ زَمانَيْهما أزيدُ مِن أَلْفَىْ سنةٍ. فأينَ هذا مِن هذا، لا يَسْتَوِيان، ولا يَشْتَبِهان، إلَّا على غَبِيٍّ لا يعرِفُ حقائقَ الأُمورِ.

قولُه تعالى[3]: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٣]. كان سَبَبُه أَنَّ قريشًا سألُوا اليهودَ عن شيءٍ يَمْتَحِنُون به عِلْمَ رسولِ اللَّهِ ﷺ، فقالوا لهم: سَلُوه عن رجلٍ طَوَّافٍ فى الأرضِ، وعن فِتْيَةٍ خرَجُوا، لا يُدْرَى ما فعلُوا. فأنزلَ اللَّهُ تعالى قِصَّةَ أصحابِ الكَهْفِ وقِصَّةَ ذى القَرْنَيْنِ[4]. ولهذا قال: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ أى؛ مِن خَبَرِهِ وشَأْنِه

---

(١) تاريخ دمشق ١٧/ ٣٣٠.
(٢) انظر التفسير ٥/ ١٨٥. والكامل لابن الأثير ١/ ٢٨٣.
(٣) التفسير ٥/ ١٨٥.
(٤) انظر أثر ابن عباس فى تفسير الطبرى ١٥/ ١٩١. وسيرة ابن هشام ١- ٣٠١، ٣٠٢، ودلائل النبوة للبيهقى ٢/ ٢٦٩، ٢٧٠.

﴿ ذِكْرًا ﴾ أى؛ خبرًا نافعًا كافيًا فى تعريفِ أمْرِه وشَرْحِ حالِه فقال: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ أى؛ وَسَّعْنا مَمْلكتَه فى البلادِ [١/٢٧٧و] وأَعْطَيْناه مِن آلاتِ المَمْلَكَةِ ما يستعينُ به على تحصيلِ ما يحاوِلُه من المُهِمَّاتِ العظيمةِ والمقاصدِ الجَسيمةِ.

قال قُتَيْبَةُ، عن أبى عَوَانَةَ، عن سِمَاكٍ، عن حبيبِ بنِ حِمَازٍ[1]، قال: كنتُ عندَ عليِّ بنِ أبى طالبٍ، وسأله رجلٌ عن ذى القَرْنَيْنِ، كيف بلَغَ المَشْرِقَ والمَغْرِبَ؟ فقال: سُخِّرَ له السَّحابُ، ومُدَّتْ له الأسبابُ، وبُسِطَ له فى النُّورِ. وقال: أَزِيدُك؟ فسكت الرَّجلُ، وسكتَ عليٌّ، رَضِيَ اللَّهُ عنه[2].

وعن أبى إسحاقَ السَّبِيعِيِّ، عن عمرِو بنِ عبدِ اللَّهِ الوادعِيِّ، سَمِعْتُ معاويةَ يقولُ: مَلَكَ الأَرضَ أربعةٌ؛ سليمانُ بنُ داودَ النبيُّ، عليهما السلامُ، وذو القَرْنَيْنِ، ورجلٌ مِن أهلِ حُلْوَانَ، ورجلٌ آخرُ. فقيل له: الخَضِرُ؟ قال: لا[3].

وقال الزُّبَيْرُ بنُ بَكَّارٍ[4]: حدَّثنى إبراهيمُ بنُ المُنْذِرِ، عن محمدِ بنِ الضَّحَّاكِ، عن أبيه، عن سفيانَ الثَّوْرِيِّ، قال: بلَغَنى أنَّه مَلَكَ الأَرضَ كُلَّها أربعةٌ: مؤمنان وكافران؛ سليمانُ النبيُّ، وذو القَرْنَيْنِ، ونَمْرُودُ، وبُخْتُ نَصَّرَ. وهكذا قال سعيدُ بنُ بَشِيرٍ[5]، سواءً.

---

(١) فى م، ص: «حماد». وانظر الاستيعاب ١/ ٤٤٢.

(٢) ذكره المصنف فى التفسير ٥/ ١٨٧، وعزاه إلى «المختارة» للحافظ الضياء المقدسى. وأخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق ١٧/ ٣٣٣. من طريق أبى عوانة به.

(٣) المصدر السابق ١٧/ ٣٣٦ من طريق أبى إسحاق به.

(٤) المصدر السابق، من طريق الزبير به.

(٥) فى الأصل: «بشر». وانظر السير ٧/ ٣٠٤. وقوله أخرجه الحافظ ابن عساكر فى تاريخه ١٧/ ٣٣٧.

وقالَ إسحاقُ بنُ بِشْرٍ، عن سعيدِ بنِ أبى عَرُوبَةَ، عن قتادةَ، عن الحسنِ قال: كان ذو القَرْنَيْنِ، مَلِكًا بعدَ النُّمرودِ، وكان من قِصَّتِه أنَّه كان رَجُلًا مُسلِمًا صالحًا أتى المَشْرِقَ والمَغْرِبَ، مدَّ اللَّهُ له فى الأَجلِ ونَصَرَه، حتى قهَر البلادَ واحْتَوَى على الأَمْوالِ، وفتَح المدائنَ وقتَل الرِّجالَ وجالَ فى البلادِ والقِلاعِ، فسار حتى أتى المَشْرِقَ والمَغْرِبَ، فذلك قولُ اللَّهِ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ أى؛ خبرًا ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ أَى؛ عِلْمًا بطَلَبِ أَسْبابِ المنازِلِ[1].

قال إسحاقُ[2]: وزعم مُقاتلٌ أنَّه كان يَفْتَحُ المدائِنَ ويَجْمَعُ الكُنوزَ، فَمَنِ اتَّبعَه على دِينِه وتابعَه عليه، وإلَّا قتَلَه. وقال ابنُ عبّاسٍ، ومجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، وعِكْرِمَةُ، وعُبَيْدُ بنُ يَعْلَى، والسُّدِّىُّ، وقتادةُ، والضَّحّاكُ ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ يَعْنى عِلْمًا[3]. وقال قتادةُ، ومَطَرٌ الوَرَّاقُ: معالمَ الأَرضِ ومنازِلَها وأعلامَها وآثارَها. وقال عبدُ الرحمنِ بنُ زيدِ بنِ أَسْلمَ: يَعْنى تعليمَ الأَلْسِنَةِ، كان لا يَغْزُو قومًا إلا حدَّثهم بلُغَتِهم[4].

والصحيحُ أنَّه يَعُمُّ كلَّ سَبَبٍ يَتَوَصَّلُ به إلى نَيْلِ مَقْصُودِه فى المَمْلَكَةِ وغيرِها؛ فإنه كان يَأْخُذُ مِن كلِّ إقليمٍ مِن الأَمْتِعَةِ والمطاعمِ والزّادِ ما يكفيه، ويُعِينُه على أهلِ الإقليمِ الآخَرِ.

وذكر بعضُ أَهْلِ الكتابِ أنه مكَث ألفًا وسِتَّمائةِ سنةٍ يَجُوبُ الأَرضَ،

---

(١) المصدر السابق ١٧/ ٣٣٩، من طريق إسحاق بن بشر به.
(٢) هو ابن بشر. وأخرج هذه الزيادة من هذا الطريق ابن عساكر فى تاريخه ١٧/ ٣٤٠.
(٣) تفسير الطبرى ١٦/ ٩. التفسير ٥/١٨٦، ١٨٧.
(٤) تفسير الطبرى ١٦/٩، ١٠. التفسير ٥/ ١٨٦، ١٨٧.

ويَدْعُو أَهْلَها إلى عبادةِ اللَّهِ وحدَه لا شريكَ له ، وفى كُلِّ هذه المدَّةِ نظرٌ . واللَّهُ أعلمُ . وقد روَى البَيْهَقِىُّ ، وابنُ عساكرَ[1] [١/٢٧٧ظ] حديثًا متعلِّقًا بقولِه : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ مُطَوَّلًا جدًّا ، وهو مُنْكَرٌ جدًّا . وفى إسنادِه محمدُ بنُ يونُسَ الكُدَيْمِىُّ[2] وهو مُتَّهَمٌ ، فلهذا لم نَكْتُبْه لسقوطِه عندَنا . واللَّهُ أعلمُ .

وقولُه : ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أى ؛ طريقًا ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ ﴾ يعنى مِن الأَرْضِ ، انتهى إلى حيثُ لا يمكنُ أحَدًا أن يُجاوِزَه ، ووَقَفَ على حافَّةِ البَحْرِ المُحيطِ الغربىِّ الذى يُقالُ له : أوقيانوسُ الذى فيه الجزائرُ المُسَمّاةُ بالخالداتِ ، التى هى مبدأُ الأَطْوالِ ، على أحدِ قَوْلَىْ أَرْبابِ الهيئةِ ، والثانى مِن ساحلِ هذا البحرِ كما قَدَّمْنا[3] . وعندَه شاهدَ مَغِيبَ الشَّمْسِ - فيما رآه بالنِّسْبَةِ إلى مُشاهدتِه - ﴿ تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ والمرادُ بها البَحْرُ فى نظرِه ، فإنَّ مَن كان فى البحرِ أو على ساحلِه يَرَى الشَّمسَ كأنَّها تَطْلُعُ مِن البحرِ ، وتَغْرُبُ فيه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَدَهَا ﴾ أى ؛ فى نَظَرِه ، ولم يَقُلْ : فإذا هى . ﴿ تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ أى ؛ ذاتِ حَمْأَةٍ . قال كعْبُ الأَحْبارِ : وهو الطِّينُ الأَسْوَدُ . وقرأه بعضُهم (حاميَةٍ)[4] . فقيل : يَرجعُ إلى الأَوَّلِ . وقيل : من الحرارةِ . وذلك مِن شِدَّةِ المقابلةِ لِوَهَجِ ضَوْءِ الشَّمْسِ وشُعَاعِها .

---

(١) دلائل النبوة ٦/ ٢٩٥، ٢٩٦. تاريخ دمشق ١٧/ ٣٣٨.

(٢) فى الأصل، ص: «الكريمى». وانظر ترجمته فى الكامل فى ضعفاء الرجال، لابن عدى ٦/ ٢٢٩٤- ٢٢٩٦.

(٣) تقدم فى ١/٥٣ .

(٤) انظر تفسير الطبرى ١٦/ ١١، ١٢. والتفسير ٥/ ١٨٨. والبحر المحيط ٦/ ١٥٩.

وقد رَوَى الإمامُ أحمدُ[1] عن يزيدَ بنِ هارونَ، عن العَوّامِ بنِ حَوْشَبٍ، حدَّثنى مولًى لعبدِ اللَّهِ بنِ عَمْرٍو، عن عبدِ اللَّهِ قال: نَظَر رسولُ اللَّهِ ﷺ إلى الشمسِ حينَ غابتْ فقالَ: «فى نارِ اللَّهِ الحاميةِ، لولا ما يَزَعُها مِن أمرِ اللَّهِ لأَحْرَقَتْ[2] ما على الأَرْضِ» فيه غرابةٌ، وفيه رجلٌ مُبْهَمٌ لم يُسَمَّ، ورَفْعُه فيه نَظَرٌ، وقد يكونُ مَوْقُوفًا مِن كلامِ عبدِ اللَّهِ بنِ عَمْرٍو، فإنّه أصاب يومَ اليَرْموكِ زامِلَتَيْنِ مِن كُتُبِ المتقدِّمِين، فكان يُحَدِّثُ منها. واللَّهُ أعلمُ.

ومَن زَعَم مِن القُصَّاصِ، أنَّ ذا القَرْنَيْنِ جاوزَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ، وصار يَمْشِى بجيوشِه فى ظُلُماتٍ مُدَدًا طَويلةً، فقد أخطأَ، وأَبْعَدَ النُّجْعَةَ، وقال ما يُخالفُ العَقْلَ والنَّقْلَ.

---

(١) فى المسند ٢/ ٢٠٧. (إسناده ضعيف).

(٢) فى المسند: «لأهلكت».

(١بَيانُ طلبِ ذى القَرْنَيْنِ عَيْنَ الحياةِ١)

وقد ذَكَرَ ابنُ عساكرَ[٢] مِن طريقِ وَكيعٍ، عن أبيه، عن مُعْتَمِرِ بنِ سليمانَ، عن أبى جَعْفَرٍ الباقِرِ، عن أبيه زينِ العابدِين خبرًا مُطَوَّلًا جدًّا، فيه أنَّ ذا القَرْنَيْنِ كان له صاحبٌ مِن الملائكةِ يُقالُ له: رناقيلُ[٣]. فسأله ذو القرنَيْنِ: هل تَعْلَمُ فى الأرضِ عَيْنًا يقالُ لها: عينُ الحياةِ؟ فذَكَرَ له صفةَ مكانِها، فذهبَ ذو القرنَيْنِ فى طَلَبِها وجعَل الخَضِرَ على مُقَدِّمَتِه، فانتهى الخَضِرُ إليها فى وادٍ فى أرضِ الظُّلُماتِ، فشَرِبَ منها ولم يَهْتَدِ ذو القرنَيْنِ إليها. وذَكَرَ اجتماعَ ذى القَرْنَيْن ببعضِ الملائكةِ فى قَصْرٍ هناك، وأنَّه [١/٢٧٨و] أعطاه حَجَرًا، فلمّا رَجَعَ إلى جيشِه سأل العلماءَ عنه، فوضعوه فى كِفَّةِ ميزانٍ، وجعلوا فى مقابَلَتِه أَلْفَ حَجَرٍ مثلِه، فوزَنها، حتى سأل الخَضِرَ فَوَضَعَ قُبالَه حَجَرًا، وجعل عليه حَفْنَةً مِن ترابٍ فرَجَحَ به، وقال: هذا مَثَلُ ابنِ آدمَ لا يَشْبَعُ حتى يوارَى بالتُّرابِ. فسَجَدَ له العلماءُ تكريمًا له وإعْظامًا. واللَّهُ أعلمُ.

ثم ذَكَر تعالى أنَّه حَكَّمه[٤] فى أهلِ تلك الناحيةِ ﴿ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ أى؛ فيجتمعُ عليه عذابُ الدُّنيا والآخرةِ، وبدأ بعذابِ الدُّنيا؛ لأنَّه أزْجَرُ عندَ الكافرِ ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً

(١ - ١) ليس فى الأصل، ص.

(٢) تاريخ دمشق ١٧/٣٤٦- ٣٥١.

(٣) فى تاريخ دمشق: «زيافيل».

(٤) فى ص: «حكمهم». وفى م: «حكم».

ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ فبدأَ بالأَهمِّ وهو ثوابُ الآخرةِ، وعطَف عليه الإحسانَ منه إليه، وهذا هو العَدْلُ والعِلمُ والإيمانُ، قال اللَّهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أى؛ سَلَكَ طريقًا راجِعًا مِن المَغْرِبِ إلى المَشْرِقِ، فيُقالُ: إنَّه رَجَعَ فى ثِنْتَىْ عَشْرَةَ سَنَةً. ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ أى؛ ليس لهم بُيوتٌ ولا أَكْنانٌ يَسْتَتِرُون بها مِن حَرِّ الشَّمْسِ. قال كثيرٌ مِن العلماءِ: ولكنْ كانوا يَأْوُون، إذا اشتدَّ عليهم الحرُّ، إلى أسْرابٍ قد اتَّخذُوها فى الأرْضِ، شِبْهِ القبورِ. قال اللَّهُ تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ أى؛ ونحنُ نعلمُ ما هو عليه ونَحْفَظُه ونَكْلَؤُه بحراسَتِنا فى مسيرِه ذلك كلِّه مِن مغارِبِ الأَرْضِ إلى مشارِقِها.

وقد رُوِىَ عن عُبَيْدِ بنِ عُمَيْرٍ، وابنِه عبدِ اللَّهِ، وغيرِهما مِن السَّلَفِ، أَنَّ ذا القَرْنَيْنِ حَجَّ ماشِيًا، فلما سَمِعَ إبراهيمُ الخليلُ بقدُومِه، تَلَقَّاه، فلمَّا اجْتَمَعا، دعا له الخليلُ ووصَّاه بوصايا، ويُقالُ: إنه جِيءَ بِفَرَسٍ لِيَرْكَبَها فقال: لا أركبُ فى بَلَدٍ فيه الخليلُ. فسَخَّرَ اللَّهُ له السَّحابَ، وبَشَّرَه إبراهيمُ بذلك، فكانت تَحْمِلُه إذا أَرَادَ[1].

قولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ يعْنِى غُتْمًا[2]. فيُقالُ: إنَّهم هم التُّرْكُ، أبناءُ عمِّ يأجوجَ ومأجوجَ، فذَكَرُوا له أَنَّ هاتَيْنِ القَبيلَتَيْنِ قد تَعَدَّوْا عليهم وأَفْسَدُوا فى بلادِهم، وقَطَعُوا السُّبُلَ عليهم، وبذَلُوا له جِعْلًا، وهو الخَرَاجُ على

---

(١) روى معنى هذا، ابن عساكر فى تاريخ دمشق ١٧/ ٣٤٠، ٣٤١ عن عبيد بن عمير وابنه، من طرق متعددة.

(٢) غُتْم جمع أغتم؛ وهو الذى لم يفصح لعجمة فى منطقه.

أَن يُقِيمَ بينَهم وبينَهم حاجِزًا يمنعُهم مِن الوصولِ إليهم ، فامتنع مِن أَخْذِ الخَرَاجِ ؛ اكْتِفاءً بما أعطاه اللَّهُ مِن الأَموالِ الجزيلةِ ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ ثُم طلَب مِنهم أَن يَجْمَعُوا له رِجالًا وآلاتٍ ، ليبنىَ [٢٧٨/١ظ] بينَهم وبينَهم سَدًّا ، وهو الرَّدْمُ بينَ الجبَلَيْنِ ، وكانوا لا يستطيعون الخروجَ إليهم إلا مِن بينِهما ، وبَقِيَّةُ ذلك بحارٌ مُغْرِقَةٌ ، وجبالٌ شاهِقةٌ ، فبناه ، كما قال تعالى ، مِن الحديدِ والقِطْرِ ، وهو النُّحاسُ المذَابُ . وقيل : الرَّصاصُ . والصَّحيحُ الأَوَّلُ ، فجعَل بَدَلَ اللَّبِنِ حديدًا وبَدَلَ الطِّينِ نُحاسًا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ أى ؛ يَعْلُوا عليه بسلالِمَ ولا غيرِها ﴿ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ أى ؛ بمعاوِلَ ، ولا فئوسٍ ولا غيرِها ، فقابلَ الأَسْهَلَ بالأَسْهَلِ ، والأَشدَّ بالأَشَدِّ ﴿ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ﴾ أى ؛ قَدَّرَ اللَّهُ وجودَه ، ليكونَ رَحْمَةً مِنه بعبادِه أن يَمْنَعَ بسببِه عُدْوانَ هؤلاءِ القومِ على مَن جاوَرَهم فى تلك المحَلَّةِ ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى ﴾ أى ؛ الوقْتُ الذى قَدَّرَ اللَّهُ خروجَهم على النَّاسِ فى آخرِ الزمانِ ﴿ جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ﴾ أى ؛ مساوِيًا للأَرْضِ ولا بُدَّ مِن كَوْنِ هذا ، ولهذا قال : ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝٩٦ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ ﴾ الآية [الأنبياء: ٩٦، ٩٧] . ولذا قال هـهنا : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾ يَعْنى يومَ فَتْحِ السَّدِّ ، على الصحيحِ ، ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعًا ﴾ وقد أَوْرَدْنا الأَحاديثَ المَرْوِيَّةَ ، [(١)] فى خروجِ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ فى « التفسيرِ »[(٢)] ، وسنُورِدُها ، إن شاءَ اللَّهُ[(١)] فى كتابِ « الفِتَنِ والملاحِمِ » مِن كتابِنا هذا ، إذا انتهَيْنا إليه ، بحَوْلِ اللَّهِ وقوتِه ،

(١ - ١) سقط من : ص .

(٢) التفسير من ١٩٢- ١٩٤.

وحُسْنِ توفيقِه ، ومعونَتِه ، وهدايتِه .

قال أبو داودَ الطَّيالِسِيُّ ، عن الثَّوْرِىِّ : بلَغَنا أَنَّ أَوَّلَ مَن صافحَ ، ذو القَرْنَيْنِ . ورُوِىَ عن كعبِ الأَحْبارِ أنَّه قال لمعاويةَ : إنَّ ذا القَرْنَيْنِ لمَّا حَضَرَتْه الوفاةُ أَوْصَى أُمَّه ؛ إذا هو ماتَ أن تَصْنَعَ طعامًا ، وتَجْمَعَ نِساءَ أهلِ المدينةِ ، وتَضَعَه بينَ أيدِيهِنَّ ، وتَأْذَنَ لهنَّ فيه ، إلَّا مَن كانت ثَكْلَى ، فلا تأْكُلْ منه شيئًا ، فلمّا فَعَلَتْ ذلك ، لم تَضَعْ واحدةٌ مِنهنَّ يَدَها فيه ، فقالتْ لهنَّ : سُبْحانَ اللَّهِ ! كُلُّكُنَّ ثَكْلَى ! فقُلْنَ : إى واللَّهِ ما مِنَّا إلَّا مَن أُثْكِلَتْ . فكان ذلك تَسْلِيَةً لأُمِّه[1] . وذكر إسحاقُ بنُ بِشْرٍ[2] ، عن عبدِ اللَّهِ بنِ زيادٍ ، عن بَعضِ أَهْلِ الكتابِ ، وصيَّةَ ذى القرنَيْنِ ، ومَوْعِظَتَه أُمَّه مَوْعِظَةً بَليغةً طويلةً ، فيها حِكَمٌ وأمورٌ نافعةٌ ، وأنَّه مات وعمْرُه ثلاثةُ آلافِ سنةٍ ، وهذا غريبٌ .

قال ابنُ عساكرَ[3] : وبلغنى مِن وجهٍ آخرَ أنه عاش سِتًّا وثَلاثينَ سنةً ، وقيل : كان عُمْرُه ثِنْتَيْنِ وثلاثين سنةً ، وكان بعدَ داودَ بِسَبْعِمائةِ سنةٍ وأربعين سنةً ، وكان بعدَ آدمَ بخمسةِ آلافٍ ومِائةٍ وإحْدى وثمانينَ[4] [١/٢٧٩و] سنةً ، وكان مُلْكُه ستَّ عَشْرَةَ سنةً . وهذا الذى ذَكَره إنَّما يَنطبقُ على إسكندرَ الثانى لا الأوَّلِ ، وقد خلَط فى أوَّلِ الترجمةِ وآخرِها بينَهما[5] ، والصَّوابُ التَّفْرِقَةُ كما ذَكَرْنا ، اقتداءً بجماعةٍ مِن الحُفَّاظِ . واللَّهُ أعلمُ .

---

(١) أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق ١٧/ ٣٥٨.
(٢) المصدر السابق ١٧/ ٣٥٩ من طريق إسحاق بن بشر به .
(٣) تاريخ دمشق ١٧/ ٣٦١.
(٤) فى ص : « وثلاثين » .
(٥) انظر تاريخ دمشق ١٦/ ٣٣٠، ١٦/ ٣٦١.

وممَّن جعلَهما واحدًا الإمامُ عبدُ المَلِكِ بنُ هشامٍ، راوى السيرةِ، وقد أَنْكَرَ ذلك عليه الحافظُ أبو القاسمِ السُّهَيْلِىُّ، رَحِمه اللَّهُ، إنْكَارًا بليغًا، ورَدَّ قولَه رَدًّا شَنِيعًا، وفَرّقَ بينَهما تفريقًا جيدًا، كما قَدَّمْنا. قال: ولعلَّ جماعةً مِن الملوكِ المتقدِّمين، تَسَمَّوْا بذى القرنَيْنِ تَشَبُّهًا بالأَوَّلِ[1]. واللَّهُ أعلمُ.

---

(١) انظر الروض الأنف ٣/ ١٨٠.

ذِكْرُ أُمَّتَىْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وصفاتِهم، وما وَرَد مِن أخبارِهم، وصفةِ السَّدّ

هم مِن ذُرِّيَّةِ آدمَ بلا خلافٍ نعلمُه، ثُم الدَّليلُ على ذلك، ما ثبَت فى «الصَّحِيحَيْنِ»[1] مِن طريقِ الأَعْمَشِ، عن أبى صالحٍ، عن أبى سعيدٍ، قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «يقُولُ اللَّهُ تَعالى يومَ القِيامَةِ: يا آدَمُ، قُمْ فابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ مِن ذُرِّيَّتِكَ. فيقُولُ: يا ربِّ، وما بَعْثُ النَّارِ؟ فيقُولُ: مِن كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمائةٍ وتِسْعةٌ وتِسْعون إلى النَّارِ، وواحِدٌ إلى الجَنَّةِ. فحينَئِذٍ يَشيبُ الصَّغِيرُ، وتضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها، وتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وما همْ بِسُكَارَى، ولكنَّ عذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ». قالوا: يا رسولَ اللَّهِ، أَيُّنا ذلكَ الواحدُ؟ فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «أَبْشِرُوا؛ فإنَّ مِنكُم واحدًا، وَمِن يأجوجَ ومَأْجُوجَ أَلْفًا». وفى روايةٍ[2]: فقال: «أَبْشِرُوا؛ فإنَّ فيكم أُمَّتَيْنِ؛ ما كَانتَا فى شَىْءٍ إلَّا كَثَرَتاه - أى غَلَبَتاه - كَثْرَةً». وهذا يَدُلُّ على كَثْرَتِهم، وأنَّهم أَضْعافُ النَّاسِ مِرارًا عَديدةً. ثم همْ مِن ذرِّيَّةِ نوحٍ؛ لأنَّ اللَّهَ تَعالى أَخْبَرَ أنَّه استجابَ لعبدِه نوحٍ فى دعائِه على أَهْلِ الأرضِ بقولِه: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ

---

(١) البخارى (٣٣٤٨، ٤٧٤١، ٦٥٣٠، ٧٤٨٣). مسلم (٢٢٢).

(٢) الترمذى (٣١٦٩). النسائى فى الكبرى (١١٣٤٠). صحيح (صحيح الترمذى ٢٥٣٤).

دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦]. وقال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَهُ وَأَصْحَبَ ٱلسَّفِينَةِ ﴾ [العنكبوت: ١٥]. وقال: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ [الصافات: ٧٧]. وتَقَدَّمَ في الحديثِ المَرْوِيِّ في «المسندِ» و«السُّنَنِ»[1]: أَنَّ نُوحًا وُلِدَ له ثلاثةٌ؛ وهم سامٌ، وحامٌ، ويافثُ، فسامُ أبو العَرَبِ، وحامُ أبو السُّودانِ، ويافثُ أبو التُّرْكِ، فيَأْجوجُ ومَأْجوجُ طائفةٌ مِن التُّرْكِ، وهم مَغْلُ المَغُولِ، وهم أَشَدُّ بَأْسًا وأكثرُ فسادًا مِن هؤلاءِ، ونِسْبتُهم إليهم كنسبةِ هؤلاءِ إلى غيرِهم. وقد قيلَ: إنَّ التُّرْكَ، إنَّما سُمُّوا بذلك، حينَ بَنَى ذو القرنَيْنِ السَّدَّ[2]، وأَلْجَأَ يأجوجَ ومأجوجَ إلى ما وراءَه، فبَقِيَتْ منهم طائفةٌ لم [3]يكنْ عندَهم كفسادِهم[3] فتُرِكُوا مِن ورائِه. فلهذا قيل لهم: التُّرْكُ.

ومَن زعَمَ [١/٢٧٩ظ] أنَّ يأجوجَ ومأجوجَ خُلِقُوا مِن نُطْفةِ آدمَ حينَ احتلمَ، فاختلطَتْ بترابٍ، فخُلِقُوا مِن ذلك، وأَنَّهم ليسوا مِن حَوّاءَ، فهو قولٌ حكاه الشيخُ أبو زكريَّا النواوِيُّ، في «شرحِ مُسلمٍ» وغيرِه[4]، وضَعَّفوه، وهو جديرٌ بذلك؛ إذ لا دليلَ عليه، بل هو مخالفٌ لِمَا ذَكَرْناه؛ مِن أنَّ جميعَ النَّاسِ اليومَ مِن ذُرِّيَّةِ نوحٍ، بنصِّ القرآنِ. وهكذا مَن زعم أَنَّهم على أَشْكالٍ مختلِفةٍ وأطوالٍ مُتَبايِنَةٍ جدًّا؛ فمِنهم مَن هو كالنَّخْلَةِ السَّحُوقِ، ومِنهم مَن هو غايةٌ في القِصَرِ، ومنهم مَن يَفْتَرِشُ أُذُنًا مِن أُذُنَيْه ويَتَغَطَّى بالأُخْرَى، فكلُّ هذه أقوالٌ بلا دليلٍ، ورَجْمٌ بالغيبِ بِغيرِ بُرْهانٍ.

---

(١) تقدم تخريجه في ١/ ٢٦٩. وأخرجه كذلك الإمام أحمد في المسند ٥/ ٩. والترمذي (٣٢٣٠، ٣٢٣١، ٣٩٣١). ضعيف (ضعيف الترمذي ٨٢٦).

(٢) سقط من: ص.

(٣ - ٣) في ص: «تكن عندهم لفسادهم».

(٤) شرح مسلم ٣/ ٩٨.

والصحيحُ، أَنَّهم مِن بنى آدمَ وعلى أشْكَالِهم وصفاتِهم. وقد قال النبىُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدمَ وطُولُه سِتُّونَ ذِرَاعًا، ثُم لم يَزَلِ الخلقُ يَنْقُصُ حتى الآنَ»[1]. وهذا فَيْصَلٌ فى هذا البابِ وغيرِه. وما قيل مِن أَنَّ أَحَدَهم لا يموتُ حتى يَرَى مِن ذُرِّيَّتِه أَلفًا، فإن صَحَّ فى خَبَرٍ قُلْنا به، وإلَّا فلا نَرُدُّه، إذ يحْتَمِلُه العقلُ، والنَّقْلُ أيضًا قد يُرشِدُ إليه. واللَّهُ أعلمُ. بل قد ورَد حديثٌ مُصَرِّحٌ بذلك، إن صَحَّ؛ قال الطبرانىُّ[2]: حَدَّثنا عبدُ اللَّهِ بنُ محمدِ بنِ العبّاسِ الأَصْبَهَانِىُّ، حدَّثنا أبو مسعودٍ أحمدُ بنُ الفُراتِ، حدّثنا أبو داودَ الطيالِسِىُّ، حدثنا المُغِيرَةُ عن مُسلمٍ، عن أبى إسحاقَ، عن وَهْبِ بنِ جابرٍ، عن عبدِ اللَّهِ ابنِ عمرٍو، عن النبىِّ ﷺ قال: «إِنَّ يَأْجُوجَ مِنْ وَلَدِ آدَمَ، ولو أُرْسِلُوا لَأَفْسَدُوا على النَّاسِ معائِشَهُم، ولَن يَمُوتَ مِنهم رَجُلٌ إلَّا ترَك مِن ذُرِّيَّتِه أَلْفًا فَصَاعِدًا. وإنَّ مِن ورائِهم ثَلاثَ أُمَمٍ؛ تاويلَ، وتاريسَ، ومنسكَ». وهو حديثٌ غرِيبٌ جدًّا، وإسنادُه ضعيفٌ. وفيه نَكَارةٌ شديدةٌ. وأمّا الحديثُ الذى ذَكَره ابنُ جريرٍ فى «تاريخِه»[3]، أَنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ ذهَب إليهم لَيْلَةَ الإِسْرَاءِ، فدعاهُم إلى اللَّهِ فامْتنعُوا مِن إجابتِه ومُتابَعَتِه، وأَنَّه دعا تلكَ الأُمَمَ التى هناك؛ تاريسَ، وتاويلَ، ومنسكَ، فأجابوه، فهو حديثٌ مَوْضوعٌ اختلَقَه أبو[4] نُعيمِ عمرُ[5] بنُ

---

(١) تقدم تخريجه فى ١/ ٢١٥.

(٢) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ٨/ ٦، وقال: رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ورجاله ثقات. وقد قال المصنف - رحمه الله - فى الفتن والملاحم ١/ ١٥٤: وقد يكون من كلام عبد الله بن عمرو من الزاملتين، والله أعلم.

قلت: يعنى الزاملتين اللتين أصابهما يوم اليرموك، وكانتا محملتين بكتب من أهل الكتاب.

(٣) تاريخ الطبرى ١/ ٧٠.

(٤) فى الأصل: «ابن».

(٥) فى الأصل، ح، م: «عمرو»، وانظر الكامل لابن عدى ٥/ ١٦٨٣.

الصُّبْحِ ، أحدُ الكذَّابين الكِبارِ ، الذين اعترفوا بِوَضْعِ الحديثِ . واللَّهُ أعلمُ .

فإن قيلَ : فكيفَ دَلَّ الحديثُ المتفقُ عليه[1] أنَّهم فِداءُ المؤمِنِين يومَ القِيامةِ ، وأنَّهم فى النَّارِ ، ولم يُبْعَثْ إليهم رُسُلٌ ، وقد قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥]؟ فالجوابُ أنَّهم لا يُعَذَّبون إلا بعدَ قيامِ الحُجَّةِ عليهم ، والإِعْذارِ إليهم ، كما قال تعالى [١/٢٨٠و] : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ . فإن كانوا فى الزَّمَنِ الذى قبلَ بَعْثةِ محمدٍ ﷺ قدْ أَتَتْهم رُسُلٌ منهم ، فقد قامتْ على أولئك الحُجَّةُ ، وإنْ لم يكنْ قد بَعَثَ اللَّهُ إليهم رُسُلًا ، فهم فى حُكمِ أهْلِ الفَتْرَةِ ، ومَن لم تَبْلُغْه الدَّعْوَةُ . وقد دَلَّ الحديثُ المرويُّ مِن طُرُقٍ ، عن جماعةٍ مِن الصحابةِ ، عن رسولِ اللَّهِ ﷺ ، أَنَّ مَنْ كَانَ كذلك يُمْتَحَنُ فى عَرَصَاتِ القِيامَةِ ، فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِىَ ، دَخَلَ الجَنَّةَ ، ومَنْ أَبَى ، دَخَلَ النَّارَ . وقد أَوْرَدْنا الحديثَ بطُرقِهِ وألفاظِه ، وكلامِ الأَئمةِ عليه[2] فى تَفْسِيرِنا[2][3] عندَ قولِه تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ . وقد حَكاه الشيخُ أبو الحسنِ الأَشْعَرِىُّ إجماعًا عن أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ ، وامْتِحانُهم لا يَقْتَضِى نجاتَهم ، ولا يُنافى الإِخْبَارَ عنهم بأنَّهم مِن أهلِ النَّارِ ؛ لأنَّ اللَّهَ يُطْلِعُ رسولَه ﷺ ، على ما يشاءُ مِن أَمْرِ الغَيْبِ ، وقد أَطْلَعَه على أَنَّ هؤلاءِ مِن أهلِ الشَّقَاءِ ، وأَنَّ سجاياهم تَأْبَى قَبُولَ الحقِّ والانقيادَ له ، فهُم لا يُجِيبُون الدَّاعِىَ[4] يومَ القيامةِ ، فَيُعْلَمُ مِن هذا أَنَّهم كانوا أَشَدَّ تَكْذِيبًا للحقِّ فى الدُّنيا لو بَلَغَهم

---

(١) هو حديث بعث النار ، الذى تقدم ص ٥٥٢ .

(٢ - ٢) سقط من : ح ، م ، ص .

(٣) انظر الحديث بطرقه وألفاظه فى التفسير ٥/٥٠ - ٥٤.

(٤) بعد هذا فى م ، ص : «إلى».

فيها ؛ لأَنَّ فى عَرَصَاتِ القيامةِ يَنقادُ خَلْقٌ مِمَّن كانَ مُكَذِّبًا فى الدُّنيا ، فإيقاعُ الإيمانِ هناكَ ؛ لِمَا يشاهَدُ مِن الأهْوالِ ، أَوْلى وأَحْرَى منه فى الدُّنيا . واللَّهُ أعلمُ . كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ١٢] . وقال تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم : ٣٨] . [(١] وأمَّا الحديثُ الذى فيه أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ دَعاهم ليلةَ الإسراءِ فلم يُجيبُوا ، فإنَّه حديثٌ مُنْكَرٌ ، بل موضوعٌ ، وَضَعَه عمرُ[(٢)] بنُ الصُّبْحِ[١)] .

وأمَّا السَّدُّ فقد تَقَدَّمَ[(٣)] أنَّ ذا القَرْنَيْنِ بناه مِن الحديدِ والنُّحاسِ ، وساوى به الجبالَ الصُّمَّ الشامخاتِ الطِّوالَ ، فلا يُعْرَفُ على وَجْهِ الأَرضِ بناءٌ أجلُّ منه ، ولا أَنْفَعُ للخلقِ منه ، فى أَمْرِ دنياهُم . قال البخارىُّ : وقال رجلٌ للنبىِّ ﷺ : رأيتُ السَّدَّ . قال : « وكَيْفَ رَأَيْتَه ؟ » قال : مِثْلَ البُرْدِ المُحَبَّرِ . فقالَ : « رَأَيْتَهُ »[(٤)] . هَكَذا ذَكَرَه البخارىُّ مُعَلَّقًا بصيغةِ الجَزْمِ[(٥)] ، ولم أَرَه مُسْنَدًا مِن وجهٍ مُتَّصِلٍ أَرْتَضِيه ، غيرَ أنَّ ابنَ جريرٍ رَواه فى « تفسيرِه » مُرْسَلًا[(٦)] فقال : حَدَّثنا بِشْرٌ ، حَدَّثنا يزيدُ ، حَدَّثنا سعيدٌ ، عن قتادةَ قال : ذُكِرَ لنا أَنَّ رَجُلًا قال : يا رسولَ

(١ - ١) سقط من : الأصل ، ص .

(٢) فى ح ، م : « عمرو » ، وراجع حاشية (٥) ص ٥٥٤ .

(٣) فى صفحة ٥٤٩ .

(٤) فى البخارى : « قد رأيته » .

(٥) الفتح ٦/ ٣٨١ . وقال ٦/ ٣٨٦ : وصله ابن أبي عمر ، من طريق سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن رجل من أهل المدينة أنه قال للنبي ﷺ ... وقال فى تغليق التعليق ٤/ ١٢ تعليقًا على هذا الإسناد : هذا إسناد صحيح إلى قتادة ، فإن كان سمعه من هذا الرجل فهو صحيح ؛ لأن عدم معرفة اسم الصحابى لا يضر عند الجمهور . وانظر طرقه الموصولة فى التغليق ٤/ ١٢ - ١٣ .

(٦) تفسير الطبرى ١٦/ ٢٣ .

اللَّهِ، قد رأيتُ سَدَّ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ. قال: «انْعَتْهُ لى». قال: كالبُرْدِ المُحَبَّرِ، طريقةٌ سوداءُ وطريقةٌ حمراءُ. قال: «قَدْ رَأَيْتَهُ».

وقد ذُكِر[1] أنَّ الخليفةَ الواثِقَ بَعَثَ رُسُلًا مِن جِهَتِهِ، وكَتَبَ لهم كُتُبًا إلى الملوكِ يُوصِلُونهم مِن [١/٢٨٠ظ] بلادٍ إلى بلادٍ حتى يَنْتَهُوا إلى السَّدِّ، فيَكْشِفُوا عن خَبَرِه، ويَنْظُرُوا كيفَ بناه ذو القَرْنَيْن، وعلى أَىِّ صِفَةٍ، فلمَّا رَجَعُوا أَخْبَرُوا عن صِفَتِه، وأَنَّ فيه بابًا عظيمًا وعليه أَقْفَالٌ، وأَنَّه بِناءٌ مُحْكَمٌ شاهِقٌ مُنيفٌ جدًّا، وأَنَّ بَقِيَّةَ اللَّبِنِ الحديدِ والآلاتِ فى بُرْجٍ هناك، وذَكَرُوا أَنَّه لا يزالُ هناك حَرَسٌ لتلك الملوكِ المُتاخِمَةِ لتلك البلادِ، ومَحَلَّتُه[2] فى شَرْقِىِّ الأَرْضِ فى جِهَةِ الشَّمالِ، فى زاوِيَةِ الأرضِ الشَّرقيَّةِ الشَّماليَّةِ. ويُقالُ: إنَّ بلادَهم مُتَّسِعَةٌ جدًّا، وإنهم يَقْتاتُون بأصنافٍ مِن المعايشِ، مِن حِراثَةٍ، وزِراعةٍ، واصطيادٍ مِن البَرِّ ومِن البحرِ، وهم أُمَمٌ وخَلْقٌ لا يَعْلَمُ عددَهم إلَّا الذى خَلَقهم. فإنْ قيلَ: فما الجَمْعُ بينَ قولِه تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧]. وبينَ الحديثِ الذى رواه البخارىُّ ومسلمٌ[3] عن زينبَ بنتِ جَحْشٍ أُمِّ المؤمِنين، رَضِىَ اللَّهُ عنها، قالت: اسْتَيْقَظَ رسولُ اللَّهِ ﷺ من نومٍ، مُحْمَرًّا وَجْهُهُ، وهو يقولُ: «لا إِلَهَ إلا اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ! فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ مِثْلُ هذه». وحَلَّقَ تِسْعِينَ. قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ، أَنَهْلِكُ وفينا الصالحون؟! قال: «نَعَمْ، إذا كَثُرَ الخَبَثُ». وأخرجاه فى «الصَّحيحَيْن»[4]، مِن حديثِ وُهَيْبٍ، عن ابنِ طاوُسٍ، عن أبيه، عن أبى

---

(١) التفسير ١٩٣/٥.

(٢) فى الأصل: «ونحلته».

(٣) البخارى (٣٣٤٦). ومسلم (٢٨٨٠).

(٤) البخارى (٣٣٤٧). مسلم (٢٨٨١).

هريرةَ، قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ، مِثْلُ هذه». وَعَقَدَ تِسْعِينَ؟ فالجوابُ؛ أمَّا على قولِ مَن ذَهَبَ إلى أَنَّ هذا إشارةٌ إلى فَتْحِ أبوابِ الشرِّ والفِتَنِ، وأنَّ هذا استعارةٌ مَحْضَةٌ وضَرْبُ مَثَلٍ، فلا إشكالَ. وأمَّا على قَوْلِ مَن جَعَلَ ذلك إخبارًا عن أمْرٍ محسوسٍ، كما هو الظَّاهِرُ المُتَبادَرُ، فلا إشكالَ أيضًا؛ لأَنَّ قَوْلَه: ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ أى؛ فى ذلك الزَّمانِ، لأن هذه صيغةُ خبرٍ ماضٍ، فلا يَنْفِى وُقُوعَه فيما يُسْتَقْبَلُ بإذنِ اللَّهِ لهم فى ذلك قَدَرًا، وتسليطَهم عليه[1] بالتَّدْريجِ قليلًا قليلًا، حتى يَتِمَّ الأجلُ ويَنْقَضِىَ الأَمَدُ[2] المقدورُ، فيَخْرُجون، كما قال اللَّهُ تعالى: ﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٦].

ولكنَّ الحديثَ الآخرَ أَشْكَلُ مِن هذا، وهو ما رَواه الإمامُ أحمدُ فى «مسنَدِه»[3] قائلًا: حدَّثنا رَوْحٌ، حَدَّثنا سعيدُ بنُ أبى عَرُوبَةَ، عن قَتادةَ، حَدَّثنا أبو رافعٍ، عن أبى هريرةَ، عن رسولِ اللَّهِ ﷺ، قال: «إنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ لَيَحْفِرُونَ السَّدَّ كُلَّ يَوْمٍ، حَتَّى إذا كادوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِى عَلَيْهِم: ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غَدًا. فَيَعُودُونَ [١/٢٨١و] إِلَيْهِ كَأَشَدِّ مَا كَانَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ مُدَّتُهُمْ، وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَى النَّاسِ، حَفَرُوا حَتَّى إذا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِى عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غَدًا، إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَيَسْتَثْنِى، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ وَهُوَ كَهَيْئَتِهِ[4] حِينَ[5] تَرَكُوهُ، فَيَحْفِرُونَهُ وَيَخْرُجونَ

(١) فى ص: «عليهم».
(٢) فى ح، م: «الأمر».
(٣) المسند ٢/ ٥١٠، ٥١١. صحيح (السلسلة الصحيحة ١٧٣٥).
(٤) فى الأصل، ح، م: «كهيئة».
(٥) فى النسخ: «يوم». والمثبت من المسند.

على النَّاسِ فَيَنْشِفُونَ[1] المِيَاهَ، وَيَتَحَصَّنُ النَّاسُ منهم[2] في حُصُونِهِمْ، فَيَرْمُونَ بِسِهامِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ فَتَرْجِعُ وعليها كَهَيْئَةِ الدَّمِ، فيقولُونَ: قَهَرْنا أَهْلَ الأَرْضِ، وعَلَوْنا أَهْلَ السَّماءِ. فَيَبْعَثُ اللَّهُ [3]عليهم نَغَفًا[3] في أَقْفَائِهِمْ، فَيَقْتُلُهُمْ بِهَا». قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «والَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ دَوَابَّ الأَرْضِ لَتَسْمَنُ[4] شُكْرًا مِنْ لُحُومِهِم وَدِمَائِهِم». ورَواه أحمدُ أيضًا[5] عن حسنِ بنِ موسى، عن شَيْبانَ[6]، عن قَتادةَ به[7]. وهكذا رَواه ابنُ ماجَهْ مِن حديثِ سعيدٍ[8]، عن قتادةَ، إِلَّا أَنَّه قال: حَدَّثَ[9] أبو رافعٍ. ورواه التِّرْمِذِيُّ مِن حديثِ أبي عَوَانَةَ[10]، عن قَتادةَ به. ثم قال: غريبٌ لا نَعْرِفُه إِلَّا مِن هذا الوَجْهِ. فقد أَخْبَرَ في هذا الحديثِ، أَنَّهم [11]كلَّ يومٍ[11] يَلْحَسُونَه، حتى كادُوا يَنْظُرُون[12] شُعاعَ الشَّمْسِ مِن ورائِه؛ لرِقَّتِهِ، فإِنْ لم يَكُنْ رَفْعُ هذا الحديثِ محفوظًا، وإِنَّما هو مأخُوذٌ عن كَعْبِ الأحبارِ، كما قاله بعضُهم[13]، فقد استَرَحْنا مِن المؤُونَةِ، وإِنْ كان محفوظًا فيكونُ محمولًا على أَنَّ صَنِيعَهم[14] هذا يكونُ في آخرِ الزَّمَانِ

---

(1) في م: «فيستقون». وفي ص: «فيسقون». ويَنْشِفُون: يشربون.
(2) سقط من: ح، م.
(3 - 3) في الأصل: «بعثا».
(4) بعد هذا في النسخ: «وتشكر». وليست في المسند. وشكرت الدابة شُكرًا: أصابت مرعى فسمنت عليه. الوسيط (ش ك ر).
(5) المسند 2/511.
(6) في النسخ: «سفيان». والمثبت من المسند. وانظر تهذيب الكمال 12/592، 593.
(7) سقط من: ح.
(8) ابن ماجه (4080). صحيح (صحيح ابن ماجه 3298).
(9) في ح، م: «حديث».
(10) الترمذى (3153). صحيح (صحيح الترمذى 2520).
(11 - 11) سقط من: الأصل.
(12) في م: «ينذرون».
(13) انظر التفسير 5/194.
(14) في م: «ضيعهم».

عندَ اقترابِ خروجِهم، كما هو المَرْوِىُّ عن كعبِ الأَحْبَارِ، أو يكونُ المرادُ بقولِه: ﴿ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ﴾ أى؛ نافِذًا منه، فلا يَنْفِى أن يَلْحَسُوه ولا يَنْفُذُوه. واللَّهُ أعلمُ. وعلى هذا فيُمْكِنُ الجمعُ بينَ هذا وبينَ ما فى «الصحيحَيْن» عن أبى هريرَةَ، رَضِى اللَّهُ عنه: «فُتِحَ اليومَ مِن رَدْمِ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ مثلُ هذه» وعَقَد تِسْعِينَ. أى؛ فُتِحَ فُتْحًا نافذًا فيه. واللَّهُ أعلمُ.

قِصَّةُ أصحابِ الكَهْفِ

قال الله تعالى[1] : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ۝١٢ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝١٣ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ۝١٤ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ [١/٢٨١ظ] لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝١٥ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ۝١٦ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ۝١٧ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ۝١٨ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟

---

(١) التفسير ٥/١٣٤ - ١٤٧.

أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ۖ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٩- ٢٦].

كان سببُ نزولِ قِصَّةِ أَصْحابِ الكَهْفِ، وخبرِ ذى القَرْنَيْنِ، ما ذكره محمدُ بنُ إسحاقَ، فى «السيرةِ» وغيرِه[١]، أنّ قريشًا بعَثُوا إلى اليهودِ يَسْأَلُونهم عن أشياءَ يَمْتَحِنُون بها رسولَ اللَّهِ ﷺ، ويسألونَه عنها؛ ليَخْتَبِرُوا ما يُجِيبُ به فيها، فقالوا: سَلُوه عن أقوامٍ ذَهَبُوا فى الدَّهْرِ فلا يُدْرَى ما صَنَعُوا، وعن رجلٍ طَوّافٍ فى الأَرْضِ وعن الرُّوحِ. فأنزلَ اللَّهُ تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ ﴾ [الإسراء: ٨٥]. ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ ﴾ وقال ههنا: ﴿أَمْ

---

(١) تقدم تخريجه ص ٥٤٢ حاشية (٤).

حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ أى؛ ليسوا بِعَجَبٍ عظيمٍ [١/٢٨٢و] بالنسبةِ إلى ما أَطْلَعْنَاكَ عليه مِن الأَخبارِ العظيمةِ، والآياتِ الباهرةِ والعجائبِ الغريبةِ. والكَهْفُ هو الغارُ فى الجبلِ. قال شُعَيْبٌ الجَبَائِيُّ[1]: واسمُ كَهْفِهِم حيزمُ. وأما الرَّقِيمُ، فعن ابنِ عباسٍ، أنه قال: لا أَدْرِى ما المرادُ به. وقيل: هو الكتابُ المرقومُ فيه أسماؤُهم وما جَرَى لهم، كُتِبَ مِن بعدِهم. اختارَه ابنُ جريرٍ وغيرُه. وقيل: هو اسمُ الجبلِ الذى فيه كَهْفُهُم. قال ابنُ عباسٍ، وشعيبٌ الجَبَائِيُّ: واسمُه بناجلوسُ. وقيل: هو اسمُ وادٍ[2] عندَ كَهْفِهِم. وقيل: اسمُ قريةٍ هنالك. واللَّهُ أعلمُ.

قال شعيبٌ الجَبَائِيُّ: واسمُ كَلْبِهم حُمرانُ[3]. واعتناءُ اليهودِ بأمرِهم ومَعْرِفةِ خبرِهم، يدلُّ على أَنَّ زمانَهم متقدِّمٌ على ما ذَكَرَه بعضُ المفسِّرين أَنَّهم كانوا بعدَ المسيحِ، وأَنَّهم كانوا نصارَى. والظاهرُ مِن السياقِ أَنَّ قومَهم كانوا مُشْرِكِين يَعْبُدُون الأَصْنامَ. قال كثيرٌ مِن المفسِّرين والمؤرِّخِين وغيرِهم: كانوا فى زمَنِ مَلِكٍ يُقَالُ له: دقيانوسُ. وكانوا مِن أبناءِ الأَكابِرِ. وقيل: من أبناءِ المُلوكِ. واتَّفَقَ اجتماعُهم فى يومِ عيدٍ لقومِهم فرَأَوْا ما يتعاطاه قومُهم، مِن السُّجودِ للأَصنامِ والتعظيمِ للأَوثانِ، فنظروا بعينِ البصيرةِ، وكَشَفَ اللَّهُ عن قلوبِهم حِجابَ الغَفْلَةِ، وأَلْهَمَهُم رُشْدَهُم، فعَلِمُوا أَنَّ قَوْمَهم ليسوا على شَىْءٍ، فخرجوا عن دينِهم، وانتمَوْا إلى عبادةِ اللَّهِ، وحدَه لا شريكَ له. ويُقالُ: إنَّ كلَّ واحدٍ منهم لمَّا أَوْقَعَ اللَّهُ فى نفسِه ما هداه إليه من التَّوْحيدِ، انحازَ عن

(١) تفسير الطبرى ١٥/ ١٩٩، والتفسير ٥/ ١٣٥.
(٢) فى ص: «واحد».
(٣) تفسير الطبرى ١٥/ ١٩٩. والتفسير ٥/ ١٣٥.

الناسِ ، واتَّفَقَ اجتماعُ هؤلاءِ الفِتيةِ فى مكانٍ واحدٍ ، كما صحَّ فى البخاريِّ[1] « الأَرْواحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ ، فما تعارفَ منها ائْتَلَفَ ، وما تناكَرَ مِنها اخْتَلَفَ » . فكلٌّ منهم سأل الآخرَ عن أَمْرِه وعن شَأْنِه ، فأَخْبَرَه بما هو عليْه ، واتَّفَقُوا على الانحيازِ عن قومِهم ، والتَّبَرِّى منهم ، والخروجِ مِن بينِ أَظْهُرِهم ، والفِرارِ بدِينِهم منهم ، وهو المشروعُ حالَ الفِتَنِ وظهورِ الشُّرورِ . قال اللَّهُ تعالى : ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ﴾ أى ؛ بدليلٍ ظاهرٍ على ما ذَهَبُوا إليه ، وصارُوا مِن الأَمْرِ عليه ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أى ؛ وإذْ قد[2] فارَقْتُمُوهم فى دِينِهم وتَبَرَّأْتُم مِمّا يَعْبُدون مِن دونِ اللَّهِ ، وذلك لأَنَّهم كانوا يُشرِكون [١/٢٨٢ظ] [3]مع اللَّهِ[3] ، كما قال الخليلُ : ﴿ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾ [الزخرف : ٢٦، ٢٧] . وهكذا هؤلاءِ الفتيةُ قال بعضُهم لبعضٍ[4] : إذْ قد فارقْتُم قَوْمَكم فى دِينِهم ، فاعْتَزِلُوهم بأَبدانِكم لِتَسْلَمُوا مِنهم أن يُوَصِّلُوا إليكم شَرًّا ﴿ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ أى ؛ يُسْبِلْ عليكم سِتْرَه ، وتكونوا تحتَ حِفْظِه وكَنَفِه ، ويجعلْ عاقبةَ

---

(١) البخارى (٣٣٣٦) .
(٢) سقط من : م .
(٣ - ٣) سقط من الأصل .
(٤) سقط من : م .

أمرِكم إلى خيرٍ، كما جاء فى الحديثِ[1] : «اللَّهُمَّ أَحْسِنْ عاقِبَتَنَا فى الأُمورِ كُلِّها، وأَجِرْنا مِن خِزْيِ الدُّنْيا، وَمِنْ عذابِ الآخِرَةِ». ثُمَّ ذَكَرَ تعالى صفةَ الغارِ الذى آوَوْا إليه، وأنَّ بَابَه مُوَجَّهٌ إلى نَحْوِ الشَّمالِ، وأَعْماقَه إلى جِهَةِ القِبْلَةِ، وذلك أَنْفَعُ الأماكنِ؛ أَنْ يكونَ المكانُ قِبْلِيًّا، وبابُه نَحْوَ الشَّمالِ، فقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ﴾ [2]وقُرِئَ: (تَزْوَرُّ)[2] ﴿عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ فأَخْبَرَ أنَّ الشَّمسَ، يَعْنى فى زَمَنِ الصَّيْفِ وأشباهِه، تُشْرِقُ أَوَّلَ طُلُوعِها فى الغارِ فى جانبِه الغَرْبِيِّ، ثُمَّ تَشْرَعُ فى الخروجِ منه قليلًا قليلًا، وهو ازْوِرارُها ذاتَ اليمينِ فتَرْتَفِعُ فى جَوِّ السَّماءِ وتَتَقَلَّصُ عن بابِ الغارِ، ثُمَّ إذا تَضَيَّفَتْ للغُروبِ، تَشْرَعُ فى الدُّخولِ فيه مِن جهتِه الشَّرْقِيَّةِ قليلًا قليلًا إلى حينِ الغُروبِ، كما هو المشاهَدُ فى مثْلِ هذا المكانِ، والحِكْمَةُ فى دخولِ الشَّمسِ إليه فى بعضِ الأَحيانِ أَنْ لا يَفْسُدَ هواؤُه ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أى؛ بقاؤُهم على هذه الصِّفَةِ دَهْرًا طويلًا مِن السِّنينَ، لا يَأْكُلُون ولا يَشْرَبُونَ، ولا تَتَغَذَّى[3] أجسادُهم فى هذه [4]المدَّةِ الطَّويلةِ[4] مِن آياتِ اللهِ وبُرْهانِ[5] قدرتِه العظيمةِ ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ قال بعضُهم: لأنَّ أَعْيُنَهم مفتوحةٌ؛ لئلا تَفْسُدَ بطولِ الغَمْضِ

---

(١) رواه أحمد. فى المسند ٤/ ١٨١. والطبرانى فى الكبير (١١٩٨)، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ١٠/ ١٧٨: رواه أحمد والطبرانى، ورجال أحمد وأحد أسانيد الطبرانى ثقات.
(٢ - ٢) سقط من الأصل، ص.
(٣) فى الأصل: «تعدى».
(٤ - ٤) فى الأصل: «المدد الطوال».
(٥) فى ص: «برهانه و».

﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ قيل: فى كلِّ عامٍ يَتَحوَّلون مرَّةً مِن جَنْبٍ إلى جَنْبٍ، ويُحْتَمَلُ أكثرُ مِن ذلك. فاللَّهُ أعلمُ. ﴿ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾ قال شُعَيْبٌ الجَبَائِيُّ: اسمُ كَلْبِهم حُمرانُ. وقال غيرُه: الوَصِيدُ أُسْكُفَّةُ[1] البابِ. والمرادُ أنَّ كَلْبَهم الذى كان معهم، وصَحِبَهم حالَ انفرادِهم مِن قومِهم، لَزِمَهم ولم يَدْخُلْ معهم فى الكَهْفِ، بل رَبَضَ على بابِه ووضَعَ يَدَيْه على الوَصيدِ، وهذا من جُمْلَةِ أَدَبِه، ومن جُمْلَةِ ما أُكْرِمُوا به؛ فإنَّ الملائكةَ لا تَدْخُلُ بيتًا فيه كلبٌ، ولمَّا كانتِ التَّبَعِيَّةُ مُؤَثِّرَةً، حتَّى[2] فى كلبِ هؤلاءِ، صار باقيًا معهم ببقائِهم؛ لأنَّ مَنْ أَحبَّ قومًا سَعِد بهم، فإذا كان هذا فى حقِّ كلبٍ فما ظَنُّك بِمَنْ تَبِع أهلَ الخيرِ وهو أهلٌ للإِكْرَامِ. وقد ذَكَرَ كثيرٌ مِن القُصَّاصِ [١/٢٨٣و] والمفسِّرين لهذا الكلْبِ نبأً وخبرًا طويلًا، أكثرُه مُتَلَقًّى مِن الإِسْرائيليّاتِ، وكثيرٌ منها كَذِبٌ، ومِمَّا لا فائدةَ فيه، كاختلافِهم فى اسمِه ولَوْنِه.

وأمَّا اختلافُ العلماءِ فى مَحلَّةِ هذا الكَهْفِ، فقال كثيرون: هو بأَرْضِ أَيْلَةَ. وقيل: بأَرْضِ نِينَوَى. وقيل: بالبَلْقاءِ. وقيلِ: ببلادِ الرُّومِ. وهو أَشْبَهُ. واللَّهُ أعلمُ. ولمّا ذَكَرَ اللَّهُ تعالى ما هو الأنفعُ مِن خَبَرِهم[3] والأَهمُّ مِن أمرِهم، ووَصَفَ حالَهم، حتى كأَنَّ السَّامِعَ راءٍ، والمُخْبَرَ مشاهِدٌ لِصِفَةِ كَهْفِهِم[4]، وكيفيَّتِهم فى ذلك الكهفِ وتَقَلُّبِهم مِن جَنْبٍ إلى جَنْبٍ، وأَنَّ كلبَهم باسِطٌ

---

(١) الأسكفة: عتبة الباب.

(٢) سقط من الأصل، وبعدها فى م: «كان».

(٣) فى ص: «خيرهم».

(٤) بعده فى ص: «وهيئتهم».

ذِراعَيْه بالوَصِيدِ . قال : ﴿ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ أى ؛ لِما عليهم مِن المهابةِ والجَلالَةِ فى أمرِهم الذى صارُوا إليه ، ولعلَّ الخِطابَ هـهنا لجِنْسِ الإنسانِ المخاطَبِ ، لا لخُصُوصِيَّةِ[1] الرّسولِ ﷺ ، كقولِه : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴾ [التين: ٧] أى ؛ أيُّها الإنسانُ ؛ وذلك لأَنَّ طبيعتَه البشريَّةَ تَفِرُّ مِن رُؤْيَةِ الأَشْياءِ المَهِيبَةِ غالبًا ، ولهذا قال : ﴿ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ ، ودَلَّ على أَنَّ الخبرَ ليس كالمعايَنَةِ ، كما جاء فى الحديثِ[2] ؛ لأَنَّ الخبرَ قد حَصَلَ ولم يَحْصُلِ الفِرارُ ولا الرُّعْبُ . ثُمَّ ذكر تعالى أنّه بعثَهم مِن رَقْدَتِهم بعدَ نَوْمِهم بثلاثِمائةِ[3] سنةٍ وتسعِ سنينَ ، فلمّا اسْتَيْقَظُوا ، قال بعضُهم لبعضٍ : ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ أى ؛ بدراهِمِكم هذه ، يَعْنِى التى معهم ، إلى المدينةِ ، ويقالُ : كان اسمُها دفسوسَ[4] . ﴿ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا ﴾ أى ؛ أطيبُ مالًا ﴿ فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ ﴾ أى ؛ بطعامٍ تأْكُلُونه ، وهذا من زُهْدِهم وَوَرَعِهم ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ أى ؛ فى دُخُولِه إليها ﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝١٩ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾ أى ؛ إنْ عُدْتُم فى مِلَّتِهم بعدَ إذْ أنقذَكُمُ اللَّهُ منها ؛ وهذا كلُّه لِظَنِّهِم أنَّهم إنَّما رَقَدُوا يومًا أو بَعْضَ يَوْمٍ أَوْ أَكْثَرَ مِن ذلك ، ولم يَحْسَبُوا أَنَّهم قَدْ رَقَدُوا أَزْيَدَ مِن ثَلاثِمائةِ سنةٍ وقد تَبَدَّلَتِ الدُّوَلُ أَطْوارًا عديدةً ، وتَغَيَّرَتِ البلادُ ومَنَ عليها ، وذهب أولئك القَرْنُ

---

(١) فى ح ، م ، ص : « بخصوصية » .

(٢) تقدم تخريجه فى صفحة ١٤٨ حاشية (٣) .

(٣) فى الأصل : « ثلاثمائة » .

(٤) كذا فى النسخ . وفى تفسير الطبرى ١٥/ ١٢٦، والكامل لابن الأثير ١/ ٣٣٥، والقرطبى ١٠/ ٣٧٥: « أفسوس » . وانظر معجم البلدان ١/ ٣٣٠.

الذين كانوا فيهم، وجاء غيرُهم وذهبُوا، وجاء غيرُهم؛ ولهذا لَمَّا خَرَج أَحدُهم، وهو تيذوسيسُ[1] فيما قيل، وجاء إلى المدينةِ مُتَنَكِّرًا؛ لئلَّا يَعْرِفَه أحدٌ مِن قومِه فيما يَحْسَبُه، تَنَكَّرتْ له البلادُ[2] واسْتَنْكَرَه مَنْ رآه مِن أَهْلِها، واسْتَغْرَبوا شَكْلَه وصِفَتَه ودراهِمَه. فيقالُ: إنَّهم حَمَلُوه إلى مُتَوَلِّيهم، وخافُوا مِن أَمْرِه أَنْ يكونَ جاسوسًا، أو تكونَ له صَوْلَةٌ[3] يَخْشَوْن [٢٨٣/١ظ] مِن مَضَرَّتِها[4]، فيُقَالُ: إنَّه هَرَبَ منهم. ويقالُ: بل أَخْبَرَهم خبرَه ومَنْ معه، وما كان من أمرِهم، فانطلَقُوا معه ليرِيَهُم مكانَهم، فَلَمَّا قَرُبُوا مِن الكَهْفِ، دَخَلَ إلى إخْوانِه، فأَخْبَرَهم حقيقةَ أَمْرِهم، ومِقدارَ ما رَقَدُوا، فَعَلِمُوا أَنَّ هذا (٥مِن قُدرةِ٥) اللَّهِ. فيُقَالُ: إنَّهم اسْتَمَرُّوا راقِدين. ويقالُ: بل ماتوا بعدَ ذلك.

وأَمَّا أهلُ البَلْدَةِ، فيقالُ: إنَّهم لم يَهْتَدُوا إلى موضِعِهم مِن الغارِ، وعَمَّى اللَّهُ عليهم أَمْرَهم. ويقالُ: لم يَسْتَطِيعُوا دخولَه حِسًّا. ويقالُ: مهابةً لهم.

واختلفوا فى أمرِهم؛ فقائلون يقولون: ﴿ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا ﴾ أى؛ سُدُّوا عليهم بابَ الكَهْفِ؛ لِئَلَّا يَخْرُجُوا أَوْ لِئَلَّا يصلَ إليهم ما يُؤْذِيهم، وآخرون، وهم الغالبون على أَمْرِهم، قالوا: ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ أى؛ مَعْبَدًا يكونُ مُبارَكًا لمجاورتِه هؤلاءِ[6] الصَّالحين. وهذا كان شائعًا

---

(١) فى الأصل: «تندرسيس»، وفى ح: «تيذرسيس»، والذى فى تفسير الطبرى ١٥/٢١٧، ٢١٨: يمليخا، وأن تيذوسيس اسم الملك الذى كان على المدينة حين قيامهم.

(٢) فى ص: «البلد».

(٣) فى الأصل، ح: «طوية».

(٤) فى الأصل، ح: «معرتها».

(٥ - ٥) فى الأصل، ح، م: «أمر قدره».

(٦) سقط من الأصل.

فيمَنْ كان قَبْلَنا، فأمّا في شَرْعِنا، فقد ثَبَتَ في «الصحيحَيْن»[1] عن رسولِ اللّهِ ﷺ، أنَّه قال: «لَعَنَ اللّهُ اليهُودَ والنَّصارَى، اتَّخذُوا قُبورَ أنْبيائِهم مَساجِدَ». يُحذِّرُ ما فَعَلوا. وأمّا قولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ فمعنى أَعْثَرْنا أَطْلَعْنا على أَمْرِهم النّاسَ. قال كثيرٌ مِن المُفَسِّرين: ليعلمَ النّاسُ أَنَّ المَعادَ حقٌّ، وأنّ السّاعةَ لا رَيْبَ فيها، إذا عَلِموا أَنَّ هؤلاءِ القومَ رَقَدُوا أَزْيَدَ مِن ثلاثمائة سنةٍ، ثُمَّ[2] قاموا، كَمَا كانوا مِن غيرِ تَغَيُّرٍ منهم، فإنَّ مَن أَبْقاهم كما هُم قادِرٌ على إعادةِ الأَبْدَانِ وإنْ أَكَلَتْها الدِّيدانُ، وعلى إحْياءِ الأَمْواتِ وإنْ صارَتْ أَجْسامُهم وعِظَامُهم رُفَاتًا، وهذا مِمّا لا يَشُكُّ فيه المؤمِنون ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]. هذا ويُحْتَمَلُ عَوْدُ الضَّميرِ في قولِه: ﴿لِيَعْلَمُوٓا﴾ إلى أصحابِ الكَهْفِ، إذ عِلْمُهم بذلك مِن أنفسِهم أَبْلَغُ مِن عِلْمِ غيرِهم بهم، ويُحْتَمَلُ أَنْ يعودَ على[3] الجميعِ. واللّهُ أعلمُ. ثُمَّ قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ﴾ فذَكَر اخْتِلافَ النَّاسِ في كَمِّيَّتِهم، فحَكَى ثلاثةَ أَقْوالٍ وضَعَّفَ الأَوَّلَيْنِ، وقَرَّرَ الثالثَ، فدَلَّ على أنّه الحقُّ؛ إذ لو قيلَ غيرُ ذلك لحكاه، ولو لم يكنْ هذا الثالثُ هو الصَّحيحَ لوَهّاه، فدَلَّ على ما قُلْناه، ولَمّا كان النِّزاعُ في مِثْلِ هذا لا طائلَ تحتَه ولا جَدْوَى عندَه، أَرْشَدَ نبيَّه ﷺ، إلى الأَدَبِ في مِثْلِ هذا [١/٢٨٤و] الحالِ، إذا

---

(١) البخاري (١٣٣٠)، ومسلم (٥٢٩).
(٢) في الأصل: «و».
(٣) في الأصل: «إلى».

اختلفَ النَّاسُ فيه ، أَنْ يقولَ : اللَّهُ أعلمُ . ولهذا قال : ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ . وقولُه : ﴿ مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ ﴾ أى ؛ مِن النَّاسِ ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا ﴾ أى ؛ سَهْلًا ، ولا تَتَكَلَّفْ إعمالَ الجِدالِ فى مِثْلِ هذا الحالِ ، ولا تَسْتَفْتِ فى أمْرِهم أَحَدًا مِن الرِّجالِ ؛ ولهذا أَبْهَمَ تعالى عِدَّتَهم فى أَوَّلِ القِصَّةِ ، فقال : ﴿ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ ﴾ ولو كان فى تَعْيينِ عِدَّتِهم كبيرُ فائدةٍ[1] لذَكَرَها عالِمُ الغَيْبِ والشَّهادَةِ . وقولُه تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴾ أدبٌ عظيمٌ أَرْشَدَ[2] اللَّهُ تعالى إليه ، وحَثَّ خَلْقَه عليه ، وهو ما إذا قال أحدُهم : إنِّى سأفعلُ فى المستقبلِ كذا . فيُشْرَعُ له أن يقولَ : إن شاءَ اللَّهُ . ليكونَ ذلك تحقيقًا لعَزْمِه ؛ لأَنَّ العبدَ لا يعلمُ ما فى غَدٍ ولا يَدْرِى أَهَذا الذى عَزَمَ عليه مُقَدَّرٌ أمْ لا ، وليس هذا الاستثناءُ تعليقًا ، وإنَّما هو تَحْقِيقىٌّ ، ولهذا قال ابنُ عَبَّاسٍ : إنَّه[3] يصحُّ إلى سَنَةٍ . ولكن قَدْ يكونُ فى بعْضِ المحالِّ لهذا ولهذا ، كما تقدَّمَ[4] فى قِصَّةِ سليمانَ ، عليه السّلامُ ، حينَ قال : لأَطُوفَنَّ الليلةَ على تسعين امرأةً ، تَلِدُ كُلُّ امرأةٍ[5] مِنهُنَّ غلامًا يُقاتِلُ فى سبيلِ اللَّهِ . فقيل له : قُلْ : إنْ شاء اللَّهُ . فلم يَقُلْ ، فطافَ ، فلم تَلِدْ مِنهُنَّ إلا امرأةٌ واحدةٌ نصفَ إنسانٍ . قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « والذِى نَفْسِى بيَدِه ، لَوْ قال : إن شاء اللَّهُ . لَمْ يَحْنَثْ ، وكان دَرَكًا لِحاجَتِه » .

---

(١) سقط من : ح .
(٢) فى م ، ص : « أرشده » .
(٣) سقط من : م .
(٤) تقدم تخريجه فى ص ٣٤٨.
(٥) فى م : « واحدة » .

وقولُه : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ . وذلك لأَن النِّسْيانَ قد يكونُ مِن الشَّيطانِ ، فذِكْرُ اللَّهِ يَطْرُدُه عن القَلْبِ ، فيَذْكُرُ ما كان قد نَسِيَه . وقولُه : ﴿ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ أى ؛ إذا اشْتَبَهَ أَمْرٌ وأَشْكَلَ حالٌ والْتَبَسَ أقوالُ الناسِ فى شىء ، فارْغَبْ إلى اللَّهِ (1 يُيَسِّرْه لك 1) ، ويُسَهِّلْهُ عليكَ ، ثمَّ قال : ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾ . لمّا كان فى الإِخْبارِ بطُولِ مُدَّةِ لُبْثِهم فائدةٌ عظيمةٌ ، ذَكَرَها تعالى ، وهذه التِّسْعُ المَزِيدَةُ بالقَمَرِيَّةِ ، وهى لتَكْميلِ ثلاثمائة شَمْسِيَّةٍ ، فإنَّ كُلَّ مِائةٍ قَمَرِيَّةٍ تَنْقُصُ عن الشَّمْسِيةِ ثلاثَ سنينَ ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ﴾ أى ؛ إذا سُئِلْتَ عن مِثْلِ هذا ، وليس عندَكَ فى ذلك نَقْلٌ ، فرُدَّ الأَمْرَ فى ذلك إلى اللَّهِ ، عَزَّ وجلَّ ﴿ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أى ؛ هو العالِمُ بالغيبِ ، فلا يُطْلِعُ عليه إلَّا مَنْ شَاء مِن خَلْقِه ﴿ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ﴾ يعنى ، أنَّه يَضَعُ الأَشياءَ فى مَحالِّها ؛ لِعِلْمِه[2] التَّامِّ بِخَلْقِه ، وبمَا يَسْتَحِقُّونه ، ثُمَّ قال : ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ أى ؛ بل هو المُنْفَرِدُ بالمُلْكِ والمُتَصَرِّفُ فيه ، وَحْدَه لا شريكَ له .

(1 - 1) فى ص : « يسرك » .

(2) فى الأصل ، ص : « بعلمه » .

قِصَّةُ الرجلَيْنِ ؛ المؤمِنِ والكافرِ

قال اللَّهُ تعالى فى سورةِ «الكَهْفِ»، بعدَ قِصَّةِ أصحابِ الكهفِ[1]:
﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ [١/٢٨٤ظ] جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ [الكهف: ٣٢- ٤٤]. قال بعضُ النَّاسِ: هذا مَثَلٌ مَضْرُوبٌ ولا يَلْزَمُ أن يكونَ واقعًا. والجمهورُ أنَّه أمْرٌ قد وقَع، وقولُه: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا ﴾ يعْنى لِكُفَّارِ قُرَيشٍ،

---

(١) التفسير ٥/١٥٣ - ١٥٦.

فى عَدَمِ اجْتِماعِهم بالضُّعَفَاءِ والفقراءِ، وازْدِرائِهم بهم، وافْتِخارِهم عليهم، كما قال تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس: ١٣]. كما قَدَّمنا الكَلامَ على قِصَّتِهم قبلَ قصَّةِ، موسى، عليه السلامُ[١]، والمشهورُ أنَّ هذَيْنِ كانا رجلَيْنِ مُصْطَحِبَيْنِ، وكان أحدُهما مُؤْمِنًا والآخَرُ كافِرًا، ويُقالُ: إنّه كان لكلٍّ منهما مالٌ، فأنْفَقَ المؤمنُ مالَه فى طاعةِ اللَّهِ ومرضاتِه ابتغاءَ وَجْهِه، وأمّا الكافرُ فإنه اتَّخذَ له بُسْتانَيْنِ[٢]، وهما الجَنَّتان المذكورتان فى الآيةِ، على الصِّفَةِ والنَّعْتِ المذكورِ؛ فيهما أعْنابٌ، ونَخْلٌ تَحُفُّ تلك الأَعْنابَ، والزروعُ فى خِلَالِ[٣] ذلك، والأنْهارُ سارحةٌ ههنا وههنا للسَّقْيِ والتَّنَزُّهِ، وقد اسْتَوْسَقَتْ[٤] فيهما الثِّمارُ، واضطَرَبَت فِيهما الأنهارُ، وابْتَهَجَت الزُّروعُ والثمارُ، وافْتَخَرَ مالِكُهما على صاحبِه المؤمنِ الفقيرِ قائلًا له: ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ أى؛ وأَمْنَعُ[٥] جَنَابًا[٦]. ومرادُه أنّه خيرٌ منه، ومعناه، ماذا أَغْنَى عنك إنْفاقُك ما كُنتَ تَمْلِكُه فى الوجهِ الذى صَرَفْتَه فيه؟ كان الأَوْلَى بك أنْ تفعلَ كما فعلتُ لتكونَ مِثْلى. فافتخَرَ على صاحبِه ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ أى؛ وهو على غيرِ طريقةٍ مَرْضِيَّةٍ ﴿ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ وذلك لِمَا رأى مِن اتِّساعِ[٧] أَرْضِها، وكثرةِ مائِها وحُسْنِ نباتِ [١/٢٨٥و] أَشْجارِها؛ ولو قد بادَتْ كُلُّ واحدةٍ مِن هذه

---

(١) انظر ما تقدم من ص ٨ - ١٣.
(٢) فى م: «بساتين».
(٣) سقط من: ح، م.
(٤) فى م، ص: «استوثق». واستوسق الشىء: اجتمع وانضم، الوسيط (و س ق).
(٥) فى الأصل: «أينع»، وفى ح، م: «أوسع».
(٦) فى ح، م، ص: «جنانا».
(٧) سقط من: ح.

الأشجارِ، لَاسْتَخْلَفَ مكانَها أَحْسَنَ منها، وزُرُوعُها دارَّةٌ[1] لكثرةِ مياهِها. ثم قَالَ: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ فوَثِق بزَهْرةِ[2] الحياةِ الدُّنيا الفانيةِ، وكَذَّبَ بوجودِ الآخرةِ الباقيةِ الدائمةِ، ثُمَّ قال: ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ أى؛ ولَئِنْ كان ثَمَّ آخِرةٌ ومَعادٌ، فَلأَجِدَنَّ هنالك خيرًا مِن هذا. وذلكَ لأَنَّه اغْتَرَّ بدُنياه، واعْتقدَ أَنَّ اللَّهَ لم يُعْطِه ذلك فيها إلَّا لحُبِّه له وحُظْوَتِه عندَه، كما قال العاصُ بنُ وائلٍ، فيما قَصَّ اللَّهُ مِن خبرِه وخبرِ خَبَّابِ ابنِ الأَرَتِّ فى قولِه: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴾ [مريم: ٧٧، ٧٨]. وقال تعالى إخبارًا عن الإنسانِ إذا أَنْعَمَ اللَّهُ عليه: ﴿ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ [فصلت: ٥٠]. قال اللَّهُ تعالى: ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [فصلت: ٥٠]. وقال قارونُ: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص: ٧٨]. أى؛ لعلمِ اللَّهِ فِيَّ[3] أَنِّى أستَحِقُّه. قال اللَّهُ تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [القصص: ٧٨]. وقد قَدَّمْنا الكلامَ على قِصَّتِه فى أثناءِ قصةِ موسى[4]. وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن

---

(١) فى الأصل: «دائرة».
(٢) فى الأصل: «من هذه».
(٣) فى ح، م: «بى»، وفى ص: «ربى».
(٤) انظر ما تقدم من ص ٣٠٩ - ٣١٢.

مَالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]. ولمَّا اغْتَرَّ هذا الجاهلُ بما خَوَّلَه اللَّهُ به فى الدنيا، فَجَحَدَ الآخِرَةَ، وادَّعى أَنَّها إنْ وُجِدَتْ لَيَجِدَنَّ عندَ ربِّه خيرًا مِمّا هو فيه، وسَمِعَه صاحِبُه يقولُ ذلك ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾ أى؛ يُجادِلُه ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ أى؛ أَجَحَدْتَ المَعَادَ وأَنت تعْلَمُ أَنّ اللَّهَ خَلَقَكَ مِن ترابٍ، ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ثُمَّ طَوَّرَكَ[1] أَطْوارًا، حتى صِرْتَ رجلًا سَوِيًّا سَمِيعًا بَصِيرًا، تَعْلَمُ وتَبْطِشُ وتَفْهَمُ، فكيف أَنْكرتَ المَعَادَ واللَّهُ قادرٌ على البَدَاءَةِ ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ اللَّهُ رَبِّى ﴾ أى؛ لكنْ أنا أقولُ بخلافِ ما قُلْتَ، وأعتقِدُ خلافَ مُعْتَقَدِك ﴿ هُوَ اللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ أى؛ لا أعبدُ سِوَاه، وأَعْتَقِدُ أَنَّه يَبْعَثُ الأَجْسادَ بعدَ فَنائِها، ويُعِيدُ الأَمْواتَ ويَجْمَعُ العِظَامَ الرُّفَاتَ، وأعلمُ أَنّ اللَّهَ لا شريكَ له فى خَلْقِه، ولا فى مُلْكِه، ولا إِلَهَ غيرُه، ثُمَّ أَرْشَدَه إلى ما كان الأَوْلَى به أَنْ يَسْلُكه عندَ دخولِ جَنَّتِه، فقال: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ ولهذا يُسْتَحَبُّ لكلِّ مَن أَعْجَبَه شَىْءٌ مِن مالِه أو أَهْلِه أو حالِه أنْ يقولَ كذلك.

[١/٢٨٥ظ] وقد ورَد فيه حديثٌ مرفوعٌ، فى صِحَّتِه نَظَرٌ؛ قال أبو يَعْلَى المَوْصِلِيُّ[2]: حَدَّثَنا جَرّاحُ بنُ مَخْلَدٍ، حدّثنا [3]عُمَرُ بنُ يونُسَ[3]، حدّثنا عيسى ابنُ عَوْنٍ، حدّثنا عبدُ الملكِ بنُ زُرَارَةَ، عن أنسٍ قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ:

---

(١) فى م: «صورك».

(٢) ذكره الحافظ ابن حجر في المطالب العالية ٣/ ٣٥٠، وعزاه لأبى يعلى من حديث أنس، والهيثمى فى مجمع الزوائد ١٠/١٤٠ وقال: رواه الطبراني فى الصغير والأوسط وفيه عبد الملك بن زرارة وهو ضعيف.

(٣ - ٣) فى ح: «عمر بن يوسف»، وفى م: «عمرو بن يوسف».

« مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً ؛ مِنْ أَهْلٍ أَوْ مَالٍ أَوْ وَلَدٍ ، فَيَقُولُ : مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ . فَيَرَى فِيهِ آفَةً دُونَ الْمَوْتِ » . وكان يَتَأَوَّلُ هذه الآيةَ : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ . قال الحافظُ أبو الفتحِ الأَزْدِيُّ : عيسى بنُ عَوْنٍ ، عن عبدِ الملكِ بنِ زُرارَةَ ، عن أَنَسٍ ، لا يَصِحُّ .

ثُمَّ قال المؤمنُ للكافرِ : ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ أى ؛ فى الدارِ الآخرةِ ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ قال ابنُ عباسٍ والضَّحّاكُ وقتادةُ[1] : أى ؛ عذابًا مِن السَّماءِ . والظاهرُ أنَّه المطرُ المُزْعِجُ الباهرُ ، الذى يَقْتَلِعُ زُروعَها وأشجارَها ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ وهو الترابُ الأَمْلَسُ الذى لا نباتَ فيه ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا ﴾ وهو ضِدُّ المَعِينِ السّارِحِ ﴿ فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾ يعنى ، فلا تَقْدِرُ على استرْجاعِه . قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ﴾ أى ؛ جاءَه أَمْرٌ أَحاطَ بجميعِ حواصِلِه ، وخَرَّبَ جَنَّتَه ، ودَمَّرَها ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ أى ؛ خَرِبَتْ بالكُلِّيَّةِ ، فلا عَوْدَةَ لها ، وذلك [٢]ضِدُّ ما كان عليه أَمَّلَ[٢] ، حيثُ قال : ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ ونَدِمَ على ما كان سَلَفَ مِنه مِن القَوْلِ الذى كَفَر بسَبَبِه باللَّهِ العظيمِ ، فهو يقولُ : ﴿ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ . قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ۝٤٣ هُنَالِكَ ﴾ أى ؛ لم يكنْ له أحدٌ يَتَدارَكُ ما فَرَطَ مِن أَمْرِه ، وما كان له قدرةٌ فى نفسِه على[٣] شَىْءٍ من ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾

---

(١) تفسير الطبرى ١٥/ ٢٤٩. والتفسير ٥/ ١٥٥.

(٢ - ٢) فى الأصل : « ضد ما كان أمل فيها » ، وفى ص : « بعد ما كان أقل منها » .

(٣) سقط من : ح .

[الطارق: ١٠]. وقولُه: ﴿ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾ ومنهم مَنْ يَبْتَدِئُ بقولِه: ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾ وهو حَسَنٌ أيضًا، كقولِه: ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢٦]. فالحكْمُ الذى لا يُرَدُّ ولا يُمَانَعُ ولا يُغَالَبُ - فى تلك الحالِ وفى كلِّ حالٍ - للَّهِ الحقِّ. ومنهم مَنْ رفَعَ ﴿ ٱلْحَقُّ ﴾ جعَلَه صفةً لِـ ﴿ ٱلْوَلَٰيَةُ ﴾ وهما مُتلَازِمَان[1]. وقولُه: ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ [(2)]أى؛ مُعامَلَتُه خيرٌ لصاحبِها ثوابًا، وهو الجزاءُ، وخيرٌ عُقْبًا[2)]؛ وهو العاقِبَةُ فى الدّنيا والآخرةِ.

وهذه القِصَّةُ تَضَمَّنَتْ أنّه لا يَنْبَغِى لأحدٍ أن يَرْكَنَ إلى الحياةِ الدُّنيا، ولا يَغْتَرَّ بها، ولا يَثِقَ بها، بل يَجْعَلَ طاعةَ اللّهِ والتَّوَكُّلَ عليه فى كُلِّ حالٍ نُصْبَ عَيْنَيْه، ولْيَكُنْ بما فى يدِ اللّهِ أَوْثَقَ منه بما فى يَدِه. وفيها، أَنَّ مَنْ قَدَّمَ شيئًا على طاعةِ اللّهِ والإنفاقِ فى سبيلِه، عُذِّبَ به، ورُبَّما سُلِبَ منه؛ [١/٢٨٦و] مُعامَلَةً له بنَقِيضِ قَصْدِه. وفيها، أنّ الواجبَ قَبولُ نَصيحةِ الأخِ المُشْفِقِ، وأنّ مُخالَفَتَه وَبَالٌ ودَمَارٌ على مَنْ رَدَّ النَّصيحةَ الصحيحةَ. وفيها، أَنَّ النَّدامةَ لا تَنفَعُ إذا حانَ القَدَرُ، ونَفَذَ الأمْرُ الحَتْمُ. واللّهُ المستعانُ وعليه التُّكْلانُ.

---

(١) فى ح، م: «متلازمتان».
(٢ - ٢) سقط من: ح.

قِصَّةُ أصحابِ الجَنَّةِ

قال اللَّهُ تعـالى[1] : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم: ١٧- ٣٣]. وهذا مَثَلٌ ضرَبَه اللَّهُ لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ، فيما أَنْعَمَ به عليهم مِن إرْسالِ الرسولِ العظيمِ الكريمِ إليهم، فقابَلُوه بالتَّكْذيبِ والمخالَفةِ، كما قالَ تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]. قال ابنُ عباسٍ: هم كفارُ قُرَيْشٍ. فضرَب تعالى لهم مَثَلًا بأصحابِ الجنَّةِ المُشْتَمِلَةِ على أنواعِ الزُّروعِ والثِّمارِ التى قد انتهَتْ، واسْتَحَقَّتْ أنْ تُجَدَّ؛ وهو الصِّرامُ، ولهذا قال: ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا۟ ﴾. فيما بينَهم ﴿ لَيَصْرِمُنَّهَا ﴾ أى؛ ليَجُدُّنَّها، وهو الاستغلالُ[2] ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ أى؛ وقتَ الصُّبحِ، حيثُ لا يَراهم فقيرٌ ولا مُحتاجٌ فيُعْطُوه شيئًا، فحلَفُوا على ذلك ولم

---

(١) التفسير ٨/ ٢٢٢، ٢٢٣.

(٢) استغل الضيعة: أخذ غلتها. الوسيط (غ ل ل).

يَسْتَثْنُوا فى يَمِينِهِم[1] ، فعَجَّزَهم اللّهُ ، وسَلَّطَ عليها الآفَةَ التى أَحْرَقَتْها ؛ وهى السُّفْعَةُ[2] التى اجْتاحَتْها ولم تُبْقِ بها شيئًا يُنْتَفَعُ به ؛ ولهذا قال : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾ أى ؛ كاللَّيْلِ الأَسْودِ المُنْصرِمِ من الضِّياءِ ، وهذه معاملةٌ بنَقِيضِ المَقْصودِ ﴿ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴾ أى ؛ فاسْتَيْقَظُوا من نومِهم ، فنادى بعضُهم بعضًا قائلين : ﴿ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴾ أى ؛ باكِرُوا إلى بُسْتانِكم فاصْرِمُوه قبلَ أنْ يَرْتَفِعَ النهارُ ويَكْثُرَ السُّؤّالُ ﴿ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴾ أى ؛ يتحدَّثون فيما بينَهم خُفْيَةً قائلين : ﴿ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾ أى ؛ اتَّفِقُوا على هذا ، واشْتَوِرُوا عليه ﴿ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴾ أى ؛ انْطَلَقوا مُجِدِّينَ فى ذلك قادرينَ عليه [3] مُصَمِّمِين مُصِرِّينَ [3] على هذه النِّيَّةِ الفاسدةِ . وقال عِكْرِمةُ والشَّعْبِىُّ[4] : ﴿ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ أى ؛ غَضَبٍ على المساكينِ . وأَبْعَدَ السُّدِّىُّ [١/٢٨٦ظ] فى قولِه ؛ أَنَّ اسمَ حَرْثِهِم حَرْدٌ ، ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا ﴾ أىْ ؛ وصَلُوا إليها ، ونَظَرُوا إلى ما حَلَّ بها ، وما قد صارَتْ إليه من الصِّفَةِ المُنْكَرَةِ بعدَ تلك النُّضْرَةِ والحُسْنِ والبَهْجَةِ ، فانقلبت بسببِ النِّيَّةِ الفاسدةِ ، فعندَ ذلك ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾ أى ؛ قد تُهْنا[5] عنها وسَلَكْنا غيرَ طَرِيقِها . ثم قالوا : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أى ؛ بَلْ عُوقِبْنا بسببِ سُوءِ قَصْدِنا ، وحُرِمْنا بركةَ حَرْثِنا ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ قال ابنُ عباسٍ ، ومُجاهدٌ ، وغيرُ

---

(١) فى ح : « نهيهم » .

(٢) فى الأصل ، ح ، ص : « السقعة » . والسفعة : السواد والشحوب . والسوافع : لوافح السَّموم . اللسان (س ف ع) .

(٣ - ٣) فى ح ، م : « مضمرين » .

(٤) التفسير ٨/ ٢٢٢.

(٥) فى م : « نهينا » .

واحدٍ[1] : هو أعدَلُهم وخيرُهم. ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ قيلَ: تَستَثنُون. قاله مجاهدٌ، والسُّدِّيُّ، وابنُ جُرَيْجٍ[2]. وقِيل: تقُولون خيرًا بَدَلَ ما قُلتُم من الشَّرِّ ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾ فنَدِموا حيثُ لا يَنْفَعُ النَّدَمُ[3]، واعْتَرَفوا بالذَّنبِ بعدَ العُقُوبةِ، وذلك حيثُ لا يَنْجَعُ، وقد قيل: إنَّ هؤلاءِ كانوا إخْوَةً، وقد وَرِثوا هذه الجنَّةَ عن أبِيهم، وكان يَتصدَّقُ منها كثيرًا، فلَمَّا صار أَمْرُها إليهم استَهْجَنُوا أمْرَ أبيهم، وأرادُوا استِغْلالَها من غيرِ أَنْ يُعْطُوا الفقراءَ شيئًا، فعاقَبهم اللَّهُ هذه[4] العُقوبةَ؛ ولهذا أمَرَ اللَّهُ تعالى بالصَّدَقةِ مِن الثِّمارِ، وحَثَّ على ذلك يومَ الجَدادِ، كما قال تعالى: ﴿ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [الأنعام: ١٤١]. ثُمَّ قِيلَ: كانوا مِن أهلِ اليَمَنِ مِن قريةٍ يُقالُ لها: ضَرَوَانُ[5]. وقيلَ: من أهلِ الحَبَشَةِ. واللَّهُ أعلمُ.

قال اللَّهُ تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ﴾ أي؛ هكذا نُعَذِّبُ مِن خالَفَ أَمْرَنا، ولم يَعْطِفْ على المَحاوِيجِ مِن خَلْقِنا ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ أى؛ أعْظَمُ وأَطَمُّ[6] مِن عذابِ الدنيا ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾.

وقِصَّةُ هؤلاءِ شَبِيهَةٌ بقولِه تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ

---

(١) تفسير الطبرى ٢٩/ ٣٤. والتفسير ٨/ ٢٢٣.
(٢) فى ح، م: «جرير».
(٣) سقط من: الأصل، ح، ص.
(٤) فى ح، م: «أشد».
(٥) فى الأصل: «حفروان».
(٦) فى ح، م: «أحكم».

فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [النحل: ١١٢، ١١٣]. قيل: هذا مَثَلٌ مضروبٌ لأهلِ مكةَ. وقيل: هم أهلُ مكةَ أنفُسُهم، ضَرَبَهم مَثَلًا لأَنْفُسِهم. ولا يُنَافِي[1] ذلك، واللَّهُ سبحانَه وتعالى أعلمُ.

(١) بعده في الأصل: «شيء من».

قِصَّةُ أَصْحابِ

أَيْلَةَ الَّذين اعْتَدَوْا فى سَبْتِهِم

قال اللَّهُ تعالى ، فى سورةِ « الأَعْرافِ »[1] : ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا [١/٢٨٧و] ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ [الأعراف: ١٦٣- ١٦٦] .

وقال تعالى ، فى سورةِ « البقرةِ »[2] : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٦٥، ٦٦] .

وقال تعالى ، فى سورةِ « النساءِ »[3] : ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [النساء: ٤٧] .

---

(١) التفسير ٣/ ٤٩١ - ٤٩٦.
(٢) التفسير ١/ ١٥٠ - ١٥٤.
(٣) التفسير ٢/ ٢٨٦.

قال ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، وقتادةُ[1]، والسُّدِّىُّ، وغيرُهم[2]: هم أَهْلُ أَيْلةَ. زادَ ابنُ عبّاسٍ[3]: بينَ مَدْيَنَ والطُّورِ. قالوا[4]: وكانوا مُتَمَسِّكِين بدِينِ التَّوْراةِ فى تحريمِ السَّبْتِ فى ذلك الزَّمانِ، فكانتِ الحيتانُ قد أَلِفَتْ منهم السَّكِينةَ فى مِثْلِ هذا اليومِ؛ وذلك أنَّه كانَ يَحْرُمُ عليهم الاصْطِيادُ فيه، وكذلك جميعُ الصنائعِ والتِّجاراتِ والمكاسبِ، فكانت الحيتانُ فى مِثْلِ يومِ السبتِ، يَكْثُرُ غَشَيانُها لمحَلَّتِهم مِن البَحْرِ؛ فتأْتِى مِن هـهنا وهـهنا ظاهِرةً آمِنةً مُسْتَرْسِلَةً، فلا يُهَيِّجُونها ولا يَذْعَرُونَها. ﴿ وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾ وذلك لأنَّهم كانوا يَصْطادُونها فيما عدا السبتِ. قال اللَّهُ تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم ﴾ أى؛ نَخْتَبِرُهم بكثْرةِ الحيتانِ فى يومِ السَّبْتِ. ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أى؛ بسَبَبِ فِسْقِهم المُتقدِّمِ، فلمَّا رَأَوْا ذلك، احْتالُوا على اصْطِيادِها فى يومِ السبتِ، بأَن نَصَبُوا الحِبالَ والشِّباكَ والشُّصُوصَ، وحَفَرُوا الحُفَرَ التى يَجْرِى معها الماءُ إلى مصانعَ قد أَعَدُّوها، إذا دَخَلَها السَّمَكُ لا يستطيعُ أن يَخْرُجَ منها، فَفَعَلُوا ذلك فى يومِ الجُمُعَةِ، فإذا جاءتِ الحيتانُ مُسْتَرْسِلَةً يومَ السبتِ؛ عَلِقَتْ بهذه المَصايدِ، فإذا خَرَج سَبتُهُم أَخَذُوها، فَغَضِبَ اللَّهُ عليهمْ ولَعَنَهم؛ لَمَّا احْتالُوا على خِلافِ أَمْرِه، وانْتَهَكُوا محارِمَه بالحِيَلِ التى هى ظاهِرَةٌ للنّاظِرِ، وهى فى الباطنِ مُخالَفَةٌ مَحْضَةٌ، فلمَّا فَعَل ذلكَ طائفةٌ منهم، افْتَرَقَ الذينَ لمْ يفْعلُوا ذلكَ فِرْقَتَيْنِ؛ فِرقةٌ أَنْكَرُوا عليهم صَنِيعَهم

---

(١) سقط من: ص.

(٢) تفسير الطبرى ٩/ ٩٠، ٩١. والتفسير ٣/ ٤٩٢. والدر المنثور ٣/ ١٣٦.

(٣) تفسير الطبرى ١/ ٣٣٠، ٩/ ٩٠. والتفسير ٣/ ٤٩٢.

(٤) تفسير الطبرى ١/٣٢٩ - ٣٣١ ، ٩/٩٣ - ٩٥ . والتفسير ١/ ١٥١، ١٥٢، ٣/٤٩٣ - ٤٩٥.

هذا ، واحْتيالَهُم على مُخالَفَةِ اللَّهِ وشَرْعِه فى ذلك الزَّمانِ ، وفرقةٌ أُخرَى لم يفعلُوا ولم يَنْهَوْا ، بل أنكَرُوا على الذين نَهَوْا ، وقالوا : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ يقولون لهم : ما الفائدةُ فى نهْيِكُم هؤلاءِ وقد استَحَقُّوا العُقُوبةَ لا مَحالَةَ ؟ فأجابَتْهم الطائِفةُ المُنْكِرَةُ بأن قالوا : ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ أى ؛ فيما أُمِرْنا به مِن الأمْرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عن المُنكَرِ ، فنقومُ به خوفًا من عذابِه . ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أى ؛ ولعلَّ هؤلاءِ يَتْرُكُون ما هم عليه مِن هذا الصَّنِيعِ ، فَيَقِيَهم اللَّهُ عذابَه ، ويَعْفُوَ عنهم إذا هم رَجَعُوا واسْتَمَعُوا . قال اللَّهُ تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ ﴾ أى ؛ لَمْ يَلْتَفِتُوا إلى مَن نَهاهم [١/ ٢٨٧ظ] عن هذا الصَّنيعِ الشَّنيعِ الفظيعِ ﴿ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ ﴾ [(١)]وهُم الفرقةُ الآمِرَةُ بالمعروفِ والنَّاهيةُ عن المُنْكَرِ[(١)] ﴿ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ وهم المُرْتَكِبُون الفاحِشَةَ ﴿ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ ﴾ وهو الشديدُ المُؤْلِمُ المُوجِعُ . ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ . ثُمَّ فَسَّر العذابَ الذى أصابَهم بقولِه : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ . وسَنَذْكُرُ ما وَرَدَ من الآثارِ[(٢)] فى ذلك .

والمقصودُ هنا أَنَّ اللَّهَ تعالى أَخبَرَ أنَّه أَهْلَكَ الظَّالِمِينَ ، ونَجَّى المُؤْمِنِين المُنْكِرِينَ[(٣)] ، وسَكَت عن السَّاكِتِين ، وقد اخْتَلَفَ فيهم العلماءُ على قَوْلَيْنِ ؛ فقيل : إنَّهم مِن النَّاجِين . وقيل : إنَّهم مِن الهالِكِينَ . والصَّحِيحُ الأَوَّلُ عند المُحَقِّقِين ، وهو الذى رَجَع إليه ابنُ عبَّاسٍ ، إمامُ المُفَسِّرِين ، وذلك عند مُناظَرَةِ

(١ - ١) سقط من : الأصل .
(٢) فى ح ، م : « الآيات » .
(٣) سقط من : الأصل .

مَوْلاه عِكْرِمَةَ ، فكَساهُ مِن أجْلِ ذلك حُلَّةً سَنِيَّةً ؛ تَكْرِمَةً . قلتُ : وإنَّما لم يُذْكَرُوا مع النّاجِينَ ؛ لأنَّهم وإنْ كَرِهُوا بِبَواطِنِهم تلك الفاحِشَةَ ، إلَّا أنَّهم كان يَنْبَغِي لهم أن يَحْمِلُوا ظواهِرَهم بالعَمَلِ المأمُورِ به مِن الإنْكارِ القَوْلِيِّ ، الذى هو أوْسَطُ المَراتِبِ الثلاثِ ، التى أعْلاها الإنكارُ ، باليدِ ، ذاتِ البَنانِ ، وبعدَها الإنكارُ القَوْلِيُّ باللسانِ ، وثالثُها الإنكارُ بالجَنانِ . فلمَّا لم [(1)]يُذْكَرُوا ، لم يُذْكَرُوا[1)] مع النّاجِينَ ، إذْ لم يفعلوا الفاحشةَ ، بل أنْكَرُوا . وقد رَوَى عبدُ الرَّزّاقِ[(2)] ، عن ابنِ جُرَيْجٍ ، عن رجُلٍ ، عن عِكْرِمَةَ ، عن ابنِ عبّاسٍ ، وحَكَى مالكٌ[(3)] ، عن ابنِ رُومانَ ، وشَيْبانُ ، عن قَتادَةَ ، وعطاءٌ الخُراسانيُّ[(4)] ، ما مَضْمُونُه أنَّ الذين ارْتَكَبُوا هذا الصُّنْعَ ، اعْتَزَلَهم بقيَّةُ أهْلِ البلدِ ، ونَهاهُم مَن نَهاهُم منهم ، فلم يَقْبَلُوا ، فكانوا يَبِيتُون وَحْدَهم ويُغْلِقُون بينَهم وبينَهم أبوابًا ، حاجِزًا لِما كانوا يَتَرَقَّبُون مِن هلاكِهم ، فأصْبَحُوا ذاتَ يومٍ وأبوابُ ناحِيَتِهم مُغْلَقةٌ لم يَفْتَحُوها ، وارْتَفَع النهارُ واشْتَدَّ الضَّحاءُ ، فأمَر بقيَّةُ أهلِ البلدِ رجُلًا[(5)] أن يَصْعَدَ على سَلالِمَ ، ويُشْرِفَ عليهم مِن فوقِهم ، فلمَّا أشْرَفَ عليهم ، إذا هُم قِرَدَةٌ لها أذنابٌ يَتعاوَوْنَ ويَتعادَوْنَ ، فَفَتَحُوا عليهم الأبوابَ فجَعَلَتِ القِرَدَةُ تَعْرِفُ قَراباتِهم ، ولا تَعْرِفُهمْ قَراباتُهم ، فجَعَلُوا يَلُوذُونَ بِهم ، ويَقولُ لهم النّاهُون : ألم نَنْهَكُم عن صَنيعِكُم ؟ فتُشِيرُ القِرَدَةُ برُءُوسِها أنْ نعم . ثُمَّ بَكَى عبدُ

(1 - 1) فى ح ، م : « يذكروا نجوا » . وفى ص : « يذكروا ولم ينكروا ونجوا » .

(2) تفسير عبد الرزاق 2/ 241 ، 242 .

(3) الطبرى فى تفسيره 9/ 96 ، 97 من طريق أشهب به ، وذكره المصنف فى التفسير 3/ 495 .

(4) رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره 1/ 209 من طريق شيبان به وقول عطاء ذكره المصنف فى تفسيره 1/ 151 .

(5) سقط من : ح . وفى الأصل ، ص : « لرجل » .

اللَّهِ بنُ عباسٍ ، وقال : إِنَّا لَنَرَى مُنْكَراتٍ كثيرةً ، ولا نُنْكِرُها ، ولا نقولُ فيها شيئًا . وقال العَوْفِيُّ ، عن ابنِ عباسٍ : صارَ شبابُ القريةِ قِرَدَةً ، وشُيوخُها خَنازِيرَ[(1)] . ورَوَى ابنُ أبى حاتمٍ[(2)] ، من طريقِ مُجاهِدٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، [(3)]أنَّهم لم يعيشوا إِلَّا فُوَاقًا[(4)] ، ثُمَّ هَلَكُوا ، ما كانَ لهم نَسْلٌ . وقال الضَّحَّاكُ عن ابنِ عباسٍ[(3)] : إنَّه لم يَعِشْ مَسْخٌ قطُّ فوقَ ثلاثةِ أيامٍ ، ولم يأْكُلْ هؤلاءِ ولم يَشرَبُوا ولم يَنْسِلُوا . وقد استَقْصَيْنا الآثارَ فى ذلك ، فى تفسيرِ سُورَتَى « البقرةِ » ، و « الأَعْرافِ » . وللَّهِ الحمدُ [١/٢٨٨و] والمِنَّةُ . وقد رَوَى ابنُ أبى حاتمٍ[(5)] ، وابنُ جريرٍ[(6)] ، مِن طريقِ ابنِ أبى نَجِيحٍ ، عن مجاهدٍ ، أنَّه قال : مُسِخَتْ قلوبُهم ، ولم يُمْسَخُوا قِرَدَةً وخنازيرَ[(7)] ، وإِنَّما هو مَثَلٌ ضَرَبَه اللَّهُ ، كمثلِ الحمارِ يَحْمِلُ أسْفارًا . وهذا صحيحٌ إليه ، وغريبٌ منه جدًّا ، ومُخالِفٌ لظاهِرِ القرآنِ ، ولِمَا نَصَّ عليه غيرُ واحدٍ مِن السَّلفِ والخَلَفِ . واللَّهُ أعلمُ[(8)] .

---

(١) تفسير الطبرى ٩/ ١٠١ . والتفسير ١/١٥١ . وتفسير ابن أبى حاتم ١/ ٢١٠.

(٢) تفسير ابن أبى حاتم ١/ ٢٠٩. وإسناده ضعيف .

(٣ - ٣) سقط من : ح .

(٤) الفواق : ما بين الحلبتين من الوقت .

(٥) تفسير ابن أبى حاتم ١/ ٢٠٩. وإسناده ضعيف .

(٦) فى ص : « جريج » . والأثر أخرجه ابن جرير فى تفسيره ١/ ٣٣٢، بدون قوله : « وخنازير » . قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره ١/١٥١ عقب إيراده الأثر من رواية ابن جرير : وهذا سند جيّد عن مجاهد . قلت : وبه يتقوّى سند ابن أبى حاتم ، حيث تابع عيسى أبا حذيفة .

(٧) سقط من : الأصل، ص . وهذا يوافق لفظ رواية ابن جرير ، حيث أشرنا فى الحاشية السابقة .

(٨) بعده فى ح ، م :
(قصة أصحاب القرية) - - تقدم ذكرها قبل قصة موسى ، عليه السلام . (قصة سبإ) : سيأتى ذكرها فى أيام العرب ، إن شاء اللَّه تعالى ، وبه الثقة . (قصة قارون وقصة بلعام) : تقدمتا فى قصة موسى . وهكذا (قصة الخضر) و (قصة فرعون والسحرة) : كلها فى ضمن قصة موسى . و (قصة البقرة) : تقدمت فى قصة موسى . وقصة ﴿ ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ : فى قصة حزقيل . وقصة ﴿ ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ ﴾ : فى قصة شمويل . وقصة (ٱلَّذِى مَرَّ على قَرْيَةٍ) : فى قصة عزير .

فهـــرس

الجزء الثانى من البداية والنهاية

تم بحمد اللهِ وتوفيقه الجزء الثانى

ويليه الجزء الثالث ، وأوله :

قصة لقمان



رقم الإيداع ١٩٩٧/٤٤٧٠ م
I.S.B.N : 977 – 256 – 146 – 8

هجر

للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان

المكتب : ٤ ش ترعة الزمر – المهندسين – جيزة
☎ ٣٤٥٢٥٧٩ – فاكس ٣٤٥١٧٥٦
المطبعة : ٢ ، ٦ ش عبد الفتاح الطويل
أرض اللواء – ☎ ٣٤٥٢٩٦٣
ص . ب ٦٣ إمبابة